# مجلة الهند

## مجلة فصلية محكمة

(المجلد: ١٣ العدد: ٤)

عدد خاص بسيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله

(الجزء العاشر)



مولانا آزاد ايديوكيشنال ترست
بولفور، بنغال الغربية، الهند

بدأ صدورها في 2012م الرقم الدولي: 7928-2321

# مـجـلـة الهـــند

## مجلة فصلية محكّمة

المجلد: 13 العدد: 4

أكتوبر-ديسمبر 2024م

**العـدد الخـاص**

**بسيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي رَحِمَهُ ٱللَّهُ**

**(الجزء العاشر)**

**مدير التحرير**

**د. أورنك زيب الأعظمي**

**المشارك في التحرير**

**د. هيفـــاء شاكـري**

**نائب مدير التحرير**

**د. محمد معتصم الأعظمي**

تـصـدر عـن

**مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست**

**بولفور، بنغال الغربية**

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

**عنوان البريد:**

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية رقم البريد: 731235

**الهيئة الاستشارية**

| | |
|---|---|
| د. مثنى حارث الضاري (العراق) | د. سناء شعلان (الأردن) |
| د. صالح البلوشي (عمان) | السيد محمد دانش الأعظمي (البحرين) |

**هيئة التحكيم**

| | |
|---|---|
| د. بشري زيدان (مصر) | د. حسن يشو (قطر) |
| د. عامر خليل الجراح (تركيا) | د. محمد فضل الله شريف (الهند) |

**هيئة التحرير**

| | |
|---|---|
| د. أورنك زيب الأعظمي (مدير التحرير) | د. هيفاء شاكري (المشارك في التحرير) |
| د. محمد معتصم الأعظمي (نائب مدير التحرير) | د. محمد شفاء الرحمن المدني (عضو) |

عنوان البريد الإلكتروني:

(1) aurang11zeb@yahoo.co.in

(2) azebazmi@gmail.com

موقع المجلة: www.azazmi.com

**الاشتراك السنوي:**

1000 روبية (للطلاب) 1500 روبية (للأساتذة والمكتبات)

## قواعد النشر في المجلة

بالنسبة للبحوث التي ترسل للنشر في المجلة، يرجى مراعاة القواعد الآتية:

1. تقبل المجلة نشر البحوث باللغة العربية، إذا توافرت فيها الشروط التالية:
   أ. أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه.
   ب. أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية والمعتبرة في مجاله.
   ج. أن يكون البحث دقيقًا في التوثيق والتخريج.
   د. أن يتسم بالسلامة اللغوية.
   ه. الأفضل أن يتناول البحث موضوعًا جديدًا ذا صلة بالعلوم العربية والإسلامية ومساهمة الهند في مختلف العلوم والفنون والآداب وما إليها.
2. ألا يزيد البحث عن خمسين صفحة، والرجاء من الباحثين استخدام (Amiri) على حجم 11.5.
3. ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قدّم لأي جهة أخرى من أجل النشر.
4. يرفق بالبحث ملخص له في حدود صفحة.
5. أن يقر صاحب البحث بأن بحثه عمل أصيل له.
6. تخضع البحوث إلى تحكيم لجان علمية أكاديمية متخصصة وفق المعايير المعتبرة.
7. تحتفظ المجلة بحقها في حذف أو إعادة صياغة بعض الكلمات والعبارات التي لا تناسب مع أسلوبها في النشر.

تعبر المقالات المنشورة عن آراء كاتبيها واجتهاداتهم الشخصية.

# في هــذا العــدد

**الصفحة**


| | | |
|---|---|---|
| **الافتتاحية** | - د. أورنك زيب الأعظمي | 9 |
| **مقالات وبحوث:** | | |
| الشيخ الإمام عبد الحميد الفراهي- حياته ومؤلفاته | - الأستاذ الدكتور علاء حسين فرج | 11 |
| أيّام الفراهي في علي كره | - د. هيفاء شاكري | 21 |
| الإمام عبد الحميد الفراهي مدرّسًا ومعلّمًا | - د. أبو ذر متين | 32 |
| الإمام الفراهي ـــ المفسّر الملهم | - د. محيي الدين غازي | 41 |
| العناصر الأساسية لأفكار العلّامة عبد الحميد الفراهي | - محمد أشرف الأعظمي<br>ترجمة: أ.د. محمد قطب الدين | 48 |
| علوم القرآن كما يراها الإمام الفراهي | - جنّت تفتاحي وسيّد محمد مرزائي الحسيني<br>ترجمة: محمّد أشرف حسين | 65 |
| محاولة جديدة لفهم النص القرآني على ضوء: "دلائل النظام" للفراهي | - د. عبد الوحيد شيخ | 90 |
| الحروف المقطعة عند الشيخ عبد الحميد الفراهي | - الشيخ أمين أحسن الإصلاحي<br>ترجمة: د. محفوظ الرحمن | 102 |
| الرُّدودُ اللُّغويَّةُ عِندَ عَبدِ الحَمِيدِ الفَراهِيِّ | - حسين علي عبد سالم | 107 |

| | | |
|---|---|---|
| بلاغة العرب | - الشيخ عبد المجيد الإصلاحي<br>ترجمة: د. محمد عمير بن أبي سفيان | 154 |
| جهود الإمام عبد الحميد الفراهي في اللغة العربية | - فاطمة سعد النعيمي | 166 |
| حواشي الفراهي على تفسير "موضح قرآن" | - محمد أكرم الندوي<br>ترجمة: د. هيفاء شاكري | 191 |
| هل "كانت العرب" فصيح أم "كان العرب"؟ | - د. أورنك زيب الأعظمي | 199 |
| **دراسات مقارنة:** | | |
| أصول التأويل بين الراغب الأصفهاني وعبد الحميد الفراهي، دراسة وموازنة | - د. محمّد يوسف الشريحي | 208 |
| جهود الإمام عبد الحميد الفراهي والسيّد محمد رشيد رضا في مجال تفسير القرآن الكريم، دراسة مقارنة | - د. منظر عالم | 266 |
| الترابط بين أفكار عبد الحميد الفراهي وسيّد قطب في النظريات الفنية للقرآن الكريم (دراسة تحليلية) | - د. سيّد محامد الهاشمي | 285 |
| أثر أفكار الفراهي على تفسير المودودي (دراسة تحليلية) | - د. محمد فضل الله شريف | 308 |

| | | |
|---|---|---|
| ترجمةُ الإمامِ حميدِ الدِّين الفَرَاهِيّ لخُطْبَتَيْ اللورد كرزون اللتين ألقاهُما فِي جَولتِه للخليج العربي (دراسة مقارنة) | - د. صُهيب عالَم | 328 |
| **قراءة في مؤلفات الفراهي:** | | |
| تفسير سورة الفيل للعلّامة عبد الحميد الفراهي | - الشيخ أبو الليث شير محمد الندوي ترجمة: د. محمد معتصم الأعظمي | 384 |
| مفردات القرآن بين الإمام عبد الحميد الفراهي والراغب الأصفهاني | - د. محمد البويسفي | 389 |
| مفردات القرآن للإمام الفراهي بين المعجمية اللسانية والسياقية التأويلية | - د. عامر خليل الجرّاح | 407 |
| العلّامة عبد الحميد الفراهي وإسهاماته في علوم القرآن بالتركيز على "مفردات القرآن" | - د. ك.م.ع. أحمد زبير | 421 |
| رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن (المجموعة الأولى) | - د. عظمت الله | 429 |
| "التكميل في أصول التأويل" لعبد الحميد الفراهي | إعداد: خليل اليماني ومحمود حمد | 437 |
| الرائع في أصول الشرائع | - د. غياث الإسلام الصديقي | 453 |
| إحكام الأصول بأحكام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ | - د. غياث الإسلام الصديقي | 460 |
| أسباب النزول | - د. غياث الإسلام الصديقي | 465 |

| | | |
|---|---|---|
| الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ | - د. غياث الإسلام الصديقي | 470 |
| حواشي الفراهي على كتاب: "الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس" | - د. غياث الإسلام الصديقي | 478 |
| التعليقات القرآنية للإمام الفراهي: خصائص وميزات | - البروفيسور أبو سفيان الإصلاحي ترجمة: د. محمد شفاء الرحمن المدني | 482 |
| نظرات في مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي (في ضوء ما نُشِرَ في "مجلة الهند" عن الإمام الفراهي) | - د. جمشيد أحمد الندوي | 522 |
| **شروح وتوضيحات:** | | |
| التفصيل بعد الإجمال | - الإمام عبد الحميد الفراهي تحقيق وتقديم: د. أورنك زيب الأعظمي | 718 |
| "فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا" | - د. أورنك زيب الأعظمي | 725 |
| "مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ" | - د. أورنك زيب الأعظمي | 732 |
| بلاغة الحذف في قوله تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ) | - د. أورنك زيب الأعظمي | 737 |

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

ISSN: 2321-7928

# الشيخ الإمام عبد الحميد الفراهي- حياته ومؤلفاته

- الأستاذ الدكتور علاء حسين فرج[1]

## المقدمة

قبل التعريف بالشيخ عبد الحميد الفراهي يجدر الالتفات إلى قضية عدم التواصل بين أركان الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة؛ فمن المؤلم حقًّا أن نعيش- نحن العربَ والمسلمين- بعقلية وروح الجُزُر المنعزلة؛ فلا تواصل، ولا تعارف، ولا اهتمام بالمتابعة بين المنشغلين بالهمِّ الثقافي والعلمي! وهذا في نطاق "المختصين" قبل أن يكون في دائرة "المهتمين" عمومًا!. فمن الواضح أننا نعيش رغم "ثورة الاتصالات" زمان "اللاتواصل"!. من أجل هذا أقدِّم هذه الإطلالة على عَلَمٍ كبير من شبه القارة الهندية، لا يكاد يعرفه إلا القليل من المختصين، رغم أنّ له جهودًا عظيمة في الثقافة العربية الإسلامية، لا سيما فيما يتعلق بالقرآن المجيد وعلومه.

## المبحث الأول

## ولادته

عبدُ الحَمِيد الفَرَاهِي (1280- 1349هـ / 1863- 1930م) علّامة مسلم هنديّ، تخصّص في علوم القرآن والتفسير وتدبُّر الآيات، وهو من علماء العربية وأديب شاعر، صنّف بالعربية والأُرْدِية والفارسية والإنجليزية، وتعلّم العبرية.

هو حَميد الدين، أبو أحمد، عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي، الأنصاري الفَراهي.

وُلد في قرية (فَرِيها) من قرى مدينة أعظم كره، صباح يوم الأربعاء 6 جُمادى

[1] رئيس جامعة الأرائك الدولية بالعراق

الآخرة 1280هـ الموافق 17 نوفمبر (تشرين الثاني) 1863م. لأسرة كريمة معروفة بنسبها وعلمها ومكانتها الاجتماعية، ويُعَدّ أهلها من أعيان المِنطَقة ووجهائها.

حفظ القرآن صغيرًا وهو ابن عشر سنين، وبرع في اللغة الفارسية حتى نَظَم فيها الشعر وهو ابن ستةَ عشرَ عامًا، ثم انتقل من قريته إلى مدينة أعظم كره، واشتغل بطلب العربية وعلومها على يد ابن عمّته شِبْلي النُّعماني (ت 1332هـ)، وكان أكبرَ منه بست سنين. ثم انتقل إلى مدينة لكنو (لكناؤ) وحضر دروس العلامة الفقيه الحنفي المحدِّث أبي الحسنات عبد الحي اللّكْنوي (ت 1304هـ)، والشيخ فضل الله بن نعمة الله الأنصاري (ت 1312هـ) وغيرهما. ثم سافر إلى لاهور للدراسة على أديب العربية العلّامة الشاعر فيض الحسن السهارنفوري (ت 1304هـ) المدرِّس في الكلية الشرقية هناك، فقرأ عليه قراءة خاصة كتب الأدب العربي، منها كتابه (رياض الفيض) وهو شرح للمعلقات السبع في ثلاث لغات: العربية والفارسية والأُرْدية.[1]

## المبحث الثاني

## تحصيله وعلمه

بدأ الفراهي تعليمَه في سنّ مبكرة، فحفظ القرآن صغيرًا، وبرع في الفارسية حتى نظم فيها الشعر وهو ابن ستة عشر عامًا، ثم اشتغل بطلب العربية وعلومها على يد ابن عمته المؤرخ الأديب شبلي النعماني (1274 -1332هـ/ 1858-1914م)، كما تلقى العلم في حلقة الفقيه الحنفي المحدث الشيخ أبي الحسنات محمد عبد الحيّ اللكنوي (1264-1304هـ/ 1848 -1887م) وغيره من علماء عصره، ثم سافر إلى لاهور واستفاد من الشيخ فيض الحسن السهارنفوري- شارح الحماسة وأستاذ اللغة العربية في كلية العلوم الشرقية بلاهور- فبرع في الآداب العربية، وفاق أقرانه في الشعر والإنشاء.

قرأ دواوين الجاهلية كلها، وحلّ عقد معضلاتها، وقنص شواردها، فكان يقرض

[1] هذا الشرح بالعربية، وإنما ترجمة الأبيات بالأردية والفارسية. (مدير التحرير)

القصائد على منوال الجاهليين، ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصائحهم. ثم عرج على اللغة الإنجليزية وهو ابن عشرين سنة، والتحق بكلية (عليكره) الإسلامية، وحصل على الإجازة الجامعية في الفلسفة الحديثة من جامعة (الله آباد).

كتب وألّف وقرض وأنشد، ثم انقطع إلى تدبر القرآن ودرسه، والنظر فيه من كل جهة، وجمع علومه من كل مكان، فقضى فيه أكثر عمره، ومات وهو مكبّ على أخذ ما فات العلماء، ولفّ ما نشروه، ولمّ ما شتّتوه، وتحقيق ما لم يحقّقوه، فكان لسانه ينبع علمًا بالقرآن، وصدره يتدفق بحثًا عن مشكلاته، وقلبه يجري كشفًا عن معضلاته، حتى وافته المنية في (1349/06/19هـ /1930/11/11م) في مدينة (متهورا) حيث كان يتطبب من مرض ألمّ به.

عيّن أستاذًا للغة العربية بكلية عليكره الإسلامية، وكان بها يومئذ أستاذ اللغة العربية المستشرق الألماني الشهير يوسف هارويز، الذي استكمل العربية من الفراهي، وقرأ عليه الفراهي العبرية. ثم عيّن أستاذًا بجامعة الله آباد، وبقي فيها أعوامًا حتى انتقل منها إلى حيدر آباد الدكن، رئيسًا لمدرسة دار العلوم النظامية، التي كانت تخرج قضاة البلاد وولاتها. وعمل على تأسيس (الجامعة العثمانية)، والتي كانت من أحدث جامعات العالم سنًّا، وأعجبها نظامًا.

ثم استقال ولزم بيته، وانقطع إلى العلم، وكان قد أسّس قرب قريته مدرسة عربية دينية، سمّيت (مدرسة الإصلاح) فكان ينظر في شؤونها، وكان من أعظم مقاصدها وأهدافها تحسين طريق تعليم العربية، وإيجاز قائمة دروسها المتعبة العقيمة، وإلغاء العلوم البالية القديمة، والعكوف على طلب علوم القرآن، والبحث عن معانيه ونظمه، وأحكامه وحكمه.

كان الفراهي نموذجًا مشرقًا للعالم المسلم، جامعًا بين التبحر في العلوم العربية والدينية، والاطلاع الواسع على العلوم العصرية والطبيعية، وقد ظهر أثر هذه الثقافة الموسوعية العميقة في ما كتب من مصنفات قاربت الخمسين مصنفًا، أهمها وأعظمها ما كتبه

حول القرآن المجيد وتأويله ونظامه، وكذلك ما كتبه حول الحديث الشريف والأدب العربي والفلسفة الأخلاقية والمنطق، بالإضافة إلى الكثير من الشعر الراقي في كلّ من اللسانين العربي والفارسي، وفي ذلك يقول أبو الحسن الندوي: "ولا يتأتى ذلك إلا لمن جمع بين التدبر في القرآن والاشتغال به، والتذوق الصحيح لفن البلاغة والمعاني والبيان في اللغة العربية، وبين التشبع من دراسة بعض اللغات الأجنبية والصحف السماوية القديمة، وسلامة الفكر ورجاحة العقل والتعمق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".[1]

كان الفراهي- كما يقول عنه أحد أبناء مدرسته-: "غاية، بل آية في حدة الذكاء، ووفور العقل، ونفاذ البصيرة، وشدة الورع، وحسن العبادة، وغنى النفس. ولئن تأخر به زمانه، فقد تقدّم به علمه وفضله".[2]

رصد محمد أجمل أيوب الإصلاحي في مقدمته الضافية لكتاب "مفردات القرآن" للفراهي مصنفاته رصدًا دقيقًا، محدّدًا المطبوع منها والمخطوط، وبلغ بجملتها واحدًا وخمسين مصنفًا؛ عشرون منها مطبوعة، وبقيتها لا تزال مخطوطة، وجلّ المطبوع منها في حكم المخطوط؛ إذ لم يطبع إلا طبعة أو اثنتين منذ زمان طويل، ونشر في الهند، وطبع بالخط الفارسي على الطريقة الهندية (الأشبه بخط اليد).

## المبحث الثالث

## آثاره ومؤلفاته

**مصنفاته القرآنية:**

**أولًا: مصنفاته في التفسير**

*** المطبوع:**

- تفسير فاتحة نظام القرآن (مقدمة تفسيره: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان).

[1] مجلة الهند، 65/2/8

[2] مفردات القرآن، ص 40

تفسير الفاتحة والبسملة. تفسير سورة البقرة (62 آية منها، في 65 فصلًا، ونحو 300 صفحة. ط1/1420هـ -2000م). تفسير سورة الذاريات (50 صفحة). تفسير سورة التحريم. تفسير سورة القيامة (22 صفحة). تفسير سورة المرسلات (20 صفحة). تفسير سورة عبس (25 صفحة).

تفسير سورة الشمس. تفسير سورة التين. تفسير سورة العصر. تفسير سورة الفيل. تفسير سورة الكوثر. تفسير سورة الكافرون. تفسير سورة اللهب (29 صفحة). تفسير سورة الإخلاص (وهي السورة الوحيدة التي كتب تفسيرها بالأردية).

والتعليقات في التفسير.

**وثانيًا: مصنفاته في علوم القرآن:**

**المطبوع:**

- دلائل النظام (127 صفحة، ط1/1388هـ). مفردات القرآن (475 صفحة، بتحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي، ط1/2002م). إمعان في أقسام القرآن (147 صفحة، ط1/1415هـ-1994م). التكميل في أصول التأويل (69 صفحة، ط1/1388هـ). مجموعة رسائل الفراهي. أساليب القرآن. أساليب النزول. حجج القرآن (ذكر في "تفسير سورة الفاتحة" أنه طبع للمرة الأولى 2003م). حكمة القرآن. الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ.

*** المخطوط:**

- أوصاف القرآن. تاريخ القرآن. فقه القرآن.

والجدير بالذكر أنّ معظم ما نشره الفراهي من مؤلفات كان باللغة العربية التي شغف بها، وآثرها على لغته الأصلية، وحينما سئل عن سبب كتابته بالعربية مع حاجة قومه إلى الكتابة بالأردية، قال: (أردت لكتبي الخلود).

## المبحث الرابع

## نظرية (نظام القرآن)

انقطع الفراهي فترة طويلة من عمره إلى تدبر القرآن ودرسه، والنظر فيه من كلّ جهة، وكان من أعظم ما اهتم به ترتيب بيانه، وتنسيق نظام آياته، منطلقًا من أنّ كل ما تقدم من سوره وتأخر، إنما بني على الحكمة والبلاغة، ورعاية مقتضى الكلام، فلو قدّم ما أخّر، أو أخّر ما قدّم؛ لبطل النظام، وفسدت بلاغة البيان. وقد أداه تدبره هذا في كتاب الله وحسن قراءته إياه إلى استنباط ما سمّاه بـ(علم النظام) وتحديد أصوله، وذلك بعد أن نظر في ما قاله علماء القرآن في التناسب والترابط المحفوف بهما كلام الله تعالى (آيات وسور)، فوجده- بحسب قوله- غير كافٍ ولا شافٍ على ما فيه من أهمية (الكشوف الأولى) إذا صحّ التعبير! ولذلك عمل على تطويره وتعميقه حتى يجعل منه فنًا مستقلًا قائمًا على أصول راسخة، وقواعد واضحة مستنبطة من أساليب القرآن وقواعد اللسان، وجاء في تقريره بما لم يهتد إليه أحد ممن سبقه؛ مما يفتح للمتدبرين في كتاب الله بابًا عظيمًا لفهم أسراره وبلاغته، ويسهل عليهم الانتفاع به علمًا وعملًا.

وقد ألمح إلى أنّ اهتمام السابقين كان منحصرًا في الكشف عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام من أوله إلى آخره حتى يصير بها شيئًا واحدًا. ورأى أنهم قنعوا في ذلك بمجرد بيان المناسبة بينهما، من غير أن ينظروا- في غالب أعمالهم- إلى أمر عام شامل ينتظم به محتوى الآية أو السورة، ومن أجل ذلك اهتم في (دلائل النظام) بالتفرقة بين (التناسب) و(النظام)، منبّهًا إلى أنّ ما يعنيه بـ(النظام) ليس مجرد تناسب؛ وفي تقرير هذا يقول: "قد صنّف بعض العلماء في تناسب الآيات والسور، أما الكلام في نظام القرآن فلم أطلع عليه، والفرق بينهما أنّ التناسب إنما هو جزء من النظام؛ فإنّ التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئًا واحدًا مستقلًا بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم

اتصالها؛ فإنّ الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها، ولولا ذلك لما عجز الأذكياء عن إدراك التناسب".[1]

وأوضح الفراهي "أن المراد بـ(النظام) أن تكون السورة كلامًا واحدًا، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد منها، فكما أنّ الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السورة معترضة"، وبناء على هذا الأصل رأى "أن القرآن كله كلام واحد، ذو مناسبة وترتيب في أجزائه، من الأول إلى الآخر؛ فتبين مما تقدم أنّ (النظام) شيء زائد على (المناسبة) وترتيب الأجزاء".[2] فلا جرم إذن أن تعدل معرفة النظام والربط عند الفراهي نصف القرآن! فمن فاته النظام والربط فاته شيء كثير من فهم روح القرآن، فبـ(النظام) يتبين- بحسب الفراهي- سمت الكلام، والانتفاع بالقرآن، والاستفادة من موقوفه على فهمه، ولا يمكن فهم الكلام إلا بالوقوف على تركيب أجزائه، وبيان تناسب بعضها لبعض؛ لأنّ الاطلاع على المراد من معاني الأجزاء لا يتأتى إلا بعد الوقوف على الناحية التأليفية ومواقع كل جزء منها.

وتأسيسًا على ما تقدم، يؤكد الفراهي "أنّ نظام القرآن ليس مقصودًا لذاته، وإنما هو المنهاج الصحيح لتدبر القرآن، وهو المرجح عند تضارب الأقوال، وهو المعين عند تعدد الاحتمالات، وهو الإقليد الذي تفتح به كنوز القرآن". في تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" حاول الفراهي تطبيق نظريته في (النظام) التي عرض لها في كتابه "دلائل النظام" عمليًا، ووضع لذلك عنوانًا عامًا هو: "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، وأنجز بالفعل تفسير عدد من السور، اختارها قصدًا؛ لما أشكل من نظامها أو أساليبها على كثير من المفسرين، وليحاول من ثم تطبيق نظريته عمليًا، ويبدو أنه كان ينوي إكمال تناول القرآن المجيد كاملًا على هذا النسق، ولكن الأجل اخترمه قبل أن يحقّق ذلك.

[1] دلائل النظام، ص 87-89

[2] المصدر نفسه

كانت سبيله في معرفة (النظام)- بحسب الكيفية التي بيّنها في "دلائل النظام"- تبدأ بالسعي إلى استخراج ما سمّاه: (عمود السورة)، الذي يعني به "العنوان الرئيس للسورة من القرآن"؛ فمعرفته تؤدي إلى معرفة نظام القرآن كله، ولم يكن يعتمد في استخراج هذا العمود على حشد الأقاويل والروايات التي تملأ كتب التفسير؛ بل كان يعمد مباشرة إلى تدبر القرآن، والنظر في معانيه وأهدافه نظر المطلع الخبير؛ ليهديه هذا التأمل المجرد إلى معرفة العمود، ومن ثم إدراك النظام. وقد صرح بصعوبة هذه العملية المعرفية لاستخراج (عمود السورة)، ثم عدد أهم أسباب هذه الصعوبة، والتي يمكن تلخيصها في كون القرآن نزل متشابهًا مثاني، وأنّ الكتاب نزل بالحكمة التي لا تتأتى بمجرد إلقاء المعارف، بل بإعمال الفكر والعقل، ثم كون ما جاء به القرآن من نهاية الإيجاز هو مدار الإعجاز.

وكان جلّ اعتماده في "تفسيره" هذا على القرآن نفسه، ويظهر هذا من تسميته إياه بـ"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، فعطف "تأويل الفرقان" على "نظام القرآن" عطف العام على الخاص، وقدم "النظام" الخاص تنويهًا بشأنه، وتنبيهًا إلى إغفال الناس عنه مع أهميته البالغة في فهم القرآن. ثم اعتمد صحاح الأحاديث في التفسير، واعتنى بتحقيق ألفاظ القرآن وأساليبه، بتعمق وفحص لمقولات الأسبقين، ولم يعرج على الإسرائيليات المنقولة في كتب التفسير، بل رجع إلى الصحف الموجودة بأيدي اليهود والنصارى، ولا سيما أنه درسها دراسة نقدية متعمقة، مع معرفته باللغة العبرانية، واطلاعه على الدراسات التي قامت حولها في الغرب.

وتوافر على دراسة معاني القرآن دراسة عميقة مفصّلة، وتراءى له أن للقرآن نظامًا عامًّا في جميع سوره، سمّاه عمود السورة، وهو ما يسمّيه بعض المعاصرين "الوحدة الموضوعية" للسورة. قال محمد أجمل الإصلاحي: "وكان يعكف كلّ يوم بعد قيام الليل على تدبّر القرآن الكريم، ثم يشتغل بالبحث والنظر والتأليف، ويستمرّ على ذلك بعد صلاة الفجر إلى الساعة التاسعة صباحًا، وظلّ ذلك دأبه أكثر من ثلاثين سنة،

ولما استقال من عمادة دار العلوم بحيدر آباد صار يقضي معظم وقته في تدبّر القرآن والتأليف فيه".[1]

## المبحث الخامس

## موته خسارة علميّة عظيمة

أنهكته الأمراض في آخر حياته حتى توفي رحمه الله وهو يتلو القرآن، في شهر جمادى الآخرة من عام 1349هـ، بعد عملية جراحية أجريت له.

والرجل لذكائه وسعة اطلاعه ودقّة ملاحظاته يستخرج فوائد يعزّ وجود مثلها في كثير من التفاسير، وهو من أهل الصدق والفضل فيما نحسب، وقد أجهد نفسه في البحث والتحرير إجهادًا كبيرًا، لكن لا ينبغي أن يُؤخذ كلامه على علاته، بل يُمرّ على مشرح التمحيص.

[1] مفردات القرآن، ص 27

## المصادر والمراجع


1. "حميد الدين الفراهي". معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين. مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري. مؤرشف من الأصل في 2014-11-29. اطلع عليه بتاريخ محرم 1436هـ.
2. أحمد عبد الرحيم. "الشيخ عبد الحميد الفراهي .. صاحب نظرية "نظام القرآن"". إسلام أونلاين. مؤرشف من الأصل في 2023-09-25.
3. حسن يشو (2019). "الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في خدمة القرآن وعلومه". نيل وفرات .كوم. مؤرشف من الأصل في 2024-01-26.
4. محمد أجمل أيوب الإصلاحي (2002). مفردات القرآن (ط. 1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
5. محمد فريد راوي (2015). "الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن". المستودع الدعوي الرقمي.

ISSN: 2321-7928

# أيّام الفراهي في علي كره

- د. هيفاء شاكري[1]

## تمهيد

تعتبر مدينة علي كره في ولاية أترابراديش (بالهند) من المراكز التعليمية الهامة في البلاد، وذلك لوجود جامعة علي كره الإسلامية إضافة إلى مدارس ومؤسّسات أنشئت لنشر التعليم والثقافة. ويفد إليها عدد كبير ممن يرغب في نهل العلم والمعرفة سواء من العلماء والمثقفين أو الطلّاب من داخل الهند أو خارجها. ولكليات الجامعة الإسلامية وأقسامها العلمية والأدبية مكانة مرموقة في الأوساط العالمية، فخرّيجوها منتشرون في جميع أنحاء العالم يخدمون المجتمعات في مجالات الطب والهندسة والفنون الأدبية، ويعرفون بلقب: "عليك" نسبة إلى جامعة علي كره الإسلامية.

أنشئت الجامعة عام 1875م باسم مدرسة العلوم بجهود حثيثة من السير سيّد أحمد خان ومساندية الذين دعوا إلى تعليم المسلمين وتثقيفهم بالعلوم الحديثة بجانب التعليم الديني الأساسي. ثم أصبح اسمها الكلية المحمدية الشرقية Mohammedan Anglo Oriental Collage عام 1877م، وقد حاول السير سيّد استقدام أفضل المعلّمين لتعليم الطلّاب في الكلية لرفع المستوى العلمي لها وجعلها متميزة بين الكليات والجامعات الأخرى في العالم. وجدير بالذكر أنّ الكلية تحوّلت إلى جامعة وأصبح اسمها "جامعة علي كره الإسلامية" عام 1920م، ومن أراد الاستزادة والتعرف على تفاصيل أكثر عن الجامعة فيمكنه العودة إلى كتاب "مدرسة العلوم بعلي كره، تاريخها وأثرها في المجتمع" (تأليف: البروفيسور ظفر الإسلام الإصلاحي، ترجمة: محمد

[1] مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

شفاء الرحمن المدني)، الذي نشر من مطبعة مركزي ببليكيشنز، نيودلهي عام 2023م.

في هذا المقال سنلقي الضوء على الفترة التي قضاها حميد الدين الفراهي (عبد الحميد) في رحاب هذه الجامعة وكيفية قضائه لها أثناء تعليمه اللغة العربية لطلّابها، حيث خصّص هذا العدد من "مجلة الهند" للإحاطة بجوانب حياته ونتاجه الفكري وهو العدد العاشر. سبقته تسعة أعداد خاصة ضخمة تم التعريف فيها بشخصيته وجهوده.

**الفراهي ومدينة علي كره:** تنقسم الفترة التي قضاها الفراهي في مدينة علي كره إلى مرحلتين: المرحلة الأولى حين قدم إليها للدراسة والتحصيل العلمي، والمرحلة الثانية حين جاءها معلمًا وأستاذًا. وسنتحدّث عن كل فترة وما كان فيها من مشاغل كل على حدة.

## القدوم إلى علي كره للدراسة والتعلم (19 مايو 1891-1895م)

قدم الفراهي إلى علي كره للتعلم بتشجيع من ابن عمته شبلي النعماني، والذي كان مدرسًا في الكلية الشرقية في تلك الفترة. وقد دعاه إلى علي كره لتعلم اللغة الإنجليزية وتحصيل العلوم العصرية. ويذكر الشيخ أمين أحسن الإصلاحي أنه، بعد فراغه من تعلم اللغة العربية والعلوم الدينية، حضر إلى كلية علي كره لتعلم اللغة الإنجليزية. وحسب ما تذكر المصادر فقد تم إعفاؤه أثناء الدراسة من حصص اللغة العربية والفارسية والدين لأنه كان صاحب معرفة عميقة فيها. وكان من الضروري للدراسة في الكلية في تلك الفترة أن يدرس كلّ طالب اللغة العربية والفارسية مهما كانت المادة الأساسية التي سجّل فيها. وكان الإعفاء بطلب مباشر من السير سيّد أحمد خان الذي كتب للسيّد توماس أرنولد المدير الإنجليزي بأنّ هذا الطالب يفوق أساتذة القسم في قدراته في اللغة العربية والفارسية لذا نرجو إعفاءه من حصص هذه المواد.

وقد حصل الفراهي أثناء مكوثه في علي كره على شهادة الثانوية العامة من جامعة الله آباد عام 1893م بتقدير جيّد جدًا. والظاهر أنّ هذا النظام كان يعمل به في تلك الفترة حيث حصل كل من مولانا شوكت علي والدكتور عبد الحق على شهادة

الثانوية العامة في نفس السنة من الجامعة نفسها كما تذكر السجلّات. ثم حصل على البكاريوس كذلك عام 1885م وهي سنة مغادرته علي كره بعد التحصيل العلمي.

وكان الفراهي في علي كره يعيش في كنف شبلي النعماني حيث كان شبلي من أهم أساتذة الكلية والفراهي من أعز طلابه إضافة إلى كونه ابن خاله، فكان يجد منه الرعاية والاهتمام. أما الفراهي فكان بمثابة شخص يثق به شبلي ويعتمد عليه في كثير من أموره. وعلى سبيل المثال حين مرض شبلي عام 1829م ولم يكن يقوي على كتابة الرسائل الضرورية، كان يمليها للفراهي فيكتبها له ويرسلها. وكذلك حين سافر شبلي إلى تركيا، عهد إلى الفراهي مسؤولية العناية بطلابه والاهتمام بهم.

ونذكر فيما يلي بعض الأعمال العلمية التي قام بها الفراهي أثناء دراسته في علي كره:

1. **تصحيح وترميم مخطوط قديم:** كان السير سيّد يريد طباعة مخطوط رسالة للإمام الغزالي، ولكنها كانت في حالة رديئة جدًا، وكان يوميًا يجلس مع شبلي النعماني والسيّد حالي، ويحاول الجميع معرفة الكلمات أو العبارات التي فقدت، ولكن صعب عليهم الأمر فأشار شبلي على سيّد أحمد خان أن يعطي مسؤولية ترميم المخطوط وتصحيحه للفراهي، فهو قادر على هذا. فاندهش السيّد أحمد خان لكنه وكل بهذا الأمر إلى الفراهي الذي قام فعلًا بأداء المهمة على أكمل وجه، فكان يقرأ العبارات ويضع في أماكن الكلمات المفقودة ما يراه مناسبًا من سياق الجمل والكلمات حسب ذوقه السليم وحسب أسلوب الغزالي. وحين عثرت نسخ أخرى من المخطوط نفسه وتمت مقارنة عبارات الفراهي بالعبارات الأصلية، كانت إما مطابقة لها أو قريبة من معناها.

2. **ترجمة تاريخ بدء الإسلام:** كان السير سيّد أحمد خان قد طلب شبلي أن يؤلّف رسالة مختصرة باللغة العربية في السيرة النبوية لإدخالها ضمن المناهج الدراسية في الكلية، وكان عنوانها: "تاريخ بدء الإسلام". ثم طلب من الفراهي أن يترجمها إلى اللغة الفارسية ففعل. وقد طبعت النسختان العربية والفارسية فورًا بعد الانتهاء منها.

مجلة الهند ـ ـ ـ

وهكذا نرى أنّ الفراهي أكمل دراسة مرحلة البكالريوس. وحسب المصادر فإنه حاول أن يحصل على شهادة الماجستير ولكنه لم يتمكن من ذلك لأسباب خاصة بنظام الكلية والمدة اللازمة للفصل بين مرحلتي البكالريوس والماجستير. وكذلك حاول دراسة القانون والحصول على شهادة المحاماة وقضى في التجهيز لذلك عامين، ولكنه غير وجهته بعد ذلك إلى مهنة التعليم والتدريس.

## القدوم إلى علي كره للوظيفة (1907-1908م)

حضر الفراهي إلى علي كره مرة أخرى قادمًا من كراتشي التي تركها لأسباب لا مجال لذكرها هنا. ونلاحظ أنّ الفترة التي قضاها الفراهي في علي كره هذه المرة قصيرة جدًا مقارنة مع الفترات التي قضاها في مدن أخرى، ولكنها تحمل في طياتها بعض أهم التحولات والنقاط التي كانت مهمة بالنسبة للفراهي وأعماله الجليلة فيما بعد.

كانت لمدينة علي كره مكانة خاصة في قلب الفراهي حيث قضى فيها سنوات مهمة من حياته يتعلم في الكلية الشرقية التي تطورت فيما بعد إلى جامعة علي كره الإسلامية. وكا ذكر سابقًا فإنّ المساهمات العلمية للفراهي كانت قد بدأت منذ تسجيله في السنة الأولى من البكالريوس. وقد حظي بتقدير السير سيّد أحمد خان والأساتذة الآخرين. ومهّد شبلي النعماني الطريق للفراهي فاستطاع الحصول على الوظيفة التدريسية التي استحقها بجدارة وعيّن أستاذًا مساعدًا للغة العربية.

**اللغة العربية في جامعة علي كره:** بدأ تدريس العربية كلغة في مدرسة العلوم بعلي كره منذ عام 1875م أي منذ تأسيسها، ونجد ذكرًا لذلك في الإعلان الذي نشر في Aligarh Institute Gazette بتاريخ 7 مايو 1875م، فنجد مكتوبًا من ضمن العلوم التي ستدرس في المدرسة: "اللغة العربية، صرفها ونحوها وعلومها وأدابها". واستمر تدريس العربية حيث تطوّرت المدرسة إلى كلية 1877م. وأنشئ قسم مستقل لتدريس اللغة العربية حين خصّصت الحكومة الإنجليزية ألف روبية شهريًا لتدريس

العربية للطلّاب، واشترطت لذلك تعيين بروفيسور من البلاد الأوروبية، فاستقدم لذلك البروفيسور الألماني يوسف هوروفتس Josef Horovitz الذي عيّن بروفيسورًا ورئيسًا للقسم، وعيّن الفراهي أستاذًا مساعدًا حسب الشروط المطلوبة. وإذا نظرنا إلى تواريخ التعيين فنجد أنّ البروفيسور يوسف هوروفتس بدأ عمله في الكلية يوم 15 يناير 1907م، أما الفراهي فقد داوم يوم 1 فبراير 1907م حسب ما تذكر سجلّات الجامعة.

**حياته في علي كره أثناء التوظيف:** لم يقض الفراهي فترة طويلة في علي كره هذه المرة، إنما مكث فيها سنة وأربعة أشهر فقط. كان يعيش في منزل ذي طابقين بعد أن أمضى عدة شهور في سكن الضيافة. وكان السيد إقبال سهيل والحكيم يوسف يسكنان معه. إضافة إلى ثلاثة من المساعدين في أعمال المنزل. وكان الفراهي ينفق عليهم جميعًا. ولم يجد الفراهي حين عودته إلى علي كره ذلك الجو الذي كان سائدًا أيام دراسته، فكان السير سيّد قد توفي، وترك شبلي النعماني علي كره، والأحوال كانت قد تغيرت، لذلك لم يستطع الفراهي أن يستعيد ذلك الرباط مع هذه المدينة، وبالتالي لم يتمكن من المكوث بها فترة طويلة. ولكنه قضى هذه الفترة القصيرة في التعليم والقيام وإنجاز بعض الأعمال العلمية. فكان يقضي ست ساعات من الساعة الثالثة إلى التاسعة صباحًا في مطالعة القرآن وتدبر معانيه. كان قليل الاختلاط بالأشخاص الآخرين مشغولًا بالقراءة والتأليف. ولكنه حين كان يلتقي بعض أقرب الناس إليه كان يشرح لهم نتائج تحقيقاته في المطالب القرآنية ودراسة الكتب السماوية الأخرى لتساعده على ذلك. وقد ترك مكوثه في علي كره بعض الآثار على طريقة ملبسه كذلك، ولكن هذا الأثر لم يكن عميقًا. فقد ارتدى الفراهي البدلة الأوروبية أحيانًا ولكنه لم يتخذها لباسًا دائمًا. أما القميص والبيجامة المنتسبة إلى علي كره فكان يرتديهما دون تكلف.

**جهوده العلمية:** ليس هناك عمل يذكر للفراهي تم تأليفه أو طباعته أثناء وجوده في علي كره. وتذكر بعض المصادر أنه قام بعملية التدقيق وقراءة لأجزاء من طبقات ابن سعد عند طباعتها من قبل بعض المستشرقين، فكل أسبوع يأتي جزء جاهز للطباعة إلى علي

كره للتصحيح. ومن ضمن من كان مسؤولًا عن ذلك يوسف هوروفتس الذي سبق ذكره، وهو الذي أسند بهذه المهمة إلى الفراهي الذي كان يستلم النسخة الجاهزة للطباعة مباشرة من ساعي البريد، ثم يرسلها إلى يوسف بعد تصحيحها والتدقيق فيها.

كما أنه وضع أثناء مكوثه في علي كره أساس كتابه "أسباق النحو" وهو كتاب يشتمل على قواعد النحو العربية وشرحها بطريقة بسيطة. ومع أنه ليس مهمًا جدًا إذا نظرنا إلى مستوى النتاج العلمي والفكري الذي قدّمه الفراهي، إلا أنه يفوق جميع مؤلفاته تقريبًا من ناحية كثرة الطباعة والشيوع وإقبال الطلاب عليه. ولو أنه طبع بعد مغادرة الفراهي لعلي كره، لكنه وضع دروسه أثناء إقامته في علي كره وذلك لتدريس ابنه سجاد الذي كان يبلغ حينها من العمر 9 سنوات، وكان زميل درسه آباد أحمد ابن آفتاب أحمد خان. فكان الفراهي يخطط بنفسه هذه الدروس ويدرسها لهم مما يدل على أهمية تعلم العربية لديه والجهود الشخصية التي بذلها لتدريس ابنه العربية حيث كان ابنه يدرس العلوم العصرية في المدرسة.

**طريقة تدريسه:** لا تتوفر معلومات كثيرة عن المواد التي كان يدرّسها الفراهي للطلّاب في علي كره ولا عن الأسلوب المتبع في التدريس، إلا أنه يذكر أنه كان شديد الالتزام بالتحقيق والتدقيق. ولأن أساس التحقيق يعتمد على الشك، فقد كان يرد على تساؤلات الطلّاب بكل عفوية بقوله: "I doubt" ولذلك لقّبه الطلاب بـ"Professor Doubt" (البروفيسور الشك).

**الفوائد العلمية المتبادلة بين الفراهي ويوسف هوروفتس:** انتهز الفراهي فرصة وجود المستشرق الألماني يوسف هوروفتس في الكلية، وتعلم منه اللغة العبرية. وبالمقابل كان يوسف يستفيد من تمكن الفراهي في اللغة العربية. ومن البديهي أنّ الفراهي استطاع بقليل من الجهد أن يحيط بأساسيات اللغة العبرية بل يتعمق فيها إلى حد ما لتمكنه من اللغة العربية من جهة، ولرغبته الشديدة في تدبر القرآن ومعانيه. فكانت

العبرية بمثابة اللغة المساعدة التي مكّنته من استخلاص معانٍ لم يسبقه إليها أحد من الآيات القرآنية وذلك بمساعدة الكتب العبرية ومقارنة ما ذكر فيها بما جاء به القرآن الكريم من المعاني. وكان لتعلمه اللغة العبرية أثناء مكوثه في علي كره أكبر الأثر على كتاباته ومؤلفاته فيما بعد.

وذكر ابنه سجاد أنه تعلم الألمانية كذلك من يوسف هوروفتس، لكن أمر تعلمه الألمانية لم يذكره أحد غير ابنه.

**زيارته لندوة العلماء والجامعة:** كان شبلي النعماني يدعو الفراهي إلى زيارة ندوة العلماء منذ أيامه في كراتشي فقد بدأت ندوة العلماء تدريس بعض الكتب ضمن مناهجها والتي كانت تتطلب أستاذًا بارعًا متمكنًا من اللغة العربية والإنجليزية. وكان من رأي شبلي أنّ الفراهي يمكنه أن يؤدي هذه المهمة بكل تفانٍ وإخلاص. وكان الفراهي يمرّ بمدينة لكناؤ أثناء سفره إلى كراتشي. وحين وصل إلى علي كره طالبه شبلي مرة أخرى بأن يحضر إلى الندوة ويلقي دروسًا في التفسير إذا رغب بذلك في جوّ يسوده الهدوء والطمأنينة. وألزمه بأن يدرّس درسًا واحدًا من "الدروس الأولية" وهو كتاب مبسط للفلسفة. ففعل الفراهي ما طلب منه شبلي الذي شكره وأثنى عليه لتلبيته دعوته وإسدائه خدمة جليلة لطلّاب ندوة العلماء.

وقد أصبح الفراهي عضوًا في اللجنة التنظيمية للندوة، واعتبر من الأعضاء المهمين لمرتبته العلمية والفكرية.

كذلك كان الفراهي يزور الجامعة الملية الإسلامية، وكانت أفكاره أقرب إلى الجامعة الملية الإسلامية مقارنة بجامعة علي كره. فقد كان بعيدًا جدًا من الناحية الفكرية عما يسمّى بفكر علي كره. ولا نرى ذكرًا لعلي كره أو الأيام التي قضاها هناك في كتاباته إلا نادرًا. ولكنه كان أقرب من الناحية الفكرية إلى محمد علي جوهر الذي كان من مؤسّسي الجامعة الملية الإسلامية.

وقد زار الفراهي الجامعة الملية الإسلامية في عام 1923م والتي كانت مازالت في علي كره، حيث لم تنتقل إلى دلهي إلا في عام 1925م. كانت هذه الزيارة بدعوة من عبد المجيد خواجة لكي يستفيد طلّاب الجامعة وأساتذتها من علمه وتحقيقاته. وتذكر المصادر أنه لبّى الدعوة وحضر إلى الجامعة ومكث فيها فترة تتراوح من شهرين ونصف إلى ثلاثة أشهر، ألقى خلالها دروسًا في التفسير والدراسات القرآنية. وكان الأساتذة والطلاب يشاركون بكل حماس في هذه الحلقات العلمية التي كانت تسودها البساطة والعمق العلمي، وكان الفراهي يلقي محاضراته باللغة الأردية ولكن إن استفسر شخص باللغة الإنجليزية فكان يرد عليه بإنجليزية متقنة يندهش لها الحاضرون لكونه صاحب علم غزير في الدراسات القرآنية مع بساطته في الملبس وطرق العيش. وكان يتجنب استخدام الكلمات الإنجليزية، ولم يكن يأت بكلمات عربية أو فارسية ضخمة حين يتحدث بالأردية.

**تركه علي كره إلى الله آباد:** غادر الفراهي علي كره إلى مدينة الله آباد وذلك للانضمام إلى كلية ميور كبروفيسور للغة العربية وذلك في 31 مايو 1908م، وكان قد أخذ إجازة بدون راتب لمدة ستة أشهر. ثم تقدم بطلب لتمديد هذه الإجازة إلا أنّ طلبه لم تتم الموافقة عليه من قبل إدارة الكلية، فاستقال في النهاية لكي ينتقل للعمل والعيش في الله آباد. ولا تعرف أسباب هذه المغادرة والاستقالة، إلا أنّ التعيين في كلية ميور على منصب أعلى مما كان يشغله في علي كره، وحدّد له معاش التقاعد كذلك، وكانت مدينة الله آباد أقرب إلى موطنه أعظم كره، إضافة إلى أنّ أخاه إسحاق وعمّه كانا يعيشان هناك. ومدينة الله آباد تقع على تقاطع الطرق المؤدية إلى مناطق مختلفة من البلاد، أما علي كره فهي تقع في منطقة داخلية بعيدة نسبياً عن الطريق العام. ربما كانت كل هذه الأسباب أو بعضها جعلت الفراهي يترك علي كره وينتقل إلى الله آباد. ولا ننسى أنّ الفراهي لم يكن في يوم من الأيام موافقًا فكريًا مع النظريات التي كان يؤمن بها مَنْ ارتبط بحركة علي كره آنذاك.

وهكذا نرى أنّ الفترة التي قضاها الفراهي في علي كره مجتمعة بين مرحلة الحصول

على التعليم ثم الوظيفة والتدريس لا تتجاوز ست سنوات. ولكن لا يمكن إنكار أهميتها من ناحية دورها في الإسهام ببعض التحولات التي تركت آثارًا إيجابية على شخصيته وبالتالي على عطائه العلمي والفكري، وأهم مثال لذلك هو تعلمه للغة العبرية التي ساعدته كثيرًا في أعظم مهمة في حياته والتي تميز بها وبلغ ذكره بسببها إلى جميع أنحاء العالم وهو تدبره للقرآن وبيان معانيه ودقائقه. وقد ساعدته كذلك هذه المعرفة باللغة العبرية على دحض بعض الأفكار الخاطئة التي حاول المستشرقون الترويج لها والرد عليهم، كما فعل في كتابه: "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" الذي أثبت فيه بالدلائل الواضحة أنّ الذبيح هو إسماعيل بن إبراهيم وليس إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام جميعًا كما روّج لذلك المستشرقون.

وبذلك كانت الفترة التي قضاها الفراهي في علي كره فترة مهمة من حياته رغم قصرها، ولا يمكن الاستهانة بها أو التقليل من أهميتها خاصة أنّ الفراهي واجه كثيرًا من النقد والتهم بسبب علاقته بكلية علي كره من قبل العلماء المتشددين الذين استخدموا كلمات نابية له مثلما كانوا يستخدمونها للسير سيّد، حتى أنهم أصدروا فتوى بكفره بعد وفاته.

## المصادر والمراجع


1. تذكرة علمائے أعظم كره للشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، الجامعة الإسلامية، بنارس، 1976م
2. تفسير نظام القرآن للعلّامة حميد الدين الفراهي (ترجمة أردوية: الشيخ أمين أحسن الإصلاحي)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم كره، 1990م
3. حيات حميد لعبد الرحمن ناصر الجامعي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم كره، 1996م
4. ذكر فراهي للأستاذ شرف الدين الإصلاحي، دار التذكير، سوق الأردوية، لاهور، 2002م
5. مكاتيب شبلي، ترتيب: السيّد سليمان الندوي، مطبعة معارف، أعظم كره، 1927م
6. ياد رفتگان للسيد سليمان الندوي، مكتبة الشرق، كراتشي، 1995م

ISSN: 2321-7928

# الإمام عبد الحميد الفراهي مدرّسًا ومعلّمًا

- د. أبو ذر متين[1]

كان الإمام عبد الحميد الفراهي كما قد علمنا عالمًا بارعًا في التفسير وعلومه مع مفردات القرآن الكريم ومعانيها ومع هذا أنه كان نحويًّا بلاغيًا وناقدًا جريئًا لا يخاف لؤمة لائم وأديبًا قديرًا وكاتبًا متفنّنًا وشاعرًا مجيدًا ومحققًا جليلًا وكانت خدماته بارزة في هذه المجالات على الإطلاق وبالإضافة إلى هذا أنّ الفراهي كان معلمًا ومدرسًا عظيمًا، إنه قام بخدمات تدريسية وإدارية في معاهد مختلفة في كراتشي وعلي كره وإله آباد وحيدر آباد، فقرأ عليه عدد كبير من الطلّاب اللغة العربية والفارسية وعلومها وآدابها، ومع هذا كله أنه ألقى دروسًا ومحاضرات في معاهد عديدة مثل ندوة العلماء بلكناؤ والجامعة الملية الإسلامية وحيدر آباد ومدرسة الإصلاح، فاستفاد من علمه ومعرفته عدد من الأساتذة والباحثين كما سيأتي ذكرهم مفصّلًا في هذه المقالة.

- **مدرسة الإسلام بمدينة كراتشي:** كان الفراهي قد عيّن أولًا في سنة 1897م مدرسًا للعربية والفارسية في مدرسة الإسلام بمدينة كراتشي ودرّس فيها أكثر من تسع سنوات. وهذه المدرسة المذكورة التي أقيمت بمجهودات المسلمين بكراتشي على طراز كلية علي كره الإسلامية، ومن أشهر خريجيها الزعيم السياسي الكبير محمد علي جناح (1876-1948م) الذي تخرج منها قبل التحاق الفراهي بها.[2]

وفي هذه الفترة كان الفراهي مشغولًا في أعماله العلمية والأدبية وازداد ولوعه بالقرآن الكريم يومًا فيومًا، فصدر عنه في هذه الأثناء أجمل مؤلفاته وأغلى تحقيقاته، وإن كان

[1] قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره، علي كره

[2] انظر للتفصيل: ذكر فراهي للدكتور شرف الدين الإصلاحي، الدائره الحميدية، سرائ مير، أعظم كره، الهند، 2001م، ص 146

الفراهي قد بدأ التأليف والتحقيق في مراحله التعليمية قبل مغادرته لمدينة كراتشي، وفي هذه المرحلة طبع ديوانه الفارسي الذي يشتمل على قصائده الفارسية، ومن هنا أقبل الفراهي على كتابة تفسيره المعنون بـ"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان " وأتم له تفسير سور أبي لهب والإخلاص والشمس والقيامة باللغه العربية إلا سورة الإخلاص الذي كتب تفسيره في اللغة الأردية بإلحاء محبّيه، وألّف كتابه الشهير "جمرة البلاغة "في اللغة العربية، وكذلك رتّب أخيرًا رسالة عربية باسم "أقسام القرآن" وبعد الإضافة المفيدة غيّر عنوانها باسم "إمعان في أقسام القرآن ".

ومنذ إقامته بكراتشي ذاعت شهرته بين الأوساط العلمية وطار صيته في محافل علمية من أجل قدرته الفائقة على اللغة العربية ومهارته التامة في اللغة الإنجليزية ومن ثم استدعاه الحاكم الإنجليزي اللورد كرزن (1859-1925م) ليرافقه على مناسبة زيارة رسمية لسواحل العرب، قام بها لبعض الدول الخليجية عام 1903م فرافقه الفراهي مترجمًا له[1] وهذه الجولة كانت له فرصة ثمينة للحصول على منصب عالٍ عند الحكومة ولكنه أبى أن يتملك السياسيين والحكام للفوائد المادية، بل كان الفراهي لا يريد من أيّ شخص أن يذكر هذه الرحلة التي قام بها في رفقة حاكم إنجليزي.

وبالإضافة إلى القيام بواجباته اهتم الفراهي أثناء إقامته في كراتشي بالخدمات التدريسية في ندوة العلماء بلكناؤ حينما كان أخوه وأستاذه شبلي النعماني (1857-1914م) أستاذًا ومقيمًا في رحابها، فقد ألحّ شبلي النعماني على الفراهي أن يدرّس الطلبة القرآنَ الكريم وكتاب "الدروس الأولية في العلوم الطبعية" في الفلسفة الجديدة التي كانت جزءًا من مقررات الدراسات العليا فيها، كان الفراهي لبي دعوة أخيه وألقى محاضراته أمام طلّابها عدة مرات، كما أشار سيّد سليمان الندوي (1884-1953م) إلى هذا الصدد: إنّ الفراهي حينما جاء على دعوة من العلامة شبلي النعماني في ندوة العلماء

[1] المصدر نفسه، ص 183-207

مجلة الهند ـ ـ ـ

والتصنيف والبحث العلمي والأدبي والتدبر في القرآن الكريم، كما قال ابنه الأكبر محمد سجاد بأنه كتب في هذا الزمان "أسباق النحو" باللغة الأردية في جزءين لتعليم أبنائه اللغة العربية.[1]

وفي هذه المرحلة قضى شهرًا كاملًا في رحاب ندوة العلماء بلكناؤ على دعوة أخيه العلّامة شبلي النعماني لتدريس كتاب "الدروس الأولية في العلوم الطبيعة" وفي نفس الوقت انتخب عضوًا للمجلس الإداري لندوة العلماء بلكناؤ.[2]

- **كلية ميور المركزية في إله آباد:** أقام الفراهي في علي كره لمدة تقلّ عن سنتين، ثم عيّن في شهر يونيو سنة 1908م أستاذًا للعربية بجامعة إله آباد، واستمر فيها إلى سنة 1914م، فكانت حياته في الجامعة حافلة بالأعمال العلمية والأدبية مع تدبره في الآيات القرآنية، فقد أتم كتابه تفسير سورة التحريم ونقل حِكَمَ سليمان عليه السلام ونصائحه نظمًا من اللغة العبرانية إلى الفارسية التي طبعت فيما بعد باسم "خرد نامه"، وفي نفس الفترة أرسل الفراهي بعض أجزاء تفسيره إلى العالم المصري الكبير الشيخ رشيد رضا المصري (1865-1935م) أن يكتب عليها تقريظًا في مجلته الغراء "المنار" وينم تقريظ العلامة رشيد رضا عن إعجابه وتأثره بمناهجه التفسيرية، فسرعان ما حلّ مكانة علمية مرموقة في الأوساط العلمية والأدبية بين الأفاضل المعاصرين له، ليس في شبه القارة الهندية فحسب، بل العالم كله، ومن ثم لما اقترح في سنة 1331هـ تأسيس جامعة عالية في المدينة المنوّرة كان هو والعلّامة شبلي النعماني من بين العلماء الذين اقترحت أسماؤهم للتدريس فيها.[3]

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الفراهي أثناء إقامته في إله آباد اختير عضوًا في اللجنة العربية

[1] المصدر نفسه، ص 225

[2] المصدر نفسه، ص 225-226

[3] حيات شبلي للسيّد سليمان الندوي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1999م، ص 529

مجلة الهند ـ ـ ـ

الفرصة للاعتناء بأعماله التأليفية عن القرآن الكريم ولعله كان عاملًا من العوامل التي أرغمته على استقالته من وظيفته في حيدرآباد ومع هذا كله أنه اهتم أثناء إقامته في حيدرآباد بالأشغال التأليفية أيضًا، فقام فيها بترتيب وإصلاح ديوان أستاذه الشيخ فيض الحسن السهارنفوري (1816-1887م) وطبع على نفقته، وطبع كتابه "أسباق النحو" في جزءين بالأردية و"خردنامه" بالفارسية وألّف كتابه االمشهور "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" إلى جانب كتابة بعض الفصول من مقدمة تفسيره.

وفي نفس الزمان كان المسلمون الهنود يحتاجون منذ مدة طويلة إلى ترجمة إنجليزية لمعاني القرآن الكريم بيد مسلم، فقدّمت ندوة العلماء هذا الاقتراح في اجتماعها السنوي الذي انعقد في دهلي عام 1910م، وفي هذا الاجتماع قام بإعداده أعضاء اللجنة العليا التي كانت مشتملة على ثلاثة أشخاص: عبد الحميد الفراهي، النواب عماد الملك البلكرامي (1844-1927م) والشيخ محمد صالح، فكان أعضاء الاجتماع قد اقترحوا على أن يقوم عماد الملك بالترجمة ويراجعها الفراهي والشيخ محمد صالح، فكانت اللجنة قد اكتملت بعض أجزاء تفسير القرآن الكريم حسب طلب أعضاء ندوة العلماء، ولكن من الأسف الشديد أنّ هذا العمل الرائع قد ذهب إلى أدراج الرياح.[1]

وكذلك شكّل الفراهي أثناء إقامته فيها حلقة أسبوعية لتفسير القرآن الكريم، كان يحضرها العلماء والباحثون وطلبة علم القرآن.

والجدير بالذكر أنّ العالم الجليل الشيخ مناظر أحسن الكيلاني (1892-1956م) والمفكر الإسلامي السيّد أبو الأعلى المودودي (1903-1979م)، والأستاذ عبد الماجد الدريابادي (1890-1977م)، والأستاذ عبد الله العمادي (1879-1947م)، ووحيد الدين سليم (1869-1928م) بين الطلبة الذين استفادوا بالأستاذ الفراهي.

وحينما توفي أخوه وأستاذه العلامة شبلي النعماني سنة 1914م قام الفراهي بتشكيل

[1] حيات شبلي، ص 582

جماعة تسمّى "إخوان الصفا" التي أقيمت لتأسيس "دار المصنفين" في مدينة أعظم كره تذكارًا للعلّامة شبلي النعماني، فظلّ الفراهي رئيسًا لمجلسها الإداري إلى آخر حياته والعلّامة السيّد سليمان الندوي مديرًا لها.[1]

وفي عام 1919م عاد الفراهي من حيدر آباد إلى وطنه (فريها) من مديرة أعظم كره (ولاية يو.بي، الهند) حيث استقال من وظيفته مع رغبة المسؤولين في إقامته هناك كما أشار الفراهي إليه في ترجمته الذاتية قائلًا: "ولما كانت هذه المشاغل تمنعني عن التجرد لمطالعة القرآن المجيد ولا يعجبني غيره من الكتب التي مللتُ النظر في أباطيلها غير متون الحديث وما يعين على فهم القرآن تركت الخدمة ورجعت إلى وطني وأنا بين خمسين وستين من عمري فيا أسفا على عمر ضيّعته في أشغال ضرُّها أكبر من نفعها ونسأل الله الخاتمة على الإيمان".[2]

- **مدرسة الإصلاح بسرائ مير (أعظم كره):** وبعد ذلك عاد الفراهي إلى وطنه فريها حيث كان يقضى أكثر أوقاته في العبادات والدراسات في قريته، ومن أهم هذه المرحلة تولّى الفراهي إدارة مدرسة الإصلاح التي أسّستها جمعية إصلاح المسلمين في بلدها بسرائ مير عام 1908م وكانت هذه الجمعية التي قد أقيمت في منطقة أعظم كره لإصلاح عقائد المسلمين وصيانتهم من البدع والشرك والخرافات والمنازعات والخصومات التي شاعت بين المسلمين في نواحيها، فلما رأت هذه الجمعية أنّ أهدافها الأصلية وجهودها الجبارة لن تستكمل إلا بقيام المعهد العلمي، فهذه الجمعية أسّست المدرسة الدينية باسم "مدرسة إصلاح المسلمين" لإعداد العلماء البارزين ودعاة الدين الإسلامي الحنيف الذين يحملون لواء التوحيد الخالص وعمليات الدعوة والإصلاح، وبعد

[1] ذكر فراهي، ص 337

[2] انظر إلى للترجمة الذاتية للفراهي، مجلة الضياء، لكناؤ، الهند، المجلد: 2، العدد: 7، 1933م، ص 260

مجلة الهند ـ ـ ـ

ومن أهم الأمور التي وقعت في ذلك الوقت كان الشيخ السندي أستاذًا هناك، فتخلى المقعد التدريسي، فهكذا الفراهي قد درّس القرآن الكريم في مكة المكرمة واستفاد الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي في إقامته بالحجاز من دروس الفراهي القرآنية.

ISSN: 2321-7928

# الإمام الفراهي ـــــ المفسّر الملهم

- د. محيي الدين غازي[1]

قد أقرّ الجماهير بأنه قلما بلغ من المتأخرين تلك المنزلة التي منحها الله للعلامة الفراهي رحمه الله فقد قضى أكثر حياته في تدبر القرآن الكريم وألّف في اللغة العربية تفسيراً قد بلغ مبلغًا في تحقيقه قلما نراه حتى في تفاسير المتقدمين.

الذي عكف على القرآن الكريم أربعين سنة متوالية ... الذى شاب شعره في تحقيق معاني القرآن ... الذى قد تولد بتفسيره شوق التدبر في القرآن في قلوب آلاف المسلمين من العرب والعجم ... الذى يشهد له كل كلمة من مؤلفاته بأنه يعشق القرآن غاية العشق ويستميت على كل كلمة منه.[2]

بمثل هذه الكلمات الجميلة أعرب مؤسس الجماعة الاسلامية في شبه قارة الهندية ورائد الفكر الاسلامى في العصر الحاضر السيّد أبو الأعلى المودودي رحمه الله عن تقديره البالغ للنابغة الخطير والمفسّر الكبير العلّامة عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى.

وحينما تأملت في هذه الكلمات الجليلة حفزتني إلى دراسة تفسير الفراهي. ولما أخذت أغوص في بحر تفسيره الذاخر وجدت كأنى أجني لؤلؤًا بعد لؤلؤ من هذا البحر ومهما جنيت فلن تنتهى هذه اللآلي اللمّاعة التى بدأت من فاتحة نظام القرآن، ولم يكتب لها الانتهاء. وهنا اعترفت بصدق قلبي وخلوص فؤادي كما اعترف به كثير من علماء العرب والعجم أنّ تفسير نظام القرآن تفسير فريد لا يلتمس له شبيه مما يملك من سمات ومزايا خاصة لا توجد في غيرها.

[1] مدير تحرير مجلة "زندگي نو" الشهرية الصادرة عن الجماعة الإسلامية بالهند.

[2] مجلة "ترجمان القرآن"، العدد: 6، الجلد: 1.

فإنّ التفاسير الأخرى مع أنها إنجازات رائعة وتحتوي على درر متلالئة مع كل هذه الفضيلة وهذه المكرمة هي ناقصة تحتاج إلى تكميل وهي غامضة تحتاج إلى إظهار غموضها وهي مع عظيم فضلها لم تنجح في حلّ شبهات الأذهان ولم تنجح في إماطة اللثام عن أسرار القرآن ومظاهر جماله لأنهم قيّدوا تفسير القرآن في حدود ضيقة جدًا بالنسبة للبحر المحيط فهي تساعد فقط في حلّ بعض المشاكل النحوية والمفردات اللغوية والمعاني الظاهرة للقرآن. وأما مظاهر إعجازه ووجوه سحره وقوته التي بها نال إعجاب عباقرة العالم فهي تصرف النظر عنها أو تمرّ عليها مرورًا سريعًا غير شافية للفؤاد، وذلك لأنهم جعلوه كسائر الكتب وخاضوا في جدالات لغوية أو فقهية ونظروا إليه بمنظار مسالكهم. فالفقيه نظر فيه لالتماس الأدلة على مذهبه واللغوي طالعه بمنظاره الخاص ليخرج منه ما يثبت دعواه والمتكلم عكف عليه ليجد ما يعزز به قناعته الكلامية، وهكذا صار القرآن مثارًا للشبهات وحلبة لأنواع المصارعين بدلًا من أن يكون سراجًا لطريق الحياة ومصدرًا لمنهج الحياة ويدًا حانية تمسح على الآلام والمواجع وتسكب البرد والطمأنينة واليقين.

لا شك أنّ من أسلافنا الكرام من قدّموا إنجازات رائعة في التفسير ولكن المتأخرين لم يقدروا ما أنجزوه حق التقدير فكان الأجدر بهم أن يتموا ما بقي منهم ويوضحوا ما خفي عنهم ويغوصوا في بحر القرآن ويبحثوا عن أسراره وإعجازه على طريق أسلافهم ولكنهم لم يزيدوا على الاحتفاظ والادخار بما تركوه وما تجاوز جهدهم عن حد الاحتفاظ بما ورثوه منهم ومازالت هذه الحالة حتى انتفى شوق فهم القرآن من قلوب العلماء وأخذ علم التفسير سبيلًا إلى الانحطاط وطمست روح البحث عن الحقيقة والوصول إلى الغاية المرجوة من فهم كتاب الله.

في هذه الحالة السيئة اقتضت رحمة الله عزّ وجلّ أن تنجب أرض الهند رجلًا يردّ القرآن إلى مكانته الأصيلة وينفخ في معاهد القرآنية روح البحث عن حقائق القرآن والغوص في بحره والتجول في حديقته. وما زال الرجل في البحث والتنقيب في

زواياه طوال أربعين سنة متوالية حتى تمكن من رفع الستار عن الحقيقة وفاز بالمفتاح الذي فتح له أبواب العلم والحكمة فألّف تفسيرًا على أحسن المنهج فيه هدى للسارين في ظلمة الليل البهيم ورشدًا للحيارى والتائهين.

لا ريب أنّ تفسيره جدير بأن تكتب عليه آلاف الصفحات ولكني في هذه العجالة أكتفى بذكر أهم مبادئ تفسيره وأظهر مزاياه.

فبعد إمعان النظر في تفسيره تستنبط منه أصول ومبادئ قيّمة إذا عني بها سدّت جميع منافذ الفتن وأغلقت أبواب سوء التأويل.

**المبدأ الأول: رعاية نظام القرآن**

قد أثبت المفسر الملهم رحمه الله بأسلوبه الرفيع وعرضه الجميل وحججه الرصينة نظم السور والآيات ووجوه المناسبة فيما بينها وقد علّق على تحقيقه النظام بعض النفوس المريضة بأنّ الاشتغال به من الأعمال التي يقصد بها ترفيه النفس وقتل الوقت لا غير.

وليس الأمر كذلك بل أمر النظام وأهميته واضح على كل من يبحث في هذا الأمر مجردًا عن الهوى الجانحة. فإنّ الترابط بين السور هو المصباح الوضّاء الذي ينير الطريق إلى فهم القرآن وهو العمدة لنيل كنوزه ولا يفوز بهذه المصباح إلا من يتدبره آناء الليل وآناء النهار ويواصل الجهد ويهب حياته لهذه الغاية.

فإنّ للنظام فوائد ومزايا لا يدركها إلا من شرب من هذا الكأس المنعش. فالنظام هو الذي يهدي إلى بطن القرآن والذي لا يراعى النظام مثله كمثل الذي يمشي في ليل الصحراء مكبًا على وجهه والنجوم فوقه. والنظام هو الذي يعين الراجح إذ كثرت الأقوال والاحتمالات والنظام هو الذي يكشف عن إعجاز القرآن وبالنظام صار القرآن كالماء كلما ازداد منه العطشان ريًّا ازداد قوة ونشاطًا وكلما اغترف من منهله العذب ازداد عليه حرصًا.

ومزايا النظام كثيرة لا تعدّ وقد تذوق بها المفسر الموهوب فأزاح الستار عن كنوز

الحكمة والبلاغة ما لم يرج نيله حتى حينه وحلّ من شبهات الأذهان ما عجز عن حلّها سائر المفسرين فإنّ طالب القرآن يحصل عنده ما يئس من حصوله.

والجدير بالذكر أنه رحمه الله لا يرى النظام كما يراه العامة أن يلتمس المناسبة بين الآيات والسور أي مناسبة سواء كانت ضعيفة أو قوية. إنما يريد بالنظام تلك المناسبة التي تصنع القوة والجمال وتلبسه ثوب الحسن والبهاء فالنظام ليست الغاية إنما الملتمس كنوز القرآن وما يحوي من جواهر الحكمة.

**المبدأ الثاني: الخوض في الأساليب القرآنية**

إنّ القرآن جاء على اللغة العربية الفصيحة، فالأساليب التي اختارها القرآن واضحة مناسبة لمواضعها متوافقة مع جودة القرآن. وما عدل عن أسلوب إلى آخر إلا للحكمة الغائرة فالتصريف في أساليب القرآن مهما هان لا يخلو من لطائف الحكمة وروائع البيان، ولذا لا بد للطالب في هذا المجال أن يخوض في الأساليب فإنّ الفرق الدقيق بين صنوف الأساليب يفتح أسرار البلاغة ما نحن نغفل عنها ونحرم منها.

فإنّ اختلاف الصيغة وتقديم الجمل وتأخيرها وتعريف الكلمة وتنكيرها إلى غير ذلك من التصريفات التي لم يبال بها ولم يهتم بها عامة المفسرين تحوي في غورها جواهر ثمينة من الحكم لا تعدّ ولا تحصى وقد كشف الستار عنها المفسّر الملهم رحمه الله لأنه كان يعشق القرآن غاية العشق وكان متأكدًا ومتيقنًا بأنّ الذي أنزل القرآن قد ملأه بالحكمة. فكان يطيل النظر في كل كلمة منه ويشمّ كل زهرة من أزهار أساليبه ويسعى في الوقوف على دقائقها ويطيل القيام تحت ظلالها وقد أوضح كثيرًا من دقائق أساليب القرآن بأسلوبه الفذ وعرضه الجميل وشرحه الوافر.

**المبدأ الثالث: القرآن قطعي الدلالة على معناه ولا يحتمل أكثر من تأويل**

فإن جمهور المفسرين يرون أنّ الآية تحتمل أكثر من تأويل في وقت واحد ولذلك يذكرون ركامًا من الاحتمالات للآية الواحدة بدون تعيين الأصح والأرجح مع أنّ

الآية إنما يتعين لها معنى واحد فقط ونذكر مثالًا على ذلك ما قاله الرازي رحمه الله في تفسير آية. إذا جاء نصر الله والفتح، المراد من الفتح فتح مكة، فتح طائف، فتح خيبر، فتح عام، فتح العلوم، فتح المعقولات.

فبمثل تلك المواضع يتحير الطالب فيعجز عن الوصول إلى المعنى الصحيح حين يرى نفسه بين المسالك المتناقضة ويعيي لكثرة الاحتمالات المذكورة في كتب التفاسير عن الوصول إلى الحقيقة فيحفظ الاحتمالات ويجمع الأقوال فلا يكون لديه إلا موسوعة الاحتمالات بدلًا من أن يفوز بالمعنى السديد ويصل إلى القول الراجح فيصاب بارتباك ذهني.

والمفسّر الملهم عالج ذلك التحير وذلك العجز فقال: "وما علمت دواء لهذا الداء العضال إلا التمسك بالقرآن وردّ الروايات والآراء إلى كتاب الله وهذا لا يكون إلا بأن تؤمن أنّ القرآن لا يحتمل إلا تأويلًا واحدًا.[1]

وبهذا القول الفيصل أضاء الطريق السوي للوصول إلى المعنى الصحيح واقتطاف الفاكهة الحلوة بين مرارها والتمكن بالفصل بين الجوهر الأصيل والزائف المرذول.

**المبدأ الرابع: الطريق السديد للخوض في القرآن المجيد**

لا يصحّ للطالب أن يشرع مطالعة القرآن بالنظر على كتب التفاسير ويجعل ما قالوه قولًا قاطعًا. والجدير بالذكر أنه لا ينكر الاستفادة من مؤلفاتهم ولكن لا بد من الترتيب فيبدأ بالقرآن نفسه فيتدبر سياقه ويتنقب زواياه ويفتش خباياه فإذا اهتدى إلى رأي فليرجع إلى كتب التفاسير ليطمئن الفواد فإذا وجد ركامًا من الاحتمالات يلتمس احتمال الراجح فإذا لم يطمئن قلبه إلى أي تأويل فله أن يستمر في التدبر ويدعو الله عزّ وجلّ أن يهديه إلى الرأي الصحيح إلى أن يتضح له الحق كالقمر الباهر وليتبين له نور الحقيقة عبر إلهام رباني.

[1] التكميل في أصول التاويل، ص 20.

وأما عن الروايات الواردة في التفسير فيكفينا ما قاله رحمه الله في هذا الباب حيث يقول رحمه الله: "فالسبيل السوي أن تعلم الهدى من القرآن وتبنى عليه دينك ثم بعد ذلك تنظر في الأحاديث فإن وجدت ما كان شاردًا عن القرآن بادئ النظر أولته إلى كلام الله فإن تطابقا فقرّت عيناك وإن أعياك فتوقف في أمر الحديث واعمل بالقرآن.[1]

تلك المبادئ البارزة لتفسير الفراهي رحمه الله نكتفي بها في هذه العجالة فبها يمتاز تفسيره عن غيره وتلك المبادئ إذا اهتم بها طالب القرآن نال ما يرجوه ووصل إلى ما يقصده. وبعد نظرة عابرة في تفسيره (رحمه الله) نلمس ميزات لا نجدها في غيره وسنذكر الاثنين منها حذرًا من التطويل.

**الميزة الأولى:** أسلوبه العلمي الرفيع الذي انفرد به النابغة العظيم- رحمه الله- بين جميع المفسّرين القدامى والمحدثين. فإن سعة الاطلاع وعظمة التحقيق وعمق الفكر الذي نراه عنده لم نجده في المكتبة الإسلامية قط فإنه ما أخذ موضوعًا إلا تشبع عليه الكلام وأدّى حقه من التحقيق.

واطلاعه على عدة لغات من العربية والفارسية والعبرانية والإنجليزية إلى جانب معرفته بكتب الأديان القديمة ودراسته العميقة للأدب العربي لا سيما الشعر الجاهلي مما مكن له أن يتبحر في دراسة القرآن وقد استفاد من اطلاعه كثيرًا وأغنانا من ذكر الأدلة على نبوغه وسعة اطلاعه ما قد شهد له كل باحث أمين بريادته وتفوقه على جميع المفسّرين في تعمق بحثه وعلوّ تحقيقه.

**الميزة الثانية:** وبها أيضًا ينفرد المفسّر الموهوب من بين سائر المفسرين وهي أنه جعل علم التفسير علمًا وفنًا برأسه فقد كتبت قبله مئات التفاسير ولكن لم يعد التفسير كفن مستقل فكان الإمام رحمه الله أوّل من جعل التفسير فنًا مستقلًا. فقد كانت الأذهان تتساءل أسئلة كثيرة ولم تلق لها الجواب، منها ما هي أصول التأويل؟ وما

[1] المصدر نفسه، ص 65-66.

مرجع تلك الأصول؟ وكيف ترتب تلك الأصول؟ وإذا تعارضت فكيف الترجيح؟ وإذا كان اللفظ مجمل المعنى فكيف الوصول إلى المعنى المراد؟ إلى غير ذلك من أسئلة كثيرة سكتت عنها التفاسير ورتّبها ودوّنها المفسر الملهم. فجعل علم التفسير فنًا مستقلًا برأسه. يقول رحمه الله: "أما بعد فهذا الكتاب من مقدمة نظام القرآن أفردناه لتمهيد أصول راسخة لتأويل القرآن إلى صحيح معناه وهو علم مستقل عظيم المحل في التفسير فإنه يدلّك على المعنى المراد من كتاب الله ويزيد عليه. قد جعل العلماء طرفًا من أصول التأويل جزء أصول الفقه أي فروع الشرائع فلكونه جزءًا صار غير مستقل ولم يعط من الإمعان والإتمام ما يعطى لفن مستقل".[1]

هذا وكان الموضوع جديرًا بأن يتنفس فيه ويسهب فيه الكلام ولكني في هذه العجالة أقتطف من هذه الروضة ثمارًا قدر ما استطعت وأقدّمها بين يدي القراء. فإن قصرت في التعبير فهذا شأني وما هذا التقديم إلا اقتطافًا لبعض الزهور من بستانه رحمه الله لأشجع الآخرين على أن يزوروا بأنفسهم ويتجولوا في ظلاله الوارفة ويتنقلوا بين زهوره فيذوقوا ثمارًا لم أذقها وينعموا بعبير لم أشمها فيبصروا بما لم أبصربها. ويجدر بي أن أذكر أخيرًا ما قاله الدكتور أحمد حسن فرحات عن فكرته رحمه الله: "إننا نتعاطف مع هذه الفكرة ونشعر شعورًا قويًا غامضًا بصحتها ولكن تحقيقها في عالم الواقع ليس بالأمر الهيّن ودون ذلك أشواك ومشقات حتى يستوي النظام على سوقه ويرتفع بنيانه على قواعد علمية محددة وقد لا يستطيع ذلك إلا أفذاذ من الناس ممن وهبوا حياتهم ووقتهم لمطالعة كتاب الله ودراسته وآتاهم الله فهمًا وحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا".[2]

[1] المصدر نفسه، ص 1-2.

[2] مجلة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، ربيع الثاني 1392هـ.

ISSN: 2321-7928

# العناصر الأساسية لأفكار العلّامة عبد الحميد الفراهي

- محمد أشرف الأعظمي[1]

ترجمة من الأردوية: أ.د. محمد قطب الدين[2]

القرآن كتابٌ منزّل من الله تعالى وهدًى للبشرية جمعاء حتى يوم القيامة. وقد وعد الله بالأجر والثواب لكل من يمسّ القرآن ويتلوه ويتفكّر في معانيه ومفاهيمه، إلا أنّ هناك آياتٍ خاصة نُزّلت ليتفكر فيها الإنسان ويتدبر حتى يصل إلى عمق معانيها وتعاليمها السامية، ثم تُبلّغ رسالاتها إلى أنحاء العالم ليتبّع لها جميع الإنسان. ولذا اهتم العلماء به في كلّ عصر. ونظرًا إلى متطلبات العصر وحاجاته تحملوا مسؤولية الاسترشاد من القرآن الكريم وربط خلق الله بالكتاب العزيز. إنّ مفسّر القرآن العلّامة عبد الحميد الفراهي من العلماء السعداء الذين انتخبهم الله لفهم كتابه والتأمل فيه.

إنّ العلّامة عبد الحميد الفراهي من مواليد قرية شهيرة اسمها "فريها" بمقاطعة أعظم غره (الهند)، وإلمامه بالعلوم الدينية والعصرية قد ساهم في توسيع نطاق أفكاره. ولقد نهل من مناهل مختلف العلوم والفنون إلا أنه جعل القرآن الكريم مركزًا ومحورًا دائمًا له، وظلّ التأمل والتفكير في القرآن الكريم همّه الوحيد وشغله الشاغل حتى وفاته. يقول العلّامة سيّد سليمان الندوي: "كان منقطعًا إلى القرآن وتدبره ودرسه وتدريسه لمدة عشرين سنة، منعزلًا عن كل شيء وبعيدًا عن كافة الأشغال".[3]

لا يشوب عنصر التقليد الجامد شخصيةَ العلّامة الفراهي، ولم يكن من الذين يتدبرون القرآن تقليديًا، بل كان من الذين يتأملون القرآن ويتفكرون فيه مجتهدين بمؤهلاتهم

[1] عالم من علماء محافظة أعظم كره (الهند)

[2] أستاذ، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو، نيودلهي

[3] مجموعة مقالات الندوة حول سيرة العلّامة عبد الحميد الفراهي وأفكاره، ص 38

العلمية وبصيرتهم الفكرية. أراد العلّامة تعليم جميع العلوم وتعلمها وفهمها وتفهيمها والتي تتوافق مع القرآن المجيد أساسًا، كما رأى أنّ الكتب المتواجدة في مبادئ فهم القرآن ليست كافية، فلما بدأ العلّامة بالتدبر في القرآن تعلم أولًا العلوم المساعدة في فهم القرآن، ثم تعلّم لغة القرآن وجميع العلوم الأخرى اللازمة لفهم القرآن فهمًا صحيحًا حتى تتلمذ على العالم المستشرق "جوزف" لتعلم اللغة العبرانية التي كانت تنقرض مع مرور الزمن، واستعان بها في فهم القرآن الكريم. وقام بمراجعة نقدية لسائر العلوم المتداولة التي كانت تعتبر أساسية، وعندما أتقن جميع العلوم وظهرت أمامه عيوب العلوم الموجودة ونقائصها بدأ بنفسه تدوين مبادئ القرآن وقواعده اللازمة لفهم كتاب الله، وبدأ سلسلة من التفسير وقام بتطبيقها عمليًا، لكن الحياة لم تمهله كثيرًا واقتصر هذا التفسير على سور قليلة، ولولا ذلك لكان تفسير العلّامة إضافة كبيرة في هذا المجال، إلا أنّ التفسير غير الكامل عرض أمام العالم أيضًا طريقة جديدة لفهم القرآن والتدبر فيه، والتي تعكس في تفسير "تدبر قرآن" لتلميذه المولانا أمين أحسن الإصلاحي. وإنّ لنظم الكلام أو نظام الكلام أهمية قصوى في مبادئ فهم القرآن للعلّامة الفراهي. وهذا هو المبدأ الذي أدّى إلى شهرته في عالم الدراسات القرآنية، وجعله من روّاد المفسّرين. وسأستعرض نفس المباحث المبدئية للعلّامة في السطور التالية:

**العلامة الفراهي ونظم الكلام:** نظم الكلام من إنجازات العلّامة الفراهي الذي لفت انتباه العلماء إلى موضوع تدبر القرآن. وقبل ذلك، اهتم به عدد كبير من العلماء، وجعلوه محلّ نقاش، وتفكروا في القرآن من هذه النظرية، وعندما عرفوا الروابط التي تربط آيات القرآن وسوره، شهدوا بصراحة أنه ليست كلمات القرآن الكريم فقط، بل آياته وسوره أيضًا مرتبطة بمواضعها مثل الجواهر المنحوتة، بحيث أنه بتبديل أيّ منها يفسد حسن الكلام. وقد سمّى هؤلاء العلماء اكتشافهم هذا بـ"علم المناسبة". وسمّي بنظم القرآن أو نظام القرآن، فيما بعد.

**معنى النظم والنظام والمناسبة:** معنى النظم في اللغة العربية هو التأليف والترتيب وجمع

شيء مع آخر وضمه، فمثلًا يكون معنى "نظمتُ اللؤلؤ" (رتّبتُ اللؤلؤ في عقد). والتنظيم أيضًا مرادف لنفس الكلمة. ومن هنا "نظمت الشعر" (أي نظمتُ قصيدة)[1]. ولترتيب الكلمات وتجميعها يسمّون بـ"نظم الكلام". ولحسن الترتيب يقولون "هذا نظم حسن".[2]

على كل حال، معنى "النظم" هو مزج وترتيب شيء مع شيء آخر، مثل ترتيب اللؤلؤ في خيط بحيث يصبح مزيجهما صورة من الحسن والجذب. أما العلماء الذين يرون الترتيب في القرآن الكريم، فعندهم هذا هو معنى الترتيب. وقد بيّن العلّامة بدر الدين الزركشي والعلّامة جلال الدين السيوطي المفهوم الاصطلاحي للمصطلح القديم "المناسبة" على النحو التالي:

"المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها".[3]

والمعنى اللغوي للمناسبة هو المتشابه في الشكل والتقارب، وبحسب الآيات القرآنية فإنّ المقصود منها هو الوصل والارتباط الذي يخلق النظام والارتباط بين الآيات.

وبيّن العلّامة برهان الدين المناسبة قائلًا: "فعلم مناسبات القرآن علم تعرف به علل ترتيب أجزائه".[4]

يستخدم العلّامة عبد الحميد الفراهي مصطلح "نظام" بدلًا من "نظم". ولعل السبب في ذلك هو أنّ كلمة "نظم" مصدر لـ"نظم ينظم" فكلمة "نظام" أيضًا مصدر لها، وبالإضافة

[1] ابن منظور، لسان العرب، من نظم، دار صادر، بيروت، الزبيدي، تاج العروس، المطبعة الخيرية، مصر، 1306هـ

[2] الزمخشري، أساس البلاغة، المادة: نظم، دار المعرفة، بيروت، 1399هـ-1979م

[3] الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، دار التراث، القاهرة، 36/1، السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1425/ 2004م، ص695

[4] البقاعي، برهان الدين، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط1، دائرة المعارف، حيدر آباد، 1389هـ/ 1969م، 6/1

إلى ذلك، فإنّ كلمة "نظام" كلمة مستقلة معناها في القاموس: الخيط الذي يُعقد به اللآلئ والأشياء مثلها بشكل منظم. "النظام كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه".[1] ويقال "ليس لأمره نظام" لشيء غير مرتب وغير منظم".[2] ومن وجهة النظر هذه، فإنّ النظام يعني روابط تخلق الارتباط بين أشياء مختلفة أو أجزاء مختلفة للكلام التي تؤدي إلى الحسن والجمال. والمصطلح الذي يعتمد عليه العلّامة الفراهي هو الجامع للمصطلحين، نظم القرآن والمناسبة في القرآن. ويبّين العلّامة الفراهي النظام على النحو التالي:

"إعلم أنّ مرادنا من النظام أن تكون لكل سورة صورة مشخصة. فإن معاني الكلام إذ ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، كان الكلام ذا وحدانية. فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخصة، فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة، رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضاحة".[3]

اختلف العلماء في نظم الكلام. فهناك طبقتان. طبقة تؤمن بالنظم وأخرى تنكره:

فالطبقة الأولى يكتب عنها العلّامة السيوطي في الإتقان: "أوّل من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيشابوري (937م/326هـ). وكان غزي العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسيّ إذ قرئ عليه: لم جُعِلَتْ هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة".[4]

وقد أضاف الشيخ ولي الدين الملوي إلى هذا العلم قائلًا: "قد وهم من قال: لا يُطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرقة. وفصلُ الخطاب: أنها على

[1] الفيروز آبادي، القاموس الحيط، نول كيشور، لكناؤ، المادة: نظم

[2] نفس المصدر

[3] الفراهي، عبد الحميد، دلائل النظام، ط1، الدائرة الحميد ية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، ص 75

[4] السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المؤسسة الإسلامية، دلهي، 268/2.

حسب الوقائع تنزيلًا، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلًا، فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ، مرتبة سورُه كلّها وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزّة؛ ومن المعجز البيّن أسلوبُه ونظمه الباهر، والذي ينبغي في كلّ آية: أن يبحث أوّل كل شيء عن كونها مكمّلة لما قبلها أو مستقلّة؛ ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جمّ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له".[1]

وقد ألّف أبو الفرج أحمد بن علي المقري الهمداني ( 398هـ/1009م) أول كتاب في هذا الموضوع بعنوان "علم المناسبة".[2] وقد قام بتطوير هذا الفن القاضي أبو بكر بن العربي (543هـ/1148م) وهو أوّل مفسّر اعتنى بترتيب الآيات لدرجة أنه اعتبر القرآن كله كلمة واحدة حيث رُتبت جميع آياتها بنظام خاص مثل وحدة بسيطة.[3]

أما العالم الذي جعل علم المناسبة فكرًا له وطبقه في تفسير القرآن الكريم بكثرة هو الإمام فخر الدين الرازي (1209م/606هـ) الذي يحتل تفسيره "مفاتيح الغيب"، المعروف بـ"التفسير الكبير"، مكانة مرموقة من بين التفاسير العربية. قال العلّامة السيوطي: الإمام فخر الدين الرازي من العلماء الذين بيّنوا المناسبات بكثرة، وقد كتب في تفسيره أنّ "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".[4]

وبعد الإمام الرازي، ألّف العلّامة أبو جعفر بن زبير الغرناطي (1308م/708هـ) كتاباً كاملًا في هذا الموضوع باسم "البرهان في مناسبة ترتيب القرآن"،[5] وكتاب الإمام برهان الدين البقاعي "نظام الدرر في ترتيب الآي والسور" كتاب هام في هذا الموضوع.[6] وكتاب

[1] نفس المصدر، ص 268-269

[2] الأزهري، عبد الصمد، تاريخ التفسير، مطبع أناركالي، لاهور، ص 133

[3] القطان، مناع، مباحث فى علوم القرآن، الناشر، مكتبة وهبة، القاهرة، ص 92.

[4] السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المؤسسة الإسلامية، نيودلهي، 268/2

[5] نفس المصدر، ص 267.

[6] نفس المصدر

"أسرار التنزيل" للعلّامة السيوطي أيضًا في نفس الموضوع،[1] وقدّم خلاصته باسم "تناسق الدرر في تناسب السور".

ومن بين علماء العرب في العصر الحديث الشيخ محمد عبده (1323هـ/1905م)، والعلّامة رشيد رضا المصري، والعلّامة طنطاوي الجوهري قد ناقشوا النظم والمناسبات للآيات في تفاسيرهم بالإضافة إلى العلوم الأخرى.[2]

إنّ أعمال علماء الهنود في هذا المجال بارزة جدًا. ولقد اهتم العلّامة مخدوم المهائمي بالنظم والترتيب اهتمامًا بالغًا في تفسيره "تبصير الرحمن وتيسير المنان". وهو يكتب بنفسه حول ربط الكلام وترتيب الآيات: لقد بيّنت نكات ونوادر لم يتمكن أحد من الوصول إليها قبلي. لقد منّ الله تعالى علي بنعمة خاصة قد مكنت من كشف أسرار نظم القرآن وإبراز إعجازه.[3]

هذا، وكتاب "الدرر النظم" لعالم القرن الحادي عشر الشيخ منور بن عبد الحميد اللاهوري يستحق الذكر في هذا الفن.[4] ومن بين تأليفات العلماء الهنود المتأخرين، "مشكلات القرآن" للمولانا أنور شاه الكشميري، وتفسير "بيان القرآن" باللغة الأردية للمولانا أشرف علي التهانوي "سبق الغايات في نسق الآيات"، وكتاب "أمالي تفسير القرآن" للمولانا عبيد الله السندي، و"ترتيب سور الكريم في النزول والمصاحف" لتلميذه موسى جار الله، و"بلغة القرآن في ربط آيات الفرقان" و"جواهر القرآن" للمولانا حسين علي، و"سمط الدّرر في ربط الآيات والسور وخلاصتها المختصر لمن أراد أن يتذكر أو يتدبر" للمولانا محمد طاهر، وغير ذلك. وبالرغم من إسهامات العلماء المذكورين أعلاه فقد ظلّ هذا العلم ناقصًا بسبب قلة التطبيق لتلك المبادئ والقواعد، الأمر الذي أدّى

[1] نفس المصدر

[2] الحريري، غلام أحمد، تاريخ التفسير والمفسرين، مطبعة الاستقلال، لاهور ص 676

[3] المهائمي، علي بن أحمد بن إبراهيم، تبصير الرحمن وتيسير المنان، بيروت، المزرعة بناية الإيمان، ص 3.

[4] الحسني، عبد الحي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، حيدر آباد، 1904م، 412/5

إلى كثرة الأخطاء في تفسير القرآن وفتحت أبواب الاعتراض على القرآن.[1]

والطبقة الأخرى تنكر النظم في القرآن، وترى أنه لا يوجد أيّ نظم في القرآن، إلا أنّ عددها قليل. ولذا يقول الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام: "إنّ القرآن نزل في نيّف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شُرِعَتْ لأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض".[2]

فإنّ العلامة الفراهي، الذي لُقّب بترجمان القرآن، هو من الطبقة الأولى التي تؤمن بنظم القرآن، وكان يُعتبر السلسلة الأخيرة من تلك الحلقة الذهبية والهامة. لقد نظر العلّامة الفراهي إلى قضية نظم القرآن من وجهة نظر مختلفة تمامًا وتدبّر في هذا الموضوع بمنهج جديد. وهو يكتب: أقول بكل ثقة بأنني لم أتبع أحدًا في البحث عن نظم القرآن، اهتديت من الله تعالى.

ويكتب العلامة الفراهي عن كشف أسرار النظم ودوافع النظر فيه بهذا الأسلوب قائلًا: "وقد يسّر الله تعالى لي فهم نظم القرآن في سورة البقرة وسورة القصص من نفس القرآن وإني كنت مولعًا بتلاوته وهو أحبّ الكتب وألذّه عندي ولله الحمد. وقد كنت أسمع أنّ القرآن أشتّ الكتب نظمًا لنزوله نجمًا نجمًا ولكن بعدما ظهر لي النظام في سورتين حثّني على التدبّر في باقيها وكنت في حدث السنّ وغور الفرصة فمضت بضع عشر سنين حتى وفّقني الله تعالى أن ابتدأت من أوّل القرآن ويسّر لي الإتمام في سنة كاملة".[3]

بعد أن تأمل العلامة الفراهي في القرآن من كل جهة لفترة من الزمن، توصل إلى أنّ القرآن كتاب منظم ترتبط كل آية فيه بعضها بالبعض، وإنّ كل سورة مرتبطة بالسورة الأخرى بطريقة لا يمكن فهم البعض دون البعض. فلا يمكن الوصول إلى

[1] أعظمي، ألطاف أحمد، الأفكار الأساسية للإمام الفراهي، مطبعة البلاغ، نيودلهي، ص20

[2] الفراهي، عبد الحميد، تفسير نظام القرآن، ص 30، الدائرة الحميدية، سراي مير، أعظم غره.

[3] نفس المصدر.

المعنى الصحيح إذا لم يُعتن بنظمها. فنزل القرآن بأكمله في صورة منظمة.

وما هو المراد من النظام عند العلّامة الفراهي؟ فهو يجيب: "إعلم أنّ مرادنا من النظام أن تكون لكل سورة صورة مشخصة، فإنّ معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، وكان الكلام ذا وحدانية، فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخصة، فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة، رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضاحة...".[1]

ويضيف العلّامة الفراهي في شرح النظام فيكتب: "...النظام لا بد له من عمود يجري إليه الكلام، فلا بد لطالب النظام أن يتأمل في مساق الكلام. فإنك ترى في السورة الواحدة مطالب شتى، ولا تعلم ما هو العمود الذي سبق إليه المعاني؟ ولن تهتدي إلى معرفة اتصال الكلام بعضه ببعض ودون معرفتك بمساق الكلام، ووجهة التي تسلك إليها أجزاءه، حتى تراها منظومة في سلك واحد. وبالجملة فالنظام هو الذي يعطي السورة وحدانيتها التي بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها، ذات عمود تجري إليه أجزاؤها".[2]

وفي رأي العلامة إنّ نظم الكلام هو المفتاح الوحيد للوصول إلى المعنى الصحيح للآية. فإذا افتقد مفتاح النظام افتقدت معاني القرآن الصحيحة، فهو يكتب: نظم الكلام هو الشيء الوحيد الرئيسي الذي يتعيّن به اتجاه الكلام الصحيح، وبه يمكن تصحيح أخطاء أهل البدع والضلال والتحريف، ولن يحفظ كلام الله من تأويلاتهم و تحريفاتهم إلا به.

**العلّامة الفراهي وعلم المناسبة:** مثلما أوضح العلّامة الفراهي علم نظم القرآن ونظامه وبيّن مكانته الأصلية وحدد مبادئه وأصوله، ولا نظير له في هذا المجال. كذلك أكمل علم المناسبة وأوضح حالته الأصلية التي هي في الواقع جزء من النظام نفسه. ولم يكن العلماء السالفون يعرفون هذه الحقيقة، وحتى العلماء الذين ناقشوها خلطوا بين النظم

[1] المصدر نفسه، ص 75

[2] الفراهي، عبد الحميد، دلائل النظام، الدائرة الحميدية ومكتبها، ص 76

والمناسبة فأدّى إلى عدم وضوح مكانته. ويفرّق العلّامة الفراهي بين النظم والمناسبة قائلًا: "...والفرق بينهما أنّ المناسبة هو جزء من النظام. فإنّ التناسب بين الآيات بعضها مع بعض، لا يكشف عن كون الكلام شيئًا واحدًا مستقلًا بنفسه".[1] فيقصد العلّامة الفراهي بأنّ المناسبة جزء من النظام وليست نظامًا كاملًا، يخلق النظام الارتباط بين كل آية وسورة، ولكن المناسبة لا يمكن وجودها في كل آية بل توجد في جميع السور والأجزاء. فخلاصة القول أنّ المناسبة مختلفة من النظم تمامًا. والاختلاط بينهما ربما يؤدي إلى الصعوبة في فهم القرآن.

**العلّامة الفراهي وعلم الحديث:** والحقيقة، أنّ مفسّر القرآن العلّامة الفراهي لم يتمكن من شرح مسلكه للحديث مثل أشياء أخرى بسبب أعماله الواسعة، إلا أنّ كتاباته المنشورة وغير المنشورة ومذكراته تدلّ على وجهة نظره في علم الحديث دلالة واضحة. ونجد آراء العلّامة عن الحديث في تأليفاته مثل "فاتحة نظام القرآن" والتكميل في أصول التأويل" وكتابه المخطوط "إحكام الأصول بأحكام الرسول". وملخص آراء العلّامة الفراهي هو أنه يعتبر القرآن الحكيم هو الأصل والأساس لكل من فلسفة الشريعة وأحكامها، لأنّ القرآن هو قطعي الثبوت وقطعي الدلالة كذلك. وغير ذلك من العلوم ظني. ولذا فالقرآن هو الأساس دائمًا. وستُختبر عليه العلوم كلها. وما يخالف مبادئه وتعاليمه فلا يقبل. فيقول العلّامة: هناك بعض المصادر أصلية وبعضها فرعية. الأصل والأساس هو القرآن وحده، وثلاثة أشياء لها منزلة الفرع: أحاديث الرسول التي بلغت إلى علماء الأمة، وأحوال الأمم الثابتة والمتفق عليها، وجزء من الكتب المنزلة على الأنبياء المحفوظة من التحريف على مرور الزمن. ويضيف قائلًا: "لولا تطرّق الظنّ والشبهة إلى الأحاديث والتاريخ والكتب المنزلة من قبل لما جعلناها كالفرع بل كان كلّ ذلك كان أصلًا ثابتًا يعضد بعضه بعضًا من غير مخالفة فوجب

[1] نفس المصدر، ص 74.

على من يحاول فهم القرآن أن لا يأخذ من الروايات ما يهدم الأصل أو يقلعه".[1] ويقول في مكان آخر: "والي يهمّك هو أنْ تجعل بين ما نطق به القرآن وبين ما تجد في الفروع سدًّا وحاجزًا فلا تخلطهما فالقدر الذي في القرآن ثابت والذي زاد عليه مظنة للوهم، فلا تجعل من أنك بعد ما في الفروع كالذي أنكر القرآن".

وفي رأي العلّامة الفراهي إنّ الأخبار، سواء كانت متواترة أو آحادًا، لا تنسخ القرآن، لذلك أينما يوجد التناقض بين كلام الله والأحاديث النبوية، يسود كلام الله ونقوم بتأويل الأحاديث أو التوقف، وهو يكتب: "والذي يهمّك هو أن تعلم أنّ الخبر وإن تواتر لا ينسخ القرآن وحقه التأويل أو التوقّف. ألا ترى أنّ الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل وعامة أهل الحديث يمنعون نسخ القرآن بالحديث".[2]

قدّم العلّامة آراء أئمة الفقه والحديث في تأييد مسلكه قائلًا: إنّ الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وعامة علماء الحديث لا يعتبرون الحديث ناسخًا للقرآن ولو كان الحديث متواترًا. ولذلك، عندما لا يتيقن بهذا أئمة الحديث، الذين يحتلون مكانة صاحب البيت في الحديث، فإننا لا نأخذ رأي الفقهاء والمتكلمين بعين الاعتبار.[3]

وهو واضح في أصول الفقه الشافعي والحنبلي. والنص الأصلي هو: "لا يجوز نسخ الكتاب بالسنة، ويجوز نسخ السنة بالكتاب، ويجوز نسخ المتواتر بالمتواتر، ونسخ الآحاد بالآحاد والمتواتر، ولا يجوز نسخ المتواتر بالآحاد".[4] وكذلك في الفقه الحنبلي: "ويجوز نسخ القرآن والسنة المتواترة والآحاد بمثلها والسنة بالقرآن لا هو بها".[5]

---

[1] الفراهي، عبد الحميد، تفسير نظام القرآن، ص 39، الدائرة الحميد ية، سراي مير، أعظم غره.

[2] نفس المصدر، ص 41.

[3] نفس المصدر، نفس الصفحة.

[4] الجويني، الورقات مشمولة مجموع متون أصلية مهمة فى المذاهب الأربعة، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ص 43

[5] البغدادى، صفي الدين، قواعد الأصول ومعاقد الفصول متون أصولية مهمة فى المذاهب الأربعة، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ص 146

يقدر العلامة الفراهي الأحاديث النبوية تقديرًا بالغًا. إنه لا يفضل الأحاديث على القرآن أو التأويل بها. ولا يعني ذلك أبدًا بأنه لا يستفيد من الحديث في تفسير القرآن، بل يقول: قد اتضح لي أنّ المرجع الأول في فهم القرآن وتفسيره هو القرآن نفسه ثم فهم النبي صلّى الله عليه وسلّم ثم فهم الصحابة رضوان الله أجمعين. فالحمد لله إنّ أحب التفاسير عندي هو الذي نقل عن النبي صلّى الله عليه وسلّم ثم الصحابة رضوان الله أجمعين.[1]

وقد اتضح من الاقتباس أعلاه حبّ العلّامة الفراهي للحديث النبوي. والشخص الذي يحمل مثل هذه النظرة المعتدلة للحديث والذي يعتبر أحب التفاسير تفسيرًا يتوافق مع الحديث، لا يصح اتهامه بإنكار الحديث.

**الفرق بين الحديث والسنة:** ومن الجدير بالذكر أنّ هناك فرقًا بين السنة والحديث عند العلّامة الفراهي. وليس كلاهما في درجة واحدة عنده. بل السنة واجبة العمل. فهو يكتب في إحكام الأصول: "القسم الثالث ما لا نجد في الكتاب ولكن الزيادة به محتملة. فجعلنا السنة فيه أصلًا مستقلًّا، فإنّ الله تعالى أمرنا عمومًا بإطاعة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأمر الرسول بالحكم بما يريه الله تعالى سواء كان بالكتاب أو بالنور والحكمة التي ملأ الله بها قلبه".[2]

يتضح من الاقتباس أعلاه بأنّ مكانة السنة تختلف تمامًا عن الحديث عند العلامة الفراهي، كما يتضح أيضًا من الشواهد والأدلة الأخرى أنه كان يُفرّق بين الحديث والسنة. وقد قدّم ألطاف أحمد الأعظمي في كتابه "الأفكار الأساسية للإمام الفراهي" أربعة مصادر توضح وجهة نظر العلّامة في السنة. يكتب العلّامة الفراهي في إحكام الأصول: "فإنهم (السلف) لصحة مذهبهم في أمور الدين اعتصموا بالكتاب والسنة كليما

[1] الفراهي، عبد الحميد، تفسير نظام القرآن، ص 35، الدائرة الحميد ية، سراي مير، أعظم غره.
[2] الفراهي عبد الحميد، رسائل في علوم القرآن، المجموعة الثانية، الدائرة الحميدية، الهند، ص 114

ولم يرفضوا واحدًا منهما، كما فعل المبطلون الملحدون".[1] والواضح من هذا النص أنّ العلّامة الفراهي كان يعتبر إنكار السنة كفراً وإلحادًا وينكر التفريق بين القرآن والسنة.

هذا، ويحكي المولانا عبيد الله السندي لقاءه مع العلّامة الفراهي في مكة قائلًا: في تلك الفترة كنا نقضي أوقاتًا طويلة معًا. وقد توافقت آراؤنا، ولكن بدأ هناك أيضًا جدل حول: ما إذا كان يؤمن بالحديث أم لا. أصررت على أن يؤمن به ورفضت إنكاره رفضًا باتًا. وقال بعد ملّ هذا الجدال: ماذا تريد مني؟ قلت: صدّق موطأ الإمام مالك. قال: أصدّقه. فقلتُ إنه من اليوم قد انتهى الخلاف بيني وبينك. ولا نجبرك على قبول صحيح البخاري.[2]

وموطأ الإمام مجموعة من الروايات التي مبدؤها تعامل أهل المدينة، أي أنّ الإمام مالك قد جمع الأحاديث التي عمل بها أغلبية أهل المدينة، وخاصة العلماء والفقهاء، فكأنّ تصديق الموطأ للإمام مالك تصديق السنة النبوية، وهو ما أقرّه العلّامة الفراهي بصراحة.

وبهذا التفصيل اتضحت وجهة نظر العلامة بأنه لم ينكر الحديث. بل على العكس من ذلك، كان يضع الحديث في موضع عالٍ يجب أن يوضع فيه الحديث. نعم، والصحيح بأنه لا يفضل الحديث على القرآن. وهو يبين وجهة نظره قائلًا: "وإني مع اليقين بأنّ الصحاح لا تخالف القرآن لا آتي بها إلّا كالتبع بعدما فسّرت الآيات بأمثالها".[3]

وبما أنّ العلّامة الفراهي يعتقد أنّ القرآن وحده هو الأصل والفيصل في كل شيء، فإنه يقدّم أقوال مصادر ثانوية مثل الحديث والآثار والتاريخ والكتب السماوية السابقة، الموثوقة بالقرآن، لإثبات وتوثيق المفاهيم المشتقة من القرآن فقط، وليس التفسير من خلاله. وهذا هو رأي العلّامة الفراهي.

[1] نفس المصدر، ص111

[2] الفراهي، عبد الحميد، تفسير نظام القرآن، ص 16، الدائرة الحميدية، الهند

[3] المصدر نفسه، ص 36

**أسباب النزول والعلامة الفراهي:** ومن المعلوم أنّ الآيات القرآنية نوعان. منها ما وردت عنها ذكر واقعة أو حالة في الأحاديث، كما كتب المفسّرون عن سورة الكوثر بأنه: لما توفي إبراهيم ابن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، بدأ المشركون يستخدمون كلمات غير لائقة ضد الرسول وقال أحدهم: لا تسأل عن محمد، فإنّ أصله قد انقطع. وليس له أبناء ذكور، فإذا مات يُفنى اسمه، وإلى ذلك. فنزلت هذه السورة ردًا على قولهم بأنّ النبي ليس مقطوع الأصل بل أيها المشركون أنتم "البُتر". والنوع الآخر من الآيات هي التي ليس لها سبب النزول، مثل "وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ" و"وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ" وغير ذلك".[1]

وتسمّى الأحداث المتعلقة بالنوع الأول من الآيات أسباب النزول. أي أنّ هذه الحادثة هي سبب نزول هذه الآية. وهناك نظريتان عند المفسّرين عن أسباب النزول. وكلتاهما في الأصل متماثلة، والفرق في الأسلوب فقط. فيقول المفسّرون: إن أسباب النزول إما أن تكون سببًا لآية من القرآن، أي إذا حدث أمر ونزلت آية للرد عليه أو لبيانه، فإنه يسمّى سبب نزول هذه الآية. وكذلك إذا حدث شيء له حكم أو توجيه موجود في آية، ففي تلك الحالة يصف المفسرون نفس الحدث أيضًا تحت نفس الآية، ويعنى ذلك بأنّ التوجيه بخصوص هذا الحدث موجود في هذه الآية، كما كتب العلّامة السيوطي في الإتقان نقلًا عن الزركشي: ومن عادة الصحابة والتابعين أنهم إذا قالو إن آية كذا نزلت عن كذا، فمعنى ذلك بأن تلك الآية مشتملة على ذلك الحكم. ولا يعني أنّ ذلك الشيء بعينه هو سبب نزول هذه الآية. فكأنّ هناك استدلال من تلك الآية على ذلك الحكم، ولا يُقصد نقل الحدث. أقول إنّ هذا الأمر أيضًا مهم للغاية في أسباب النزول. وليس من الضروري أن الآية نزلت في نفس العصر الذي وقع فيه الحدث.[2]

[1] عثماني، محمد تقي، الترجمة السهلة للقرآن، 1963/3، مطبعة عمران، نيودلهي.

[2] السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المؤسسة الإسلامية نيودلهي، 93/1

والخلاصة أنّ المراد من أسباب النزول لدى المفسّرين هي ظروف وأحداث تؤدي إلى نزول الآية أو تُبيّن الأوامر المتعلقة بنفس الحدث في نفس السورة أو الآية. كأنّ أسباب النزول لدى المفسّرين هو أمر خارجي يؤدي إلى نزول الآية.

وفي رأي العلّامة الفراهي يختلف مفهوم أسباب النزول تمامًا. وقد سبق أنّ العلّامة يعتقد بأنّ القرآن هو الأصل. ويُختبر كل شيء على أساسه، وليس على أساس التقاليد والأحداث. وبالإضافة إلى ذلك، يأتي العلّامة الفراهي بالمصادر الثانوية فقط لتأييد معنى القرآن وليس لتفسيره، فيقول: "ليس شأن النزول كما قيل تسامحًا سبباً لنزول آية أو سورة بل شأن الناس وأمرهم الذي كان محلًّا للكلام فما من سورة إلا ولها أمر أو أمور جعلتها نصب العين وذلك تحت عمود السورة فلك أن تلتمس شأن النزول من نفس السورة فإنّ الكلام لا بد أن يكون مطابقًل لموضعه".[1]

كأنّ أسباب النزول عند العلّامة شيء داخلي للقرآن ولا يحتاج إلى أحداث خارجية لمعرفتها، بل الكلام نفسه يدلّ عليها. وبعد ذلك، يشرح أسباب النزول المذكورة في الأحاديث قائلًا: وما جاء في الأحاديث من نزول آية كذا في أمر كذا وكذا، فمعنى ذلك أنّ السورة قد نزلت في هذه الظروف لكي تُعرف الأسباب والدوافع لنزول السورة".[2] وصلنا إلى نتيجة من التفاصيل المذكورة بأنه كلما نزلت السورة نزلت للأمور التى اقتضاها الحال، والتي تحتاج إلى التفسير والتوضيح. فلا بد من التوضيح والتفسير وأن يكون كلامًا خالياً من اللبس والغموض في نظمه.

ويعني هذا أنّ أسباب النزول عند العلامة لا يبحث عنها في الخارج بل يتم معرفتها من داخل السور مع مراعاة نظام السورة نفسها، لأنّ أسباب النزول الموثوق بها هي التي تنبثق من آية القرآن نفسها. فتمسّكوا به لأنّ كل ما جاء من مصادر عكسية لن

[1] الفراهي، عبد الحميد، تفسير نظام القرآن، ص 37، الدائرة الحميدية، سراي مير، أعظم غره.
[2] نفس المصدر

يساعد في الوصول إلى المعنى الصحيح. فيكتب: "فإن أردت الحق الصريح واليقين المريح فلا يبعدك طلب شأن النزول عن أصل نظم القرآن فيبهم عليك الأمر ويغادرك في متفرق السبل لا تدري أيها تسلك بل تجسّس شأن النزول من القرآن ثم خُذ من الأحاديث ما يؤيد القرآن لا ما يبدّده".[1]

اطلعنا على نظرية العلّامة الفراهي التفسيرية من المباحث المذكورة. هذه التفاصيل التمهيدية المذكورة أعلاه مفيدة لفهم الفكر الفراهي. نجد أنّ العلّامة لم يقلد أحدًا في فهم القرآن، بل خلق هو بنفسه جميع الأصول والمبادئ اللازمة لفهم القرآن. وبعد سنوات طويلة من الدراسة العميقة توصل العلّامة إلى أنّ المبادئ المتواجدة لفهم القرآن غير كافية. وتمسّ الحاجة إلى تحديد الأصول والمبادئ من جديد التي تلزم للتدبر في القرآن. وفي مقدمة تفسيره يعبر عن آرائه حول سائر العلوم مثل اللغة والبلاغة والفقه وإلى ذلك قائلًا ما يفيد: "أمّا في سائر الألفاظ وأساليب حقيقتها ومجازها فالمآخذ فيه كلام العرب والقرآن نفسه وأم كتب اللغة فمقصرة فإنها كثيرًا ما لا تأتي بحدّ تامّ ولا تميز بين العربي والقح والمولد ولا تهديك إلى جرثومة المعنى فلا يدرى ما الأصل وما الفرع وما الحقيقة وما المجاز".[2]

ويقول العلامة الفراهي عن علوم أخرى مثل النحو والمنطق والأصول والبيان والبلاغة والقافية وغيرها: "أما باقي علوم اللسان كالنحو والمنطق والأصول والبيان والبلاغة والقافية فالكتب المتدوّنة فيها مع كثرة فوائدها أشدّ تقصيرًا من كتب اللغة لفهم القرآن. أما النحو فيحتاج إلى زيادات بل ليس من شأنه إلا تأسيس أصول كلام وسيط بين السقط والرفيع فلا ينبغي للمفسّر أن يابلغ في تطبيق كلام الله بأصول النحو فيرممه ويأوّله ... بل عليه أن يأتي بشهادة من أشعار العرب ليعلم

[1] نفس المصدر، ص 38

[2] نفس المصدر، ص 42

الجاحد أنه لهو الأسلوب الأعلى".[1]

يقول العلّامة عن المنطق: "وأم المنطق فمداره التدقيق في استعمال ألفاظ التحديد والنفي والاستثناء وسوق الدليل فيشكل عليه "وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا" [و] "وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ" ولا يهتدي لحجج القرآن".[2] وتعليقًا على علم البيان يقول العلامة الفراهي: "وأما علم البيان فحاله كحال النحو لا يتصدّى لكلام يتفجّر من صدوع القلب الحيّ وما أبعده مما يتصبّب من سماء الوحي".[3]

وتعليقًا على أصول الفقه يقول العلّامة: "وأما الأصول فإنّا لا نجحد فضل من أسّس هذا الفنّ فإنهم لم يأخذوه من اليونان ولا الهند ولا غيرهما بل دعت الحاجة إلى وضع أصول لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنة فهم قدوة في هذا الفن الشريف ولكن الخلف لم يهتدول لتهذيبه وإصلاحه فبقي الفن واهي القوى ضئيل الأركان ولمّا يبلغ مبلغًا يستحقّ اسم الفنّ".[4]

كما يقول عن البلاغة: "وأما البلاغة فاستخرجوها من أشعار العرب، والأشعار يضيق مجالها، كانت مقتصرة على وجوه السبك ورشاقة اللفظ والبديع. أما حسن الاستدلال ورباط المعاني وضرب الأمثال والاعتبار من القصص وجرّ الكلام ثم العود إلى عموده والوعد والزجر والتأكيد بشدة يقين المتكلم والإعراض، إعراض الترفع، والحسرة، حسرة المعلم الناصح وغير ذلك مما يوجد في خطبات البلغاء ووحي الأنبياء فما ذكروه في علم البلاغة لأنهم فاتتهم خطبات العرب ... ثم علم البلاغة غير مقنع معرفة أساليب الكلام".[5]

[1] نفس المصدر
[2] نفس المصدر، ص 43.
[3] نفس المصدر
[4] نفس المصدر
[5] نفس المصدر، ص 44

وقد اتضح من تعليقات العلّامة الفراهي في الاقتباسات السالفة المتعلقة بالعلوم المختلفة مدى عنايته بدراسة هذه العلوم وعمقه فيها، فتوصل العلامة إلى نتيجة أنّ العلوم اللازمة لفهم القرآن ليست كافية للتدبر في القرآن، ولا يمكن الوصول إلى المفاهيم الصحيحة لكتاب عظيم مثل القرآن بمساعدتها. فبدأ يرتب القواعد والأصول لفهم القرآن، وبالرغم من أنه لم يُقدر العمر الكافي ولم يتم العمل في هذا الفن كما كان يريد العلامة إكماله، إلا أنّ هناك أشياء كثيرة مبعثرة في تفسير نظام القرآن ورسائل مختلفة والتي كان يريد أن يستخدمها لإفهام القرآن. وإن تفيسر نظام القرآن، وإن كان تفسيراً لبعض السور، مثال يحتذى به للعاملين في هذا المجال، ويمكن العمل بسهولة متبعًا هذا المنهج. والحمد لله لم تذهب محاولاته هباء، وفي ضوء أفكار العلّامة الفراهي وأصوله لفهم القرآن قد كتب تلميذه البارّ المولانا أمين أحسن الإصلاحي تفسيراً للقرآن باسم "تدبر قرآن" وقدّم للعالم نموذجًا مثالياً لأصول التفسير للعلّامة الفراهي.[1]

[1] مع الشكر لمجلة "تدبر" الشهرية، العدد: 97، أبريل 2024م/93-106

ISSN: 2321-7928

# علوم القرآن كما يراها العلّامة عبد الحميد الفراهي

- جنّت تفتاحي[1] وسيّد محمد مرزائي الحسيني[2]

ترجمة من الإنجليزية: محمد أشرف حسين[3]

كتب علماء القرآن الكثير حول علوم القرآن وقد ركّز بعضهم على مناقشة المسائل في مقدمة تفاسيرهم أو في أجزاء من نصوصها. يعدّ العلّامة عبد الحميد الفراهي من المفسّرين الذين عاشوا في القرن الرابع عشر الهجري وهو من مواليد "فريها" إحدى قرى مديرية أعظم كره في الهند.

درس العبرانية والعلوم العقلية والنقلية وعادات الأمم والتاريخ، كما درس الفلسفة العربية الجديدة على أيدي كبار العلماء أبرزهم العلّامة شبلي، الشيخ عبد الحي الفرنغي محلي، فضل بن نعمة الله الأنصاري والشيخ فيض الحسن السهارنفوري.

ألّف الفراهي "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" للدفاع عن القرآن وحماية التفسير عن الروايات الإسرائيلية الباطلة.

ألّف الفراهي أكثر من خمسين كتابًا في علوم القرآن والشعر والنحو والبلاغة في اللغة العربية والأردوية والإنكليزية والفارسية. بسبب معرفته العميقة بمعاني القرآن نال مكانة قلّ أنْ يصل إليها العلماء لذلك لقّبه معاصروه بـ"ترجمان القرآن" (انظر: فراهي، مقدمة الناشر. 27.2002)

لم يحظ تفسير "نظام القرآن وتأويل القرآن بالفرقان "باعتناءٍ كافٍ من الباحثين رغم

[1] قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة لورستان، إيران

[2] قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة لورستان، إيران

[3] مدرّس في إحدى مدارس الثانوية في بنغال الغربية (الهند)

كونه تفسيراً معاصراً للقرآن الكريم. يتكون هذا الكتاب من مجلدين ويشمل تفسير خمس عشرة سورة بأسلوب جديد. في مقدمته حاول الفراهي أن يركّز على جوهر علوم القرآن لكيلا يدخل في تفاصيل الموضوعات الأخرى أثناء التفسير ولكن ألّف خمسة كتبٍ قيمةٍ حول هذه الموضوعات وهي تعدّ مقدمة لتفسيره "نظام القرآن". وهي: (1) القائد إلى عيون العقائد (2) إحكام الأصول بأحكام الرسول (3) التكميل في أصول التاويل (4) الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ (5) حجج القرآن.

يحاول كاتبا هذه الورقة أن يجيبا بالأسئلة التالية:

ما هي آراء الفراهي في نظام السور وآيات القرآن، والنسخ، والحروف المقطعة، والوحي، ومدى قطعية القرآن كمصدر مرجعي؟

حسب ما يعرف الباحثان، لا يوجد بحث سابق يتناول هذا الموضوع بشكل مباشر. هناك بعض الدراسات التي تناولت سيرة الإمام عبد الحميد فراهي ومنهجه في التفسير، مثل البحث الذي أُجري في دمشق عام 2004 بعنوان "الإمام عبد الحميد فراهي ومنهجه في التفسير"، لكنه يقتصر على عرض مقتضب لبعض أمثلة تفسيره لسور القرآن.

كما توجد دراسة أخرى بعنوان "الإمام عبد الحميد فراهي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن"، ألّفها محمد فريد راوي ابن عبد الله الماليزي عام 2015، وتتناول مؤلفاته ومنهجه في التفسير، مع مقارنتها بتفاسير أخرى، لكنها لا تتطرق إلى آرائه في علوم القرآن.

أما هذه الورقة البحثية، فتتناول بعض نظرياته في علوم القرآن، مثل نظام السور والآيات، والحروف المقطعة، والوحي، وقطعية القرآن كمصدر مرجعي.

**ترابط السور وآيات القرآن:** عند دراسة جميع سور القرآن، يتضح انسجامها وترابطها التام، دون أيّ تعارض أو تناقض، وهو ما يُعرف بترابط السور والآيات. الإيمان بهذا الترابط أثناء التفسير يساعد المفسّر على النظر إلى الآيات كوحدة مترابطة، بدلًا

من تفسير كل آية بشكل مستقل.

من هذا المنطلق، يرى المفسّر أنّ القرآن منظومة متكاملة، حيث ترتبط أجزاؤه ببعضها البعض بروابط عميقة. لكن لا يمكن للمفسر الاستفادة من هذا التناسق العام إذا لم يؤمن بالتناسب بين الآيات، أو بتدرّج نزولها، أو بوحدة الوحي سواء كان نزوله كاملًا أو على أجزاء (مودب، 2009: 142).

في هذا السياق، سنستعرض مفهوم "النظم" و"التناسب" بين الكلمات والمصطلحات، وفق رؤية الإمام عبد الحميد الفراهي.

**المعنى اللغوي لمصطلح "النظم":** المعنى اللغوي لمصطلح "النظم" هو ترتيب الأشياء وتنسيقها وتنظيمها (عميد: 2010 ص 1128 وبندر رضي 1993: 592) ويُطلق على حبات اللؤلؤ وما شابهها عندما تُنظم على خيط وتُرتب بجانب بعضها البعض مصطلح "**منظَّم**" (انظر: ابن منظور، 1414هـ، ج 12، ص 578-579). أما الخيط أو السلك الذي يجمع هذه الحبات ويضمها معًا، فيُعرف بـ"**النظام**"، وجمعه "**نُظُم**" (انظر: بندر ريغي، 1993، ص 592؛ والفيروزآبادي، 2005، ص 1162.

أما عند علماء القرآن، فمصطلح "**النظم**" يُشير إلى الترابط بين بعض آيات القرآن بحيث تُشكل وحدة متكاملة ومتناسقة في المعنى (الزركشي، 1984، ج 1، ص 36).

وعلى الرغم من اختلاف موضوعات سور القرآن، إلا أنّ كل سورة تُعدّ وحدة مترابطة، حيث يرتبط أولها بآخرها والعكس، لتحقيق غاية واحدة. ومن يسعى لفهم "**نظم**" القرآن، عليه أن يضع في اعتباره جميع عناصر الآية، إلى جانب "**نظامها**" الداخلي (دراز، 1957، ص 159).

ولم يتمكن أحد من أسلافه من شرح هذه النظرية وترسيخها كما فعل الفراهي وكتب عنها. هو الذي أعاد لهذا العلم مكانته الحقيقية على أسس راسخة، موضحًا منهجه

وتعريفاته وأساليبه، كما ألّف كتابًا مهمًا في هذا المجال بعنوان "**دلائل النظام**" (فراهي، 2000، مقدمة الناشر، ص 5-6).

أما مستنصر مير، ففي مقدمة كتابه "انسجام در قرآن"، يتحدث عن التناسق في القرآن، مشيرًا إلى أنّ تفسير المسلمين للقرآن يتخذ أشكالًا مختلفة، مثل التفسير التقليدي، والكلامي، والأدبي، والفلسفي، والفقهي. لكنه يرى أنّ المشكلة الشائعة في معظم التفاسير هي التركيز على تفسير كل آية على حدة، دون الربط بينها وبين ما قبلها أو بعدها. ويذكر أنّ هذا النهج جعل البعض يعتقد أنّ "نظم" و"نظام" الآيات ليس لهما أهمية في التفسير. لذلك، لم يكن مفاجئًا أن يخلص بعض المستشرقين إلى أنّ القرآن يفتقد للترابط الداخلي. لكن مستنصر مير، مستشهدًا بالمفسّر الباكستاني أمين أحسن الإصلاحي، يشير إلى أنّ الأخير يرى في القرآن ترابطًا فريدًا يُكمل معانيه. وقد استخدم الإصلاحي (1418هـ)، مستندًا إلى منهج أستاذه عبد الحميد الفراهي، مصطلحات مثل "الانضباط"، و"الترتيب"، و"النظام" للإشارة إلى تناسق القرآن وترابطه (مستنصر مير، 2011، ص 51-59).

**المعنى اللغوي لمصطلح "التناسب":** يشير مصطلح "التناسب" أو "المناسبات" إلى الارتباط بين شيئين، أو القرب والتقارب بينهما. وعندما نصف شيئًا بأنه "مناسب" لشيء آخر، فهذا يعني أنّ بينهما تقاربًا أو انسجامًا. كما أنّ كلمة "نَسِيب" مشتقة من نفس المادة، وتعني القريب من حيث النسب، مثل الأخ أو ابن العم وغيره (انظر: موسوعة القرآن، ج 8، ص 652؛ والزركشي، 1984، ج 1، ص 61).

أما من الناحية اللغوية، فإنّ "التناسب" يشير إلى العلاقة التي تربط بين شيئين في أيّ اتجاه. ويمكن أن يكون "التناسب" في الكتابات إما موضوعيًا أو ذاتيًا. لكن في علوم القرآن، يأخذ المصطلح معنى أكثر دقة، حيث يشير إلى الترابط بين أجزاء الآية الواحدة، أو بين عدة آيات، وكذلك بين السور المختلفة.

أما علم المناسبات، فهو العلم الذي يكشف عن الروابط بين أجزاء القرآن التي قد تبدو للوهلة الأولى متفرقة أو غير مترابطة. وقد تكون هذه الروابط بين جزأين من نفس الآية، أو بين آيات متجاورة، وغيرها من أشكال الارتباط (انظر: موسوعة القرآن، ج 8، ص 652).

**نظم السور والآيات و"التناسب" في رؤية الفراهي:** يعدّ عبد الحميد الفراهي من المفسّرين الذين يعتقدون أنّ القرآن أنزل تدريجيًا وفق حكمة إلهية كما قال الله تعالى "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا" . (الفرقان: 32) حيث أنزلت الآيات بشكل متتابع لترسيخ معانيها في القلوب، ثم جُمعَ القرآن، وبُيّنَ ووضّحَ كما قال تعالى: "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ" (القيامة: 17)

عندما نتأمل في آيات القرآن، نجد أنّ النبي ﷺ كان يُرتّب الآيات وفق "النظم"، وكان جبريل يُنزلها عليه بهذا الترتيب، مما يؤكد وحدة المصحف وأهمية اتباع هذا الترتيب. وفي كتابه "نظام القرآن"، يسعى الفراهي إلى اكتشاف هذا النظم بين الآيات (الفراهي، 2008: 75). لكنه لم يتبع أساليب الفلاسفة أو المنطقيين أو الصوفية في الكشف عن نظم القرآن، بل اعتمد فقط على النص القرآني نفسه، حيث يقول:

"اتفق المفسّرون- القدماء منهم والمعاصرون- على أنّ أفضل وأصح طرق التفسير هو أن يفسّر القرآن بعضه بعضًا، لأنّ هذا النهج يهدي الإنسان إلى معرفة النظم والتناسب في الآيات، ويوفر أدلة أعمق للعلاقة الموضوعية بين مختلف القضايا، كما أنه يحفّز المفسّر على اكتشاف الروابط الكاملة بين الآيات، مما يقوده تدريجيًا إلى فهم المعاني الأكثر أهمية والأكثر وضوحًا." (انظر: الفراهي: مقدمة الناشر، 2000: 5-6).

يقدّم القرآن معاني متعددة بصيغ متنوعة ضمن جُمل مرتبة، بحيث تحمل التعبيرات المختلفة المفهوم نفسه، تمامًا كما ينظم القائد جنوده في تشكيلات مختلفة، ولا يدرك هذه الأنماط إلا من كان ملمًا بفنون القيادة. وبالمثل، فإنّ نظم القرآن لا يدركه إلا

من يمتلك دراية عميقة بالأدب العربي وفهمًا دقيقًا لمقاصد القرآن (الفراهي، 2008: 41). ويعود اختلاف الأساليب في القرآن إلى جمال التعبير وتجنب التكرار الممل، إذ إنّ تكرار المفاهيم بطرق مختلفة يساعد على فهمها، حتى لو لم تُفهم من المرة الأولى. كما قال تعالى: "ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ" (الأنعام: 65) (المصدر نفسه، ص 40-41)[1]

أما عن **طرق النظم في القرآن الكريم**، فقد حدّدها الفراهي في عدة أساليب، منها:

1. أن يكون الموضوع هو المحور الأساسي للسورة.
2. أن يُستخدم كدليل أو حجة.
3. أن يُعرض بإيجاز.
4. أن يُبسط ويفصل تفصيلًا.
5. أن يُذكر مقدمًا.
6. أن يُذكر لاحقًا.
7. أن يُطرح كقضية مستقلة.
8. أن يُجمع مع قضايا أخرى ذات صلة.[2]

ومعنى النظم في كتاب "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" هو وحدة الموضوعية وهو المعنى الذي أشار إليها الكتّاب المعاصرون.

يقول الفراهي: "أحيانًا يكون هناك تناسب بين آيات غير متجاورة، بحيث نجد أنّ

[1] شبلي النعماني (1273-1332 هـ)، لمزيد من المعلومات عن سيرته، انظر: عبد الحي، 1999، المجلد 8: 1241

[2] المصدر نفسه، ص 42

الآية اللاحقة، رغم بعدها، تتصل بالآية السابقة. ويُعدّ هذا الانقطاع الظاهري بين الآيات المتجاورة أمرًا شائعًا في القرآن، حيث نجد أحيانًا أنّ الآية أو مجموعة الآيات التي تتصل في موضوعها، قد تكون متباعدة مكانيًا. في مثل هذه الحالات، إذا تم تحديد النظام في القرآن، فإنّ معاني الكلمات المترابطة والمندمجة ستشكل صورة واضحة، مما يُعطي القارئ رؤية متكاملة للمعاني، وعند النظر من هذا المنظور، تتجلى روعة البيان وانسجام النص ووضوحه". (الفراهي، 2009: 75)

وبذلك، يُشير مفهوم "نظام السورة" إلى ترابط الكلمات وتناسبها مع ما سبقها وما يليها من السور. فكما أنّ هناك آيات معترضة ضمن السياق، كذلك قد تكون هناك سور تُؤدي وظيفة مشابهة. وفقًا لنظرية "النظم"، فإنّ القرآن من أوله إلى آخره هو منظومة مترابطة ذات وحدة متكاملة تجمعها رؤية موحدة ومنهج منسجم. وبالتالي، يُوفر "النظام" للسورة استقلالًا ووحدة تجعلها كيانًا متماسكًا، بحيث تكون مكوناتها مترابطة ومبنية بعضها على بعض. ومن أجل تحقيق "نظام" أفضل، يجب أن يكون "النظم" حسن الترتيب، متناسبًا ومنسجمًا في بنيته. (انظر: الفراهي، 2009: 75).

يرى بعض المفسّرين والباحثين في الدراسات القرآنية أنّ هناك **ترابطًا بين السور**، حيث إنّ آخر آية في كل سورة ترتبط بأول آية في السورة التالية (بابائي، 2000: 142-143).

ويؤمن الفراهي أنّ العلاقة بين الآيات لا تقتصر فقط على السورة نفسها، بل تمتد إلى العلاقات بين السور المختلفة. ولهذا السبب، عند تفسيره لكل سورة، يبدأ ببيان علاقتها بالسورة السابقة واللاحقة، ثم يفسّر العلاقات بين الآيات داخل السورة نفسها. ومن الأمثلة على ذلك:

1. يكتب الفراهي عن العلاقة والنظم بين آيات السور فيقول: إنّ سورتي النصر واللّهب ترتكزان على الآية: "وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا"

(الإسراء: 81) حيث إنّ سورة النصر تعكس معنى الجزء الأول من الآية "جَاءَ ٱلْحَقُّ"، بينما سورة اللّهب تجسّد معنى الجزء الثاني "وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ" و يكتب الفراهي أنّ سورة اللّهب تؤكد على المعنى الذي جاءت به سورة النصر، وتبشّر بأنّ الله نصر رسوله، وهزم أعداءه. (الفراهي، 2008: 575-576).

2. يكتب المفسّر عن النظم والترابط بين السور ويضرب مثالًا على ذلك بالعلاقة بين سورتي الفاتحة والبقرة أنّ البقرة هي "جبهة القرآن"، كما أنّ البقرة هي تاج القرآن والفاتحة هي جوهرته. سورة البقرة تعدّ تفسيرًا لسورة الفاتحة، حيث تجمع بين الإيجاز والتناسق في التعبير، كما أنها تُعتبر مقدمةً للقرآن الكريم توضح مضمونه. فالتفصيل بعد الإيجاز هو من أرقى أساليب التعليم التي نجدها في القرآن الكريم. كما قال الله تعالى: " الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ". (هود: 1)

ثم يبيّن الفراهي العلاقة بين سورة **البقرة** وسورة **آل عمران**، حيث إنّ هناك رواية تقول: "من قرأ سورتي البقرة وآل عمران، تأتيان يوم القيامة تُظلّانه كأنهما غمامتان فوق رأسه". (كفعمي، 1405هـ: 439).

وهذا يشير إلى أنّ هاتين السورتين تُشكلان **نعمة عظيمة للمؤمنين يوم القيامة**. ثم يُقدّم الفراهي أسبابًا لترتيب **البقرة** قبل **آل عمران**، ويفسّر ذلك في سياق ترابط السور داخل المصحف. (انظر: الفراهي، 2000: 29-31).

**أسباب اهتمام الفراهي بنظم القرآن:** من الأسباب التي دفعت الفراهي للاهتمام بنظم القرآن ما يلي:

1. **الاختلاف في التفسير:** يرى الفراهي أنّ الاختلافات في التفسير ترجع إلى قلة الاهتمام بالنظم بين الآيات. فلو كان نظم القرآن وكلماته واضحًا للجميع، لاجتمع الناس على كلمة واحدة وتحت راية واحدة. كما يقول الله تعالى: " أَلَمۡ

تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾" (إبراهيم: 24)، وقوله تعالى: "وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ" (آل عمران: 103).

2. **عجز العلماء عن الدفاع عن القرآن:** كثر انتقاد الكفار للقرآن، وزعموا أنّ فيه عيوبًا في نظمه. لكن كثيرًا من علماء المسلمين اكتفوا بالرد عليهم بقول الله تعالى: "كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا" (الكهف: 5)، بدلًا من تقديم ردود واضحة للدفاع عن كتاب الله بالحجة والبرهان.

3. **المعنى الخفي للكلمة:** لا يخفى أنّ النظم في الكلمات، إن لم يُراعَ بدقة، يؤدي إلى ضياع جزء من المعنى، ومن لا يفهم نظم القرآن يحرم من إدراك الكثير من مفاهيمه العميقة.

4. **اتباع نظم القرآن** :أنزل الله كتابه بشكل متدرج حتى يترسّخ، كما قال تعالى: "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾" (الفرقان: 32). ثم جُمعت معاني الآيات وتُليت وبُيّنت، كما قال تعالى: "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ" (القيامة: 17). وهكذا، عندما تكتمل السورة، فإنها تُجمع بأمر الله وتُفسر، والتأمل في آيات القرآن يظهر أن النبي ﷺ، بأمر من الله، وضع الآيات في مواضعها (النظم)، وتلاها جبريل عليه السلام على النبي ﷺ، وهذا هو ذاته التلاوة التي أمرنا باتباعها.

5. **في نظم آيات القرآن الكريم:** إنّ مَنْ كان على دراية بجمال آيات القرآن ووضوحها ونظمها، وبما تحمله من حجج ومواطن الحكمة العميقة، ازداد إيمانه بكتاب الله وثقته به؛ لأنّ معظم إعجازه يكمن في نظمه البديع. (انظر: المصدر نفسه، ص 15-20).

**نسخ الأحكام القرآنية:** يُعَدّ تغيُّر الأحكام القرآنية من أقدم الموضوعات التي طُرحت

في علوم القرآن (السيوطي، ج 2، ص 20؛ الزركشي، 1984: ج 2، ص 151-176)، ولآثاره في التفسير والفقه تأثير كبير. وفي هذا القسم، نستعرض رأي عبد الحميد الفراهي حول تغيُّر الأحكام المنسوخة، وأقسام النسخ، وأحكامه، وأصوله، والحكمة من وقوعه.

**أصول نسخ الأحكام القرآنية:** يذكر الفراهي في كتابه "الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ" أهمية النسخ، ويبحث في المسألة بشكل مستقل. ويرى أنّ خلاف العلماء في هذا الموضوع مجرد نزاع لفظي. ويُفسِّر النسخ وفق أربعة أصول:

1. **إمكان الجمع بين العام والخاص، والمفصَّل والمجمل، والواجب والمباح دون اللجوء إلى النسخ:** فطالما أمكن التوفيق بين النصوص دون إبطال أحدها، فلا حاجة إلى القول بالنسخ. ومثال ذلك تحريم الزواج من المشركات، وفي موضع آخر تحريم الزواج من الزانيات. فالحكم الثاني يشمل الأول، ولا حاجة لافتراض التناقض أو النسخ.
2. **نسخ الأحكام يكون عند التعارض بين حكمين، مع ترجيح أحدهما بالدليل العقلي أو الشرعي:** فحينما يظهر تعارض بين حكمين، ويثبت العقل أو النقل أنّ أحدهما أولى من الآخر، يكون النسخ حينها مبرَّرًا. كما قال الله تعالى: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 106).
3. **يجب أن يكون الانتقال في الأحكام تدريجيًا:** فمن الأفضل والأسهل على الناس أن يُوجَّهوا من الأحكام السهلة إلى الأحكام الصعبة بالتدريج. وإذا حصل العكس، فذلك لحكمة إلهية ومصلحة تقتضي ذلك. ومثال ذلك تقليل عدد المجاهدين الواجب توافرهم لخوض المعارك، وكذلك التخفيف في عدد ركعات صلاة العشاء. كما أنّ الله سبحانه وتعالى بيَّن الحكمة في ذلك، ليُدرك

الناس أنّ الحكم الأول كان موجَّهًا إلى فئة قوية صابرة، بينما الحكم الثاني شمل من هم أقل قدرة وثباتًا، فكان التخفيف رحمةً بهم.

4. التغيير والمُبدَّل إليه واضحان في الألفاظ. يقدّم الفراهي الآية 185 من سورة البقرة كمثال على الآية المنسوخة، حيث يقول الله تعالى: "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (البقرة: 185).

فالآية: "كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة: 183) تشير إلى فرض صيام يوم عاشوراء، الذي كان واجبًا على اليهود. وتوضح الروايات أنّ النبي ﷺ كان يصوم عاشوراء موافقةً لليهود، وكان ذلك اليوم في شهر ربيع الأول، الذي يوافق الشهر التاسع في تقويم اليهود.

كما تُبيّن الآية أنّ الصيام كان محددًا بيوم معين: "وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة: 184).

وكان على غير القادرين على الصيام دفع فدية، ثم أتى التوضيح بأنّ الصيام خيرٌ لهم. ولكن عندما أراد الله التمييز بين المسلمين واليهود، وأمر بالبراءة منهم، وغيّر القبلة، تغيّر أيضًا زمن الصيام إلى شهر رمضان، وفي النهاية، استُبدل حكم الفدية بوجوب الصيام.

كل هذه التغييرات تُمثّل انتقالًا من الأفضل إلى الأحسن، وهو ما يراه الفراهي من دلائل الحكمة الإلهية في التشريع، حيث لم يُنسخ تلاوة الآية، بل نُسخ الحكم الوارد فيها فقط. (انظر: المرجع نفسه، 146).

**تصنيف النسخ في القرآن الكريم:**

(أ) **نسخ الأحكام السابقة:** يرى الفراهي أنّ النسخ ينطبق بشكل أكبر على الأحكام السابقة، ويقسّمه إلى قسمين رئيسيين:

**1. نسخ الأحكام السابقة بما هو أصلح لتقدم البشرية:** ويستدل بالآية: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 106). ويشير إلى أنّ هذا النوع من النسخ هو مثال على إحلال أحكام أفضل مكان الأحكام السابقة.

**2. إعادة إحياء الأصل القانوني الذي نُسي بمرور الزمن:** ويستشهد بالآية: "مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ" (البقرة: 105). ويعلّق بأنّ أهل الكتاب كانوا يحسدون المسلمين، لكن الله يمنح رحمته لمن يشاء.

**(ب) نسخ البدع والأهواء:** يرى الفراهي أنّ هناك نوعًا من النسخ يتعلّق بإبطال الافتراءات والضلالات التي أدخلها أهل الكتاب والمشركون في الدين، ويستشهد بالآية: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (الحج: 52).

ويوضّح أنّ الله قد أزال الكثير من الأكاذيب التي أدخلها اليهود والنصارى في معتقداتهم وشرائعهم عبر القرآن الكريم، مثل:

- الإيمان بالتثليث.

- ادّعاء اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه.

- الاعتقاد بأن الله، بعد خلق السماوات والأرض، تعب واستراح يوم السبت.

ويؤكد أنّ القرآن الكريم جاء لإبطال هذه الادعاءات وتوضيح الحقيقة (المصدر نفسه، ص 163-164).

**نسخ القرآن بالقرآن ونسخ السنة بالقرآن:** عند دراسة كتابات الفراهي حول النسخ،

نجد أنه- بخلاف العديد من المفسّرين وفقهاء السنّة- يؤمن بأن **القرآن ينسخ بالقرآن، والسنة تنسخ بالقرآن**، لكنه يرفض بشكل عام **نسخ القرآن بالسنة.** (الفراهي، 2008: 30.).

فكرة **نسخ القرآن بالقرآن** مقبولة عند بعض رواة الحديث، لكن هناك من يعارضها. ومن بين العلماء السنّة الذين أقرّوا بهذه الفكرة الإمامان **الشافعي وأحمد بن حنبل.** يقول الشافعي: "لا يقع النسخ إلا بأن يكون القرآن ينسخ بالقرآن"، مستدلًا بقول الله تعالى: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 106) (أبوزهرة، 1958: 195-196).

أما الفراهي، فيرفض آراء الفقهاء والمتكلمين الذين يجيزون **نسخ القرآن بالسنة**، ويرى أنّ أقوالهم لا تعدو أن تكون أوهامًا وأخطاءً، ولا ينبغي الالتفات إليها. (الفراهي، 2008: 30).

**الحروف المقطعات:** عبّر المفسّرون والمترجمون والباحثون في علوم القرآن عن آراء متنوعة، وأحيانًا متباينة، حول **الحروف المقطعات** ومن بين هذه الآراء ما يلي، وسيتبعها مناقشة لرأي عبد الحميد فراهي:

**ما هي الحروف المقطعات:**

1. الحروف المقطعة لا يعلم معناها إلا الله (انظر: الطبرسي، 1981 م، ج 1، ص 55، والنجفي الخميني، 1398هـ، ج 1، ص 31).
2. هي من المتشابهات في القرآن، وعلمها عند النبي والأئمة (عليهم السلام) (انظر: الحسيني شاه عبد العظيمي، 1984، ج 1، ص 50، والمرزا الخسروني، 1390 هـ، ج 1، ص 44).
3. أسماء للسور، وكل سورة تعرف بالحروف التي تبدأ بها (انظر: الطبرسي،

1998، ج 1، ص 15؛ الطبرسي، 1981، ج 1، ص 55، والقارئ، 2004، ج 1، ص 41).

4. هي اسم الله الأعظم (انظر: الحسيني الهمداني، 1404هـ، ج 1، ص 34؛ الرضائي الإصفهاني، 1425هـ، ص 56-72، والقارئ، 2004، ج 1، ص 41).
5. مأخوذة من صفات الله تعالى (انظر: الطبرسي، 1998، ج 1، ص 15).
6. أقسامٌ يقسم الله بها (انظر: الطبرسي، 1998، ج 1، ص 15، والقارئ، 2004، ج 1، ص 41).
7. هي سرٌّ من أسرار القرآن (نظر: الحسيني الزفاري الإصفهاني، 2004، ص 14؛ الحسيني الهمداني، 1404هـ، ج 1، ص 34، والقارئ، 2004، ج 1، ص 41).
8. **حروف هيروغليفية:** يقول بعض الباحثين إنّ القرآن استعار هذه الحروف من اللغة الهيروغليفية، التي كانت تُستخدم كلغة دولية للكتابة والتخاطب قبل الإسلام. ويُعتقد أنّ هذه الحروف كانت تُستخدم في الإشارة إلى الأسماء والمناطق والقبائل والنباتات والجبال. (أدله، 2009، ص 10، 11 و20).

**رأي عبد الحميد الفراهي في الحروف المقطعات:** يرى عبد الحميد الفراهي أنّ الحروف المقطعات مستمدة من حروف اللغة العبرية، التي هي قريبة جدًا من اللغة العربية. وقد كتب عن الآية الأولى من سورة البقرة:

"(ل م) جملة مستقلة، و(ألم) تستخدم كما تُستخدم بعض الأسماء قبل بداية الكتب والفصول والموضوعات) "(انظر: الفراهي، 2000، ص 68).

ويعتقد الفراهي أنّ أسماء الحروف العربية ليست أصواتًا مطلقة مثل الأسماء في الهندية والإنجليزية، بل هي أسماء للأشياء وصور لها. لذا، فإن العديد من هذه الحروف أسماء لأشياء، وتحتفظ بشكل من صورها في تلك الحروف، حيث إنّ

الحروف هي بقايا لتلك التمثيلات المبكرة بناءً على أشكال الحروف نفسها.

وهذا يتضح أكثر عند النظر إلى الأشكال الخطية للحروف العبرية. على سبيل المثال:

- الحرف "ط" في العبرية (ט) يعني الأفعى، ونرى أنّ سورة طه تتحدث عن قصة موسى وعصاه التي تحولت إلى أفعى.
- السور الأخرى التي تبدأ بالحروف المقطعة (ط) مثل القصص، والشعراء، والنمل تبدأ أيضًا جميعها بقصة موسى (عليه السلام) وعصاه التي تحولت إلى أفعى.
- باستثناء هذه السور الأربع، فإنّ سورة الأعراف فقط تتناول قصة موسى إلى جانب أنبياء آخرين مثل نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب (عليهم السلام).

وقد أشار بعض العلماء السابقين، مثل السخاوي، إلى أنّ سورة طه تُسمّى بسورة "الكليم"، بينما أطلق عليها هزلي اسم "سورة موسى".

**أمثلة أخرى من اللغة العبرية:**

- في العبرية، كان حرف "ألف" (א) يُطلق على البقرة وكان شكله يشبه رأس البقرة.
- حرف "باء" (ב) يعني البيت.
- حرف "جيم" (ג) كان يُستخدم في الاسم "جميل" ويعني الجمل، وهذا واضح لكل من يعرف الكتابة العربية.
- حرف "نون" (נ) يعني السمكة، وقد جاءت سورة في القرآن باسم هذا الحرف "نون" وهي تتحدث عن النبي يونس (عليه السلام)، ولم تُسمَّ أي سورة أخرى باسم نبي معين.

**الوحي:** يشمل الوحي الأحداث التي وقعت في زمن الأنبياء (عليهم السلام) وكذلك الأحداث التي حدثت قبلهم، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم (معرفة، 1415هـ، ج 1، ص 254).

فعلى سبيل المثال، نقول إنّ آية معينة قد نزلت في شأن عصمة الأنبياء أو الملائكة، أو عن نوح أو إبراهيم أو آدم وغيرهم. (معرفة، بلا تاريخ: 47).

**الوحي عند الفراهي:** الطريقة الفريدة لفهم الوحي تتمثل في الرجوع إلى الروايات المروية عن الصحابة الذين شهدوا نزول القرآن الكريم وفهموا أسبابه وسياقه (الواحدي، 1983: 19).

يرى عبد الحميد الفراهي أنّ الوحي ليس سببًا لنزول آية أو سورة بعينها، بل الناس أنفسهم هم الذين تسبّبوا في نزول الآيات. فكل سورة تحتوي على موضوع أو مواضيع تركز عليها بشكل خاص، وهي تشكّل الأساس الذي تقوم عليه السورة. لذلك، ينبغي البحث عن سياق الوحي داخل السورة نفسها، لأنّ الألفاظ يجب أن تتناسب مع السياق، كما يدرك الطبيب المرض من خلال وصفة المريض. وعليه، يجب أن تتوافق الكلمات والموضوعات مع بعضها البعض بشكل متكامل.

فعندما يقال إنّ آية معينة قد نزلت في سياق حدث معين، فهذا يعني أنّ ذلك الحدث كان موجودًا بالفعل في ذلك الوقت. ومن هنا، فإنّ جميع الآيات لها دوافع وأسباب وسياقات محددة. وهذا ما يحل إشكالية الإمام الرازي في تفسيره للآية: "وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ" (الأنعام: 54)، حيث قال: "أجد في هذا الأمر إشكالًا، إذ إنّ الناس متفقون على أنّ السورة نزلت جملة واحدة، فكيف يمكن إذن أن يقال إنّ كل آية منها نزلت بسبب معين؟".

ويؤكد الزركشي على أنّ منهج الصحابة والتابعين كان عندما يقول أحدهم: "هذه الآية نزلت في كذا"، فإنه يقصد أنّ الآية تشمل هذا المعنى، وليس أنّ هذا السبب تحديدًا كان هو سبب نزولها الوحيد. (انظر: الفراهي، 2008: 25؛ السيوطي، ج 1، ص 32).

ويشير الفراهي إلى أنّ الغرض ليس الحدث نفسه، بل هو مفهوم مستجد للعرب، وأسباب وأمور متعلقة به. كما ورد في سورة الكهف: "وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا

فَأَتْبَعَ سَبَبًا" (الكهف: 84-85)، وكذلك في سورة غافر: "فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ" (غافر: 37)، حيث يكثر هذا المفهوم في اللغة العربية.

وفي رأيه، ينبغي البحث عن تفسير الوحي في القرآن نفسه، مع الاستعانة بالأحاديث الصحيحة المثبتة، شريطة ألا تخلّ بنظم القرآن. فمن أراد الوصول إلى الحقيقة واليقين، فعليه أن يوضح مكانة النظم القرآني، وأن يبتعد عما يقلل من شأنه. (انظر: الفراهي، 2008: 27).

والنقطة الفارقة التي تميّز الفراهي عن غيره من المفسّرين هي اهتمامه بالنظم دون الالتفات إلى ترتيب النزول الزمني. (انظر: المصدر نفسه، 26-27).

**أسباب الحاجة إلى علم الوحي عند الفراهي:** يعدّد عبد الحميد الفراهي الأسباب التي تجعل الحاجة إلى علم الوحي شديدة الأهمية في كتابه "رسائل في علوم القرآن ."ويرى أنه في حال وجود أخطاء في فهم الوحي، فإن الناس سيضلّون، ويحدد ذلك في النقاط التالية:

1. **الفراغ أو التحريف قد يؤدي إلى تغيير المعنى وتدميره بالكامل.**
2. **الباطل يشكل حجابًا يمنع إدراك النظم القرآني.**
3. **الباطل يعيق الفهم الصحيح للقرآن الكريم** (انظر: الفراهي، 2011: 128).

**إيمان الفراهي بنزول القرآن التدريجي:** يؤمن عبد الحميد الفراهي، مثل الشيخ المفيد وآية الله معرفت، بأن القرآن نزل تدريجيًا وليس دفعة واحدة. واستدل بذلك على قوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا" (الفرقان: 32).

ويرى أنّ القرآن لم يُنزَل دفعة واحدة، بل نزل تدريجيًا، بحيث جاءت بعض الأحكام في البداية ثم تَمَّ إكمالها لاحقًا. (انظر: فراهي، 2008: 68).

ويكتب في هذا السياق: لقد أنزل الله القرآن الكريم وفقًا لظروف الزمن، كما يتم ريّ الشجرة تدريجيًا وببطء حتى تثبت جذورها في التربة وتنمو وتكبر، لأنّ كثرة الماء دفعة واحدة قد تدمر الجذور وتُرخِي التربة. (انظر: الفراهي، 2011: 132)

**الطبيعة الموضوعية أو الذاتية للقرآن الكريم:** عندما نتحدث عن معنى الكلام، فإننا نقصد العلاقة بين الكلمات وما تدلّ عليه. هناك ثلاثة أنواع من الدلالات:

1. **المعنى الواضح والمحدد**: وهو عندما يكون المقصود من الكلام معروفًا بشكل مؤكد.
2. **المعنى المحتمل أو التقريبي**: وهو عندما نفهم المعنى بناءً على الظن أو التقدير، لكنه ليس مؤكدًا.
3. **عدم وضوح المعنى**: وهو عندما لا نستطيع فهم المقصود من الكلمات بشكل دقيق.(انظر: صادقي طهراني، 2014).

**الطبيعة الموضوعية أو الذاتية لدلالات القرآن الكريم وفقًا لرؤية الفراهي:** بما أنّ الفراهي يؤمن بأنّ القرآن وحي إلهي، فإنه يعترف أيضًا بطبيعته الموضوعية. ويرى أنّ بداية الدلالات الذاتية للقرآن جاءت من أتباعه، حيث ادّعى البعض أنّ بعض آيات الوحي قد أُتلفت، كما أنّ تفسير القرآن تأثر بأقوال الصحابة. وفي ظل هذه الظروف، نشأت الخلافات حول تفسير معاني بعض الآيات، وانتشرت الأحاديث الضعيفة، وامتلأت كتب التفسير بالإسرائيليات والمرويات المسيحية، مما أدّى لاحقًا إلى ظهور الفلسفة وتعدد الآراء.

تمسّك كل مذهب بالروايات والفلسفات التي تناسبه، حتى بدا الأمر وكأن هناك اضطرابًا في فهم القرآن، وانغلقت أبواب التفسير الصحيح، وأصبح إدراك معانيه وأحكامه غامضًا ومشوّشًا. ويرى فراهي أنّ الحل الوحيد لهذه المشكلة هو العودة إلى القرآن باعتباره كتاب الله، وإرجاع كل الروايات والأفكار إليه، والاعتراف بطبيعته الموضوعية، من خلال الالتزام بالمبادئ التالية:

1. التدبر بدلًا من البحث المتعمق غير المجدي: فكل شخص يمكنه، ولو للحظة، أن يتأمل في القرآن فيجد الإجابة ويخضع لها.

2. عدم الانشغال بتفاصيل الروايات القصصية: إذ إنّ البشر فضوليون، ويميلون إلى تفسير الأمور وفقًا لتجاربهم الشخصية، مما أدى إلى طرح تساؤلات غير ضرورية مثل "مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا" (البقرة: 26)، "مَا هِيَ؟" (البقرة: 70)، "مَا لَوۡنُهَاۚ؟" (البقرة: 69). وقد قام بعض المفسرين بتلبية فضول الناس عبر اختلاق قصص وتفاصيل ليست من القرآن، مما أدى إلى تباين المعاني.

3. الاعتماد على القرآن وحده في القضايا الحساسة: وتجنب تدخل الأحاديث والروايات في تفسيره.

4. استخراج الأحكام الدينية القاطعة من القرآن وحده: لأنّ التساهل في ذلك، والاعتماد على مصادر متناقضة، يؤدي إلى الجهل والضلال، ويخلق معاني متعددة للنص القرآني.

5. تجنب الجدل في القضايا العقائدية: لأنّ ذلك يؤدي إلى الفتن والكفر والابتداع. والحل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو التعامل مع القرآن على أنه موضوعي وليس ذاتيًا. (انظر: الفراهي، بلا تاريخ: 32-35).

في تفسيره "نظم القرآن"، يعتمد الفراهي فقط على المعاني المثبتة والحقائق الواضحة، إذ إن الآراء غير المستندة إلى دليل في التفسير تؤدي إلى تضليل الناس. ويؤكد على موضوعية دلالات القرآن بقوله:

"بعض الحقائق الظاهرة تبقى خفية علينا، مثل وجود الله وتوحيده، والروح، ويوم القيامة. ولكن من يمتلك البصيرة لا يشك في هذه الأمور، تمامًا كما أنّ الشمس مشرقة، والسكر أبيض وواضح. ومع ذلك، فإنّ الكفيف أو الأعور أو المصاب بالحمى

قد يدركها بشكل مختلف. ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى: "هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ" (البقرة: 2) (انظر: الفراهي، 2008: 39-40).

وبناءً على ذلك، يرى الفراهي أنه لإثبات موضوعية دلالات القرآن، يجب التمييز بين الآيات المحكمة والمتشابهة لمنع الخلافات وتجنب ظهور الفرق المنحرفة.

**الخاتمة:** يرى الفراهي أنّ نظم السورة يعني الترابط بين السور المتجاورة من حيث المفاهيم والتناسب، وليس فقط بين آيات السورة الواحدة، بل يمتد هذا الترابط إلى السورة السابقة واللاحقة لها.

1. يؤمن الفراهي بأنّ الوحي القرآني كان تدريجيًا، ويعتقد أنّ هذا التدرج كان مقصودًا من الله ليسهل على الإنسان فهمه واستيعابه بشكل أكثر فعالية.
2. يخالف الفراهي العديد من مفسّري وعلماء أهل السنة في مسألة النسخ، إذ يرى أنّ القرآن يمكنه نسخ أحكام القرآن، كما أنّ القرآن يمكنه نسخ السنة، لكنه يرفض فكرة نسخ القرآن بالسنة.
3. يرى الفراهي أنّ الحروف المقطعات مأخوذة من اللغة العبرية، فمثلًا حرف "ط" (طيت: ט) في العبرية يعني الأفعى، والسور الأربع التي تبدأ بالحروف المقطعة (طه، النمل، القصص، والشعراء) تتحدث جميعها عن قصة موسى وعصاه التي تحولت إلى أفعى.
4. يؤكد الفراهي أنّ النظم القرآني هو الأصل، وأنّ أسباب النزول لا يجب أن تتعارض مع هذا النظم، بل يجب أن تتوافق معه ولا تخرجه عن سياقه وترابطه.[1]

[1] مع الشكر لـ(International Journal of Applied Linguistics and English Literature)، 6L7L73-80

## المصادر والمراجع


- أبو زهرة، محمد، "أصول الفقه"، دار الفكر العربي، 1958.
- عدل، سعد عبد المطلب، "الهيروغليفية في القرآن"، ترجمة: د. حامد صدقي، ود. حبيب الله عباسي، معهد العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية (بوابة العلوم الإنسانية الشاملة)، منشورات سخن، العدد 148، 2009.
- أك، خالد بن عبد الرحمن، "أصول التفسير والقواعد"، بيروت، دار النفائس، الطبعة الثانية، 1986.
- عميد، حسن، "قاموس عميد"، الطبعة الثانية، طهران، دار فرهانغ أنديشمندان، 2010.
- بابائي، علي أكبر، غلام علي عزيزي كيا، ومجتبى روحاني، "منهجية التفسير"، قم: معهد العلوم، 2000.
- بندر ريغي، محمد، "القاموس العربي-الفارسي الجديد"، الطبعة التاسعة، طهران، منشورات إسلامي، 1993.
- دراز، محمد عبد الله، "نظرات جديدة في القرآن"، الكويت، دار القلم، 1975.
- فيض كاشاني، ملا حسن، "الأصفى في تفسير القرآن"، الطبعة الأولى، تحقيق: قرائتي.
- الفراهي، عبد الحميد، "التكميل في أصول التأويل"، تحقيق: المفتي محمد سعيد، بلا تاريخ.
- " .....رسائل في علوم القرآن (المجلد الثاني)"، الطبعة الأولى، تحقيق: الفراهي عبيد الله والشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الهند: الدائرة الحميدية، 2011.
- " .....نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، سورة البقرة،

الطبعة الأولى، الهند: الدائرة الحميدية، 2000.

- " .....دلائل النظام"، تحقيق: بدر الدين الإصلاحي، الهند: الدائرة الحميدية، 2009.
- " .....نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، الطبعة الأولى، الهند: الدائرة الحميدية، 2008.
- الفراهيدي، خليل بن أحمد، "كتاب العين"، الطبعة الثانية، قم، دار الهجرة، 1410هـ.
- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، "القاموس المحيط"، إشراف: عرقسوسي، محمد نعيم، الطبعة الثامنة، دار الرسالة، 2005.
- محسن، "تفسير نور"، طهران، المركز الثقافي لدروس القرآن، الطبعة الحادية عشرة، 2004.
- الحسيني الزفرايي الإصفهاني، ميرزا باقر، "التعرف والاطلاع على القرآن"، قم، حرم، 2004، الناشر الرقمي: مركز غامعية لأبحاث الكمبيوتر، أصفهان.
- الحسيني شاه عبد العظيمي، حسين بن أحمد، "تفسير الأثنا عشري"، الطبعة الأولى، طهران: ميقات، 1984.
- ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب، **"المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، 1422هـ.
- ابن فارس، أحمد، **"معجم مقاييس اللغة"**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، **"لسان العرب"**، الطبعة الثالثة، بيروت، دار صادر، 1414هـ.
- الكفعمي، إبراهيم بن علي العاملي، **"المصباح"**، الطبعة الثانية، قم، دار الرضوي، 1405هـ.

- مركز الثقافة والمعرفة للقرآن، **"موسوعة القرآن"**، قم: بوستان الكتاب، 2010، الرابط : http://www.maarefquran.com/maarefLibrary/templates/farsi/dmaarefbooks/Books/8/5.htm.
- كشاورز، مرتضى، **"الوحي القرآني في آراء المفيد والصدر"**، الدراسات الفلسفية، العدد 22، الصفحات 103-130، 2012.
- خوري شرتوني، سعيد، **"أقرب الموارد في فصحاء العرب الوارد"**، الطبعة الأولى، قم، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، 1403هـ.
- الخوئي، أبو القاسم، **"البيان في تفسير القرآن"**، ترجمة: محمد حسن.
- مكارم الشيرازي، ناصر، **"تفسير نمونه"**، الطبعة الأولى، طهران، دار الكتاب الإسلامية، 1995.
- مؤدب، السيد رضا، والموسوي مقدم، السيد أحمد، **"المبادئ الأساسية لتفسير القرآن من منظور المفسرين الشيعة"**، دراسات شيعية، السنة السابعة، العدد 28، 2009، الصفحات 117-148.
- ميرزا خسروني، علي رضا، **"تفسير خسروني"**، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد باقر بهبودي، طهران: الإسلامية، 1390هـ.
- محمد باقر بهبودي، الطبعة الأولى، طهران، مكتبة لطفي، 1404هـ.
- ملا زاده شاكوي، بلا تاريخ، الناشر الرقمي: مركز غامعية لأبحاث الكمبيوتر، أصفهان.
- مستنصر مير، أبو الفضل الحري، **"الانسجام في القرآن"**، دراسة أثر الانضباط التصحيحي في التأمل، مجلة الدين الشهرية، 2011، العدد 163، الصفحات 51-59.
- " .....تاريخ القرآن"، الطبعة الحادية عشرة، الناشر: طباعة الكتب، تصميم دراسة العلوم الاجتماعية، الناشر الرقمي: مركز غامعية لأبحاث

الكمبيوتر، أصفهان، 2008.

- " .....التفسير والمفسرون في صبغة الغاشب"، الطبعة الثانية، مشهد، جامعة الرضوي للعلوم الإسلامية، 2004.
- "التمهيد في علوم القرآن"، الطبعة الثانية، قم، نشر الإسلام، 1415هـ.
- النجفي الخميني، محمد جواد، "تفسير آسان"، الطبعة الأولى، طهران: الإسلامية، 1398هـ.
- رادمنش، السيد محمد، "مدخل إلى علوم القرآن"، الطبعة السادسة، طهران، نشر نيل، 1999.
- الرازي، فخر الدين، "مفاتيح الغيب"، الطبعة الثالثة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ.
- الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، "مفردات ألفاظ القرآن"، تحقيق: فؤاد عدنان داوودي، الطبعة الأولى، بيروت، دار العلماء الشامية، 1412هـ.
- الرضائي الإصفهاني، محمد، "بحث حول الإعجاز العلمي للقرآن بناءً على تفسير "الصراط المستقيم""، تحقيق: غلام رضا بن علي أكبر مولانا البروجردي، إيران، قم، المعارف الإسلامية، 1425هـ.
- السيوطي، جلال الدين، "الدر المنثور في التفسير بالمأثور"، قم، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، 1404هـ.
- " .....الإتقان في علوم القرآن"، القاهرة، الحجازي، بدون تاريخ.
- الصادقي الطهراني، محمد، "هل القرآن ذاتي أم موضوعي في الاستدلال؟"، ghoranian.info/1393/09/13/implication-of-quran، 4 ديسمبر 2014.
- القرآن الكريم.
- الطوسي، محمد بن الحسين، "التبيان في تفسير القرآن"، بمقدمة الشيخ آقا بزرگ الطهراني، تحقيق: أحمد قصير العاملي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.

- الطبرسي، الفضل بن الحسن، "تفسير جوامع الجامع"، ترجمة مجموعة من المترجمين، الطبعة الأولى، تحقيق: رضا ستوده، طهران، دار الفراهاني، 1981.
- " .....ترجمة "جوامع الجامع""، المترجمون، الطبعة الثانية، مشهد، مؤسسة البحوث الإسلامية التابعة للعتبة الرضوية المقدسة، 1998.
- الطريحي، فخر الدين بن محمد، "مجمع البحرين"، الطبعة الثالثة، تحقيق: أحمد الحسيني الأشكوري، طهران، مرتضوي، 1996.
- الواحدي النيسابوري، علي، "الوحي"، الطبعة الأولى، ترجمة: محمد جعفر إسلامي، مؤسسة العلوم الإسلامية، 1983.
- الزركشي، محمد بن عبد الله، "البرهان في علوم القرآن"، تحقيق: إبراهيم، محمد أبو الفضل، القاهرة، مكتبة دار التراث، 1984.

ISSN: 2321-7928

# محاولة جديدة لفهم النص القرآني على ضوء: "دلائل النظام" للفراهي

- د. عبد الوحيد شيخ[1]

**ملخص البحث**

المقالة تسلّط الضوء على كتاب "دلائل النظام" لعبد الحميد الفراهي، حيث تناولت في التمهيد إسهامات العلماء في مجال إعجاز القرآن وبلاغته ونظمه. كما أوضحت معنى نظم القرآن عند القدماء ومعناه عند الفراهي، وبيّنت الفرق الرئيس بين المفهومين، ثم استعرضت موضوعات الكتاب وأهدافه، مشيرًا إلى كيفية ردّ الفراهي على منكري نظام القرآن ودحض شبهاتهم، ومؤكدًا يقينه الراسخ بإعجاز القرآن الكريم الذي اعتبره أعظم شهادة على نبوة سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم.

كما تناولت المقالة بالتفصيل ما قدّمه الفراهي في شرح موارد النظام في القرآن الكريم، وفوائد تعلم هذا العلم، وكيف يرشد القرآن نفسه إلى نظامه من خلال التدبر والتأمل. وأشارت إلى الطرق التي اقترحها المؤلّف للوصول إلى نظام القرآن، مثل المقارنة بين الآيات وجمع المشابه منها. وأكّد الفراهي على أنّ للقرآن ظاهرًا وباطنًا، وأنّ تدبر ظواهره يؤدي إلى كشف روعة المعاني وجمالها الكامن في أعماقه، محذرًا من تحريف الكلم عن مواضعه.

وفي خاتمة الكتاب، تناول الفراهي موضوعًا جوهريًا يتعلق بنظام القرآن، وهو مفهوم عمود السورة، حيث أوضح أنّ لكل سورة عمودًا رئيسًا تدور حوله جميع آياتها. كما عرض أعمدة بعض السور، تاركًا للقارئ مهمة الربط بين آيات كلّ سورة وعمودها، مما يعزّز فهم النظام المحكم الذي يميز القرآن الكريم.

[1] أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا، كشمير.

## التمهيد

كتب العلماء منذ زمن قديم عن إعجاز القرآن الكريم، ومن أبرزهم الباقلاني والخطابي والرماني. كما أغدق المعتزلة في تأليف الكتب التي تتناول مباحث بلاغة القرآن وإعجازه. ومن ناحية أخرى، وُجد من أنكر إعجاز القرآن من حيث بلاغته، مثل النظام. ولكن الله تعالى سخّر جمهرة من العلماء الربانيين لتفنيد هذه الشبهات ودحضها، أمثال الجاحظ، والفرّاء، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وعبد القاهر الجرجاني، والزمخشري.

ولا يخفى على كلّ من سمت مشاعره البلاغية أنّ للجرجاني فضلًا عظيمًا في تقعيد قواعد نظم القرآن، إذ أزاح الستار عن قضايا كثيرة كانت غامضة وغير ملموسة. وهذا هو النظم القرآني الذي عمل الفراهي على إثراء تربته ورفع شأنه.

وجدير بالذكر أنّ نظم القرآن، أو نظامه، لم يكن عند الفراهي مقتصرًا على بيان الربط بين الآيات والسور كما يتصور البعض، بل كان مفهومًا شاملًا يُستخلص من خلاله كل اللطائف القرآنية، وتُحلّ به جميع الإشكالات.

## عبد الحميد الفراهي، رائد نظرية نظام القرآن ومجدّدها

هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان بن قتبر بن تاج علي، حميد الدين، أبو أحمد الأنصاري الفراهي. ورد اسمه في بعض المواضع "عبد الحميد" وفي أخرى "حميد الدين". وذهب تلميذه الرشيد أمين أحسن الإصلاحي (1904-1997م) إلى أنّ كلا الاسمين صحيح، ولكن "حميد الدين" كان لقبه، وهو يراه نوعًا من التفاخر، لذا كان يفضل كتابة اسمه "عبد الحميد" على مؤلفاته.

وُلد الفراهي سنة 1862م في قرية فريها بمحافظة أعظم كرة بولاية أتر براديش، في أسرة موسرة. كان والده إقطاعيًا كبيرًا، فنشأ في رفاهية، تلقّى الفراهي علومه الأولى في

المدارس التقليدية، فدرس الأدب والعلوم الإسلامية على كبار علماء الهند، مثل فيض الحسن شارح "ديوان الحماسة". ثم أقبل على دراسة العلوم الحديثة واللغات المعاصرة، وانكبّ على علوم النحو والصرف والبيان، وكان الفراهي أحد أعلام الدراسات القرآنية في شبه القارة الهندية، وقدّم مساهمات بارزة في مجال بيان نظام القرآن الكريم، وركّز في دراساته على فكرة وحدة بناء القرآن وترابط آياته وسوره حيث رآى أنّ للقرآن نظامًا دقيقًا ومتكاملًا يتجلى في تناسق موضوعاته وتسلسلها. وتوفي عام 1930م، تاركًا وراءه تراثًا علميًا مميزًا، ومن أبرز مؤلفاته: "دلائل النظام" و"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" و"الرأي الصحيح في من هو الذبيح" و"مفردات القرآن" و"جمهرة البلاغة".[1]

## مفهوم نظام القرآن عند الفراهي

مفهوم "نظام القرآن" عند الفراهي يتجسد في الترابط والتناسق بين المعاني التي تتضمنها السور والآيات. فهو يعتقد أنّ القرآن ليس مجرد مجموعة من النصوص المنفصلة، بل هو كتاب متكامل تسير معانيه في خط واحد نحو غاية محددة، ويجب على القارئ أن يتأمل في كيفية ارتباط هذه المعاني وفهم السياق العام لكل سورة. وفقًا للفراهي، لا يمكن للإنسان فهم القرآن على نحو صحيح إلا عندما يُدرك النظام الكلي الذي يجمع بين الظاهر والباطن.

الفرق الرئيس بين نظرية نظم القرآن عند القدماء ونظام القرآن عند الفراهي: هو أنّ نظم القرآن عند القدماء يركّز على الترتيب البلاغي للآيات، بينما نظام القرآن عند الفراهي يركّز على وحدة المعاني وترابطها الكلي داخل السورة، مع التركيز على العمود الذي يجمع جميع الموضوعات، وسيأتي ذكره، فقد قال بهذا الصدد: "اعلم أنّ مرادنا من النظام أن تكون لكل سورة صورة مشخصة فإن معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، ونظرت إلى الكلام من هذه الجهة، رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضاحة".[2]

[1] مجلة "علوم القرآن"، إدارة "علوم القرآن" علي كره، المجلد 13-15، يناير 1998- ديسمبر 2000م
[2] عبد الحميد الفراهي: دلائل النظام، ص 75

## موضوعات الكتاب

ذكر الفراهي في مقدمة كتابه أنّ معرفة النظام القرآني لا سبيل إليها إلا من خلال التدبر والتأمل.[1] فإذا وُفقنا للتدبر في آيات القرآن، اتضح النظام كل الاتضاح وتجلى جمال سور القرآن ومحاسنها. وقد عدّ هذا العلم واجبًا على علماء الأمة،[2] إذ بهم يتوصل الطلبة والعامة إلى مكنونات القرآن. ويمكن أن تُحلّ كل إشكالاتهم من خلال الرجوع إلى أصل النظم، لأنّ معرفة النظام القرآني تجعل المفهوم واضحًا وجليًا.[3]

ثم ذكر أنه وجد من العلماء من انتقد نظام القرآن، فآثر الشيخ أن يكتب هذا المؤلّف خصيصًا لبيان دلائله ومدلولاته، قال بهذا الصدد: "أما بعد، فهذا كتاب أفردناه لذكر دلائل النظام، ونريد بالدلائل: ما يدلّ على وجود النظام في القرآن ويثبته وما يهديك إلى معرفته وطريق استنباطه".[4]

كما أسلفت في التمهيد، كان الفراهي يعني بالنظام نظرية نظم القرآن بشكل عام، والتي تشمل موضوعات المناسبات بين السور والآيات. وقد عدَّ علم المناسبة ذروة البلاغة، فلما وجد أنّ المؤلفات في هذا المجال قليلة أو شاذة، شمّر عن ساق الجد وكرّس جهوده لهذا العلم. وقال في هذا الصدد: "(هذا الكتاب) يبحث عن الأصول والكلية للنظام عموما، ولنظام القرآن الحكيم خصوصًا، ومن هذه الجهة هو فن مستقل من البلاغة، بل هو الذروة العليا منها".[5]

سعى الفراهي في هذا الكتاب إلى بيان مدلولات النظام، وأخذ بيد القارئ مرشدًا إياه إلى المواضع الصعبة في القرآن، مبرزًا جمال النظام فيها. كما قال "فإنّ الأكثر لا

[1] المصدر نفسه، ص 9
[2] المصدر نفسه، ص 10
[3] المصدر نفسه
[4] المصدر نفسه، ص 12
[5] المصدر نفسه، ص 11

تطمئن (قلوبهم) بمحض الدلائل حتى تشاهد المدلول عليه".[1]

ذكر الشيخ أنّ موضوع الكتاب هو معرفة النظم في معاني الآيات والسور، وأوضح أنّ ترتيب الآيات توقيفي من الله. أما الخلاف فكان في ترتيب السور، إلا أنّ الصحيح الثابت هو أنّ ترتيب السور أيضًا من إرشاد الله.[2]

## غاية الكتاب

ذكر الفراهي أنّ المقصود من تأليف هذا الكتاب إنما هو تعليم الناس وحثّهم على فهم كلام ربّنا تعالى، قال: "الغرض الأصلي من هذا الكتاب، هو الانتفاع بالقرآن تعلمه وتعليمه والعمل به وحث الناس عليه".[3]

لا يمكننا الانتفاع بالقرآن حقّ الانتفاع دون فهم آياته، ولا يتحقق الفهم كما ينبغي إلا بالتدبر في كل جزئية من الكلام وفي كل كلمة من كلماته. وهذا التدبر هو عين النظام. ولما خصَّ الفراهي هذا الكتاب ببيان النظم، فكأنما جعله وسيلة لتسهيل السبيل إلى العمل بالقرآن، قال: "والانتفاع موكول إلى فهمه، والكلام لا يفهم إلا بعد المعرفة لتركيب أجزائه وتناسب بعضه، بل معاني الأجزاء أنفسها لا يطلع على المراد منها إلا بعد الاطلاع من جهتها التأليفية".[4] ويهدف الكتاب إلى دعوة المسلمين والعلماء إلى العودة للقرآن الكريم بفهم جديد يركّز على جمال النظام القرآني وإعجازه الداخلي.

## الرد على منكري نظم القرآن ودحض شبهاتهم

إنّ الذين ينكرون نظم القرآن الكريم يتجاهلون حقيقة أنّ هذا الكتاب هو كلام الله تعالى، الذي لا يمكن أن يخلو من التناسق أو الترتيب. فالقرآن الكريم، بما فيه من

[1] المصدر نفسه، ص 12
[2] المصدر نفسه، ص 13-14
[3] المصدر نفسه، ص 14
[4] المصدر نفسه، ص 16

إعجاز بلاغي ونحوي، هو في غاية التنسيق والانسجام، بحيث لا يمكن أن يكون فيه أيّ خلل أو نقص. إذا كان الحكيم العادي لا ينثر كلامه عشوائيًا بل يعمد إلى ترتيب أفكاره وتنظيم عباراته، فكيف بخطاب أحكم الحاكمين جلّ وعلا![1]

إنّ القرآن الكريم، بأحكامه وتوجيهاته، لا يقتصر على معانٍ سطحية بل يشتمل على أعمق الدلالات وأشرف المقاصد، ويأتي منسجمًا مع ما يتطلبه العقل البشري من ترتيب وحكمة، مما يشهد بعظمة المصدر الذي أتى منه، قال: "اعلم هداك الله وأرشدك أني رجل قليل البضاعة في العلم وفي نفسي أحقر.... وإنما هو القرآن الكريم نفسه قد دلّ على حسن نظامه، فلا أطلب منك تقليدًا أو حسن اعتقاد فيّ، تأمل في دلائل القرآن فإنها معظم ما استدللنا به".[2]

## القرآن مصدر النظام

ذكر الفراهي أنّ مصدر النظام هو القرآن نفسه، وأنّ القرآن يهديك بنفسه إلى أصوله ونظامه.[3] وقد دلّ القرآن على أنه يحتوي على نظام محدد في آياته وسوره. وعلى سبيل المثال، الآية الواحدة في القرآن تجمع بين أمور متعددة وتتضمن جملًا مترابطة، ولا يجوز للمسلم أن يظنّ بأنها غير منظمة. كما أنّ الربط بين كلمات القرآن التي تجدها في موضع معين يظهر في مواضع أخرى، وهذا لا يكون إلا لسبب من الأسباب.[4]

## فوائد تعلم نظام القرآن

ذكر المؤلف أنّ تعلم نظم القرآن يعود علينا بفوائد عظيمة، حيث يهدينا إلى الحكمة، وهي جوهر الفهم ومعرفة الحقائق والغايات. فمن كانت معرفته بنظم القرآن محدودة،

[1] المصدر نفسه، ص 20-21-22-25-24-23-

[2] المصدر نفسه، ص 28

[3] المصدر نفسه، ص 28

[4] المصدر نفسه، ص 29-28

فإنّ علومه واعتقاده لا بد أن يتأثرا بذلك. ومن ترك الغوص في بحار نظم القرآن فقد فاته معظم معاني القرآن. إنّ تعلم نظم القرآن وتدبره وتعليمه يعدّ من أهم الأسباب لتوحيد الأمة، إذ إنّ العلماء قد يختلفون في تأويل وتفسير آيات القرآن بسبب عدم معرفتهم التامة بهذا العلم. ولو كانوا على دراية كافية به لما وقعوا في هذا الاختلاف. وإذا تعمقنا في هذا العلم، اكتشفنا سرّ إعجاز القرآن، الذي يعدّ من أبلغ الشهادات على نبوة حبيبنا صلّى الله عليه وسلّم.[1]

## كيف يرشد القرآن إلى نظامه

ذكر الفراهي بعض الوسائل والقواعد التي تهدي إلى فهم نظام القرآن الكريم، ومنها:

**التدبر والتأمل:** أكّد الفراهي أنّ التأمل المستمر في آيات القرآن في مواضع متعددة يكشف عن النظام القرآني. هذا التدبر يجعل من الآية أو السورة نبراسًا يرشدك إلى فهم باقي المواضع، مما يعين على جلاء معاني القرآن وترابطها.[2]

**المقارنة:** عندما تجد أنّ القرآن يقرن بعض الألفاظ أو المواضيع في أكثر من موضع، يجب عليك أن تركز وتتفكر في سبب هذا الربط. على سبيل المثال، تجد القرآن يذكر الصلاة مع الزكاة، والربا مع الصدقة، وإنفاق المال مع بذل النفس، والصبر مع الصلاة والجهاد، والهوى مع مجانبته. هذه المقارنات تظهر التناسب العميق بين هذه المواضيع، وهو ما يوجهك نحو فهم النظام الكلي للقرآن.[3]

## جمع الآيات المشابهة

أشار الفراهي إلى ضرورة جمع الآيات التي تتشابه في الكلمات أو المعاني في موضع معيّن، ومقارنتها بآيات أخرى قد تختلف قليلًا في بعض التفاصيل. ومن خلال

[1] المصدر نفسه، ص 39-38
[2] المصدر نفسه، ص 28
[3] المصدر نفسه، ص 29

السياق، يمكنك استنباط معانٍ أعمق، مما يعينك على اكتشاف الجمال القرآني والتناغم بين الآيات.[1]

تعدّ هذه الوسائل من أفضل الطرق لمعرفة أسرار النظام القرآني، حيث يُعدّ السياق هو المفتاح الأبرز لفهم هذه الروابط والإشارات القرآنية.

## القرآن له ظهر وبطن

لقد وصف الفراهي القرآن بأنّ له ظهراً وبطناً،[2] ومعنى ذلك أنه يحتوي على ظواهر وبواطن. أما الظواهر، فإذا فهمتها وتدبرتها ولم تقف عند الظاهر فقط، فإنّ المعاني الجديدة والجمال ستنكشف لك. ولكن هذا التدبر لا يعني الانخلاع عن الظاهر وتركه، فالفراهي كان يشدّد النكير على الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه. وقد ضرب على ذلك مثالًا وقال: "فإنك مثلًا إذا قرأت بيتًا وعلمت معناه، ثم تفكرت فوجدت فيه صنائع وبدائع".[3]

وذكر أنّ في القرآن دلائل ترشدك إلى ما وراء الظاهر.[4] منها: النظر في نظمه.[5] والاستدلال بالتأمل في جذر الكلمة.[6] والنظر في سياق السورة، أي عمود السورة وأسباب النزول، وهو من الأمور المهمة لفهم المعاني. فأسباب النزول توجهك إلى الغاية التي من أجلها نزلت السورة، وتحدّد الموضوع الرئيس الذي تسعى السورة إلى توضيحه، بينما تكون القصص والأحداث الأخرى ذات صلة بهذا الموضوع.[7] وقد بيّن

[1] المصدر نفسه، ص 29
[2] المصدر نفسه، ص 43
[3] المصدر نفسه، ص 43
[4] المصدر نفسه، ص 45
[5] المصدر نفسه، ص 49
[6] المصدر نفسه، ص 51
[7] المصدر نفسه، ص 53

الفراهي هذه القضية بشكل أوسع في كتابه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان".

## عمود السورة

ذكر الفراهي أنّ لكل سورة عمودًا واحدًا يرتبط به جميع موضوعات السورة، ولو لم يكن الأمر كذلك، لما كانت هناك سور متعددة، بل كان القرآن سورة واحدة. وأوضح أنّ معاني الكلام، إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، فإنها تكون ذات وحدانية. كما بيّن أنّ وحدانية موضوعات السورة هي العمود الذي تجري إليه المعاني، وأنه لا يمكن للإنسان أن يدرك اتصال تلك المعاني بعضها بالبعض دون معرفته بمساق الكلام. فالنظام لا بد أن يكون له عمود يجري إليه الكلام.[1]

وأشار إلى أنّ استخراج عمود السورة أمر بالغ الصعوبة،[2] وهو دليل على معرفة نظام السورة، ويتطلب قدرًا كبيرًا من التأمل والتمحيص. وذكر لهذه الصعوبة عدة أسباب، من أبرزها أنّ القرآن نزل متشابهًا مثاني، مما يجعل الناظر فيه يتحير، ويصعب عليه اختيار معنى واحد كعمود يجمع كل المعاني.[3]

## عمود سور القرآن الكريم إجمالًا

لقد أشار الفراهي إلى عمود بعض السور وترك الأمر للمخاطبين ليربطوا كل آيات السور إلى هذه الأعمدة وهي الموضوعات التي تتحدث عنها السورة:

1. **سورة الفاتحة:** قال عنها: "ففيها مفاتيح لجميع ما في القرآن"،[4] لأنها اشتملت على التوحيد والعبادة والهداية، لم يُفصِّل المؤلف الحديث عن هذه السورة في هذا الكتاب، لكنه تناولها بتفصيل واسع في كتابه "نظام القرآن"، حيث أوضح

[1] المصدر نفسه، ص 76
[2] المصدر نفسه، ص 77
[3] المصدر نفسه، ص 77
[4] المصدر نفسه، ص 93

كيف أنّ سورة الفاتحة جمعت بين طياتها جميع موضوعات القرآن الكريم بأسلوب شامل ومتكامل.[1]

2. **سورة البقرة:** هي سورة الإيمان المطلوب، وهو الإيمان ببعثة محمد صلّى الله عليه وسلّم. والهدف منها بناء الأمة المسلمة.
3. **سورة آل عمران:** سورة الإسلام، بما أنها تبيّن أنّ الشريعة رحمة على الناس كافة وكذلك صاحبها.

هكذا تحدّث عن عمود سور القرآن الكريم.[2]

**النتيجة**

ونستخلص مما سبق أنّ الفراهي كان أنموذجًا للعالم المجدّد الذي أضاء الطريق لفهم القرآن بمنهجية علمية دقيقة تجمع بين العمق الشرعي والتحليل اللغوي وأنّ نظريته في نظام القرآن تعدّ واحدة من أعظم المساهمات في الدراسات الإسلامية لأنها قدّمت رؤية جديدة لفهم كتاب الله وأوضحت جماله وكماله وتماسكه. كما تبيّن من دراسة هذا الكتاب أنه يوضح بيان نظام القرآن، حيث تناول فيه الفراهي قواعد عديدة وطرقًا مبتكرة تُعين دارس القرآن وتُشجّعه على دراسته وفق المنهج الذي وضعه المؤلّف. ومن المفيد أن نتخذ هذا المنهج نبراسًا لاستيعاب القرآن بشكل أوسع وأشمل، مع الحرص على تطبيق هذه القواعد عمليًا لتحقيق الفائدة المرجوة. وقد أثّرت أفكار الفراهي على معاصريه من العلماء ومن بينهم تلميذه أمين أحسن الإصلاحي الذي نشر أفكار أستاذه في تفسيره "تدبر قرآن" الذي يعدّ أحد التفاسير التي تقوم على فكرة التناسق بين الآيات والسور. لقد شكلت رؤيته نقطة تحول في دراسة الترابط الداخلي في النص القرآني. وقد تبنى الإصلاحي فكرة محور السورة وأكد أنّ لكل سورة محورًا

[1] عبد الحميد الفراهي: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 86
[2] عبد الحميد الفراهي: دلائل النظام، ص 97-96-95-94-93

مركزيًا تدور حوله موضوعات السورة وتتكامل معه. كذلك أبو الكلام آزاد تأثر بالفراهي في تفسيره "ترجمان القرآن" لأنه ركّز فيه على وحدة الموضوع والترابط بين الآيات والسور وإن كان تأثره به أقلّ من الإصلاحي. ويمكن القول بأنّ مساهمة الفراهي في بيان نظام القرآن كان إحياء لفكرة قديمة بمنهجية جديدة، إذ حاول تقديم تفسير يكشف عن وحدة النص القرآني وجمال بنيته المتماسكة. وقد أصبحت هذه النظرية حجر الأساس للكثير من الدراسات القرآنية الحديثة.

## المصادر والمراجع


1. القرآن الكريم
2. الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط5، دار المعارف، 1997م.
3. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، 1423هـ
4. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن:
   - أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.
   - دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط3، دار المدني، جدة، 1992م.
5. جلال الدين السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1408هـ.
6. الدكتور بدوي طبانة: البيان العربي: دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية.
7. الدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود: دراسات بلاغية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.
8. الدكتور سيد نوفل: البلاغة العربية في دور نشأتها، مكتبة النهضة المصرية، 1947م.
9. عبد الحميد الفراهي: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، 1990م.
10. عبد الحميد الهندي: دلائل النظام، المطبعة الحميدية، الهند، 1388هـ.
11. مجلة علوم القرآن، إدارة "علوم القرآن"، عليكره، المجلد 13-15، يناير 1998-ديسمبر 2000م.

ISSN: 2321-7928

# الحروف المقطعة

## عند

## الشيخ عبد الحميد الفراهي

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي[1]

ترجمة من الأردوية: د. محفوظ الرحمن[2]

"الم" جملة مستقلة، المبتدأ محذوف هنا وفقًا لقاعدة اللغة العربية العامة. وإذا قدّرناه فتكون الجملة الكاملة على النحو التالي: "هذه ألم" (هذه ألف لام ميم). قمت بتقدير هذا المحذوف حين الترجمة.

أما بالنسبة لهذا الحرف وغيره من الحروف التي تأتي في بداية بعض السور، فإنها تُقرأ بشكل منفصل، ولذلك يُطلق عليها حروف مقطعة.

وقد جاءت هذه الحروف في أيّ سورة جاءت في بدايتها، كما يأتي اسم الكتب والفصول والأبواب في بدايتها. مما يدلّ على أن هذه الحروف هي أسماء لتلك السور. وقد أوضحه القرآن إلى حدّ كبير بإيراد أسماء الإشارة مثل "ذلك" و"تلك"، مما جعل كونها أسماء للسور أكثر وضوحًا. كما يثبت من الأحاديث كذلك أنها أسماء تلك السور.

والسور التي هي مشهورة بهذه الأسماء، رغم أن جميعها لم تشهر بنفس أسمائها، بل بعض السور قد اشتهرت بأسماء أخرى ولكن بعضها يعرف أيضًا بنفس أسمائها، على سبيل المثال: سورة طه ويس وق ون وغيرها من السور.

[1] مفسّر ومترجم كبير له مساهمات علمية جليلة أبرزها "تدبّر قرآن" "حقيقت شرك" و"حقيقت توحيد" و"أقسام القرآن" و"ذبيح كون ہے؟".

[2] أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

ومن الممكن أن ينشأ السؤال عند بعض الأشخاص: إذا ادّعى القرآن أنه كتاب واضح، وليس فيه أي شيء غامض أو معقد، فلماذا اختار أن تكون لأسمائه السور حروف لا يدرك أحد معانيها؟

والردّ على هذا السؤال: أنّ هذه الحروف لم تكن غير معروفة عند العرب. بل إنهم كانوا يعرفون استخدامها جيدة فتسمية سور القرآن بتلك الحروف ليست أمرًا غريبًا عندهم، ولا يؤثر ذلك على كون القرآن كتابًا واضحًا، ولكن يثور السؤال عند بعض الناس هل هذه التسمية كانت موافقة لطبيعة العرب أم لا، والشهادة الكبرى على أن هذه الطريقة كانت مألوفة بين العرب هي أنّ القرآن اختارها في تسمية السور، إذا كانت هذه طريقة التسمية غير مألوفة وغريبة لدى العرب، فإنهم كانوا يعترضون عليها بالتأكيد، ويقولون: كيف يمكن قبول دعوى أنّ هذا الكتاب كتاب مبين، بينما لا يمكن لأحد أن يفهم أسماء سوره.

قد اعترض العرب على القرآن كثيرًا ونقل القرآن اعتراضاتهم كلها ولكن لم يذكر مثل اعتراضاتهم هذه مما يدل على أن هذه الأسماء لم تكن غريبة عليهم.

علاوة على ذلك، فإن الذين لديهم إلمام تام بثقافة العرب وتقاليدهم وأدبهم يعرفون جيدًا أنّ العرب لم يكونوا يعرفون مثل هذه الأسماء فحسب، بل كانوا يسمون الأشخاص، والأشياء، والخيل، والأعلام، والسيوف أسماء تشبه هذه الحروف، بل وحتى أنّ أسماء قصائدهم وخطبهم كانت أشبه بهذه.

وكانت هذه الأسماء تُكتب بأحرف مفردة وأيضًا مركبة. بالنسبة لها لم يكن من الضروري أن يكون هناك ارتباط ذو معنى بين المسمى والاسم، ولكن الاسم نفسه يشير إلى أنّ الاسم وُضع لذلك الاسم، وإن هذه المسألة واضحة تمامًا، عندما يُعرف عن شيء أنه اسم، فإنّ السؤال عن معناه لا يطرح البتة، لأنّ المقصود من الاسم هو ارتباطه بالمسمّى، وليس معناه ولا أهمية للبحث عن معاني هذه الأسماء على الأقل

من منظور فهم القرآن لكن الأمر هو أنه بما أنّ الله تبارك وتعالى سمّى هذه الأسماء، فإنّ الإنسان يشعر بأنها قد سُميت على مناسبة معينة. وهذا الشعور يولد فطرةً في النفس بحثًا عن الإجابة، وحاول العديد من علمائنا السابقين من خلال هذا البحث التفكير في هذه الأسماء ومعرفة معانيها، ولكن محاولاتهم في هذا المجال لم تجدي أيّ فائدة واضحة، إلا أنّ عملهم في حد ذاته لا يُعتبر خاطئًا من وجهة نظرنا، وإذا تدربنا في هذا الأمر، فلن يكون عملنا أيضًا خاطئًا وإذا أسفرت هذه المحاولة عن كشف أيّ حقيقة، فسيكون ذلك إضافة إلى علمنا وإذا لم نجد شيئًا، فسنعتبر ذلك قلة علمنا وعمق القرآن ولن نقوم برأي بأن هذه الأسماء لا معنى لها.

حينما يشعر الإنسان بنقص علمه وعمق القرآن يُعتبر هذا الشيء في حد ذاته علمًا عظيمًا، وتنفتح من هذا الإحساس العديد من أبواب العلم والمعرفة التي كانت مغلقة. إذا كان أول حرف من القرآن هو المفتاح لاكتشاف عظيم مثل هذا، فسيقوم هذا الشيء بدوره إحدى معجزات القرآن المتعددة وما من شك في أنّ هذه هي عظمة ذلك الكتاب؛ فكل حرف من حروفه، لم يُكتشف سره بعد، يصبح بمثابة دليل يفتح الأبواب للعديد من الأسرار المخفية.

قد قدّم علماؤنا القدامى آراءهم عن هذه الحروف التي ليست مبنية على أساس قوي من وجهة نظرنا، ولذلك لن يكون ذكرها مفيدًا. ومع ذلك، أود أنْ أقدّم رأي الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله بشكل عام في هذا الصدد. وعلى الرغم من أنّ هذا الرأي لا يحل المشكلة بشكل تام، إلا أنه يفتح بابًا لحل هذه المسألة. ومن الممكن من فضل هذه الإشارة التي قدّمها الشيخ الفراهي رحمه الله يستطيع الآخرون أن يستفيدوا من توجيهاته ويكشفوا بعض الأمور المفيدة التي قد تقودهم إلى المنهج الصحيح، وبذلك نتقدم خطوات البحث تدريجًا.

فمن له إلمام بتاريخ الخط العربي يعرفون أنّ حروف اللغة العربية مأخوذة من اللغة

العبرانية. وهذه الحروف العبرانية مأخوذة من الحروف التي كانت سائدة في العرب القدماء. فإن بحث الأستاذ الإمام رحمه الله عن هذه الحروف العربية القديمة يشير إلى أنها لم تكن مجرد أصوات كما كانت سائدة في اللغة الإنجليزية والهندية، بل كانت أيضًا تدلّ على المعاني والأشياء مثل الحروف الصينية. وكان يُكتب عادةً ما يدل عليه هذه الحروف من معانٍ أو أشياء بشكل مشابه لشكلها أو هيئتها. ويعتقد الشيخ رحمه الله في بحثه أنّ هذه نفس الحروف التي اختارها المصريون القدماء، ثم قاموا بتعديلها وفقًا لتصوراتهم وأعطوها شكل الخط الرمزي الذي يظهر في نقوش الأهرامات المصرية.

على الرغم من أنّ معاني هذه الحروف قد اندثرت في هذا الوقت مع أنّ معاني بعضها لا تزال معروفة، ويمكن أن نلاحظ بعض ملامح شكلها القديم في طريقة كتابتها. على سبيل المثال، يُعرف أنّ حرف الألف كان يدلّ على "البقرة"، وكان يُكتب بشكل يشبه رأس البقرة وأما حرف الباء فيُسمى في العبرانية "بيت" ويعني "المنزل" وحرف الجيم في العبرانية يُنطق "جمل" ويعني "الجمل". حرف الطاء كان يدل على "الثعبان" وكان يُكتب بشكل مشابه لشكل الثعبان. أما حرف الميم، فكان يُستخدم للدلالة على "موجة الماء" وكان يُكتب بطريقة تشبه شكل موجة الماء.

ويقدّم الشيخ الفراهي رحمه الله سورة "ن" لتائيد نظريته، ولا يزال يُستخدم حرف النون في معناه القديم الذي يدلّ على "السمكة"، وجدير بالذكر أنّ السورة التي تحمل هذا الاسم تتحدث عن يونس عليه السلام، الذي ذُكر في القرآن بلقب "صاحب الحوت" (الذي ابتلعه الحوت). ويقول الشيخ رحمه الله بأنّ هذا الاسم يشير إلى أنّ تسمية السورة بالنون (ن) كانت بسبب أنّ فيها قصة صاحب الحوت (يونس عليه السلام) الذي ابتلعه الحوت. ثم يضيف أنه ربما تكون بعض السور الأخرى التي تبدأ بحروف معينة قد اختيرت تلك الحروف بناءً على معانيها القديمة، وعلى وجود علاقة بين هذه الحروف وموضوعات السور.

وتؤيد بعض أسماء سور القرآن الكريم أيضًا نظرية الشيخ الفراهي رحمه الله، مثلًا حرف الطاء (ط) كان معناه "الثعبان"، وكان شكله يُشبه شكل الثعبان كما ذُكِرَ سابقًا. والآن انظر إلى سورة "طه" التي تبدأ بحرف "ط"، حيث تُبين بعد التمهيد المؤجز قصة موسى عليه السلام وعصاه التي تحولت إلى ثعبان. وكذلك، نجد سورًا أخرى مثل "طسم" و"طس" التي تبدأ أيضًا بحرف الطاء، وتتناول أيضًا معجزة عصا موسى عليه السلام التي تحولت إلى ثعبان.

وقد ذكرت سابقًا أنّ حرف الألف كان يُكتب على شكل رأس البقرة ويدلّ على معنى "البقرة"، وكان له أيضًا معنى آخر وهو "الله الواحد". والآن، إذا نظرنا في القرآن الكريم، سنلاحظ أنّ سورة "البقرة" التي تبدأ بحرف الألف، تتناول قصة ذبح البقرة. أما السور الأخرى التي تبدأ بحرف الألف، فإنها تتفق في موضوع التوحيد، حيث يركز على هذا الموضوع بشكل خاص في تلك السور. إنّ هذا الجانب من الأسماء جدير بالملاحظة بشكل خاص، حيث أنّ السور التي تتشابه في أسمائها، بل في بعض الأحيان تتشابه أساليب بيانها أيضًا.

كما ذكرت أنني قدّمت نظرية الشيخ الفراهي رحمه الله هذه لمجرد أنني أجد أنها تفتح بحثًا علميًا للتدبر في الحروف المقطعة، ومن وجهة نظري لا تزال هذه النظرية مجرد فكرة وليس أكثر من ذلك، حتى يصل البحث إلى الاكتمال في معاني جميع الحروف وتوضيح العلاقة بين هذه الأسماء والسور التي تحملها من جميع الجوانب، ولا ينبغي أن نعتمد اعتمادًا كبيرًا على هذه النظرية. إنها مجرد إشارة لأولئك الذين يحترمون علوم القرآن، والذين يريدون مزيدًا من البحث والاستكشاف، ليتخذوا هذا المنهج فرصة لتجربة حظهم. ربما يسّهل الله تعالى من خلال هذا المنهج هذه المسألة.[1]

[1] مع الشكر لمجلة "جامعة" الشهرية الصادرة عن الجامعة الملية الإسلامية بنيودلهي، 46/1/15-19

ISSN: 2321-7928

# الرُّدودُ اللُّغويَّةُ عِندَ عَبدِ الحَميدِ الفَراهِيِّ

- حسين علي عبد سالم[1]

إنَّ لغةَ الضّادِ تتميّزُ بتفاعُلِها المتواصل مع الحضارات والثقافات والأُمم. واعتمادِ رجال الفكر، والأدب لها. وممّن تفاعل معها، رجالات العلمِ في الهند، حضارةً ولغةً وأدبًا وفكرًا، إذ إنَّ التراثَ الهنديَّ الإسلاميَّ الذي آلَ إلينا، تراثٌ ثَرٌّ غَنِيٌّ، عظيمٌ كَمًّا وكيفًا، جديرٌ بأن نقفَ أمامَهُ وِقْفَةَ الإجلالِ والإكبار وما خزائنُ ومكتباتُ المخطوطاتِ الهنديّة إلّا أكبرُ دليلٍ على ذلك، تلكَ الدُّورُ والمكتباتُ التي ما تزالُ بها حاجةٌ إلى من يُوليها كبيرَ الاهتمامِ في البحثِ والتنقيب؛ لاستخراجِ كنوزِها، ونفضِ الغُبارِ عنها، وجمع ما تفرّقَ منها، ونشرِ محتوياتِها من هذا التراثِ العظيم؛ لتعُمَّ الفائدةُ ويشمِلَ النّفع. وبين أيدينا اليومَ ردودٌ لغويَّةٌ، تُعنى بِجُهدِ عالمٍ من علماءِ العربيَّةِ الهنودِ، الذينَ أدلَوا دَلوَهُم في لُغةِ خَيرِ كُتُبِ اللهِ: القرآنِ الكريمِ، الذي لا تَنقَضِي عَجائبُه، ولا يَخبُو سَناهُ ولا يُحاطُ بِسرِّ إعجازِه، إذ لا تَزالُ لُغتُه مَدارَ دَرْسِ الدّارسينَ. وقد كُنتُ أُمَنّي النَّفسَ بأن تَختَصَّ دراستي في الماجستير بجانبٍ من جَوانبِ القرآنِ العظيمِ، فأَظفَرَني اللهُ بموضوعٍ غيرِ بعيدٍ عن ذلكَ، بعدَ استعانتِه تعالى، واسترشادِ شيخي الدكتور كيان أحمد حازم الذي أعانَني على ما أُؤَمّلُ وأُريدُ، فاقتَرَحَ عليّ دراسة هذا العلم الكبير، فكانَ أن خُضْتُ غِمارَ رُدودِ الفَراهِيّ، وغُصْتُ في لُجَجِ كُشوفِه.

والسَّببُ الأساسيُّ الذي جَعَلَني أُسعَدُ بِهذا العمل هو الرَّغبةُ في تقديمِ إضافةٍ علميةٍ قَدْرِ الإمكان، تفتحُ آفاقًا جديدةً، فبعدَ أن اقترحَ عليَّ شيخي دراسةَ رُدودِ هذا العَلَمِ الهنديِّ المغمورِ، دَفَعَني الفضولُ إلى أن اطَّلِعَ على ما تيسَّرَ لي مِن تُراثِه، فبعد الاطّلاعِ أُعجِبتُ بما في مُصَنَّفاتِهِ من جُرأَةِ عالمٍ فذٍّ غَيرِ عربيِّ الأَصلِ على نقدِ كثيرٍ

[1] باحث، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق

من مقرَّراتِ المعجميّينَ والصَّرفيّينَ والنَّحويّينَ العربِ من المتقدّمينَ والمُتأخّرينَ على حدٍّ سواءٍ، وإدلائِه دلوَهُ بقوَّةٍ وتمكُّنٍ لغويَّينِ كبيرَينِ، وعدم اكتفائِه في كثيرٍ من الأحيانِ بالترجيح بينَ الأقوالِ، بل كانَ يأتي بأقوالٍ جديدةٍ غيرِ مَسبوقٍ إليها.

**خطَّةُ الدراسَة:**

قسمت هذا البحث على مبحثين أساسيَّينِ:

الأوَّلُ: رُدودُهُ في المُفرَداتِ المعجميّة والصّرفية.

الثاني: رُدودُه في المسائل والأساليب النحويَّةِ.

## المبحث الأول: رُدودُهُ في المُفرَداتِ المعجميّة والصّرفية

ومن أهمها:

1. **(البَرءُ):** ردَّ الفراهيُّ على من زَعَمَ أنَّ (البَرَا) بغير الهمز كلمة أخرى، ومعناها التُّرابُ، فقالَ: "قال الجوهري (393هـ): البَرَا: التُّرابُ، قال الراجز:[1]

بِفِيكِ مِن سارٍ إلى القَومِ البَرا[2]

والبَرِيَّةُ: الخلَقُ، وأصله الهمز، والجمعُ: البَرايا والبَرِيّاتُ. وذكرَ الفرّاءُ (207هـ): إن أَخذتَ (البَرِيَّة) من (البَرا)- وهو التُّراب- فأصلها غير الهمز، تقول منه: بَراهُ اللهُ يَبروهُ بَروًا،[3] أي خَلَقَهُ".[1]

---

[1] نُسِبَ إلى مُدرك بن حصن الأسدي، مع شطرين قبله، هما:

ماذا ابْتَغَتْ حُبَّى إلى حَلِّ العُرى حَسِبْتِني قد جِئْتُ من وادِي القُرَى

ينظر: المستقصى: 12/2، ولسان العرب: 14 /72، وإصلاح المنطق، ص 121.

[2] أي التُّراب، يضْرب في الدُّعَاء على المُخبِر، ينظر: المستقصى: 12/2، وإصلاح المنطق، ص 121.

[3] يُلحظ هُنا أنَّ الفراهيّ نقلَ عن الفرّاء كتابة كلمة (البَرا) بالألف الطويلة المطلقة لا بالألف المقصورة، وهذا مخالفٌ لما جاء في المطبوع ولما نَقَلَ العلماءُ منه، ويبدو أنَّ الفراهيَّ استنتج هذا من قول الفرّاء: "بَراهُ اللهُ يَبروهُ بَروًا"، فمن الواضح أنَّ الفرّاء يرى أنَّ الفعلَ واويٌّ، فإذا كان يرى أنَّ الفعلَ واويٌّ فلا شكَّ أنَّ الكتابةَ ستكونُ بالألفِ المطلقة كـ(دَعا-يَدعو)، فيبدو أنَّ الفراهيّ لا يُعوِّلُ على النُسَخ

نلحظُ أنَّ الجوهري يقول إنَّ (البَرا) هو التُّراب، لكنَّه يجعلُ (البَرِيَّة) أصلها الهمز، فالمهموز وغير المهموز عندهُ أصلٌ واحدٌ، أمَّا الفراء فكذلك يقول إنَّ (البَرا) هو التُّرابُ لكنَّه يجعلُهما مادَّتين منفصلتين: المهموز وغير المهموز.

لذا نجدُ الفراهيَّ قد ردَّ عليهما معًا وأنكرَ كون (البَرا) هو التُّراب، فلا دليل عليه من كلام العرب، كما ردَّ على كون (البَرا) من أصلٍ واحد مردُّهُ إلى الهمز بأنَّ (البَرا) حينئذٍ يكون مصدرًا، قال الفراهيُّ: "وهذا قولٌ مضطربٌ، فإنَّ (البَرْءَ) حينئذ يكون فِعلًا من التُّرابِ، وجَعْلُهُ بمعنى الخَلْق تكلُّفٌ ظاهرٌ مبنيٌّ على أنَّ الخَلْقَ إنَّما يكونُ من التّرابِ، وهذا كما تَرى.[2] ثمَّ الفعلُ من التُّراب يكونُ بمعنى: جَعَلَهُ تُرابًا، لا خلَقَهُ من التُّراب. ثُمّ لا دليلَ في قول الراجز على أنَّ (البَرا) هو التُّراب، والأَولى بالصواب أنّ المادَّة الواحدة اتَّخَذَت صورتين: (بَرَأَ) مهموزًا، و(بَرى) ناقصًا يائيًّا، فإنّا نجد معناهما في غاية التشابه، تقول: بَرَيتُ القلم، وبَرَيتُ السهمَ بَرْيًا، لِنحتِهما، والمِبراةُ: الحَديدَةُ التي يُبرى بها السهام. فهذا هو بمعنى الخَلْق، وهذهِ المادَّة موجودةٌ في العبرانيةِ، ففي أول التوراة: بَارا إِلُوهِيم هَاشَّمَيِم، أي خلق الله السموات".[3]

يبدو لنا ممّا تقدّم أنّ الفراهيَّ يرى أنّ المادة الواحدة اتَّخَذَت صورتين: (بَرَأَ) مهموزًا، و(بَرى) ناقصًا يائيًّا، وقد تُرِك همزُه عند بعضهم، فقول الفراهيّ في أغلبِ الظنّ صائبٌ.

وقد ذكرَ الفراهيُّ في موضعٍ آخر من كُتبه أنَّ (البَرْء) يُشبِه (الخَلْق)، مِن (بَرَأَه- يَبرَؤُهُ)، ومنه (البَرِيَّةُ)، وتُرك همزها. ورأى أنَّ (البَرْء) ليس مرادفًا لِلخَلْقِ إلّا على

---

المطبوعة؛ لأنَّ النُّسّاخَ ربَّما يكونون قد سَهَوا، بل يُعَوّلُ على انسجام كلام الفرّاء، فالفرّاء مادامَ يرى أنَّ الفعل واويٌّ فاللائقُ أن تُكتَبَ الكلمة بالألفِ المطلقةِ، وهو ماذهب إليه الفراهيُّ رحمه الله.

[1] مفردات القرآن، ص 343، وينظر: معاني القرآن، ص 282/3- بتصرُّفٍ في النقلِ عندَ الجَوهَريّ، والصحاح: 2279/6، و2280.

[2] أي ضعيف كأنَّه مجاز؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى يقول: "خَلَقَكُم مِّن تُرَاب" (سورة غافر: 67).

[3] مفردات القرآن، ص 343-344.

التجوُّز، فإن الخَلْقَ أصلُهُ التقدير، والبَرْءُ إصلاحُهُ، والتصوير إتمامُهُ. فالبَرْءُ والتصويرُ تفصيلٌ للخَلْق من جهة المعنى الجامع للخلق، وأيضًا تفصيل كله من جهة المعنى الأوَّل للخلق وهو التقدير، فالتقدير أوَّل الأمر، ثمَّ يكون البَرْءُ، ثمَّ يكونُ التّصوير.[1]

2. **(تَأَيّا):** رَدَّ الفراهيُّ تَفسيرَ الجوهريِّ الفعلَ (تَأَيّا) بالتعمُّدِ، إذ قالَ الجوهريُّ في معرض كلامه على الفعل (تَأَيّا): "آيةُ الرجل: شخصه، تقول منه: تآيَيْتُهُ، على (تَفاعَلْتُه)، وتَأَيَّيتُه، على (تَفَعَّلْتُه)، إذا قصدت آيَتَه وتَعَمَّدْتَه، قالت امرأةٌ لابنتها:[2]

الحِصْنُ أَدْنَـــى لَـــو تَأَيّيْتِهِ  مِـــنْ حَثْيِكِ التُّرْبَ عَلَى الرَّاكِـبِ"[3]

فقد ردَّ عليه الفراهي بأنّه بمعنى (التَّوقُّف)، وأنَّ التَّأَيِّي بمعنى التَّوَقُّف معلومٌ، يقال: هذا ليس بمنزلِ تَئِيَّةٍ، أي تَلَبُّثٍ.[4]

وقول الفراهي: إن هذا معلوم في اللغة، يؤيده ما قالَ الزَّبيدي: "وتَأَيّا بالمَكانِ: تَلَبَّثَ عَلَيْهِ وتَوَقَّفَ وتَمَكَّثَ، تَقْديرُه تَعَيّا. ويقالُ: ليسَ مَنْزِلُكُم بدار تَئِيَّةٍ، أَي بمَنْزِلَةِ تَلَبُّثٍ وتَمَكُّثٍ".[5]

فيرى الفراهي هنا أنّ المعنى في البيت هو التَّوَقُّفُ، وليس ما ذهب إليه الجوهري.

ويرى اللغويون أنّ معنى (تَأَيّيْتِهِ) في البيت: تعمَّدتِهِ وقَصدتِهِ، كما رأى الجوهري، قال الواحدي(468هـ): "وهذه لفظة تستعمل للقصد الصريح، ومنه قوله:

الحِصْنُ أَدنى لَوِ تَأَيّيْتِهِ

قال ابن دريد (321هـ): تَأَيّاه بالسلام، تعمَّدَهُ به".[6] وذكر ابن السِّكّيت أنَّ

[1] ينظر: تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 2/342-343.

[2] الشعر غير منسوب إلى أحد، وينظر: ديوان الأدب، 1/ 160.

[3] الصحاح، 6/2275.

[4] ينظر: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 1/261.

[5] تاج العروس من جواهر القاموس، 37/126.

[6] شرح ديوان المتنبي للواحدي، ص 155، وينظر: المستقصى في أمثال العرب، 1/ 312، ولسان العرب، 14/61.

(تَآيَيْتُهُ) بمعنى: تَعَمَّدْتُ آيَتَهُ، أي شَخْصَهُ،[1] وتبعه في ذلك آخرون.[2]

ويبدو لي أنّ الخلافَ يُمكِن أن يندرجَ تحتَ خلاف التنوُّع لا خلاف التَّضادّ، فإذا رجعنا إلى ابن فارسٍ، فسنجدُ أنّهُ يذكر تحت هذه المادَّة معانيَ متفرقةً من ضمنها (التَّمَكُّثُ والقَصدُ)، إذ قال: "الْهَمْزَةُ وَالْيَاءُ وَالْيَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ النَّظَرُ. يُقَالُ: تَأَيَّا يَتَأَيَّا تَأَيِّيًا، أَيْ: تَمَكَّثَ، وَيُقَالُ: لَيْسَتْ هَذِهِ بِدَارِ تَئِيَّةٍ، أَيْ: مُقَامٍ. وأَصْلٌ آخَرُ، وَهُوَ التَّعَمُّدُ، يُقَالُ: تَآيَيْتُ، عَلَى (تَفَاعَلْتُ)، وَأَصْلُهُ: تَعَمَّدْتُ آيَتَهُ وَشَخْصَهُ".[3]

وكلام ابن فارس يمكن أن يصبَّ في هذا المعنى، فالذي يقصدُ مكانًا معيَّنًا ويتعمَّدُ الذهابَ إليه يَغلِبُ على الظنّ أنّه يريد التلبُّثَ به ولو قليلًا، وهذا يقودنا إلى المراد، فإذا ذكرنا (التلبُّث) فقد ذكرنا مقدّمته (القَصد)، فمَعنى (القَصد) هوَ مقدّمةُ الفِعل، ومَعنى (التلبُّث) هوَ نتيجةُ الفِعل، فهناك مقدّمةٌ ونتيجةٌ، فالمقدّمةُ هي القصدُ والتعمُّدُ، والتلبُّثُ والتوقُّفُ هما النتيجةُ.

وربَّما يكونُ الأَولى في البيت أن يكونَ المقصودُ هو النتيجةَ لا المقدمةَ؛ لأنَّ التلبُّث في مكان معيَّن أحصَنُ لها من قَصدِها حَثِيَ التراب على الراكب، وهذا المعنى ليس ضدَّ القصد، فهما غيرُ متغايرينِ تغايرَ تضادٍّ، بل تغايرَ تنوُّعٍ.

وأمّا من حيث السياق الخاصّ، فقد أوردَ أصحاب كتب الأمثال قصة هذا المَثَل وساقوه على النحو الآتي: "الحِصْنُ أَدْنَى لَوْ تَأَيَّيْتِهِ ... قيل: كانت لامرأة ابنةٌ، فرأتها تَحْثو التراب على راكبٍ، فقالت لها: ما تصنعين؟ قالت: أُريه أَنِّي حَصَانٌ أتعفَّف ... فقالت:

الحِصْنُ أَوْلى لَوْ تأيَّيْتِهِ ... مِن حَثْيِكِ التُّرْبَ عَلَى الرَّاكِبِ

فأرسلَتْها مَثَلًا. و(تَأَيَّا) معناه: تعمَّدَ، وكذلك (تَآيا)، على (تَفَعَّلَ) و(تَفَاعلَ)،

[1] ينظر: إصلاح المنطق، ص 217.

[2] ينظر: تهذيب اللغة، 135/5، ولسان العرب:، 61/14.

[3] معجم مقاييس اللغة، 167/1.

يُضرَب في ترك ما يَشوبه ريبةٌ وإن كان حسنَ الظاهر".[1]

فمن تأويل السياق أرى أنَّ الأنسب من معنيَي هذا الجذر هنا في هذا السياق: أن يكون هو التلبُّث كما ذهبَ إلى ذلك الفراهيّ، لا القصدَ، لأنَّ قاصد الشيء يمكن أن يراه الناس، لكنّ المتلبِّث فيه لا يراه أحد، وأغلبُ الظنّ أنَّ هذا الأنسب.

3. **(المُهَيْمِن):** ذكرَ الفراهيُّ رأيًا لابن الأنباريّ (328هـ) مفادُهُ أَنَّ (المُهَيْمِن) معناه: القائمُ على النّاسِ بعده، وأنشد البيت:[2]

أَلا إنَّ خَيْرَ الناسِ بَعْدَ نَبِيِّهِ مُهَيْمِنُهُ التّالِيهِ فِي العُرْفِ والنُّكْرِ[3]

في حينِ أنّه عند الفراهيّ بمعنى المُعتَمَد والوكيل، إذ قال: "عندي هو: المعتمَد والوكيل، وأمَّا القائم بعده على الناس فالمجاز من تلك الحقيقة، "هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾" [سورة الحشر: 23]، فالمَلِكُ: جهة الجَلال، والقُدُّوسُ: جهة الجَمال، ثمّ كذلك ثلاث صفات الجمال، ثمّ ثلاث صفات الجلال".[4]

وإذا نظرنا في المعجمات وجدنا أنَّ هذه الكلمة تأتي على عدّة معانٍ منها: الرَّقيب على الشيء والحافظ له، وأصلها (هَيْمَنَ) و(الهاء) فيها أصلٌ غير مبدلة من الهمزة، ذكر أبو عبيدة والفيروزآبادي والزَّبيدي هذا الرأي، فاتَّفقوا على أنّ (هَيْمَنَ) بمعنى: كانَ رقيبًا على الشيء، أو صارَ رَقيبًا عليه وحافِظًا، وعُزيَ هذا الرأي إلى الخليل أيضًا.[5]

---

[1] مجمع الأمثال، 1/ 210.

[2] الشعر غير منسوب إلى أحد، ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، 85/1، ولسان العرب، 437/13.

[3] ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، 85/1، ولسان العرب، 437/13.

[4] ينظر: مفردات القرآن، ص 383، وتعليقات في تفسير القرآن الكريم، 342/2.

[5] ينظر: زاد المسير في علم التفسير، 265/4، والزاهر في معاني كلمات الناس، 85/1، والقاموس المحيط، 1240/1، وتاج العروس، 285/36.

ولكنَّ الخليلَ لم يذكر هذه المادة ضمن التقليبات التي ذكرها في باب الهاء والنون والميم،[1] كما أنَّ ابن فارس قد ذكرَ أَنَّ الْهَاءَ وَالْمِيمَ وَالنُّونَ لَيْسَ بِشَيْءٍ، فَأَمَّا الْمُهَيْمِنُ، وَهُوَ الشَّاهِدُ، فَلَيْسَ مِنْ هَذَا، إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ أَمِنَ، وَالْهَاءُ مُبْدَلَةٌ مِنْ هَمْزَةٍ،[2] لذا قيلَ: (المُهَيمِنُ) هو الشاهد، وهُوَ مَنْ آمَنَ غَيْرَهُ مِنَ الْخَوْفِ، وَأَصْلُهُ (أَأْمَنَ) فَهُوَ (مُؤْأْمِنٌ)، بِهَمْزَتَيْنِ، قُلِبَتِ الْهَمْزَةُ الثَّانِيَةُ يَاءً كَرَاهَةَ لِاجْتِمَاعِهِمَا فَصَارَ (مُؤَيْمِن)، ثُمَّ صُيِّرَتِ الْأُولَى هَاءً، كَمَا قَالُوا: هَرَاقَ الْمَاءَ وَأَرَاقَهُ.[3] وذكرَ الفيروزآبادي (817هـ) أنَّ (المُهَيْمِن) من أسماءِ اللهِ تعالى بمعنى (المُؤْمِن)، أو بمعنى (الأَمين)، أو (المُؤْتَمَن)، أو (الشاهِد).[4]

والذي يبدو ممّا تقدّم أنهم اختلفوا في أصلِ (المُهَيمِن) ومعناه، فمنهم من رأى أنّه بمعنى القائم على النّاسِ بعده، وهو ما ذهب إليه ابن الأنباري، ومنهم من ذهب إلى أنّهُ الرقيب على الشيء والحافظ له، وبعضهم ذهب إلى أنّه بمعنى الشاهد، ورأى آخَرون أنّه بمعنى الأَمين أو المُؤْتَمَن، فنجدهم قد استقرُّوا على هذه المعاني ولم يذكر أيُّ أحد منهم، أنّ (المُهَيمِن) قد يأتي بمعنى المُعتَمَد والوَكيل.

أمّا أهلُ التأويل فلم يبتعدوا كثيرًا عن أصحاب المعاجم.[5] قال ابن كثير (774هـ) عن اِبْن عَبّاس (68هـ) وَغَيْر وَاحِد: "أَيْ الشَّاهِد عَلَى خَلْقه بِأَعْمَالِهِمْ، بِمَعْنَى هُوَ رَقِيب عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: "وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" [سورة المجادلة: 6]، وقوله: "ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ" [سورة يونس: 46]، وقوله: "أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ" [سورة الرعد: 33]".[6] وذكر القرطبيّ، نقلًا عن ابن عباس أيضًا، أنّهُ قال: "وَمُهَيْمِنًا

[1] ينظر: العين، 60/4.
[2] ينظر: معجم مقاييس اللغة، 63/6.
[3] ينظر: الصحاح:، 2217/6، ولسان العرب، 436/13.
[4] ينظر: القاموس المحيط، 1240/1.
[5] ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، 377/10.
[6] تفسير القرآن العظيم، 80/8.

عَلَيْهِ" [سورة المائدة: 48]، أَيْ مُؤْتَمَنًا عَلَيْهِ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْقُرْآنُ مُؤْتَمَنٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ أَيْضًا: الْمُهَيْمِنُ: الْأَمِينُ".[1]

أمّا الرازيّ (606هـ)، فيرى أنَّ في (الْمُهَيْمِن) قَوْلَيْنِ، الْأَوَّلُ: يُقَالُ: قَدْ هَيْمَنَ الرَّجُلُ يُهَيْمِنُ، إِذَا كَانَ رَقِيبًا عَلَى الشَّيْءِ وَشَاهِدًا عَلَيْهِ حَافِظًا، وَالثَّانِي: قَالُوا: الْأَصْلُ فِي قَوْلِنَا: آمَنَ يُؤْمِنُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، أَأْمَنَ يُؤْأْمِنُ فَهُوَ مُؤْأْمِنٌ، بِهَمْزَتَيْنِ، ثُمَّ قُلِبَتِ الْأُولَى هَاءً كَمَا فِي: هَرَقْتُ وَأَرَقْتُ، وَقُلِبَتِ الثَّانِيَةُ يَاءً فَصَارَ مُهَيْمِنًا، فَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: "وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ" [سورة المائدة: 48]، أَيْ أَمِينًا عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي قَبْلَهُ.[2]

وقد حَكَى الزجّاجُ أنَّ (الْمُهَيْمِن) على أوجهٍ كَثِيرَة، يُقَال: إِنَّه الشَّاهِد، تَقول: فلَان مهيمني على فلَان، إِذا كَانَ شَاهِدي عَلَيْهِ، وَيُقَال: الرَّقِيب الْحَافِظ،[3] وزاد السّعدي معنى آخر، إذ يرى أنَّ (الْمُهَيْمِن) هو المُطّلع على خَفايا الأمور، وخبايا الصُّدور، الذي أحاطَ بكلّ شيء علمًا.[4]

تبيَّنَ ممّا سبقَ أنَّ الفراهيَّ قد انفرد بقوله إنَّ (المُهَيمِن) بمعنى المُعتَمَد والوكيل، فبحسب اطلاعنا لم يذكر أيّ أحدٍ من المفسرين واللغويين أنّ (المُهَيمن) قد يأتي بمعنى المُعتَمَد والوكيل غيره، وهو قد استند بدوره إلى ما ورد في الآراميَّة والسريانيَّة من أنَّ (المُهَيمِن) بمعنى المُعتَمَد والوكيل.[5] وممّا تجدر الإشارة إليه أنّني بحثتُ في الكتاب الذي استدلَّ به الفراهيّ على معنى المُعتَمَد والوكيل، فوجدتُ في الموضع الذي أشار إليه المعانيَ الآتيةَ: الأمانة، والصِّدق، والعهد، والميثاق، والذمام، والحُرمة، والثَّبات،[6]

[1] الجامع لأحكام القرآن، 210/6.

[2] ينظر: مفاتيح الغيب، 371/12.

[3] ينظر: تفسير أسماء الله الحسنى، ص 32.

[4] ينظر: تفسير أسماء الله الحسنى، ص 239.

[5] ينظر: A Compendious Syriac Dictionary، ص 255.

[6] ينظر: A Compendious Syriac Dictionary، ص 255، وقاموس كلداني-عربي، ص 173.

وهذه المعاني كلُّها مِمَّا يُشترطُ في المُعتَمَد والوكيل، فأنا لا أعتمدُ ولا أتَّكلُ إلّا على من هذهِ صفاتُهُ، فرُبَّما يكون قد دارَ في ذهنِ الفراهيّ هذا المعنى، والله أعلم.

4. **(عَيْمان):** ردَّ الفراهيُّ على ابنِ خَالويهِ قَولَهُ: "ليس في كلامِ العربِ في جَمْعِ (فَيْعال) مِثلُ: عَيْمَان إلى اللَّبنِ، وَعِيَام، يُقَالُ: رَجُلٌ عَيْمَانُ أَيْمَانُ، فَـ(عيْمانُ): عَطْشان إلى اللَّبَنِ، و(أَيْمان): مَن ماتَت امرأتُهُ، مِنَ العَيْمَة والأَيْمَة، وامرأةٌ عَيْمَةٌ أيْمى، وإنَّما جاءَ عِيام في بيتٍ واحدٍ، وهو قياسٌ على (عَطْشان) و(عِطاش)"،[1] إذ يرى الفراهيُّ أنَّ وزنَ الكلمةِ ليس هو بـ(فَيْعال)، بل هو (فَعْلان)، وأنَّ ابنَ خالويهِ قد أخطأ.[2]

نتبيّن ممّا تَقدّم أنَّ ابن خالويه قد ذَهبَ إلى أنَّ (عَيْمان) على وزن (فَيْعال)، أي أنَّ المادَّة المعجميَّة للكلمة هي (ع م ن)، في حين يرى الفراهيُّ أنَّ (عَيْمان) على وزن (فَعْلان) لا (فَيْعال)، أي أنَّ مادّتَها المعجميَّة هي (ع ي م).

ولعلَّ ابن خالويه قد خلط بين مادة (ع م ن) ومادة (ع ي م)، إذ نجدَ الجوهريَّ قد ذكرَ مادَّة (ع م ن) فقال: "عَمَنَ بالمكان: أقامَ به".[3] وذكرها كذلك ابن فارس فقال: "(عَمَنَ) الْعَيْنُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ لَيْسَ بِأَصْلٍ، وَفِيهِ عُمَانُ: بَلَدٌ. وَيَقُولُونَ أَعْمَنَ، إِذَا أَتَى عُمَانَ".[4] فلعلَّ ابن خالويه قد خلط بين مادة (ع م ن) الدالّة على الإقامة بالمكان، ومادة (ع ي م) الدالّة على العطش إلى اللبن.

قال الخليل في مادة (ع ي م): "العَيْمانُ: الذي يَشْتَهِي اللَّبَنَ شَهْوَةً شَديدةً، والمرأة عَيْمى. وقد عِمْتُ إلى اللَّبَن عَيْمَةً شديدة وعَيَمًا شديدًا. وكل مَصْدرٍ مثلهُ مِمّا يكون

[1] ليس في كلام العرب، ط الشنقيطي، ص 75.
[2] ينظر: حاشية الفراهيّ على كتاب (ليس في كلام العرب)، ص 75.
[3] الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 2166/6.
[4] مقاييس اللغة، 133/4.

فَعْلان وفَعْلى".[1]

ومن الذين وافقَ قولُهم قولَ الفراهيّ أيضًا ابن السكّيت، إذ ذهب إلى أنَّ (عَيْمان) من (ع ي م) فقال: "قد عَامَ إلى اللبن يَعامُ عَيْمَةً، وهو رجلٌ عَيْمانُ وامرأةٌ عَيْمى".[2]

ونَصَّ ابن فارس على أنَّ الياء أصليَّة في الثلاثيّ، وبهذا ينتَفي أن يكون على وزن (فَيْعال)، قال ابن فارس: "الْعَيْنُ وَالْيَاءُ وَالْمِيمُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ صَحِيحَةٌ، وَهِيَ شَهْوَةُ اللَّبَنِ: يُقَالُ لِلَّذِي اشْتَهَى اللَّبَنَ: عَيْمان".[3]

وذهب بعض علماء اللغة إلى أنَّ هناك تداخلًا بين الأصلين: (فَعْلان) و(فَيْعال)، وأنَّه أكثر الأنواع تداخلًا، وشواهده كثيرةٌ، فمنه تداخل (ف ي ن) و(ف ن ن) في (فَيْنان) في قولهم: رجل فَيْنانُ الشَّعْرِ طَويلُهُ، وهو يحتمل الأصلين، فقد ذهب الجوهريُّ إلى أنّ أصله (ف ي ن) ونصَّ على أنّ وزنه (فَعْلان) وإذا سمّي به مُنع من الصّرف،[4] وبيَّن الْكسَائي وَغَيره: أنَّ الفَيْنة، الوَقْت من الزَّمان بِبَاب (فَعْلان) و(فَعْلانَة)، فصرفْتَه فِي النكرَة، وَلم تَصْرِفه فِي الْمعرفَة.[5]

وذهب الخليل وسيبويه إلى أنّ أصلَهُ مادَّة (ف ن ن) وأنَّ اشتقاقه من (الفَنَن)؛ أي: لِشَعره فنونٌ كأفنان الشّجَر، فهو (فَيْعال)، وهو مصروفٌ في العَلَميّة وغيرها،[6] وأنَّ الرّاجح هو هذا الأصل؛ فإنّ فيه شيئينِ مُتساويين: الياء والنّون، فرجَّحَ الاشتقاق زيادة الياء وأصالة النّون؛ لأنّ الفَنَن الغُصْن، والشَّعر كالغُصن. وذكره ابن منظورٍ في الأصلين.[7]

---

[1] العين: 269/2.

[2] إصلاح المنطق، ص 297.

[3] مقاييس اللغة، 198/4، وينظر: المخصص، 464/1، ولسان العرب ط دار المعارف، 3195/4.

[4] ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، 2179/6.

[5] ينظر: تهذيب اللغة، 343/15.

[6] ينظر: الكتّاب، 218/3.

[7] ينظر: لسان العرب، 329/13.

وقال المبرّد: "فأمّا حَسّان وسَمّان وتبّان، فأنتَ في هذه الأسماء مُخيَّرٌ: إن أخذتَ ذلك من السمن، والتبن، والحسن، فإنَّما وزنها (فَعّال)، وإن أخذت (حَسّان) من (الحِسّ)، و(سَمّان) من (السُّمّ)، و(تبّان) من (التّبّ)، لم تَصْرِفْهُ في المعرفة لزيادة الألف والنون، وصرفته في النكرة. فأمّا (فَيْنان) فالنون فيه أصل بمنزلة الدّال من (حَمّاد)، وذلك منصرف في المعرفة والنكرة؛ لأنَّ معناه: كثير الفنون، كأفنان الشجر، فهو منصرف على كلِّ حال، وتقديره من الفعل (فَيْعال) على وزن (بَيْطار)".[1]

وقالَ الرضي الاستراباذي: "(فَيْنان) وزنه (فَيْعال) لا (فَعْلان)؛ لموافقته (فَنَنًا) في الاشتقاق، وهو الغصن".[2]

والرَّاجِحُ عِندي ماذهب إليه الفراهيّ من أنَّ (عَيْمان) على زِنة (فَعْلان)، وأنَّ أصل (عَيْمان) من مادَّة (ع ي م)، أي أنَّ الياء في (عَيْمان) أصلية، والألف والنون في آخرها زائدتان؛ ذلكَ أنَّ مادَّة (ع م ن) في الأصل تدلُّ على الإقامة في المكان، ومادَّة (ع ي م) تدلُّ على العَطشِ إلى اللبَنِ، وهو المعنى المُرادُ لا الإقامةُ بالمكانِ. ثُمَّ إنَّ القياس على المرادف والشَّبيه يُقَوّي اختيارَنا؛ فالعرب جعلت كلمةَ (عَيْمان) على وزن (فَعْلان) لأنَّها مُرادفةٌ لكلمةِ (عَطْشَان) التي هي بالاتّفاق على وزن (فَعْلان)، والعرب تقيس الشيء على مرادفه. وما يدلُّ على أنَّ وزنها (فَعْلان) لا (فَيْعال) مَجيءُ مؤنَّثها على زِنَةِ (فَعْلى)، ومن المعلوم أنَّ (فَعْلان) مؤنَّثُهُ (فَعْلى)، وأنَّهما مثلُ (عَطْشان) و(عَطْشى).

## المبحث الثاني: رُدودُه في المسائل والأساليب النحويَّةِ

ومنها:

1. **إعرابُ (سافِلِينَ) حالًا في قولِهِ تعالى:** "لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤

[1] المقتضب، 336/3.

[2] شرح شافية ابن الحاجب، 587/2.

ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥" [سورة التين: 4-5]:

ردَّ الفراهيُّ أن يكون التركيبُ على الإضافة في قوله تعالى عن الإنسانِ: "ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَفِلِينَ" [سورة التين: 5]، إذ رأى أنَّه يُخالِفُ العربية؛ لانَّ إضافة (أَفْعَل) إذا كانَت إلى نكرةٍ فلا بُدَّ أن يكون المضافُ إليه مُفرَدًا، فـ(أَسْفَل) إمَّا حالٌ عن ضمير المفعول في (رَدَدْناهُ)، أو ظرفٌ، وعلى هذا يرى أنَّ المعنى: إنَّا صيَّرْناهُ مرَّةً أخرى في مقامٍ أسفلَ، كما في قوله تعالى: "إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ" [سورة الأنفال: 42]، أي: بمقامٍ أسفلَ، وأنَّه لا فرق بين التأويلين من جهة المعنى، وأمّا التركيبُ فزعموا أنَّه على الإضافة،[1] والظاهر، عند الفراهيّ، أنَّ (سافلينَ) حالٌ مستقلٌّ سواء أكان (أَسفَلَ) ظَرفًا أو حالًا، ولذلك جاء نكرةً مع كونه جمعًا، وأنَّ هذا أقرب أيضًا من جهة التأويل؛ فإنّ موقع هذا الحال يدلُّ على أنَّ الإنسان نفسه اختار السفل، فكأنَّه قيل: ثُمَّ رَدَدْنا الإنسانَ إلى مقامٍ أسفلَ، والحال أنَّهم كانوا ذاهبينَ بأنفسهم إلى الأسفل، وأمّا مجيء الجمع بعد إفراد الضمير في قوله تعالى: "رَدَدْنَاهُ" فلأنَّ المراد بالإنسان نوعه، فجاء بالجمع رعاية للمعنى، وهذا كثير، ويُفهَم من: "أَسْفَلَ سَفِلِينَ" حالتهم حين أُرجِعوا إلى هذه الدار الدنيا.[2]

نلحظ مِمّا تَقَدَّم أنَّ الفراهيَّ ردَّ أن يكونَ (سافلينَ) مُضافًا إليه لـ(أسفل)؛ لأنَّ قاعدة المضاف إليه لـ(أفعل) التفضيل توجِبُ أن يكونَ مُفرَدًا إذا كان المتكلَّم عليه مُفرَدًا، وبناءً على ذلك رأى الفراهيُّ أنَّ (سافلينَ) ليسَ مضافًا إليه، وإنَّما هو حالٌ أُخرى و(أسفَلَ) حالٌ أُولى أو ظرفُ مكانٍ.

وإن سألَ سائلٌ: كيف تكون الحال الأولى مفردةً والثانيةُ جمعًا؟ أجابَ الفراهيُّ بأنَّهُ حينما قال: "رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ" راعى لفظَ (الإنسان) المفرد، وعندما قال: "سَفِلِينَ"

[1] ينظر: جامع البيان، 511/24.

[2] ينظر: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 648/2.

راعى معنى اللفظ، أي: أنَّ هذا المُعَبَّر عنه جنس الإنسان، وهو ما ينطبقُ على كُلِّ النَّاسِ، فـ(سافلين) تراعي معنى الجمع، وإذا كان (أسفلَ) ظرفَ مكانٍ فسيكون (سافلينَ) حالًا أيضًا.

وجديرٌ بالذِّكر أنَّ الفراهيَّ قد ردَّ ضمنيًّا هنا على من جعل الاستثناء متَّصلًا في قوله تعالى: "إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦" [سورة التين: 6]، إذ رأى الفراهيُّ أنَّ الحرف (إلّا) هنا للاستدراك، والمعنى: ولكنَّ المؤمنينَ يترقَّونَ بعد الهبوط، فيفوزون بأجرٍ دائمٍ.

وأمَّا من فَهِمَ من "أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ" حالة الكفار فقد جعل الاستثناء متصلًا، أي: بعد خلق الإنسان في أحسن تقويم رددناهم أسفل سافلين، غير الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهؤلاء لم يُرَدُّوا من الحالة الأولى. ورأى الفراهيُّ أنَّ هذا التأويل الأخير ضيق وبعيد؛ لكونه غير مطابق لعموم خلق الإنسان، ولا ناظر إلى قصة آدم وهبوطه مع ذريته، فإنّ الردّ حينئذ يكون مخصوصًا بالكفار.

وأمَّا التأويل الأول فهو أوسع وأتمُّ عندهُ، ويؤيّده ما ذكرهُ من نظيره، فإنَّ قوله تعالى: "إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢" [سورة الأحزاب: 72] غير مختصٍّ بالكفار، ثم فرق بين الكافرين والمؤمنين فقال: "لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٣" [سورة الأحزاب: 73]. وذكر أنَّ كلا هذين التأويلين محتملٌ على فرض التركيب الإضافيّ في "أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ"، وهو ما لا يُرَجِّحُهُ، ولكن إن جُعِلَت (سافلينَ) حالًا، وهو الأحسنُ عندَهُ، كان (أَسْفَلَ) عامًّا، مُشيرًا إلى قصة آدم وهبوطه مع ذريته، سواءٌ أجعلتَه ظرفًا أم حالًا.[1]

[1] ينظر: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 676/2.

وأما (سَافِلِينَ) ففيه وجهان: الأول أن تجعله أيضًا عامًّا، فإنّ الله تعالى لم يردَّهم إلى أسفلَ إلّا بأن اختار الإنسانُ سُفْلًا لنفسه، وعلى هذا يكون الحرف (إلّا) للاستدراك، أي لكنَّ المؤمنين بعد أن كانوا سافلينَ حين أُهبِطوا نهضوا وتابوا، فلهم أجر دائم، وهذا تأويلٌ **حسن راجح** كما هو ظاهر، والوجه الثاني أن تُخرِج المؤمنين من (سَافِلِينَ)، وعلى هذا يكون **الاستثناء متّصلًا**، أي إنَّ المؤمنين مع الهبوط لم يكونوا سافلينَ، ولكنَّهم عرجوا من السفل إلى العلوّ، وأمّا الكافرون فبقوا في ما رُدُّوا إليه، بل ازدادوا سُفْلًا.[1]

2. **إعرابُ (حمَّالَةَ) في قوله تعالى:** "وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ" [سورة المسد: 4]

ردَّ الفراهيُّ على سيبويه، والزمخشريّ تبعًا لَه، في قوله تعالى: "وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ" [سورة المسد: 4]، إذ ردَّ أولًا استبعاد سيبويه قراءة النصب في (حَمَّالَةَ)، حين ذهب إلى أنَّ القراءة هي الرفعُ، لكون قراءةِ النصبِ شتمًا (مخصوصًا بالذمّ)، أي مفعولًا به لفعل محذوف تقديره (أذُمُّ) أو( أشتمُ) أمَّ جميل، قال سيبويه: "وبلَغَنا أنَّ بعضَهُم[2] قرأَ هذا الحرف نصبًا: "وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ"، لم يجعل (الحَمَّالَة) خبرًا للمرأة، ولكنَّه كأنَّه قال: (أذكُرُ حَمَّالَةَ الحطبِ)، شتمًا لها".[3] وقد قال ابن الجزري (833 هـ): "قَرَأَ عَاصِمٌ: "حَمَّالَةَ" بِالنَّصْبِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ".[4]

وقد علّق الفراهيُّ على كلام سيبويه بقوله: "إنَّ القراءة عند سيبويه الرفع، فهو لم يُرِد أنَّه شتم، وإنَّما ذكر أنَّ بعض الناس ينصبونه على الشتم، ولا يَخفى أنَّ هذا التأويل لا يَلزَمُ كلَّ من ينصبه، فإنَّ النصب على الحاليَّة إعراب ظاهر. فإن قيل: لو أراد ذلك لقال: تَحمِلُ الحطبَ أو حامِلَة الحطب، قلنا: ليس في الفعل من البقاء واللزوم ما في

[1] ينظر: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 676/2.

[2] ينظر: إتحاف فضلاء البشر، ص 606.

[3] الكتاب، 70/2.

[4] النشر في القراءات العشر، 404/2.

الصفة، وليس في اسم الفاعل من الشدة ما في اسم المبالغة، مثلًا تقول: تولّى زيدٌ الإمارةَ حَمَّالَ أثقال الناس، فهذا أبلغ من قولك: يَحملُ أو حاملًا".[1]

نلحظُ مِمَّا تقدَّم أنَّ الفراهيَّ ردَّ على سيبويه استبعاده القول بالنصب؛ لأنَّه لم يُرد الشتم، مع أنَّ قراءة النصب ليس شرطًا أن يُراد بها الشَّتم؛ لأنَّها قد تكون حاليةً، وهذا ما استظهَرَهُ الفراهيُّ، فالظاهر عنده أنَّها (حاليةٌ)، ونلحظ أيضًا أنّهُ ردَّ على من شكَّكَ في أنَّها حالية وتساءلَ: لماذا لا تأتي على الصيغة الطبيعيّة، وهي أن تكون إمَّا بصيغة الفعل المضارع، وإمَّا أن تكون بصيغة اسم الفاعل، فرأى أنَّ الإتيانَ بصيغة المبالغة أبلَغُ لسببين:

- **أمّا الأول:** فهو أنَّ الأوصاف المشتقَّة فيها من الثبوت ما ليس في الفعل، لأنَّها أسماء، والأسماء تُفيد الثُّبوت.

- **وأمّا الثاني:** فهو أنَّ صيغ المبالغة أكثر وأشدّ من اسم الفاعل، ولذلك لم يأتِ باسم الفاعل أيضًا، وأتى الفراهيُّ بمَثَلٍ جميل: تولَّى زيد الإمارةَ حمَّالَ أثقالِ الناس.

وَرُبَّ سائلٍ يَسأَل هُنا أو يعترض بأنَّ (حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ) ظاهرُها أنَّها قد جاءت معرفةً، والحقيقة أنَّها ليست مُعَرَّفةً؛ لأنَّ الأوصاف المشتقَّة إذا أُضيفت إلى معمولاتِها فإنَّ الإضافة فيها تكون لفظيةً، غير معنويةٍ، وهي غير مُعرِّفةٍ.[2]

**ثُمَّ بعد ذلك ردَّ الفراهيُّ قول الزمخشريّ** في قراءة (حَمَّالَةَ) على النصب شتمًا، واستحبابه تأويل سيبويه فيها، إذ قال الفراهيُّ: "وأمَّا صاحب **الكشّاف** فقد غرَّه كلام سيبويه، والرجل مولع بكل نادر غريب، ولا مُعَوَّلَ على ذوقه، فإنه لم يعجبه هذا التأويل إلّا لكونه شتمًا، فقال: (وأنا أستحبُّ هذه القراءة، وقد توسَّل إلى

[1] نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 879/2.

[2] ينظر: شرح ابن عقيل، 44/3.

رسول الله (صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ) بالجميل مَن أحبَّ شتمَ أمّ جميلٍ)،[1] فما أخطأه استعمالًا لصنعة لفظية، والتماسًا للتقرُّب إلى أكرم وَلَدِ آدمَ بشتم عشيرته، فاضرِب الصفحَ عن سخافة قوله".[2]

وجديرٌ بالذكر أنَّ الفراهيَّ ذَكَرَ أنَّ الواو في (وَٱمۡرَأَتُهُۥ) للعطف، أي: يَصلى زوجُها وامرأتُه نارًا ذات لهب، وأنَّ نَصْبَ (حَمَّالَةَ) على الحاليَّةِ، لأنَّ ذلك يجعلها أوضح محلًّا وأحسن تأويلًا، إذ يدلُّ على كونها حَمّالَةً حين تصلى النار، أو بعد دخولها جهنم، فإنَّ الحال تُبيِّن ما سيقع.[3]

وإذا عُدنا إلى أُمّات الكُتُب النحويَّة وكتب التفسير فَسَنَجِدُ أنّ أصحابها انقسموا على قسمين:

**القسم الأول: الذين خالفَ قولُهم قولَ الفراهيّ،** إذ ذهبوا إلى أنَّ قراءة النصب في (حَمَّالَةَ) يراد بها الشَّتم، ومن هؤلاء عيسى بن عمر الثقفيّ، إذ ذكر أنَّ قوله: (حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ) نُصِبَ وهو ذَمٌّ لها،[4] وبيّنَ الفرّاء أنَّ الشَّتم هنا عَلَى الاستئناف، لمن نَصَبَهُ،[5] وذَكَرَ أبو منصورٍ الأزهريّ (370هـ) أنَّ من قرأ (حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ) بالنصب فهو على الذمّ،[6] وذهبَ العُكبريُّ إلى أنَّ الجيِّدَ في قراءة النَّصبِ في (حَمَّالَةَ) انتصابها على الذمّ، أي: أذمُّ أو أعني.[7]

فالنصب في (حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ) نَصبٌ على الذمّ لها، وكأنَّها اشتهرت بذلك، فجرى الوصف

[1] الكَشّافُ، 815/4.

[2] نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 879/2-880.

[3] ينظر: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 878/2-884.

[4] ينظر: مجاز القرآن، 315/2.

[5] ينظر: معاني القرآن، 350/2.

[6] ينظر: معاني القراءات للأزهري، 171/3، وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج، 375/5.

[7] ينظر: التبيان في إعراب القرآن، 793/2، ومشكل إعراب القرآن، ص 851، وينظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع وحججها وعللها، 290/2.

عليها للذم لا للتخصيص من موصوف غيرها،[1] والمعنى المُراد هنا أنّها (حَمَالَةَ النَّمِيمَةِ)، أي: تَمْشِي بِالنَّمِيمَة،[2] فسمّى النميمة حطبًا لأنَّها تُلقي بين القوم العداوة والبغضاء.[3]

**القِسمُ الثّاني: الذين وافقَ قولُهم قولَ الفراهيّ،** إذ ذهبوا إلى أنَّ قراءة النصب في (حمَّالة) على الحاليَّةِ، فقد ذكر الأخفش الأوسط أنَّ لهذه القراءة تأويلًا آخر، وأنَّه يجوز أن تكون (حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ) نكرةً نُويَ بها التنوين، فتكون حالًا لـ(امرأته) وتنتصب بقوله (تصلى)،[4] وقيلَ: إنَّهُ قد قُرِئَ النصب في (حَمَّالَةَ) على الحال، والمعنى: تصلى النار مقولًا لها ذلك.[5]

وقد ضعَّف هذا القولَ السّمينُ الحلبيُّ، إذ ذكر أنهُ يَضْعُفُ جَعْلُها حالًا عند الجمهور من الضميرِ في الجارّ بعدها إذا جَعَلْناه خبرًا لـ(امرأتُه)؛ وذلك لتقدُّمها على العاملِ المعنويّ، واستشكل بعضُهم الحاليةَ لِما تقدَّم من أنَّ المرادَ به المُضِيُّ، فيتعرَّفُ بالإضافةِ، فكيف يكونُ حالًا عند الجمهور. ثم أجابَ بأنَّ المرادَ الاستقبالُ لأنَّه وَرَدَ في التفسير: أنَّها تحملُ يومَ القيامةِ حُزْمَةً مِن حَطَبِ النار، كما كانت تحملُ الحطبَ في الدنيا، فهذا يعني أنَّ فيها قولين، أحدُهما: أنَّه حقيقةٌ، والآخرُ: أنَّه مجازٌ عن المَشْيِ بالنميمةِ ورَمْيِ الفِتَنِ بين الناس.[6]

وما ذكرهُ السَّمين الحلبي فيه نظرٌ، **إذ إنَّ النصب على الحالية أرجَحُ** من النصب على تقدير عامل محذوف، وذلك لسببين، الأول: أنَّ النصب على الحال يجعل (امرأته) محكومًا عليها بالخسران مع زوجها لاشتراكهما في إيذاء النبي (صلّى الله عليه وآله

[1] ينظر: خطرات في اللغة العربية، ص 159-160.
[2] ينظر: تفسير مجاهد، ص 759.
[3] ينظر: بحر العلوم، 606/3، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد، 552/8.
[4] ينظر: معاني القرآن، 588/2.
[5] ينظر: التبيان في إعراب القرآن، 793/2.
[6] ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، 145/11.

وسلّم)؛ والآخر: أنَّ هذا النصب يُغني عن تقدير ما ليس فيه دليل لمن يتوهم الشّتم والذّمَّ، ويجعل الحكم على أبي لهب وامرأته جملةً واحدة في سياق موحَّد، لا جملتين.[1]

وإن قيلَ: إنَّ (حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ) خبر للمرأة، أو وقفنا على (وَٱمۡرَأَتُهُۥ)، وجعلنا تقدير الكلام: (هي حمالة الحطب)، فهذا إخبارٌ مبهمٌ لا يُعلَم منه أنَّه حكاية حالها في الدنيا أو الآخرة، فإن أردت الثاني فذلك ما يريده الفراهيُّ، وإن أردت الأول فيرى الفراهيُّ أنَّك تصدَّيت لقطع النظم من السابق واللاحق؛ أمَّا السابق فظاهر أنَّه ذكر صَلَيَهُ النار في الآخرة؛ وأمَّا اللاحق فقد اتفقوا على أنَّه حكاية حالها في الآخرة. فتبيَّن مِمّا ذكر الفراهيُّ أنَّ (حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ) سواء أكان منصوبًا أم مرفوعًا ليس إلا حكاية حالها في الآخرة، وأنَّ القراءة الصحيحة نصبه وموقعه الحال لا غير. وهذا دليل الفراهيّ الأول على ما ذهب إليه. ثُمَّ أوردَ ثلاثة أدَّلةٍ بعد هذا الدَّليل لا يسعنا ذكرها هنا، وجميعُها منطقيّةٌ تُرَجِّحُ النَّصب على الحالية، إن أنعمتَ النظرَ فيها وجدت أنَّ الفراهيَّ مُصيبٌ فيما ذهب إليه، إذ إنَّ كلَّ دليلٍ ذكَرَهُ مأخوذٌ من أصلٍ مُستَقِلٍّ، فالأوَّل من اللِّسان، والثَّاني من النَظْم، والثَّالث من التاريخ، والرَّابع من سُنَّة القرآن، فمن أيِّ جهةٍ نظرتَ إلى تأويلهِ وجدتَ رأيَهُ بيِّنًا مُحكَمًا كما قال.[2]

3. **عَودُ الضميرِ في قولِهِ تعالى:** "وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ" [سورة الجاثية: 13]:

ردَّ الفراهيُّ قول النحاة: إنَّ الضميرَ (الهاء) في قوله تعالى: "وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ" [سورة الجاثية: 13]، راجعٌ إلى الله تعالى، فالفراهيُّ رأى أنَّ الضمير في (مِّنۡهُ) راجعٌ إلى الاسم الموصول (مَا)، وأنَّ موقع (جَمِيعًا) كموقعه في قوله تعالى: "خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا" [سورة البقرة: 29]،

[1] ينظر: دلالة الاكتفاء في الجملة القرآنية دراسة نقدية للقول بالحذف والتقدير، ص 31.
[2] ينظر: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، 2/880-884.

كما رأى أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل الخلق لنفعنا عمومًا، ولكن التسخير إنَّما هو لبعضٍ من كل قسمٍ، وهذا دليلٌ على كون جميعها لنفعنا، فإن لم ينفعنا بعضُ أفرادها فإنَّ هذا لا يُبطِل كونَ خلقه لنفعنا.[1]

والذي وقَفْتُ عليه أنَّ عامَّةَ أهلِ العلم يُعيدون الضمير (الهاء) في (منه) إلى الله تعالى، أمَّا الفراهيُّ فرأى أنَّ (الهاء) تعود على الاسم الموصول. وينبني على ذلك أنَّ المعنى يُصبح: ليسَ كلُّ ما سُخِّرَ في السماوات والأرض هو لنا بل سُخِّر لنا بعضُهُ ولم يُسخَّر لنا بعضُهُ الآخر، فتكون (مِن) في (منه) للتبعيض، والمعنى: أنَّ هنالك أمورًا غير مسخَّرة لنا. ولا يقبل النحاة هذا، ويستبعدونَ عودة الضمير في (منه) على (ما)؛ لأنَّ المعنى يُصبح أنَّ هناك أمورًا غير مسخَّرة لنا، أمَّا الفراهي فيرى أنَّه إذا كانت هناك أشياء غير مُسَخَّرة لنا، فهذا لا يعني أنَّها ليست لنفعنا، فقد تكون هذه الأشياء غير مُسخَّرة لنا، لكنَّها لنفعنا، فهي خُلِقَتْ لحكمة معينة، فكله لنفعنا وإن لم نعلم وجه نفعه.

وبناءً على ما ذُكِر، نرى أنَّ عامة النحويينَ والمفسرين قد ذهبوا بخلاف قول الفراهيِّ، فرأوا أنّ الضمير عائد على الله، فقالوا: إنَّ (منه) مُتَعَلِّقٌ بحالٍ من (الله)، أي سخَّرَها كائنةً منه تعالى وحاصلةً من عنده، أي إنَّ (الهاء) تعود على الله سبحانه وتعالى.[2] فذكر الهمذاني أنه يعود إلى الله تعالى، أي سخَّر المذكور كائنًا منه وحاصلًا من عنده، أو أنَّه نعت لمصدر محذوف، أي سخَّر هذه الأشياء تسخيرًا منه، أو لقوله: "جَمِيعًا"، وأن يكون من صلة: (سَخَّرَ).[3]

ومن المفسّرين الذين قالوا بخلاف قول الفراهيِّ الزمخشريُّ؛ إذ ذكر أنَّ (منه) واقعٌ موقع الحال، والمعنى: أنه سخَّر هذه الأشياء كائنةً منه وحاصلةً من عنده، يعني: أنه

[1] ينظر: تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 240/2-241.
[2] ينظر: إعراب القرآن وبيانه، 148/9.
[3] ينظر: الكتّاب الفريد في إعراب القرآن، 587/5.

مُكَوِّنها ومُوجِدُها بقدرته وحكمته، ثم سخَّرها لخلقه، كما يجوز أن يكون خبر مبتدإٍ محذوف، تقديره: (هي جميعًا منه)، وأن يكون قوله تعالى الثاني: "وَسَخَّرَ لَكُم" تأكيدًا لقوله تعالى الأوَّل: "سَخَّرَ لَكُم"، ثم ابتُدئ قوله: "مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ"، وأن يكون "مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ" مبتدأ، و"مِّنۡهُۚ" خبره.[1] ووافق الرازيُّ الزمخشريَّ فرأى أنَّ (منه) واقع موقع الحال، ويعود إلى الله سبحانه وتعالى، والمعنى: أنَّه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده.[2]

أمَّا أبو البقاء العكبريّ فرأى أنَّ (منه) يجوز أن يكون متعلقًا بِـ(سَخَّرَ)، وأن يكون نعتًا لـ(جَمِيعًا).[3] ورأى ابن عادل الدمشقي أنَّ(منه) يجوز أن تكون متعلقة بمحذوف صفة لـ(جَميعًا)، وأن تكون متعلقة بـ(سَخَّرَ)، أي هو صادر من جهته ومن عنده.[4] وقيل: "(منه) موقع الحال من المضاف إليه المحذوف المعوّض عنه التنوين، أو من ضمير (جَميعًا) لأنه في معنى (مجموعًا)".[5] فقوله تعالى: "وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ"، هذا تعميم بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أولًا ثم التعميم ثانيًا. وما فيها عامٌّ مخصوصٌ بما تحصل للناس فائدة من وجوده: كالشمس للضياء، والمطر للشراب، أو من بعض أحواله: كالشجر للاستظلال، والأنعام للركوب والحرث، ونحو ذلك، وأمّا ما في السماوات والأرض ممّا لا يفيد الناس فغير مراد، مثل الملائكة في السماء، والأهوية المنحبسة في باطن الأرض التي يأتي منها الزلزال.[6]

وأرى، والله أعلم، وجاهةً وطرافةً في قول الفراهيّ إنَّ (الهاء) في (منه) تعود إلى

---

[1] ينظر: الكَشّافُ، 288/4، وروح المعاني، 142/13-143.

[2] ينظر: مفاتيح الغيب، 673/27، وتذكرة الأريب في تفسير الغريب (غريب القرآن الكريم)، ص 351.

[3] ينظر: التبيان في إعراب القرآن، 1151/2.

[4] ينظر: اللباب في علوم الكتاب، 353/17.

[5] التحرير والتنوير، 337/25.

[6] ينظر: التحرير والتنوير، 336/25-337.

(ما)، لأنَّ هذا يعني أن الله سبحانه وتعالى سَخَّرَ الخلقَ لنفعنا عمومًا، فإن لم ينفعنا بعضه فهذا لا يُبطِل كونَهُ لنفعنا أصلًا، وهذا يُناسِب سياق الآية؛ فالله سبحانه وتعالى يُنسَبُ إليهِ الخيرُ كلُّهُ، ويُنفى عنهُ الشَّرُّ كلُّهُ.

**4. معنى (ذلك) في قولِهِ تعالى:** "ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ" [سورة البقرة: 2]:

ردَّ الفُراهيُّ زعْمَ ابن جرير والمفسّرين أنَّ (ذلك) في قوله تعالى: "ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ" [سورة البقرة: 2]، بمعنى (هذا)، ورأى أنَّ استشهادَ ابن جرير بقول خُفاف بن نُدبة:[1]

أقولُ لـه والرُّمْحُ يأْطِرُ[2] مَتْنَـهُ تأمَّل خُفافًا إنَّني أنـا ذَلِكَا

لا يصحُّ في البيت كما لا يصحُّ في الآية، وأنَّه يقبح في البيت لفظ (هذا). وبيَّن الفراهيُّ أنَّ الشّاعر بعدما ذكر اسمه لعدوه، قال له: إنَّني عدوُّك الذي سمعتَه وعرفتَه من قبل، فلو قال: إنَّني أنا هذا، لم يدلَّ على ذلك المعنى؛ لأنَّ في (ذلك) دلالةً على العظمة، ولا فائدة من قوله: (أنا هذا).[3]

ويرى الفراهيُّ أنَّ ما ذهب إليه النحويون من أنَّ (هذا) للقريب و(ذلك) للبعيد تقريبٌ، وليس بيان حقيقة الأمر، إذ إنَّ (هذا) للشيء الذي بينَ يديكَ، واستشهد بقول الفرزدق في مدح الإمام زين العابدين:[4]

هَذا الّذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأَتَهُ وَالبَيْتُ يعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ

حين كان في الكعبة، وكان الشَّاعر يُريهِ المخاطَبَ؛ إرغامًا له. وعزَّز الفراهيُّ قوله

[1] ديوان خُفَافُ بن نَدْبَةَ السُّلمي، ص 64.

[2] يأطر: يثني ويعطف. متنه: المتنان مكتنفا الصلب من العصب واللحم. والمراد أنّ الرمح يعطف ظهر مالك ويثنيه من قوته. ينظر: الشعر والشعراء، 330/1، وينظر: الكامل في اللغة والأدب، 167/3.

[3] ينظر: مفردات القرآن، ص 354.

[4] ينظر: شرح ديوان الفرزدق، 353/2.

بآيات من القرآن الكريم، كقوله تعالى: "فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩" [سورة البقرة: 79]. أمَّا كلمة (ذلك)، فيرى أنَّها تُشيرُ إلى ما علمَهُ المُخاطَبُ وسبَقَ ذِكرُهُ، أو يَكْبُرُ أن تُمثّله بينَ يَديه، فتقول بعد تمام الكلام: (ذلك)، أي خُذْ ما ذَكَرنا. واستشهدَ الفراهيُّ بعدَ ذلك بآيات من القرآن الكريم وبأشعار العرب ليُثبِت ما جاء به.[1]

فالفراهيُّ لا يَنفي صحَّةَ عمومِ قول النحويين: (هذا) للقريب، و(ذلك) للبعيد، لكنَّهُ يرى أنَّه للتقريب، وليس حقيقة الأمر، فهو يرى أنَّ (هذا) للشيء الذي بين يديك، أمَّا (ذلك) فهو لِما سبَق ذِكرُه. فالواضح من كلامه أنّهُ قد وَسّع من دلالة (هذا) و(ذلك)، فالتقريب عنده ضمنيٌّ، أي: هو لازمة من اللَّوازم؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ بين اليدين قريبٌ.

وما ذكره الفراهيّ من دلالة (هذا) و(ذلك) شيءٌ جديدٌ لم نألَفه سابقًا، إذ إنَّ النحويين قد خصَّصوا دلالتيهما للقريب والبعيد. فعلى سبيل المثال، ذكر سيبويه أنَّ المبهم، أي اسم الإشارة، تُقَرِّبُ به شيئًا أو تُباعِدُهُ، وتُشيرُ إليه، ثُمَّ رأى أنَّ التعبير باسم الإشارة مُستَحِقٌّ للمبالغة،[2] أي: حينما تُشير إلى شيءٍ، كأنَّما تُشير للمبالغةِ به.

**5. إعراب (يوم) في قوله تعالى:** "يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ" [سورة الذاريات: 13]:

ذهبَ الفُراهيُّ إلى أنَّ (اليوم) بمعنى (الوقت) في قوله تعالى: "يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ" [سورة الذاريات: 13]، كما قال تعالى: "فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ" [سورة المدثر: 9]، أي: وَقتَئذٍ، وأنَّ نصب كلمة (يوم) في قوله تعالى: "يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ" على الظرفية، أي: يومُ الدينِ يَقَعُ يومَ هُم يُفتنون، وقيل: موضِعُهُ الرفع، وإنَّما

[1] ينظر: مفردات القرآن، ص 350-355.

[2] ينظر: الكتاب، 12/2.

نُصِبَ لإضافته إلى غير المتمكّنِ، أي المبنيّ، ورأى الفراهيُّ أنَّ هذا وإن كان جائزًا من جهةِ الإعراب لكنَّه لا يليق هاهنا؛ فإنَّ السؤال المتقدّم قبل هذه الآية: "يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ" [سورة الذاريات: 12]، إنَّما هو عن مَوقع يوم الدين، لا عن ذلك اليوم نفسِه. نعم، يمكن أن يكون الجواب حَسْبَما فُهِمَ من سؤالهم، كأنهم قالوا: أيّانَ هذا الدين؟ فقيلَ: إنه يَقَعُ يومَ كذا.[1]

نَخلُصُ ممّا تقدّمَ إلى أنَّ الفراهيَّ يرى أنَّ كلمة (يوم) نُصِبَت على الظرفية، أي: يَومُ الدين يَقَعُ يومَ هُم يُفتَنون، وما قيل من أنَّ الأصل هو الرفعُ وإن كان جائزًا من جهة الإعراب لكنَّه لا يليق هاهنا لأنَّ السؤال عن الموقع الزمانيّ، أي: عن الظرفية، لا عن اليوم نفسه، بل عن مَوقِع اليوم، ونُصِب لإضافته إلى غير المتمكّن، أي: المَبنيّ، وهو الضمير (هُم)، وهو الأَولى.

والواضح أنَّ الفراهي يُشير إلى مذهبين في الصَّنعة الإعرابيَّة؛ فالمذهب الأول: أنَّه نُصب على الظرفية، والمذهب الثاني: أنَّه منصوب لإضافته إلى غير المتمكّن.

والذي رأيته أنَّ النحويّين قد اختلفوا في وجه نصب (يوم) في قوله تعالى: "يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ"، وانقسموا على قسمين:

- **القسم الأول:** ذهبوا إلى أنَّ (يوم) نُصِبَ على الظرفية، إذ رأوا أنَّ الكلمة نُصِبَت على (الوقت والمعنى) في "أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ"، أي: مَتى يوم الدين، فقيل لهم: "يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ"؛ لأنَّ ذلك اليوم يوم طويل فيه الحساب، وفيه فتنتهم على النار.[2] وأورَدَ هذا القولَ الزَّجّاجُ، فذَكَرَ أنَّهم نَصَبوا (يَوْمَ) على الظرف، وأنَّ تقدير الكلام: يَقَعُ الجَزاءُ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفتَنونَ، ونحو هذا.[3]

[1] ينظر: نظام القرآن، 446/1.

[2] ينظر: جامع البيان، 403/22.

[3] ينظر: معاني القرآن وإعرابه، 52/5، وإعراب القرآن، للنحاس، 237/4، والمحرر الوجيز، 173/5.

وقال الزمخشريُّ: "فإن قلتَ: كيف وقع (أيّانَ) ظرفًا لـ(اليوم)، وإنَّما تقع الأحيان ظروفا للحدثان. قلتُ: معناه: أيّانَ وقوعُ يوم الدين؟ فإن قلتَ: فبِمَ انتصب (اليوم) الواقع في الجواب؟ قلتُ: بفعلٍ مضمرٍ دل عليه السؤال، أي: يقعُ يومَ هُم على النار يُفتَنون".[1]

**القسم الثاني**: ذهبوا إلى أنَّهُ منصوبٌ لإضافته إلى غير المتمكّن، فرأوا أنّ (يَوْمَ) نُصِبَ لأنك أضفته إلى المبنيّ، قال سيبويه: "زعموا أنَّ ناسًا من العرب ينصبون هذا الذي في موضع رفعٍ، فقال الخليلُ رحمه الله: هذا كنصب بعضهم (يَومَئِذٍ) في كلِّ موضعٍ"،[2] ويعني بنصبها في كل المواضع أنَّها مبنيَّة، والعلَّة في بنائها هنا أنَّها مضافةٌ إلى المبنيّ.[3] وذكرَ الزَّجّاجُ أنّه لَمّا أُضيف (يَوْم) إلى "هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ"، فُتِحَ، كما قُرِئَتْ: "وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ" [سورة هود: 66]، فَفَتَحْتَ (يَوْمَ)، وهو في مَوْضِعِ خَفْضٍ؛ وذلكَ لِأَنَّكَ أَضَفْتَهُ إلى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ.[4]

وقال الزمخشريُّ: "يجوز أن يكون مفتوحًا لإضافته إلى غير متمكّن وهي الجملة. فإن قلت: فما محلُّه مفتوحًا؟ قلت: يجوز أن يكون محلُّه نصبًا بالمضمر الذي هو (يقعُ)، ورفعًا على (هُو يَومُ هُم على النار يُفتَنون)".[5] وحقيقة قول القسم الثاني ترجع إلى إضافة الظرف إلى غير المتمكّن، وهو ما جاء في قوله تعالى: "يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ" [سورة الذاريات: 13][6]

يتبيَّن لنا مِمّا سبق أنَّ ما قالَهُ الفراهيُّ من وجود إمكانَينِ في الصّنعَة النَّحويَّة لأن يكونَ (يوم) مُعرَبًا على الظَّرفيّةِ (منصوبًا على الظّرف)، وأن يكونَ مَبنيًّا في محل

[1] الكَشّافُ، 397/4.

[2] ينظر: الكتاب، 330/2.

[3] ينظر: الكتاب (كلام المحقق)، 330/2.

[4] ينظر: معاني القرآن وإعرابه، 52/5-53، وإعراب القرآن، للنحاس، 237/4.

[5] الكَشّافُ، 397/4.

[6] ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، 110/3، وشرح ألفية ابن مالك، 148/2.

رَفع، إنَّما جوَّزَهُ النَّحويُّون على سبيل إجازةِ الصَّنعةِ النَّحويَّةِ، أمّا من حيثُ المعنى فالفراهيُّ يَرْفُضُ هذا الأمر؛ لأنَّ سؤال المشركين المُتَقَدّم: "أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ"، إنَّما هو سؤالٌ عن زمانِ وُقوعِ ذلكَ اليوم، لا سؤالٌ عن تحديدِ اليوم الذي سَيكونُ فِيهِ يومُ الدّين، لذلكَ لا يُجَوِّز الفراهيُّ الاحتمالَ الثانيَ الذي جُوِّزَ صنعةً، لكنَّهُ لا يجُوزُ مَعنًى، فلذلك مَنَعَهُ. ونَحنُ نَرى أنَّ كَلامَهُ صحيحٌ، ولَم نَجِد مَن ناقَشَ هذه المسألةَ هذا النِّقاشَ المعمَّقَ الذي يُقَدِّم فيه المعنى ولا يُقَدِّمُ الصّنعةَ الإعرابيَّة المَحضة، ويجعَلُ المعنى هو الحاكِمَ على الصَّنعةِ الإعرابيَّةِ.

**5. (السِّينُ) التي للاستقبال:**

ردَّ الفراهيُّ قول الزمخشريّ: إنَّ (السين) في مواقع الوعد والوعيد تُخبِرُ عَمّا لا بدَّ واقع،[1] إذ رأى الفراهيُّ أنَّ (السين) تُخبر عمّا قَرُب، إمّا وقوعًا وإمّا إمكانًا، وليسَت بالوعد المقطوع به، وأنَّه يمكن تأويل قول الزمخشري بمعنى أنَّ الله تعالى كثيرًا ما أخبر عمّا هو لا بدَّ واقع بهذا الحرف، فلا يقولنَّ أحدٌ إنّ الإخبار بهذا الحرف إخبارٌ عمّا هو غير مستيقن، كقوله تعالى: "وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ" [سورة الشعراء: 227]، فأراد التنبيه على دفع شبهة، فالمُخبَر عنه ربَّما يكون مقطوعًا به في ذاته، ولكن الخبر يبقى محلًّا للرجاء والخوف والمشيئة، لا من جهة ضعفٍ في الإخبار، بل من جهة سعة اختيار المُخبِر.

لذلكَ، رأى الفراهيُّ أنَّ (السين) في قوله تعالى: "أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [سورة التوبة: 71] تُخبِر عمّا قَرُبَ إمّا وقوعًا وإمّا إمكانًا، وليست بالوعد المقطوع به؛ لأنَّ الملوك والأمراء ربَّما يَعِدون ويُوعِدون من غير إلزامٍ على أنفسهم، لكيلا ينقلب الرجاء استغناءً- والتخويف يأسًا، وموقع الكلام في القرآن يدلُّ على ذلك.[2]

[1] ينظر: الكَشّافُ، 289/2.

[2] ينظر: مفردات القرآن، ص 191-193.

مِمَّا تقدمَ، يتبيَّن لنا أنَّ الفراهيَّ خالف الزمخشريَّ في قوله إنَّ (السين) مفيدةٌ وجود الرحمة لا محالةَ، فهي تؤكِّد الوعد كما تؤكِّد الوعيد عنده، أمّا عند الفراهيّ فهي تُخبرُ عمّا قَرُب وقوعًا أو إمكانًا، وليست بالوعد المقطوع به؛ لكيلا ينقلب الرجاء استغناءً، أي: إذا تيقَّنتَ أيُّها الإنسانُ أنَّ اللهَ يجبُ أن يُدخِلَكَ الجنَّة، استغنيتَ عن الله! وإذا يئستَ وقلتَ في نفسك: إنَّ الله لا يُدخِلُني الجنةَ على أيِّ حالٍ، كانَ ذلك يأسًا! وحاشا لله من كُلِّ ذلك.

والذي رأيتُهُ أنَّ النحويينَ والمفسرينَ، انقسموا على قسمين في هذا الأمر:

**القسم الأول: الذين وافقَ قولُهُم قولَ الفراهيّ**، وبَدءُ ابنِ هشامٍ الأنصاريّ (761هـ) كلامهُ على المسألة بتعبيره عن رأيِ الزمخشريِّ بِـ(الزَّعم) يوحي بعدم موافقته له، إذ قال عن السين: "زعَم الزمخشريُّ أنَّها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنَّه واقع لا محالةَ، ولم أرَ من فهم وجهَ ذلك، ووجهُهُ أنَّها تفيد الوعد بحصول الفعل، فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضٍ لتوكيده وتثبيت معناه".[1] وخالفه أبو حيان بقوله: "وليس مدلول السين توكيد ما دخلت عليه، إنَّما تدل على تخليص المضارع للاستقبال فقط".[2]

**القسم الثاني: الذين ذهبوا إلى خلاف قول الفراهيّ**، ومنهم الراغب الأصفهاني، إذ قال: "وقوله: "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" [سورة الأنعام: 135] تنبيه أنَّ ما يطلبونه وإن لم يكن في الوقت حاصلًا فهو مِمّا يكون بَعدُ لا محالةَ".[3] ونقل الزركشيُّ (794هـ) ما قاله الزمخشريُّ في تفسير قوله تعالى: "أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ"، ثم قال: "ومثلُهُ قولُ سيبويه في قوله: "فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ": معنى السين أنَّ ذلك كائنٌ لا محالةَ، وإن تأخَّرت إلى

[1] مُغني اللَبيب عن كُتُبِ الأعاريب، 147/1-148.
[2] البحر المحيط في التفسير، 460/5.
[3] المفردات في غريب القرآن، ص 436.

حينٍ"،[1] ويذكر الفراهيُّ أنَّه لم يجد هذا النصَّ في كتاب سيبويه، ولم أجدهُ أنا كذلك.

وقد يسأل سائل هنا: لِمَ كان الزمخشريُّ حريصًا على إضفاء هذ البعد على السين، أي كونه يفيد وعدًا مقطوعًا به أو وعيدًا مقطوعًا به؟

فالجواب: لأنَّ هذه عقيدة المعتزلة، والزمخشريُّ أحد أئمَّتهم، فمن الأصول الخمسة عندهم (الوعد والوعيد)، إذ يقولون: حتمٌ على الله، أي يجب على الله، أن ينفذ وعده ووعيده. وهكذا نجد أنَّ الزمخشريَّ كان حريصًا على إضفاء هذا البعد على (السين)، أي أنَّه يفيد الوعد كما يفيد الوعيد المقطوع به؛ لأنَّ الزمخشري يدافع عن معتقدات المعتزلة؛ فهم يعتقدون أنَّه يجب إنفاذ الوعد والوعيد.[2]

لكنّنا نجدُ أنَّ هناك فرقًا بين الوعد والوعيد من الله سبحانه وتعالى ومن الناس، ولو كانوا ملوكًا وأمراء، كما قال الفراهي؛ فالله سبحانه وتعالى عندما يَعِدُ لا يُخلِف الوعد، وقد أكدت الآيات ذلك في مواضع متعددة من القرآن الكريم، ولكّننا لا نجد في القرآن آية واحدة تدلّ على تحقيق وعيد الله؛ وذلك لأنَّ القرآن نزل بما يفهمه الناس؛ فالإنسان إذا توعَّدَ شخصًا، ثم عفا عنه، فإنَّه يُمتَدَح، أمّا إذا وعد شخصًا بأمر طيب، ثُمَّ لم ينجزه، فإنَّه يُذَمُّ. والملوك والأُمراء ربَّما يعدون ولا يلزمون أنفسهم، لكي لا ينقلب الرجاءُ استغناءً والتخويفُ يأسًا، أمّا الله سبحانه وتعالى فهو غير مُلزَم بأيِّ شيء، وإنَّما هو الذي ألزم نفسه بالرحمة، قال تعالى: "كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ" [سورة الأنعام: 54]، ولم يقل سبحانه وتعالى: كتب على نفسه العذاب. ويُوافِقُ ما ذَكَرناهُ قولُ الشاعر.[3]

وإنّي وإنْ أوعَدتُهُ أو وَعَدتُهُ لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي

و(أوعَدَ) يأتي للشر، و(وعد) للخير، فالشاعر يفخَرُ بنفسه، فيقول: إنَّه إذا توعَّدَ غيره

[1] البرهان في علوم القرآن، 4/280-281.

[2] ينظر: التبصير في الدين، ص 65.

[3] البيت لعامر بن الطفيل في ديوانه، ص 58.

أن يُنزِل به شرًّا أخلَفَ وَعيدَهُ، وهذا الإخلافُ مَحمَدَةٌ، وإذا وَعَدَه خيرًا وَفّى بوعده.

والذي أراهُ أنَّ (السين) تُخبِرُ عمّا قَرُب وقوعًا أو إمكانًا، وليست بالوعد المقطوع به، وهذا ما ذهب إليه الفراهيُّ، والله أعلم.

**5. الحذفُ في قوله تعالى:** "ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ" [سورة الإسراء: 14]:

ردَّ الفراهيّ اعتقادَ أنَّ قوله تعالى: "ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ" من الحذف، ورَجَّحَ أنَّهُ التفاتٌ، وذكَرَ أنَّ هناك نوعًا من الالتفات يُوهِمُ أنَّهُ حَذفٌ، لكنه التفاتٌ، كقوله تعالى: "وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤" [سورة الإسراء: 13-14]، فكلمة (ٱقۡرَأۡ) من الالتفات، ولم يُحذَفْ قبلَها: (قِيلَ له)؛ وأيضًا قوله تعالى: "فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّٗا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥" [سورة الطور: 11-15]؛ وكذلك قوله تعالى: "وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩" [سورة الطور: 18-19].[1]

نفهم مِمَّا تقدَّم أنَّ الفراهيَّ يرى وجودَ نوعٍ من الالتفات في القرآن الكريم يُوهِمُ الحذف، ولكنَّه في الواقع يُعدُّ من الالتفات، كما في الأمثلة التي ساقَها، والتي تُظهِر أنَّ الالتفات في القرآن الكريم يمكن أن يكون حاضرًا دون تقديرِ محذوفٍ، مِمَّا يبرز وجهًا من وجوهِ البيان والبلاغة في اللغة العربية.

والمقصودُ بالالتفات: "نَقْلُ الكَلَامِ مِنْ أُسلُوبٍ إِلَى أُسلُوبٍ آخَرَ تَطْرِيَةً وَاسْتِدْرَارًا لِلسَّامِعِ وَتَجْدِيدًا لِنَشَاطِهِ وَصِيَانَةً لِخَاطِرِهِ مِنَ المَلَالِ وَالضَّجَرِ بِدَوَامِ الأُسْلُوبِ الوَاحِدِ عَلَى سَمْعِهِ".[2] ولفهم العَلاقة بين حذف فعل القول والالتفات، نستذكرُ النصوصَ التي

[1] ينظر: أساليب القرآن، ص 21، و28-29.

[2] البرهان في علوم القرآن، 314/3.

يجري فيها تحوُّلٌ في الخطاب، وهي على ثلاثة أقسام:

- **القسم الأوَّل**: ما يتعيَّن أن يكون التحوُّل فيه من قبيل حذف فعل القول ولا يحتمل غيره، وبتقدير فعلِ قولٍ ينسجمُ الكلامُ ويتَّضح رابطُ المَقول الذي يتحدَّد بوضوحٍ، مثل قوله تعالى: "وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ" [سورة البقرة: 127]، والتقدير: يقولانِ، أَو قائلَيْنِ: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، وقولُهُ: "رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ" في محلِّ نَصْبٍ بإضمار القولِ.[1] ومنه أيضًا قوله تعالى: "يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ" [سورة آل عمران: 106]، والتقدير: فيُقالُ لهم: أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ؟ وَحَسُنَ الْحَذْفُ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَمِثْلُهُ فِي التَّنْزِيلِ كَثِيرٌ.[2] ومنه كذلكَ، كما قال الفرّاءُ، قولُهُ تعالى: "وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ" [سورة الأنعام: 93]، معناه: يقولون: أَخرِجوا، ... وهو كثيرٌ، فقِسْ بهذا ما ورد عليك".[3]
- **القسم الثاني**: ما يتعيَّنُ أن يكونَ من الالتفاتِ ولا تقديرَ له غير ذلك، مثل قوله تعالى: "أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَانُهَاۚ" [سورة فاطر: 27]، والتقديرُ للأصل: أنزَلَ فأَخرَجَ، فالتفتَ من الغائب الى المتكلِّم.[4] ومنه أيضًا قوله تعالى: "وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢" [سورة يس: 20-22]،[5] فالأصل: وما لَكُم لا

[1] ينظر: الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، 114/2.

[2] ينظر: جامع البيان، 93/7، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج، 454/1، ومفاتيح الغيب، 319/8.

[3] معاني القرآن، 81/1، وينظر: جامع البيان، 64/3، ومعاني القرآن وإعرابه، 208/1، ومفاتيح الغيب، 44/4، وروح المعاني، 384/1.

[4] ينظر: الكَشّافُ عن حَقائقِ غَوامِضِ التَّنزيل وعُيونِ الأقاويل في وجوهِ التَّأويل، 68/3، ومفاتيح الغيب، 61/22، والبحر المحيط في التفسير، 28/9-29.

[5] ينظر: روح المعاني، 398/11.

تَعبدونَ الذي فطركُم، فالتفَتَ من (مَن) الخطابِ إلى التكلُّم. والمُلاحظةُ المسجَّلةُ هنا أنَّ الضمير المتحوَّلَ إليه يعودُ على صاحب القصَّةِ في الجملة المتحوَّل عنها، وبتغييرٍ يسيرٍ للضمير يعود الكلامُ إلى أصله. قال الرَّازيُّ: "وَفِي الْعُدُولِ عَنْ مُخَاطَبَةِ الْقَوْمِ إِلَى حَالِ نَفْسِهِ حِكْمَةٌ وَلَطِيفَةٌ: وهي أنَّه لو قال: ما لَكُم لَا تَعْبُدُونَ الَّذِي فَطَرَكُمْ، لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيَانِ مِثْلَ قَوْلِهِ: "وَمَالِيَ"؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: وَما لِيَ، وَأَحَدٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ حَالُ نَفْسِهِ، عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ الْعِلَّةَ وَبَيَانَهَا مِنْ أَحَدٍ، لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِحَالِ نَفْسِهِ، فَهُوَ يُبَيِّنُ عَدَمَ الْمَانِعِ، وَأَمَّا لَوْ قَالَ: مَا لَكُمْ، جَازَ أَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ أَنَّهُ يَطْلُبُ بَيَانَ الْعِلَّةِ لِكَوْنِ غَيْرِهِ أَعْلَمَ بِحَالِ نَفْسِهِ. فَإِنْ قِيلَ: قَالَ اللَّهُ: "مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾" [سورة نوح: 13]، نَقُولُ: الْقَائِلُ هُنَاكَ غَيْرُ مَدْعُوٍّ، وَإِنَّمَا هُوَ دَاعٍ، وهاهنا الرَّجُلُ مَدْعُوٌّ إِلَى الْإِيمَانِ، فَقَالَ: وَمَا لِيَ لا أعبد وقد طلب مني ذلك؟"؛[1] لذا أَبْرَزَهُ فِي صُورَةِ نُصْحِهِ لِنَفْسِهِ، وَهُوَ يُرِيدُ نُصْحَهُمْ لِيَتَلَطَّفَ بِهِمْ.[2]

- **القسمُ الثالث**: ما يَحتَمِلُ التقديرَينِ، أي حَذفَ فعلِ القَولِ والالتفاتَ، وذلك مثلُ قوله تعالى: "وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى" [سورة البقرة: 125]، إذ يُحتَمَلُ أن يكونَ الأصلُ: وقُلْنا اتَّخِذُوا، عَلى حذفِ فعلِ القول، ويُحتَمَلُ التحوُّلُ من الغَيبةِ إلى الخطابِ، وأن يكونَ الأصلُ: واتَّخَذُوا، فجَرى العطفُ بالإنشاء في فِعلِ الأمرِ معَ الالتفاتِ في الضمير للتنبيهِ على علوِّ مقام هذه الشعيرةِ.

فمن هذا القسم الثالثِ المُحتَمِلِ لحذفِ فعلِ القولِ وللالتفاتِ كلَيهما قولُهُ تعالى: "وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ" [سورة الإسراء: 13-14]، إذ يمكن أن نُقَدِّرَ الأَصلَ: قائلِينَ لهُ: اقْرَأْ،

[1] مفاتيح الغيب، 264/26، والبحر المحيط في التفسير، 28/9-29.

[2] ينظر: البحر المحيط في التفسير، 56/9.

فيكون حذفًا للقولِ، ويمكن أن نُقَدِّرَ الأصلَ: يَلقاهُ مَنشورًا فيَقرأُ كِتابَهُ، لكنَّه التفَتَ من الغَيبةِ إلى الخطاب.

**وهذا التقديرُ الأخيرُ هو الذي رجَّحَه الفراهيُّ**، لكن من غير بيانِ علَّة الترجيح، وقد تكونُ العلَّةُ أنَّه يرى أنْ لا مُسَوِّغَ لادِّعاء الحذفِ والتقديرِ ما دامَ بالإمكانِ التَّوجيه بحسب الالتفاتِ ومُعطَياتِه، فمعلومٌ أنَّ اجتنابَ تقدير محذوفٍ أَوْلى من تقديرِهِ ما أمكنَ، وأغلبُ الظنِّ أن ذلكَ هوَ الرَّاجحُ، والله أعلم.

**5. جوابُ القَسَمِ في قوله تعالى: "وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ" [سورة الذاريات: 7]:**

ردَّ الفراهيُّ على مَن قال إنَّ قوله تعالى: "إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ" [سورة الذاريات: 8]، جواب القَسَم المذكور في بداية السُّورة: "وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا" [سورة الذاريات: 1]، فرأى أنَّ المعنى: إنَّكُم لَفي قولٍ مختلفٍ في أمر وقوع الدين، كما قال تعالى: "عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤" [سورة النبأ: 1– 4]، وأنَّ موقع الجملة تشنيع قولهم، وأنَّها ليست بجوابٍ للقَسَم؛ لأنَّ جَوابَ القَسَمِ قَد سَبَقَ بَعدَ القَسَمِ السّابِقِ، إذ كانَ تعالى قد قالَ: "وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨" [سورة الذاريات: 1-8]، وهذا مثلُ قوله تعالى: "قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢" [سورة ق: 1-2]، وقوله أيضًا: "وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤" [سورة البروج: 1-4]، وهذا كثير.[1]

**خُلاصة قول الفراهيِّ** أنَّ جملة "إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ" ليست جوابًا للقسم السابق،

[1] ينظر: نظام القرآن، 445/1.

بل تشير إلى معنًى آخَرَ يتعلق بأمر وقوع الدين، وأنَّ موقع الجملة يُعَدُّ تشنيعًا لقول الذين يختلفون عن الحق، وليست بجواب للقَسَم الذي سبقها، وأنَّ من الممكن أن تأتي جملة التشنيع بعد القسم، إذ يُفهَم جواب القسم دون الحاجة إلى ذكره، كما في الأمثلة القرآنيَّة التي ساقها.

والذي رأيته أنَّ معظم النحويين والمفسّرين ذهبَ قولُهم بخلاف قولِ الفراهيّ، إذ رأوا أنَّ الجملة جواب للقسم، أي: والله إنَّكم لفي قولٍ مختلفٍ، وأنَّ وجود اللام هو الذي رشَّح هذا القول، لأنَّ هذه اللام قد تكون لام القسم، قال الفرّاء: "وقوله: "إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ"، جوابٌ للقَسَمِ، والقولُ المختلف: تكذيبُ بعضهم بالقرآن وبمحمَّدٍ، وإيمانُ بعضهم".[1]

وقالَ أبو جعفر النحّاس: "وجواب القَسَم: "إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ"، قال قتادة: في معنى (مُختَلِف): منكم مصدِّقٌ بالقرآن ومكذِّبٌ به. وقال ابن زيد: يقول بعضهم: هذا سحرٌ، ويقول بعضهم شيئًا آخَر قولًا مختلفًا، ففي أيِّ شيءٍ الحقُّ".[2]

وقال الزمخشريُّ: "أقسم بالذاريات على أنَّ وقوع أمر القيامة حقٌّ، ثم أقسم بالسَّماء على أنَّهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاكٌّ، ومنهم جاحدٌ".[3]

وذكر الرّازي أَقْوَالًا مُخْتَلِفَةً كُلُّهَا مُحْكَمَةٌ فِي الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي قَوْلُهُ تَعَالَى: "إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ"، أهمُّها اثنان؛ الأوَّل: "إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ" فِي حَقِّ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ)، تارة تقولون إِنَّهُ أَمِينٌ، وَأُخْرَى إِنَّهُ كَاذِبٌ، وَتَارَةً تَنْسُبُونَهُ إِلَى الْجُنُونِ، وَتَارَةً تَقُولُونَ إِنَّهُ كَاهِنٌ وَشَاعِرٌ وَسَاحِرٌ، وَهَذَا مُحْتَمَلٌ لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ؛ إِذْ لَا حَاجَةَ إِلَى الْيَمِينِ عَلَى هَذَا، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ حَتَّى يُؤَكِّدَ بِيَمِينٍ؛ والثَّاني: إِنَّكُمْ

[1] معاني القرآن للفرّاء، 83/3.

[2] إعراب القرآن، للنحّاس، 158/4.

[3] الكَشّافُ، 396/4، وينظر: الجامع لأحكام القرآن،30/17، و33.

غَيْرُ ثَابِتِينَ عَلَى أَمْرٍ، وَمَنْ لَا يَثْبُتُ عَلَى قَوْلٍ لَا يَكُونُ مُتَيَقِّنًا فِي اعْتِقَادِهِ فَكَأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: وَالسَّمَاءِ إِنَّكُمْ غَيْرُ جَازِمِينَ فِي اعْتِقَادِكُمْ وَإِنَّمَا تُظْهِرُونَ الْجَزْمَ لِشِدَّةِ عِنَادِكُمْ.[1]

ولعلَّ النكتة في هذا القسم: "تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السموات في تباعدها واختلاف غاياتها".[2] أو الإشارة إلى أنَّها ليست مستوية جيدة أو ليست قوية محكمة،[3] وَالظَّاهِرُ أَنَّ قوله تعالى: "إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ" خِطَابٌ عَامٌّ لِلْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ، كَمَا أَنَّ جَوَابَ الْقَسَمِ السَّابِقِ يَشْمَلُهُمَا، وَاخْتِلَافُهُمْ كَوْنُهُمْ مُؤْمِنًا بِالرَّسُولِ وَكِتَابِهِ وَكَافِرًا.[4]

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ المقصود بقوله "إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ" الكنايةُ عن لازم الاختلاف وهو التردد في الاعتقاد، ويلزمُه بطلان قولهم، وذلك مصبّ التأكيد بالقسم وحرف (إنَّ) واللام.[5]

وقد أشارَ الطباطبائيُّ (1402هـ) إلى أنَّ المعنى أظهرُ لمناسبته لجواب القَسَم الذي هو اختلاف الناس وتشتّت طرائقهم في قوله تعالى: "إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ"، فالقول المختلف ما يتناقض ويدفع بعضه بعضًا، وحيث إن الكلام في إثبات صدق القرآن أو الدعوة أو النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما وعدهم من أمر البعث والجزاء، فالمراد بالقول المختلف- على الأقرب- قولهم المختلف في أمر القرآن لغرض إنكار ما يثبته.[6]

**أمّا أنَّ** "إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ" تشنيعٌ لقول الذين يختلفون عن الحق، وليست بجوابٍ للقسم الذي سبقه، **فلم أجِدْ أحَدًا من العلماء قال بهذا بنَصِّهِ غير الفراهيّ.**

[1] ينظر: مفاتيح الغيب، 163/28.
[2] تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 146/5.
[3] ينظر: روح المعاني، 6/14.
[4] ينظر: البحر المحيط في التفسير، 550/9.
[5] ينظر: التحرير والتنوير، 342/26.
[6] ينظر: تفسير الميزان، 370/18.

**5. جوابُ القسَمِ في قوله تعالى:** "صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١" [سورة ص: 1]:

ردَّ الفراهيُّ على الكسائيِّ (189هـ) والفرّاء (207هـ) أنَّ قوله تعالى: "إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ" [ص: 64] جوابُ القسَمِ لقوله تعالى في أوَّل السورة: "صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ"،[1] إذ قال الفراهيُّ: "حُذِفَ جواب القسم، كما حُذِفَ في: "وَٱلۡفَجۡرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ" [سورة الفجر: 1-2]، والنحاةُ تكلَّفوا في تكميل الكلام حسب قواعد النحو، فذهبوا كلَّ مذهبٍ، كما قال الكسائيُّ والفرّاء رحمهما الله في جواب: "صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ"، أنَّه: "إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ" [سورة ص: 64]".[2]

يرى الفراهيُّ هنا أنَّ حذف جواب القسم مشابهٌ لحالات أخرى في القرآن، مثل "وَٱلۡفَجۡرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ"، وأنَّ النحاة تناولوا هذا الموضوع بحسب قواعد النحو وتكلَّفوه. ونلحظ هنا أنَّ الكسائيَّ والفرّاء أشارا إلى أنَّ حقيقة الأمر في جواب "وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ" جزءٌ من نقاش أهل النار، إذ ذكر الكسائيُّ أنَّ جواب القَسَم في قوله تعالى: "صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ"، هو قوله تعالى: "إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ"،[3] في حين ذهب الفرَّاء إلى أنَّ (ص) هي جواب القَسَم لقوله: "وَٱلۡقُرۡءَانِ"، كما تَقُولُ: نزلَ واللهِ.[4]

والفكرة الرئيسة التي يتبنّاها الفراهيُّ في هذه المسألة والتي سبقَتها هي انتقاده للنحويين بسبب تمسُّكهم بوجود جواب القَسَم في كلِّ الأحوال، ولو كان غير مُناسبٍ للمعنى، إذ يظنُّون أنَّهم مُلزَمون بإكمال القَسَم، في حين أنَّ ذلك يُخالفُ وجهة نظر الفراهيِّ؛

[1] ينظر: معاني القرآن للكسائي، ص 221، ومعاني القرآن للفراء، 2/396-397.

[2] أساليب القرآن، ص 30.

[3] ينظر: معاني القرآن للكسائي، ص 221، ولكنَّ الزركشيَّ ذكر في البرهان في علوم القرآن، 3/193، أنَّ الكسائيَّ استبعد ذلك، وقال محقق كتاب معاني القرآن للكسائيِّ، ص 221: "وورود هذين القولين المتناقضين عن الكسائي قد يكون أحدهما للكسائي ثُمَّ رجَعَ عنه إلى الرأي الآخر".

[4] ينظر: معاني القرآن للفراء، 2/396-397.

فهو يؤمن بأنَّ المعنى هو ما يَحكُم فقط. فهذه هي الرؤيةُ التي يعتمدها الفراهيُّ في هذه المسألة وغيرها.

والذي رأيتُه أنَّ النحويين والمفسرين اختلفوا في ذلك وانقسموا على قسمين:

- **القسم الأول:** هُم الذين خالفَ قولُهُم قولَ الفراهيّ، وَقَالُوا إِنَّ الجَّوابَ مَذْكُورٌ، واخْتَلَفُوا فِي تَعْيِينِهِ ثلاثة آراء:

- **الرأي الأوَّل:** ذهبوا إلى أنَّ قوله تعالى: "إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ" هو جوابُ القسَمِ، ومنهم الكسائيُّ والزَّجّاج،[1] قال أبو حيَّان: "وَجَوَابُ الْقَسَمِ، قِيلَ: مَذْكُورٌ، فَقَالَ الْكُوفِيُّونَ وَالزَّجَّاجُ: هُوَ قَوْلُهُ: "إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ".[2]

- **والرأي الثاني:** ذهبوا إلى أنَّ "صٓ" جوابُ القَسَمِ، ومن هؤلاء الفرَّاء،[3] وقد ردَّ على من قال إنَّ جواب القسم هو: "إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ"، قائلًا: "وقد زعم قوم أنّ جَوَاب "وَٱلْقُرْءَانِ": "إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ"، وَذَلِكَ كلامٌ قد تأخَّر تأخُّرًا كثيرًا عَن قوله: "وَٱلْقُرْءَانِ"، وجرت بينهما قِصص مختلفة، فلا نَجد ذَلِكَ مُستقيمًا فِي العربية، والله أعلم".[4]

- **والرأي الثالث:** ذهبوا إلى أنَّ قولَهُ تعالى: "بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ" [سورة ص: 2]، هو جوابُ القَسَمِ، قال القُرطُبيُّ: "وَقِيلَ: الْجَوَابُ "بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ"؛ لِأَنَّ (بَلْ) نَفْيٌ لِأَمْرٍ سَبَقَ وَإِثْبَاتٌ لِغَيْرِهِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَعَدَاوَةٍ

[1] ينظر: معاني القرآن للكسائي، ص 221، ومعاني القرآن وإعرابه، 319/4.

[2] البحر المحيط في التفسير، 135/9، وينظر: الجامع لأحكام القرآن، 144/15.

[3] ينظر: معاني القرآن للفراء، 396/2-397.

[4] معاني القرآن للفراء، 397/2، وينظر: جامع البيان، 141/21، والكشف والبيان عن تفسير القرآن، 176/8.

لِمُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)".[1] وذكر الثعلبيُّ (427هـ) أنَّهُ قيل: مُقَدَّمٌ ومُؤَخَّرٌ، تقديره: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ،[2] وذهب بعضهم إلى غير ذلك.[3]

- **القسم الثاني: الذين ذهبوا إلى** أنَّ جوابَ القَسَمِ محذوفٌ، وهؤلاء وافقَ قولُهم قولَ الفراهيِّ، لكنَّهم اختلفوا في تعيين جواب القسم المحذوف، إذ إنَّهم اخْتَلَفُوا فِي تَعْيِينِ الشَّيْءِ الَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ"، فَقَالوا: إنَّ المقسَم عليه محذوف، واختلفوا في تقديره: قال الزمخشري: "التقدير: والقرآن ذي الذكر إنَّه لَمُعجِزٌ"،[4] وَقَدَّرَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ وَغَيْرُهُ فَقَالَ: "وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ مَا الْأَمْرُ كَمَا يزعمون"،[5] واستَصوَبَ الشنقيطيُّ أَنَّ جَوَابَ الْقَسَمِ مَحْذُوفٌ وَأَنَّ تَقْدِيرَهُ: وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ مَا الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُهُ الْكُفَّارُ.[6]

بناءً على كلِّ ما تَقَدَّم، يتَّضح لي أنَّ رأي الفراهيِّ ومن وافقَه في مفهوم حذف جواب القسم، صائبٌ؛ لتوافقه مع المعنى العامِّ وللأسباب التي ذكرناها آنفًا.

**الخاتمة:**

بعدَ تَطوافٍ في أعمالِ عبد الحميد الفراهيِّ لاقتناصِ رُدودِهِ اللغويَّةِ على عُلماء الأُمَّةِ من المتقَدِّمينَ والمتأخِّرينَ، أنتهي إلى جُملةِ نتائجَ أراها جديرةً بالتأمُّلِ:

1. أنَّ أكثَرَ رُدُودِهِ كانت على القدماء لا على المُحدَثين، وأنَّ أكثرَ رُدُودِهِ على القُدماء

[1] الجامع لأحكام القرآن، 144/15.

[2] ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 176/8.

[3] ينظر: جامع البيان، 141/21، ومعاني القرآن للنحاس، 76/6، والجامع لأحكام القرآن، 144/15، والبحر المحيط في التفسير، 135/9.

[4] الكَشّافُ عن حَقائقِ غَوامِضِ التَّنزيل وعُيونِ الأقاويل في وجوهِ التَّأويل، 70/4.

[5] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 492/4.

[6] ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 326/6-327.

كانت على المفسرينَ الذينَ تناولوا القضايا اللغويَّةَ، ومن أبرزهم الطَّبريُّ والزمخشَريُّ والرّازيُّ والبيضاويُّ. وأمّا رُدودُهُ على النحويّينَ، فأبرزُها كانت على سيبويهِ والكسائيِّ والفرّاءِ وابنِ خالويهِ. وأمَّا رُدُودُهُ على المعجميّينَ، فكان أكثرُها على الجوهَريِّ. وأبرزُ رُدودِهِ على الصَّرفيّينَ كانت غير مباشرةٍ. وأمّا رُدودُهُ على المُحدَثينَ فكانت على أبناء جِلدته من الهنود، ومن أبرزهم عبد القادر الدهلويُّ، وفيضُ الحسن السهارنفوريُّ.

2. أنَّهُ يَعتَمِدُ في رُدُودِهِ اعتمادًا أساسيًّا على ثلاثَةِ أُصولٍ:

**الأصلُ الأوَّل:** القرآن الكريم، إذا كانَ في مسألةٍ وردَت فيه، إذ رأيتُهُ يَعتَمِدُ على ما جاء في مواضِعَ أُخرى من القرآن الكريم، أي يلجأُ إلى ترجيح اللغَة التي جاءَت في موضعٍ قرآنيٍّ باللغة التي جاءت في موضعٍ قرآنيٍّ آخرَ، إذ يبحث عن نظائر المسألة المرادِ بيانُها في الآيات الأخرى، ثُمَّ يُعيّنُ المُراد منها، كما في مسألة اتّصال (فيهِ) بـ(لا ريبَ)، إذ تتبع نظائرَها في سائر القرآن، وخلصَ إلى أنَّه لم يَجِئْ بحذف الخبر، ومثلُها مسألة إعراب (سافِلِينَ)، ومسألةُ أصل (تولَّوا).

**الأصلُ الثاني:** شِعرُ العرب، ولا سيَّما الجاهليُّ، فهوَ يُعنى عنايةً كبيرةً جدًّا بهِ، إذ يأتي بالحجج والادلَّة من الشِّعر العربيّ قبل الإسلام، مستدلًّا على كلامه بآياتٍ قرآنيَّةٍ، وهو ما نجده في مسألة (الرَّحمن)، إذ أثبَتَ أنَّ العرب كانوا يعرفون هذا الاسم، ومثلُها مسألَتا (الآلاء) و(الحُبُك)، وهو ما نجده أيضًا في مسألة (يُطِيقُونَهُ).

**الأصلُ الثالث:** عاداتُ العرب، إذ رأيتُهُ يُعنى جدًّا بعادات العرب وما كانوا عليه، وهو ما نجدُهُ جليًّا في قضية الفعل (تَأَيّا)، إذ ذهب إلى أنَّ (التَّأَيِّي) بمعنى (التَّوَقُّف)، وهو معلومٌ عن العرب، ومِثلُها مسألةُ إعراب (حَمّالةَ).

3. أنَّهُ سلكَ مسلكًا لم أرَ من سلَكَه قبله من اللغويّينَ والمفسّرينَ، إذ إنَّ من مواطن تعزيز الرأي وتأييد القول الذي يذهب إليه استشهادَه بالعبرانيّةِ والآراميَّة والسريانيَّة والفارسيَّة، لأنَّهُ يُجيدُها، كما في مسائل: (المُهَيمِن)، و(هادُوا)، و(الآلاء).

4. أنَّهُ لا يُعوِّلُ على النُسَخِ المطبوعة؛ لأنَّ النُّسّاخَ ربَّما يكونون قد سَهَوا، بل يُعَوِّلُ على انسجام كلام المؤلِّفينَ، كما في أصل (برا) عند الفرّاءِ، إذ اللائقُ أن تُكتَبَ الكلمة بالألفِ المطلقةِ، وهو ما ذهب إليه الفراهيُّ.

5. أنَّ من مَواطِنِ الإبداعِ عندَهُ إيرادَهُ أربعةَ أدلَّةٍ في بيان مسألةٍ واحدةٍ، وكلُّ دليلٍ مأخوذٌ من أصلٍ مُستَقِلٍّ: الأوَّلُ من اللِّسان، والثّاني من النَّظْم، والثّالثُ من التاريخ، والرّابعُ من سُنَّة القرآن، وجميعُها منطقيّةٌ تُرَجِّحُ ما يذهبُ إليه وتُبيِّن عقليَّتَه الكبيرة، كما في مسألة إعراب (حَمّالَةَ).

6. أنَّهُ يُناقش المسائلَ مُناقَشَةً مكثَّفَةً ومعمَّقَةً، ولا يتكلَّفُ تفسيرَ الآيات، ولا يُقَدِّمُ الصّنعةَ الإعرابيَّةَ المَحضةَ، بل يُقَدِّم المعنى ويجعَلُهُ الحاكِمَ على الصَّنعةِ الإعرابيَّةِ، ويرفضُ ما جوَّزَهُ النَّحويُّونَ على سبيلِ إجازةِ الصَّنعةِ النَّحويَّةِ، كما في مسألة إعراب (يَوْمَ) في قوله تعالى: "يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾" [سورة الذاريات: 13]، ومسألة (مَعاذِير).

7. أنَّ رُدُودَهُ ومناقشاتِهُ اللغويةَ عامَّةً تكشِفُ عن نزعةٍ اجتهاديةٍ واضحةٍ تأنَفُ من التقليدِ وتجنَحُ إلى التجديدِ، فقد تبيَّن لي أنَّهُ يجتهدُ في اللغة بآراءٍ جديدةٍ لم يُسبَقْ إليها، ومن ذلك: أنَّ كلمة (الآلاء) قد جاءت بمعنى (الفِعال العجيبة)، خِلافًا لِما ذُكِر في أغلب التفاسير.

8. أنَّ اسم (المُهَيمِن) قد جاء بمعنى (المُعتَمَد والوكيل)، وليس كما ذهب إليه عامَّةُ المفسِّرينَ واللغويِّينَ.

9. أنَّ (الواو) في قوله تعالى: "وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ" [سورة البقرة: 42]، للتفسير، أي: لبسُكُم الحقَّ بالباطلِ هو عينُ كتمانِ الحَقِّ. وهو قولٌ جديدٌ ودقيقٌ جدًّا.

10. أنَّهُ وجَّه قوله تعالى: "ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ" [سورة الإسراء: 14]، توجيهًا جديدًا، إذ أثبت بالأدلَّة المنطقيَّة أنَّهُ التفاتٌ، خِلافًا لِما جاءَ عندَ عامَّة المفسِّرينَ واللغويِّينَ من أنَّه على

الحذفِ، فذَكَرَ أنَّه التفاتٌ يُوهِمُ الحذفَ، وهو الأمرُ الذي لم يَقُلْ به أحدٌ بهذه الدِّقَّةِ.

11. أنَّهُ وَسَّعَ دلالةَ اسمَي الإشارةِ (ذلك) و(هذا)، إذ رأى أنَّ (ذلك) يُشيرُ إلى ما عَلِمَهُ المُخاطَبُ وسبَقَ ذِكرُهُ، وأنَّ (هذا) للشيءِ الذي بين يَدَيك. وهو قولٌ جديدٌ لم نألَفْه سابقًا، إذ إنَّ النحويِّينَ قد خصَّصوا دلالتَيهما بالبُعدِ والقُربِ.

12. أنَّهُ ذهبَ إلى أنَّ جملةَ "إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾" [سورة الذاريات: 8] ليسَت جوابًا للقَسَمِ السابق، بل تُشير إلى معنًى آخَرَ يتعلَّقُ بأمرِ وقوعِ الدِّين، إذ رأى أنَّ الجملةَ استئنافيةٌ وأنَّها تشنيعٌ، خِلافًا لقولِ جُمهورِ النحويِّينَ والمفسِّرينَ.

13. أنَّهُ اجتهدَ في تأصيلِ الكلماتِ التي شُكِّكَ في عربيَّتِها، وبيَّنَ بالحججِ الدامغةِ والأدلَّةِ الواضحةِ أصالتَها العربيَّةَ، رادًّا قولَ مَن عدَّها غيرَ عربيَّةٍ، كما في تأصيلِه كلماتِ (الرَّحمن)، و(هادُوا)، و(النَّصارى).

## المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر**: البنّاء، أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ (1117هـ)، تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب العلمية- لبنان، الطبعة الثالثة، 1427هـ-2006م.
2. **أساليب القرآن**، عبد الحميد الفراهيّ، الدائرة الحميدية- أعظم كره، الطبعة الثانية، 1411هـ.
3. **إصلاح المنطق**: ابن السّكّيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (244هـ)، تحقيق: محمد مرعب، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1423هـ-2002م.
4. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر (1393هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، 1415هـ-1995م
5. **إعراب القرآن وبيانه**: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (1403هـ)، دار الإرشاد للشئون الجامعية- حمص، الطبعة الرابعة، 1415هـ.
6. **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**: ابن هشام، عبد الله بن يوسف جمال الدين (761هـ)، دار الجيل- بيروت، الطبعة الخامسة، 1979م.
7. **بحر العلوم**: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي (375هـ)، دار الفكر- بيروت، تحقيق: محمود مطرجي، د. ط.
8. **البحر المحيط في التفسير**: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (745هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر- بيروت، 1420هـ، د. ط.
9. **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**: أحمد بن محمد الإدريسي الشاذلي الفاسي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الثانية، 1423هـ-2002م.

10. **البرهان في علوم القرآن**: الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين بن بهادر (794هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الحلبي وشركائه، الطبعة الأولى، 1376هـ-1957م.
11. **تاج العروس من جواهر القاموس**: مرتضى الزَّبيدي، محمّد بن محمّد، أبو الفيض (1205هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ط.
12. **التبصير في الدين:** طاهر بن محمد أبو المظفر، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1983م.
13. **التبيان في إعراب القرآن: العكبري**، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (616هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاءه، د. ط.
14. **التحرير والتنوير**: ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر التونسي (1393هـ)، الدار التونسية للنشر، 1984م، د. ط.
15. **تذكرة الأريب في تفسير الغريب (غريب القرآن الكريم):** جمال الدين أبو الفرج الجوزي (597هـ)، تحقيق: طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1425هـ-2004م.
16. **تعليقات في تفسير القرآن الكريم:** عبد الحميد الفراهي، إعداد: عبيد الله الفراهيّ، ومراجعة: محمد أمانة الله الإصلاحيّ، الدَّائرة الحميديَّة، مدرسة الإصلاح، أعظم كره، الطبعة الأولى، 1431هـ- 2010م.
17. **تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج:** أبو إسحاق الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل (311هـ)، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، د. ط.
18. **تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي:** أبو عبد الله، بن حمد آل سعدي (1376هـ)، تحقيق: عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية- المدينة المنورة، 1421هـ، د. ط.
19. **تفسير مجاهد: أبو الحجاج مجاهد القرشي المخزومي (104هـ)، تحقيق:** محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة-القاهرة، الطبعة الأولى، 1410هـ-1989م.

20. **جامع البيان في تأويل القرآن:** الطبري، محمد بن جرير بن يزيد الآملي، أبو جعفر (310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ-2000م.
21. **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي:** القرطبي، أبو عبد الله محمد، شمس الدين (671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ-1964م.
22. **خطرات في اللغة القرآنيّة:** فاخر الياسري، الموسوعة الثقافيّة 53، دار الشؤون الثقافية العامّة، الأعظميّة – بغداد، د. ط.
23. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون:** السَّمين الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف (756هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د. ط.
24. **ديوان الأدب: الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين (350هـ)، تحقيق:** أحمد مختار عمر، مراجعة إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر- القاهرة، 1424هـ-2003م، د. ط.
25. **ديوان عامر بن الطفيل:** رواية أبي بكر محمد بن القاسم الانباري عن أبي العباس بن يحيى ثعلب، دار صادر- بيروت، 1399هـ/1979م، د. ط.
26. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:** شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (1270هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ.
27. **زاد المسير في علم التفسير:** جمال الدين أبو الفرج بن محمد الجوزي (597هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ.
28. **الزاهر في معاني كلمات الناس:** أبو بكر الأنباري، محمد بن القاسم (328هـ)، تحقيق: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى، 1412هـ-1992م.

29. **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك:** ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني (769هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث- القاهرة، دار مصر للطباعة، الطبعة العشرون، 1400هـ-1980م.

30. **شرح ديوان الفرزدق:** ضبط معانيه وَشَرَحَهُ وَأكملها ايليا الخاوي، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، 1983م.

31. **شرح المفصل:** يعيش بن علي بن يعيش، أبو البقاء، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (643هـ)، قدّم له: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ -2001م.

32. **شرح الوَاحِدِي لديوان المتنبي:** ضبطه وَشَرَحَهُ وَقَدَمَ لَهُ وَعَلق عَلَيْهِ وَخَرجَ شَوَاهِدَهُ: ياسين الأيوبي، وقصي الحسين، دار الرائد العربي، الطبعة الأولى، 1419هـ-1999م.

33. **شرح شافية ابن الحاجب:** محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي، نجم الدين (686هـ) حققه وضبط غريبه، وشرح مبهمه: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1395هـ-1975م، د. ط.

34. **شرح كتاب سيبويه:** أبو سعيد السيرافي (368هـ)، تحقيق: وتقديم وتعليق: رمضان عبد التواب، ومحمود فهمي حجازي، ومحمد هاشم عبد الدايم، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م، د. ط.

35. **شعر خُفَاف بن نَدْبَةَ السُّلمي:** جمعه وحققه: نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، 1968م.

36. **الشعر والشعراء:** ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (276هـ)، دار الحديث - القاهرة، 1423هـ، د. ط.

37. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية:** الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (393هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الرابعة، 1407هـ-1987م.

38. **العين:** الخليل بن أحمد الفراهيدي، البصري (170هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د. ط.
39. **القاموس المحيط:** الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر (817هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق: التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الثامنة، 1426هـ-2005م.
40. **قاموس كلداني- عربي:** يعقوب اوجين منا، مطبعة هيفي- أربيل، الطبعة الثالثة، 2013م.
41. **الكامل في اللغة والأدب:** محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (285هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي- القاهرة، الطبعة الثالثة، 1417هـ-1997م.
42. **الكتاب: سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، أبو بشر (180هـ)، تحقيق:** عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، الطبعة الثالثة، 1408هـ-1988م.
43. **الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد:** المنتجب الهمذاني (643هـ)، حقَّق نصوصه وخرجه وعلّق عليه: محمد نظام الدين الفتيح، دار الزمان للنشر والتوزيع - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1427هـ-2006م.
44. **الكَشّافُ عن حَقائقِ غَوامِضِ التَّنزيل وعُيونِ الأقاويل في وجوهِ التَّأويل:** الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (538هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ.
45. **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها:** أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (437هـ)، تحقيق: محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، 1401هـ-1981م.
46. **لسان العرب:** ابن منظور، محمد بن مكرم، جمال الدين الأنصاري (711هـ)، دار صادر– بيروت، الطبعة الثالثة، 1414هـ.
47. **ليس في كلام العرب:** ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد النحوي

اللغوي (370هـ)، تصحيح وضبط وشرح: أحمد بن الأمين الشنقيطيّ، مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى، 1327هـ.

48. **مجمع الأمثال:** النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني (518هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، د. ط.

49. **مختار الصحاح:** الرازي، زين الدين أبو عبد الله الحنفي (666هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت- صيدا، الطبعة الخامسة، 1420هـ-1999م.

50. **المخصص:** بن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (458هـ)، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ-1996م

51. **المستقصى في أمثال العرب:** الزمخشري، أبو القاسم محمود بن أحمد، جار الله (538هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، 1987م.

52. **معاني القراءات للأزهري:** الأزهري، محمد بن أحمد بن الهروي، أبو منصور (370هـ)، مركز البحوث في كلية الآداب- جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، 1412هـ-1991م.

53. **معاني القرآن:** أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (338هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى- مكة المرمة، الطبعة الأولى، 1409هـ.

54. **معاني القرآن:** الأخفش الأوسط، أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي (215هـ)، تحقيق: هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي- القاهرة، الطبعة الأولى، 1411هـ-1990م.

55. **معاني القرآن:** الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي (207هـ)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى.

56. **معاني القرآن:** الكسائي، علي بن حمزة (189هـ)، أعاد بناءه وقدّم له: عيسى شحاته عيسى، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م، د. ط.

57. **معاني القرآن وإعرابه:** الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق (311هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب- بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ-1988م.
58. **معجم الخلاف الصَّرفي في ألفاظ القرآن الكريم:** كاطع جار الله سطّام، مؤسسة دار الصادق الثقافية، الطبعة الأولى، 1438هـ-2017م
59. **معجم مقاييس اللغة:** أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، أبو الحسين (395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م، د. ط.
60. **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب:** ابن هشام، عبد الله بن يوسف، جمال الدين (761هـ)، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي، مراجعة: سعيد الأفغاني، دار الفكر-دمشق، الطبعة الأولى، 1384هـ-1964م.
61. **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير:** الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الرازي الملقب بفخر الدين (606هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، 1420هـ.
62. **المفردات في غريب القرآن:** الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (502هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية- دمشق، الطبعة الأولى، 1412هـ.
63. **مُفرَداتُ القرآن:** عبد الحميد الفراهي (1349هـ)، تحقيق وشرح: محمد أجمل أيُّوب الإصلاحيّ، دار الغرب- بيروت، الطبعة الأُولى، 1422هـ/2002م.
64. **المقتضب:** المبرّد، محمد بن يزيد الأزدي، أبو العباس (285هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب – بيروت، د. ط.
65. **النَّشر في القِراءاتِ العَشر:** ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير (833هـ)، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، د. ط.
66. **نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان:** عبد الحميد الفراهيّ، تحقيق: عبيد الله الفراهيّ، دار الغرب الإسلاميّ، الطبعة الأولى، 1433هـ-2012م.

**ب. الكتب الأجنبيّة:**

67. **A Compendious Syriac Dictionary**: Edited by J. payne smith,1979.

**ثانيًا: الكتب المخطوطة**

68. **حاشية كتاب (ليس في كلام العرب):** ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين النحوي اللغوي (370هـ)، تصحيح وضبط وشرح: أحمد بن الأمين الشنقيطيّ، مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى، 1327هـ، حاشية مخطوطة لعبد الحميد الفراهيّ، زوّدني بموضع الرد فيها الدكتور محمد أجمل الإصلاحي.

**ثالثًا: الرسائل والأَطاريح**

69. **دلالة الاكتفاء في الجملة القرآنية - دراسة نقدية للقول بالحذف والتقدير:** علي عبد الفتاح، إشراف خليل بنيّان الحسّون، (أُطروحة دكتوراه)، جامعة بغداد، كلية التربية ابن رشد، 1427هـ-2006م.

ISSN: 2321-7928

# بلاغة العرب

- الشيخ عبد المجيد الإصلاحي[1]

ترجمة من الأردوية: د.محمد عمير بن أبي سفيان[2]

لقد اعتنى علماء الإسلام أيما اعتناء بفن البلاغة الأعجمية لأجل الكشف عن إعجاز القرآن الكريم ومن الأسف الشديد ربما لا يوجد مثال لخطأ أعظم منه في تاريخ الأمة. "فلو أنَّ العلماء استقصوا كلام العرب، واقتفوا آثار المحاسن فيه، وقيّدوها بالحدود ونظموها في ترتيب حتى يصير لهم ميزان ومحكّ لمعرفة محاسن الكلام، ثم نظروا في براعة القرآن ونظمه المعجز، لكانوا أقرب إلى معرفته".

في المتقدمين، يُعتبر الجاحظ الشخصية الوحيدة التي يمكن أن نستثنيها من هذه الكلية. كان هذا الشخص عاشقًا للكلام العربي، مخلصًا له، ومعجبًا به وقد اتبع كلام العرب حقًا، وحافظ على التقاليد الأدبية للعرب القدماء في التعبير والبيان بكمالها. لم يبتعد أبدًا عن سنن العرب سواء كان الأمر يتعلق باللغة والأدب، أو البلاغة والمعاني. تعبّر هذه الجوانب من حياته الأدبية عن قوله: "لم أجد في خطب السلف الطيّب، والأعراب الأقحاح، ألفاظًا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديًّا، ولا قولًا مستكرهًا، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين وفي خطب البلديين المتكلفيين ومن أهل الصناعة المتأدبين وسواء كان ذلك على جهة الارتجال والاقتضاب أو كان من نتاج التخير والتفكر".[3]

لقد كان لمؤلف "دلائل الإعجاز" موقف غريب ومؤسف، حتى إنه فضَّل المتأخرين

[1] عالم ومترجم من أعظم كره له "القراءة العربية" (جزءان).

[2] مدرّس ضيف، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملّية الإسلامية، نيو دلهي

[3] البيان والتبيين للجاحظ، بتحقيق عبد السلام هارون، ط:2، نشر مكتبة الخانجي، مصر، 1960م، ص: 8-9

على المتقدمين، واعترف بفضائلهم، ثم ذكر محاسنهم الأدبية بطريقة انخدع بها الكثير من كبار الناس. ولم يبتعد هذا العاجز عن سنن العرب إلا لقلة ممارسة كلامهم الخالص فلو تيسّر له ذلك، ما أشاد بفضائل المتأخرين وقال بقول الجاحظ. لكن من الأسف أنه بنى أفكاره النقدية على إبداعات المتأخرين، مما ألقاه بعيدًا عن الحقيقة.

**تراث العرب النقدي:** لا يعقل أن يكون في فطرة أمة جوهر البلاغة، ثم تعجز عن التمييز بين الكلام الجيد والرديء.. فكما أنّ فصاحة العرب وبراعتهم اللغوية يعترف بها، فلا بد من الاعتراف بقدراتهم النقدية أيضًا.

يشمل التصنيف الخالد للقصائد العربية ما يعرف بالمعلقات، والمذهبات، والمنتقيات، والمجموعات، وما إلى ذلك، إلى جانب معارك الخطابة والبلاغة في أسواق عكاظ وغيرها من المهرجانات الوطنية العربية الكبرى، ثم تلك الأحكام الحاسمة والمُرضية التي يصدرها الحُكّام، وما يفعل الشاعر بقوة شعره من إيقاظ أمة من سباتها العميق ويحولها إلى شعلة وهاجة ويعيد اليقظين بسحر بيانه إلى سبات عميق، يعز ذليلًا ويذل صاحب عزة، ويرفع الأمة الممدوحة إلى عنان السماء، ويشعل نيران الحرب الخابية فجأة، أليست هذه كلها مرآة للنقد الجاهلي للعرب، أليس كذلك؟ من المثير للاهتمام أنه إذا لم يكن لدى العرب أيّ قواعد لفن البلاغة أو أي مبادئ محددة للأدب، فكيف يمكن لحكم أن يصدر حكمًا في المنافسة الأدبية؟ وكيف يمكن لأمة مثل العرب أن تقبل هذه الأحكام؟ ألم يكن هناك مقياس لهم يُعتمد عليه، فيكتبون قصيدةً بماء الذهب ويعلقونها على جدار الكعبة، بينما يعتبرون غيرها لا تستحق أيّ اهتمام؟

تاريخ الجاهلية يروي قصة بنات المهلب، اللواتي حُرمن من الأزواج بسبب فقرهن. عندما مرّ الأعشى من هناك، قصت له مهلب قصتها الحزينة. تأثر الأعشى بشدة، وعندما وصل إلى القبائل العربية، نظم القصائد في مدح بنات المهلب، حتى تسابقت إليهن رسائل الزواج بالمئات من الأمراء والفقراء، والحكام والمحكومين. فما الذي

أضافه الأعشى إلى هؤلاء الفتيات، حتى جعل الناس يجنون بحبهن؟

نظم الأعشى شعراً يهجو علقمة بن علاثة، حيث قال:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[1]

يعتبر أصحاب الذوق أنّ هذا البيت هو "أهجى بيت" في الشعر الجاهلي، وعندما سمع علقمة هذا البيت، انفجر بالبكاء، وقال: "اللهم اخزِ الأعشى، وإن كان كاذبًا، فليعاقبه على هذا الكذب".

يقول لبيد في شعر لبيد:

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجدّ متونها أقلامها[2]

عندما سمع الفرزدق هذا البيت، سجد. فقيل له: "ما هذا يا أبا فراس؟" فأجاب: "إنكم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر".

وعندما أنشد لبيد معلقته ووصل إلى هذا البيت:

يعلو طريقته متنها متواتر في ليلة كفر النجوم ظلامها[3]

سجد الشعراء على الفور.

لو كان التفكير وفق النهج المذكور، لما واجهنا هذه العثرات، ولكن الواقع يشهد بأنّ هذا الأسلوب لم يُعتمد قط. وأما النهج الذي سلكه صاحب "أسرار البلاغة" في مجال الأدب لا يمتّ بصلة إلى منهج العرب الأصيل. والأمر المثير للاستغراب هو أنّ باب المزيد من التفكير والتدبر قد أُغلق تمامًا وصار "كتاب أسرار البلاغة" المرجع الأساسي للأدباء بعده،

[1] ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح وتعليق، الدكتور محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميزت، المطبعة النموذجية، د-ت، ص: 19

[2] شرح المعلقات للزوزني، طبعة دار صادر، ص: 94

[3] المصدر السابق، ص: 105

مما أدّى إلى نشوء فجوة واسعة بينهم وبين الفهم المباشر لكلام العرب، ولو تم التركيز على النصوص العربية الأصلية دون وسائط أو مناهج دخيلة، لكان ذلك أكثر صوابًا وأقرب إلى المنهج العلمي السليم. وبهذا السبيل، وإن لم يكن عبر المناهج الفنية التقليدية، يمكن أن ينشأ ذوق أدبي متين، يفتح الباب نحو فهم أعمق لإعجاز القرآن الكريم.

**بلاغة أرسطو:** أرسطو هو فرد من الأمة اليونانية، ولا تربطه بالكلام العربي أيّ صلة بعيدة أو قريبة. ومع ذلك، فإنّ نظريته التي قدّمها في مجال الأدب والبلاغة تعتبر مكسباً مقارنة ببعض علماء الإسلام. ولو كان أمامه الكلام العربي، بدلًا من الكلام اليوناني الذي كان عبارة عن مجموعة من القصص والحكايات التي لا معنى لها، لتمكن من الوصول إلى الحقيقة الأصلية، ولما بقيت تلك الصعوبات التي نواجهها في فهم الكلام العربي.

وعندما تحدث أرسطو عن الشعر، قدّم قاعدة قريبة جدًا من الصدق:

"إنّ أصناف الشعر، والنغم، جنسه الأعلى محاكاة، فإنّ الإنسان إما من الفطرة أو من التعلم يحاكي أشياء مختلفة بوسيلة اللون أو الشكل، أو بالصوت".[1]

إلا أنه، حين خاض في علل الشعر المادية والغائية والمبدئية، ابتعد عن الحقيقة بعدًا شاسعًا. ولا يرجع ذلك إلا لكونه لم ينظر إلا في شعر أمته وأدبها. فلو أنه تجنب أدب قومه، وتأمل في الشعر والأدب تأملًا فلسفيًا محضًا، وأعمل فكره وبصره في الشعر والأدب مثل بحثه في العلل والأسباب الميتافيزيقية، لما زاغ عن طريق الحق قيد أنملة". قد يكون نظرية أرسطو نتيجة تفكيره في شبابه، ونصفح عن إبراز باطله، لكن نظرية أرسطو أثرت بشكل كبير على فن البلاغة، لذلك نحن مضطرون لمناقشتها بتفصيل.

بما أنّ الأدب والشعر اليوناني كانا عبارة عن قصص وحكايات فقط، وكان هوميروس وسوفوكليس أشهر الشعراء في ذلك الوقت، اضطر أرسطو أن يعتمد على هذه النصوص لاستخراج قواعد النقد الأدبي ومقاييس الجودة. لأنّ جماليات أي

[1] جمهرة البلاغة لعبد الحميد الفراهي، طبعة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة الأولى، 2027م، ص: 63

لغة تظهر أولًا، ثم يأتي النقاد ليضعوا القواعد العامة بناءً عليها. وهذا يشبه ما يفعله علماء الطبيعة عندما يدرسون الظواهر الطبيعية ليستخرجوا القوانين. في الواقع، هذه الطريقة في استخراج القواعد تقلل من الأخطاء، ولكنها أيضًا تحمل بعض الصعوبات التي قد توقع حتى العقول الكبيرة في الخطأ. لهذا السبب، بنى أرسطو نظريته على هذا الأساس، وقدّمها مدعومة بالنقاط التالية:

1. الصفة الغالبة لحسن الكلام (الشعر) هي قدرته على محاكاة وتصوير الأحداث والوقائع بدقة.
2. القصص والحكايات قد لا تكون دائمًا مطابقة للواقع، ولذلك يمكن استخدام "الكذب الفني" أو "التزييف الجميل" لخلق الجمال في الكلام.
3. قدَّم أرسطو الصورة كمثال لتوضيح فكرته، فقال إنّ الصورة تكون دائمًا جميلة وجذابة، حتى ولو كانت تصوّر منظرًا قبيحًا أو مكروهًا. ولتأكيد هذه الفكرة، وضع أرسطو مقدمتين:

1. الإنسان حاكية بالطبع أكثر من سائر الحيوان، فهذه الصفة أنسب بطبعه وأحبّها إليه.
2. العلم مرغوب بالطبع، وحكاية الشيء تخبر عن المحكي عنه فلذلك هي محبوبة.

تمسّك أرسطو بهذا الرأي بشدة، رغم العديد من الاعتراضات. لذلك استحسن جواب سوفاكليس حين أخذ الناس عليه أنه يرسم صورًا للناس خلاف الواقع، أجاب: "إني وصفتهم كما ينبغي "يوراب ديس"، لكن تصويري هو كما يجب أنْ يكون".

إذا ما أمعنا النظر في غايات الشعر اليوناني، تبين لنا أنه لم يكن يرمي إلا إلى تحقيق اللذة واللهو، وذلك من خلال حكايات فكاهية ومأساوية. فأضحى الشعر في نظره وسيلةً خالصةً لإدخال البهجة والسرور فذهب إلى القول بأنه إذا تعذر على الشاعر

أن يخلق جوًا من الطرب والبهجة بالصدق والحقيقة، فينبغي للشاعر أن يزيد في كلامه أو ينقص منه. ولم يكن أرسطو في هذا الرأي فريدًا، بل كان يعكس حال الأمة اليونانية بأسرها. فقد كان الشاعر عندهم "المختلق الذي يصنع الحكايات والقصص لإطراب السامعين".

**تأثير هذا الرأي في النقاد العرب:** عندما أسّس أرسطو معيار البراعة والإتقان على مهارة الاختلاق، ساد الاعتقاد بأنّ أفضل الشعر هو ما يوظّف الكذب بأكبر قدر ممكن. "وإذ ليس في أشعار العرب من أمر القصة والحكاية، إلا التشبيه ظنّوا أنّ الغلو في التشبيه هو أحد محاسن الشعر". وعندما جعل أرسطو المحاكاة محور الأدب، أصبحت الاستعارة والتشبيه أساسَيْ فن البلاغة هنا، وقيل بلا خوف: "إنّ أعلى كمال البليغ أن يكون حاذقًا في استعمال التشبيه".

يرى صاحب "أسرار البلاغة" كان جلّ محاسن الكلام- إن لم نقل كلها- متفرعة عنها- أنواع التشبيه- وراجعة إليها".[1] انظروا إلى مدى قرب هذا الرأي من نظرية أرسطو.

في العصور اللاحقة، "اعتُبرت الاستعارة، ألذ وأجمل من التشبيه. وكان نتيجة هذا الرأي أنه قد غاب عنهم ما كان للعرب من سحر الكلام وإعجازه. ,وبادر إلى أذهانهم أنّ الفرق بين التشبيه والاستعارة يكمن في الغلو، فأصبح الكذب والمبالغة معيارًا لجمال الكلام. في حين أنّ العرب كان لديهم معايير أخرى لجمال الكلام، تقوم على الواقعية والصدق، وليس على الهروب من الحقيقة والواقع".

إننا لا ننكر محاسن التشبيه وأنواعه، ولكننا نرى أنّ التشبيه متفرع عن أصل غير التشبيه وأساسه الصدق خلاف ما ذهب إليه أرسطو فكيف يرتضي عاقل أن يصرف اهتمامه إلى أشياء تقتصر على التكلف والتقليد الأعمى كالقردة، وأن تكون

[1] أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، نشر دار المدني، جدة، ص: 27 نقلًا عن جمهرة البلاغة طبعة دبي، 2017م

مجرد حكايات، وأن يكون زينتها الكذب، وغايتها اللهو واللعب؟ ولاسيما إن كان ذلك الشخص من الذين يعلمون أنّ البلاغة هي من أسمى كمالات الأنبياء، وإذا كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأنّ البلاغة هي معجزة خالدة وسامية. وإذا كان قد كرّس نفسه لدلالة الناس على حقيقتها والإيضاح عن أسرارها.

**وجهة نظرنا:** نرى أنّ الطفل، منذ ولادته، يمصّ ثدي أمه تلقائيًا للحصول على الغذاء. ومع تقدمه في العمر، يبدأ بالإشارة إلى الماء بأصوات مثل "مم مم" أو "بب بب". ثم يتطور نطقه إلى كلمات مثل "ماما" و"بابا". هذه الأمور تدل على أنّ الطفل يمتلك قوة إرادية للتكلم وقدرة ذاتية على الاجتهاد. هذه القوة، من خلال التدريب والوسائل المختلفة، تتطور حتى يتمكن الطفل من نطق الأصوات الأخرى المتنوعة بمفرده. بعد ذلك، يتعرض للغة والديه ويتعلمها. وإذا لم يتعرض للغة الأم، فسيستخدم بالتأكيد أعضاء صوته لإنشاء لغة خاصة به. إذ لا يوجد إنسان في العالم بلا لغة. فمن علّمه فن اللغة؟ أليست الفطرة؟ وإذا كان هذا من قبيل المحاكاة، فلا بد أن يكون للمحاكاة منتهى وأصل ثابت.

بناءً على هذه الحقيقة، يمكن القول بوضوح أنّ الإنسان ليس محاكيًا بطبيعته، بل هو ناطق. المحاكاة هي سمة غير الإنسان. إذا كان الإنسان محاكيًا بطبيعته، لكان يحاكي كل شيء يمر به. في الواقع، ما يحدث هو أنّ خصائص الإنسان تكون كامنة في الطفل، وتظهر عندما يرى الكبار. على سبيل المثال، عندما يرى الضحك، تظهر لديه قوة الضحك، أو عندما يرى البكاء، يبدأ في البكاء.

من المهم أيضًا أن نلاحظ أنه "ليس لأحد من الحيوان فطانة مثل فطانة الإنسان ولا لسان كلسانه"، وليس له نظير في ذكائه وبلاغته. السبب في ذلك أنّ الإنسان يمتلك جوهر النطق، الذي هو نتيجة كمال الفهم والإدراك. وبالتالي، فمن كان أكملهم علمًا يعتبر أشرفهم.

ومن الجدير بالذكر أنّ اللغة تخضع للعقل وأمره، فهي بمثابة أداة للعقل. وينتج عن هذه الحقيقة أنّ حسن النطق ليس في الحقيقة من جهة نغمته، كنغم العندليب، بل حسنه في كونه آلة صحيحة للعقل. وهكذا، يتحول النطق إلى وسيلة لنقل الرسائل بين عقلين، كما في قولهم: "ما خرج من القلب دخل القلب".

والمحاكاة أمر مسلم به، ولكنه ثانوي، إذ إنّ الإنسان من خلالها يتدرب على إبراز قدراته النطقية. فلو لم تكن للإنسان قدرة على النطق، لما تمكن من المحاكاة. لذا، فإنّ النطق له الأولوية، والمحاكاة تأتي في المرتبة الثانية.

وإذا نظرنا إلى الكلام من منظور الحكمة، فإنّ أسبابه يمكن أن تكون كالتالي:

(1) العلة الفاعلية: قوة النطق.

(2) العلة المادية: الكلمات والمعاني.

(3) العلة الصورية: حسن الكلام.

(4) العلة الغائية: رسالة العقل.

إنّ النطق يقوم بصياغة المعاني في قالب من الكلمات، سواء كانت هذه الكلمات من اختراع المتكلم نفسه، أومما تعلَّمها بوسيلة المحاكاة. ومن العجيب أن نعتبر اللذة هي الغاية النهائية للكلام. ففي استخدام كل قوة لذة خفية، يتوق الإنسان إلى إظهارها. فالجاهل يستخدم هذه القوة من أجل اللذة، بينما يستخدمها العاقل والحكيم من أجل الحكمة. لذا، فإنّ رسالة الحكمة والعقل هي التي يجب أن تكون هدف القوة الكلامية، وليس اللذة الناتجة عن الجهل والسفاهة. أما حسن الكلام فهو كمال العلة الصورية، وكما يقال "ما خرج من القلب دخل القلب"، فلا يمكن أن تكون علامة حسن الكلام إلا من جهة الإبلاغ، أي إيصال المعنى إلى الذهن بوضوح".

كلما كانت الكلمات والمعاني أجمل وأرقى، كان الكلام أبلغ وأحسن. لا قيمة لكلام أبلغ

بكمال الصحة معاني سيئة أو خبيثة، فالحرس أحسن من هذا النطق. يعتقد أبو جعفر قدامة أنه "ليس فحاشة المعنى في نفسه، مما يزيل جودة فيه كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلًا، رداءته في ذاته".[1] وكتب في مكان آخر: "إنّ الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقًا بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني- كائنًا ما كان- أن يجيده في وقته الحاضر".[2]

إنّ رأي قدامة حول الشعر والشعراء يمثل انحدارًا شديدًا، وقد خفض الشعر والشعراء إلى مستوى منخفض. في هذا السياق، جاء في القرآن: "وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ".

نحن لا نعتبر محاسن الكلام إلا التي تنبع من كمال قوة النطق. فالشعر، مهما كان حسن وزنه وشكله، لا يُعدّ شعرًا جيدًا أو كلامًا بليغًا إذا خلا من حسن المعنى. لا يمكن أن نصف وجه رجل أعور، أفطس جميلًا لمجرد أنّ عينه الأخرى مليحة، بل نقول: إنّ إحدى عينيه حسنة. كذلك، لا يمكن اعتبار الشعر الذي يخلو من حسن المعنى شعرًا جيدًا، بل نقول: إنّ وزنه جيد.

إنّ أصحاب العقول الراجحة ينجذبون إلى الكلام الذي يحمل حسن المعنى وجودة المضمون. أما كلام الجهلاء والحمقى فهو سطحي وخالٍ من القيمة. والأهم من ذلك، أنّ جوهر الكلام يكمن في معناه، بينما الألفاظ هي مجرد قشرة خارجية. فإذا اجتمع جمال المعنى مع جمال اللفظ، فذلك أفضل، وإن لم يجتمع، فلا ضرر. أما تزيين الكلام باللفظ مع قبح المعنى، فمثل ذلك كمثل قبر مزيّن من الخارج، لا يخدع به إلا من فقد عقله. كان العرب كذلك، "لم يحمدوا الكلام إلا لحسن معناه". وقد ذمُّوا بشدة الخبث في المعاني. قال زهير بن أبي سلمى،:

وذي نعمة تمّمتها وشكرتها، وخصم يكاد يغلب الحق باطله

[1] نقد الشعر لقدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، طبع مكتبة الخانجي، 1963م، ص: 21. نقلًا عن جمهرة البلاغة طبعة دبي، 2017م، ص: 72

[2] المرجع السابق، ص: 23

دفعت بمعروف من القول صائب إذا ما أضلّ الناطقين مفاصله
وذي خطل في القول يحسب أنه مصيب، فما يلمم به فهو قائل
عبأت له حلمًا وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو بادٍ مقاتله[1]

وقد ذمّ العرب في كلامهم الفحش والخنا، والهجر بشكل واضح لم يكن هناك شعر يحمل هذه العيوب يستحق القبول. لهذا السبب، أمر حجر بقتل ابنه امرئ القيس، الذي كان شاعرًا فاحشًا. عندما بدأ النابغة الذبياني في مدح الملوك، سقط في نظر العرب. كان العرب "تحب المدح والذم، لكن في سياقهما ومكانهما. لذلك، كانوا يكرهون مدح المتذلل.

قالت الخرنق ترثي بشرًا ومَنْ قتل معه في يوم قلاب:

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزر
إن يشربوا يهبوا وإن يذروا يتواعظوا عن منطق الهجر
قوم إذا ركبوا سمعت لهم لغطًا من التأييه والزجر
من غير ما فحش يكون بهم في منتج المهرات والمهر[2]

قال الجاحظ: "ومن أعاره الله من معرفته نصيبًا، وأفرغ عليه من محبته ذنوبًا، حنَّت إليه المعاني وسلس له نظام اللفظ، وكان قد أغنى المستمع من كدّ التكلف وأراح قارئ الكتّاب من علاج التفهم".[3]

[1] شرح ديوان زهير بن أبي سلمى صنعة الإمام ثعلب أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني، طبع دار الكتب المصرية، 1944م، ص: 138-139، نقلًا عن جمهرة البلاغة، طبعة دبي، ص: 74

[2] ديوان الخرنق، برواية أبي العلاء، شرحه وحققه: يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط:1، 1990م، ص: 42-43

[3] البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، 8/2 نقلًا عن جمهرة البلاغة طبعة دبي، 2017م

خلاصة الأمر أنّ البلاغة تعتمد بشكل كامل على نور العلم وطهارة القلب. فبدون هذه الصفات، لا يمكن أن نعتبر الكلام كلامًا بليغًا، ولا يمكن أن تصدر عن اللسان كلمات صحيحة ومتزنة ومعقولة. وأعلى مراتب الكلام القرآن والزبور. فكما وصفه القرآن والإنجيل وعرفته العرب، أنّ المزامير تحيي القلوب، ويرفع الأمم من حضيض الأرض إلى سمو السماء.. قال شاعر عربي عبيد بن الأبرص:

القائل القول الذي مثله يمرع منه البلد الماحل[1]

لذلك، اعتبر العرب أنّ الحقيقة هي أفضل تعريف للكلام. قال طرفة:

وإنّ أحسنَ بيتٍ أنت قائلُه بيتٌ يقال إذا أنشدته صدقا[2]

في هذين البيتين، استحسنت الجوانب التي تجمع بين الأخلاق والعقل. أي أنّ الشعر الذي يحمل في طياته قيمًا أخلاقية نبيلة، إلى جانب أفكار عقلانية متزنة، هو الشعر الذي يستحق الإعجاب والتقدير .

لقد وصف القرآن كلامه بأنه بليغ بنفس المعنى، حيث يدخل في قلوب الناس: "وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا". (سورة النساء: 63).

ومن الواضح أنّ أفضل الكلام هو الذي يكون أكثر جاذبية ويجذب العقل: "فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ". (سورة الأنعام: 149).

خلاصة كل ما سبق هو أنّ:

1. جمال الكلام ليس مجرد كونه محاكاة، بل هو إبلاغ المعاني.

[1] ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح: د. حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده،ط:1، 1957م، ص: 100، نقلًا عن جمهرة البلاغة طبعة دبي،2017م ص: 78

[2] ديوانه، ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002م، ص 63

2. هدف جمال الكلام ليس الإطراب، بل كونه سفيرًا صادقًا للعقل.
3. التلذذ بالكلام ليس كون المحاكاة عنصرًا من طبيعة الإنسان، بل لأنّ الإنسان لديه رغبة فطرية في استخدام أرفع قواه.
4. تميز الإنسان ليس في المحاكاة، بل في النطق.
5. يجب أن يكون صاحب الكلام صادقًا ومطلعًا، فالكذب يحطّه عن منزلته.
6. سوء المعنى وخبثه يخرجه عن تعريف الكلام البليغ.

الغرض من الكذب والمبالغة في الشعر ليس إلا لغرض صحة التمثيل. فمن الصعب إعطاء شكل محدّد لحدث مبهم وغير واضح، لذا يلجأ الشاعر إلى إضافة لمسته الخيالية لتصويره. والهدف من ذلك هو رسم صورة للحدث فحسب. وهذا ما يهدف إليه الشعراء في الأمثال والحكايات وقصص الحيوانات.

أما المبالغة في التشبيه وغيره، فتتعلق بأحاسيس الشاعر نفسه. فقد يرى حدثًا تافهًا عظيمًا، أو حدثًا عظيمًا حقيرًا، وذلك بسبب شدة انفعاله. تمامًا كالمريض الذي يرى المدة القصيرة طويلة، والصحيح يرى المدة الطويلة قصيرة. وكثيرًا ما يتحدث الشعراء عن طول ليل الكرب، وهم بذلك يعبرون عن إحساسهم. ولم يكونوا كاذبين.

فإذا لم تتجاوز المبالغة هذا الحد، فهي عين الصدق. ومن لم يفهم هذا الفرق الدقيق، لن يفرق بين الإحساس والافتراء، وسيعتبر الكذب جزءًا من الشعر، مع أنّ الشعر يقوم على الصدق والصفاء.

ISSN: 2321-7928

# جهود الإمام عبد الحميد الفراهي في اللغة العربية

- فاطمة سعد النعيمي[1]

**الملخص**

يتناول هذا البحث جهود الإمام عبد الحميد الفراهي الهندي في اللغة العربية وبخاصة كتابه "جمهرة البلاغة" فهو علّامة العربية والتفسير، أحد مخضرمي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين. حيث ولد رحمه الله سنة 1280هـ في قرية فريها- من قرى مديرية أعظم كره بالهند- وكان ابن خال علّامة الشرق ومؤرخ الإسلام، الشيخ شبلي النعماني تغمّده الله برحمته .. وتوفي سنة 1349هـ الموافق 1930م.

دعا الفراهي إلى تأسيس فن البلاغة على أسس منبثقة من القرآن الكريم وكلام العرب الأقحاح، فألّف كتابه "جمهرة البلاغة" الذي نقض فيه الأساس الذي يقوم عليه فن البلاغة عند أرسطاطاليس، وهو نظرية المحاكاة. ويرى الفراهي أنّ فن البلاغة العربية تأثر بهذه النظرية فحار عن قصد السبيل.

أهمية البحث: ولعلي في هذا البحث أبيّن منهج الإمام الفراهي في "جمهرة البلاغة"، ثم تأثير بلاغة العجم على بلاغة العرب ومفهوم بلاغة العرب عند الإمام الفراهي، وأرسطو ونظرية المحاكاة، ثم يعرج بنا البحث إلى بيان أثر الشعر والنثر البليغ عند الإمام الفراهي.

أهداف البحث: يهدف البحث إلى الاستعراض السريع للجهود المبذولة في خدمة اللغة العربية في بلاد شبه القارة الهندية عبر القرون حتى عصر الإمام الفراهي. التعريف الوجيز ببعض العلماء الهنود الذين لهم إسهام كبير في خدمة اللغة العربية.

[1] جامعة قطر، قطر

التعريف الجامع بالإمام الفراهي، وإبراز إسهاماته العلمية في مجال اللغة العربية والدراسات القرآنية سواء أكانت بالعربية أم بالأوردية.

منهج البحث: يعتمد البحث على ثلاثة مناهج: الاستقرائي، والتحليلي، والاستنتاجي؛ وهذا بدوره أبان لنا جهود الإمام عبد الحميد الفراهي في اللغة العربية وخاصة كتابه "جمهرة البلاغة".

وقد توصلت في نهاية البحث أنّ الفراهي بدراسته العميقة للغة العربية وآدابها وعلومها قد صار عنده حسّ لغوي عجيب وذوق عربي رفيع كالعرب الخلّص، ولكن مع كل هذه المزايا التي تجسّدت في شخصيته كانت مزية أخرى قد غلبت تلك المزايا كلها وهي حبّ القرآن الكريم الذي كان فوق كلّ شيء ولن يشعر بعظمة هذا القرآن إلا من كان عربيًا خالصًا.

**الكلمات المفتاحية**: جهود، الإمام عبد الحميد الفراهي، في اللغة العربية.

## المقدمة

إنّ للغة العربية منزلة عظيمة ومكانة عالية بين اللغات الأخرى، ونظرًا لذلك فقد قام العلماء والباحثون بدراسة البلاغة العربية في كلّ عصر من عصور التاريخ الإسلامي، فبدءًا بسيبويه وأبي عبيدة والفراء، ومرورًا بثعلب وابن المعتز وقدامة وأبي هلال وابن رشيق والجرجاني، نجد عددًا هائلًا من علماء الإسلام وأدبائه الذين كتبوا في البلاغة العربية وألّفوا عددًا لا يحصى من الكتب والرسائل في هذا الفن فـ"نقد الشعر" و"الصناعتين" و"العمدة" و"دلائل الإعجاز" و"المثل السائر" و"مفتاح العلوم" و"التلخيص" و"الإيضاح" كتب مشهورة في فن البلاغة العربية. ولقد بدؤوا ببلاغة الألفاظ ونظم الكلمات والجمل وركّزوا على الأساليب وقسموها في علم المعاني والبيان والبديع وحاولوا وضعها في قوالب الأسلوبية والفلسفة. وكل هذه المحاولات كانت خارج الهند والسند.

ولم يتخلف الهند في هذا المجال فبرزتْ فيه محاولات عديدة لفهم البلاغة العربية مثل "بحر المعاني" و"بدائع البيان" و"عين المعاني" و"فتح المعاني" و"شرح ميزان البلاغة"، وأما بلاغة القرآن الكريم فقد حظيت بعنايتهم، فنجد من الكتب "إعزاز قرآن" و"وجوه إعجاز القرآن" و"جمهرة البلاغة" و"البلاغة القرآنية" وهذه علاوة على الشروح والحواشي والتلخيصات التي لا عدّ لها ولا حصر.

وكتاب "جمهرة البلاغة" من مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي (ت 1932م) الذي انقطع إلى تدبّر القرآن وسبر غوره والتفكير في معاني آياته ونظم سوره وحاول التجديد في كل فن وتدوينه من جديد في ضوء القرآن الكريم فألّف الكتب والرسائل في التفسير والحديث والفقه والنحو والفلسفة ومبادئ الدين حتى نجد في مؤلفاته محاولات المقارنة بين أديان العالم وذلك لأنه كان متضلعًا من العربية والفارسية والإنجليزية والسريانية والسنسكريتية وغيرها من شتى لغات العالم. وكان باحثًا ومفكرًا وشاعرًا فانطلق يكتب أكثر من سبعين رسالة في آنٍ واحدٍ وترك إشارات وذكريات عنها إلا أنه لم يوفّق إتمامها سوى العدد القليل منها، وهي تفسير بعض سور القرآن و"إمعان في أقسام القرآن" و"الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" و"أسباق النحو" و"زمزمه دري" وغيرها من مؤلفاته ورسائله.

**أهمية البحث تتضح في نقاط كثيرة من أهمها:**

1. تسليط الضوء على دور علماء الهند في خدمة القرآن الكريم عبر القرون حتى عصر الفراهي، والذي ما زال مختفيًا عن الكثير من الباحثين في هذا المجال.
2. التعريف بسيرة الإمام الفراهي العلمية.
3. إبراز جهود الإمام الفراهي في خدمة القرآن وعلومه.
4. تمييز جهود الإمام الفراهي في اللغة العربية.

**من أهداف هذا البحث:**

1. الاستعراض السريع للجهود المبذولة في اللغة العربية في بلاد شبه القارة الهندية.
2. التعريف الجامع بالإمام الفراهي، وإبراز مساهماته العلمية في مجال اللغوية.

**إشكالية البحث:**

محاولته لدراسة وقراءة العلوم: قام الإمام الفراهي بتأليف رسالة صغيرة للغاية باسم "جمهرة البلاغة" صدرت في حياته وهي بحاجة إلى إعادة النظر فيها وإضافة أخرى فيها، للوصول إلى غاية البلاغة وأهدافها وتأثيرها في المخاطبين.

**منهج البحث: اقتضت طبيعة البحث استخدام المناهج الآتية:**

1. أولًا: المنهج الاستقرائي، وذلك من خلال تتبع ما في كتاب "جمهرة البلاغة" نصًا وروحًا.
2. ثانيًا: المنهج التحليلي، وذلك من خلال تحليل ما في كتاب "جمهرة البلاغة" وتقسيمها حسب مضمونها.
3. ثالثًا: المنهج الاستنباطي، وذلك من خلال استخراج ما في كتاب "جمهرة البلاغة" من بلاغة ومعاني ودلالات وتوجيهات.

**هيكل البحث:**

المقدمة تتضمن أهمية الموضوع، وأسئلته، وخطته، ومنهج البحث.

المبحث الأول: التعريف بالإمام الفراهي وكتابه "جمهرة البلاغة".

المبحث الثاني منهج الإمام الفراهي في "جمهرة البلاغة".

المبحث الثالث: تأثير بلاغة العجم على بلاغة العرب، ومفهوم بلاغة العرب عند الإمام الفراهي.

المبحث الرابع: أرسطو ونظرية المحاكاة والشعر والنثر البليغ عند الإمام الفراهي.

الخاتمة أهم النتائج والتوصيات.

## المبحث الأول: التعريف بالإمام الفراهي وكتابه "جمهرة البلاغة"

يعرض هذا المبحث ترجمة للإمام الفراهي وكذلك البلاغة عنده من خلال كتابه "جمهرة البلاغة"، فهو كتاب فريد من نوعه لم يصل إلى البلاد العربية حتى يكون صورة من صور الدرس البلاغي، وأهم ما تجلى في الكتاب تقسيم جديد لم تألفه البلاغة العربية في تاريخها الطويل وربط البلاغة بالنقد واتخاذها مقياسًا في الأحكام النقدية ووضوح النزعة الأدبية والأسلوب في العرض والتحليل وإبداء الآراء الخاصة في القضايا المختلفة ومن ذلك: نقض نظرية المحاكاة لأرسطو، ونقد عبد القاهر الجرجاني.....

### المطلب الأول: ترجمة الإمام الفراهي

عبد الحميد الفراهي الهندي (1280-1349هـ)، علّامة العربية والتفسير، أحد مخضرمي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين. حيث ولد رحمه الله سنة 1280هـ في قرية فريها- من قرى مديرية أعظم كره بالهند- وكان ابن خال علّامة الشرق ومؤرخ الإسلام، الشيخ شبلي النعماني تغمّده الله برحمته .. وتوفي سنة 1349هـ الموافق 1930م.

ظلّ هذا العلم العظيم مجهولًا إلى حد كبير في الأوساط العلمية والثقافية في العالمين العربي والإسلامي، على الرغم من كتبه ومؤلفاته التي تدلّ على عبقرية فذة، وعقلية مبدعة، والتي لا بد أن يكون لها أثر بارز في حاضر ومستقبل العلوم العربية والإسلامية.

اشتغل الفراهي منذ يفاعته بطلب العلم، فحفظ القرآن، وقرأ- كداب أبناء العائلات الشريفة في الهند- اللغة الفارسية وبرع فيها، ثم انصرف إلى طلب العربية، فاستظل بعطف أخيه الشيخ شبلي النعماني- وكان أكبر منه بست سنين- فأخذ منه العلوم العربية كلها من صرفها ونحوها، ولغتها وأدبها، ومنطقها وفلسفتها.

ثم سافر إلى لكنو- مدينة العلم في الهند- وجلس في حلقة الفقيه المحدّث الإمام عبد الحيّ اللكنوي ثم انتقل إلى لاهور ليستفيد من العلّامة الشيخ فيض الحسن السهارنفوري- شارح الحماسة وأستاذ اللغة العربية في كلية العلوم الشرقية بلاهور- فبرع في الآداب العربية، وفاق أقرانه في الشعر والإنشاء. قرأ دواوين الجاهلية كلها، وحلّ عقد معضلاتها، وقنص شواردها فكان يقرض القصائد على منوال الجاهليين، ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصائحهم. ثم عرج على اللغة الإنجليزية- وهو ابن عشرين سنة- ودخل في كلية عليكره الإسلامية، ونال بعد سنين شهادة BA من جامعة الله آباد، وامتاز في الفلسفة الحديثة، أخذها من الأستاذ بكلية عليكره الإسلامية يومئذ - ... كان الفراهي عالمًا بالعلوم العربية والدينية، وفاضلًا في العلوم العصرية والإنجليزية، ثم عيّن معلمًا للعلوم العربية، بمدرسة الإسلام بكراتشي عاصمة السند، فدرّس فيها سنين، وكتب وألّف وقرض وأنشد.

ثم انقطع إلى تدبر القرآن ودرسه، والنظر فيه من كل جهة. وجمع علومه من كل مكان، فقضى فيه أكثر عمره، ومات وهو مكبّ على أخذ ما فات العلماء، ولفّ ما نشروه، ولمّ ما شتّتوه، وتحقيق ما لم يحقّقوه، فكان لسانه ينبع علمًا بالقرآن وصدره يتدفق بحثًا عن مشكلاته، وقلمه يجري كشفًا عن معضلاته.

أما المناصب التي شغلها فقد عيّن أستاذًا للغة العربية بكلية عليكره الإسلامية، وكان بها يومئذ أستاذ اللغة العربية المستشرق الألماني الشهير يوسف هارويز، الذي استكمل العربية من الفراهي. وقرأ عليه الفراهي العبريةَ.

ثم عيّن أستاذًا بجامعة الله أباد، وبقي فيها أعوامًا حتى انتقل منها إلى حيدر آباد الدكن، رئيسًا لمدرسة دار العلوم النظامية التي كانت تخرج قضاة البلاد وولاتها. وهو الذي عمل على تأسيس الجامعة العثمانية، والتي كانت من أحدث جامعات العالم سنًا، وأعجبها نظامًا.

ثم استقال ولزم بيته، وانقطع إلى العلم، وكان قد أسّس قرب قريته مدرسة عربية دينية، سمّيت "مدرسة الإصلاح" فكان ينظر في شؤونها، وكان من أعظم مقاصدها وأهدافها تحسين طريق تعليم العربية، وإيجاز قائمة دروسها المتعبة العقيمة وإلغاء العلوم البالية القديمة، والعكوف على طلب علوم القرآن والبحث عن معانيه ونظمه، وأحكامه وحكمه. كما كان رئيسًا للجنة المديرين لدار المصنفين التي كان أحد مؤسّسيها.

وأما كتبه ومؤلفاته فكثيرة متعددة، ومعظمها باللغة العربية التي شغف بها المؤلف، وآثرها على لغته الأصلية، وحينما سئل عن سبب كتابته بالعربية مع حاجة قومه إلى الكتابة بالأردية قال: "أردت لكتبي الخلود" (فرحات).

**المطلب الثاني: تعريف "جمهرة البلاغة" للإمام الفراهي**

تحدّث الإمام الفراهي في "جمهرة البلاغة" عن آرائه ونظرياته البلاغية، ووضع أصول جديدة في ضوء القرآن وأساليب البلغاء وفصاحتهم لفهم بلاغة القرآن.

والفراهي مع تقديره واحترامه للجهود التي بذلها البلاغيون لوضع أصول البلاغة العربية، يرى أنّ هذه الأصول معظمها مأخوذة من كلام اليونان الذي دخل العربية بواسطة التراجم ولذلك لا يمكن فهم محاسن أسلوب القرآن ومزايا كلام العرب البلاغية بهذه الأصول، لأنّ كل شعب له أسلوب خاص في التعبير، والعرب كانوا أرقى الأمم في أساليب كلامهم. ولذلك كان على البلاغيين أن يأخذوا أصولًا للبلاغة لشعر العرب وخطبهم لا من كلام اليونان، فيقول الإمام الفراهي بهذا الصدد: "كما أنّ علماء الإسلام أقبلوا على هذا الفن لأجل كشف إعجاز القرآن فلو أنهم استقصوا كلام العرب واقتفوا آثار المحاسن فيه وقيّدوها بالحدود ونظموها بترتيب حتى يصير له ميزان ومحك لمعرفة محاسن الكلام. ثم نظروا في براعة القرآن ونظمه المعجز لكانوا أقرب إلى معرفته- أي إعجاز القرآن ولكنهم لم يأخذوا من العرب ولا من كلامهم فإنهم أثرت فيهم علوم العجم كما خالطتهم سجاياهم إلا الأولين منهم كالجاحظ فإنه لا يبعد عن سنن

العرب كبعد صاحب "دلائل الإعجاز" ولم يبعد هذا إلّا لقلة ممارسته بكلام العرب الخلّص. فلو تيسّر له ذلك عرف منزلتهم في هذه الصناعة (الفراهي، صفحة (9).

ويثبت الإمام الفراهي بعد ذلك أنّ من أخذوا أصول البلاغة من اليونان أنهم قد تجاهلوا أنّ العرب كما كانوا على ذروة من البلاغة. فكذلك يملكون ملكة التمييز بين محاسن الكلام ومساوئه فيقول: "إنهم كانوا يباهون ببراعة الكلام، ويحكمون بينهم من كان أبصرهم بنقده، والأخبار في ذلك كثيرة حتى بلغ أمر البلاغة فيهم منزلة نظام المعاشرة. فكان خطيبهم يأخذ بزمام القوم ويقودهم إلى حيث شاء ويقوم شاعرهم فيرفع قومه من الأرض إلى السماء فأجدر بقوم هذا شأنهم أن يجري فوقهم في هذه الصناعة على سنة فيهم" (الفراهي، صفحة (9).

ثم يقول: "لو التزم البلاغيون كلام العرب ولم يلتفتوا إلى أصول مهّدها المبعدون، لكان خيرًا لهم، وكانوا أقرب إلى معرفة إعجاز القرآن من طريق الذوق، وإن لم يكونوا من طريق الصناعة". (الفراهي، صفحة (9).

ويستطرد الإمام الفراهي فيوجب على العلماء البلاغيين أن يضعوا صورة فنية دقيقة ثم يحكموا على الشيء بالحسن والقبيح. وذلك لا يتأتى عنده إلا أن يقرؤوا جميع آداب الأقوام ويقارنوا بينها. والشيء المهم بهذا الصدد هو أن لا يأخذوا الأصول من لغة ويفرضوها على لغة أخرى، بل لكل لغة ميزة خاصة لا بد من النظر فيها ومعرفتها.

ثم يخوض الإمام الفراهي في أخطر مشكلة أدبية وهي مشكلة الصدق والكذب في الشعر. فكثير من النقاد قد تكلموا عن الفن كأنه وسيلة لجلب اللذة الجسمانية وإثارة الغرائز البهيمية. ولذلك نراهم يتهمون للصياغة والأسلوب ولا يعطون أيّ حظ من عنايتهم للمعاني وهذا المسلك خطير للإنسانية، لأنّ الفن ليس مجرد وسيلة للذة ولا إشباع جوع النفس، بل هو وسيلة لنشر القيم الأخلاقية والتعاليم النبيلة بأسلوب ممتع جذّاب. فالإمام الفراهي حينما يتكلم عن البلاغة أو الأدب فهو يتكلم كأديب مؤمن وناقد مسلم

تقيّ يجعل نصب عينه القيم الأخلاقية والمعاني السامية التي هدف إليها القرآن الكريم.

يقول مبيناً قصدَه: "إنّ الكلام لا يبلغ قلب العاقل إلا أن يكون معناه شريفًا، ولا اعتبار لتأثر الحمقى والأشرار. فإننا إنما نعطي الأشياء أسماء لحاظًا إلى سلامة الحال، وإلا لزمك أن تسمّي الكلام حسنًا وقبيحًا معًا، أو لا تسمّيه شيئًا. وهذا أمر يتضح لك كل الاتضاح إذا بحثنا عن أسباب بلوغ المعاني القلوب، فترى أنّ الألفاظ ربما تصرف عن قواعدها الصحيحة العامة لأجل المعنى الذي يبلغ نفسه بقوة فيه ويجد الألفاظ حجابًا وثقلًا عليه، كما أنّ ملكًا جعل نفسه سفيرًا. فالبليغ هو المعنى واللفظ مركبه، فالمعنى أجدر باللحاظ في حسن الكلام" (الفراهي، صفحة (15). وهنا يؤيد الإمام الفراهي قوله بكلام شاعر أصيل عربي وهو زهير بن أبي سلمى الذي يقول:

وذي نعمة تمّمتها وشكرتها وخصم، يكاد يغلب الحق باطله

دفعت بمعروف من القول صائب إذا ما أضل، القائلين، مفاصله

وذي خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يلمم به فهو قائله

( أبي سلمى، صفحة (54)

ثم يقول: "إنّ حسن الكلام ليس في محض كونه محاكاة بل في إبلاغ المعاني من المتكلم، وإنّ غايته ليست إطراب السامع بل كونه سفيرًا صادقًا للعقل، وإنّ التلذذ بها ليس لكون المحاكاة داخلة في عنصر الإنسان، بل لأنّ فيه استعمالًا رفع قواه، وأن ليست المحاكاة بل النطق من خصائص الإنسان، وأنّ الصدق يلزم المخبر فإن خالطه الكذب أحبطه عن درجته، وأنّ سوء المعنى يمحو عنه اسم البلاغة (الفراهي، صفحة (17).

والإمام الفراهي ليس وحيدًا في هذا المضمار بل اشتهر شعراء العرب وأدباؤهم معه. والحقيقة أنّ الشاعر يصوّر ويحكي ما يجد في قلبه ويحسّ، ولا يحكي مما يحسّه الناس فهو في تصويره وحكاياته صادق ولا كاذب كما زعم الناقد. وهذا باب عالٍ لم يبلغ

كنهه إلا القليل. فلما رأى الناقد أنّ الشاعر يقول خلاف ما يجده الناس، فمثلًا يصوّر الليل بأنه طويل رغم أنه قصير لأنه يشعر بالألم وفي حالة الألم يشعر الإنسان بأنه عجلة الزمان واقفة، وهكذا جميع الأمور فزعموا أنه كاذب، وهذا خطأ شنيع فاحش ومن ثم لا بد لنا أن نعرف بأنّ في مثل هذه الحالات يريد الشاعر أن يثير في الناس الإحساس الذي في قلبه لا يبعدهم عن حقيقة الأشياء، لأنّ الشاعر يعرف حق المعرفة بأنّ الناس لا يحسنون إحساسه ولا يشعرون شعوره، ولكنه لا يصرح بهذا بل يأخذ بأسلوب الكناية والتشبيه والاستعارة والمجاز، وما إلى ذلك من أنواع البلاغة، لكي يصحبه الناس في الشعور والإحساس، ونثور في قلوبهم العواطف التي في قلبه، فلا يصح لنا أن نقول "إنّ أحسن الشعر أكذبه"، لأننا نرى الشاعر يقول خلاف الموجود العام، بل ترى بعين الشاعر حتى نستطيع أن نفرق بين الإحساس والكذب. وفي "جمهرة البلاغة" فوائد جمّة وآراء ومواقف وإبداعات للإمام الفراهي.

## المبحث الثاني: منهج الإمام الفراهي في "جمهرة البلاغة"

السبب في تأليفه "جمهرة البلاغة" أنه أراد بتأليفه الكشف عن بلاغة الوحي الرباني لاسيما القرآن الكريم كما يقول في خطبة الكتاب: فوجب علينا أن نعرف أسرار البيان وفضائله كما وجب علينا أن نعرف إعجاز القرآن ودلائله لنستكمل من فطرتنا عنصرها ونستسقي من عيون الوحي كوثرها (الفراهي).

### المطلب الأول: منهج الإمام الفراهي في "جمهرة البلاغة"

أما منهج الإمام الفراهي في "جمهرة البلاغة" فهو منهج نقد، فقد انتقد فيه البلاغيين، ومن ذلك النقد يعطينا فهمًا جديدًا لعلم البلاغة، يقول عن علم البيان بأنه "كالظل والأثر للنطق الذي هو مقوّم للإنسان، كما أنّ النطق ظلّ من الوحي الأعلى وكلمة الله العليا. فالبحث عن أوليات علم البيان يجلبنا إلى الحكمة الإلهية (الفراهي، صفحة (6). وقال إنه بهذا التفريق بين تعاطينا العلوم لا سيما هذا العلم وبين تعرض الأمم الأخرى

له، فإنهم نظروا إليه من نظر دنيّ دنياوي فنالتهم غوائلها، وأبعدهم عن الحق باطلها، فتراكمت عليهم فتراكمت عليهم ظلمات بعضها فوق بعض (الفراهي، صفحة (6).

ويعلّل الفراهي الاختلاف في تعيين الكلام الحسن والقبيح، فقال: "على الرغم من أنّ الناس اتفقوا على "أنّ في الكلام حسنًا وقبيحًا، وعاليًا وسافلًا" ولكنهم اختلفوا على تعيين موضع الحسن وتفضيل بعض الكلام على بعض، حتى أنّ أبصر الناس بالنقد يخالف من هو ليس دونه، وهكذا العادة في كل لذيذ مرغوب لأنّ أكثر الأشياء المستحسنة غير بسيطة وأسباب الحسن فيه غير واحد". (القراهي، صفحة (6).

**المطلب الثاني: رأي العلماء والباحثين عن "جمهرة البلاغة"**

أولًا: العلّامة شبلي النعماني ..... هذه هي مباحث الكتّاب والكاتب يعرف جيدًا ما كتب عن بلاغة القرآن ولكنه يظن أنّ كلها غير تامة في الموضوع وما قام به القدامى من ترتيب من البلاغة ناقص كذلك، ولذا فقد اعتنى الكاتب بهذا الفن ورتّبه في نطاق واسع ووضع أصولًا عديدة لم يكن بها عهد لفن البلاغة وهكذا فألّف كتابًا مستقلًا سمّاه "جمهرة البلاغة". (النعماني (1905)

ثانيًا: الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ..... قام الأستاذ الفراهي بتأليف كتاب جديد في فن البلاغة فغيّر ترتيب هذا الفن وجاء بالعديد من الأصول الجديدة التي يمكن أن تثبت مستوًى صادقًا لتقدير بلاغة القرآن" (الإصلاحي (1937). ويقول في موضع آخر: جمهرة البلاغة كتاب فاقد النظير للفراهي: في فن بلاغة القرآن" (الإصلاحي، (1938).

ثالثًا: العلامة أبو الحسن الندوي: "لما فرض إلي مهمة تدريس القرآن الكريم في دار العلوم بندوة العلماء قرأت مؤلفات الشيخ عبد الحميد الفراهي بإمعان وجدية وجهد بالغ واستفدت منها قدر المستطاع، ولما وجّهت إليّ الدعوة من قبل جامعة دمشق في 1956م حملت معي كتب الشيخ الفراهي لاسيما "جمهرة البلاغة" الذي تأثرت به كثيرًا كطالب الأدب العربي وتاريخه، وكباحث لهما ومفكر فيهما" (الندوي).

ويقول في مكان من خطابه هذا: "من أعماله الجليلة جمهرة البلاغة" لو قام أحد بتحقيقه وتقديمه بأسلوب علمي جديد لثبت تفرد الشيخ الفراهي في هذا المجال فلقد قام الشيخ بإعداده لذوقه السليم للأدب العربي والقرآن الكريم" (الندوي، علامه حميد الدين فراهي حيات وأفكار).

رابعًا: الدكتور شرف الدين الإصلاحي: "لو أتم العلامة الفراهي هذا الكتاب على المستوى الذي بدأ به لكان كتابه هذا من كتب العالم العظيمة لسبب أفكاره ونظرياته البديعة ويستطرد قائلًا: "إنّ هذا الكتاب يحتوي على مجموعة كبيرة للمسائل الدقيقة والنكت اللطيفة" (الإصلاحي ش.)

خامسًا: البروفيسور محمد راشد الندوي: "كان العلامة الفراهي ولعًا كلفًا بالقرآن الكريم، ألّف عديدًا من الرسائل في علوم القرآن يضمنها إعجاز القرآن الحكيم. كتابه "جمهرة البلاغة" مثال رائع لجهده في هذا الفن. ولقد مارس العلامة الفراهي كلام العرب الجاهلي كما أمعن النظر فيما ألّف من كتب النقد والبلاغة حتى عصره. كان العلّامة يشعر تمامًا بفصاحة القرآن وبلاغته لتضلعه من اللغة العربية، ولقد درس جيدًا كلام العرب الجاهلي والقرآن الكريم ومؤلفات علماء النقد والبلاغة" (الإصلاحي ش. صفحة (538)

ويمضي قائلًا: "ما ذكره العلّامة من أصول النقد والبلاغة في كتابه الموجز هذا هي عصارة نظرياته الأدبية والنقدية، أسلوبه موجز للغاية بل لو كان هناك كلمة أخرى لما هو أوجز من الإيجاز للتعبير عن إيجاز كتاباته لاستخدمناها فربما يكتفي العلّامة بالإشارة إلى قضية مهمة للغاية والحال أنها تقتضي التوضيح. لعله ظن حين تأليف كتبه أنّ قارئها أحدّ عقلًا كمثله" (الإصلاحي ش.، صفحة (542).

ويقول كذلك وفي رأيي المتواضع أنّ هذا الكتاب فريد من نوعه في الموضوع باللغة العربية وهو ليس مفخرة للعلّامة الفراهي فحسب بل لعلماء شبه القارة أجمعين" (الإصلاحي ش.، صفحة (546)

سادسًا: الدكتور أحمد مطلوب بعد دراسة هذا الكتاب في أكثر من عشرين صفحة: "هذه جولة في كتاب فريد من نوعه الله مسلّم في الشرق الإسلامي، ولم يصل إلى البلاد العربية ليكون صورة من صور الدرس البلاغي في القرن العشرين للميلاد" (مطلوب)، بلا تاريخ.

سابعًا: الدكتور صالح سعيد الزهراني في مقالته الطويلة عن هذا الكتاب: كتاب جمهرة البلاغة يمثّل رافدًا من روافد التفكير البلاغي الحديث ويقول في نهاية دراسته لهذا الكتاب: كتاب جمهرة البلاغة يمثّل إضافة نوعية للتفكير البلاغي في العصر الحديث لكونه رؤية خاصة للبلاغة العربية في الإبداع وسياسة القول، وقراءة واعية لأصول البلاغة العربية كما تجلّت في البيان المعجز وكلام سيّد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، وأدب العرب الخلّص، ورؤية ناقدة لتحولات البلاغة العربية إبداعًا وسياسة للنصّ عقب مثاقفتها مع الفلسفة اليونانية، وبخاصة فلسفة أرسطو، التي كان لها أكبر الأثر في رؤي البلاغيين والشعراء المجددين في العصر العباسي" (الزهراني، بلا تاريخ).

ثامنًا: الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي: جمهرة البلاغة الذي نقض فيه الأساس الذي يقوم عليه فن البلاغة عند أرساطاليس، وهو نظرية المحاكاة، ويرى الفراهي أنّ فن البلاغة العربية تأثر بهذه النظرية فجار عن قصد السبيل، وانتقد في ذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني مع اعترافه بجلالته، ودعا إلى تأسيس فن البلاغة على أسس منبثقة من القرآن الكريم وكلام العرب الأقحاح". (الفراهي الهندي، (2002).

## المبحث الثالث: تأثير بلاغة العجم على بلاغة العرب، ومفهوم بلاغة العرب عند الإمام الفراهي

الفراهي يمدح العرب وقواهم وسجاياهم ولقد وجدنا الفراهي يمدح العرب كثيرًا في معظم مؤلفاته لاسيما في "جمهرة البلاغة" الوجيز فهو يشير إلى براعتهم وحذاقتهم في تسمية الشيء.

### المطلب الأول: تأثير بلاغة العجم على بلاغة العرب

المراد بالعجم عند الفراهي هم قوم استقصوا كلام العرب واقتفوا آثار المحاسن فيه، وقيّدوها بالحدود، ونظموها في ترتيب حتى لهم ميزان ومحك المعرفة محاسن الكلام، ثم نظروا في براعة القرآن ونظمه المعجز، والذين كانوا أقرب إلى معرفة إعجاز القرآن ولكنهم لم يأخذوا من العرب ولا من كلامهم فإنهم أثرت فيهم علوم العجم كما خالطتهم سجاياهم، إلا الأولين منهم كالجاحظ فإنه لا يبعد عن سنن العرب كبعد صاحب "دلائل الإعجاز"، ولم يبعد هذا إلا لقلة ممارسة بكلام العرب الخلّص. فلو تيسّر له ذلك عرف منزلتهم في هذه الصناعة واعترف بفضلهم على المولدين، وقال بقول الجاحظ: "لم أجد في خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح ألفاظًا منحولة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديًا، ولا قولًا مستكرهًا، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة المتأدبين، وسواء كان ذلك على جهة الارتجال والاقتضاب، أو كان من نتاج التحيز والتفكر". (الجاحظ 1968، صفحة 217). فلما تركوا منهج كلام العرب صار أهم شيء عندهم البديع ومطمح نظرهم التشبيه، وعند الأول أولهما منكر، والثاني غير مهم لذاته" (الفراهي، صفحة (8). وهو نقد لمنهج اليوناني ثم الذين اتبعوا منهجهم.

### المطلب الثاني: مفهوم بلاغة العرب عند الإمام الفراهي

يفرق الإمام الفراهي بين بلاغة العرب والعجم فهو يقول عن بلاغة العرب بأنّ العرب قد وهبهم الله البلاغة، منحهم القدرة على هذا الفن" حتى بلغ أمر البلاغة فيهم منزلة نظام المعاشرة، فكان خطيبهم يأخذ بزمام القوم فيقودهم إلى حيث شاء ويقوم شاعرهم فيرفع قومه من الأرض إلى السماء، فأجدر بقوم هذا شأنهم أن يجري ذوقهم في هذه الصناعة على سنة وأصول معلومة، وإلا كيف يقضي فيهم حكمهم أم كيف يذعن لحكمه أرباب العقل فيهم". (الفراهي) ويقول عن ذكاء العرب: "إنهم كانوا أذكى الأمم وأسرعهم

إحساسًا، وأشدّهم عاطفة، وكانوا أولى بالشعر من النثر أهملوا فيه كل ما يناسب الشعر حتى القافية. ورب خطبة جاءت منهم نظمًا فليس للعجمي أن يفهم نثرهم من غير أن ينظر فيه كأنه نظم مع كل ما يختص بنظم العرب خلا الوزن. وليس له أن يمدحه أو يذمّه إلا بعد هذه المراعاة. ثم ليس نظمهم كنظم سائر الأمم، رب أمة نظمهم كنثر حقيقي كما أنّ نثر العرب كنظم حقيقي" (الفراهي). بلغ الفراهي مبلغه في تفضيل العرب على سواهم في الذكاء، وسرعة الإحساس وشدة العاطفة بهذا لا يريد أن يقول بتفضيل "عرق" على غيره، فالذكاء، والأحاسيس غرائز فطر عليها الإنسان، فهي تولد مع الإنسان أيًا كان جنسه، بل أراد أن ينتقد البلاغيين الذين اتبعوا أرسطوا في قواعد البلاغة. وهذا مما سمّاه الفراهي ببلاغة العجم.

## المبحث الرابع: أرسطو ونظرية المحاكاة والشعر والنثر البليغ عند الإمام الفراهي

وهذا جرّ الفراهي إلى نقد نظرية المحاكاة التي نادى بها أرسطو، وقال: "فلو قال: إنّ الشعر بل كلّ كلام ونغم جنسه الأعلى تصوير لكان أقرب، إذ ليس بين المحاكاة والتصوير إلا فرق يسير، ولكنه أبعده عن الصواب خطوه في غاية الشعر ومادته ومبدئه.

### المطلب الأول: أرسطو ونظرية المحاكاة عند الإمام الفراهي

وكان مثار خطئه كلام قومه واستعمالهم إياه ولو بحث عن أمر الشعر على طريق الفلسفة، ونظر فيه من جهة العلل التي ألحّ على البحث عنها فيما بعد الطبيعة وردّ فيه على الحكماء الأقدمين لم يخف عليه الصواب بعد الاقتراب ولم يلتبس عليه غاية الشعر" وذلك لأنّ أرسطو يزعم مرة أنها الأثر والإطراب، ويزعم تارة أخرى أنها القصة، ولعل سبب ذلك أنّ "كتابه على الشعر بداية ريعان حكمته ورأى أنّ الأولى الصفح عن باطله لولا أنّ العلماء المسلمين حينما ألّفوا في البلاغة أذعنوا له فيما مهّده. ولو نظر الرجل في كلام العرب لأصاب الحق، ولكنه نظر "في كلام قومه فبني فن نقد الشعر حسب ما وجد في أحسن كلامهم" الذي كان الشعر منه قصصًا وحكايات

مكذوبة مثل نظم هو مروس وسوفاكليس وغيرهما، فأمعن فيها لاستنباط أصول النقد ومناط المحاسن وهذا هو الطريق فإنّ المحاسن توجد أولًا، ثم أهل النظر يستخرجون منها الأصول" أي أنّ أصول البلاغة والنقد تستنبط من الكلام الذي يُدرس لا كلام لغة أخرى، وهذا ما جعل أرسطو يستنبط تلك الأصول لأنه رأى غالب صفة الكلام المستحسن عند اليونان قصة وحكاية عن الوقائع، ودفعه إلى ذلك أمران (الفراهي، صفحة (10)

الأول: أنّ الإنسان حاكية بالطبع أكثر من سائر الحيوان، فهذه الصفة أنسب بطبعه، وأحبّها إليه.

الثاني: أنّ العلم مرغوب بالطبع، وحكاية الشيء تخبر عن المحكي عنه، فلذلك هي محبوبة.

ولهذا تمسك أرسطو بالمحاكاة وتعصّب لها، وردّ كل امرئ رأى خلافه ولما كان جلّ أشعار اليونان للتلذذ والتلهي في محافل المسامرة ونادي اللهو بحكايات مضحكة أو مبكية، لم يجد المحاسن الأشعار غاية إلا الإطراب فقال: إن يكن الصدق لا يطرب فينبغي للشاعر أن يزيد أو ينقص. ولم يكن في هذا الرأي بدعًا في قومه فإنه ظنّ كما ظنّوا فإنّ اسم الشاعر عندهم (المختلق) الذي يصنع الحكايات والقصص الإطراب السامعين".

ولما رأى البلاغيون العرب أنّ أرسطو أسّس الأمر على مهارة الاختلاق سبق إلى ظنّ بعضهم أنّ أحسن الشعر أكذبه، وإذ ليس في أشعار العرب من أمر القصة والحكاية إلا التشبيه ظنوا أنّ الغلو في التشبيه من المحاسن. وكما أنّ المحاكاة صارت عمود الرجاحة عند أرسطو فكذلك صار التمثيل والتشبيه الذي يشابه القصة عندهم قطب البلاغة. ثم أنهم وافقوه في عين هذا الرأي فإنه قال في محاسن الكلام: "إنّ أعلى كمال البليغ أن يكون حاذقًا في استعمال التشبيه" وقال صاحب "أسرار البلاغة":" كأنّ جلّ محاسن الكلام إن لم نقل كلها متفرعة عنها أنواع التشبيه وراجعة إليها". وأدّى هذا القول إلى أنّ "المتكلفين من المولدين عكفوا عليه، فغاب عنهم ما كان للعرب من سحر الكلام

وإعجازه ونظروا إلى الاستعارة التي هي مبالغة في التشبيه هذه النظرة فغلب على ظنهم أنّ الحسن أميل إلى الكذب واستدرك الفراهي قائلًا: "وإنا لا ننكر محاسن التشبيه وأنواعه، ولكنا نجعله متفرعًا عن أصل غير التشبيه، وأساسه الصدق خلاف ما سمعت من مذهب أرسطو وأمثاله" (الفراهي، صفحة (11).

لقد ذهب الفراهي بعيدًا في هذا التصور؛ لأنّ العرب لم يأخذوا مفهوم التشبيه والاستعارة من نظرية المحاكاة التي قال بها أرسطو، إذ هذان الفنّان معروفا الأهمية في كلام العرب، ولا سيما التشبيه الذي قال عنه المبرد: "والتشبيه جارٍ كثيرًا في الكلام- أعني كلام العرب حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد"، وتكلم عليه، وأشار إلى أنواعه، وإلى ما يحسن منه، وما لا يحسن في عدة مواضع من كتابه ومثل ذلك الاستعارة التي لم يكن مفهومها بعيدًا عن مدارك العرب، بل إنّ غرابة التصور والخيال من محاسن أشعار العرب، ألم يستحسن حسان بن ثابت عبارة ابنه في التشبيه قبل أن يؤلّف العرب في البلاغة، ويطلعوا على كتابي "الشعر" و"الخطابة" لأرسطو، فقد رجع عبد الرحمن إلى أبيه حسان يبكي ويقول: "لسعني طائر" فقال حسان: صفه يا بني" فقال: "كأنه ملتف في بردي حبرة" وكان قد لسعه زنبور، فقال حسان: "قال ابني الشعر ورب الكعبة". أليس في هذا ما يدل على بعد الخيال والاستعداد لقول الشعر والتصوير؟ فالغلو في التصوير مذهب معروف في الشعر العربي القديم، وإنّ التصوير البعيد ليس غريبًا، وهو ليس كذبًا، وإن كان بعضهم يميل إلى عرض الحقيقة كما هي، وقال إنّ أحسن الشعر أصدقه" (الفراهي، صفحة (12).

ويعود الفراهي إلى المحاكاة ويرجعها إلى النطق لأنّ الإنسان في فطرته ناطق ولذلك فإنّ النطق هو الفصل المقوم له لا المحاكاة كما زعم أرسطو وكان قد قال في أول الكتاب: "إن البيان كالظل والأثر للنطق الذي هو مقوم للإنسان والنطق مودع في فطرته- أي الطفل وكل قوة تلتمس الوسيلة للعمل". ويمضي الفراهي في إيضاح ذلك مؤكدًا فهمه ورأيه في المحاكاة، وربط البيان بالنطق الذي هو "زهرة تخرج من كمال الفهم وصلاح

البنية" ولو "لم يكن النطق في الإنسان لما استطاع المحاكاة"، وقوة النطق هي العلة الفاعلية وأما "المعاني ثم الألفاظ فهما المادة، فالنطق يأخذ المعاني ويلبسها ألفاظًا سواء مما ابتدعها، أو مما تعلمها الإنسان بوسيلة المحاكاة" (الفراهي، صفحة :(13)

هذا موقف الفراهي من المحاكاة التي شغلت أرسطو والفلاسفة المسلمين والمعاصرين، وهو رأي ينبثق من فهمه للكلام الذي لا يريده تقليدًا أو محاكاة للواقع لئلا يؤخذ الطيب والخبيث، وهو ما لا يؤمن به من يربط الكلام عامة والشعر خاصة بالأخلاق ويتضح هذا في قوله: اعلم أنّ حسن البلاغ وكماله يحتوي حسن ما يبلغه من الصور والمعاني وهو أولى باللحاظ فلا تقيم وزنًا لكلام أبلغ بكمال الصحة شيئًا خبيثًا من نفس متدنية، فالخرس أحسن من هذا النطق. وهذا رأي يستدعي بيانًا لصحته، فإنّ أبا جعفر قدامة صاحب (نقد الشعر) وهو أول من جعله فنًا من العلوم قال قولًا يضلّ به الغافل وإن كان له وجه صحيح، فقال: "ليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلًا رداءته في ذاته وقال أيضًا: إنّ الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقًا، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائنًا ما كان أن يجيده في وقته الحاضر" فلم يرد من الشعر إلا شيئًا نازلًا وصناعة دنية... ونحن نلتمس محاسن الكلام كما يليق به وكما وضعته الفطرة الإلهية، ويقتضيه كمال قوة النطق، ويستعمله الشاعر أو الخطيب الجديد بهذا الاسم". (الفراهي، صفحة (14).

والشعر عند الفراهي قسم من أقسام الكلام والكلام ليس اسمًا للجرس المحض، بل هو شيء مركّب من المعنى والصوت والشيء المركب يحكم بحسنه لحاظًا إلى أصل الأمر فيه أي أنّ النظرة يجب أن تكون كلية، وأن يحكم على الكلام مجموعًا، ولا يكون حسنًا إذا اختل جانب من جوانبه أو سقط ركن من أركانه، ويضرب مثلًا فيقول: "إنك لا تصف بالملاحظة وجه أعور أفطس إذا وجت إحدى عينيه مليحة، فكذلك الأمر في حسن الكلام. نعم إن شئت قلت: إنّ وزن هذا الشعر أو صوته حسن، ثم نؤزّر هذا الرأي بأمر أقرب إلى الكلام من جهة الإبلاغ، وهو أنّ الكلام لا يبلغ قلب العاقل

إلا أن يكون معناه شريفًا، ولا اعتبار لتأثر الحمقى والأشرار، فإننا إنما نعطي الأشياء أسماء لحاظًا إلى سلامة الحال، وإلا لزمك أن تسمّي الكلام حسناً وقبيحًا معًا، أو لا تسمّيه شيئًا. وهذا أمر يتضح لك كل الاتضاح إذا بحثنا عن أسباب بلوغ المعاني القلوَب، فترى أنّ الألفاظ ربما تصرف عن قواعدها الصحيحة العامة لأجل المعنى الذي يبلغ نفسه بقوة فيه ويجد الألفاظ حجابًا وثقلًا عليه، كما أنّ ملكًا جعل نفسه سفيرًا. فالبليغ هو المعنى واللفظ مركبه، فالمعنى أجدر باللحاظ في حسن الكلام فذلك برهانان ثم نعزّزهما بثالث، وهو أنّ العرب لم يحمدوا الكلام إلا لحسن معناه، وليس لهم نزوع إلى قول أدّى الخبث فإنهم يذمونه ويحتقرونه". (الفراهي، صفحة (15).

## المطلب الثاني: النثر البليغ عند الإمام الفراهي

يفرّق الفراهي بين الشعر والنثر البليغ، وذكر أنّ أول من أخطأ في عدم التمييز بين الشعر والنثر البليغ أرسطو وآخر هو (جان مل). وأرسطو أشنع قولًا فإنه ظنّ أنّ للمحاكاة طرقًا شتى. وفي الكلام وسيلة لمحاكاة ثلاث وزن، وألفاظ، ونعمة فهذه محاكاة فرادى ومثنى وبأجمعها. ثم ظن أنّ المحاكاة هي الشعر، ومحاكاة معالي الأمور هي التي تسمّى أبوبيه (EPOPEE) القسم الذي اختاره هومروس فقال: إن أبوبيه تحاكي بوسيلة الألفاظ وحدها كمكالمة سقراط، أو بوسيلة الألفاظ مع النظم كنظم فلان وفلان ثم قال إن العادة علقت الوزن بالشعر، ولكن الذين نظموا كتبًا في الطب أولى باسم الطبيب منهم باسم الشاعر. وإنه أصاب فيما قال: إنّ مجرد الوزن لا يتم به الشعر، ولكن العلة ليست أنّ الوزن ليس من أجزاء الشعر بل لأنّ الكل لا يوجد بمجرد أن يوجد منه جزء، فجعل كلام هومروس وسقراط شيئًا واحدًا، وزعم علاقة الوزن بالشعر نشأت من العادة. وأما (جان مل) فقارب الإصابة فيما فهم أنّ الشعر هيجان، والشاعر يخاطب نفسه، فأمن بهذا الظن تخليطًا بين الشاعر والخطيب أو الحكيم، فلا يكاد يعدّ كلام سقراط من الشعر، ولكنه أوضح قولًا من أرسطو بأنّ الوزن أمر زائد على الشعر". (الفراهي، صفحة (20)

ويتحدث عن الصوت وقال إنّ له دلالة على بعض المعاني لمناسبة بينهما، وما من لغة إلا وفيه آيات على ذلك، وأما لغة العرب فالدلالة فيها أكثر وأبينُ من أن ينكره منكر. وأعجب من صاحب "دلائل الأعجاز" كيف غمض عينه عن هذا الأمر، وردّ على العلماء الذين جعلوا للفظ حظًا في مزية الكلام من جهة صوته (الفراهي، صفحة (22). وبعد ذكر الفراهي التفصيل في هذه المسألة، عاد إلى عبد القاهر وقال: والعجب كل العجب كيف غلب الوهم على صاحب "دلائل الإعجاز" فزعم أنّ المتكلم لا يعنيه إلا المعنى، ولا هم له في الألفاظ من جهة جواهرها، وخالف جمهور العلماء". (الفراهي، صفحة (23)

وكذلك تحدّث عن الوضاحة من جهة اختيار المعاني، وقال: "إنّ العرب كما أنهم اختاروا للمعاني من الألفاظ ما يكون أحسن تصويرًا لها، فكذلك أنهم اختاروا لها من المعاني ما يكون أرفق لتوضيحها ورفع إبهامها". وذكر أمثلة شعرية كثيرة إيضاحًا لهذا الموضوع، وقد أكمل المبحث بالكلام على تصوير الشيء بالتشبيه والاستعارة، والتمثيل، والمجاز وقال: "إنّ التصوير غير محصور في التشبيه وله طرق كثيرة (الفراهي، صفحة (23)

ثم قال: "إنّ المثال والتشبيه، والاستعارة، والمجاز تأتي بما يفصح عن صفة من غير جعل الشيء شيئًا آخر، فلا بد من مغايرة بين المشبه والمشبه به. وإلا جعلوهما شيئًا واحدًا" (الفراهي، صفحة (23). وأوضح دلالة التشبيه بقوله: "اعلم أنّ الباعث الأول على التشبيه هو حرص الناطق على إظهار ضميره واستعمال قوة النطق بقوة حتى يجعل السامع كأنه قد رأى، وجرب فتأثر به بما يزيده وضاحة وأثرًا.

والباعث الثاني أنّ الناطق لا ينطق لمحض الإظهار ولكن ليؤثر في السامع، ويحركه، ويجلب رغبته أو نفرته إلى محض السمع ليعجب نفسه والناس بنطقه بالتصوير العجيب الحسن النادر، ويتوسل بذلك إلى أمور أخر من جلب الصيت أو منافع أخر.

والباعث الثالث أنه يتوسل بالتشبيه إلى تقرير، أو تحريض من جهتين مختلفتين:

الأولى: أنّ المثل أشبه بأن يكون كمثله في أمور أخر.

والثانية: أنّ الأمر العقلي أو الدعوى المجهولة إذا صوّرت محسوسة أسرع الذهن إلى التأثر بها لفطرته بالتأثر للمحسوس وتعوده بذلك كما ترى الناس يقرأون القصص المكذوبة، ويضحكون، ويبكون، ويفرحون، ويحزنون بها مع علمهم بكذبها (الفراهي، صفحة (23).

وانتهى إلى أنّ التشبيه "إيضاح، وإعجاب، وتقرير، وتأثير وجره الكلام على التشبيه إلى نقد عبد القاهر فقال: "إنّ المولدين زعموا أنّ الندرة والبعد في التشبيه من محاسنه، وقد أسهب الجرجاني رحمه الله في إثبات ذلك، وجمع التشبيهات الرديئة، وإنا نورد عليك منها لكي تعمل فيها ذوقك وتبين سخافتها". (الفراهي، صفحة (24). أما القسم الثاني الذي سمّاه بالخصوصي فقد اتخذ منه منهجًا هو أقرب إلى الذوق وروح الأدب. يقول: "إن سردت الكلام سردًا ذهبت غافلًا عن بعض المعاني، بل ربما بذلت المعنى مثلًا إن لم تقف على كلمة المرسلين في قوله تعالى: "وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١" (يس 20-21) غفلت عن قوة الدليل، وأكدت على الأمر كأنك قلت: اتَّبعوا اتبعوا، فهذا مع الغفلة يرد المعنى من الأمرين إلى أمر واحد. (الفراهي، صفحة (25).

لم يذكر الفراهي في هذا المبحث عن الفصل ومواقعه، وإنما ذكر الآيتين الكريمتين اللتين وقع الفصل بينهما حينما أعاد- سبحانه وتعالى- الفصل (اتبعوا). والجديد في مبحث الفصل والوصل أنّ الفراهي ربطه بالخيال، يقول: "ثم الفصل يجعل الخيال جسرًا بين معنيين، فإن وصلتهما لم يكن للخيال سبيل بينهما" (الفراهي، صفحة (25).

وعقد مبحثًا بعنوان "حظ السامع" وهو رعاية جانب السامع، ومن هذا اللون الاستفهام لينتبه السامع، والسكوت ليستريح وبعض الحذف ليصير السامع متكلمًا في نفسه فيعمل عقله، ومنبهات الرغبة والنفرة، والالتفات لينتبه بما أحسّ من تجديد

والتمثيل. والتمثيل ليشاهد محسوسًا فينتبه من رقدته، وكل تبدل من الحركات والالتفات وهيجان الضحك والحزن فهذه مع فوائده الأخر أسباب لانتباه السامع. وتعرض المباحث الحذف ومواقعه وإدراج الدليل، والترتيب في النسق، والمقابلة والاستثناء، وانتهاز الفرصة، والمجاز، والكناية والتشبيه ودلالة المجاز في الأزمنة، ولسان الغيب، والإشارة والتعريض. وهذه من فنون البلاغة التي وجدت سبيلها إلى التأليف، وإن جاء بعضها متأخرًا في مسيرة البلاغة العربية (الفراهي، صفحة (25).

وختم الكتاب بمباحث متفرقة هي: صرف الكلام عن سننه، والجملة المعترضة، ووجوه الخطأ في التمييز بين حسن الكلام وقبيحة، وروح البلاغة وسرّها، وكمال البلاغة والإعجاز، ومناط كلام العرب، وأخلاق العرب قوى العرب العقلية والكلامية وارتجال العرب، وصوت الخطب، ومذهب العرب في نقد الكلام، وباب من التمرين في النقد، وباب نقد الكلام، والفواصل والقوافي، وبعض هذا ما لم تبحثه البلاغة العربية (الفراهي)

**تتجلى في هذا الكتاب نزعة الفراهي واتجاهاته في الصور التالية:**

1. الاعتزاز بالعرب لألهم من أذكى الأمم كما يرى.
2. الاهتمام باللغة العربية ذات الخصائص التي تميزها عن اللغات الأخرى ولا سيما لغة اليونان التي استقى منها أرسطوطاليس مفهوم الشعر والمحاكاة.
3. تمسكه ببلاغة العرب والعزوف عن بلاغة العجم.
4. العناية بالأسلوب العربي البليغ.
5. الاطلاع على أهم كتب البلاغة العربية، وعلى كتب أرسطوطاليس، والشعر العربي.

**وأهم ما تجلى في الكتاب:**

1. تقسيم مباحث البلاغة إلى قسمين: القسم العمومي والقسم الخصوصي، وهو تقسيم جديد لم تألفه البلاغة العربية في تاريخها الطويل.

2. ربط البلاغة بالنقد، واتخاذها مقياسًا في الأحكام النقدية.
3. وضوح النزعة الأدبية في العرض والتحليل.
4. إبداء الآراء الخاصة في القضايا المختلفة، ومن ذلك نقض نظرية المحاكاة لأرسطو، ونقد عبد القاهر الجرجاني والتمييز بين بلاغة العرب وبلاغة العجم، والفرق بين الشعر والخطابة، وغير ذلك من الآراء المبثوثة في مباحث الكتاب.
5. إلحاق بعض المباحث العامة المتصلة بالنقد.
6. وضوح أسلوب الكتاب في العرض والتحليل.

ومن هنا تأتي أهمية الكتاب، وتأمل ما ورد فيه من مباحث وآراء، يرفد الدرس البلاغي والنقدي، ويضيف ما فيه النفع وإنارة السبيل يوم تلبس البلاغة العربية ثوبها الجديد.

**الخاتمة:**

بحمد الله تعالى ومنته وتوفيقه أتممت هذا البحث بما يسّره الله تعالى لي من جمع وترتيب وتحليل، وتضمن هذا البحث "جهود الإمام عبد الحميد الفراهي في اللغة العربية " فإنّ أساليب البلاغة وخاصة في العبارة القرآنية ومعانيها ودلالاتها المختلفة لا يمكن لمثل هذا البحث استقصاءه، فلقد توصل البحث إلى النتائج الآتية:

1. إنّ الفراهي بدراسته العميقة للغة العربية وآدابها وعلومها قد صار عنده حسّ لغوي عجيب وذوق عربي رفيع كالعرب الخلّص، ولكن مع كل هذه المزايا التي تجسّدت في شخصيته كانت مزية أخرى قد غلبت تلك المزايا كلها وهي حبّ القرآن الكريم الذي كان فوق كل شيء ولن يشعر بعظمة هذا القرآن إلا من كان عربيًا خالصًا.
2. إنّ للفراهي معرفة تامة بأساليب الأدب والبلاغة من علم البيان والمعاني

والبديع، واطلاعًا واسعًا على الشعر الجاهلي، ودراية فائقة بتعبيرات الصحف السماوية والأحاديث والآثار، وتضلعًا كاملًا من اللغات الأجنبية والفارسية والعبرية، وقدرة خارقة على الشرح والتحليل والتطبيق، وجرأة نقدية في هدوء وأدب واحترام للمتقدمين.

3. إنّ الفراهي كان يشعر بحاجة شديدة إلى تأليف مجموعة كتب فريدة جامعة شاملة للدارسين والباحثين.

4. وجملة النتائج أنّ الفراهي كان جامعًا بين التبحر في العلوم العربية والدينية، والاطلاع الواسع على العلوم العصرية والطبيعية، ويظهر أثر الثقافة الواسعة العميقة في معظم مؤلفاته.

## المصادر والمراجع


1. أبي سلمى ز (n.d.) ديوان زهير بن أبي سلمى) . . طماس (Ed. بيروت – لبنان: دار المعرفة.
2. الإصلاحي .أ.أ (1937). مجلة "الإصلاح" الشهرية: 608-607.
3. الإصلاحي .أ..أ (1938). مجلة "الإصلاح" الشهرية: 199.
4. الإصلاحي.ش (n.d.) ذكر فراهي: 575.
5. الجاحظ ع (1968). البيان والتبين). أ. عطوي (Ed. بيروت: دار صعب.
6. الزهراني ص س n.d. aruc.or Retrieved from ) مقالة الزهراني سياسة البلاغة عند عبد الحميد الفراهي.
7. الفراهي الهندي ع .(2002) مفردات القرآن- نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية). م . الإصلاحي (Ed. دار الغرب الإسلامي.
8. الفراهي.. ع (n.d.) – جمهرة البلاغة المكتبة الشاملة الذهبية.
9. فرحات )أ (n.d.) . عبد الحميد الفراهي المكتبة الشاملة.
10. مطلوب مقالة الدكتور أحمد )...( www.ust.edu. Retrieved from مطلوب، جمهرة البلاغة.
11. الندوي أ(n.d...) علامه حميد الدين فراهي حيات وأفكار: 21.
12. الندوي. أn.d.) ) علامه حميد الدين فراهي حيات وأفكار: 28.
13. النعماني ش (1905) مجلة "الندوة" الشهرية: 2.

ISSN: 2321-7928

# حواشي الفراهي على تفسير "موضح قرآن"

- د. محمد أكرم الندوي[1]

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري[2]

قام الشاه ولي الله الدهلوي (المتوفى 1176هـ) بأوّل ترجمة فارسية لمعاني القرآن الكريم باسم "فتح الرحمن"، ثم قدّم ابنه الثاني الشاه رفيع الدين الدهلوي (المتوفى 1223هـ) ترجمة لفظية باللغة الأردية لمعاني القرآن الكريم، كما قام ابنه الثالث الشاه عبد القادر الدهلوي (المتوفى 1230هـ) بترجمة أردية أدبية لها، وأضاف ملاحظات تفسيرية مختصرة في بعض المواضع. اشتهرت هذه الترجمة والتفسير بـ"موضح قرآن"، وهي أشهر من قفا نبك. لا توجد أي زوائد في ترجمة الشاه عبد القادر هذه، وقد اعتمد عليها عمومًا مَنْ تبعه من مترجمي القرآن الكريم ومفسّريه باللغة الأردية، فقد نقلت عبارات الشاه عبد القادر كما هي في التراجم والتفاسير المختلفة، أحيانًا بذكر المرجع وأحيانًا أخرى بدونه. وكان السيّد أبو الحسن الندوي يثني بهذه الترجمة دائمًا. ووجدت روايتها بالسند في أسرته. ولا شك أنّ هذه الترجمة فصيحة وبليغة، يستلذ القارئ أحيانًا بقراءتها ويغلبه الشعور بالوجد.

لا يوجد مثال للكيفية التي وقف بها العلّامة عبد الحميد الفراهي (المتوفى 1349هـ) حياته للقرآن الكريم، فقد فكّر بإمعان في مفرداته، وتراكيبه، وإعرابه، وأساليبه، وبلاغته، ونظامه، وأسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، وحكمته، وفلسفته وكل ما يرتبط به. وأظهر علوّ طريقة الاستدلال القرآنية مقابل طريقة الاستدلال اليونانية، وقارنها بالعهد القديم والعهد الجديد، كما أوضح أخطاء صحائف اليهود والنصارى. وقد

[1] عميد كلية كامبردج ورئيس معهد السلام بلندن.

[2] مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

حاول المتأخرون أن يجعلوا القرآن الكريم موافقًا لمذاهبهم الفقهية والكلامية. ولكن الفراهي عارض هذه الفكرة العامة وجعل القرآن الكريم أصلًا يرجع إليه، كما قام بالعمل العظيم وهو تخليص تعاليمه من كل أنواع الشوائب.

**تحليل مختصر لتعقيبات الفراهي:** طالع الفراهي تفسير "موضح قرآن" بكل دقة، وقد ذكر في مؤلفاته في بعض المواضع اختلاف فكره عنه، وقدّم ملاحظاته عليه، وبعد إلقاء نظرة سريعة على مؤلفاته، وجدت بعض الأمثلة لذلك.

يوجد مثالان للترجمة، وأربعة أمثلة للتفسير، وتعقيباته التفسيرية تنقسم إلى قسمين: يتعلق الأول منهما بدور العقل في طريق الهداية، حيث أنّ الله قد أنعم على الإنسان بأعظم نعمة وهي العقل، وجعل الفطرة سبب العقل، ثم أنزل الوحي على الأنبياء عليهم السلام لبيان تفاصيل قوة وهداية العقل والفطرة. وهناك توافق بين كل من الفطرة والعقل والنقل. وهذه هي الطريقة التي اتبعها الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين، والتي لإثباتها بطريقة مدللة، ألّف الإمام ابن تيمية كتابه القيم "درء التعارض بين العقل والنقل". وقد تولد الغلو لدى الأشاعرة مخالفة للمعتزلة لدرجة أنهم اعتبروا العقل يعارض النقل، وروّجوا النظرية بأنّ الحسن والقبح في الأشياء نقلي لا دخل للعقل فيه، مع أنّ هذا القول خاطئ بالبديهة، فعلى حسب قول المحققين فإنّ الحسن والقبح في الأشياء فطري وعقلي وكذلك نقلي. ونجد في تفسير الشاه استخفاف للعقل في بعض المواضع، والمثالان الأولان يرتبطان بهذه الناحية إلى حد ما.

والمثالان الآخران يرتبطان بمسألة كلامية أخرى، وركز المعتزلة على صفة العدل والحكمة من صفات الله تعالى، بينما ركز الأشاعرة على صفة القدرة. وحاول الفريقان تفسير القرآن الكريم حسب مذهبهما. وقد اختلف الفراهي مع كليهما. لأنه يؤمن بوحدة قدرة الله وعدله وحكمته. وهذا هو مسلك السلف الصالح، وهو الذي برهن عليه الإمام ابن تيمية في مؤلفاته. ونجد في بعض المواضع عند الشاه عبد القادر

أثر العقيدة الأشعرية في بيان قدرة ومشيئة الله، وقد نبّه إلى ذلك الفراهي حتى يكون واضحًا أنّ معنى كون الله تعالى قدير ليس نفيه لسنن صفتيه: الحكمة والعدل، إنه قدير وحكيم كذلك، وبيّن هذا في كتابه مرارًا وتكرارًا.

بعد تقديم هذا التحليل الموجز عن تعقيبات الفراهي، ندرس الأمثلة التي وردت في مؤلفاته فيما يتعلق بتفسير "موضح قرآن".

**المثالان الخاصّان بالترجمة:** المثال الأول: "نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ" وقد ترجم الشاه هذه الآية: "التي تنزع الكبد". يقول الفراهي: "وقد أخطأ العلامة عبد القادر الدهلوي في ترجمة قوله تعالى "نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ" فظنّ أنه الكبد، والموقع ذكر دنوّ العذاب، لا دخول المنكرين في النار، فإنّ سياق الكلام هكذا "سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨". فهذا بيان الموقف، يوم أزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين، فليس لهم حميم، فحينئذ تدعو الجحيم الكفار، وتخرج لظاها فتذهب بلحم سوقهم- وأما أنها تخرج أكبادهم فليس هذا مما جاء في شيء من القرآن حتى إنهم حين يدخلونها لا تخرج أكبادهم ولا قلوبهم. وكذلك أخطأ من أخذها بمعنى جلد الرأس، فإن مجيء الشوى للحم الساق عام شائع، ولجلد الرأس جاءت الشواة في قليل من الكلام مع احتمال معنى آخر. ثم لم يذكر في القرآن ولا في الحديث مجيء النار في الموقف من فوق حتى إذا دلّت وأطلّت عليهم نزعت جلدة رؤوسهم، فلو تساوى المعنيان للشوى لكان الأخذ بما هو أوفق بالنظم وباقي القرآن أحرى، فكيف والمعنى غير معروف وغير معتمد عليه".[1]

[1] الفراهي، عبد الحميد، التكميل في أصول التأويل [ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، الهند، 1991م]، ص 273-272، والتعليقات [تعليقات في تفسير القرآن الكريم، إعداد: د. عبيد الله الفراهي، مراجعة: الشيخ محمد أمانة الله الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، الهند، ط1، 2010م]، 2/384-385

المثال الثاني: "لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢". (النساء: 162) تعتبر هذه الآية صعبة من الناحية النحوية لدى المفسرين، فكل الأسماء من "ٱلرَّٰسِخُونَ" إلى "ٱلۡمُؤۡمِنُونَ" مرفوعة، و"وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ" منصوب، فلماذا نصبت هذه الكلمة وحدها؟ وما سبب النصب؟ يقول الزمخشري: "نصب على المدح لبيان فضل الصلاة"، وكذلك ابن جرير الطبري، وابن كثير وغيره قدّموا نفس التوجيه، وهو رأي سيبويه أيضًا، ويسمّى كذلك نصب على الاختصاص. ترجم الشاه "وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ" بـ"المدح لمن يقيم الصلاة".

يقول الفراهي: "أخطأ الشاه عبد القادر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة "والمقيمين الصلاة"، وظنّ أنّ "ٱلۡمُقِيمِينَ" منصوب على المدح كما قال سيبويه".[1]

واعترض الفراهي على زيادة "آفرين ہے" في الترجمة فيضيف الفراهي قائلًا: "ولكن المراد بالمخصوص بالمدح هو ما يقدر قبله "يعني"، فهو المنصوب بهذا المقدر، وليس معناه المدح، إنما يأتي في موقع المدح والذم".[2]

وترجم أمين الإصلاحي: "وخاصة الذين يقيمون الصلاة" فقد روعي التخصيص في هذه الترجمة ولكنه لم تذكر كلمة تدل على المدح.

ويبين الفراهي السبب الثاني للنصب فيقول: "ونصب "وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ" بفعل "سَنُؤۡتِيهِمۡ" فإنّ المفعول إذا قدّم على فعله والفعل علّق بضمير يرجع إلى المفعول جاز في المفعول المقدّم وجهان: النصب والرفع على الابتداء، فهكذا ههنا. ولما كان في الجملة خمس صفات ووقع الوسط منصوبًا دلّ على كون جميعها مفعولًا حسب المعنى بفعل

[1] الفراهي، التعليقات، 130/1

[2] المصدر نفسه، 140/1

"سَنُؤۡتِيهِمۡ". وذكر العلماء ههنا وجوهًا، أحسنها أنه منصوب لوقوعه في تنسيق الصفات. ونظيره في آية البقرة: "وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ... وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ". (الآية: 177). فقول مَنْ زعم أنه خطأ الكتّاب باطل. وأيضًا يسوغ جعل "وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ" حالًا من "وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ" لشدّة اتصال الصلاة بالإيمان".[1]

**الأمثلة الخاصة بالتفسير:**

المثال الأول: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ" (المائدة: 35)

ترجم الشاه عبد القادر: "يا أيها الذين آمنوا، عليكم بمخافة الله، وابحثوا عن الوسيلة إليه" ويقول في الفوائد:"الحسنة التي تكون في طاعة الرسول مقبولة، وما تكون بالعقل بدون طاعة الرسول فغير مقبولة".

يقول الفراهي: "وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ" بالزكاة والجهاد، فإنّ الكفار لا وسيلة لهم ليفتدوا بها ولو أنّ لهم ما في الأرض جميعًا، والقربان من الاقتداء، قال العلامة الشاه عبد القادر الدهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: "إن المراد من "ٱلۡوَسِيلَةَ" طاعة النبي وأنّ العمل الصالح الذي يحكم به محض العقل لا يقبل"، وهذا كلام صحيح في نفسه، ولكنه ليس هنا محله في ترجمة "ٱلۡوَسِيلَةَ" ولا حاجة إلى دفع دخل زعمه مقدرًا، فإنّ العمل الصالح لا بد أن يكون فيه طاعة النبي فإنه إنما جاء للدعوة إليه والبيان له، فالتفسير الموافق لما قبله وما بعده أنّ العبد لا بد أن يحقق تقواه بالأعمال المقربة إلى الله تعالى، وهو حقيقة القربان، قال تعالى: "لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ"، والآيات السابقة في ذكر القربان والتقوى في قصة هابيل وقابيل، وقبل ذلك بيان بذل النفوس في سبيل الله ونيل الفلاح به، كما ذكر في قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وقومه حين أبوا أن يقاتلوا في سبيل الله، والربط بين بذل النفس

[1] المصدر نفسه، 140/1

والمال بالجهاد والنحر ظاهر، وقد جاء في القرآن كثيرًا، فعلى هذا البناء قال هنا "وجاهدوا في سبيله أي حققوا تقواكم بالجهاد فتفلحوا، ثم لما كان القربان، سواء كان قربان النفس أو المال، فدية، وقد قرب هذا المعنى من قلوب العرب من وجوه مختلفة، قال قائلهم:

نهين النفوس وهون النفو س عند الكريهة أبقى لها

وهذا هو معنى الفلاح وهو البقاء، وهو معنى الفدية والقربان والبركة به. فقال: "لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"، ثم بين أن الفدية لا يتقبل يوم القيامة ولو كان بجميع ما في الدنيا، فترى أن هذا التفسير مبنى على الربط الوسيع، وفي العبارة شهادات عليه، وشواهد محكمة من القرآن، واللسان يؤيده، والله أعلم".[1]

المثال الثاني: "وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾" (الأنعام: 126)

ترجمة الشاه عبد القادر: "وهذا طريق ربك المستقيم، وقد فتحنا العلامات للذين يتفكرون" وتفسيره للشاه كما يلي: "يعني عدم إدخال الطاعة والعقل هو الطريق المستقيم"

يقول الفراهي: "قال العلامة عبد القادر الدهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: "المراد من الصراط المستقيم هو الإذعان للطاعة ونبذ العقل، وهذا تأويل غير صحيح، قد كثر في القرآن بيان الصراط المستقيم بالتوحيد، وقد جاء هذا الكلام في إخلاص الإسلام لله، ومن هذه الجهة الإذعان لآياته، فقال تعالى قبل ذلك: "فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾" أي أنّ الله تعالى ييسّر المؤمنين للطاعة فتشرح لها صدورهم فينتفعون بآياته ويذكرونها، وأما الذين لا يؤمنون فيقع عليهم

[1] المصدر نفسه، 1/154-155

رجس الشياطين، فتصرف قلوبهم عن الحق وتضلهم الظنون الفاسدة، فتضيق صدورهم عن قبول الحق، فليس أنّ العقل معطل عند المؤمنين بل تجري عقولهم على السداد، وقوله تعالى: "قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ" يؤيد ما قلنا ويؤيده محكم القرآن".[1]

المثال الثالث: "أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٠". (المائدة: 40)

ترجمها الشاه عبد القادر: "ألا تعلم أنّ الله له سلطان السماء والأرض، يعذب لمن أراد له العذاب، ويغفر لمن آراد له المغفرة، وهو القادر على كل شيء" وتفسيره لها كما يلي: "قال ذلك حتى لا يستغرب إذا عاقب السارق على خطئه الصغير بعقاب شديد".

يقول الفراهي: "قال العلامة عبد القادر الدهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: إن الله تعالى يعذّب عذاباً عظيما على إثم صغير إن شاء، فلا اعتراض عليه، وهذا تأويل باطل، فإنّ المراد من الآية أنّ الله تعالى يعذّب الظالمين ويتوب على التائبين، فهو المالك على الإطلاق، فكما يعذب بقدرته فكذلك يغفر بقدرته، وهذا تأويل موافق لنظم الكلام، فإنّ الله تعالى ذكر قبل هذه الآية عذاب السارق والمغفرة له إن تاب بعد ظلمه، فنبّه على أنه لا مانع له من المغفرة والتوبة على من تاب وأصلح، وهذا هو إطلاق المشيئة، ولا شك في أنه لا اعتراض عليه في ما يفعل، ولكنه لا يفعل غير الحق والقسط، وكيفما كان النزاع في هذه المسألة فإنها لا موقع لها ههنا".[2]

المثال الرابع: "وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧". (الرعد: 27)

ترجمها الشاه عبد القادر: "يقول المنكرون لماذا لم تأته علامة من ربه، فالله يضل من

[1] الفراهي، عبد الحميد، دلائل النظام، ص 81-82 [ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، الهند، 1991م] والتعليقات، 1/198-199

[2] الفراهي، التعليقات، 1/154-155

أراد له الضلال، ويهدي إليه من رجع إليه". وتفسيره كما يلي:"أي أن الله ليس ملزما بأن يهدي الجميع، أو يهدي بكل طريقة بإرسال العلامات، بل المشيئة أن يضل البعض ويهتدي البعض الآخر، فمن وجد في نفسه الإنابة، دل على أنه اراد له الهداية".

وينتقد الفراهي هذا التفسير بقوله: "أخطأ الشاه عبد القادر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما المعنى أنّ الكفار يقولون لولا أنزل الله على النبي آية ليؤمنوا به، فرد قولهم بأنّ الآية لا تهدى من أضله الله، فالهداية والضلالة بيده، ويؤتيها لمن استحق فيهدى من أناب ويضلّ من تولّى".[1]

**خلاصة الدراسة:** لا نقصد ببيان هذه التعقيبات الحطّ من أهمية "موضح قرآن"، والحقيقة أنّ ترجمة الشاه عبد القادر سوف تظلّ في القمة وتبقى معيارية مادامت اللغة الأردية باقية في العالم. وقد رفعت تعقيبات الفراهي من عظمة تفسير "موضح قرآن" وتفصيله فيما يلي:

أجمع العلماء بعد تأليف صحيحي البخاري والمسلم بأنهما أصح كتب الحديث، ولا يجاريهما كتاب آخر، وبعد مئة سنة تقريبًا قدّم الإمام الدارقطني نقده المدلل والمحقق على الصحيحين باسم "الإلزامات والتتبع"، وقد أوضح هذا النقد أنه لا يمكن أن ينتقد الصحيحان نقدًا ذا شأن، وقد بيّنت التفاصيل في كتابي "مدخل رائع إلى صحيح البخاري، وما فيه من أسرار وصنائع" وكذلك في مقدمة شرح المسلم.

وهكذا وجّه الفراهي الماهر بالقرآن بعض النقد إلى "موضح قرآن"، الأمر الذي يزيد من الثقة بترجمة وتفسير الشاه عبد القادر. والحقيقة أنّ اهتمام الفراهي بـ"موضح قرآن" دليل بذاته على عظم مكانته، رحم الله الشاه عبد القادر والعلّامة الفراهي برحمته الواسعة. آمين.[2]

[1] المصدر نفسه، 317/1

[2] مع الشكر لمجلة "علوم القرآن" نصف السنوية، 64/1/40-75

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

وقال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يوم السقيفة: "فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ... فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله".[1]

وفي حديث أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال للأنصار يوم السقيفة: "إنما جِيبَتِ العرب عنّا كما جيبت الرحى عن قطبها".[2]

وجاء في كتاب عليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى معاوية: "من ثقفتم منهم حبستموه أو عذّبتموه أو قتلتموه، حتى أراد الله تعالى إعزاز دينه، وإظهار أمره، فدخلتِ العربُ في الدين أفواجًا، وأسلمتْ له هذه الأمّة طوعًا وكرهًا".[3]

وقالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: "اشرأبّ النفاق وارتدّت العرب".[4]

وقال أيّوب بن القرّية: "كانت العرب تقول: حمير أرباب المُلك، وكندة لباب الملوك".[5]

وحتى أنّث فعلها بعد وقوع الفصل بين الفعل والفاعل فقال الأقيشر الأسدي:

إخوةُ القرد وهم أعمامُه  بِرِئتْ منكم إلى الله العربْ[6]

وقال جرير:

ما للفرزدق من عزٍّ يلوذ به  إلا بنو العمّ في أيديهم الخَشَبُ
سيروا بني العمّ فالأهوازُ منزلُكمُ  ونهرُ تِيرَى فلم تعرفْكم العربُ[7]

---

[1] المصدر نفسه، 63/1

[2] لسان العرب: جوب

[3] جمهرة خطب العرب، 408/1

[4] لسان العرب: شرب

[5] جمهرة خطب العرب، 328/2

[6] ديوانه، ص 56

[7] ديوانه، ص 45 وفي الأغاني (255/3): "بني العمّ" مكان "بنو العمّ" و"داركم" مكان "منزلكم" و"ولم تعرفكم" مكان "فلم تعرفكم".

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

ISSN: 2321-7928

# أصول التأويل
# بين الراغب الأصفهاني وعبد الحميد الفراهي
## دراسة وموازنة

- د. محمّد يوسف الشريحي[1]

**ملخص البحث**

بيّنت في هذا البحث أصول التأويل عند كلّ من الراغب الأصفهاني (502هـ) وعبد الحميد الفراهي الهندي (1349هـ)، وقارنت بينهما من خلال كتابيهما (مقدمة جامع التفاسير) للراغب الأصفهاني الذي تناول هذا الموضوع في أحد فصول المقدمة، وهو التفسير والتأويل و(التكميل في أصول التأويل) للفراهي بعد التعريف بهما وبكتابيهما باختصار. وقد تبيّن لي:

1. علم أصول التأويل من العلوم المهمّة والخطيرة، ولذلك لا يحلّ الإقدام على تفسير كتاب الله تعالى وتأويله إلا بعد الوقوف على هذا العلم ومراعاة الأصول فيه.
2. غاية كلّ من الإمامين في كتابيهما: وضع الأسس التي تعين على فهم كتاب الله تعالى، وعدم الانزلاق وراء الأهواء كما حصل للبعض ممن تجرأوا على تفسير كتاب الله تعالى وهم على غير علم فضلّوا وأضلّوا.
3. هناك قاسم مشترك بين الراغب الأصفهاني وعبد الحميد الفراهي الهندي بالرغم من تباعد الزمن بينهما، وهو أنهما قسما التأويل إلى أقسام- كما يقول الراغب الأصفهاني- مستكره ومنقاد، وجاءت عبارة الفراهي: الأصول للتأويل ثلاثة

[1] أستاذ مساعد، قسم التفسير وعلوم القرآن، قسم الدراسات الإسلامية، كلية الشريعة والقانون، جامعة الإمارات العربية المتحدة

أولية ومرجحة، وكاذبة تذكر للاجتناب، وأنّ الغاية من التأويل اطمئنان القلب وسدّ أبواب الاحتمالات.

4. من الأمور التي اعتنى بها الفراهي رحمه الله في كلّ مؤلفاته في التفسير: مراعاة نظم القرآن، وأنه لا يفهم كلام الله تعالى إلا بكلام الله تعالى: تصديقًا لقوله تعالى "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾" [القيامة: 19-17] فصاحب الكلام أدرى بكلامه، قال الفراهي رحمه الله: القرآن كلام الله لا يخالف بعضه بعضًا، فليؤول إلى ما لا يخالفه.

5. وأخيرًا ومن الموافقات العجيبة أنّ كلًا من مقدمة (جامع التفاسير) للراغب و(التكميل في أصول التأويل) للفراهي هي مقدمات لتفسيريهما (جامع التفاسير) للراغب، و(نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) للفراهي، قد طبّقا أصولهما على تفسيريهما، فكان التفسير المجال التطبيقي لما جاء في المقدمات من أصول التأويل.

## المقدمة

التأويل من الموضوعات المهمّة التي اختلف العلماء فيها ما بين مؤيد ومعارض، والمجالات التي يتناولها التأويل كثيرة ومتشعبة، وسأقتصر في بحثي هذا على أصول التأويل من خلال الموازنة بين إمامين كبيرين هما الراغب الأصفهاني (ت502هـ) وعبد الحميد الفراهي الهندي (ت1349هـ) الذي تناول هذا الموضوع من خلال كتابه (التكميل في أصول التأويل) والراغب الأصفهاني الذي تناول هذا الموضوع من خلال أحد فصول (مقدمته في التفسير)، وهو التفسير والتأويل .. الذي اعتمد عليه الكثير من العلماء الذين أتوا بعده، أمثال: نجم الدين الطوفي في (تفسيره)، والزركشي (في البرهان في علوم القرآن)، والسيوطي في (الإتقان في

علوم القرآن) وغيرهم.

وبالرغم من كثرة الكتابات في التأويل وبيان مجالاته، إلا أنني لم أجد مَنْ تناول هذه المقارنة بالبحث والدراسة، ولا سيما بين إمامين كبيرين كل منها رائد في زمانه، وإذا كان الإمام الراغب الأصفهاني قد أخذ حظّه من أهل عصره فاشتهر بين الناس، وتلقّتْه الأمة بالقبول، وأضحت كتبه ومؤلفاته مرجعًا أساسيًا في التفسير و(غريب القرآن) لا يستغني عنها طالب علم فضلًا عن غيره، إلا أنّ الإمام عبد الحميد الفراهي بقي مغمورًا في الأوساط العلمية والثقافية مدة طويلة، ولا سيما في العالم العربي، فلم تكن له هذه الشهرة على الرغم من تأصيله لكثير من قضايا التفسير وعلوم القرآن، فهو صاحب نظرية "نظام القرآن" وألّف كتابه في التفسير بناء على ذلك، وسمّاه (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) والنظام عند الفراهي رحمه الله أعم من المناسبة، فكان هذا البحث للتعريف به ولو من ناحية واحدة من نواحيه العلمية المتعددة وهي أصول التأويل من خلال كتابه (التكميل في أصول التأويل)".

واقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: التعريف بالراغب الأصفهاني وعبد الحميد الفراهي الهندي (باختصار).

المبحث الثاني: تعريف التأويل والفرق بينه وبين التفسير.

المبحث الثالث: أصول التأويل عند كل من الراغب الأصفهاني وعبد الحميد الفراهي.

المبحث الرابع: موازنة ومقارنة.

وأخيرًا: الخاتمة، وفيها خلاصة البحث وأهم النتائج.

والله المستعان

## المبحث الأول

### التعريف بالراغب الأصفهاني وعبد الحميد الفراهي الهندي

**أولًا: التعريف بالراغب الأصفهاني:**[1] هو الحسين بن محمد بن المفضل- أبو القاسم- الراغب الأصفهاني نسبة إلى أصفهان.

لم تشر المصادر إلى مكان ولادته ولا إلى زمانها وكل ما ورد أنه من أهل أصبهان وسكن بغداد، وقد أجمع العلماء على فضله وعلمه وحكمته، قيل عنه: إنه معتزلي، وقيل شيعي، وقيل أشعري، والراجح أنه سني لم يتمذهب بمذهب معين "نظرًا لسعة إدراكه وبعد نظراته، وقدرته على استيعاب وجوه الخلاف وتصحيحه للأقوال المتباينة باعتبارات متعددة.[2]

ترك الراغب الأصفهاني من بعده عددًا كبيرًا من الكتب والمؤلفات النافعة وهي تدلّ على سعة علمه وفضله وقد جمع فيها بين الشريعة والحكمة كما يقول البيهقي في تاريخ حكماء الإسلام،[3] ومن أشهرها:

1. المفردات في غريب القرآن، الذي أصبح يعرف بـ(مفردات الراغب)، طبع عدة طبعات.
2. الذريعة إلى مكارم الشريعة، قيل: إنّ الإمام الغزالي كان يستصحبه لنفاسته،[4]

---

[1] تنظر ترجمته في البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروز آبادي، ص 69، تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ظهير الدين، ص 112، بغية الوعاة للسيوطي، 297/2، روضات الجنات الخوانساري، ص 249، الأعلام للزركلي، 279/2، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، 59/4 وكنوز الأجداد لمحمد كرد علي، ص 268

[2] د. أحمد حسن فرحات في مقدمته على مقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهاني (ط. دار الدعوة الكويت: 1984م) ص 16.

[3] البيهقي، ظهير الدين تاريخ حكماء الإسلام عني بنشره وتحقيقه: محمد كرد علي (ط. مطبعة الترقي بدمشق: 1946م)، ص 112

[4] محمد كرد علي كنوز الأجداد (2) دار الفكر، دمشق: 1984م)، ص 256، وانظر بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 211/5

وطبع عدة طبعات، إحداها بتحقيق الدكتور أبو اليزيد العجمي وطبع بمصر، الطبعة الثانية، سنة 1987م.

3. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء وهو مختارات لغوية وتاريخية.[1]
4. تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، قال الزركلي: "وهو في الحكمة وعلم النفس".[2]
5. جامع التفاسير، توجد منه عدة نسخ، حقق الأخ الفاضل الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات مقدمته مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة، وطبع في دار الدعوة بالكويت عام 1984م[3] بعنوان "مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة ".

ومن أهم كتبه المخطوطة:

1. تحقيق البيان في اللغة والحكمة.

[1] ذكره بروكلمان تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: رمضان عبد التواب (35). دار المعارف، القاهرة: 1974م)، 210/5

[2] الزركلي، الأعلام ط دار العلم للملايين، بيروت: 1990م)، 255/2.

[3] نقل الدكتور فرحات عن السيوطي في بغية الوعاة قوله عن هذا التفسير: "هو تفسير معتبر ونحن لا نشكّ في ذلك، ولكن هذه العبارة لم أجدها في كتاب بغية الوعاة للسيوطي في أثناء ترجمة الراغب الأصفهاني، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (ط. المكتبة العصرية، بيروت: 1964م- (297/2) فلعل النسخة التي بين أيدينا ناقصة أو أنّ الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات قد وهم والله أعلم. ومن الجدير بالذكر أنّ الدكتور محمد إقبال فرحات وهو ابن الدكتور أحمد فرحات قام بتحقيق سورة البقرة وحصل به على درجة الدكتوراه من جامعة الزيتونة عام 1998م، كما قام الباحث الدكتور عادل علي الشدي بتحقيق سورة آل عمران إلى الآية 112 من سورة النساء، وحصل به على درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى. هذا وقد أكملت الباحثة هند محمد رجب زاهد تحقيق الجزء الباقي من سورة النساء إلى آخر سورة المائدة، وحصلت به على درجة الماجستير من جامعة أم القرى أيضًا. هذا وأشار الدكتور فرحات إلى أنّ الجزء الثاني للكتاب موجود في مكتبة ولي الدين جار الله رقم (233084) وفيه من أول سورة يوسف إلى آخر سورة الأحزاب. وأشار بروكلمان إلى وجود نسخة من تفسير الراغب في أيا صوفيا (212) ولم يحدد مضمونه، تاريخ الأدب العربي (210/5)

2. أفانين البلاغة.
3. رسالة منبّهة على فوائد القرآن.
4. تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد.
5. كتاب الحكمة (ذكره بروكلمان) ومنه نسخة خطية في برلين تحت رقم 5329.
6. كتاب الإيمان والكفر، قيل: ويظهر منه أنه كان أشعري الأصول.[1]

**ثانيًا: التعريف بالفراهي:**[2] هو العلامة عبد الحميد بن عبد الكريم، أبو أحمد حميد الدين الفراهي الهندي ولد رحمه الله في قرية فريها سنة 1280هـ نشأ على حبّ القرآن والعربية، وتتلمذ على يد ابن عمته علامة الهند الشيخ شبلي النعماني، ورحل في طلب العلم إلى لكنو ولاهور، وتعلم اللغة العربية وحفظ الشعر الجاهلي وتعلم لغات عصره من الفارسية والعبرية والانكليزية، قال عنه تلميذه السيد سليمان الندوي: "كان- رحمه الله- آية من آيات الله في حدة الذهن، وكثرة الفضل، وسعة العلم، ودماثة الخلق، وسداد الرأي، والزهد في الدنيا، والرغبة في طلب مرضاة الله".

[1] ومن الجدير بالذكر أيضًا أن نبين أنّ ما نسب للإمام الراغب الأصفهاني من كتاب "درة التنزيل وغرة التأويل" ليس له، ولا يعرف له مؤلف على وجه الدقة، وإنما رشح له أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصفهاني. انظر بحث الدكتورأحمد فرحات كتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) لا تصح نسبته إلى الراغب الأصفهاني، نشر في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية السنة السادسة، العدد: 10 ديسمبر، 1989م) وكان الدكتور فرحات- حفظه الله- قد ذكره في أثناء ترجمة الراغب الأصفهاني وأنه من كتبه المخطوطة، وذلك في مقدمته على مقدمة الراغب الأصفهاني السابقة الذكر، وإن كان قد شكّك في نسبته للراغب الأصفهاني عندما قال ويبدو أنّ هذا الكتاب هو نفس الكتاب المطبوع "درة التنزيل وغرة التأويل" والمنسوب إلى الخطيب الإسكافي.

[2] ترجم السيد سليمان الندوي العلّامة الفراهي بعد وفاته بشهرين، وألحقت هذه الترجمة في مقدمات كتبه مثل: إمعان في أقسام القرآن (طبع في دار القلم بدمشق: 1415هـ) والرأي الصحيح في من هو الذبيح (طبع في دار القلم بدمشق: 2001م) وقدم محقق كتاب "مفردات القرآن" للفراهي وهو د. محمد أجمل أيوب ترجمة وافية عن العلّامة الفراهي رحمه الله (طبع الكتاب في دار الغرب الإسلامي، بيروت: 2002م).

عمل معلمًا للغة العربية، ثم أستاذًا في جامعة (الله آباد)، وعمل على تأسيس الجامعة العثمانية) كما ساهم في تأسيس دار المصنفين التي أصبحت من أعظم المراكز العلمية فيما بعد، ومن الذين تتلمذوا على يديه واستفادوا منه: السيد سليمان الندوي، والشيخ أختر أحسن وأمين أحسن الإصلاحيان، ولهم الفضل في نشر كتبه من بعد وفاته.

توفي رحمه الله سنة 1930م في مدينة مثورا [Mathurā] في الهند، وخلف كتبًا كثيرة النفع معظمها بالعربية، وعندما سئل عن ذلك قال: أردت لكتبي الخلود"، منها:

1. إمعان في أقسام القرآن، طبع عدة طبعات آخرها في دار القلم بدمشق، سنة 1415هـ باعتناء محمد أجمل أيوب الإصلاحي.
2. الرأي الصحيح في من هو الذبيح، أيضًا طبع عدة طبعات في الهند، وأعادت دار القلم طبعه سنة 2001م.
3. رسائل الإمام الفراهي، وهي تشتمل على ثلاث رسائل في علوم القرآن وهي من مطبوعات الدائرة الحميدية بالهند:
   أ- دلائل النظام.
   ب- أساليب القرآن.
   ت- التكميل في أصول التأويل.
4. فاتحة نظام القرآن (مقدمة) تفسيره نشرتها الدائرة الحميدية بعد وفاة المؤلف سنة 1357هـ.
5. القائد إلى عيون العقائد، نشرته الدائرة الحميدية سنة 1395هـ.
6. مفردات القرآن، وهو من أهم كتبه أيضًا، طبع في الهند بالخط الفارسي، ثم أعادت دار الغرب الإسلامي طبعه عام 2002م في بيروت بعناية د. محمد

أجمل أيوب.

7. نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، وهو تفسيره الكبير الذي أصبح يعرف به، ركز فيه على التماس العلائق والروابط بين آيات القرآن الكريم.

وهناك كتب مخطوطة لا مجال لذكرها في هذه الترجمة المختصرة.

## المبحث الثاني

## تعريف التأويل والفرق بينه وبين التفسير

التأويل مصدر أول، والجذر الأول، تقول: أول يؤول تأويلًا، والتأويل الترجيع والصيرورة بالشيء إلى أصله.

لم تختلف كتب المعاجم اللغوية في تحديد معنى التأويل والتفسير، فقد اتفقت على أنّ معنى التأويل الرجوع، وتأويل الكلام. قال ابن فارس: "عاقبته، وما يؤول إليه".[1]

وفي القاموس: "أوّل الكلام تأويلًا، وتأوله: دبره وقدره وفسره".[2]

وفي لسان العرب: الأول الرجوع، آل الشيء يؤول أولًا ومآلًا: رجع، وأوّل إليه الشيء رجعه وآلت عن الشيء ارتددت... وأوّل الكلام وتأوله دبره وقدره وأوّله وتأوّله: فسره".[3]

وقال الراغب الأصفهاني: "التأويل: من الأول، أي الرجوع إلى الأصل ومنه الموئل للموضع الذي يرجع إليه، وذلك هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علمًا كان أو فعلًا".[4]

[1] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 158/1

[2] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، (ط. مصطفى البابي الحلبي، مصر: 1952م)، 341/3 (آل)، وانظر الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، (ط1، مصر: 1306هـ)، 214/7-215 (أول).

[3] ابن منظور، لسان العرب (ط. دار صادر، بيروت: 1970م)، 32/11 (اول).

[4] المفردات للراغب الأصفهاني، إعداد د. محمد أحمد خلف الله (نشر مصر: 1970م)، ص 38

فالذي يبدو من المعنى اللغوي للتأويل، أنه تصرف في المعاني تصرفًا عقليًا، يقوم على التدبير والتقدير، بما يسدّدها ويوجّهها إلى الغاية المرجوة والمرادة، وهذا ما أشار إليه الراغب الأصفهاني.[1]

والتفسير في اللغة: مصدر على وزن تفعيل والفعل "فسر" و"فسر" للرباعي، والجذر الثلاثي للكلمة هو الفسر، قال ابن فارس: "الفسر كلمة تدلّ على بيان الشيء وإيضاحه، تقول: فسرت الشيء وفسرته".[2]

قال الراغب في المفردات: "الفسر: إظهار المعنى المعقول، ومنه قيل لما ينبئ عنه البول: تفسرة، وسمي بها قارورة الماء، والتفسير في المبالغة كالفسر".[3]

وقال ابن منظور: "الفسر البيان، يقال: فسر الشيء وفسره، أي أبانه والفسر كشف المغطى.. والتفسير البيان، وهو كشف المراد عن اللفظ المشكل".[4]

مما تقدّم يتبيّن أنّ علماء اللغة أجمعوا على أنّ معنى التفسير الكشف والبيان، وإذا لاحظنا اشتقاقات الكلمة فإننا نراها تدور حول هذه المعاني وهي الكشف والبيان والظهور والسفر، سمي بذلك لأنّ فيه معنى الكشف والظهور فهو يكشف عن أخلاق الرجال، ويقال: سفرت المرأة عن وجهها إذا كشفته وأظهرته، وأسفر الصبح، إذا انكشف الظلام وظهر الضياء، قال الراغب: "الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما".[5]

[1] أ. د. فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر (ط1، دار قتيبة، دمشق: 1988م)، 1/285-284

[2] معجم مقاييس اللغة، 504/4.

[3] المفردات، ص 571.

[4] لسان العرب لابن منظور (فسر).

[5] مقدمة جامع التفاسير، للراغب الأصفهاني، ص 47.

## الفرق بين التفسير والتأويل

اهتم العلماء ببيان الفرق بين التفسير والتأويل اهتمامًا كبيرًا، وكثرت الآراء فيما بينهم، ولا أريد الإطالة في هذا الموضوع ولا سيما أنه قد ألّفت فيه الكتب والرسائل،[1] ولكن سأتكلم عن ذلك بما يقتضيه المقام وهو الإيجاز والاختصار.

وخلاصة الخلاف في هذا الموضوع، أنّ من العلماء مَنْ يرى أنّ التفسير هو التأويل، ولا فرق بينهما، ومن ذلك قول الإمام الطبري في تفسيره: "القول في تأويل قوله تعالى (....) يريد التفسير.

ومنهم من يرى أنّ هناك فرقًا بينهما، ثم اختلفوا فمنهم مَنْ يرى أنّ الاختلاف بالعموم والخصوص، فقال بعضهم: إنّ التفسير أعم من التأويل، وهذا قول الإمام الراغب الأصفهاني قال: "التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا.

والتأويل: يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها".[2]

وقال بعضهم: "إن التأويل أعم لجريانه في الكلام وغيره يقال: تأويل الكلام كذا، وتأويل الأمر كذا، أي ما يؤلان إليه، بخلاف التفسير فإنه يخص الكلام ومدلوله، يقال تفسير الكلام كذا، والقضية كذا.[3]

ومنهم مَنْ يرى أنّ الاختلاف بينهما بالتباين، فالتفسير- عندهم- هو القطع بأنّ مراد

[1] ألّف الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي كتابًا في التفسير والتأويل في القرآن الكريم (ط. دار النفائس، الأردن: 1996م وذكر الدكتور فهد الرومي أنّ الشيخ- حامد العمادي مفتي (دمشق) ألّف رسالة لطيفة في هذا الموضوع سمّاها "التفصيل في الفرق بين التفسير والتأويل" وأنه يقوم بتحقيقها، انظر كتابه "بحوث في أصول التفسير ومناهجه"، (ط. مؤسسة الرسالة، بيروت: د.ت.)، ص 8.

[2] مقدمة جامع التفاسير الراغب الأصفهاني، ص 47.

[3] الإكسير في علم التفسير الطوفي الصرصري، تحقيق: د. عبد القادر حسين (ط. مصر: 1977م)، ص 2.

الله كذا، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع، وهو قول الماتريدي.[1]

ومنهم من قال: التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية قال الخازن في تفسيره: الفرق بين التفسير والتأويل أنّ التفسير يتوقف على النقل المسموع، والتأويل يتوقف على الفهم الصحيح.[2]

ومنهم من قال: التفسير بيان معاني الألفاظ الظاهرة، والتأويل بيان باطن اللفظ، إلى غير ذلك من الأقوال الواردة في بيان الفروق بين التفسير والتأويل.

## تحرير محل النزاع

بعد النظر في هذه الأقوال المتعددة نرى أنّ العلماء إنما اختلفوا في تحديد كل من التفسير والتأويل، وذلك بالنظر إلى الآيات الواردة في كل منهما، وإذا رجعنا إلى استعمالات القرآن الكريم في كل منهما يمكننا أن نقف على حقيقة الأمر فنقرأ قول الله تعالى "هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ.." [آل عمران: 7].

والخلاف مشهور بين العلماء في هل تعلم الأمة تأويل المتشابه؟ وهل الوقف على لفظ الجلالة والواو استئنافية، أو الواو عاطفة والراسخون في العلم يعلمون المتشابه حال كونهم قائلين كل من عند ربنا، وما المراد بالتأويل؟ هل هو التفسير أو حقائق الأشياء... ولا مجال لعرض الآراء في هذه العجالة.

ب- والتأويل في القرآن الكريم قد يعني مجرد "الإحالة" مما لا يتعلق بالتفسير أو

[1] ذكره السيوطي في الإتقان، 1189/2

[2] لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (ط. دار المعرفة، بيروت: د.ت)، 10/1.

الإظهار لمعاني الألفاظ مثل قوله تعالى "فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا" [النساء: 59] أي ذلك الرد والإحالة خير لكم عند الله في معادكم، وأصلح لكم في دنياكم. قال الطبري "وأحسن تأويلًا: يعني وأحمد موئلًا، وأجمل عاقبة".[1]

ج- ونجد هذا المعنى- أيضًا- في قوله تعالى "وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا" [الإسراء: 35] أي أحسن مردودًا عليكم، وأولًا إليه، فالتأويل- هنا- لا يمتّ إلى التفسير بسبب كما ترى.

د- والتأويل ورد في القرآن الكريم بمعنى الوقائع المجهولة التي سوف تحدث مستقبلًا، مثل قوله تعالى "هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ" [الأعراف: 53] أي هل ينتظرون إلا الوقائع والحوادث التي سوف تقع لا محالة ويعاينونها لتكون شاهد صدق على ما وعدنا وأوعدنا.

ومن ذلك قوله تعالى: "بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ" [يونس: 39].

هـ- وورد لفظ التأويل في استعمال القرآن الكريم متعلقًا بالأفعال دون الأقوال والألفاظ والنصوص، نجد ذلك بينًا في قوله تعالى: "ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا" [الكهف: 82] وذلك أنّ موسى عليه السلام استنكر أعمالًا قام بها الرجل الصالح، من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار وكلها أمور مستقبلية- مجهولة- تفتقر إلى دقة الفهم وعمق الإدراك، وهو ضرب من تأويل الأفعال، وهذا ما عبّر عنه الراغب الأصفهاني في تعريفه للتأويل عندما قال: "رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علمًا كان أو فعلًا".

[1] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر (ط. دار المعارف، مصر: د.ت.)، 506/8.

القرآن الكريم اقتصر على استعمال لفظ التأويل فيما يتعلق بـ"الرؤى المنامية" بوجه خاص، ولم يستعمل بشأنها كلمة "التفسير" إطلاقًا مما ينبيء عن اختلاف مفهوم ومجال ووظيفة كل منهما.

و- نجد هذا واضحًا في قوله تعالى "نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ" [يوسف: 36] وقوله تعالى "هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا" [يوسف: 100]

قال الإمام الطبري: أخبرنا بما يؤول إليه ما أخبرناك أنا رأيناه في منامنا. ويرجع إليه".[1]

ومعلوم أنّ ما رآه الفتيان في منامهما، إنما كان "وقائع" أو رؤى منامية وشخوصًا تؤول بدلالتها إلى أمور هي وراء ما يتراءى للنائم من مواقف وحوادث وأعمال بالبداهة.

الخلاصة: من خلال ما تقدّم من استعمالات القرآن الكريم للتأويل نستطيع أن نحرّر محل النزاع بين العلماء في التفرقة بين التأويل والتفسير، فالملاحظ أنّ التأويل بجميع صوره التي أوردناها آنفًا يتخذ مجاله في الأمور التي يلابسها غموض وإبهام كالمتشابه أو الوقائع والحوادث المستقبلية المجهولة التي سوف تقع مستقبلًا لا محالة مطابقة لما أخبر به القرآن الكريم، مما يجعل منه أداة أو منهجًا ضروريًا لبيان ما يدق الفهم في إدراكه أو يصعب الوقوف على حقائقه وغاياته المرادة، ولا سيما إذا تعلق بالوقائع والأعمال، دون النصوص والأقوال.[2]

وهذا ما حدا بالعلماء المتخصصين في علوم القرآن، والمشتغلين في تحديد مفرداته كالراغب الأصفهاني إلى التمييز بين التفسير والتأويل فقال مؤصلًا: "التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا. والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها،

[1] الطبري، 198/19

[2] باختصار وتصرف من كتاب أستاذنا الدكتور فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ص 298-288

والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل يستعمل أكثره في الجمل".[1]

أقول: إنّ ما عرضه الراغب الأصفهاني- وهو الخبير بمعاني مفردات القرآن- ينبئ عن اختلاف مفهوم كل من التفسير والتأويل، واختلافهما بالتالي مجالًا ـــ ودورًا وعمومًا وخصوصًا، وإن كان هذا الاختلاف كما يقول فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد"- وهذا ما تميل إليه النفس- وذلك بالرجوع إلى الأصول الاشتقاقية لكل من الكلمتين وقد عرفنا فيما سبق أنّ التفسير فيه معنى الكشف والبيان والتفصيل، وأنّ التأويل فيه معنى الرجوع والرد والتصرف والسياسة، وبناء على ذلك نرى أنه لا تعارض بين الأقوال، وأنّ كلًا منها يعبّر عن نوع من الأنواع التي تنطوي تحت التفسير أو التأويل.[2]

## المبحث الثالث

## أصول التأويل بين الراغب الأصفهاني وعبد الحميد الفراهي الهندي

تمهيد: بعد أن عرضنا مفهوم التأويل وفرّقنا بينه وبين التفسير، وحرّرنا محل الخلاف بين العلماء، نبيّن في هذا المبحث أصول التأويل عند كل من الراغب الأصفهاني وعبد الحميد الفراهي وهذا المبحث هو بيت القصيد.

وقبل أن نشرع في بيان المقصود لابد من التعريف بمقدمة (جامع التفاسير) للراغب الأصفهاني الذي تحدّث في أحد الفصول فيها عن الفرق بين التفسير والتأويل واعتمدت عليه في هذه الموازنة، وكتاب (التكميل في أصول التأويل) للفراهي، فنقول وبالله التوفيق:

[1] الراغب الأصفهاني، مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات (ط. دار الدعوة، الكويت: 1984م)، ص 47.

[2] أ. د. أحمد حسن فرحات، في علوم القرآن، عرض ونقد وتحقيق، (ط. دار عمار، عمان: 2001م)، ص 214. وقد حقّق في المسألة فأفاد وأجاد جزاه الله خيرًا.

قدّم الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى لتفسيره (جامع التفاسير) مقدمة وجيزة، بيّن فيها منهجه في التفسير فقال: "القصد في هذا الإملاء- إنّ نفس الله في العمر ووقانا نوَب الدهر، وهو مرجو أن يسعفنا في الأمرين- أن نبين من تفسير القرآن وتأويله نكتًا بارعة تنطوي على تفصيل ما أشار إليه أعيان الصحابة والتابعين ومن دونهم من السلف المتقدمين رحمهم الله إشارة مجملة ونبين من ذلك ما ينكشف عنه السر ويثلج به الصدر.[1]

انتهت المقدمة، وهي كما ترى وجيزة جدًا، بيّن فيها الراغب الأصفهاني الغاية من كتابه وهي بيان النكت واللطائف في تفسير كتاب الله تعالى وتأويله حسب ما أشار إليه أعيان الصحابة والتابعين ومن دونهم من السلف المتقدمين ثم ذكر ثلاثة وعشرين فصلًا لابد منها في مبتدأ الكتاب وهي:

1. فصل في بيان ما وقع فيه الاشتباه من الكلام المفرد والمركب.
2. فصل في بيان أوصاف اللفظ المشترك.
3. فصل: الاشتراك في اللفظ يقع لأحد وجوه ثم ذكرها.
4. فصل في الآفات المانعة من فهم المخاطب مراد المخاطب.
5. فصل في عامة ما يوقع الاختلاف ويُكثر الشبه.
6. فصل في أقسام ما ينطوي عليه القرآن من أنواع الكلام.
7. فصل في كيفية بيان القرآن.
8. فصل في الفرق بين التفسير والتأويل وهو الفصل الذي اعتمدت عليه في هذا البحث.
9. فصل في الوجوه التي بها يعبر عن المعنى وبها يبين.
10. فصل في الحقيقة والمجاز.

[1] مقدمة جامع التفاسير، ص 27

11. فصل في العموم والخصوص من جهة المعنى.
12. فصل في تبيين الوجوه التي يجعل لأجلها الاسم فاعلًا في اللفظ.
13. فصل في بيان الألفاظ التي تجيء متنافية في الظاهر.
14. فصل في بيان انطواء كلام الله تعالى على الحكم كلها علميها وعمليها.
15. فصل في انطواء القرآن على البراهين والأدلة.
16. فصل في الأحكام التي عليها مدار الأديان.
17. فصل فيما يحتاج إليه في التفسير من الفرق بين النسخ والتخصيص.
18. فصل في أنه هل في القرآن ما لا تعلم الأمة تأويله.
19. فصل في بيان حكمة الله تعالى في جعله بعض الآيات متشابهًا.
20. فصل في شرف علم التفسير.
21. فصل في بيان الآلات التي يحتاج إليها المفسر.
22. فصل في جواز إرادة المعنيين المختلفين بعبارة واحدة.
23. فصل في إعجاز القرآن.

وهنا ختم الراغب الأصفهاني مقدمة الكتاب وشرع في التفسير، وهي مقدمات لا بد منها قبل الشروع في التفسير.

أما كتاب (التكميل في أصول التأويل) للفراهي فقد تحدّث عنه تلميذ الفراهي في مقدمة الكتاب الذي أشرف على طباعته بعد وفاة الفراهي فقال: "فإنّ هذا كتاب لأستاذنا الإمام الفراهي رحمه الله قد أفرده لذكر أصول راسخة التأويل القرآن إلى صحيح معناه، فموضوعه الكلمة والكلام من حيث دلالته على المعنى، وغايته فهم الكلام وتأويله إلى المعنى المراد المخصوص، بحيث أن ينجلي عنه الاحتمالات، وهذا من جهة العموم، فإنّ قواعد التأويل تجري في كل كلام، ونفعها عام يتعلق بفهم

معنى الكلام من أي لسان كان، ولكن النفع الأعظم منه فهم كتاب الله تعالى ومعرفة محاسنه للاعتصام به.

وكان الباعث عليه أنه لما رأى أنّ العلماء قد اختلفوا في فهم معنى القرآن اختلافاً كثيراً، وذهبوا في تأويله مذاهب شتى... لاح له أن لم يكن ذلك إلا لعدم تأسيس أصول التأويل العامة التي يعتمد عليها في كل ما يستنبط من القرآن لو كانت عندهم أصول عامة للتأويل لم يختلفوا فيه ولم يقولوا ما قالوا.

فأحسّ بشدة الحاجة إلى تأسيس هذا الفن، واجتهد فيه وبتوفيقه تعالى قد أسّسه على أصول راسخة بنيت على قواعد اللسان وأساليب القرآن، تهدي إلى سواء السبيل، وتعين على فهم المعنى المراد، وتعصم من الزيغ في التأويل وتحفظ عن التفسير بالرأي، وتكون كالمعيار والميزان لكل ما يؤخذ من القرآن.[1]

وهذا الكتاب شأنه شأن مقدمة الراغب الأصفهاني لتفسيره، فهو مستلّ من مقدمة تفسيره (نظام القرآن)) يقول الفراهي: فهذا كتاب من مقدمة نظام القرآن، أفردناه لتمهيد أصول راسخة لتأويل القرآن إلى صحيح معناه...[2]

وغاية هذا الكتاب كما يقول: "هي معرفة الأصول التي تعين على فهم القرآن الحكيم حسب أفهام البشر، وهذه الأصول تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما يعصم عن الزيغ في التأويل.

والثاني: ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله تعالى، والأمر الجامع لهذين هو التفكر في نظم القرآن، فالنظم هو الحبل المتين الذي يعصم من يعتصم به عن الزيغ ....[3]

[1] من مقدمة بدر الدين الإصلاحي لكتاب "التكميل في أصول التأويل" للفراهي، ص 207 ضمن (رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن)، وهي من مطبوعات الدائرة الحميدية في الهند.

[2] من مقدمة التكميل في أصول التأويل، ص 211

[3] المرجع السابق، 223

والفراهي رحمه الله تعالى لم يكمل الكتاب فقد توفي عنه وما زال قيد الإمعان وكان رحمه الله يترك فراغات كثيرة ليعيد النظر إليها ثانية، فهو لا يريد إتمام كتاب ما بقدر ما يرغب في إعطاء الفكرة حقها، حتى إذا استوت على ساقها، شمّر عن ساقه وبدأ يكتب ما عنى له في خاطره.

ولذلك فإنّ المطلع على كتب الفراهي يرى إفادات كثيرة كانت مبثوثة هنا وهناك جمعها تلاميذه من بعده، وعلى سبيل المثال يقول تلميذه في الحاشية "ومن إفاداته رحمه الله بعض الأصول للتأويل:

1. القرآن لكونه كلام الله لا يخالف بعضه بعضًا، فليؤول إلى ما لا يخالفه.
2. صرح القرآن برد المتشابه إلى المحكم، فما علم منه يقينًا يجعل أصلًا محكمًا.
3. نأخذ أصولنا وهذا أصل الأصول من العقل والقرآن.
4. لا نعتمد على دليل ضعيف في صرف القرآن عن ظاهره، ونجعل الظاهر حجة.
5. عند الاحتمالات نأخذ بأحسنها وأوفقها بالنظام والعمود.[1]

هذه هي خلاصة رأي الفراهي في أصول التأويل، جمعها تلميذه في هذه الإفادة على عجالة وفي إحدى الحواشي ويدور الكتاب على ذلك.

وبعد أن عرفت بكلا الكتابين أبيّن الآن أصول التأويل عند كل منهما بالتفصيل.

**أ- أصول التأويل عند الراغب الأصفهاني:** ذكر الراغب الأصفهاني في الفصل الذي عقده للفرق بين التفسير والتأويل في مقدمة تفسيره بعض أصول التأويل وذلك بعد أن قسم التأويل إلى قسمين فقال: "والتأويل نوعان: مستكره ومنقاد؛ فالمستكره ما يستبشع إذا سبر بالحجة، ويستقبح بالتدليسات المزخرفة وذلك على أربعة أضرب:

[1] المرجع السابق، ص 225 (حاشية).

الأول: أن يكون لفظ عام فيخصص في بعض ما يدخل تحته، نحو قوله تعالى: "وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ" [التحريم: 4] حمله بعض الناس على علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقط.

الثاني: أن يلفق بين اثنين نحو قول من زعم أنّ الحيوانات كلها مكلفة محتجًا بقوله تعالى: "وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ" [فاطر: 24] وقد قال الله تعالى "وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ" [الأنعام: 38] فدلّ بقوله: "إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ" أنهم مكلفون كما نحن مكلفون.

الثالث: ما استعير فيه بخبر مزور أو كالمزور، كقوله تعالى: "يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ" [القلم: 42] قال بعضهم عنى به الجارحة مستدلًا بحديث موضوع.[1]

[1] علّق محقق الكتاب ... د. أحمد حسن فرحات هنا قائلًا: "لعله يريد بالحديث الموضوع ما جاء في تفسير ابن كثير عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: "يوم يكشف عن ساق" يعني: عن نور عظيم يخرون له سجدًا وذكر تعليق الحافظ ابن كثير وأنّ في سنده رجلًا مبهمًا، أقول: يبدو في تعليق الدكتور فرحات بعض التعارض، فكيف يستدل بالحديث الضعيف على الحديث الموضوع، وشتان بينهما، ثم يبدو هنا والله أعلم وقوع السهو من الإمام الراغب الأصفهاني في قوله: "قال بعضهم عني به الجارحة مستدلًا بحديث موضوع، والحديث الوارد في الجارحة صحيح أخرجه الإمام البخاري ومسلم.

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: "وقد أخرج البخاري وغيره عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: "يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا" قال: وهذا الحديث ثابت من طرق في الصحيحين وغيرهما وله الفاظ في بعضها طول، وهو حديث مشهور معروف" أقول أخرجه الإمام أحمد في المسند: 163/17، والبخاري في التفسير رقم (4919) ومسلم في الإيمان رقم (302) والدارمي، 326/2. وأما الحديث الضعيف فهو ما أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات وضعفه، وابن عساكر عن أبي موسى عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الآية قال: "عن نور عظيم فيخرون له سجدًا " قال ابن كثير 91/7 "فيه رجل مبهم" فهنا نقول: إذا كان المراد من الآية التأويل وهو النور فالحديث ضعيف، وإذا كان المراد من الآية الحقيقة فقال: الحديث موضوع، فكيف يستدل بالآية على مراده؟

قال الشوكاني ... وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ((يوم يكشف عن ساق قال: إذا خفي عليكم

والرابع ما يستعان به باستعارات واشتقاقات بعيدة، كما قاله بعض الناس في البقر إنه إنسان يبقر عن أسرار العلوم، وفي الهدهد: إنه إنسان موصوف بجودة البحث والتنقير.[1]

فالأول: أكثر ما يروج على المتفقهة الذين لم يقووا في معرفة الخاص والعام.

والثاني: على المتكلم الذي لم يقو في معرفة شرائط النظم.

والثالث: على صاحب الحديث الذي لم يتهذب في شرائط قبول الأخبار.

والرابع: على الأديب الذي لم يتهذب بشرائط الاستعارات والاشتقاقات.

ثم يعرض الإمام الراغب الأصفهاني للتأويل المقبول فيقول:

"والمنقاد من التأويل ما لا يعرض فيه البشاعة المتقدمة، وقد يقع الخلاف فيه بين الراسخين في العلم لإحدى جهات ثلاث:

إما لاشتراك في اللفظ نحو قوله تعالى "لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ" [الأنعام: 103] هل هو من بصر العين أو من بصر القلب؟

أو لأمر راجع إلى النظم، نحو قوله: "وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ" [النور:

---

شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر:

وقامت الحرب بنا على ساق

قال ابن عباس هذا يوم كرب شديد. قال الشوكاني "وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عرفت، وذلك لا يستلزم تجسيمًا ولا تشبيهًا، فليس كمثله شيء"، فتح القدير للشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة (ط. دار الوفاء، المنصورة، مصر: 1997م)، 5/368-369

[1] وهذا ما ذهب إليه الدكتور المهندس شحرور عندما قال عن قول الله تعالى (أو نسائهن): "ماذا تعني هنا كلمة "نسائهن"؟ لقد قال بعضهم: إنها تعني النساء المؤمنات أي أنّ المرأة لا يحق لها أن تبدي زينتها المخفية إلا أمام النساء المؤمنات وهذا غير صحيح. وهذا لا يمكن إلا إذا فهمنا النساء على أنها جمع نسيء، لا جمع امرأة". الكتاب والقرآن قراءة معاصرة (609]. ولو كان الدكتور شحرور عالمًا بشروط النظم القرآني لما قال هذا الكلام كما قال الراغب الأصفهاني: "وهذا ما يروج على الأديب الذي لم يتهذب بشرائط الاستعارات والاشتقاقات" فكيف إذا كان المتكلم غير أديب؟!

5-4] هل هذا الاستثناء مقصور على المعطوف، أو مردود إليه وإلى المعطوف عليه معًا؟

وإما لغموض المعنى ووجازة اللفظ، نحو قوله تعالى: "وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" [البقرة: 227].

والوجوه التي يعتبر بها تحقيق أمثالها أن ينظر:

- فإن كان ما ورد فيه ذلك أمراً أو نهيًا عقليًا، فزع في كشفه إلى الأدلة العقلية، فقد حثّ الله تعالى على ذلك في قوله: "كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ" [ص: 29].
- وإن كان أمرًا شرعيًا فزع في كشفه إلى آية محكمة أو سنة مبينة.
- وإن كان من الأخبار الاعتقادية فزع فيه إلى الحجج العقلية.
- وإن كان من الأخبار الاعتبارية فزع فيه إلى الأخبار الصحيحة المشروحة في القصص".[1]

والمراد بالأمر العقلي هو ما يقتضي العقل حسنه، ولا يتغير بمرور الأيام، ولا ينسخ في شيء من الأزمان والنهي العقلي ما يقتضي العقل قبحه.

والخبر الاعتقادي هو الذي يكون معربًا عما يلزم اعتقاده، مثل قوله تعالى: "وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ" [النساء: 136]

والخبر الاعتباري هو الذي يكون منبئًا عما يقتضيه الاعتبار به مثل أخبار الأنبياء والأمم والقرون الماضية، والإخبار عن خلق السموات والأرض.

والأمر الشرعي: هو الذي تقصر عقولنا عن معرفة حسنه ويتسلط عليه النسخ والتبديل، بحسب ما يتعلق به من المنافع.

[1] مقدمة جامع التفاسير، ص 49-51

وأما النهي الشرعي: فهو الذي تقصر عقولنا عن معرفة قبحه.

وفائدتهما حثّ المخاطب على اكتساب محمود واجتناب مذموم.

والغرض الأقصى من الخطاب الخبري إيصال المخاطب إلى الفرق بين الحق والباطل، ليعتقد الحق دون الباطل.

ومن الأمر والنهي أن يفرّق بين الجميل والقبيح، ليتحرّى الجميل، ويجتنب القبيح.[1]

وإذا رجعنا إلى تفسير الراغب الأصفهاني جامع التفاسير فإننا نراه قد راعى هذه الأصول في أثناء تفسيره لكتاب الله سبحانه وتعالى، فمثلًا عندما ذكر الأصل الأول، وهو إذا كان ما ورد فيه أمرًا أو نهيًا عقليًا، فزع في كشفه إلى الأدلة العقلية، طبق ذلك على قوله تعالى "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ" [البقرة: 168] قال الراغب الأصفهاني: "الحلال": من حللت العقدة، وهو الذي حلّ عقدة الخطر، وحلّ بالمكان أي حلّ عقد أحماله كقولهم حطّ رحله، وألقى أدواته.

وحلّ الدين، أي حلّ عقد المطالبة، وحلّ من إحرامه، أي: حلّ ما عقده على نفسه بالإحرام، وتحلة اليمين بإزاء عقدة اليمين، والإحليل: لمخرج اللبن والبول لانحلال عقدته.

و"الطيب": ما تستطيبه الشهوة المستقيمة والعقول الصحيحة ... إلخ

والخبيث على العكس من ذلك والحلال أعم من الطيب، والحرام أعم من الخبيث، فقد يكون حرامًا ما لا يكون خبيثًا في نفسه بالعقل كتحريم ما يقسم بالأزلام، واستعمال الفضة والذهب، ولبس الحرير على الذكور، فجمع بين الحلال والطيب في الآية ليفيد ما استطابه الطبع وأباحه الشرع.

[1] باختصار وتصرف من المصدر السابق، ص 43-44.

ولما ذكر إباحة الطيب، وكان كثيرًا من ما يزين الشيطان لبعض الناس ما ليس بالطبع الصحيح طيباً كعادة المخنث أتبعه بقوله: "وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ" كقوله: "وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ" [ص: 26]

ونبّه بقوله: "إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ" أنّ عداوته لا تخفى على ذي بصيرة، وهذا المعنى الذي أراده الشاعر- وإن نقل اللفظ إلى الدنيا- حيث قال:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت  له عن عدو في ثياب صديق

وقال آخر:

عمري لقد نصح الزمان وإنه  لمن العجائب ناصح لا يشفق

نلاحظ كيف فزع الراغب الأصفهاني في تفسيره لهذه الآية إلى الأدلة العقلية، عندما قال: "إنّ عداوة الشيطان لا تخفى على ذي بصيرة، فإنّ الإنسان العاقل المتدبر لآيات القرآن الكريم ينبغي أن يتخذ من الشيطان عدوًا له.

ثم يتناول الآية التي تليها وهي قوله تعالى: "إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ".

يشرح معنى السوء والفحشاء ويفرّق بينهما فيقول: "كل ما يقال له سوء يقال له: فحشاء، لكن بنظرين مختلفين فإنه سمي سوءًا لاغتمام العاقل به والفحشاء بأن يستفحشه.

ونبّه تعالى بأنّ الشيطان داعٍ إلى أثافي الشر السوء والفحشاء والتقول على الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم يطرح أسئلة على الآية فيقول: "إن قيل: إذا كان التقول على الله عَزَّوَجَلَّ بما لا يعلم من عمل الشيطان، فكيف يصحّ الحكم بغالب الظن في كثير من الأحكام، فإنّ عامة فروع الفقه مبنية على غلبة الظن؟"

ويجيب: "قيل: أما أولًا: فإنّ ذلك ليس تقولًا على الله تعالى، وإنما ذلك تقوّل على

أحكامه، وقد فرّق المتكلمون بين الحكمة العلمية وبين الحكمة العملية.

وقالوا: كل ما كان من الحكمة العلمية، وهي التي لا عمل لها، كالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، فإنه لا يجوز أن يحكم فيه إلا بالعلم المصون عن الشوائب.

وما كان من الحكمة العملية فأصولها كذلك، وأما فروعها فيجوز الحكم فيها بغلبة الظن لتفسيح صاحب الشرع لنا في ذلك، فصار حكمنا فيه من هذا الوجه حكمًا بالعلم، لأنه إذا قال لنا: إذا غلب في ظنك أنّ القبلة في هذا الجانب فصل إليه، وإذا شهد عندك شاهدان مزكيان فاحكم بشهادتهما، صرنا عالمين بأنّ هذا الحكم واجب علينا في الظاهر، وهذه مسألة قد أحكمت في أصول الفقه.[1]

فالملاحظ كيف راعى الراغب أصول التأويل كما ذكر ذلك في مقدمة التفسير، وكيف قسم الحكمة إلى قسمين علمية وعملية، وبيّن ما يجوز الخوض فيه وما لا يجوز، وكيف أحال على علم أصول الفقه الذي يعتمد على العقل اعتمادًا كبيرًا وذلك باستنباط الأحكام من الأدلة، وهذا يتطلب النظر والتفكر والتدبر في فهم الآيات، وهذا ما عناه الإمام الراغب الأصفهاني في نهاية الفقرة عندما قال: "فقد حثّ تعالى على ذلك في قوله: "كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ".

وهذا يكون عندما يتطلب الأمر ذلك.

والأمر الثاني الذي ذكره الراغب في أصول التأويل هو: "إن كان أمرًا شرعيًا فزع في كشفه إلى آية محكمة أو سنة مبينة".

والناظر في تفسير سورة البقرة- وهو التفسير الذي استطعت الاطلاع عليه كون

[1] من تفسير الراغب الأصفهاني لسورة البقرة الذي قام بتحقيقها الزميل الدكتور محمد إقبال أحمد فرحات وهي أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الزيتونة بتونس عام 1998م، بعنوان "الراغب الأصفهاني ومنهجه في التفسير مع تحقيق تفسيره سورة البقرة غير مطبوعة، ص 394-392 (باختصار يسير).

التفسير غير مطبوع- يلاحظ كثرة استشهاد الراغب الأصفهاني بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة عند تفسيره لما يريد تفسيره من القرآن الكريم، وهذا بشكل عام، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ" [البقرة: 153]

كعادته لا يكرّر، فقد أحال على ما سبق شرحه فقال: "قد تقدم الكلام في الصبر والصلاة وأنواعهما، فحثّ الله تعالى على الصبر، إذ هو ذريعة إلى فعل كل خير، وأول كل فضل، فإنّ أول التوبة الصبر على المعاصي، وأول الزهد الصبر عن مباحات الدنيا، وأول الإرادة الصبر عن طلب ما سوى الله، ولهذا قال عليه السلام: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد،[1] وقال: "الصبر خير كله".[2]

والصلاة هي المقتضية للخشوع والداعية إلى ترك الفحشاء كما قال تعالى "إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ" [العنكبوت: 45].

ولما أمر بالذكر والشكر حثّ على الاستعانة بالصبر والصلاة، تنبيهًا أنه بهما يتوصل إليه، فإنّ الصبر مبدأ الإيمان والشكر منتهاه، ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الصبر نصف الإيمان.[3]

وبقوله: "إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ" تضمن صحبته إياهم، تنبيهًا على قرب فيضه وتوفيقه كما قال: "وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ" [الطور: 48] تنبيهًا أنه يراعيهم بالعناية.

[1] وتمة الحديث "فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان" مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الإيمان والرؤيا، باب الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، رقم (29844).

[2] في البيهقي "ولم تعطوا عطاء خيرًا وأوسع من الصبر" كتاب الآداب، باب في فضل الصبر وانتظار الفرج، والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، رقم 757.

[3] قال البيهقي: "وروينا عن عبد الله ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا، والموقوف أصح البيهقي في الآداب، باب فضل الصبر وانتظار الفرج والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهو تخريج الحديث السابق، وأخرجه أيضًا الشهاب القضاعي في مسنده رقم (151) والطبراني في المعجم الكبير من كلام عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رقم (8467).

ثم نراه يطرح سؤالًا في غاية الدقة- كعادته في كل تفسيره- فيقول:

"إن قيل: لما قال: "إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ" ولم يقل: مع المصلّين، وقال في أخرى: "وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ" [البقرة: 45] فاعتبر الصلاة دون الصبر؟

ولكون التفسير ما زال مخطوطًا أو في حكم المخطوط، وإكمالًا للفائدة فسأنقل جواب الراغب رحمه الله على هذا التساؤل فقال: "قيل: لما كان فعل الصلاة أشرف وأعلى من الصبر، إذ قد ينفك الصبر من الصلاة، ولا تنفك الصلاة من الصبر، ذكرها هنا الصابرين.

فمعلوم أنه تعالى إذا كان مع الصابر فهو لا محالة مع المصلي أكثر، وإنها لكبيرة، فذكر الصلاة دون الصبر تنبيهًا أنها أشرف منزلة من الصبر، فقد يترك توفية حق الصلاة من تصبر في كثير من الأحوال".[1]

يلاحظ كيف أنّ الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى قد طبّق ما أشار إليه في مقدمة تفسيره هنا وبشكل واضح فقد ذكر عدة آيات وأحاديث للكشف عن معنى الآية، وهذا الذي أشار إليه سابقًا عندما قال: "وإن كان أمرًا شرعيًا فزع في كشفه إلى آية محكمة أو سنة مبينة.[2]

والمتتبع له في تفسيره يجده قد سار على هذا النهج في كل الكتاب.[3]

وأما الأصل الثالث الذي التزمه في تفسيره، والذي أشار إليه في المقدمة هو: "وإن كان من الأخبار الاعتقادية فزع فيه إلى الحجج العقلية".[4]

---

[1] الراغب الأصفهاني ومنهجه في التفسير، مع تحقيق تفسير سورة الفاتحة، للدكتور محمد إقبال أحمد فرحات أطروحة دكتوراه غير مطبوعة، ص 376-377.

[22] مقدمة جامع التفاسير، ص 51.

[3] تنظر الصفحات التالية على سبيل المثال: 153-152، 181-180، 227، 233، 322، 424، 330، 555 إلخ.

[4] مقدمة الجامع، ص 51.

ونأخذ على سبيل المثال تفسيره لقول الله تعالى: "قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ" [البقرة: 139]، وكعادته بدأ بشرح الكلمات الغريبة معتمدًا على الوجوه والنظائر للكلمة القرآنية ذاكرًا ما لها من معانٍ في استعمال القرآن الكريم، فقال: "المحاجة المقاومة في إظهار الحجة المبينة للحجة، أي المقصد، وقد ألزمهم بهذه الآية الحجة المذكورة في قوله: "وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ" [الفتح: 26]، ولما كانت الشرائع مبنية بالقول المجمل على ثلاثة أشياء: الإقرار بالباري عَزَّوَجَلَّ، والعمل له والإخلاص في ذلك، قال: قل لهم: إنا قد تشاركنا في الإقرار بالله عَزَّوَجَلَّ، وفي العمل له، ونحن قد حصل لنا الإخلاص من دونكم.

فإن قيل: ومن أين أنّ الإخلاص حصل للمسلمين دونهم؟ وهل هذا إلا مجرد الدعوى؟!

قيل: قد أحالهم على التأمل، وذلك ظاهر بالاستقراء والتدبر، فإنّ الأصول الاعتقادية هي ما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: "وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ" [النساء: 136] وإذا تؤمل حاله بالله عَزَّوَجَلَّ فقد أخلص المسلمون فيما يدعيه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث وما ادعوه على جبريل أنه عدو لهم، وما ادعاه اليهود على إبراهيم حيث زعموا أنه لم يكن نبيًا، وإنما كان رجلًا صالحًا، وما نسبوا إلى لوط من الفجور ببنتيه في حال سكره، وادعاء النصارى في بنوة عيسى وإنكارهم بعض ما في التوراة والإنجيل، وما ذكروه من البعث حيث قالوا: "وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً" [البقرة: 80] وادّعت النصارى أنه لا بعث، وإنما ينال الثواب والعقاب الأرواح، فإذًا قول المسلمين "وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ" ظاهر.

إذًا يلاحظ كيف استعان الراغب الأصفهاني بالحجج العقلية لإقامة الحجة عليهم، وهذا من أصول التأويل عنده، ولو أردنا المزيد من ذلك لأكملت الحديث عن قول الله تعالى "أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ

نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ" [البقرة: 140] ولكن أذكر ذلك باختصار.

يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله: قوله: (أم تقولون) معطوف على قوله (أتحاجّوننا) أي أتحاجوننا أم تدعون أنّ الأنبياء كانوا على دينكم، تنبيهًا أنه من المحال أن يكون المتقدم مقتديًا بالمتأخر ومستنًا بسنته... ثم يقول: "واحتج عليهم بمقدمتين فقال: "وَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ" أي قد ثبت أنّ الله أعلم منكم، وثبت أنه ليس بغافل عما تعملون، وقد كتمتم الشهادة عنه، ومن كتم من الله شهادة عنده مع كون الله بهذا الوصف، فهو أظلم الخلائق، فهذا تبكيت لهم في كتمانهم أحوال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وسائر الأنبياء، واحتجاج عليهم بما لا انفصال لهم عنه:[1]

والأمر الأخير الذي ذكره الراغب الأصفهاني في مقدمته حول أصول التأويل هو: "إن كان من الأخبار الاعتبارية فزع فيه إلى الأخبار الصحيحة المشروحة في القصص.[2]

وهذا أصل ظاهر والأمثلة عليه واضحة في تفسيره، ولنأخذ على سبيل المثال قوله تعالى "وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣" [البقرة: 72-73] لم يخض الراغب الأصفهاني في الإسرائيليات، أو الروايات الضعيفة أو ما لا أصل له، بل رجع إلى الأخبار الصحيحة الواردة في هذه القصص، فهنا- مثلًا- لم يعتمد أي شيء قيل في البعض الذي ضرب به القتيل مع أنه نقل ما ورد عن وهب بن منبه وهو مشهور في النقل عن الكتب القديمة والإسرائيليات فقال: "وأما بأيّ عضو ضرب؟ فقد قال مجاهد بفخذها، وقال السدي: بمضغة من لحمها، وقال الفراء بذنبها،

[1] تفسير الراغب الأصفهاني تحقيق د. محمد إقبال فرحات، ص ٣٥٨. وانظر على سبيل المثال قوله تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ".. ص 170

[2] مقدمة جامع التفاسير، ص 51.

وقال وهب بأصغريها قلبها ولسانها ثم علّق على ذلك بقوله: وظاهر الآية لا يقتضي تخصيص عضو من أعضائها.

وقوله: "كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ" قيل: هو حكاية عن قول موسى وقيل: بل هو زيادة خطاب من الله تعالى لهذه الأمة تنبيهًا على الاعتبار بإحيائه الموتى.[1]

ومثل ذلك قال عن إزلال إبليس- لعنه الله- لآدم عليه السلام في تفسيره لقوله تعالى: "فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ" قَالَ زل وزال يتقارب معناهما، إلا أن زل يقتضي عثرة مع الزوال، يقال: زلت رجله في المشي ولسانه بالقول، وسمي الأسد أزل اعتبارًا من الفاعل لاستقلاله حتى بعد عثره.

وقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ "من أزلت إليه نعمة فليشكرها"[2] أي من أسدي إليه نعمة وإن كانت طفيفة.

وإزلال إبليس لآدم قوله: "هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ" [طه: 120] وقوله: "مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ" [الأعراف: 20] ومقاسمته إياهما بقوله: "إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ" [الأعراف: 21].

فمن الناس من حمل هذه الأحوال على مفاوضة ومجازاة بالمشاهدة.

وقيل: إنّ ذلك كان بوسوسة كما قال: "فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا " [الأعراف: 20].

وما روي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن إبليس عرض نفسه على نواب الأرض أن تحمله فتدخله الجنة ليكلم آدم وزوجته، فأبت عليه الدواب كلها، حتى كلم الحية،

[1] تفسير الراغب الأصفهاني، ص 278

[2] مسند الشهاب القضاعي، عن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا رقم (360) ، وشكر الله على نعمه للخرائطي باب ما يجب على الناس من الشكر للمنعم عليه، رقم 92

وقال: أمنعك من ابن آدم، وأنت في نمتي إن أنت أدخلتني الجنة فجعلته بين نابين من أنيابها فأدخلته الجنة، وكلمهما من فيها، قال فلذلك أمر الإنسان بقتلها أينما وجدها.

وبعض الناس حمل ذلك على سبيل المثل، وقال: هذه إشارة.

وقوله عرض نفسه على دواب الأرض، أي استعان بقوى الإنسان، ونظر من أي جهة يمكنه أن يأتيه، فلم يجد قوة مستصلحة يستعين بها، حتى أتي الحية، أي الشهوة فكني بالحية عنها، فإنها حية لا يبرئ سليمها، وذاك أن الشيطان لا يأتي الإنسان إلا من قبل هواه، فجعلته بين نابيها: كناية عن الأكل إذ هو أعظم شهوة يتمكن الشيطان به من الإنسان، ولهذا روي: "من حفظ بطنه فقد سد على الشيطان بابه، ومن شبع ونام قسا قلبه، وتمكن منه الشيطان،[1] ولكون الهوى أعظم سلاح الشيطان، صار لا فرق بين قوله تعالى "وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ" [ص: 26] وقوله "أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ" في أنّ المقصد واحد في كونهما نهيًا عن ارتكاب الذنوب.

وقوله: فلذلك أمر الله أن يقتلها الإنسان حيث وجدها" أي أمر أن يقهر الإنسان الشهوة ويقتلها حيث ما تراءت له، وطالبته بما ينافي الإيمان.

فبعد أن اتبع الراغب الأصفهاني منهجه في التفسير بشكل عام وهو تفسير الألفاظ وبيان الوجوه والنظائر فيها ثم الاستعانة بالقرآن لتوضيح المعنى المراد وكذلك بالأحاديث النبوية الشريفة، ذكر هنا ما أشار إليه في مقدمته من عدم اعتماد الأحاديث الضعيفة والروايات الواهية فقال معقّبًا على ما نكر:

"وهذا الذي ذكره القائل، وإن كان صحيحًا من حيث المعنى، ففي صرف الخبر إليه ترك للظاهر، وفتح باب من التأويلات عظيم الضرر، والله أعلم بحقائق ما أخبرناه من الغيب".[2]

[1] في ابن ماجة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شبع ونام قسا قلبه" "لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع" قال في مغني الأسفار، 84/3 إسناده ضعيف.

[2] من تفسير الراغب الأصفهاني لسورة البقرة بتحقيق د. محمد إقبال فرحات، ص 214

بعد كل الذي عرضناه من نماذج وأمثلة وغيرها كثير- لم أشأ أن أذكر أكثر من ذلك خشية الإطالة - فإننا نرى أنّ الإمام الراغب الأصفهاني قد طبّق ما أشار إليه في مقدمة تفسيره من أصول التأويل، والتزم منهجه فيه بشكل واضح.

إنّ ما ذكره الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى- قبل أكثر من تسعمئة عام وضع النقاط على الحروف لكل مَنْ أراد الخوض في تأويل القرآن الكريم، ومع ذلك فقد رأينا في العصر الراهن بعض مَنْ تصدّوا لتفسير كتاب الله وتأويله ولم يكونوا من أهل الاختصاص في هذا العلم،[1] فخرجوا علينا بطامات ما أنزل الله بها من سلطان، فقالوا عن الجيب هو الشق. والله تعالى يقول "وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ" [النور: 31] ولذلك قالوا: يجب على المرأة أن تستر صدرها وتكشف رأسها، لأنّ الرأس لا يحتوي على شق وبالتالي فليس بجيب؛ ولذلك لا يجب ستره.

ومن أغرب ما ذكر في تفسير النساء في قوله تعالى "أَوْ نِسَآئِهِنَّ" [النور: 31] قال: ماذا تعني كلمة "نسائهن" لقد قال بعضهم إنها تعني النساء المؤمنات، أي أنّ المرأة لا يحق لها أن تبدي زينتها المخفية إلا أمام النساء المؤمنات، وهذا غير صحيح، لأنه لو عنى ذلك لقال: "أو المؤمنات من النساء" ولكنه قال: "أو نسائهن ونون النسوة هنا للتابعية[2] لا للجنس.." ثم يقول: "فنسائهن هنا يجب أن تكون من الذكور وليس من

[1] من هؤلاء د. المهندس محمد شحرور، في كتابه الكتاب والقرآن، قراءة معاصرة (ط. 5، الأهالي، دمشق: 1993م، ص 608. يقول "والجيب هو فتحة لها طبقتان أو طبقتان مع خرق، وهي ما بين الثديين، وتحت الثديين، وتحت الإبطين، والفرج والإليتين، هذه كلها جيوب، فهذه الجيوب يجب على المرأة المؤمنة أن تغطيها لذا قال: "وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ" والخمار جاء من "خمر" وهو الغطاء.

[2] على الرغم من شذوذ هذا القول وخروجه عن قواعد اللغة العربية ومعانيها، فإنه يقصد هنا أنّ نون النسوة ليس المراد بها نون النسوة المعروفة في كتب اللغة العربية، بل هي من يتبع النساء من الذكور الذين لم يرد ذكرهم في الآية، أمثال ابن ابن الأخت وابن ابن الأخ وابن ابن الزوج إلخ، والله تعالى أعلم. يقول د. شحرور موضحًا رأيه "فابن الابن يأتي متأخرًا عن الابن" أو نسائهن" أي ما تأخر عن هؤلاء المذكورين من الذكور، وهم أبناؤهم وأبناء أبنائهم، وبنفس الوقت هؤلاء المتأخرون لهم

الإناث، ونون النسوة للتابعية فقط، كان نقول : "كتبهن بيوتهن".

وهذا لا يمكن إلا إذا فهمنا النساء على أنها جمع نسيء لا جمع امرأة، أي المستجد" المتأخر[1] ويقصد هنا غير المذكور في الآية من الذكور.

ثم ينصحنا فضيلة الدكتور شحرور أن نتحرر من أقوال فقهائنا، فقد آن الأوان لذلك يقول: "إننا نقول هذا، لأنه آن الأوان لكي نتسلح بالفكر النقدي ونعيد النظر بأقوال فقهائنا كلهم حول المرأة".[2]

إنّ مثل هذا الطرح العجيب من غير المختصين في التفسير وعلوم القرآن والذين تجرؤوا على الخوض في كتاب الله تعالى بغير علم، وغيّروا وبدّلوا في المصطلحات العربية والشرعية مما يوافق هواهم، فهذا كله من التفسير المرفوض وغير المقبول، والذي سيسألون عنه يوم القيامة، ومن هنا نفهم توقف كثير من الصحابة رضوان الله عليهم، عن الخوض في تفسير كتاب الله تعالى، وهم الأعلم من كل عالم، حتى لا يتعرضوا للسؤال عن ذلك يوم القيامة فكيف يتجرؤ هؤلاء وأضرابهم على مثل ذلك، وهم الذين قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عنهم كل من قال في القرآن برأيه وإن أصاب فقد أخطأ.[3]

ومثل ذلك ما حصل على بعض الفضائيات عندما حاول ذلك المتفيقه أن يبرهن للناس على أنّ الإسلام دين السماحة والوداعة والرفق واللطف وأنه لا يوجد فيه ضرب، وعندما سأله المقدم عن قوله تعالى "وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ" [النساء: 34] قال يعني أن تخرج من البيت

علاقة القرابة مع المرأة، لذا وضع نون النسوة للتابعية قال: "أو نسائهن" يضاف إلى هؤلاء السبعة أولادهم وأحفادهم والذين دمجوا جميعًا بكلمة "أو نسائهن"، المرجع السابق، ص 610.

[1] الكتاب والقرآن، ص 608

[2] المرجع السابق، ص 608.

[3] بالرغم من أنّ هذا الحديث ضعيف إلا أن معناه صحيح، ويعضده قول رسول الله في الحديث الحسن: "ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار". انظر تعليق أستاذنا الدكتور نور الدين عتر على الحديثين في كتابه "علوم القرآن الكريم"، ص 85-86 ومن هؤلاء الذين لا علم لهم بأصول التأويل ويؤولون القرآن على غير تأويله أيضًا: محمد أركون، ونصر حامد أبو زيد، وعبد المجيد الشرفي وغيرهم.

وتذهب بعيدًا عن غضب الزوج عملًا بقوله تعالى "يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ" [المزمل: 20].

وهذا ما أصّله الفراهي رحمه الله تعالى عندما ذكر من أصول التأويل: "إذا احتمل كلمة أكثر من معنى واحد، سألنا هل هذه الكلمة أجدر بهذا المعنى من غيرها؟ فإن وجدنا كلمة أخرى أجدر وأقوم وتركها القرآن، علمنا أن القرآن لا يترك أبين الكلام وأقومه، فتركنا ذلك المعنى وأولناها إلى ما هي أصوب له، مثل قوله تعالى "وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ" [البقرة: 184] في معنى المستطيع كما ذهب إليه صاحب حجة الله البالغة، فإن الإطاقة يستعمل في القوى الجسمانية كما قالت الخنساء:

وصبرًا إن أطقت ولم تطيقي

وكما جاء في القرآن: "قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ" [البقرة: 249] ثم يقول: "وبهذا الأصل احتج الشافعي رحمه الله خلاف تأويل ابن عيينة لحديث: "من لم يتغنّ بالقرآن"[1] فإنه كان يقول يستغني به، فسئل الشافعي رحمه الله عن هذا فقال: "نحن أعلم بهذا لو أراد به الاستغناء لقال: "من لم يستغن بالقرآن" ولكن لما قال: "من لم يتغنّ بالقرآن" علمنا أنه أراد به التغني".[2]

إنّ هذا الذي نسمعه الآن هو الذي حذر منه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قبل أكثر من 1400 عامًا عندما قال: "أكثر ما أتخوف على أمتي من بعدي رجل يتأول القرآن، يضعه على غير مواضعه، ورجل يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره".[3]

وهذا النوع من التأويل يدخل لا محالة تحت القول بالرأي المذموم قال الشاطبي:[4]

[1] البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب من لم يتغن بالقرآن، وفي التوحيد أيضًا باب: قوله تعالى: "وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ" رقم (7219).

[2] التكميل في أصول التأويل، ص 240

[3] رواه الطبراني في المعجم الأوسط، تحقيق طارق عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني (ط. دار الحرمين، القاهرة: 1995م)، 242/2-243، رقم (1865)

[4] الشاطبي، الموافقات في أصول الأحكام، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (ط1، مصر: 1969م)، 286/3.

"الرأي ضربان: أحدهما: جارٍ على موافقة كلام العرب وموافقة الكتاب والسنة، فهذا لا يمكن إهمال مثله لعالم...

أما الرأي غير الجاري على موافقة العربية أو الجاري على غير الأدلة الشرعية فهذا هو الرأي المذموم من غير إشكال.

وفي هذا القسم جاء من التشديد في القول بالرأي في القرآن ما جاء، كما روي عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ستجدون أقوامًا يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع.[1]

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه، ولا من فاسق بين فسقه، ولكني أخاف عليها رجلًا قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله.[2]

ولو أنا فتحنا هذا الباب من التأويل، لخرجت اللغة عن مقاصدها ولبطلت الثقة بها، قال الشيخ الدكتور القرضاوي: "لا تأويل إلا بدليل".[3]

**ب- أصول التأويل عند الفراهي:** ألّف العلّامة الفراهي كتابه (التكميل في أصول التأويل) لغاية واحدة، هي: معرفة الأصول التي تعين على فهم القرآن الكريم حسب

[1] ابن بطة في كتابه الإبانة الكبرى باب ما أمر به من التمسك بالسنة والجماعة والأخذ بها حديث رقم (192)، ابن بطة العكبري، الإبانة عن شريعة الفرق الناجية .... تحقيق رضا بن نعسان معطي (ط1، دار الراية، الرياض: 1988م. ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، باب في من تأول القرآن أو تدبره وهو جاهل بالسنة، انظر ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق عبد الرحمن حسن محمود (ط. دار الكتب الحديثة، مصر: 1975م)، 499/1

[2] ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، باب في من تأول القرآن أو تدبره وهو جاهل بالسنة، انظر ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، 500/1

[3] المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة ضوابط ومحاذير في الفهم والتفسير، د. يوسف القرضاوي، (نشر مكتبة وهبة، مصر: 1992م)، ص 296.

أفهام البشر. وهذه الأصول برأيه تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما يعصم من الزيغ في التأويل.

والثاني: ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله تعالى.

يقول: "والأمر الجامع لهذين هو التفكر في نظم القرآن".[1]

قال تلميذه[2] بدر الدين الإصلاحي في مقدمته على الكتاب: "وكان الباعث عليه أنه لما رأى أنّ العلماء قد اختلفوا في فهم معنى القرآن اختلافًا كثيرًا. وذهبوا في تأويله مذاهب شتى، حتى جعلوه كتابًا مشتبهًا ملتبسًا، لاح له أنه لم يكن ذلك إلا لعدم تأسيس أصول التأويل العامة التي يعتمد عليها في كل ما يستنبط من القرآن، ولو كانت عندهم أصول عامة للتأويل لم يختلفوا فيه، ولم يقولوا ما قالوا".[3]

وقد ذكرت قبل قليل بعضًا من هذه التأويلات للقرآن الكريم التي لم تستند إلى دليل أو حس لغوي، نخرج النص بذلك عن مراده.

ذكر الفراهي- رحمه الله تعالى- ثلاثة أصول للتأويل، من شأنها أن تعصم من الزيغ في كتاب الله تعالى فقال: "الأصول ثلاثة: (1) أصول أولية، (2) أصول مرجحة و(3) أصول كاذبة، اعتمدوا عليها وليست بشيء، وإنما تذكر للاجتناب.

فالأصول الأولية ما يتمسك بها حيث لا احتمال لمعانٍ شتى.

والأصول المرجحة يتمسك بها إذا احتمل الكلام معاني مختلفة، يقول الفراهي- رحمه

[1] التكميل في أصول التأويل للفراهي ضمن (رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن) جمع: بدر الدين الإصلاحي، (ط2، الدائرة الحميدية، الهند: 1411هـ)، ص 223.

[2] لم يكن الشيخ بدر الدين من تلاميذ الإمام الفراهي، وإنما وهم الكاتب من قوله "أستاذنا". (مدير تحرير المجلة).

[3] مقدمة الكتاب، ص 207.

الله- فإذا أعملنا الأصول المرجحة أخذنا ما هو الراجح وتركنا المرجوح.[1]

ثم شرع الفراهي- رحمه الله- بشرح هذه الأصول العامة فقال: "فمن الأصول الأولية:

الأصل الأول: التمسك بنظم الكلام وسياقه: وهذا ليس من المرجحات، فإنّ الكلام لا يحتمل معنى يخالف نظمه ورباط معانيه، فإن خلل النظم منفي عن كلام العقلاء، فما أبعده عن كلام الله المعجز وهذا أصل ظاهر.

ولكن أهل الزيغ سعوا في هدمه ووضعوا الأحاديث ففتنوا بها ضعفاء العقول من صالحي المؤمنين- عفا الله عنهم- فإنّ الأعمال بالنيات.

ومن أمثلة ذلك تأويل آية التطهير،[2] فإنها لم تنزل ولا تتعلق إلا بأمهات المؤمنين، ولا دخل فيها لغيرهن، والكلام لا يحتمل تعميمها.

الأصل الثاني: المعنى الشاذ لا يلتفت إليه: قال الفراهي: وإنما لم نجعله من المرجحات،

---

[1] التكميل في أصول التأويل، ص 262.

[2] يقصد المؤلف رحمه الله بآية التطهير قول الله عَزَّوَجَلَّ: "إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا" [الأحزاب: 33] وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية، فقال ابن عباس وعكرمة وعطاء ومقاتل وسعيد بن جبير إنّ أهل البيت المذكورين في الآية من زوجات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خاصة قالوا: والمراد بالبيت بيت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومساكن زوجاته لقوله "وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ"، وأيضًا السياق في الزوجات. من قوله "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ- إلى قوله- "وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا" [الأحزاب: 34].
وقال أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة، وروي ذلك عن الكلبي: إنّ أهل البيت المذكورين في الآية هم: علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة، ومن حججهم الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للإناث، وهو قوله "عنكم وليطهركم" ولو كان للنساء خاصة لقال "عنكن ويطهركن". ورجح هذا الرأي القرطبي، انظر تفسيره (ط. دار الكتب العلمية، بيروت: 1988م)، 119/14 وما بعدها.
وقد عرض المسألة بالتفصيل، وبين فيها الآراء في المراد بأهل البيت وما تمسك به كل فريق أستاذنا الدكتور مصطفى الخن في كتابه "التفسير العام" (ط. جامعة دمشق: 1999م)، ص 236-240. فلتنظر هناك.

فإنّ اللفظ الحسن المصون ربما يستعمل عوض الظاهر العامي، ولكن اللفظ إذا استعمل لا بد أن يدلّ على مفهومه المعلوم الثابت، فإن أريد به مفهوم ينكره الناس، ويدعيه مدّعٍ ولا سبيل إلى إثباته، فهذا تعمية، والقرآن أنزله الله عربيًا مبينًا، فلأيّ شيء يترك الإفصاح؟

وأما المطالب العالية، فليست من هذا الباب، فإنّ الكلام فيها واضح في مفهومه، والمطالب العالية إنما هي منطوية تحت المفهوم غير مضاد ولا مناقض للمفهوم.

ومن أمثلة ذلك تأويل قوله تعالى: "إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ " [التحريم: 4] فسعى المبطلون في تحويل معنى الصغو إلى الزيغ ووضعوا لتأويلهم الباطل قراءة باطلة لم تثبت فضلًا أن تكون متواترة.[1]

الأصل الثالث: فهم الكلام بعضه من بعض بالمقابلة، وحمل النظير على النظير: وذلك هو التأويل بالقرآن. قال الفراهي: "القرآن كثيرًا ما يترك مجملًا ما فصّله في مقام آخر، والمعنى يفهم من غير أن نحتاج إلى تفصيله من نفس الكلام، وضرب على ذلك مثلًا أواخر سورة الأنفال، فقد جاء قوله تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ" [الأنفال: 72] وبعيد ذلك جاء: "وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ" فلم يذكر بأموالهم وأنفسهم وهو مفهوم، ثم جاء بعيد ذلك "وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ" [الأنفال: 75] فلم يذكر في سبيل الله، ولا بأموالهم وأنفسهم، ولكن ذلك مفهوم، وقد دلّ عليه "معكم".

[1] وهذا ما ذكره القرطبي أيضًا في تفسيره، عندما قال: "فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ"، أي زاغت ومالت عن الحق" وذكر بعد هذا القول "مالت قلوبكما"، بأنّ سرهما أن يحتبس عن أم ولده، فسرهما ما كره رسول الله . وقيل: فقد مالت قلوبكما إلى التوبة. (انظر الجامع لأحكام القرآن، 188/18)
وقال الرازي: "أي عدلت ومالت إلى الحق، وهو حق الرسول، وذلك حق عظيم يوجب فيه استحقاق العتاب بأدنى تقصير". التفسير الكبير للرازي (ط. دار الفكر، بيروت: 1981م)، 44/30

وهذا باب وسيع يهدي إلى كثير من المعاني، مثلًا جاء في أوائل سورة البقرة: "إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧" [البقرة: 6-7] ففهمنا من الذين كفروا من كفر بالله وصفاته من العدل، وذلك كفر بالجزاء، وفهمنا من "لا يؤمنون" أنهم لا يصيرون مؤمنين ومهتدين بهذا الكتاب، وذلك مما سبق من قوله تعالى: "ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ" [البقرة: 2-3] يؤمنون قبل يوم الشهود فالذين كفروا هم ضد هؤلاء، وقد ذكر عيون صفات المؤمنين في ما سبق حتى قال: "أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ" [البقرة: 5] ثم ذكر الذين هم مخالفون لهؤلاء.

ثم قال: "وإنما دعانا إلى هذا التأويل أنّ المبتدأ والخبر لا بد من الفرق بينهما، ثم وجدنا في السياق ما يكشف عن المفهوم، ثم التمسنا نظائر هذه الآية فوجدناها موافقة لما فهمنا، وذلك أوائل سورة يس".[1]

ومن المعروف عن الفراهي رحمه الله: أنه صاحب فكرة نظام القرآن وأنّ تفسيره (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) إنما ألّفه لهذا الغرض، ولذلك نجده يقرن بين النظام والتأويل يقول في مقدمة كتابه (التكميل في أصول التأويل): "التأويل لا يمكن فصله عن النظام، فإنهما مخلوطان، وإنما أردت أولًا بيان النظام فاضطرني إلى التأويل، ثم وجدت فيه خيرًا كثيرًا، فإنّ به يكشف عن معنى القرآن ويبطل الأضاليل، فساقني الجدول إلى عباب البحر".[2]

ثم يؤكد هذه الفكرة بقوله: "طريق الفهم للمعنى المراد:

1. تأويل القرآن بالقرآن.

[1] أصول التأويل للفراهي، ص 262-264.

[2] المرجع السابق، ص 209 ضمن مجموعة (رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن).

2. رعاية نظم الكلام.

ويشرح ذلك بقوله: "قالت العلماء قديمًا: إنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا، وهو المراد بالتفسير بالنظائر، وهذا ظاهر جدًا، فإنّ القرآن يذكر الأمور بعبارات مختلفة مرة إجمالًا وأخرى تفصيلًا، فما ترك في موضع ذكره في موضع آخر، وقد صرح القرآن بهذه الصفة التي فيه في غير موضع، فهذا أصل راسخ.[1]

والأصل المرعي في ذلك كما يقول الفراهي هو الدلالة على أمور مختلفة فالمعنى الواحد يخرج في عبارات شتى، فمنها قوله تعالى: "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ" [غافر: 55] فهذا واضح في تعيين بعض الأوقات وقال في موضع آخر: "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾" [ق: 39-40] وقال في موضع آخر: "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾" [الطور: 48-49] وقال في موضع آخر: "فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾" [الروم: 17-18] وقال في موضع آخر: "فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ" [طه: 130] وقال في موضع آخر: "وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ" [هود: 114] وقال في موضع آخر: "أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾" [الإسراء: 78-79]

ومنها ما هو غامض قوله تعالى: "ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ" [الملك: 2] في الموت زاجر وواعظ، وفي الحياة جالب إلى

[1] انظر الأمثلة على ذلك مما سبق من هذا البحث.

اللذات، والابتلاء لا يكون إلا بهما، فلولا الشهوات لم يغفلوا ولم يزلوا، ولولا الموت لم ينتبهوا ولم يستعدوا لما بعد الموت، وقد هديت إلى هذا المعنى ثم لمح لي نظيره وهو قوله تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨" [الكهف: 8-7] ففي الأول ذكر الجانب الذهني، وفي الثاني ذكر الجانب الخارجي، فتأمل.[1]

والشيء الذي يريد قوله هو أنه لا بد من بيان دلالة المعنى على الآيات فإنّ طرق الدلالة على المعاني غير محصورة، فربما تدل آية على معنى يكون دليلًا على معنى في آية أخرى، وربما يدل اقتران آيتين أو جملتين على معنى خفي بعض الخفاء، فإن بينا طرق هذه الدلالات تيسر استعمال هذا الأصل".[2]

والأمر الثاني الذي يركز عليه الفراهي في أصول التأويل هو رعاية نظم الكلام. ففي الكلام يكون الاشتراك في الألفاظ، والحذف، والمقدر، والتعريض والاشتراك في الأساليب المختلفة من جهة تعدد دلالاتها، مثلًا في الأمر والاستفهام والعطف دلالات مختلفة، فبعد العلم بجميع دلالات الكلمات وأساليب البيان يمعن النظر لفهم ما هو المراد.

ولتعيين المعنى المقصود من المعاني المحتملة في الاشتراك أصول خاصة، وكذلك لتعيين المحذوف والمقدر والمعرض به أصول وأرسخ هذه الأصول وأجمعها النظم.[3]

ومن الأصول الراسخة عند الفراهي رحمه الله، النظائر تفسّر بعضها بعضًا، وهو جماع فهم القرآن كما يقول، وذكر بعضًا من طرق التدبر فيها فقال:

أ- أظهر المجمل والمقدر أولًا، بالنظر في نظم الكلام وحسن التأويل، فذلك يدلّك

[1] المرجع السابق، ص 242.
[2] المرجع السابق، ص 242
[3] المرجع السابق، ص 243

على المطابقة بين النظيرين، ويصير دليلًا آخر على تعيين المجمل والمقدر فإن ما هو مجمل أو مقدر في موضع يأتي مبينًا ومظهرًا في موضع آخر كما هو أسلوب القرآن.

ب- فإذا اطلعت على التطابق بين الكلامين، انظر السابق واللاحق أي نظم الكلام فإنّ لكل كلام نظمًا مناسبًا، وليس من اللازم أن يكون النظم للنظيرين واحدًا، ولكن ربما يكون بين النظمين تشابه من بعض الوجوه.

ولحمل النظير على النظير أصول، فإن احتملت الكلمة أو الجملة تأويلين- والنظائر كذلك محتملة- فلا يؤيد ذلك تأويلًا خاصًا إلا إذا كان أحد التأويلين راجحًا، فإذا كثرت أمثلة التأويل الراجح كان في كثرة النظائر دليل وإلا تساوى التأويلان، مثال ذلك كلمة "القرآن" إلى المجموع أو إلى المتلو، فالتأويل إلى المجموع لا يصح، وإن جمعت النظائر وجدت معنى المتلو صحيحًا في كلها، وأرجح في بعضها، وغير مشارك فيه في أخرى.[1]

ثم يذكر الأصل الرابع من الأصول الأولية:

لابد من النظر في المخاطب: من هنا يتبين وجه الكلام ولهجته من التسلية والرأفة، والزجر، والغضب والوعد، والاستدلال، والوسعة إلخ...

وينتقل إلى الكلام عن الأصول المرجحة:

الأصل الأول: عند اختلاف الوجوه والاعتبار يؤخذ ما كان أوفق بالمقام وعمود الكلام: فما من كلمة إلا لها أطراف وجهات، فهي كالمعاني لها، وكذلك كل أمر وقصة لها اعتبارات شتى، وكما أنّ اللفظ المشترك يؤول حسب محله، فكذلك لا بد أن نؤول الألفاظ والأمور حسب محلها.

[1] التكميل في أصول التأويل، ص 265.

مثلًا: صفة الأحدية الكاملة مختصة بالله تعالى، ومع ذلك نرى ذكره تعالى بأسماء مختلفة وعلى ترتيب متغير، مثل: "رب الناس، ملك الناس، إله الناس" ومثل: "رب العالمين الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين" ومثل "الملك القدوس العزيز الحكيم" ومثل: "العزيز الغفور" ومثل: "ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ" [الحشر: 23] فمن لا يتدبر القرآن لا يلتفت إلى محل الكلمات ولا يجتهد لفهم جهة الكلمة، ولكن البصير المستبصر لا يمكنه ترك التدبر لما يظهر له بعض الجهات الظاهرة فتجلبه إلى ما وراءها.

فإن صح لديك هذا الأصل يسهل لك التدبر في ترتيب أسماء الرسل والأنبياء، فمع أنّ درجاتهم مختلفة، ترى ذكر أسمائهم على أنواع من الترتيب، فإن تدبرت في محلها وقفت على إشارات غامضة، ولم يلتبس عليك موقعها وكذلك ترى الإشارات الخاصة في ترتيب القصص والأحكام.

فالحاصل أنّ الإشارات والاعتبارات للشيء تلتمس من المحل مثل ما يفعلون بالمشترك، فكان الأصل الأول: أنّ النظم يقضي عند الاحتمالات، ونتيجة هذا الأصل أن لا يلزم أن تقصر اللفظ على معنى واحد إذا كان غير مشترك كما يقول بعض أهل الرأي، فإنّ للفظ مجازًا وحقيقة وعمومًا وخصوصًا، وجهات لمعناه مختلفة، ويستعمل في كل ذلك حسب مقتضى المقام.[1]

الأصل الثاني: إذا كان الكلام ذا احتمالات، يؤخذ[2] منها ما كان لها نظير في باقي القرآن فما لم يوافقه قرآن غير ما فيه النزاع يترك: مثلًا قوله تعالى: "أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ" [الأنفال: 24] قال الفراهي: "فيه تأويلان: الأول: أنه تعالى أعلم بضمائركم منكم. والثاني: أنه يعوق المرء عن إرادته.

[1] أصول التأويل، ص 268-266

[2] في الأصل "تؤخذ" والأصح ما أثبت.

فالأول: له نظير في القرآن، ثم يعضده النظم، فإنّ النظم أيضًا يؤول إلى ما كان أشبه بالقرآن فقوله تعالى (تحشرون) يأتي مع التقوى، والتقوى تأتي مع علم الله، وهذا كثير، فكأنه قيل: اتقوا الله فإنه أعلم بسرائركم وأنكم تحشرون إليه، فهذا من جهة تشابه المعنى والنظم.

وأما التأويل الثاني فبناؤه على تشابه لفظي، فإنه جاء في القرآن "وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ" [سبإ: 54] أي منعوا عن مشتهاهم، وهذا أيضًا أصل لكنه أضعف مما ذكرنا، فإنّ اللفظ المشترك يأتي لمعانٍ مختلفة، ولا يقضى فيه إلا بالسياق وصحة المعنى.[1]

مثلًا كلمة أمة في قوله تعالى: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً" [النحل: 120] لا تؤول إلى معنى أريد به في مواضع أخر، فإنه لا يلتئم بالسياق ولا صحة المعنى، والمعنى المراد ههنا لا نظير له من جهة اللفظ، فإنّ الأمة في باقي القرآن: إما لمدة من الزمان[2] أو لطائفة من الناس[3] أو للطريق،[4] ولكن إذا تمسكنا بالأصل الأول والثاني اتضح معناه.

أما الأصل الأول: فإنّ كلمة (قانتًا) بعدها تفسيرها، فإنّ الأمة هو الطائع بتمامه، وهو أوفق بالقانت.

وأما الأصل الثاني: فلوجوه نظائره لما جاء في صفاته من الطاعة الكاملة ولكن بقي علينا بيان أنّ الأمة هو الطائع، فإنّ الجمهور من أهل اللغة قد خفي عليهم هذا

[1] المرجع السابق، ص 269

[2] ومنه قوله تعالى "وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ" [هود: 8]

[3] ومنه قوله تعالى "وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ" [القصص: 23].

[4] والمراد بالطريق الدين ومن ذلك قوله تعالى "كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ" [البقرة: 213]

المعنى، ولكنهم قد قاربوه. وقد أحال للتوسع في تقرير هذا المعنى على كتابه (مفردات القرآن)[1]

وهناك أصول أخرى غير ما ذكر من الأصول المرجحة مثل:

أ- إذا كان المعنى مقتضياً لعبارة غير ما في الكلام، فذلك المعنى مرجوح: مثال ذلك ما استدلت به السيدة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، والإمام الشافعي رحمه الله في بيان معنى التغني بالقرآن، وقد سبق الحديث عن ذلك وأنه ليس من باب الاستغناء.[2]

ب- الأخذ بأثبت الوجوه لغة: مثال ذلك: معنى الشوى في قول الله تعالى: "نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ" [المعارج: 16] فإنه لحم الساق عمومًا في كلام العرب، قال الفراهي: "وقد أخطأ العلّامة عبد القادر الدهلوي في ترجمة قوله تعالى "نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ" فظن أنه الكبد والموقع ذكر دنوّ العذاب، لا دخول المنكرين في النار واستدل على ذلك بالسياق؛ لأنّ الآيات إنما جاءت في بيان الموقف يوم أزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين، فحينئذ تدعو الجحيم الكفار، وتخرج لظاها فتذهب بلحم سوقهم.

وأما أنها تخرج أكبادهم فليس هذا مما جاء في شيء من القرآن حتى إنهم حين يدخلونها لا تخرج أكبادهم ولا قلوبهم.

ويقول- أيضًا- معلقًا على من قال: إنها بمعنى جلد الرأس- كما قال ذلك بعض المفسّرين- فإن مجيء الشوى للحم الساق عام شائع، ولجلد الرأس جاءت الشواة في قليل من الكلام مع احتمال معنى آخر، ثم لم يذكر في القرآن ولا في الحديث مجيء النار في الموقف من فوق حتى إذا دنا وأطلّ عليهم نزع جلدة رؤوسهم، فلو تساوى

[1] التكميل، ص 269 وكتاب مفردات القرآن للفراهي مطبوع في دار الغرب الإسلامي بيروت 2002م، بتحقيق د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي ولم أجد هذه الكلمة فيه؟

[2] سبق توضيح ذلك في البحث.

المعنيان للشوى، لكان الأخذ بما هو أوفق بالنظم وباقي القرآن أحرى، فكيف والمعنى غير معروف وغير معتمد عليه؟

ولذلك نراه يقرّر أنه بمثل الأخذ بأحسن الوجوه، يكون الأخذ بأثبتها في اللغة، فإنّ المعنى الذي كثر في كلام العرب لا ينبغي تركه إلا لصارف قوي".[1]

ت- الشاذ المنكر لفظاً يترك: بناء على ما أصله الإمام الفراهي سابقًا- وهو الأخذ بأثبت الوجوه.

فإنّ هذا الأصل مبني على السابق، فإنّ اختيار أحسن الوجوه لا بد أن يكون موافقًا للغة وباقي القرآن، ولا يكون من التكلف، وضرب الفراهي على ذلك مثالًا وهو قول الله تعالى "لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ" [آل عمران: 164] قيل فيه: إنّ (أنفسهم) بفتح الفاء، وهذا تأويل باطل، لكونه معنى شاذًا، لأنّ كتب الله ناطقة بكون الرسول من قومه، وهو أمر ظاهر، ولا عيب في كون النبي من قومه وهو منهم.[2] ثم ليس ذلك من كلام العرب هم يقولون هو من خيارهم وعليائهم وغير ذلك، ولا يقولون: "من أنفسهم" بفتح الفاء، ثم المنة تكون أكبر إذا بعثه منهم ثم في دعاء إبراهيم عليه السلام هو أن يبعثه الله منهم.

وأخيرًا ذكر الأصل الرابع وهو الكاذب هل يؤول الحديث إلى القرآن أم يعكس الأمر. وقال عن هذا الأصل سابقًا وإنما يذكر للاجتناب.

وخلاصة القول فيه كما يقول الفراهي رحمه الله أن تعلم الهدى من القرآن وتبني عليه دينك، ثم بعد ذلك تنظر في الأحاديث، فإن وجدت ما كان شاردًا عن القرآن حسب بادي النظر، أولته إلى كلام الله، فإن تطابقا فقرّت عينك، وإن أعياك،

[1] التكميل في أصول التأويل، ص 272، وانظر ما بعدها فقد لخصت الكلام.
[2] المرجع السابق، ص 274-273

فتوقف في أمر الحديث واعمل بالقرآن.[1]

فالقرآن- كما هو معلوم- الأصل الأول ومقدم على الحديث.

هذه هي أصول التأويل عند الفراهي رحمه الله تعالى، وهل طبق ذلك في تفسيره (نظام القرآن...)؟

إنّ مجرد النظر في الكتاب يستطيع القارئ أن يحكم على ذلك، وأنّ تفسيره كان المجال العملي لأصوله النظرية، يتبين ذلك- كما قلت سابقًا- من خلال العنوان، ومن المعروف "أنّ المكتوب يفهم من عنوانه" وإذا استأنسنا بمقدمة الناشر للكتاب وهي الدائرة الحميدية فإنا نراها تؤكد على هذا الجانب في المقدمة إذ تقول: "وكان للإمام الفراهي منهج فريد في التفسير، اشتهر به في شبه القارة الهندية، وقد أفاض القول في بيان أصوله في مقدمة تفسيره (فاتحة نظام القرآن)....

ومن ثم رأينا أن نشير هنا إشارة خاطفة إلى بعض أصول هذا المنهج من خلال مقتطفات من كلام الإمام نفسه، وأهمها أصلان يدل عليها عنوان التفسير نفسه الأول نظام القرآن، والآخر تأويل الفرقان بالفرقان.

أما تأويل الفرقان بالفرقان فهو أصل معروف مجمع عليه، ولا يحتاج إلى بيان، غير أنّ منهج الفراهي يتميز بالتمسك الشديد بهذا الأصل والاستفادة منه على أنحاء غفل عنها كثير من المفسرين.

أما النظام "فالمقصود به ما يسميه الكتاب المعاصرون بالوحدة الموضوعية، ويختلف النظام- برأيه عن التناسب- فالتناسب جزء من النظام.[2]

[1] المرجع السابق، ص 276-275

[2] من مقدمة الناشر لتفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للفراهي (ط. الدائرة الحميدية، الهند: 2000م) ص 5-4.

والفراهي رحمه الله تعالى شرع في تفسير سورة البقرة ولم يكملها، فقد وافته المنية قبل إكمالها، والمطبوع من كتابه من أول سورة البقرة إلى (47-62) منها، وذكر في المقدمة عشرة فصول هي:

1. حقيقة السورة ونسبتها بالفاتحة وسورة آل عمران.
2. موضوع السورة وغايتها.
3. مطابقة الوقائع بهذه الغاية.
4. جماع هذه الغاية استخلاص الكعبة.
5. مطابقة ذلك بما وقع لبني إسرائيل.
6. نقطة هذه الغاية هي الوحدة القائمة في الله.
7. المطابقة بين أحوال النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهذه الغاية.
8. مطابقة السورة بزمان نزولها.
9. مطابقة السورة بأحوال المخاطبين.
10. النظر الإجمالي في أجزاء السورة ونظام هذه الأجزاء.

ثم يقول: "اعلم أنّ هذه السورة جملة واحدة متصلة منظمة بعضها ببعض على غاية حسن النظام كما سيتضح لك من تفسيرها، ولكنها مع ذلك مرتبة على ستة أجزاء مقدمة، وأربعة أبواب وخاتمة".

أما المقدمة، فهي جملة الكلام في إثبات القرآن والنبوة وما يتعلق بها، وذلك حقيقة الإيمان، فالإيمان عبارة عن الإيمان بهذا الكتاب الذي يتضمن الإيمان بسائر الكتب والنبوات، وبما أمر الله به ونهى عنه، وبأصول العقائد وصحاحها.

وأما الأبواب فجاءت بالترتيب حسبما جاء نعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوة إبراهيم عند بناء الكعبة، كما قال الله تعالى حكاية عن ذلك الدعاء "رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا

مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾" [البقرة: 129].

وقال في إنجاز دعائه: "كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ" [البقرة: 151].

وقال في موضع آخر: "لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ" [آل عمران: 164].

وفي موضع آخر "هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ" [الجمعة: 2].

ففي دعاء إبراهيم عليه السلام أخّر التزكية؛ لكونها غاية، وفي إنجاز ذلك قدّمها لنعلم أنّ هذا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جعلها أول أمره وأتمها، وإنما تتم بعد العلم والعمل، وفي ذلك إشارة إلى أنّ هذا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو آخر الأنبياء، فإنه يفعل ما هو كمال سعادة النفس، ثم تقديم التزكية في الإنجاز تشير إلى أنّ هذا النبي هو النبي الذي دعا له إبراهيم عليه السلام، فإنه جعل غاية ما في دعائه أول أمره وأصل قصده، فبدأ به، ثم جعل يعلمهم الكتاب والحكمة ليتم التزكية...

وكما أنّ التزكية لها بداية ونهاية واتصال بتلاوة الآيات، فكذلك الحكمة لها بداية ونهاية تبتدأ ببداءة التزكية وتتم بتمامها.

1. فتلاوة الآيات تمهيد لما يتبع من التزكية والتعليم.
2. وتعليم أصول الدين خطوة أولى للتزكية.
3. وتعليم الأحكام هو الخطوة الثانية لها.
4. وتعليم الحكمة هو الخطوة الثالثة لها، وبه تمام التزكية التي تحصل بالعلم والعمل في هذه الحياة.

فبحسب مناسبة هذه الأمور الأربعة جعل ترتيب الأبواب الأربعة.

فالباب الأول: في تلاوة الآيات البينة والدلائل الواضحة على إثبات هذه الرسالة الموعود بها في الكتب السابقة حسب وصفه الأول، وهو قوله تعالى "رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ" [الجمعة: 2].

والباب الثاني: في بداية التزكية، وهي الذكر والشكر، والصبر والتوكل والتوحيد والتفكر، والإيمان والأمانة، والبر والتقوى، وذلك حسب وصفه الثاني وهو قوله تعالى: "وَيُزَكِّيهِمْ".

والباب الثالث: فيما كتب الله عليهم من السياسة العادلة، والشرائع المطهرة والآداب النقية التي تعين على الحكمة من جهتيه النظرية والعملية، وذلك حسب وصفه الثالث، وهو قوله تعالى: "وَيُعَلِّمُهُمُ" أي الشرائع.

والباب الرابع في تحصيل الحكمة التي تحصل بإكمال الطاعة، وهي الخروج الكلي عن سلطان الشهوات ببذل النفس والمال، ورعاية المواساة.

والرفق في المعاملات، وحينئذ تنجلي عن النفس كل غشاوة، وتتزكى عن كل رجس، فتدخل حظيرة القدس وتطمئن في حرم الأنس عن أسر الهوى، كما قال تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ" [الأنفال: 24] ...

هذا هو الوصف الرابع، أعني تعليم الحكمة وتحقيق التزكية الثانية التالية للحكمة التي هي النعمة الكبرى والكنز الذي لا يفنى كما قال تعالى: "يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ" [البقرة: 269]...

فهذه السورة كأنها مرآة صفات النبي، ومرآة لتمام القرآن، لما جمعت أمور الرسالة كلها، وأولى السور بالفاتحة... فهذا بيان الأبواب الأربعة...

وأما الخاتمة فهي جامعة لما سبق من الاعتقاد، وعيون الشرائع، والثبات عليها، وبذل

النفوس للدفاع عنها، وفيها الدعاء بالنصر والمغفرة كالنتيجة لهذا كله. ثم يقول: "فالآن تبينت أنّ نظم هذه المطالب على غاية السداد وصحة الترتيب، فإنك ترى السابق منها وسيلة إلى اللاحق، فإنّ الأدلة وسيلة إلى الإيمان والإيمان وسيلة يؤدي إلى الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة تتم بالحكمة وبهما تتم التزكية التي هي كمال النفس وفلاحها بإكمال طرفيها العلمي والعملي.

فهذا نظام السورة من حيث المجموع، وأما النظم التفصيلي لأجزائها فسيأتيك عند النظر في جزء جزء من السورة.[1]

ثم شرع في تفصيلها ولولا الإطالة لذكرتها لك.

هذه هي أصول التأويل كما يراها الإمام الفراهي رحمه الله، عرضها بأسلوبه الرصين الجزل، رغم أنه أعجمي هندي، ولكن فتح الله تعالى عليه فأفاد وأجاد وأصّل الأصول ووضع النقاط على الحروف، في موضوع خطير زلت عنده الأقدام، وحارت دونه الأفهام، وتباينت فيه آراء العلماء، وتفاوتت فيه الرتب، وتحاكت فيه الركب، أجزل الله مثوبته، وعفا عنه.

## المبحث الرابع

## الموازنة بينهما

بعد أن عرضنا أصول التأويل عند كل من الراغب الأصفهاني وعبد الحميد الفراهي يمكننا أن نبيّن نقاط الاتفاق والافتراق عند كل منهما.

لا نجد خلافًا جوهريًا عند كل من الراغب الأصفهاني والفراهي على الرغم من بعد الزمان بينهما، فكلاهما اتفق على أنّ التأويل ينقسم إلى قسمين:

- مستكره ومنقاد (رأي الأصفهاني).

[1] الفراهي، تفسير نظام القرآن، وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 50-46 باختصار.

- أصول أولية ومرجحة وأصول كاذبة (رأي الفراهي).

1. اتفق الإمامان على أنّ التمسك بنظم الكلام وسياقه من الأمور التي يجب[1] "فالمستكره ما مراعاتها في التأويل، وجاءت عبارة الراغب الأصفهاني يسبشع إذا سبر بالحجة، ويستقبح بالتدليسات المزخرفة" واختلفت أمثلتهما، فمثل الراغب الأصفهاني على التأويل المستبشع بتخصيص العام مع أنّ اللفظ يحتمل غيره كقوله تعالى "وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ" [التحريم: 4] حمله البعض على علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، مع العلم أنّ اللفظ عام ولا مخصص له، وبالمقابل فإننا نجد الفراهي يتفق مع الراغب الأصفهاني حول هذا الأصل من أصول التأويل، ويأتي بمثال معاكس له فيقول ما معناه: "إذا كان اللفظ خاصًا وقام الدليل على تخصيصه فلا يجوز تعميمه، ويضرب على ذلك مثالًا قوله تعالى "إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا" [الأحزاب: 33] يقول: "فإنها لم تنزل ولا تتعلق إلا بأمهات المؤمنين، ولا دخل فيها لغيرهن، والكلام لا يحتمل تعميمها".

2. واتفق الإمامان- أيضًا- على أنّ المعنى الشاذ لا يلتفت إليه، وهذه أصول كما ترى لا ينبغي مخالفتها، ولكن هناك من لفق بين آيتين- كما يقول الراغب

[1] عقد الدكتور محمد إقبال فرحات فصلًا كاملًا- هو الفصل الثالث من أطروحته- تناول فيه الحديث عن ولع الراغب الأصفهاني بالنظر والتأويل، واشتمل الفصل على المطالب التالية:
1.الربط بين الآيات.
2.حكمة الترتيب.
3.الاستقراء.
4.الحكمة الإلهية.
5.قبول ما ظاهره الاختلاف باعتبارات متعددة.
6.مناقشات وردود
ثم تحدّث عن كل ذلك بالأمثلة والأدلة.

الأصفهاني- لحمل قوله تعالى "وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ" [الأنعام: 38] على قوله تعالى "وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ" [فاطر: 24] فزعم أنّ الحيوانات مكلفة.

وهذا ما أكده الإمام الفراهي في الأصول المرجحة عندما قال: "الشاذ المنكر لفظًا يترك".

3. واتفق الإمامان على أنّ الحديث الضعيف لا يعتمد عليه، وكل تأويل استند على خبر مزور أو- كالمزور كما يرى الراغب الأصفهاني- فهو تأويل مستكره، وأنّ مثل هذا التأويل يروج على من لا علم له بعلم الحديث.[1] بينما أكّد الفراهي ذلك وجعله أحد أصوله التي اعتمد عليها فقال: "لا نعتمد على دليل ضعيف في صرف القرآن عن ظاهره، ونجعل الظاهر حجة".[2]
4. هذا وقد اتفقا- أيضًا على أنّ طريق الفهم للمعنى المراد- كما يقول الفراهي- يكون بـ"تأويل القرآن بالقرآن، ورعاية نظم الكلام" وهذا ما أصله سابقًا الإمام الراغب الأصفهاني عندما قال: "والوجوه التي يعتبر بها تحقيق أمثالها أن ينظر:

فإن كان ما ورد فيه ذلك أمرًا أو نهيًا عقليًا، فزع في كشفه إلى الأدلة العقلية وإن كان أمرًا شرعيًا فزع في كشفه إلى آية محكمة أو سنة مبينة، وإن كان من الأخبار الاعتقادية فزع فيه إلى الحجج العقلية، وإن كان من الأخبار الاعتبارية فزع فيه إلى الأخبار الصحيحة"، وقد طبق ذلك على تفسيره. أقول: إن ما عرضه الراغب الأصفهاني لخصه الفراهي بقوله: "قالت العلماء قديمًا: إنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا وهو المراد بالتفسير بالنظائر".

وأخيرًا ومن المصادفات العجيبة أنّ كلًا من الإمامين إنما ألّف كتابه وجعله مقدمة لتفسيره، فمقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهاني كانت مقدمة لتفسيره (جامع

[1] تنظر ص 18-17 من هذا البحث.

[2] تنظر ص 16 من هذا البحث.

التفاسير) كما يفهم من العنوان،[1] وقد حقّقها أ.د. أحمد حسن فرحات، وكتاب (التكميل في أصول التأويل) جعله الفراهي مقدمة لتفسيره (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) وقام بنشرها بدر الدين الإصلاحي.

وأما نقطة الاختلاف بينهما فهي شكلية تظهر من خلال التقسيم والتطبيق، فمن حيث التقسيم جاءت أصول التأويل عند الراغب الأصفهاني مستكره ومنقاد بينما جاءت عند الفراهي أولية ومربجة وكاذبة تذكر للاجتناب".

ومن حيث التطبيق فإننا نجد الإمام الراغب الأصفهاني يولي الفروق اللغوية والوجوه والنظائر اهتمامًا كبيرًا، يلاحظ ذلك من خلال النظر العام في الكتاب فهو يبدأ بتحديد معنى الألفاظ قبل التفسير، فيقول مثلًا في قوله تعالى "وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ"... [البقرة: 58]: "الدخول عام، والولوج: دخول في مضيق والتقحم دخول في شدة، والتوغل في مشتبك شجر".[2]

ومثل ذلك قال عن قوله تعالى: "أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ".. [البقرة: 100] قال: "النبذ والطرح والإلقاء متقاربة، لكن النبذ أكثر ما يقال في المنسي... والطرح أكثر ما يقال في المبسوط وما يجري مجراه والإلقاء: يعتبر فيه ملاقاة بين شيئين، أو بين شيء ومكانه".[3]

أما الفراهي فإننا رأينا كيف ركّز على موضوع النظم القرآني، وكيف قسم سورة البقرة على طولها إلى مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة، والمنهج الذي اختاره لتفسيره- كما يقول- أنه سيتكلم في تفسير كل سورة على سبعة عناوين:

1. المقدمة لبيان عمود السورة، ونظامها، ومواقع نزولها، ووجوه خطابها وغير ذلك

[1] تنظر ص 15 من هذا البحث.

[2] الراغب الأصفهاني ومنهجه في التفسير، مع تحقيق تفسيره سورة البقرة، ص 255.

[3] تفسير الراغب الأصفهاني، ص 312.

من الأمور الكلية.

2. الكلم (تفسير المفردات).
3. النحو (بيان تأليف الكلم).
4. البلاغة دلالة الأساليب على معان تناسب المحل.
5. التأويل حمل الكلام على مراده حسب المحل.
6. التدبر ذكر المبادئ والنتائج أي اقتضاء النص وإشارته).
7. النظم (بيان موقع جملة من الكلام ورباط بعضها ببعض).

وقد رأيته يطبق ذلك على تفسيره، وذكرت لك بعض الأمثلة.[1]

## الخاتمة ونتائج البحث

وبعد هذه الجولة بين إمامين كبيرين يعدّ كل واحد منهما إمامًا في علمه وأنه لم يقف عند ما قاله الآخرون، بل كانت له نظرات جديدة، وتحقيقات مفيدة نصل إلى النتائج التالية:

1. علم أصول التأويل من العلوم المهمة والخطيرة، ولذلك لا يحل الإقدام على تفسير كتاب الله تعالى وتأويله إلا بعد الوقوف على هذا العلم ومراعاة الأصول فيه.
2. غاية كل من الإمامين في كتابيهما وضع الأسس التي تعين على فهم كتاب الله تعالى، وعدم الانزلاق وراء الأهواء كما حصل للبعض ممن تجرؤوا على تفسير كتاب الله تعالى وهم على غير علم فضلوا وأضلوا.
3. هناك قاسم مشترك بين الراغب الأصفهاني وعبد الحميد الفراهي الهندي- بالرغم من تباعد الزمن بينهما- هو أنهما قسما التأويل إلى أقسام كما يقول الراغب

[1] انظر ما سبق بيانه في هذا البحث

الأصفهاني: مستكره، ومنقاد، وجاءت عبارة الفراهي: الأصول للتأويل ثلاثة أولية، ومرجحة، وكاذبة تذكر للاجتناب، وأن الغاية من التأويل اطمئنان القلب، وسد أبواب الاحتمالات.

4. اختلفت آراء العلماء في بيان معنى كل من التفسير والتأويل. وبعد عرض آراء العلماء وتحرير محل الخلاف بناء على استعمالات القرآن الكريم لكل منهما، تبين لي أنّ التأويل إنما يكون بجميع صوره للأمور التي يلابسها غموض وإبهام كالمتشابه، والوقائع المستقبلية المجهولة والغامضة، مما يجعل منه أداة أو منهجًا ضروريًا لبيان ما يدق الفهم في إدراكه، أو يصعب الوقوف على حقائقه وغاياته المرادة، ولا ريب أنّ هذا مشعر باختلاف مدلول كل من التأويل والتفسير، تبعًا لاختلاف وظيفته، ومجاله، وإن كان هذا الخلاف في النهاية اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

5. من الأمور التي اعتنى بها الفراهي رحمه الله في كل مؤلفاته في التفسير مراعاة نظم القرآن، وأنه لا يفهم كلام الله تعالى إلا بكلام الله تعالى؛ تصديقًا لقوله تعالى "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾" [القيامة: 19-17] فصاحب الكلام أدرى بكلامه، قال الفراهي رحمه الله: "القرآن" كلام الله لا يخالف بعضه بعضاً، فليؤول إلى ما لا يخالفه".

وأخيرًا ومن الموافقات العجيبة: أنّ كلًا من مقدمة (جامع التفاسير) للراغب و(التكميل في أصول التأويل) للفراهي هي مقدمات لتفسيريهما (جامع التفاسير) للراغب، و(نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) للفراهي، وقد طبّقا أصولهما على تفسيريهما، فكان التفسير المجال التطبيقي لما جاء في المقدمات من أصول التأويل.

والحمد لله رب العالمين...

## أهم المصادر والمراجع


1. ابن بطة العكبري، الإبانة عن شريعة الفرق الناجية، تحقيق: رضا بن نعسان معطي (ط. 1)، دار الراية، الرياض: 1988م).
2. ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: عبد الرحمن حسن محمود (ط. دار الكتب الحديثة، مصر: 1975م).
3. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون( ط. دار الفكر، بيروت: 1979م).
4. ابن منظور، لسان العرب (ط. دار صادر، بيروت: د. ت).
5. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط (ط. دار الفكر بيروت: 1983م).
6. الأصفهاني الراغب المفردات تحقيق: د. محمد أحمد خلف الله (نشر مصر: 1970م)
7. الأصفهاني الراغب، مقدمة جامع التفاسير، تحقيق: أ. د. أحمد حسن فرحات (ط. دار الدعوة، الكويت: 1984م).
8. الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل (ط. دار المعرفة، بيروت: د.ت).
9. الخالدي، د. صلاح عبد الفتاح، التفسير والتأويل في القرآن الكريم (ط. دار النفائس، الأردن: 1996م).
10. الخن أ. د. مصطفى التفسير العام (ط. جامعة دمشق: 1999م)
11. الدريني، أد. فتحي، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر (ط.1، دار قتيبة، دمشق: 1988م)
12. الرازي، التفسير الكبير (ط. دار الفكر، بيروت: 1981م).
13. الرومي، د. فهد بحوث في أصول التفسير ومناهجه (ط. مؤسسة الرسالة، بيروت: د.ت.).

14. الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (ط.1، مصر: 1306هـ).
15. السمين الحلبي عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ تحقيق: د. محمد التونجي (ط. عالم الكتب، بيروت: د.ت)
16. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن بعناية الدكتور مصطفى البغاء (ط. دار ابن كثير، دمشق: د.ت.).
17. الشاطبي، الموافقات في أصول الأحكام، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (ط1، مصر: 1969م).
18. شحرور، د. محمد الكتاب والقرآن قراءة معاصرة (ط. 5 الأهالي، دمشق: 1993م).
19. الشوكاني، فتح القدير، تحقيق: عبد الرحمن عميرة (ط. دار الوفاء، المنصورة، مصر: 1997م).
20. الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني (ط. دار الحرمين، القاهرة: 1995م).
21. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: محمود وأحمد شاكر. (ط. دار المعارف، مصر: د.ت.).
22. الطوفي الصرصري، الإكسير في علم التفسير، تحقيق: د. عبد القادر حسين (ط. مصر: 1977م).
23. الفراهي، التكميل في أصول التأويل ضمن (رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن)، جمع: بدر الدين الإصلاحي (ط.2، الدائرة الحميدية، الهند: 1411هـ).
24. الفراهي، تفسير نظام القرآن، وتأويل الفرقان بالفرقان (ط. الدائرة الحميدية. الهند: 2000م).
25. فرحات أ.د. أحمد حسن، في علوم القرآن عرض ونقد وتحقيق (ط1، دار عمار، عمان: 2001م)

26. فرحات، د. محمد إقبال أحمد الراغب الأصفهاني ومنهجه في التفسير، مع تحقيق تفسير سورة الفاتحة أطروحة دكتوراه غير مطبوعة في جامعة الزيتونة، تونس: 1998م
27. الفيروز آبادي، القاموس المحيط (ط. المكتبة التجارية، القاهرة: د. ت).
28. القرضاوي، أ. د. يوسف، المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة ضوابط ومحاذير في الفهم والتفسير (نشر: مكتبة وهبة، مصر: 1992م).
29. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ط. دار الكتب العلمية، بيروت: 1988).
30. مجاهد، تفسير مجاهد، تحقيق: عبد الرحمن الطاهر السورتي (المنشورات العلمية، بيروت: د.ت.).

ISSN: 2321-7928

# جهود الإمام عبد الحميد الفراهي والسيّد محمد رشيد رضا في مجال تفسير القرآن الكريم

## دراسة مقارنة

- د. منظر عالم[1]

**تمهيد:** شهد القرن التاسع عشر تحوّلات سياسيّة وتغييرات اجتماعية في العالم العربي والإسلامي، ونظراً لهذه التغييرات ظهرت على مسرح العالم شخصيّات بارزة قامت بخدمات جبّارة في اللغة العربية والعلوم الإسلامية، ولعبت دوراً ملحوظًا لنشر الدين الحنيف والتمسّك بالقرآن الكريم وسنّة النبيّ الأمين محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، ومنها شخصيتان بارزتان: أولاهما شخصية الإمام عبد الحميد الفراهي (هندي الأصل) الذي نذر حياته لخدمة القرآن الكريم وتقديم رسالة القرآن الكريم إلى الأمة الإسلامية قائلًا إنّ القرآن كتاب الرشد والهداية للإنسانية الكاملة، وأولى الاهتمام بالقرآن الكريم وفهم معانيه الدقيقة ومفاهيمه الشاملة، فلفت انتباه العلماء إلى قضية الربط بين آيات القرآن الكريم وربط بعضها ببعض وسمّاه "نظام القرآن" وأثبته من دلائل قاطعة وبراهين ساطعة بتأليف الكتب والرسائل التي تدور على فهم القرآن الكريم والتدبر في معانيه الدقيقة وأساليبه السامية وإعجازه البليغ. ولتطبيق هذه العملية المباركة قد عيّن بعض المناهج والمقاييس لتفسير القرآن الكريم وفهمه كما نراها في تفسيره بصورة واضحة جلية.

والشخصية الثانية هي شخصية السيّد محمّد رشيد رضا الذي أيقظ الأمة العربية من سباتها العميق وأطلعها على الماضي الزاهر والباهر، وأخبرها بالداء الذي لحق بالأمة الإسلامية واصفًا لها الدواء الذي ينقذها من هذا المرض، ولذلك فبدأ عملية

[1] أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة بابا غلام شاه بادشاه، راجوري، جامو وكشمير

الإصلاح في مجتمعه بكتابة المقالات والكتب وإلقاء الخطب حول موضوعات دينية واجتماعية وسياسية وهو يعتقد أنّ الإصلاح لا يأتي إلا بالرجوع إلى المصدر الأول للإسلام، وهو القرآن الكريم وسنّة النبيّ الأمين الكريم محمّد العربي، صلّى الله عليه وسلّم، فعني بتفسير القرآن الكريم، مؤكدًا على أنّ الأمة الإسلامية في حاجة ماسّة إلى تفسير القرآن الكريم الذي يوفي بمتطلبات العصر وعيّن منهجًا شاملًا لفهم القرآن الكريم ومعانيه الدقيقة وأسلوبه القوي وبلاغته الرائعة الجميلة.

وفي هذه الدراسة المتواضعة نحاول إلقاء الضوء على جهودهما في مجال تفسير القرآن الكريم بالتركيز على التباين والتماثل في تفسيرهما للقرآن.

**لمحة عن حياة الإمام عبد الحميد الفراهي الفراهي (1864-1930م):** يعتبر الإمام الفراهي عالمًا كبيرًا ومفسّرًا جليلًا وشاعرًا طليعًا ولغويًا شهيرًا، وآية من آيات الله في حدة الذهن، وكثرة الفضل، وسعة العلم، ودماثة الخلق، وسداد الرأي، والزهد في الدنيا، والرغبة في طلب مرضاة الله، ولد هذا العبقري في قرية "فريها" بمديرية أعظم جراه، ولاية أترابراديش، الهند، في أسرة عريقة علمية، ولهذه الأسرة لها جولة وصولة في مجال العلم والثقافة، وكان المؤرخ الشهير والأديب الأريب مولانا شبلي النعماني ابن خاله.

تلقّى الإمام تعليمه الابتدائي في قريته، وحفظ القرآن الكريم في سنّ مبكرة، ثم عكف على تعلّم اللغة الفارسية، وبرع وأجاد فيها حتى نظم الشعر وهو ابن ستة عشر بأسلوب رصين، ثم توجّه إلى تعلم اللغة العربية وقرأ علم النحو والصرف والأدب العربي والعلوم العلقلية على يد الأديب الأريب والمؤرخ الشهير العلامة شبلي النعماني، ثم قام برحلة إلى مدينة لكناؤ التي كانت تعتبر مركزًا للعلم والثقافة وقرأ الفقه على يد الفقيه المحدث أبي الحسنات محمد عبد الحي الفرنغي محلي (1848-1887م)، ثم رحل إلى مدينة لاهور التي كانت تعتبر مدينة العلم آنذاك حيث درس اللغة العربية والأدب العربي على يد العالم الجليل والشاعر الطليع مولانا فيض الحسن

السهارنفوري الذي يعتبر من جهابذة اللغة العربية، فاستفاد منه وبرع فيهما.[1]

بعد إتمام دراسته بمدينة لاهور توجه الإمام إلى العلوم الحديثة والتحق بمدرسة "كرنل غنج" الواقعة بمدينة "إله آباد" وأكمل تعليمه الابتدائي والثانوي هناك، ثم سافر إلى مدينة "على جراه" وحاز شهادة الليسانس منها، وبعد ذلك أحبّ أنْ يواصل دراسته ولكن لم يستمر فيها لأسباب عديدة.

تولّى الإمام مناصب عديدة، منها: أنه عيّن مدرسًا في "مدرسة الإسلام" بمدينة كراتشي وقام بعملية التدريس فيها سنوات عديدة، ثم عيّن أستاذًا مساعدًا في قسم اللغة العربية في جامعة عليجراه الإسلامية، وخلال هذه الفترة المباركة استفاد من الأستاذ الألماني يوسف هارويز وتعلّم عليه اللغة العبرانية كما تعلّم الأستاذ الألماني من الإمام الفراهي اللغة العربية، ثم انتقل إلى مدينة إله آباد حيث عيّن أستاذًا في كلية "ميور" وعكف على المطالعة والدراسة والبحث والتحقيق، ثم غادر الكلية وتوجه إلى مدينة حيدرآباد حيث تولّى منصب المدير في دار العلوم حيدرآباد وأقام فيها إلى عام 1914م، ثم انصرف إلى وطنه وتولّى منصب مدير "مدرسة الإصلاح"، بسرائمير، أعظم جراه، وكرّس حياته لخدمة هذه المدرسة وإعداد مناهجها وإدارة شؤونها، كما أعدّ جماعة من العلماء العظام الذين قاموا بجهود جبارة لنشر فكرة الإمام، ومنهم المفسّر الجليل مولانا أمين أحسن الإصلاحي وتلميذه الرشيد مولانا أختر الإصلاحي.[2]

ألّف الإمام الفراهي كتبًا قيّمة ورسائل بليغة يحتوي معظمها على موضوعات القرآن ومنها: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، وفاتحة نظام القرآن، ودلائل النظام، وإمعان في أقسام القرآن، وأساليب القرآن، والتكميل في أصول التأويل،

[1] الإمام عبد الحميد الفراهي: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، سرائمير، أعظم جراه، ص 7-8

[2] نفس المصدر، ص 8-13

ومفردات القرآن، وتاريخ القرآن، وأوصاف القرآن، وأسباب النزول، وفقه القرآن، وحجج القرآن، وجمهرة البلاغة، وفلسفة البلاغة، والنحو الجديد، وأسباق النحو (جزآن)، وتحفة الإعراب، والقائد إلى عيون العقائد، وكتاب الحكمة، والرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، وفي ملكوت الله، وديوان أبي أحمد الأنصاري، والرائع في أصول الشرائع، وكتاب العقل وما فوق العقل، والإكليل في شرح الإنجيل، والأزمان والأديان، وسليقة العروض، وخرد نامة، وما إلى ذلك.[1]

اعترف الكثيرون من كبار العلماء من داخل الهند وخارجها بعبقريته ونبوغه في العلم والمعرفة واصفين إياه أنه كان غزير العلم، واسع الاطلاع، عالمًا باللغة العربية والعبرانية، ماهرًا في العلوم الدينية والعصرية، ولا يمكن للباحث أن يحيط بجميع أقوال العلماء في هذه المقالة الوجيزة فأكتفي بذكر بعضها:

يقول العلامة السيد سليمان الندوي: "هو شخص واحد اجتمع فيه عالَم من العلم والمعرفة، ماهر في علوم الدينية، ناقد للعلوم العقلية، وحيد عصره في علوم اللغة العربية، نسيج وحده في علم القرآن، عارف بحكمته ودقائقه، ولم ينقل من علمه- مع الأسف- إلى الدفاتر والأوراق إلا القليل".[2]

ويقول مولانا أبو الكلام آزاد: "كان الإمام عبد الحميد الفراهي من العلماء الربانيين الذين لا تكون بضاعتهم العلم فحسب، بل يجمعون بين العلم والعمل، ويندر وجود أمثال هؤلاء الحائزين للشرفين".[3]

ويقول العلامة رشيد رضا المصري: "وقد ألقينا على بعض رسائله لمحة من النظر، فإذا

[1] نفس المصدر، ص 24

[2] سيد سليمان الندوي: مقاله الذي كتبه إثر وفاته في مجلة "معارف" الأردية المجلد: 26 العدد السادس، ص 322

[3] مجلة الإصلاح، المجلد الأول، العدد الثامن، ص 56-61

طريق جديد في أسلوب جديد من التفسير، يشترك مع طريقنا في القصد إلى المعاني من حيث هداية إلهية دون المباحث الفنية العربية، وإنّ للمؤلف لفهمًا ثاقبًا في القرآن، وإنّ له فيه مذاهب في البيان، وإنه لكثير الرجوع باللغة إلى مواردها والصدور عنها ريان من شواهدها".[1]

ويقول العلامة اللغوي الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي بعد زيارته للفراهي في مسقط رأسه عام 1342م حين كان في زيارة للهند يقول: "الرجل فصيح في التكلم لغاية، نادر في علماء العرب فضلًا عن علماء الهند، سمعت خطبة تفسيره للقرآن، اغرورقت منها عيناي لفصاحتها وحقيقتها، هو مجتهد في العقائد والعمليات لا ينتمي لمذهب ولكن يتعبد على مذهب الحنفية لأنه نشأ عليه ويعتقد أنّ الأمر في ذلك سهل، ماهر في الإنجليزية والعربية والفارسية والأردية، وبالجملة فهو أعلم من لقيته قبل هذا الحين".[2]

**السيد محمد رشيد رضا (1865-1935م):** ولد السيّد محمد رشيد رضا بقرية "قلمون" قريبة من مدينة طرابلس، الشام، في أسرة دينية وكان والده علي رضا شيخ القلمون، وإمامًا لمسجدها، فاهتم بتعليمه وتربيته، فحفظ القرآن الكريم وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة، ثم أرسله إلى المدرسة الرشيدية الابتدائية التي كانت تهتم بتعليم النحو والصرف ومبادئ الجغرافيا والحساب والعقائد والعبادات، وكان التعليم فيها باللغة التركية لكي يتولّى طلابها الوظائف الحكومية، ولكن من البداية لا يودّ رشيد رضا العمل في الدوائر الحكومية، فترك هذه المدرسة بعد القيام فيها عامًا واحدًا، ثم التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية التي أسّسها الشيخ حسين الجسر (1845-1909م)، وتعتبر هذه المدرسة من أهم المدارس السابقة، وكانت الدراسة فيها باللغة العربية ولم يمكث محمد رشيد رضا في هذه المدرسة

[1] محمد أجمل الإصلاحي: في ترجمته للفراهي، مفردات القرآن ص 21 نقلًا عن رشيد رضا في مجلة المنار، عدد شهر صفر 1327هـ

[2] المراكشي تقي الدين: في مقال له عن الفراهي المنشور في مجلة الضياء الصادرة عن دار العلوم التابعة لندوة العلماء، لكناؤ، المجلد الثاني، العدد السابع، ص 26

مدة طويلة بسبب إغلاقها، فدرس فيها علم الحديث على يد الشيخ محمود نشابة (1814-1890م) كما واظب على حضور دروس عدد من علماء طرابلس مثل عبد الغني الرافعي (1890-1916م) ومحمد القاوجقي (1809-1887م) وغيرهم.[1]

وفي عام 1885م التقى محمد رشيد رضا بالشيخ محمد عبده وتأثر بآرائه وأفكاره العملية والإصلاحية وغادر وطنه متوجهًا إلى مصر حيث شارك في دروس الشيخ محمّد عبده واستفاد منه استفادة تامة وأقنعه على إصدار مجلة، فوافق عليه، فأصدر مجلة "المنار". ونذر حياته لخدمة الإسلام والمسلمين من خلال تأليفاته القيّمة وخطبه ومحاضراته.

من مؤلفاته: الوحي المحمدي، ونداء الجنس اللطيف أو حقوق النساء في الإسلام، ومساواة المرأة بالرجل، وحقيقة الربا، وتاريخ الأستاذ الإمام، ويسر الإسلام وأصول التشريع العام، والخلافة والإمامة العظمى، والوهابيون والحجاز، والوحدة الإسلامية، والحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية بالإضافة إلى الخطب والمقالات التي كان ينشرها في مختلف الجرائد والمجلات.[2]

يقول العلامة المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني: "السيّد محمّد رشيد رضا رحمه الله، له فضل كبير على العالم الإسلامي بصورة عامة، وعلى السلفيين منهم بصورة خاصة، ويعود ذلك إلى كونه من الدعاة النادرين الذين نشروا المنهج السلفي في سائر أنحاء العالم بوساطة مجلته "المنار" ويضيف قائلًا: فإذا كان من الحق أن يعترف أهل الفضل لذوي الفضل، فأجد نفسي بهذه المناسبة الطيبة مسجّلًا هذه الكلمة، ليطلع عليها من بلغته، فإنني بفضل الله عزّ وجلّ، بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولًا وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة والصحيحة ثانيًا يعود الفضل الأول في ذلك إلى السيّد محمّد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن

[1] محمد أحمد درنيقة: السيد محمد رشيد رضا : إصلاحاته الاجتماعية والدينية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1986م، ص 15-21

[2] نفس المصدر، ص 25

طريق أعداد مجلته التي وقفت عليها في أول اشتغالي بطلب العلم.[1]

وقال العلامة ابن عثيمين عن موسوعية رشيد رضا: "ولا ريب أنّ العلماء علماء الشريعة، عندهم علم في الاقتصاد وفي السياسة، وفي كل ما يحتاجون إليه في العلوم الشرعية، وإذا شئت أن تعرف ما قلته فانظر إلى محمد رشيد رضا رحمه الله صاحب مجلة "المنار" في تفسيره وفي غيرها من كتبه.[2]

ويقول محب الدين الخطيب: "إنّ السيد رشيد رضا رغم ذيوع اسمه وطول اتصاله بالجماعات والحوادث والصحافة، كان في علمه وفضله أعمق غورًا من أن يعرفه أكثر الناس كما هو في الحقيقة، وإن الذين عرفوا بجوانبه العامرة بالفضل والسبق والتفوق قليلون جدًا، ولو أنّ هذا الرجل الراحل كفى إدارة أعماله كلها وانقطع إلى التأليف والتدوين، وكان في أمة تعرف كيف تستفيد من رجالها في حياتهم لكن أعظم إنتاجًا من أكبر الرجال الذي يشار إليه بالبنان في الأمم الأخرى".[3]

ويقول الأستاذ مصطفى المراغي شيخ الأزهر: "كان فقيد الإسلام السيّد محمد رشيد رضا محيطًا بعلوم القرآن وقد رزقه الله عقلًا راجحًا في فهمه ومعرفة أسراره وحكمه، واسع الاطلاع على السنة وأقضية الصحابة وآراء العلماء عارفًا بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية، ملمًّا بما في العالم من بحوث جديدة وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان فهو ممن أوتي الحكمة ورزق الخير الكثير".[4]

**تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان:** ألّف الإمام عبد الحميد الفراهي تفسيرًا

[1] محمد بن إبراهيم الشيباني: حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليهمكتبة السداوي، القاهرة، مصر، 1987م، 400/1

[2] أسامة شحادة: مجلة الراصد: سلسلة رموز الإصلاح، الإمام المجاهد رشيد رضا، العدد 125، ستمبر 2013م (فرق ومذاهب)

[3] www.alrased.net/main/articles.aspx?selected_article_no=6351

[4] مجلة الرسالة: العدد 373/ السيد محمد رشيد رضا، مايو عام 2015م، ص 5

جامعًا باسم "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" ولم يكمل تفسيره بل اكتفى بتفسير بعض سور من القرآن الكريم، ومنها "سورة الفاتحة"، و"سورة الذاريات"، و"سورة التحريم"، و"سورة القيامة"، و"سورة عبس"، و"سورة الشمس"، و"سورة التين"، و"سورة العصر"، و"سورة الفيل"، و"سورة الكوثر"، و"سورة الكافرون"، و"سورة لهب"، و"سورة الإخلاص". وبالرغم على ذلك أنّ هذا التفسير ليس بكامل اختار الإمام الفراهي فيه منهجًا قويًا وفكرًا بليغًا يساعد القارئ في فهم القرآن الكريم والتدبر فيه، ونحن نذكره في السطور التالية:[1]

**غاية التفسير لدى عبد الحميد الإمام الفراهي:** إنّ غاية التفسير لدى الإمام الفراهي هي فهم كتاب الله تعالى من حيث دين يرشد الناس إلى ما فيه من سعادتهم في حياتهم الدنيا وفي الآخرة، ومن أهدافه أيضًا هي توحيد صفوف المسلمين في ظل القرآن.

**منهج الإمام عبد الحميد الفراهي في تفسيره:** إذا أمعنّا في تفسير الإمام الفراهي فنجد أنّ تفسير القرآن بالقرآن هو الأصل الأصيل عنده، وبهذا نفهم أنّ الإمام قد سلك مسلك جمهور المفسرين واحتذى حذوهم، وخير شاهد على ذلك ما ذكر الفراهي في تفسيره قائلًا:

"قد فكّرت في كتاب الله تعالى بعون الله وتوفيقه أن أبحث عن نظام آيات القرآن وأكتب تفسيرًا بسيطًا خاليًا من الاختلاف والجدل الذي وقع فينا بعد عصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأتفحص معنى الآيات من الأيات الأخرى، وكذلك أستنبط معنى السورة من أعماقها وجذورها وسياقها، وبعد ذلك يمكن لي أن أقدم ما فهمنا من ضوء النقل والعقل أمام القارئ، وفيما يتعلق بنظام القرآن تدلّيت في تدبر الكلام بالبصر النافذ، وفي أمر التفسير عضضت على كتاب الله بالنواجذ، كنت في هذا على بصيرة من ربي، غير متبع لأحد، وإني لست وحيدًا فريدًا في تتبع النظام بل جماعة من العلماء قد اهتموا بهذا الجانب وألّفوا ودوّنوا وأبدعوا فيه، ومنهم شيخ أبي حيان العلامة جعفر بن زبير وألّف كتابًا باسم "البرهان

[1] الإمام عبد الحميد الفراهي: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، المصدر السابق، ص 7-8

في مناسبة سور القرآن" والشيخ برهان الدين البقاعي الذي دوّن كتاباً باسم "نظم الدرر في تناسب الآي والسور"، وكذلك ألّف جلال الدين عبد الرحمان أبي بكر السيوطي كتابًا يسمّى بـ"الإتقان في علوم القرآن" وتناول فيه المناسبة بين الآيات والسور، قائلًا "إنّ علم النظم علم عظيم لم يتوجه إليه العلماء بسب مشكلاته ومعضلاته، وكان الإمام فخر الدين الرازي هو أول شخص عني بهذا الجانب عناية بالغة وبيّن أنّ معظم الحكمة القرآنية كانت مختفية في النظم والمناسبة، كما نرى في تفسير "ولو جعلناه قرآنا أعجميا...".[1]

يتلخص منهج الفراهي التفسيري في النقاط التالية:

- تفسير القرآن بالقرآن.

- تفسير القرآن بالسنة.

- تفسير القرآن بالصحابة بحيث أنهم يعرفون بذلك لما شهدوه من القرآن والأحوال.

يقول الإمام بصدد منهجه: "أول شيء يفسّر القرآن هو القرآن بنفسه، ثم بعد ذلك فهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والذين معه، ولعمري أحبّ التفسير عندي اللغة العربية: معرفة أساليب لغة العرب والأخذ بطرق اللغة العربية في دلالة الألفاظ والتراكيب والمعاني وما جاء عن النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، ثم يضيف "وإني مع اليقين بأنّ الصحاح لا تخالف القرآن لا آتي بها إلا كالتتبع بعد ما فسّرت الآيات بأمثالها، لكي لا يفتح باب المعارضة للمارقين الذين نبذوا القرآن وراء ظهورهم، والملحدين الذين يلزموننا ما ليس له في القرآن أصل، لكي يكون هذا الكتاب حجة بين فرق المسلمين، فإني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق القرآن فإنه كثير لا ينفد على كثرة المجتهدين والكتب من التفسير كثيرة، فمن يسرح بنظر التحقيق يؤتى من العلم ما شاء الله، ولكن أردت ما يكون للأساس والأم والوسط والحكم،

[1] نفس المصدر، ص31

ولهذا اقتصرت على ما في القرآن غير جاحد ما تركته كما جمع الإمام البخاري رحمه الله ما ثبت من الحديث متفقًا عليه مع ما ترك كثيرًا من الصحاح".[1]

**ميزات تفسير الإمام الفراهي:**

- ركّز الإمام الفراهي في تفسيره على العلائق والروابط بين آيات القرآن الكريم، وربط بعضها ببعض، وسمّاه نظام القرآن.

- اهتم الإمام الفراهي في تفسيره بالنظم ويقصد به الوحدة الموضوعية للسورة.

- ويرى الفراهي أنّ المناسبة غير النظام، فإنّ التناسب بين الآيات بعضها مع بعض يكشف عن كون الكلام شيئًا واحدًا مستقلًا بنفسه.

- أما الإمام عبد الحميد الفراهي فتفسيره نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان يشتمل على النكات التالية:

- المقدمة: فهي عمود كلية من عمود السورة ومطالبها ومواقع نزولها ووجه خطابها وترتيب أجزائها.
- الكلم: فهي معنى الكلمة ومادتها وصورتها والاستدلال فيه بالقرآن وكلام العرب.
- النحو: فهو تأليف الكلمة والاستدلال فيه بالنظائر وحسن التأويل.
- البلاغة: فهي دلالة الأساليب على معان تناسب الجمل.
- التأويل: فهو حمل الكلام على مراده حسب المحل، وفي ذلك معظم الاستدلال بالقرآن.
- التدبر: فهو ذكر المبادئ والنتائج، أي اقتضاء النص وإشارته، والاستدلال فيه بصريح العقل وكتاب الله.

[1] نفس المصدر، ص 40

- النظم: وأما النظم فهو في بيان موقع جملة من الكلام ورباط بعضها ببعض.[1]

**تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير "المنار"**: ألّف السيّد محمد رشيد رضا تفسير القرآن الحكيم الشهير باسم "تفسير المنار" وهو يقول في سبب تأليفه: "فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح، ثم العناية إلى مقتضى حال هذا العصر في سهولة التعبير، ومراعاة أفهام صنوف القارئين، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها".

في الحقيقة أنّ هذا التفسير هو دروس شفهية بدأها الشيخ محمد عبده في بداية محرم 1317هـ، واستمرت هذه الدروس في عام 1323هـ وتوقف عند الآية 125 من سورة النساء، وأما تسمية هذا التفسير فنسبته إلى مجلة "المنار" الذي كان يصدرها محمد رشيد رضا وينشر التفسير أولًا في هذه المجلة، ولذلك سمي به "تفسير المنار".

بعد وفاة أستاذه محمد عبده قد واصل محمد رشيد رضا عمل التفسير بنفسه، ولكن يتغير أسلوبه التفسيري تدريجيًا وبدأ يقترب من أصول التفسير كما يبين سبب هذا التغيير بنفسه:

"وإني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت بمنهجه رحمه الله بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيرًا لها أو في حكمها أو في تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة وبلغ به الآية رقم 101 (رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ...)".

**غاية التفسير لدى رشيد رضا:** إنّ غاية التفسير هي الهداية والرشد لجميع الناس كما

[1] نفس المصدر، ص 27

يقول رشيد رضا: "إن الله تعالى قد أنزل عليكم كتابه هدى ونورًا ليعلمكم الكتاب والحكمة ويزكيكم ويعدكم لما بعد من سعادة الدنيا والآخرة".

**منهج رشيد رضا في تفسيره:** يتلخص منهج السيد محمد رضا التفسيري فيما يلي:

- تفسير القرآن بالقرآن: أولًا يكون تفسير الآيات الكريمة بالقرآن نفسه، مؤكدًا أنّ الآيات يفسّر بعضها ببعض إذا نحن أخذنا القرآن بجملته كما أمرنا.

- تفسير القرآن بالسنة: كان يتناول بعد ذلك إلى سنة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين في الصدر الأول.[1]

ويشتمل تفسير " المنار" على النقاط التالية:

- ربط معاني الآيات بسنن الله في خلقه، هذا هو الانتظام بالمنطق الداخلي المتماسك والمنسجم للنص القرآني بعواصم الأثر والخبر الصحيح ومقتضيات العقل السليم خلال تحكيم سنن الله تعالى في الكون والتاريخ واعتبارها إحدى مرجعيات ومعايير التفسير السليم.[2]

- رعاية الترابط بين الموضوعات، وربط المناسبة بين الوحدتين، لأنّ رشيد رضا كان حريصًا جدًا في بداية تفسير كل مجموعة من الآيات الكريمة أن يربط هذه الآيات ارتباطًا منطقيًا محكمًا بمجموعة الآيات التي تسبقها أو بموضوع السورة الرئيسي الذي تتحدث عنه مجمل آيات السورة، وبذلك عمل رشيد رضا على إبراز الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية والسياق الواحد الذي يؤلف بين آياتها.[3]

- التركيز على وحدة الموضوع في تقسيم وحدات الآيات وتحليل القضايا. فكان رشيد

[1] السيد محمد رشيد رضا: تفسيرالمنار، دار المنار، القاهرة، مصر، ط2، 1947م، ص 18

[2] نفس المصدر، 259/2

[3] نفس المصدر، 118/2-119

رضا حريصًا على تعرض الآية التي يفسّرها لقضية أن يسرد ويحلّل موجزًا معظم الآيات الكريمة الأخرى التي تتحدث من القضية نفسها، وبذلك يكون رشيد رضا من أوائل من تنبه لأهمية التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في العصر الحديث.

- توثيق المعلومات وربط الحاضر إلى زمن نزول الآيات في فهمها باعتماده أسباب النزول، وذلك أنّ رشيد رضا كان معنيًا بذكر أسباب النزول وتمحيص الروايات الواردة فيها، كان مهتمًا بذكر القراءات القرآنية عند وجودها، كما كان حريصًا أيضًا على ذكر الأحاديث النبوية التي تدور في تلك الآية أو الآيات التي يفسّرها ولم يغفل عند ذكره هذه الأحاديث عن التعليق عليها، ونقد أسانيدها وتمحيص رواتها، هذا فضلًا عن تخريجها وعزوها إلى مصادر الحديث المعتمدة.[1]

- رونق الكلام ودقة التعبير والجمل وعدم التطويل والحشو بأن لم يتوسع في نقل أقوال النحاة وعلماء البلاغة في إعراب الآيات القرآنية ووجوه البلاغة فيها إلا ما كان مهمًا ضروريًا لبيان معنى الآيات وجمال الأسلوب القرآني ودقة التعبير فيها، فكان هدفه من هذا الاقتصاد هو ألا يشغل القارئ عن وجوه الهداية والإصلاح في معاني الآيات المفسّرة وهو مقصده الأول من التفسير.

وبشكل عام فإنّ رشيد رضا لم يكن يكثر النقل عن علماء السابقين في المجلدات الأولى من تفسيره ولكنه ابتداء من المجلد السابع، بدأ يكثر وينقل بإسهاب من الكتب والتفاسير السابقة وخصوصًا كتب ابن حزم (994-1064م) والغزالي (1058-1111م) ونخر الدين الرازي (1150-1210م) وابن تيمية (1263-1328م) وابن قيم الجوزية (1292-1350م) وابن كثير (1300-1373م) والشاطبي (1320-1388م) وغيرهم.[2]

[1] نفس المصدر، 167/1

[2] نفس المصدر، 524/10

**ويشترط رشيد رضا شروطًا للمفسر وهي:**

- فهم حقائق الألفاظ: لا بد للمفسر أن يفهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكتف بقول فلان وفهم فلان.

- الأساليب: ينبغي للمفسر أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة.

- علم أحوال البشر: فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبيّن فيه ما لم يبيّن في غيره، بيّن فيه كثيرًا من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية في البشر، وقصّ عليه أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها فلا بد للمفسر النظر في أحوال البشر، وفي أطوارهم وأدوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر.

- العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن: فيجب على المفسر أن يعلم ما كان عليه في عصر النبوة من العرب وغيرهم لأنّ القرآن ينادي بأنّ الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم بعث به لهدايتهم وإسعادهم.

- العلم بسيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم: لا بد للمفسر أن يعرف عن سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل والتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها.[1]

**ميزات التفسير:** يصف رشيد رضا بأنه هو: التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح العقول الذي يبين حكم التشريع وسنن الله تعالى في الكون والإنسان، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان يوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر ، وعرضوا عليهم ما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها، مراعى فيه السهولة في التعبير، متجنبًا عن مزج الكلام باصطلاحاته العلوم والفنون".[2]

[1] نفس المصدر، ص 18-19

[2] نفس المصدر، 1/1

يمتاز تفسيرالمنار بالصراحة والوضوح، مما يجعله سهلًا وواضح الفهم والتطبيق.

إن تفسير المنار هو التفسير الأمثل والأصيل باعتماده على المصادر الإسلامية.

يعتمد التفسير على العلم الوثائقي ولا يميل إلى التأويل الشخصي والمبالغة . يخاطب التفسير الجميع ويمنح القارئ فهم القرآن وتطبيق معانيه في حياته اليومية.

يخاطب التفسير القارئ فهم اختلاف الآراء والمذاهب في الإسلام ويساعد على فهم اللغة العربية بشكل أكبر.

يوفّر التفسير فهمًا شاملًا للآيات ويعرف القارئ على المعاني الكاملة للآية وخلفياتها القرآنية والتاريخية والاجتماعية واللغوية.

وهو يضيف قائلًا: كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية والهداية السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن مباحث الإعراب وقواعد النحو ونكت المعاني ومصطلحات البيان ومنها ما يصرفه عند بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين واستنباطات الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت من خرافات الإسرائليات".[1]

ثم يركّز رشيد رضا عنايته على الأدوات التي تساعد على فهم القرآن، وهي الفنون العربية، واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية كقواعد النحو والمعاني وكذلك بمعرفة الكون وسنن الله تعالى وهذه الأشياء كلها تعين على فهم القرآن الكريم.

وفيما يتعلق بالروايات المأثورة عن النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه وعلماء التابعين في التفسير فهو يقول بعض منها ضروري أيضًا، لأن ما صح من المرفوع لا يقدم عليه شيء، ويليه ما صح عن علماء الصحابة مما يتعلق بالمعاني اللغوية أو عمل عصرهم،

[1] نفس المصدر، 8/1

والصحيح من هذا وذاك قليل، وأكثر التفسير المأثور قد سرني إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب كما قال الحافظ ابن كثير: "وجلّ ذلك في قصص الرسل مع أقوامهم وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم، وفي تاريخ أصحاب الكهف، ومدينة إرم ذات العماد، وسحر بابل، وعوج بن عنق، وفي أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعدها جل ذلك فيها خرافات ومفتريات صدقهم فيها الرواة حتى بعض الصحابة ولذلك قال الإمام أحمد بن حنبل: ثلاثة ليس لها أصل، التفسير والملاحم والمغازي.[1]

**التفسير:** إن تفسير "المنار" تفسير شامل جامع لصيحيح المأثور وصريح العقول ووازن بين ما عليه المسلمون اليوم وبين متطلبات التشريع العظيمة التي جاء بها الكتاب المبين، وقد تناول صاحب التفسير فيه سهولة العبارة وطلاوتها ولم يثقله بذكر المصطلحات والعبارات التي لا يدرك معناها إلا المشتغلون والمتفقهون بالتفسير وكذلك حاول أن يبين وجوه الإعجاز في آيات القرآن من حيث الأسلوب والبلاغة وبما فيه من علم الغيب، وسلامته من الاختلاف موضحًا وجه دلالة القرآن على نبوة النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم.

**التماثل والتباين بينهما:**

**التماثل:**

- ولد كلا المفسرين في القرن التاسع عشر وتوفّيا في القرن العشرين.
- دوّن كلا المفسرين تفسيرهما باللغة العربية.
- غاية كلا التفسيرين هي الرشد والهداية للإنسانية الكافة.
- أكّد كلا المفسرين على تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة.

[1] نفس المصدر

- اختار كلا المفسرين موقفًا واحدًا تجاه الرواية الإسرائيلية.
- أكّد كلا المفسرين على الترابط والتناسب بين السور والآيات وعمود السورة والوحدة الموضوعية.
- حاول كلا المفسرين أن يبرز إعجاز القرآن وبلاغته.
- لم يكمل كلا المفسرين تفسيرهما.

**التباين:**

- ألّف الإمام عبد الحميد الفراهي تفسيره للعلماء وكان يعتقد أنّ العلماء قد علموا غاية التفسير ومعانيه ومفاهيمه فليكن للجمهور أن يصلوا إلى الرشد والصواب، وبالعكس كتب رشيد رضا تفسيره للجميع.
- أكّد الإمام الفراهي في تفسيره على النظم بصورة واضحة وجلية بين السور والآيات وبالعكس أنّ السيد محمد رشيد رضا لم يهتم به كما ينبغي.
- حاول الإمام الفراهي إبراز رسالة القرآن الحقيقية، وبالعكس أنّ رشيد رضا حاول في تفسيره التركيز على أن يكون تفسيره حسب متطلبات العصر.
- دوّن الإمام عبد الحميد الفراهي كتبًا قيمة لفهم القرآن، وبالعكس لم يدوّن رشيد رضا أيّ كتاب يساعد على فهم القرآن الكريم ومعانيه
- قد عيّن الإمام الفراهي بعض المبادئ والأصول لتفسير القرآن الكريم وجربها في تفسيره كاملًا، وأما رشيد رضا فقد عيّن بعض الأصول والمبادئ لتفسير القرآن الكريم أيضًا ولكن لم يجربها في تفسيره بل سلك مسلك المفسرين الآخرين.
- يستشهد الإمام الفراهي بكلام العرب لفهم معاني القرآن الكريم، رشيد رضا فإنه لم يهتم بهذا الجانب أكثر بكثير.

- ركّز الإمام الفراهي عنايته على التأويل، وعكس ذلك فإنّ رشيد لم يتحدث عن التأويل فهو يكتفي بأقوال المفسرين فحسب.

**جملة القول**: إنّ الإمام الفراهي كان عالمًا جليلًا وبحاثة كبيرًا ركّز في تفسيره العناية على فهم القرآن الكريم ومعانيه ومفاهيمه وبلاغته وإعجازه كما يبرز من تفسيره وكتبه المتعلقة بعلوم القرآن، وأما رشيد رضا فإنه كان مصلحًا كبيرًا واهتم في تفسيره بالجانب الإصلاحي والاجتماعي كما يظهر من تفسيره ومقالاته وخطبه. وبالجملة كلا المفسرين قد قاما بخدمات عظيمة في مجال التفسير في البلدين العظيمين، ونالا شهرة واسعة بين الأوساط العلمية والدينية ولكن براعة الإمام عبد الحميد الفراهي وتدبره وعمقه في مجال التفسير كان أوسع وأشمل كما اعترف رشيد رضا بنفسه أيضًا.

## المصادر والمراجع


1. الإمام عبد الحميد الفراهي: تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائره الحميدية، سرائمير، أعظم جراه، د.ت.
2. السيد محمد رشيد رضا: تفسير المنار، دار المنار، القاهرة، مصر، ط2، 1947م
3. محمد أجمل الإصلاحي: مفردات القرآن نقلًا عن رشيد رضا في مجلة المنار، عدد شهر صفر عام 1327هـ
4. محمد أحمد درنيقة: السيد محمد رشيد رضا: إصلاحاته الاجتماعية والدينية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1985م
5. محمد بن إبراهيم الشيباني: حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه، مكتبة السداوي، القاهرة، مصر، 1987م
6. مجلة المعارف: المجلد 26، العدد السادس
7. مجلة الإصلاح: المجلد الأول، العدد الثامن
8. مجلة الرسالة: القاهرة، مصر، العدد 373 مايو عام 2015م

ISSN: 2321-7928

# الترابط بين أفكار عبد الحميد الفراهي وسيّد قطب في النظريات الفنية للقرآن الكريم

## (دراسة تحليلية)

- د. سيّد محامد الهاشمي[1]

القرآنُ كتابُ اللهِ الخالدُ الباقي، لا يأتيهِ الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفهِ، تنزيلٌ من عزيزٍ حميد. وقد هيَّأ اللهُ لكتابهِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ رجالًا سخَّروا أنفسهم لخدمته، فلم يخلُ عصرٌ من العصورِ من علماءٍ نذروا حياتهم في سبيلِ فهمهِ وتفسيرهِ وبيانهِ، فبذلوا جهودًا تعجزُ الألسنةُ عن وصفها.

وقد وضع هؤلاء العلماءُ علومًا شتى لتوضيح معاني القرآنِ الكريمِ وتبيينهِ، وكان لكلِّ عصرٍ أعلامٌ برزوا في هذا الميدان. ومن بين علماءِ القرنِ الرابعَ عشرَ الهجريِّ، يبرزُ عالمانِ جليلانِ كرَّسا حياتهما لخدمةِ القرآنِ الكريمِ وتفسيرهِ، وهما:

أولًا: الإمام عبد الحميد الفراهي (1280-1349هـ)، وهو مفخرةُ بلاد الهند، وعلمٌ شامخٌ في ميدانِ التفسيرِ واللغةِ والأدب. كان بحرًا في العلومِ النقليةِ والعقلية، ذا قدرةٍ فائقةٍ على التأليفِ والبحثِ في أدقِّ موضوعاتِ القرآنِ الكريمِ، وإلمامٍ عجيبٍ بعديدٍ من اللغاتِ العالمية. لقد كان نموذجًا فريدًا في الذكاءِ الوقَّادِ، وعمقِ البصيرةِ، وشدةِ الورعِ، وحسنِ العبادةِ، وغنى النفسِ.

ثانيًا: العالم الجليل، المفكّر الكبير، والأديب الأريب سيّد قطب (1326هـ/ 1906م)، الذي يُعدّ من أبرز الدعاة والمصلحين في الحقلِ الإسلامي. كان عالمًا نابهًا

[1] أستاذ مشارك، قسم الدراسات العربية ومدير مركز مشاريع الترجمة، جامعة الإنجليزية واللغات الأجنبية، حيدرآباد، الهند

في العلومِ الدينية والأدبِ العربي، وقد سخَّر قلمهُ في التصنيفِ والتأليفِ في موضوعاتٍ شتّى، من أهمها تفسيرُهُ الشهير في ظلال القرآن، الذي يُعَدُّ خيرَ نموذجٍ لمنهجهِ وأفكارهِ ونظرياتهِ في فهمِ القرآنِ الكريمِ.

وعلى الرغمِ من أنّ الفراهي سبقَ سيّد قطبٍ إلى جوارِ اللهِ، فإنَّ أفكارهما ونظرياتهما الفنية في النظرِ إلى القرآنِ الكريمِ تتقارب إلى حد بعيد، حتى ليخيل إلى القارئ أنّ بينهما تواصلا فكريًا عابرًا للزمن.

## أولًا: منهج الفراهي في تفسير القرآن الكريم

1. **الوحدة الموضوعية والتناسق الداخلي:** يؤمن الإمام عبد الحميد الفراهي بأنّ القرآن الكريم يتمتع بهوية داخلية قوية، حيث تنسم آياته وسوره بترابط محكم حول موضوعات محددة، مما يجعل النص القرآني متكاملًا وسلسًا، بحيث لا يمكن فهمه فهمًا دقيقًا إلا من خلال النظر إليه بوصفه وحدة متماسكة. ويستلزم ذلك النظر في كل جزء من أجزاء السورة أو القرآن ككل لفهم سياقه العام.

ومن خلال عنوان تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، يتضح أنّ الإمام الفراهي ركّز على الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، إذ يرى أنّ لكل سورة محورًا مركزيًا ترتبط به جميع آياتها، وأنّ هناك انسجامًا دقيقًا في بنيتها يجعلها مترابطة ومتجانسة.

"فإنّ السورة مهما تعدّدت قضاياها فهي كلام واحد، يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية".

ويضيف الإمام الفراهي "مرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة، ثم تكون ذاتها مناسبة بالسور السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد ما، كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أنّ الآيات ربما تكون كالجمل المعترضة،

فكذلك السور تكون كالجمل المعترضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلامًا واحدًا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر".

ويرى الإمام الفراهي أنّ هناك فرقًا بين "المناسبة" و"النظام"، فالتناسب قد يقتصر على مجرد وجود علاقة بين الآيات، بينما النظام هو الذي يجعل النص مترابطًا في بنيته، بحيث يصبح كلامًا واحدًا لا انفصام بين أجزائه. ويوضح أنّ هناك حالات قد تبدو فيها الآيات المتجاورة غير متصلة، في حين أنّ ترابطها الحقيقي قد يكون مع آيات أخرى تسبقها أو تلحقها، وهو ما يجعل بعض العلماء يظنون أنّ النصوص غير مترابطة في ترتيبها الظاهري.

"وبالجملة، فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كاملا واحدًا، ثم تكون ذات مناسبة بالسور السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها، كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السور معترضة، وعلى هذا الأصل نرى القرآن كله كلامًا واحدًا، ذا مناسبة، وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر".[1]

وفي مقدمة تفسيره، يوضح الفراهي منهجه في كشف نظام القرآن، حيث يقول:

"أما بعد: فقد اجتهدت في هذا الكتاب بحول الله وتوفيقه أن أكشف عن نظام آيات القرآن العظيم، وأن أفسره تفسيرًا ساذجًا، غير خالط به من اختلاف نجم فينا بعد عصر نبينا صلّى الله عليه وسلّم، فالتمست معنى الآيات من أخواتها، وكذلك استنبطت نظام السورة من أعماقها، ومن نفس سياقها، ثم بعد ذلك أيدت ما فهمنا من القرآن بالنقل والعقل، ففي أمر النظام تدلّيت في غور الكلام بالبصر النافذ، وفي أمر التفسير عضضت على كتاب الله بالنواجذ".[2]

[1] عبد الحميد الفراهي، دلائل النظام، ص 74-75، المطبعة الحميدية، 1388م.

[2] عبد الحميد الفراهي، نظام القران وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 15، سورة البقرة، ،دار الغرب الإسلامي، تونس، د.ت.

مثال: سورة البقرة ومحور الهداية: في كتابه "دلائل النظام"، يوضح الإمام الفراهي كيف أنّ سورة البقرة قد بُنيت حول محور الهداية، حيث يرى أنّ موضوعها المركزي يدور حول أنواع الهداية، وبيان طريق المؤمنين مقابل طريق الكافرين والمنافقين، مع عرضٍ لمراحل تكوين الأمة الإسلامية وتنظيم شؤونها. فيقول:

"سورة البقرة الم: القرآن، والتوحيد، والبعثة، والإسلام، وقبلته، والصلاة والجهاد، والحج، وإحلال الطيبات، وتحريم القرابين الباطلة، والميتة والدم، والخنزير، والقصاص، والوصية، والصوم، رعاية أيام الحج، والجهاد، والحج، والسلم والصدقة، والجهاد، وتحريم الخمر والميسر، واليتامى، وتحريم النكاح المشركات والطهارة، والتوبة، والإيلاء، والطلاق، والرضاء، الصلاة، والجهاد، والإنفاق، الربا، الدين، الرهن، الشهادة، ودعاء التسهيل والعفو والنصرة.[1]

2- **نظرة الفراهي بشأن أسباب النزول:** يرى الإمام عبد الحميد الفراهي أنّ شأن النزول ليس مجرد سبب مباشر أو حدث تاريخي معيّن أدّى إلى نزول آية أو سورة، بل هو السياق العام الذي يتناول قضية أو موضوعًا معينًا من حياة الناس وقت نزول الوحي. فهو يؤكد أنّ كل سورة أو آية لم تنزل عبثًا، بل كان لها أسباب وعوامل دافعة أدّت إلى ورودها في النص القرآني، وهذه الأسباب لا تقتصر على حادثة واحدة أو موقف معين، بل هي جزء من السياق الأوسع للمجتمع آنذاك.

ويعني ذلك، في نظر الفراهي، أنّ الكلام في القرآن مترابط مع الواقع الذي كان سائدًا وقت نزوله، وأنّ السورة نفسها تتضمن مؤشرات تدل على تلك الخلفية الزمنية والواقعية. ومن ثم، فإنّ فهم شأن النزول يتطلب استقراءً دقيقًا لبنية السورة، وليس الاقتصار على روايات أسباب النزول التقليدية فقط.

ويُشبّه الفراهي العلاقة بين الكلام في القرآن والموضوعات التي يتناولها بتناسب

[1] دلائل النظام، ص 99

اللباس مع الجسم أو الجلد مع الأبدان، بمعنى أنّ كل آية في السورة تأتي منسجمة مع سياقها ومقاصدها، وكل جزء من السورة يرتبط بطريقة طبيعية ببقية الأجزاء، تمامًا كما يتناسب الدواء مع المرض الذي يُعالج.

"ليس شأن النزول كما قيل تسامحًا، سببًا لنزول آية أو سورة، بل هو شأن الناس وأمرهم الذي كان محلًا للكلام، فما من سورة إلا ولها أمر أو أمور جعلتها نصب العين، وذلك تحت عمود السورة، فلك أن تلتمس شأن النزول من نفس السورة؛ فإنّ الكلام لا بد أن يكون مطابقًا لموضعه، كما أنّ الطبيب مثلًا يتوسم من نسخة الدواء داء من قد كُتبت له تلك النسخة، فإذا كان سوق الكلام لموضوع تناسب هذا الكلام والموضوع، كتناسب اللباس والجسم، بل كتناسب الجلود والأبدان، والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضها ببعض، وما جاء في الآثار وكذا من الأمور كان موجودًا حين نزول السورة، لكي يعلم أنّ الآيات كانت لها دواعٍ ومواقع".[1]

استنتاج: بالتالي، يرى الفراهي أنّ شأن النزول لا يعني البحث عن سبب محدد لنزول آية فقط، بل يقتضي النظر إلى الظروف العامة التي كانت سائدة في المجتمع آنذاك، وفهم كيفية تناسب الكلمات والآيات مع تلك الظروف، بحيث يكون إدراك العلاقة بين النص والواقع جزءًا من فهم القرآن نفسه.

3- **تفسير القرآن بالقرآن، والحديث، وأقوال الصحابة:** اعتمد الإمام عبد الحميد الفراهي في تفسيره للقرآن الكريم منهجًا شاملًا يقوم على تفسير القرآن بالقرآن نفسه، إلى جانب الاستناد إلى السنة النبوية وأقوال الصحابة، مع الاستفادة من السيرة النبوية والتاريخ لفهم المعاني القرآنية. ويهدف هذا المنهج إلى تقديم تفسير متكامل يستند إلى المصادر الأصيلة، متجنبًا الانحرافات الفكرية والتفسيرات الاجتهادية التي تبتعد عن النصوص الصريحة. يؤكد الفراهي هذا النهج بقوله:

[1] نظام القران وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 25

"أجمع أهل التفسير من السلف إلى الخلف على أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا، وأنه أوثق تعويلًا وأحسن تأويلًا، فنقول: كما أنّ القرآن يفسّر مطالب آياته بعضها ببعض، فكذلك يدلّك نظام مطالبها ومناسبتها، بما يأتيك بنظائره، فتكثر الشواهد على رباط أمر مع أمر وبذلك يحثّك على التأمل في جامع وصلة بينها، ثم يأتي عليه بأمثلة كثيرة بعضها من بعض حتى يتدرج بك على ما كان أدق وأغمض".[1]

وفي مقدمة تفسيره، يوضح الفراهي منهجه بقوله:

"أما بعد! فقد اجتهدت في هذا الكتاب بحول الله وبتوفيقه أن أكشف عن نظام آيات القرآن، وأن أفسره تفسيرًا ساذجًا غير خالط به من اختلاف نجم فينا بعد عصر نبينا، فألتمس معنى الآيات من أخواتها، وكذلك استنبطت نظام السورة من أعماقها، ومن نفس سياقها، ثم بعد ذلك أيدت ما فهمنا من القرآن بالنقل والعقل، ففي أمر النظام تدليت في غور الكلام بالبصر النافذ، وفي أمر التفسير عضضت على كتاب الله بالنواجذ، وكنت في هذا على بصيرة من ربي، غير متتبع لأحد، ومع ذلك لم أكن ببدع في تتبع النظام؛ لأن جماعة من العلماء قصدوا إليه وصنفوا فيه".[2]

كما يرى الفراهي أنّ أفضل تفسير هو ما ورد عن النبي ﷺ وأصحابه، حيث يقول:

"قالت العلماء قديمًا أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا، وذلك بأنّ ذلك ظاهر جدًا، فإنّ القرآن يذكر الأمور بعبارات مختلفة مرة إجمالًا وأخرى تفصيلًا، فما ترك في موضع ذكره في موضع آخر، وقد صرح بهذه الصفة التي فيه في غير موضع، فهذا أصل راسخ، ولكن قل استعمال هذا الأصل وذلك بأنّ طرق الدلالة على المعاني غير محصورة، فربما تدلّ آية على المعاني يكون دليلًا على معنى في آية آخرى وربما يدل اقتران آيتين أو جملتين على معني خفي بعض الخفاء، فإن بيّنا طرق هذه الدلالات

[1] المصدر نفسه، ص 83

[2] المصدر نفسه، ص 15

تيسّر استعمال هذه الأصل".[1]

كما يرى الفراهي أنّ أفضل تفسير هو ما ورد عن النبي ﷺ وأصحابه، حيث يقول:

"أول شيء يفسّر القرآن هو القرآن نفسه، ثم بعد ذلك فهم النبي والذين معه، ولعمري أحبّ التفسير عندي ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه".[2]

أمثلة على منهجه في التفسير: عند تفسيره لقوله تعالى:

والأمثلة على ذلك كثيرة، فعندما فسّر قوله تعالى: "وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ" (سورة البقرة: 61). يقول الفراهي في بيان معنى "المسكنة":

"المسكنة مفعلة من السكون، تُستعمل للعجز، وسقوط الهمة، وبؤس العيش، ومنها المسكين، أي الذي سُدّت عنه طرق الكسب. ودلّ على هذا المعنى ما جاء في الحديث: (ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان، وإنما المسكين الذي لا يسأل ولا يُفطن له فيُعطى)" (رواه البخاري). فالمسكنة شدة العجز، وسوء العيش.[3]

ويفسّر المسكنة بأنها شدة العجز وبؤس العيش، مما يدل على اهتمامه بالبحث عن معاني الألفاظ القرآنية في ضوء اللغة العربية والأحاديث النبوية.

**تقسيم الفراهي للتفسير:** يقسم الفراهي تفسيره إلى سبعة عناوين رئيسية، وهي:

1. المقدمة: وتشمل الأمور الكلية المتعلقة بالسورة، مثل عمود السورة، ومطالبها، ومواقع نزولها، ووجه خطابها، وترتيب أجزائها.

[1] الإمام عبد الحميد الفراهي، التكميل في أصول التأويل، ص 54 و64، حققه وخرج آياته وأحاديثه، محمد سميع مفتي، د.ت.

[2] نظام القران وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 23

[3] المصدر نفسه، ص 310

2. الكلم: يتناول معنى الكلمة، ومادتها، وصيغتها، مع الاستدلال بالقرآن وكلام العرب.

3. النحو: يركز على تركيب الجمل وتأليف الكلمات، مستعينًا بالنظائر وحسن التأويل.

4. البلاغة: يبحث في دلالة الأساليب على المعاني المناسبة للمقام.

5. التأويل: يقوم على حمل الكلام على مراده وفقًا للسياق، مع الاستدلال بالقرآن وكلام العرب.

6. التدبر: يشمل ذكر المبادئ والنتائج، أي استنباط مقاصد النصوص، والاستدلال بالعقل الصريح والقرآن الكريم.

7. النظم: يهتم ببيان موقع الجمل وربط بعضها ببعض لفهم الترابط بين أجزاء السورة.[1]

**4-موقف الفراهي في الاسرائيليات:** إنّ الإمام عبد الحميد الفراهي لا يختلف موقفه من الإسرائيليات عن غيره من العلماء إلا أنه بحكم درايته بالديانات ومعرفته باللغة العبرانية كان قادرًا على نقد الإسرائيليات بعمق، كاشفًا العوار الذي تحمله تلك الروايات.

ويؤكد الفراهي أنّ الإسرائيليات المنقولة في كتب التفسير لا يُعوَّل عليها، خاصةً تلك التي لا إسناد لها، أو لم تثبت عن النبي ﷺ، أو أحد من الصحابة. كما أنّ الروايات التي لا يُعرف إن كانت حقًا أم باطلًا لم يُصدّق بها ولم يُكذّب، ومثل هذه الروايات لا يعتمد عليها في الدين بحال. وفي هذا السياق، يشير الفراهي في كتابه "التكميل في أصول التأويل":

"من الناس مَنْ يزعم أنّ التفسير إما أن يكون منقولًا عن السلف الصالحين، أو يكون خلافه وهو الرأي، والأول هو المعتمد، والثاني هو المنهي عنه".[2]

**5- اهتمامه بالنواحي البلاغة واللغوية:** تميز موقف الفراهي من النواحي البلاغية

[1] المصدر نفسه، ص 61.

[2] التكميل في أصول التأويل، ص 93

واللغوية في كتابه "نظام القرآن" بالتركيز على التركيب اللغوي المحكم والتناسق البلاغي بين أجزاء القرآن الكريم. كان يرى أنّ كل كلمة وجملة في القرآن لها دلالة دقيقة تتناسب مع المعنى الكلي للسورة، كما اهتم بالتناغم بين الألفاظ والمعاني.

ويعتقد الفراهي أنّ التكرار في القرآن ليس مجرد أسلوب لغوي، بل يحمل دلالات بلاغية عميقة، إذ يُعبر عن البلاغة العليا التي تخدم المقاصد التربوية والدينية. وأكد أنّ كل جزء من السورة يتناغم مع ما قبله وما بعده ليُشكّل نظامًا متكاملاً يُساعد على فهم القرآن بعمق ووضوح.

في تفسيره لآية: "تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ" (سورة المسد: 1). يقول الفراهي:

"فاعلم أنّ مفهوم "تبّت يداه": إنه صار عاجزًا عن الانتصار، لأنّ كسر اليد كناية واضحة عن كسر القوة والعجز، كما قال الفند الزماني:

وتركنا ديا تغلب قفرًا وكسرنا من الغواة الجناحا".[1]

ويتابع الفراهي: "فتبيّن من ذلك أنّ المكسور اليد هو العاجز الذي لا يستطيع أن يأخذ سيفه، فهذه الآية ليست بدعاء عليه، ولا شيء من الشتم، بل ذكره بالكنية أقرب إلى الإكرام، فالتأويل أنه إخبار ونبوة تُنبئ عن هلاك رئيس أعداء الله وفرعون هذه الأمة، كما أنّ قوله تعالى: "مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ" "إخبار ونبوة".[2]

**5- أسلوب استدلاله وفهمه للقرآن الكريم:** امتلك الفراهي ذوقًا فريدًا في فهم القرآن الكريم والاستدلال منه، حيث كان فكره مشغولًا بالقرآن ولأجل القرآن، تمامًا كما كان دأب الشهيد سيّد قطب في "في ظلال القرآن".

كرّس الفراهي حياته للقرآن، قراءةً وتأليفًا، وتعليمًا وتعلّمًا، سعيًا لفهمه العميق

[1] نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 862

[2] المصدر نفسه، ص 863

مجلة الهند ـ ـ ـ

آية: "بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ" في درجة ثامنة، عليها تجليات أنوار الله التي عبر منها العرش، كما بين قوله تعالى: "إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرُۢ ۝٥٥" (سورة القمر: 54-55).[1]

**6-منهج الفراهي في تفسير آيات الأحكام:** يتوافق منهج الإمام الفراهي في تفسير آيات الأحكام مع منهج الشهيد سيّد قطب، حيث لم يتناول المسائل الفقهية في تفسيره، معتبرًا أنّ ذلك خارجٌ عن مقصده في تأليف نظام القرآن. فقد ركّز جهوده على كشف الروابط بين الآيات وإبراز نسقها المتكامل، بدلًا من الدخول في التفريعات الفقهية. ولهذا، اعتذر في مقدمة تفسيره عن الخوض في القضايا الفقهية، موجهًا اهتمامه إلى بيان وحدة البناء القرآني وجمال نظمه. يقول الفراهي في مقدمة تفسيره:

"فإني ما أردت أن أجمع كل ما يتعلق بالقرآن، فإنه كنز لا ينفد على كثرة المجتهدين، والكتب في التفسير كثيرة، فمن يسرح نظر التحقيق يؤت من العلم ما شاء الله، ولكني أردت ما يكون كالأساس والأم والوسط والحكم، ولهذا اقتصرت على ما في القرآن، غير جاحد لما تركته، كما جمع الإمام البخاري رحمه الله في كتابه ما ثبت عنده من الحديث متفقًا عليه، مع ما ترك كثيرًا من الصحاح".[2]

استدلاله على أوقات الصلوات الخمس: رأى الإمام الفراهي أنّ أوقات الصلوات الخمس مذكورة في القرآن الكريم، حيث اعتمد في استنباطه على منهجية بناء المقادير على الأعداد، واستدل على ذلك بقوله تعالى: "فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ۝١٨" (سورة الروم: 17-18). حيث يرى الفراهي أن هذه الآية تشير إلى مواقيت الصلاة الخمس كما يلي:

"تمسون" = وقتي المغرب والعشاء

[1] المصدر نفسه، ص 38.

[2] المصدر نفسه، ص 24

"تصبحون" = وقت الفجر

"عشيًا" = وقت العصر

"تظهرون" = وقت الظهر

ويُلاحظ هنا أسلوب الفراهي الفريد في التفسير، حيث لم يقتصر على بيان المعاني الظاهرة، بل سعى إلى استخراج النظم الدقيق للآيات وفق رؤية متكاملة للقرآن الكريم.

7-**منهج الإمام الفراهي في القراءات:** يتضح من خلال دراسة كتب الإمام حميد الدين الفراهي في التفسير وعلوم القرآن أنه لم يُعْنَ بالقراءات عناية تفصيلية كما فعل بعض المفسرين، مثل سيّد قطب، بل جاءت إشاراته إليها نادرة جدًا. فلم يذكر القراءات إلا في موضعين فقط، وكلاهما يتعلقان بما يُعرف بـ"القراءة التفسيرية" المنسوبة إلى الصحابي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الموضوع الأول: أثناء تفسيره لقوله تعالى: "الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢" (سورة البقرة: 1) حيث قال: قد روي أنه قرأ بعدها قوله تعالى: (الم، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) وكان من عادته في التفسير أن يقرأ من القرآن بالنظير، وقد أخطأ الرواة كثيرًا فيما زعموا ذلك منه قراءة، هذا يتضح من تتبع ما ذكروا من قراءاته وقراءات الصحابة".[1]

## وثانيًا: منهج السيّد شهيد في "في ظلال القرآن"

اتبع الشهيد سيّد قطب منهجًا فريدًا في تفسير القرآن الكريم، لم يسبقه إليه أحد بنفس الأسلوب. فقد اعتمد على رؤية خاصة للقرآن، تمحورت حول التفاعل الروحي مع النصوص، بعيدًا عن التفاسير التقليدية التي تتوسع في النقول والجزئيات الفقهية واللغوية.

[1] المصدر نفسه، ص 79.

**أبرز قواعد منهجه في "الظلال":**

**1. دخول عالم القرآن دون مقررات سابقة:** بمعنى أنه لم يكن يفرض على النصوص أي تفسيرات مسبقة، بل كان يحاول استكشاف دلالاتها بروح متجددة.

**2. المحافظة على جو النص القرآني:** أي أنه كان يهتم بالإحساس الشعوري بالنصوص، ويسعى إلى نقل التجربة القرآنية كما عاشها النبي ﷺ والصحابة.

**3. استبعاد المطولات التي تحجب نور القرآن:** لم يكن يهتم بالمسائل الفقهية التفصيلية، بل كان يركز على المعاني الكبرى التي تُلهم القارئ وتوجهه نحو العمل والتغيير.

**4. الوحدة الموضوعية للقرآن:** يرى سيد قطب أنّ القرآن الكريم ليس مجرد آيات متفرقة، بل هو بناء متكامل ذو ترابط داخلي، يعكس وحدة فكرية وروحية.

**1- التناسق الداخلي والموضوعي في القرآن الكريم**

**1. التناسق الداخلي للوحي:** اعتبر سيّد قطب أنّ القرآن الكريم يتميز بتناسق داخلي، لكنه لم يكن يرى أنّ كل سورة تدور حول موضوع واحد، بل اعتبر أنّ كل سورة تعكس وحدة شعورية وروحية.

**2. الوحدة الموضوعية داخل السورة:** يقصد بها البحث عن الهدف الرئيسي الذي تتناوله السورة، أو مجموعة الأهداف في السور الطويلة.

يسعى التفسير إلى اكتشاف الروابط التي تجمع بين القصص، الجدل، التشريع، الوصف، والمواعظ.

الغاية هي استخلاص الفكرة المحورية التي توحّد هذه العناصر في سياق متكامل.

**3. ترابط السور ببعضها البعض:** يرى سيّد قطب أنّ السور تصادق بعضها البعض، مما يؤدي إلى تحقيق الوحدة الكبرى للقرآن، والتي تدور حول العبودية لله والامتثال

لأوامره واجتناب نواهيه.

مثال من تفسيره لسورة البقرة: عند انتهاء سورة البقرة، يقول سيد قطب:

"ومن ثم تتضمن حملة قوية على أفاعيلهم هذه، وتذكرهم بمواقفهم الممثلة نبيهم موسى عليه السلام، ومن شرائعهم وأنبيائهم على مدار أجيالهم، وتخاطبهم في هذا كأنهم جيل واحد متصل، وجبلة واحدة لا تتغير ولا تتبدل".

ويضيف: "وتنتهي هذه الحملة بتيئيس المسلمين من الطمع في إيمانهم لهم، وهم على هذه الجبلة الملتوية القصد المؤوفة الطبع، كما تنتهي بفصل الخطاب في دعواهم أنهم وحدهم المهتدون، بما أنهم ورثة إبراهيم، وتبين أنّ ورثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين يمضون على سننه، ويتقيدون بعهده مع ربه."، وأنّ وراثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين به، بعدما انحرف اليهود، وبدلوا ونكلوا عن استجابة لدعوة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان القواعد من البيت.[1]

**نظرة سيد قطب الشمولية للقرآن:** يتميز سيّد قطب بنظرة شمولية إلى القرآن الكريم، حيث لم يكن يراه مجرد أجزاء منفصلة، بل كوحدة متكاملة ذات تناسق دقيق.

على الرغم من نزوله خلال ثلاثة وعشرين عامًا، إلا أنه يرى أنّ منهجه واحد، وطبيعته ثابتة، سواء في أول ما نزل بمكة أو في آخر ما نزل بالمدينة.

لم يكن سيّد قطب يهتم بالتفسيرات الجزئية التي قد تشتّت القارئ، بل كان يعمد إلى استخلاص الروح العامة للنص القرآني وتقديمها بطريقة تُحدث التأثير العميق في النفس والفكر.

**3- تفسير القرآن بالقرآن، والحديث وأقوال الصحابة:** يؤكد الباحث أنّ سيّد قطب سلك منهج العلماء السلف في تفسيره للقرآن الكريم، حيث اعتمد على تفسير القرآن بالقرآن،

[1] سيد قطب شهيد، في ظلال القرآن، 34/1، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة السابعة عشر، 1412هـ.

ثم بالحديث النبوي، ثم بأقوال الصحابة، وأخيرًا بالتدبر والاستنباط من الآيات.

ويظهر لمن يقرأ كتاب "في ظلال القرآن" أنّ سيّد قطب التزم بهذا النهج، معتبرًا إياه من أفضل طرق التفسير. فقد اقتدى بمنهج حميد الدين الفراهي، حيث كان يفسّر القرآن بالقرآن، ثم يستند إلى الحديث النبوي، كما كان يضع في الاعتبار الملابسات التاريخية، ويعيش في أجواء النزول، مستحضرًا السيرة النبوية وتفاعل الصحابة مع القرآن، مما يجعل تفسيره متكاملًا يجمع بين الفهم العميق والتدبر الواعي.

فعند تفسيره لقوله تعالى: "وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ..." (سورة البقرة: 124). يقول سيّد قطب:

"يقول للنبي صلّى الله عليه وسلّم اذكر ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من (الأوامر والتكاليف)، فأتمّهن وفاءً وقضاءً... وقد شهد الله لإبراهيم في موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه، فتتحقق شهادته الجليلة: "وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾" (سورة النجم: 37) وهو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم... مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عزّ وجلّ".[1]

كما نجده عند تفسيره لقوله تعالى في سورة النساء: "وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾". (سورة النساء: 140) فيقول:

"والذي تحيل إليه الآية هنا مما سبق تنزيله في الكتاب، هو قوله تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: "وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ ..." (سورة الأنعام: 68)".[2]

[1] المصدر نفسه، 112/1

[2] المصدر نفسه، 781/2

وفي تفسيره لقوله تعالى: "لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾" أورد حديثين عن أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- عند أحمد والترمذي في سؤاله للرسول- صلّى الله عليه وسلّم- وخوفه من هذه الآية، وإقرار الرسول- عليه الصلاة والسلام- لها، وتفسيره للآية.[1]

لما فسّر قوله تعالى: "وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾" (سورة البقرة: 195) وأثناء حديثه عن الإحسان ومرتبته- الذي تدعو إليه الآية- أورد حديثًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتفسير لها فقال: ومرتبة الإحسان هي عليا المراتب في الإسلام وهي كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".[2]

إنّ سيّد قطب يعتمد على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة في تفسير نصوص القرآن الكريم، كما يعتمد عليهما في بيان أسباب النزول، وفي توضيح المجمل من القرآن، وفي معرفة حقائق وحوادث عن عالم الغيب. ولم يكتفِ بذلك، بل توسع تفسيره ليشمل كل حياة النبي- صلّى الله عليه وسلّم- العامة والخاصة، وسيرته العملية، وحركته القتالية، ومهمته التربوية. كما شمل تفسيره حياة الصحابة، وحركتهم بالقرآن، وتفاعلهم معه، ومدى التقدم الإيماني الذي وصلوا إليه.

**4- نظريته في الروايات الاسرائيلة:** لم يختلف موقف سيّد قطب تجاه الروايات الإسرائيلية عن موقف عبد الحميد الفراهي، فقد كان حريصًا على البقاء في جو النص القرآني والحديث النبوي الصحيح، وعدم البحث فيما هو مسكوت عنه فيهما، ومن ثم عدم إثبات شيء من الإسرائيليات في ذلك. يقول في تفسير قول الله عزّ وجلّ: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ..." (سورة

[1] المصدر نفسه، 371/1

[2] المصدر نفسه، 192/1

الأعراف: 133) فيكتفي بالبقاء في جو النص القرآني، ويصمت عما صمتت عنه النصوص، ويعتمد فقط على الآيات والأحاديث الصحيحة، وينكر على المفسرين أخذهم عن الإسرائيليات، فيقول:

"فأما كيف وقعت هذه الآيات، فليس لنا وراء النص القرآني شيء. ولم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- عنها شيئًا. ونحن على طريقتنا في هذه "الظلال" نقف عند حدود النص القرآني في مثل هذه المواضع. لا سبيل لنا إلى شيء منها إلا من طريق الكتاب أو السنة الصحيحة. وذلك تحرزًا من الإسرائيليات والأقوال والروايات التي لا أصل لها والتي تسرّبت- مع الأسف- إلى التفاسير القديمة كلها، حتى لا ينجو منها تفسير واحد من هذه التفاسير، وحتى إنّ تفسير الإمام ابن جرير الطبري- على نفاسة قيمته- وتفسير ابن كثير كذلك- على عظيم قدره- لم ينجُ من هذه الظاهرة الخطيرة".[1]

**5- موقف سيد قطب في النواحي اللغوية والبلاغية:** كان كلٌّ من عبد الحميد الفراهي وسيّد قطب يهتمان بتفسير القرآن بلاغيًا، وكان لكل منهما تركيزه الخاص على اللغة القرآنية وأسلوبها، حيث كان الفراهي يعتمد على التركيب اللغوي كأداة لفهم المعاني العميقة، بينما كان سيّد قطب أكثر اهتمامًا بالجانب التأثيري البلاغي للآيات وتأثيرها على الروح البشرية. وقد ركّز قطب على الجوانب التربوية والإيمانية للبلاغة، إذ رأى أنّ الأسلوب البلاغي في القرآن يتناغم مع الهدف الإلهي، حيث يُستخدم التكرار، والاستعارات، والتشبيهات بذكاء لإيصال المعاني بطريقة تؤثر في النفس وتُحفّز على التفكير.

سيّد قطب، في تفسيره، كان شديد الاهتمام بالنواحي اللغوية والبلاغية للقرآن، حيث اعتبر أنّ اللغة القرآنية تنطوي على عمق معنوي يتجاوز ظاهر الألفاظ، وتركّز على الجمال البلاغي الذي يخدم غايات القرآن التربوية والروحية. كما كان يربط بين

[1] المصدر نفسه، 1358/3

البلاغة والواقع الاجتماعي، وهذا ما جعله يُبرز دور القرآن في بناء الإنسان والمجتمع، مستدلًا بالتوجيهات اللغوية التي تعكس قيم العدالة والرحمة.

في تفسيره للآيات، كان يسعى إلى إبراز الصورة البلاغية في النص القرآني والأسلوب التصويري الذي يقدّمه القرآن. وقد سعى إلى إبراز معاني الآيات من خلال تصويرها بأسلوب أدبي يجذب القارئ، ويجعله يتفاعل معها فكريًا ووجدانيًا.

مثال: في تفسيره لسورتي الفلق والناس، تناول الصور البلاغية التي يتضمنها القرآن عند الحديث عن الشرور والوساوس، فيصيغ الآيات في صورة تجذب القارئ لفهم أعمق للمعنى الكامن وراء كل كلمة. يقول:

"ثم حدد ماهية هذا الوسواس: "من الجنة والناس"... وهذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبيّن حقيقة الوسواس الخناس، بعد إطلاق صفته في أول الكلام، ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره، تأهبًا لدفعه أو مراقبته! والنفس حين تعرف- بعد هذا التشويق والإيقاظ- أنّ الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفية وسرًا، وأنه هو الجِنّة الخافية، وهو كذلك الناس الذين يتدسّسون إلى الصدور تدسس الجِنّة، ويوسوسون وسوسة الشياطين... النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع، وقد عرفت المكمن والمدخل".[1]

**5- أسلوب السيد في الاستنباط والاستدلال في القرآن الكريم:** امتاز سيّد قطب بمنهج فريد في الاستدلال والاستنباط، حيث استطاع أن يستخرج من نصوص القرآن الكريم دلالاتها العميقة، ويكشف عن مغازيها وإيحاءاتها، مسجلًا حقائقها بأسلوب يجمع بين التدبر العميق والفهم المستنير.

كان يسير في استدلاله على نهج الفراهي، فيبدأ بتسجيل استنتاجه، ثم يبين استخراجه

[1] المصدر نفسه، 4011/6

من الآية نفسها، مستدلًا أحيانًا بآيات أخرى تعضد المعنى، وأحيانًا يستأنس بالأحاديث النبوية وأقوال الصحابة، كما كان يلجأ في بعض المواضع إلى أقوال المفسرين السابقين، فيضيف إلى تفسيره بُعدًا علميًا متكاملًا يجمع بين الأصالة والتجديد.

ذهب سيد قطب إلى أنّ سليمان- عليه السلام- لم يحكم كل الإنس ولا كل الجن ولا كل الطير، فتكون "من" للتبعيض في قوله تعالى: "وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧" (سورة النمل: 17)

فرأى أنّ حكم سليمان- عليه السلام- كان لطائفة من الإنس، وطائفة من الجن، وطائفة من الطير، وقد بيّن لنا أدلته النقلية والعقلية على ذلك.

أما دليله على أنّ سليمان- عليه السلام- لم يحكم كل الإنس، فهو أنه "لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جندًا لسليمان، إذ إن ملكه لم يتجاوز ما يُعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات"[1] وهذا دليل تاريخي.

أما دليله على أنّ سليمان- عليه السلام- لم يحكم كل الجن، فهو وجود إبليس وجنوده وذريته من الجن الذين يوسوسون في صدور الناس، وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر في عهد سليمان، وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخّرون له، مقيدون بأمره، وهو نبي يدعو إلى الهدى".[2]

وأما دليله على أنّ حكم سليمان- عليه السلام- لم يشمل كل الطير، فهو أنه "حين تفقد الطير علم بغياب الهدهد، ولو كانت جميع الطيور مسخّرة له، محشورة في موكبه، ومنها جميع الهداهد، لما استطاع أن يتبيّن غياب هدهد واحد من ملايين الهداهد، فضلًا عن بلايين الطير. ولما قال: (مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ؟)، فهو إذن هدهد خاص

[1] المصدر نفسه، 2635/5

[2] المصدر نفسه، 2636/5

بشخصه وذاته".[1]

**6- موقف السيد قطب في آيات الأحكام:** لم يجعل سيّد قطب من تفسيره ساحة للغرق في الجدل الفقهي الموسع، ولا مجالًا لعرض الأقوال والمذاهب الفقهية بأدلتها ونقاشاتها المتشعبة، لأنه لم يتبع المدرسة الفقهية التقليدية، ولم يقتصر تفسيره على آيات الأحكام فقط.

كان قطب يحمل رؤية "سلفية" في مقاربته للمسائل الفقهية التي تناولها في في ظلال القرآن، كما فعل الفراهي في هذا السياق، حيث لم يتطرّق إلى المسائل الفقهية المعقدة في تفسيره، بل كان يعتمد على استلهام النصوص القرآنية وتأملها العميق، مستنبطًا منها الآراء والأحكام، ليقدم فهمًا روحانيًا وفكريًا بعيدًا عن التفصيلات الفقهية الدقيقة.

مثال: في حكم الأسرى في الإسلام، يعرض القرآن ذلك في قوله تعالى: "حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ" (سورة محمد: 4)

وقد اعتبر سيد قطب هذه الآية "النص القرآني الوحيد المتضمّن حكم الأسرى..."، ويرى أنّ حكمهم إلى الإمام: إما أن يطلق سراحهم مقابل فدية من مال أو عمل، أو في نظير إطلاق سراح المسلمين الأسرى، وليس في الآية حالة ثالثة كالاسترقاق أو القتل.

ولكن الذي حدث فعليًا أنّ "رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- والخلفاء من بعده استرقّوا بعض الأسرى، وهو الغالب، وقتلوا بعضهم في حالات خاصة...[2]

**7- منهج السيد قطب في القراءت:** لم يكن من أهداف سيّد قطب في ظلال القرآن بيان القراءات وأصحابها وكيفياتها وتوجهاتها النحوية والبيانية والتفسيرية، كما فعل بعض المفسرين في تفاسيرهم. بل كان يورد القراءات في تفسيره لتحقيق غاياته

[1] المصدر نفسه، 2636/5

[2] المصدر نفسه، 3282،3285/6

الأساسية، مثل توسيع مدلول النص، واستنباط دلالاته، وترجيح بعض معانيه.

كان سيّد قطب في إشاراته القليلة إلى القراءات لا يذكر إلا قراءتين للكلمة أو العبارة، وأحيانًا يوردهما دون ترجيح، معتبرًا كلًّا منهما واردةً محتملةً، وأحيانًا يرجّح إحداهما. وكانت قراءة حفص هي القراءة المعتمدة لديه، نظرًا لكونها الأكثر انتشارًا في مصر والشام والعراق.

مثال على ذلك: في قوله تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ" (سورة آل عمران: 161)

في قراءة حفص: "يَغُلَّ" ببناء الفعل للمعلوم، فيكون النفي هنا نفيًا لإمكان وقوع الفعل، وليس نفيًا لجوازه، إذ إن طبيعة النبي صلّى الله عليه وسلّم العادلة العفيفة تمنع وقوع الغلول منه ابتداءً.

في قراءة الحسن البصري: "يُغَلَّ" ببناء الفعل للمجهول، أي لا يجوز أن يُخان النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أن يُخفى عنه أتباعه شيئًا، فتكون القراءة نهيًا عن خيانة النبي في أي شيء، وهو ما يتناسب مع سياق الآية.[21]

فمن توجيه سيّد للقراءتين أظهر لنا أنّ الأولى نفي لإمكان الغلول من قبل النبي صلّى الله عليه وسلّم والقراءة الثانية نهي للصحابة عن الغلول ولم يرجح أيا مهما على اعتبارهما واردتين.

**خلاصة القول:** كان العالمان الجليلان، العلّامة عبد الحميد الفراهي وسيّد قطب- رحمهما الله- يتفقان في العديد من القضايا التفسيرية، حيث ظهر تناغم واضح بين أسلوب تفكيرهما وأفكارهما، كما يتضح من الأمثلة السابقة.

ورغم أنهما عاشا في فترات زمنية متقاربة، فإنّ الفراهي كان أكبر سنًّا من سيّد قطب، مما جعله يسبقه في مجال التفسير. ومع ذلك، فإنّ منهجهما في تفسير القرآن

[1] المصدر نفسه، 504/1.

[2] المصدر نفسه، 504/1.

الكريم كان متقاربًا إلى حد كبير، فكلاهما كان يرى القرآن وحدةً مترابطةً ذات سياق متكامل.

كما اتّفقا في موقفهما من آيات النزول، واتّبعا نهجًا متشابهًا في تفسير القرآن بالقرآن، والاستشهاد بالحديث وأقوال الصحابة. وكذلك، كان لهما موقف واضح من الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة، كما لم يغرقا في الدراسات اللغوية والبلاغية البحتة، بل ركّزا على استنباط المعاني، واستخراج الأحكام، ودراسة القراءات، وغيرها من القضايا التفسيرية الجوهرية.

هذا التوافق بين أفكارهما وأساليبهما يبرز مدى التقارب بينهما في منهج تفسير القرآن الكريم، رغم اختلاف العصور.

## المصادر والمراجع


1. أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتّاب العربي، بيروت، لبنان. د.ت.
2. الإمام حميد الدين الفراهي، التكميل في أصول التأويل، تحقيق وتعليق: محمد سميع مفتي. د.ت.
3. الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، عمان، الأردن، ط1، 1421هـ/2000م.
4. الدكتور محمد فريد لاوي، الإمام عبد الحميد الفراهي، وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، دار الشاكر للطباعة والنشر والتوزيع، ماليزيا. د.ت.
5. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت. د.ت.
6. عبد الحميد الفراهي، دلائل النظام، المطبعة الحميدية، 1388هـ.
7. عبد الحميد الفراهي، نظام القرآن وتأويل القرآن بالفرقان، دار الغرب الإسلامي، تونس.ب د.ت.

ISSN: 2321-7928

# أثر أفكار الفراهي على تفسير المودودي
## (دراسة تحليلية)

- د. محمد فضل الله شريف[1]

يُعدّ الشيخ حميد الدين الفراهي المتوفى عام 1930م أحد أبرز المفكرين الإسلاميين الذين قدّموا رؤى جديدة في تفسير القرآن الكريم، وكان له إسهام بارز في نظرية النظم القرآني والوحدة الموضوعية للسور، وعلى الجانب الآخر، يأتي السيد أبو الأعلى المودودي المتوفى عام 1979م كمفسّر ومفكر إسلامي بارز، أثرى الفكر الإسلامي بتفسيره تفهيم القرآن الذي تميز بمنهجه الموضوعي والتربوي، تهدف هذه الدراسة إلى استقصاء مدى تأثر المودودي بأفكار الفراهي، وتحليل أوجه التشابه والاختلاف بين منهجيهما في التفسير.

### منهج الفراهي تفسيره

تميز الفراهي بمنهجه الفريد في تفسير القرآن، حيث ركز على نظرية النظم القرآني، التي تنص على أنّ لكل سورة موضوعًا رئيسيًا يربط بين آياتها، وأنّ القرآن مترابط في معانيه وأهدافه. ومن أهم سمات منهجه: أنّ كل سورة تعالج فكرة مركزية، ويمكن فهم آياتها في ضوء هذا السياق الكلي.

1. **التفسير اللغوي**: اعتمد الفراهي على التحليل اللغوي الدقيق للكلمات القرآنية، مستندًا إلى أصول اللغة العربية وأساليبها.
2. **العناية بالمعاني السياقية**: ركز على تفسير الكلمات بناءً على سياقها في النص القرآني، وليس فقط اعتمادًا على المعاجم اللغوية.

[1] أستاذ مساعد، كلية ايه كيه ايم الشرقية التابعة بالجامعة العثمانية، غاتشي غوره حيدر آباد

### ملامح التفسير عند المودودي

تبنى المودودي في تفهيم القرآن منهجًا يجمع بين التفسير الموضوعي والشرح المبسط الذي يسهل فهمه للعامة. ومن أبرز ملامح تفسيره:

1. **تقديم فكرة مركزية لكل سورة**: بدأ كل سورة بمقدمة تحدد موضوعها الرئيسي والسياق التاريخي لنزولها.
2. **تحليل المفردات القرآنية**: استخدم أسلوبًا مبسطًا في شرح الكلمات والمصطلحات، مما يعكس تأثره بالنهج اللغوي عند الفراهي.
3. **الربط بين الآيات والسور**: عمل على توضيح العلاقة بين آيات السورة الواحدة، وأحيانًا بين السور ذات الموضوعات المتشابهة.

### نقاط التأثر بين الفراهي والمودودي

تأثر المودودي بأفكار الفراهي في عدة جوانب:

1. **الوحدة الموضوعية**: اعتمد المودودي فكرة أنّ لكل سورة موضوعًا رئيسيًا، وهي من أبرز نظريات الفراهي.
2. **تحليل المصطلحات القرآنية**: تأثر المودودي بأسلوب الفراهي في تفسير المفردات بناءً على سياقها، مع الابتعاد عن التفسير التقليدي الذي يعتمد فقط على الروايات.
3. **التفسير التحليلي**: مثل الفراهي، لجأ المودودي إلى التفسير التحليلي الذي يبرز المعاني الكلية للآيات.
4. **توضيح مقاصد الشريعة**: اهتم المودودي ببيان مقاصد الأحكام القرآنية وتأثيرها في المجتمع، وهي فكرة تلتقي مع منهج الفراهي في البحث عن الأهداف العامة للقرآن.

يظهر التحليل المقارن بين منهجي الفراهي والمودودي أنّ هناك تشابهًا واضحًا في الرؤية

التفسيرية، مع بعض الفوارق خاصة فيما يتعلق بالوحدة الموضوعية للسور، وتحليل المصطلحات، والربط بين الآيات. تأثر المودودي بأفكار الفراهي بشكل غير مباشر، حيث وظّف بعض أدواته المنهجية في تفسيره، مع إضفاء طابعه الخاص الذي يجمع بين البعد التربوي والفكري. لذا، يمكن اعتبار تفسير المودودي امتدادًا لتطوير منهج الفراهي، مع بعض التعديلات التي تتناسب مع طبيعة مشروعه الفكري والإصلاحي، وهي كما يلي:

**مفهوم الوحدة الموضوعية وأثره على المودودي:** شرح مفهوم الوحدة الموضوعية:

الوحدة الموضوعية تعني أنّ كل سورة في القرآن لها موضوع رئيسي واحد يربط آياتها، ويُظهر ترابطًا واضحًا بين مختلف آيات السورة، يرى أنّ لكل سورة محورًا أساسيًا يربط بين مختلف القضايا التي تتناولها، ركّز المودودي على افتتاحية السورة تضع الأساس لموضوعها، وخاتمتها تأتي كنتيجة طبيعية لما سبق.

**مقارنة بين منهج الفراهي والمودودي في التفسير مع الأمثلة**

يمكننا مقارنة عناصر محددة في منهجهما، مع تقديم أمثلة توضح كيفية تناول كل منهما لنفس الموضوع بأسلوب مختلف، مما يبرز مدى تأثير فلسفتهما وتوجههما الفكري على تفسيراتهما.

1. **الوحدة الموضوعية للسور:** الفراهي يعتبر من الرواد في إبراز مفهوم "الوحدة الموضوعية" للسور، حيث يرى أنّ كل سورة تتناول موضوعًا رئيسيًا له علاقة واضحة بين مختلف آياتها. على سبيل المثال، في تفسيره لسورة البقرة، يرى **أن الموضوع الرئيسي لسورة البقرة هو بيان دور الأمة المسلمة كخليفة لله في الأرض بعد انحراف بني إسرائيل.** ووفقًا لنظريته في "نظام القرآن"، فإنّ السورة تتناول هذا الموضوع من خلال عرض تاريخ بني إسرائيل، وتوجيه الأمة المسلمة إلى منهج الخلافة الصالحة. يقول الفراهي:

"إعلم أنّ سورة البقرة وجه القرآن، كما أنّ الفاتحة غرته، وهذه إكليله كما أنّ تلك

درته، فإنّ هذه السورة تجلي أسارير هذه البعثة وأسرارها، وقبلة هذه الملة، وسرة دارها، ثم تهدي إلى أسّ الديانة ومحورها، ومخ الشريعة وجوهرها، وبعبارة أخرى هي تمام النبوة وكمالها، كما تمنى إبراهيم حين دعا ربه فقال: "رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ" (سورة البقرة: 129) {فأجابه} حسب هذا الدعاء، وبعث رسولًا متصفًا بتلك الصفات الأربع، وجعل هذه السورة مرآة له، ولأمة مسلمة دعا لها إبراهيم عليه السلام، وجعل الإيمان به حقيقة الإيمان، فإنّ المراد بالإيمان هو الإيمان بالنبوة.[1]

والمودودي تأثر بمفهوم الفراهي للوحدة الموضوعية وطبّقه في "تفهيم القرآن"، لكنه استخدمه بطريقة تهدف إلى الإصلاح المجتمعي. مثلًا ففي سورة البقرة، يبرز المودودي موضوع التشريع والأحكام الاجتماعية، ويستخرج من الآيات توجيهات حول كيفية تحقيق مجتمع متماسك وعادل.

فيقول: "إن سورة البقرة تمثّل منهاجًا متكاملًا لبناء الأمة الإسلامية، حيث تضع المبادئ الأساسية للعقيدة، والتشريع، والهوية، وتحمّل المسلمين مسؤولية قيادة البشرية نحو الهداية".[2]

2. **التدقيق اللغوي:** تأثر المودودي بالفراهي في منهجية التدقيق اللغوي، حيث استفاد من تحليلاته العميقة للمصطلحات القرآنية ودلالاتها، مع التركيز على المعاني الأصلية في سياقاتها اللغوية. غير أنّ المودودي أعاد توظيف هذه المنهجية بأسلوب يجمع بين الدقة اللغوية والبعد التربوي والفكري، مما يعكس رؤيته الإصلاحية في تفسير النصوص القرآنية.

الفراهي يعتمد على التحليل اللغوي المتعمق لفهم معاني الكلمات القرآنية، حيث كان يدرس جذور الكلمات وأصولها لربط المعاني القرآنية بدلالاتها الدقيقة. مثال ذلك

[1] عبد الحميد الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان: 65، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
[2] سيد أبو الأعلى المودودي، تفهيم القرآن: 46،48، إدارة ترجمان القرآن ، لاهور.

تفسيره لكلمة "الصراط المستقيم" في سورة الفاتحة، حيث يشرح "الصراط" بأنه الطريق الواضح للهداية، ويستفيض في دلالاته من خلال تحليل لغوي معمق. فيقول:

"أول ما يطلب، فإنه التوحيد، وبتفصيله هو الطريق الموصل إلى الرب، وهو الشرع، ويلزمه الإطاعة للرسل، وهو أجمع الأدعية، وأتمها، وهو أولها، فإن كل عمل وعلم أخطأه بطل وأبعد".[1]

ولكن المودودي استفاد من هذا النهج، على أنه ركز أكثر على استخدام الكلمات في تحقيق أغراض اجتماعية وتربوية، وتوجيه المسلمين نحو الإصلاح. في تفسيره لكلمة "الأمانة" في آية "إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ"، يشرحها بأنها مسؤولية إقامة الدين وتحقيق العدل في المجتمع، ويستخدمها لتسليط الضوء على ضرورة التزام المسلمين بأخلاقيات القيادة وتحمل المسؤولية. فيقول:

"يعني: دلنا على ذلك النهج الصحيح في كل مجالات الحياة، في الفكر، والعمل، والسلوك، الذي لا يشوبه خطأ في الرؤية، أو انحراف في الفعل، أو سوء في العاقبة، والذي باتباعه ننال الفلاح والسعادة الحقيقية. هذه هي الدعوة التي يرفعها العبد إلى ربه عند شروعه في تلاوة القرآن، وهو يناشده قائلًا: يا رب، أرشدنا وبيّن لنا ما هي الحقيقة وسط هذه المتاهات الفلسفية الافتراضية؟ وما هو النظام الأخلاقي الصحيح بين مختلف النظريات الأخلاقية؟ وأي طريق مستقيم وواضح ينبغي أن نسلكه بين هذه المسارات المتعددة في الحياة؟".[2]

3. **تحقيق المقاصد القرآنية:** تأثر المودودي بالفراهي في منهجية تحقيق مقاصد القرآن، حيث تبنى فكرة الوحدة الموضوعية للسور وربط الآيات في سياق متكامل يكشف عن الغاية الكلية للنص القرآني. غير أنّ المودودي وظّف هذا المنهج

[1] عبد الحميد الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان، المصدر السابق: 34

[2] سيد أبو الأعلي المودودي، تفهيم القرآن، المصدر السابق: 45

ضمن مشروعه الفكري والإصلاحي، مما أضفى على تفسيره بُعدًا عمليًا يخدم قضايا المجتمع، فجمع بين الفهم العميق للمقاصد القرآنية والتوجيه التربوي والتطبيقي.

إنّ الفراهي يعتني بالمقاصد العامة للقرآن مثل الهداية، العدل، والتوحيد، لكنه ركز على كيفية تحقيق الفرد للتقوى والتكامل الروحي. مثال ذلك في تفسيره لآيات الصبر، حيث يرى أنّ الصبر يعني الاتكال الكامل على الله وترك الشهوات، في سبيل تحقيق نقاء الروح. فيقول الفراهي مشيرا إلى هذه المعاني:

"وفي القرآن بيّن معنى الصبر، حيث قال الله تعالى: "وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ"(سورة البقرة: 177) فذكر من مواطن الصبر: الفقر، والمرض، والحرب، وذلك أصول الشدائد ، وكذلك الصبر عند نزعات النفس على أذى الناس، كما مرّ بك في قوله تعالى: "وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ" (سورة الشورى: 43)".[1]

وإذا المودودي يوسع نطاق المقاصد لتشمل إصلاح المجتمع وتطبيق الشريعة. في آيات "وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ"، يفسّر المودودي إقامة الصلاة على أنها ليست عبادة فردية فحسب، بل هي عامل لبناء مجتمع ملتزم بالقيم الإسلامية، ويشدّد على دور الصلاة في إصلاح الأفراد والمجتمع ككل. يقول المودوي موضحًا المراد مفهوم الصبر:

"يعني أنّ حمل عبء هذه الخدمة العظيمة للإمامة والقيادة يتطلب قوة يمكن الحصول عليها من أمرين: الأول هو تنمية صفة الصبر في نفسك، والثاني هو تعزيز قوتك من خلال الصلاة. لاحقًا، سيتم توضيح أنّ الصبر يشمل العديد من الفضائل الأخلاقية المهمة، وهو في الحقيقة مفتاح النجاح الذي لا يمكن لأيّ شخص تحقيق أي هدف بدونه. وبالمثل، سيتم توضيح كيف تهيئ الصلاة الأفراد والجماعة المؤمنة لهذه المهمة العظيمة".[2]

[1] عبد الحميد الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان، المصدر السابق: 695

[2] سيد أبو الأعلي المودودي، تفهيم القرآن، المصدر السابق: 126

4. **ربط التفسير بالإصلاح السياسي والاجتماعي:** تأثر المودودي بالفراهي في ربط التفسير بالإصلاح السياسي والاجتماعي، حيث استلهم منه منهجية الكشف عن البعد المقاصدي للنص القرآني وربط الآيات بسياقها الكلي. غير أنّ المودودي طوّر هذا الاتجاه من خلال توظيف التفسير في مشروعه الفكري، إذ جعله وسيلة لفهم السنن الإلهية في المجتمعات، وتسليط الضوء على مبادئ الحاكمية والشريعة، مما جعله أكثر ارتباطًا بالقضايا السياسية والاجتماعية المعاصرة.

لم يكن الفراهي ينظر إلى التفسير كأداة إصلاح سياسي مباشر، بل كان يركز أكثر على التفسير الروحي والفكري للنصوص. مثال ذلك، تفسيره لسورة الفاتحة، حيث يعتبرها دعوة خالصة للهداية، دون التركيز على أبعاد اجتماعية أو سياسية محددة. فيوضح هذا الأمر في بداية سورة البقرة فيقول:

"اعلم أنّ سورة البقرة وجه القرآن، كما أنّ الفاتحة غرته، وهذه إكليلة كما أنّ تلك درته، فإنّ هذه السورة تجلي أسارير هذه البعثة وأسرارها، وقبلة هذه الملة وسرة دارها، ثم تهدي إلى أسّ الديانة ومحورها، ومخّ الشريعة وجوهرها، وبعبارة أخرى هي تمام النبوة وكمالها، كما تمنى إبراهيم عليه السلام حين دعا ربه فقال: "رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ" (سورة البقرة: 129) فأجابه حسب هذا الدعاء، وبعث رسولًا متصفًا بتلك الصفات الأربع، وجعل هذه السورة مرآة له ولأمة مسلمة دعا لها إبراهيم عليه السلام، وجعل الإيمان به حقيقة الإيمان، فإنّ المراد بالإيمان، هو الإيمان بالنبوة، فإنّ ذلك هو جماع الإيمان به حقيقة الإيمان، كما هو مبسوط في محله، فهو تحقيق الإيمان الذي هو أول فرع الإيمان الفطري المبني على الحمد والشكر والإنابة".[1]

5. **الاستدلال بالشواهد التاريخية:** تأثر المودودي بالفراهي في منهجية الاستدلال بالشواهد التاريخية، حيث اعتمد كلاهما على التاريخ لفهم سياقات النزول

[1] عبد الحميد الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان، المصدر السابق: 65

وإبراز السنن الإلهية في الأمم. غير أنّ المودودي وسّع هذا المنهج ليشمل تحليلًا أعمق للتجارب التاريخية، مستفيدًا منها في دعم رؤيته الإصلاحية وربطها بواقع المجتمعات الإسلامية، مما جعل تفسيره أكثر ارتباطًا بالتحولات السياسية والاجتماعية.

الفراهي كان معروفًا بمنهجه اللغوي والبلاغي في تفسير القرآن، وكان يرى أنّ فهم القرآن يعتمد على نظامه الداخلي والاتساق بين آياته. ومن هذا المنطلق، لم يكن يعتمد بشكل أساسي على الشواهد التاريخية، بل كان يولي اهتمامًا كبيرًا بالسياق اللغوي والبناء الموضوعي للسورة، استخدم الفراهي التاريخ بشكل انتقائي، حيث كان يستشهد بالأحداث إذا رأى أنها تخدم الفهم الموضوعي للنص، لكنه لم يجعلها أساسًا في تفسيره، ركز على التفسير بالمأثور لكنه أعطى الأولوية للبنية النصية للقرآن، محاولًا تجنب الاعتماد الزائد على الروايات التاريخية التي قد تكون غير موثوقة.

أما المودودي، فقد كان له منهج مختلف، حيث اعتمد على الشواهد التاريخية بشكل أكبر، وذلك لارتباط تفسيره بالمنهج الحركي والإصلاح الاجتماعي.

فمثلًا يوضح المودودي كيف كان بنو إسرائيل مستبعدين تحت حكم الفراعنة، ويربط ذلك بالأوضاع الاجتماعية في مصر القديمة، حيث كان المصريون يعاملون غيرهم بالاحتقار، يشير إلى سرديات تاريخية عن خروج بني إسرائيل من مصر، ويقارنها بالمصادر التاريخية الأخرى، في آية البقرة "وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝..." (سورة البقرة: 50) وكذلك يتحدث عن تكرار معاصي بني إسرائيل بعد النجاة، مثل عبادة العجل، رفض دخول الأرض المقدسة، وإنزال المن والسلوي، يستعين بالشواهد التاريخية لشرح طبيعة المجتمع اليهودي في ذلك الوقت، وكيف أثرت هذه الأحداث على علاقتهم بالأنبياء.[1]

[1] سيد أبو الأعلي المودودي، تفهيم القرآن، المصدر السابق: 75

6. **الاهتمام بالسياق التاريخي للنزول:** تأثر المودودي بالفراهي في الاهتمام بالسياق التاريخي للنزول، حيث تبنى منهجية ربط الآيات بظروفها التاريخية لفهم دلالاتها ومقاصدها بشكل أعمق. وكما أكد الفراهي على ضرورة دراسة البيئة الثقافية والاجتماعية التي نزل فيها القرآن، سعى المودودي إلى توظيف هذا النهج لفهم السنن الإلهية في التاريخ وتفسير الأحكام القرآنية في ضوء التطورات السياسية والاجتماعية. غير أنّ المودودي توسّع في هذا الجانب، حيث استخدم السياق التاريخي كأساس لرؤيته الإصلاحية، مستخلصًا العبر منه لتوجيه المجتمعات الإسلامية نحو النهوض الحضاري وفق مبادئ القرآن.

قلّما يعتمد الفراهي على السياق التاريخي أو أسباب النزول لتفسير الآيات، ويعتبر أنّ السياق القرآني في حد ذاته كافٍ لفهم معاني الآيات. مثال على ذلك تفسيره لآيات القتال، حيث يركز على المعاني المجردة ويبتعد عن الربط بأحداث تاريخية معينة، أنه يستخدم السياق التاريخي للنزول عندما كان التاريخ ضروريًا لفهم معنى الآية، ولكنه كان يبحث عن المعنى العميق وراء الحدث، وليس مجرد السرد، يعتمد على ما يعتبره الحقائق القطعية من التاريخ، ويجنب التفاصيل التي لا صلة بها في فهم المعاني القرآنية. انظر الأمثال الآتية:

1- تفسيره لسورة الضحى (وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢): بعض المفسرين ذكروا أنّ هذه السورة نزلت بعد انقطاع الوحي لفترة، مما جعل المشركين يستهزئون بالنبي ﷺ.

الفراهي لم ينكر هذا السياق، لكنه ركّز على المعنى اللغوي للسورة وربطها بالهدف العام من نزول الوحي، حيث بيّن أنّ السورة تتحدث عن العناية الإلهية بالنبي محمد ﷺ بدلًا من التركيز فقط على القصة التاريخية.

2- تفسيره لسورة الفيل (أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ): في حين ركّزت

التفاسير التقليدية على الحدث التاريخي لغزو أبرهة، فإنّ الفراهي حاول ربط السورة بمعاني أوسع، معتبرًا أنّ الهدف الأساسي منها ليس مجرد ذكر حادثة تاريخية، بل التأكيد على أنّ الله يحمي بيته المقدس ويدمرّ الطغاة مهما كانت قوتهم.

لم يهمل الفراهي الجانب التاريخي، لكنه تعامل معه كوسيلة لفهم الرسالة القرآنية وليس غاية في حد ذاته.

3- تفسيره لسورة الكوثر (إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ): بينما ذهب بعض المفسرين إلى أنّ الكوثر نهر في الجنة، فإنّ الفراهي فسّر الكوثر على أنه كثرة الخير والبركة في الرسالة المحمدية، وربط ذلك بالسياق التاريخي حيث كان المشركون يرون النبي بلا ذرية بعد وفاة ابنه القاسم.

استخدم السياق التاريخي لإبراز دلالة الآية، لكنه لم يتوقف عند الحدث فقط، بل جعله وسيلة لفهم المعاني العميقة.

يعتمد المودودي بشكل كبير على أسباب النزول والسياق التاريخي لتفسير النصوص، خاصة تلك التي تتعلق بالتشريع الاجتماعي أو السياسي. مثال ذلك تفسيره لآيات الربا، حيث يعود للسياق الاقتصادي والاجتماعي في عصر النزول لتوضيح كيف كانت تعمل الأنظمة الربوية وتأثيرها السلبي على المجتمع، ليصل إلى مفهوم العدالة الاقتصادية، فقد ذكر ذلك كله في تفسير آية الآية: "ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ" (سورة البقرة: 275)[1]

7. **التفسير عبر التحليل الفلسفي والفكري:** تأثر المودودي بالفراهي في التحليل الفلسفي والفكري، حيث تبنى منهجية البحث العميق في المفاهيم القرآنية

[1] المصدر نفسه: 213

ومحاولة الكشف عن بنيتها الفكرية ودلالاتها الفلسفية. وكما سعى الفراهي إلى تفسير القرآن بمنهج عقلي قائم على تحليل المصطلحات والمفاهيم الأساسية، اعتمد المودودي على هذا النهج لكنه وسّعه ليشمل قضايا فكرية معاصرة، مثل الحاكمية، والصراع بين الحضارات، ومفاهيم النهضة والإصلاح. وقد وظّف المودودي هذا التحليل الفلسفي ضمن مشروعه الفكري، فجعله وسيلة لفهم أبعاد الرسالة الإسلامية وتقديم رؤية تفسيرية تسهم في التغيير الاجتماعي والسياسي.

إنّ الفراهي يتميز بتفسيره عبر تحليل فلسفي للألفاظ والمفاهيم، ويقدم رؤية عميقة للمفاهيم الأساسية. مثال ذلك تفسيره لمفهوم "الكوثر" فقد أكثر الكلام في بيان مفهوم الكوثر، فقد قام بتفسير فلسفي لهذا اللفظ. فيقول:

اعلم أنّ من أراد من الكوثر ههنا نهرا في الجنة أو حوضًا في الموقف فقد جعله اسمًا منقولًا عن الوصفية، واعتمد فيه على ما أخبر النبي صلّى الله عليه وسلّم عن الكوثر الذي يعطيه الله في الآخرة، ومن أراد أنه "الخير الكثير" إما بتقدير الموصوف وهو "الخير".....والثالث: إن إبقاء اللفظ على عمومه يجعله أوسع وأجمع، والقرآن أنزل جم المعاني ، ثم "الكوثر" نفسه يقتضي الوسعة.....ومن عادتهم التفسير بالقرآن، فحملوا الكوثر على القرآن....[1]

فقد أكثر الكلام في تفسير الكوثر الفلسفي في ضوء أقوال السلف والعلماء.

ومن دأب المودودي أنه يستخدم التحليل الفكري، لكنه يربطه بتوجيهات عملية تخدم الأفراد والمجتمع. مثال على ذلك تفسيره لمفهوم "الدين" في القرآن، حيث بين أن "الدين" في القرآن ليس مجرد معتقدات وطقوس، بل هو نظام شامل للحياة، يشمل التشريع والسياسة والاقتصاد، رفض تعريف "الدين" بمعناه الغربي (مجرد علاقة بين الإنسان والله) وأثبت أنّ الإسلام دين متكامل يحكم حياة الإنسان والمجتمع.[2]

[1] عبد الحميد الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان، المصدر السابق: 779

[2] سيد أبو الأعلي المودودي، تفهيم القرآن، المصدر السابق: 240

8. **موقفهما من القضايا الكونية والعلمية في القرآن:** تأثر المودودي بالفراهي في تناول القضايا الكونية والعملية في القرآن، حيث تبنى منهجية البحث في السنن الإلهية التي تحكم الكون والمجتمعات، مستلهمًا من الفراهي فكرة أنّ القرآن لا يقتصر على الأحكام التعبدية، بل يشمل قوانين وسننًا تؤثر في تطور الأمم ونهضتها. وكما ركز الفراهي على كشف الروابط بين الظواهر الكونية والنظام الإلهي، وسّع المودودي هذا المفهوم ليشمل البعد العملي في الواقع الإسلامي، حيث استخدم التفسير لفهم العوامل التي تؤدي إلى التقدم أو الانحطاط، مما جعله يربط بين الآيات القرآنية والمشكلات السياسية والاجتماعية، مقدّمًا رؤية إصلاحية تستند إلى القوانين القرآنية في التغيير الحضاري.

إنّ الفراهي يميل إلى تفسير الآيات الكونية بما يعزز التأمل الروحي والفكري، دون التركيز على الجوانب العلمية الحديثة. مثال ذلك تفسيره لآية "خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ"، حيث يركز على الحكمة الإلهية في خلق الكون، كان يعتمد على اللغة العربية في فهم الإشارات العلمية في القرآن، مؤكدًا أنّ الدلالات اللغوية يجب أن تكون الأساس في تفسير الآيات الكونية، لم يكن هو من دعاة التفسيرات العلمية المتكلفة، بل يؤكد على أنّ الإعجاز في القرآن يمكن في اتساقه مع العقل والمنطق في مطابقته لكل اكتشاف علمي حديث.

في تفسيره للآية: "ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ" (سورة الملك: 3)، رأى أنّ "السموات" قد تعني طبقات متدرجة من العوالم، لكنه ركّز على المعنى اللغوي وعدم تحميل النصوص معاني علمية حديثة لم تكن في سياقها الأصلي .الجبال كأوتاد في قوله تعالى: "وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادًا" (سورة النبأ: 7)، أشار إلى أنّ تعبير "أوتاد" يحمل دلالة لغوية قوية تشير إلى ثبات الأرض واستقرارها، لكنه لم يُحاول ربط ذلك بالنظريات الجيولوجية الحديثة حول دور الجبال في توازن القشرة الأرضية، بل ركّز على الجانب البلاغي

والمعنوي في التعبير القرآني.

ولكن المودودي يشير أحيانًا إلى الجوانب العلمية لتفسير الآيات التي تتعلق بالكون والطبيعة، ويعتبر أنّ العلم الحديث يمكن أن يكون دليلًا على صحة القرآن، مما يعزز الإيمان لدى المسلمين ويؤكد مصداقية الإسلام، مثال ذلك في تفسير آية "ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" (سورة الزخرف: 10) فيقول في تفسير الآية في صورة التفسير العلمي:

"لقد جعلنا هذه الأرض لكم مهدًا، ففي مواضع أخرى شبّهت الأرض بالبساط، ولكن هنا استخدم لفظ "المهد"، أي كما يكون الطفل مستلقيًا في مهده بأمان وراحة، فقد جعل الله لكم هذا الكوكب العظيم مكانًا مريحًا، رغم كونه معلقًا في الفضاء، ويدور حول محوره بسرعة ألف ميل في الساعة، ويسير في مداره بسرعة 66,600 ميل في الساعة. وفي باطنه نار مشتعلة قادرة على إذابة الصخور، والتي تتجلى أحيانًا في صورة براكين تثور لتذكّركم بعظمة الخالق. ومع ذلك، فقد جعله الله لكم مكانًا آمنًا ومستقرًا، فتنامون عليه بطمأنينة دون أن تشعروا بأيّ اهتزاز، وتعيشون فيه دون أن تدركوا أنه كوكب معلق، وأنكم في الحقيقة مقلوبون رأسًا على عقب. تسيرون عليه بحرية وأمان، دون أن يخطر ببالكم أنه معلّق في الفضاء".[1]

9. **أسلوبهما في مخاطبة القارئ:** تأثر المودودي بالفراهي في أسلوب مخاطبة القارئ، حيث تبنى منهجية تجمع بين العمق التحليلي والبساطة في العرض، مما يجعل الأفكار القرآنية قريبة من فهم القارئ العادي والمثقف على حد سواء. وكما اعتمد الفراهي على أسلوب مباشر ومنهجي يخاطب العقل ويحث القارئ على التفكير والاستنباط، تبنى المودودي هذا النهج، لكنه أضاف إليه بعدًا حركيًا وإصلاحيًا، حيث جعل تفسيره أكثر ارتباطًا بالقضايا الاجتماعية

[1] المصدر نفسه:526/2

والسياسية المعاصرة. وقد تميز أسلوبه بالسلاسة والوضوح، مع توظيف الأمثلة الواقعية والاستدلالات التاريخية، مما جعله قادرًا على التأثير في جمهور واسع، خاصة في سياق الحركات الإصلاحية والتوعوية.

يركز الفراهي العناية على أسلوب أكاديمي وفلسفي، ويخاطب القارئ كمتأمل يبحث عن عمق المعاني القرآنية. تفسيره يعتمد على استخدام المصطلحات اللغوية والأدبية الدقيقة، ويتطلب فهمًا معمقًا للغة، ويرى أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا، ويعتمد على النصوص القرآنية أكثر بدلًا من استخدام الروايات التفسير التقليدية.

مثلًا يقول الفراهي في البحث عن لفظ "الحبك" في (وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ) "لفظ (الحُبُك) في أصل اللغة يدل على الطرق والمسارات المحفورة، كما يُقال للتموجات على الماء (حُبُك). وإذا تأملنا في بناء السماء، نجدها منظّمةً على نحوٍ دقيقٍ بمساراتٍ للكواكب والنجوم. وهذا يدلّ على إحكام البناء السماوي، وهو دليل على النظام المحكم في الكون".

أسلوبه أسلوب علمي تحليلي، حيث بدأ بشرح المعنى اللغوي لـ"الحبك"، ويستخدم الاستدلالي اللغوي بدلًا من الخطابي والوعظي، ويخاطب القاري كمتخصص وليس كمستمع عادي.

والمودودي أيضًا أسلوبه يوافق أسلوبه إلا أنه أكثر مباشرة ويخاطب القارئ العادي، حيث يسعى إلى توضيح المعاني بأبسط طريقة ممكنة مع شرح الألفاظ واستخدامها في فهم المعاني، ويأتي أمثلة حياتية للتقريب. تفسيره يتميز بالأسلوب العملي ويعكس رؤيته الإصلاحية، مما يجعله سهل الفهم والتطبيق، وبل كان تفسيره أقرب إلى الدراسة اللغوية العلمية للنص.

فيقول المودوي في تفسير الآية : "ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً"

(سورة غافر: 64).

"تأملوا كيف جعل الله الأرض مستقرة تحت أقدامكم، رغم أنها كرة معلّقة في الفضاء، وتدور بسرعة هائلة! ومع ذلك، لا تشعرون باهتزاز أو اضطراب، بل تعيشون في راحةٍ وأمان. وهذا من بديع صنع الله، فهل يمكن أن يكون هذا كله صدفة؟.[1]

فأسلوب المودودي أسلوب خطابي ووعظي حيث يوجه القاري مباشرة للتفكير والتأمل.

10. **موقفهما من الشريعة والعقوبات الإسلامية:** تأثر المودودي بالفراهي في منهجيته لفهم الموقف الشرعي في العقيدة والعقوبات الإسلامية، حيث اعتمد على التفسير الموضوعي الذي يربط بين الأحكام والمقاصد العامة للشريعة. وكما ركّز الفراهي على البعد المقاصدي في فهم العقيدة وأحكام الشريعة، تبنى المودودي هذا النهج لكنه وظفه في مشروعه الفكري والسياسي، مؤكدًا على أنّ العقيدة الإسلامية ليست مجرد مفاهيم نظرية، بل هي نظام شامل يؤثر في الحياة الاجتماعية والسياسية.

وفيما يخص العقوبات الإسلامية، تأثر المودودي بنظرة الفراهي التي ترى الأحكام الشرعية جزءًا من نظام إلهي متكامل يهدف إلى تحقيق العدل والاستقرار، لكنه ذهب أبعد من ذلك، حيث دافع عن تطبيق الحدود والعقوبات الإسلامية باعتبارها وسائل إصلاحية تهدف إلى حماية المجتمع من الفساد والانحراف. وقد قدّم تبريرات عقلية واجتماعية لهذه الأحكام، رابطًا إياها بالواقع ومواجهة التحديات الفكرية الحديثة التي تشكك في صلاحية القوانين الإسلامية.

إنّ الفراهي لا يركز على جوانب العقوبات في تفسيره، بل يتناول الشريعة كوسيلة لتوجيه الإنسان نحو الهداية والتقوى، ويرى أنّ العقوبات جزء من نظام العدالة في الإسلام.

[1] المصدر نفسه:421/2

والمودودي يعطي أهمية كبيرة لتطبيق الشريعة، بما في ذلك العقوبات، ويرى أنها ضرورية لتحقيق العدالة والردع في المجتمع. في تفسيره لآيات الحدود، يؤكد على أنّ تطبيق الشريعة هو السبيل لتحقيق مجتمع آمن ومستقر.

11. **منهج التفسير المقارن:** تأثر المودودي بالفراهي في منهج التفسير المقارن، حيث استلهم منهجية دراسة الآيات في ضوء وحدة الموضوع والترابط الداخلي بين النصوص القرآنية. وكما ركّز الفراهي على مقارنة المفاهيم القرآنية ببعضها لفهم المعاني العميقة للنص، تبنى المودودي هذا الأسلوب لكنه وسّعه ليشمل المقارنة بين التفسير الإسلامي والتوجهات الفكرية والفلسفية الحديثة، مما جعله أكثر ارتباطًا بالقضايا المعاصرة.

وقد استخدم المودودي التفسير المقارن لتوضيح الفروق بين الرؤية القرآنية والاتجاهات الفكرية الأخرى، مثل الليبرالية والماركسية، بهدف إبراز تفوق المنظور الإسلامي في معالجة المشكلات الاجتماعية والسياسية. كما اعتمد على المقارنة بين أقوال المفسّرين، مع ترجيح الآراء التي تتماشى مع نظرته الإصلاحية، مما جعل تفسيره أكثر ديناميكية وتأثيرا في الفكر الإسلامي الحديث.

ومن عادة الفراهي أنه يعتمد على التفسير التحليلي دون الالتفات إلى المقارنات الكثيرة بين التفاسير، يركز على المعنى اللغوي الداخلي للنصوص، ويستخلص منه رؤى جديدة، وكان يؤمن بأنّ القرآن يفسّر نفسه، ولذا أنه يستخدم علم الاشتقاق ودراسة الجذور اللغوية لفهم الألفاظ القرآنية.

فقد استخدم الفراهي لفظ "الحبك" في قوله تعالى "وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ" (سورة الذاريات: 7)في معان مختلفة، أولًا بين معناه السحاب، كما في قوله تعالى: "وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي" (سورة هود: 44) وهو المراد هنا، ذكر الوجوه والدلائل المتعددة اللغوية والشعرية ثم يقول:

وما قيل من أنّ المراد به السماء التي فيها النجوم إما لإحكام أو لكونها مجدرة بالكواكب".[1]

ومنهج المودودي أنه يستخدم التفسير المقارن، ويلجئ إلى فهم القرآن باستخدام علم الاشتقاق مع الاستفادة من آراء المفسرين السابقين لدعم توجهاته. يستعرض أقوال العلماء لتوضيح الاختلافات في تفسير بعض الآيات، مثل آراء الفقهاء في مسائل الأحكام الشرعية.

في الأصل، استخدم لفظ "ذات الحبك"، وكلمة "حبك" تطلق على الطرق والمسارات، كما تطلق على تلك التموجات التي تتكوّن في رمال الصحراء الهادئة أو على سطح الماء الراكد بفعل الرياح. ويستخدم هذا اللفظ أيضًا للتعبير عن الخصلات الملتفة من الشعر المجعد. وقد وصف السماء هنا بـ"الحبك" إما من حيث إنّ الغيوم بأشكالها المختلفة غالبًا ما تغطي السماء، وتتحّل بفعل الرياح باستمرار، فلا تبقى أي هيئة على حالها، ولا تشابه هيئة أخرى، أو لأنّ السماء في الليل عندما تتناثر فيها النجوم، يظهر للإنسان أنها تتخذ أشكالًا متنوعة، ولا تتشابه أي منها مع الأخرى.[2]

12. **التعامل مع مسائل العقيدة والتوحيد:** تأثر المودودي بالفراهي في منهجية تناول مسائل العقيدة والتوحيد، حيث اعتمد على التحليل العميق للمفاهيم القرآنية وربطها بالسياق العام للوحي. وكما ركّز الفراهي على التوحيد باعتباره المحور الأساسي لفهم القرآن وبناء الفكر الإسلامي، تبنى المودودي هذا النهج لكنه وسّعه ليشمل البعد الحركي والتطبيقي، حيث لم يكتفِ بتوضيح التوحيد من الناحية النظرية، بل جعله أساسًا لمشروعه الإصلاحي في السياسة والمجتمع.

وقد تعامل المودودي مع العقيدة الإسلامية باعتبارها منهجًا شاملًا للحياة، محذرًا من أي انحرافات فكرية قد تضعف مفهوم التوحيد، مثل العلمانية والأنظمة الوضعية. كما

[1] عبد الحميد الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان، المصدر السابق: 445

[2] سيد أبو الأعلي المودودي، تفهيم القرآن، المصدر السابق: 2/ 134

أكّد على أنّ التوحيد ليس مجرد إيمان نظري، بل هو التزام عملي يحكم السلوك الفردي والاجتماعي، مما يعكس تأثره بمنهج الفراهي في إعادة تفسير العقيدة ضمن إطار شامل يتجاوز الجوانب الكلامية التقليدية.

تأثر **أبو الأعلى المودودي** بشكل واضح بأفكار **حميد الدين الفراهي** في تناول مسائل العقيدة والتوحيد، لا سيما من حيث منهجية التدبر في القرآن وربط العقيدة بمفاهيم النظام الإلهي والتطبيق العملي في الحياة.

إنّ الفراهي يقدّم تفسيرًا يتسم بالتركيز على جوانب التوحيد والعقيدة من منظور فلسفي وعقلي، حيث يسعى لفهم عميق لمفهوم الألوهية. يفسّر توحيد الله بأسلوب يتناول دقة ألفاظ السورة ودلالاتها الفكرية.

يتناول العقيدة من زاوية حياتية ويعالجها بأسلوب يربطها بممارسات الحياة اليومية، مثلًا في تفسير سورة الإخلاص، يركز على أهمية التوحيد في توجيه السلوك والأخلاق، ويعتبره الأساس لبناء مجتمع إسلامي موحّد، حيث يحرص على إبراز المعاني من خلال السياق القرآني أسلوبًا قريبًا من الفراهي.[1]

13. **التعامل مع القصص القرآني:** تأثر المودودي بالفراهي في منهجية التعامل مع القصص القرآني، حيث تبنى رؤية ترى أنّ القصص في القرآن ليس مجرد سرد تاريخي، بل هو وسيلة لتوضيح السنن الإلهية والتوجيهات التربوية والإصلاحية. وكما ركّز الفراهي على البعد الموضوعي في القصص القرآني، محاولًا استنباط دلالاته العميقة وربطه بالمقاصد الكبرى للوحي، تبنى المودودي هذا النهج لكنه وظّفه في إطار مشروعه الفكري والإصلاحي.

وقد تعامل المودودي مع القصص القرآني باعتباره أداة لفهم القوانين الحاكمة

[1] المصدر نفسه:530/2

للمجتمعات، حيث استخدمه في تحليل أسباب نهوض الأمم وسقوطها، مستخلصًا العبر التي تنطبق على الواقع السياسي والاجتماعي للمسلمين. كما ركّز على إبراز العلاقة بين القصص والواقع المعاصر، مستفيدًا من منهج الفراهي في تحليل الشخصيات والأحداث القرآنية وربطها بالمفاهيم التربوية والحضارية.

وهو يفسّر القصص القرآنية كأمثلة توجيهية تحتوي على دروس فلسفية. يحلل أحداث القصة ليصل إلى معانٍ عامة حول الهداية الإلهية، مثال ذلك في قصة موسى وفرعون، حيث يركز على كيفية انتصار الحق على الباطل، كان يرفض التفسيرات الإسرائيلية والأسطورية التي أُقحمت في تفاسير القصص القرآني، ورأى أنّ **القرآن مستقل بذاته في سرد الحقائق.**

والمودودي يفسّر القصص القرآني كوسيلة للتعليم والتوجيه الاجتماعي. في تفسير قصة موسى وفرعون، يشير إلى دروس القيادة والعدل، ويبرز أهمية التحذير من الاستبداد والطغيان، رابطًا ذلك بالواقع السياسي والاجتماعي، سار على النهج نفسه للفراهي، فكان في تفسيره يتجنب الروايات الإسرائيلية، ويركز على تحليل النصوص القرآنية مباشرة، في قصة أصحاب الكهف، رفض المودودي التفسيرات التي تتحدث عن عددهم أو أسماء كلبهم، وركّز على الرسالة الأساسية: أنّ الإيمان بالله هو الأساس، حتى لو واجه المؤمنون الاضطهاد. وهذا مشابه لمنهج الفراهي الذي كان يؤكد على أنّ القصة تأتي لخدمة العقيدة لا لسرد التفاصيل الجانبية.[1]

**خلاصة القول:** يمكن اعتبار المودودي امتدادًا للفراهي في منهجه التفسيري، حيث تأثر برؤيته في فهم القرآن وفقًا للوحدة الموضوعية للسور، وتحليل المصطلحات بدقة، وربط النصوص بالسياق التاريخي والمقاصدي، إلا أنه لم يكتفِ باتباع منهج الفراهي بحذافيره، بل عمل على تطويره وإعادة تشكيله بما يتناسب مع رؤيته الإصلاحية التي

[1] انظر للتفصيل سيد أبو الأعلي المودودي، تفهيم القرآن، المصدر السابق: 19/2

تجمع بين البعد الفكري والتربوي والتغيير الاجتماعي والسياسي. وبينما كان تركيز الفراهي منصباً على الدراسات اللغوية والمقاصدية العميقة، سعى المودودي إلى تبسيط هذه المفاهيم وجعلها أكثر وضوحًا لعامة الناس، مما أتاح له تقديم تفسير يراعي حاجات العصر ويستجيب للتحديات الفكرية التي تواجه المجتمعات الإسلامية. كما أنّ المودودي لم يقتصر على تحليل المفاهيم القرآنية من منظور أكاديمي بحت، بل وظّفها في مشروعه الفكري الذي يسعى إلى إحياء القيم الإسلامية في الواقع المعاصر، مما جعله واحدًا من أبرز المفسرين الذين استلهموا منهج الفراهي، ولكن مع إضفاء بصمته الخاصة التي تجمع بين العمق التحليلي والتطبيق العملي، ليكون بذلك تفسيره أكثر ارتباطًا بالقضايا الاجتماعية والسياسية والإصلاحية.

ISSN: 2321-7928

# ترجمةُ الإمامِ حميدِ الدِّين الفَرَاهِيّ
# لخُطْبَتَيْ اللورد كرزون اللتين ألقاهُما فِي جَولتِه للخليج العربي
# (دراسة مقارنة)

- د. صُهيب عالَم[1]

الإمامُ حَميدُ الدين الفَرَاهِي (1862-1930م) من أبرز الشخصيّات الهنديّة التي أسهمت في إغناء اللغة العربية وتعزيزها وترويجها في الهند في أوائل القرن العشرين من الميلاد. وهو كان مفسِّرًا ألمعيًّا، وشاعرًا فذًّا، وخبيرًا بالعلوم العربية وفنونها. وقد درّس الإمامُ الفراهيُّ اللغة العربية في المؤسّسات التلعيمية المختلفة مثل مدرسة الإسلام بمدينة كراتشي، وكُليّة علي كره، وجامعة إله آباد، ومدرسة دار العلوم النظامية بحَيْدرآباد. وقام، أثناء إقامته في حيدرآباد، بدور ملحوظ في تأسيس الجامعة العثمانية بحيدرآباد في عهد النظام عثمان خان، التي صارت فيما بعد صرحًا شامخًا للعلم والمعرفة والثقافة. ولم يمكث في حيدرآباد مدةً طويلةً، واستقال من منصبه، وعَاد إلى مسقط رأسه أعظم كراه في 1919م، وقضى معظمَ أوقاته في العبادة، والقراءة، والتحقيق، والتأليف، وبدأ يهتم بالشؤون الإدارية لمدرسة الإصلاح، بسراي مير، ودار المصنفين بأعظم كره.[2]

وكان الإمامُ الفراهيُّ يعرف باللغات العربيّة والفارسيّة والأرديّة والإنجليزيّة والعبريّة وكان ملمًّا بالسنسكريتيّة واليونانيّة أيّ إلمام، فكان يقرأ فيها الأبحاث والعلوم،

[1] أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

[2] صهيب عالم، تاريخ اللغة العربية وواقعها في الهند، (الرياض: مجمع الملك سلمان الدولي للغة العربية، 2016م)، ص 120-122

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

يُعرفون عمومًا باسم شيوخ الساحل المتصالح، واجتمعوا لمقابلته معًا في المجلس. وجمع شيوخ أبوظبي، والشارقة، ودبي، وعجمان، مع أبنائهم والابن الأكبر لشيخ أم القوين المسن في سفينة باتريك ستيوارت من الساحل.[1]

والهدف الأساسي لزيارة نائب الملك لدول الخليج العربي لاستعراض العلاقات الخاصة مع شيوخها، وتفقد القنصليات البريطانيّة والوكالات السياسيّة التي تديرها في ذلك الجزء من آسيا.[2] وقد نالت مسألةُ سكةِ حديدِ بغداد اهتمامًا خاصًا في السنوات الأخيرة إلى الموانئ أو الموانئ في الطرف الأعلى من الخليج الفارسي: وبناءً على ذلك، زار اللورد كرزون إلى الكويت أيضًا. وصرح اللورد جورج هاميلتون[3] عن هدف الجولة الرئيس في رسالته (السرية) الرقم 148 المؤرخة في 17 سبتمبر، عن زيارة الشيوخ العرب الذين تربطهم علاقات المعاهدة مع الحكومة البريطانية، وتظهر بالحضور نيّة حكومة جلالة الملك للحفاظ على هيمنتها السياسيّة والتجاريّة في تلك المياه، كما كان الهدفُ وراءَها إجراء الدراسة عن كثب حول مسألة الموانئ البحريّة، والقواعد، ومحطات الفحم، ومحطات التلغراف والمراسي في الخليج العربي، الذي كان قيد المناقشة الرسميّة كثيرًا منذ السنوات الأخيرة؛ وخوفًا من التوسع الإيراني في الخليج، والتي كان يرى أنّ أيّ توسّع لها هو بالتالي توسّع لروسيا القيصرية، كما كان يهدف إلى إظهار السلطة والسيادة البريطانيّة في الخليج ردًا على زيارات السفن الحربية الروسيّة والفرنسيّة لها، وتبليغ شيوخ الخليج قولًا وفعلًا أنهم تحت حماية قوة دولية جبارة، وتبليغ رسائل إلى القوى الدولية المختلفة تُفيد بأنّ الهيمنة البريطانية على

[1] -National Archive of India, New Delhi, **Proceeding Feb. 1904, No. 33-127,** regarding Lord Curzon Visit to Persian Gulf, Foreign Department, Govt. of India.

[2] - National Archive of India, New Delhi, **Proceeding Feb. 1904, No. 33-127, regarding Lord Curzon Visit to Persian Gulf,** Foreign Department, Govt. of India.

[3] - اللورد جورج هاميلتون (1845-1927) كان سياسياً بريطانياً في حزب كنزرويتيوز، وكيلاً لشؤون الهند خلال الفترة ما بين (1894-1903م) في العهد الاستعماري البريطاني.

الخليج كاملة متكاملة، وأنّ دولته لن تسمح لأيّ قوة دوليّة أخرى بمشاركتها تلك السطوة التي بنتها بتكاليف باهظة عبر تاريخ طويل. وأفلح أخيرًا في دفع وزير الخارجية لانسدون[1] إلى أن يُعلن في مجلس العموم البريطاني في عام 1903م بيانًا عن أنّ الحكومة البريطانية لن تسمح بوجود أيّ قواعد دولية في الخليج، ونجح في بسط النفوذ البريطاني على زعماء الساحل المتصالح بمزيج من الدبلوماسية، وضمن اعترافًا رسميًا بسيادة البريطانيين في المنطقة، وبتفوقهم على الفرنسيين والروس والألمان والعثمانيين. ونجح في زيادة الروابط السياسيّة لإمارات الخليج العربي قوة ببريطانيا. ونادى بصراحة أنّ الوجود البريطاني في الخليج العربي يجب أن يظلّ من غير منازع، ويجب ألا تُشارك أيّ قوة دولية أخرى بريطانيا في هذه المنطقة، تأكيدًا للتفوق السياسي والتجاري الهندي-البريطاني في مياه الخليج. وسعى كرزون من خلال جولته إلى أن يُقدّم للحكومة البريطانية دراسات جيوسياسية جادّة عن الأرض والسكان، والمشكلات السياسيّة التي يتحتم على الحكومة رصد انعكاساتها على الهند البريطانية.[2] وعاد وفد اللورد كرزون في اليوم السابع من شهر ديسمبر 1903م إلى كراتشي.

**مجموعة من المترجمين خلال زيارة اللورد كرزون:** كان السيّد لوريمر معه كمترجم إذا كان الرائد كوكس لو أنه قضى 14 عامًا في باسي دور ضعيفًا في الترجمة الفوريّة، فاصطحب اللورد كرزون معه خلال زيارته عددًا من المترجمين البريطانين والهنود، مثل؛ السيد لوريمر،[3] والرائد كوكس،[1] والإمام حميد الدين الفراهي، وغيرهم.

[1] - هينيري تشاركز بيتي فيتزمورسي (1845-1927) كان نائب الملك في الهند وكندا، وزيراً للحرب ووكيلاً للشؤون الخارجية.

[2] https://altakweenmag.net/787-2/

[3] جون جوردون لوريمر (1870-1914م) المعروف بـ جيه. جي. لوريمر كان دبلوماسيًا محنكًا، ومؤرخًا ومديرًا استعماريًا بريطانيًا. وعمل لصالح الحكم البريطاني في بنجاب، ومقاطعة الحدود الشمالية الغربية، ثم خدم في منطقة الخليج كمقيم سياسي بريطاني. واشتهر بموسوعته "دليل الخليج العربي، وعمان، ووسط الجزيرة العربية" الذي يقع في 5000 صفحة في المجلدين.

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

have provided for the closest political and commercial relations, as well as for the suppression of the slave trade and of piracy, and for the extension of the electric telegraph. This series of agreements sufficiently testifies to the connections that have grown up between the two Governments, and that have linked the State of Oman to the British Government by quite exceptional ties. But they have also been strengthened, as Your Highness has pointed out, by the support which has been given on critical occasions by the British Government to successive rulers of Oman; while a further and natural bond of union is supplied by the fact that Muscat lies just opposite to the shores of India, that its trade is not only for the most part with India, but is largely in Indian hands, that a large number of British Indian subjects reside here, and that the prosperity of the State is mainly dependent on these conditions. It is not surprising, therefore, that the Government of India should feel a particular interest in this place, or that a Viceroy of India should desire to visit it and to make the acquaintance of its ruler. His-pleasure in doing so is greatly enhanced when he learns from Your Highness's own lips that you and your children will ever be mindful of these strong and ancient obligations, and that to them you and they will always remain loyal. These are words which I shall cherish in friendly recollection not only on my own behalf, but on behalf of the Government which I represent.

Your Highness has now ruled your State for fifteen- years. I had

the pleasure of visiting it when you had only just succeeded fourteen years ago; and I am glad to congratulate Your Highness on the progress that has since been made. The volume of your trade is steadily increasing; the wise step which the Government of India so strongly urged on Your Highness a few years ago, of taking over the Customs of your State in preference to farming them to others, has been attended with largely increased profits; and it gave me much satisfaction two years ago, with Your Highness's permission, to bring your capital into still closer connection with the outer world by laying a telegraphic cable from Jask to Muscat. I also personally selected Major Cox, as an officer in whose discretion and ability I had perfect confidence, to represent the Government of India at your capital; and Your Highness has already assured me that you have found in him a prudent counsellor and friend.

At Delhi in January last, though Your Highness was unable yourself to accept my invitation to the great ceremony that we held there to celebrate the Coronation of His Majesty the King-Emperor, I had the pleasure of welcoming your son, Taimur, and of conversing with him about the condition and welfare of Oman.

I have referred to the fact that the British Government have extended a peculiar measure of protection in the past 10 State of Oman and its rulers. They have on more than one occasion intervened to save it from rebellion or disruption. Your Highness may rest assured that this policy will not be departed from. So long

مجلة الهند ـ ـ ـ

friendship which are entertained towards you by the British Government; and it is also a recognition of the loyalty to which Your Highness has given such fervent expression on more than one occasion in the course of yesterday and to-day. It will now be my pleasing duty, as Grand Master of the Order, to proceed to the due and solemn investiture of Your Highness[1].

وقرأ خان بهادور عبد الرحيم الذي كان يعمل ملحقًا محليًّا في دائرة الخارجية ترجمة هذا الخطاب، وكان الخطاب يتابع بأشد اهتمام من الحضور من أهل البلاد، وقوبلت الفقرات الآخيرة منه بفرح عظيم.

(2)

**His Excellency rose and delivered the following address:-**

*Chiefs of the Arab Coast who are in Treaty relations with the British Government,*—I have come here as the representative in the great Empire of India of the British authority which you and your fathers and fore-fathers have known and dealt with for more than a hundred years ; and my object is to show you, that though you live at some distance from the shores of India, you are not forgotten by the Government, but that they adhere to the policy of guardianship and protection which has given you peace and guaranteed rights for the best part of a century, and that the first Viceroy of India who has ever visited these waters does not 4uit them without seeking the opportunity of meeting you in person,

[1] -National Archive of India, New Delhi, **Proceeding Feb. 1904, No. 33-127, regarding Lord Curzon Visit to Persian Gulf,** Foreign Department, Govt. of India.

and of renewing the assurances and engagements by which we have been so long united.

Chiefs, your fathers and grandfathers before you have doubtless told you of the history of the past. You know that a hundred years ago there were constant trouble and fighting in the Gulf; almost every man was a marauder or a pirate; kidnapping and slave-trading flourished; fighting and bloodshed went on without stint or respite; no ship could put out to sea without fear of attack; the pearl fishery was a scene of annual conflict; and security of trade or peace there was none. Then it was that the British Government intervened and said that, in the interests of its own subjects and traders, and of its legitimate influences in the seas that wash the Indian coasts, this state of affairs must not continue. British flotillas appeared in these waters. British forces occupied the ports and towns on the coast that we see from this deck.

The struggle was severe while it lasted, but it was not long sustained. In 1820 the first general Treaty was signed between the British Government and the Chiefs; and of these or similar agreements there have been in all no fewer than eight. In 1839 the Maritime Truce was concluded, and was renewed from time to time until the year 1853, when it was succeeded by the Treaty of Perpetual Peace that has lasted ever since. Under that Treaty it was provided that there should be a complete cessation of hostilities at sea between the subjects of the signatory Chiefs, and a 'perfect maritime truce"—to use the words that were employed—

“ for evermore that in the event of aggressions on anyone by sea, the injured parties should not retaliate, but should refer the matter to the British Resident in the Persian Gulf; and that the British Government should watch over the peace of the Gulf* and ensure at all times the observance of the Treaty. Chiefs, that Treaty has not, of course, prevented occasional trouble and conflict; it has sometimes been neglected or infringed; but on the whole it has well deserved its name; and under it has grown up a condition of affairs so peaceful and secure that the oldest among you can only remember as a dim story the events of the past, while the younger have never seen warfare or bloodshed on the seas. It is now eleven years since the last disturbance of the peace occurred.

Chiefs, out of the relations that were thus created, and which by your own consent constituted the British Government the guardian of inter-tribal peace, there grew up political ties between the Government of India and yourselves, whereby the British Government became your overlords and protectors, and you have relations with no other Power. Every one of the States known as the Trucial States has bound itself, as you know, not to enter into any agreement or correspondence with any other Power, not to admit the agent of any other Government, and not to part with any portion of its territories. These engagements are binding on every one of you, and you have faithfully adhered to them. They are also binding in their reciprocal effect upon the British Government, and as long as they are faithfully observed by the Chiefs there is no fear that anyone else will be allowed to tamper with your rights or liberties.

Sometimes I think that the record of the past is in danger of being forgotten, and there are persons who ask— why should Great Britain continue to exercise these powers? The history of your States and of your families, and the present condition of the Gulf, are the answer. We were here before any other Power, in modern times, had shown its face in these waters. We found strife and we have created order. It was our commerce as well as your security that was threatened and called for protection. At every Pen along these coasts the subjects of the King of England 11 reside and trade. The great Empire of India, which it - our duty to defend, lies almost at your gates. We saved you from extinction at the hands of your neighbours. We opened these seas to the ships of all nations, and enabled their flags to fly in peace. We have not seized or held your territory. We have not destroyed your independence but have preserved it. We are not now going to throw away this century of costly and triumphant enterprise; we shall not wipe out the most unselfish page in history. The peace of these waters must still be maintained; your independence will continue to be upheld; and the influence of the British Government must remain supreme.

There is one respect in which the Chiefs themselves can avert any renewal of trouble in the future. I he British Government have no desire to interfere, and have never interfered, in your internal affairs, provided that the Chiefs govern their territories with justice, and respect the rights of the foreign traders residing therein. If any internal disputes occur, you will always find a friend in the British Resident, who will use his influence, as he has frequently done in

the past, to prevent these dissensions from coming to a head, and to maintain the status quo; for we could not approve of one independent Chief attacking another Chief by land, simply because he was not permitted to do it by sea, and thus evading the spirit of his Treaty obligations. I will mention a case that seems to lend itself to friendly settlement of the character that I have described. You are all of you aware that the strip of coast known as the Batineh Coast on the opposite side of the Oman Peninsula is under the authority of the Chief of the Jowasmis. Never the less his authority is contested in some quarters. It is desirable that these disputes should cease, and that the peace should remain undisturbed.

Chiefs, these are the relations that subsist between the British Government and yourselves. The Sovereign of the British Empire lives so far away that none of you has ever seen or will ever see his face; but his orders are carried out everywhere throughout his vast dominions by the officers of his Government, and it is as his representative in India, who is responsible to him for your welfare, that I am here today to exchange greetings with you, to renew old assurances, and to wish you prosperity in the future.[1]

وقرأ السيد "جاسكين" الذي كان يعمل موظفًا سياسيًا مساعدًا في البحرين ترجمة عربية لهذا الخطاب أمام الجمهور.

**نصُّ ترجمةِ الخطبةِ التي ألقاها حضرة العاليجناب اللورد كرزن بدربار المنعقد في بندر**

[1] - National Archive of India, New Delhi, **Proceeding Feb. 1904, No. 33-127, regarding Lord Curzon Visit to Persian Gulf,** Foreign Department, Govt. of India.

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

لها اعتناء بأمن بلادكم وحفظ تجارتها ولا يمكننا الإغماض على سعى طوائف غير راضيئة أو رجال معاندين من رعايا حضرتكم في إعدام أمن المملكة، لأنّهم بذلك لا يتنازعون حكومة حضرتكم فقط، ولكن يمكن أن تصيب أضراره الرعية البرطانية أيضاً، فمن الواجب علينا أن نحافظ على هذه المقاصد بجهة أنفسكم، وأيضاً بجهة أنفسنا، ونرجو أن حضرتكم لا تزال تقهر أعمال هذه الأعداء في المستقبل، كما قهرتموهم في الأيام الماضية.

وأتيقن أن هذه الساعة المهمة التي دارت فيها رسوم الترحيب بين حاكم عمان ونائب جلالة ملك برطانية أول مرة في بحر مسقط تصير علامة باهرة في تاريخ الروابط التى لن تزال تزداد سعة وعمقاً بين الحكومتين، وأرجو أن الصداقة الراسخة التي حصلت بينها نزداد على الدوام، وأن تبارك حضرتكم فى الصحة وطول العمر، وأنتم حاكمون على رعية طائعين مطمئنين.

وقد بقى لي بعدُ عملٌ واحدٌ عمّا يسرُّني إتمامه، بالأمس فقط وصلتنى الإجازة المباركة من جلالة الملك الإمبراطور لأن أعطى حضرتكم عزة افتخار "غراند كروس"[1] درجة سلطنة الهند، هذا الامتياز يكون دليلاً لحضرتكم على ما تضمر الدولة البريطانية من الصداقة بحضرتكم، وأيضاً هذا اعتراف لوجود الوفاء الذي أظهره حضرتكم في هذين اليومين مرات بغاية التأكيد، فالآن يكون لي فرض ذو مسرة أن أشرع بحيثية غراند ماسطر[2] الدرجة المذكورة في مراسم تفويضها لحضرتكم بالوقار والقواعد التي تلزم شأنها.[3]

[1] أعلى وسام من أوسمة الإمبراطورية البريطانية.

[2] وهو لقب للرئيس الأعلى للأوسمة البريطانية المختلفة.

[3] - National Archive of India, New Delhi, **Proceeding March. 1904, No. 18-20, regarding Distribution among the chiefs in Persian Gulf of copies of the Arabic Translations of the Speeches delivered by HE the Viceroy at Maskat and Shargah,** Foreign Department, External- B,.

**نصُ ترجمةِ الخطبةِ التي ألقاها حضرةُ العاليجناب اللورد كرزن بدربار المنعقد في بندر شارجة[1]، بتاريخ 31 شهر نومبر سنة 1903 عيسوي:**

"يا مشائخُ سواحلِ العربِ المعاهدونَ بالدولة البهيّة البرطانيّة! أنا جئتُ هنا في حيثيّة نَواب سلطنة الهند العُظمى من جانب الدولة البرطانيّة التي قد عرفتموها أنتم وآباءكم وأجدادكم، وجرت بينها وبينكم المعاملاتُ من مدة أكثر من مئة سنة، وغرضُ مَجيئتِي أن أظهرَ عليكم أنّكم وإنْ تسكنون على بُعد من سواحل الهند ما نَسيتُكم تلك الدولةُ بل أنّها قائمة على طريق الحماية الذي حصل لكم منه الأمن والضمان لحقوقكم من مدة تبلغ مئة سنة قريباً، وإنّ أول نَواب الهند الذى دخَل هذا البحرَ لا يخرج منه بدون السعى في ملاقاتكم، ولا بدون تجديدَ المواعيد والمعاهدات التي كانت سبباً لاتحادنا في هذه المدة الطويلة.

أيّها المشائخُ لا شكّ أنّ آباءَكم وأجدادَكم قد حكوا عليكم الحالات الماضية. لا يخفى عليكم أن مئة سنة قبل اليوم كان الجدالُ والقتالُ جاريّاً على الدوام، وكل رجل تقريباً ما كان له شغل إلّا القتل أو الغارة. كانت سرقة الإنسان وبيعه كالعبيد في غاية الشدة. القتل وسفك الدماء ما له حدّ، ولا وقف زماناً حتى لا يمكن أن سفينةً تجرِى فى البحر، وتخاف حملة والسارقين كل سنة، لا يزال القتل في محل الغوص[2]، حفظ التجار والأمن ما لها وجود أبداً عند ذلك دخلت الدولة البرطانيّة في هذه المادة، وأظهرت أنّها نظراً إلى فوائد رعاياها وتجارها وإلى حقوقها الجائزة في البُحور التي تحيط بسواحل الهند لا تترك الأمر على هذا الشأن، فظهرت سفن البرطانية في هذا البحر، واحتلت أفواجها هذه البنادر والمدائن الساحليّة التي نراها من ظهر هذا المركب. وكان

[1] أي الشارقة، إحدى إمارات دولة الإمارات العربية المتحدة.

[2] منطقة الخليج العربية بما فيها البحرين، الكويت، الشارقة ورأس الخيمة منطقة شهيرة للغوص في البحر لاستخراج اللؤلؤ منه، ثم يصدر اللؤلؤ إلى بومباي (الآن مومباي) للتلميع والصيقلة، ثم يباع في الهند، ويشتريه الملوك الهندوس والمسلمون كما يصدر من هنا إلى نيويورك وباريس.

مجلة الهند ـ ـ ـ

منكم، وأنتم ما زلتم قائمين عليها بالخلوص، وهكذا هى واجبة من الجانب الثاني على الحكومة البرطانيّة أيضاً- فما دامت المشائخ قائمين عليها بالصدق لا يمكن لأحد أن يضرّ حقوقكم وحريتكم.

أظنّ أحياناً أنّ الوقائع الماضيّة فى خطر النسيان، وبعض الرجال يسئلون ما سبب دوام الدولة البرطانية على تنفيذ هذه السلطة، فتاريخ بلادكم وعائلاتكم والحالة الموجودة في الخليج جواب لهذا السؤال، نحن وصلنا هنا قبل أن ظهرتْ إحدى من الدول في هذا البحر في القرون الأخيرة، نحن وجدنا فيها النزاع، فجعلنا النظام، تجارتنا، وهكذا أمنكم كانا في الخطر فصار حفاظتهما لازمة علينا، في كل بندر على هذه السواحل رعية جلالة ملك إنكلنتره ساكنون ومشغولون بتجارتهم إلى الآن، مملكة الهند العظمى التي حفظها وصيانتها واجبة علينا هى من غاية قربها كأنّها على باب بلادكم. نحن أنجيناكم من الهلاك على أيدى جيرانكم، نحن فتحنا أبواب هذه البحار لسفن جميع الملل فأمكن لهم نشر أعلامهم فيها بالسلامة، ما أخذنا ملككم، ولا قبضنا عليه، ولا أعدمنا استقلالكم بل حفظناه سالماً نحن لا نضيع مساعي مئة سنة تحتوى على همم فائزة، و مصارف كثيرة، ولا نمحوا من التواريخ أطهر الأوراق من كل غرض، ولا بُدّ الآن أيضاً أن يحفظ أمن هذا البحر، ويبقى استقلالكم على ما هو عليه في الزمان السابق، ويلزم أن يكون اقتدار الدولة البرطانية فوق الكل بلا منازع.

ثم أذكر أمراً واحداً الذى فيه للمشائخ أنفسهم مقدرة التجنُّب من الشر في الزمان الآتي. لا تبغى الدولة البرطانية المداخلة في أموركم الداخلية، ولم تفعل ذلك في زمان ماض بشرط أن المشائخ يحكمون على بلادهم بالعدالة، ويحترمون حقوق التجار الأجانب الذين هم يسكنون فيها، وإن وقع شيءٌ من المشاجرات الداخليّة تجدون دائماً باليون الدولة البريطانية صديقكم الذي يسعى كما عمل مرات كثيرة في إطفاء نار هذه التنازعات، وفي إبقاء الحالة الموجودة، نحن لا نؤذن للمشائخ المستقل أن يحمل بعضهم على بعض بطريق البرّ لهذا السبب فقط إنّه لا يجوز له الحملة من طريق البحر،

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

حظت عظمتكم عليها بإلحاح حكومة الهند، قبل عشر سنوات إلا، وهي اضطلاع حكومتكم بمهام الجمارك بدلا من تلزيمها لأخرين، مما أدى إلى فوائد متزايدة.

وقد زاد في رضائي أيضاً قبول عظمتكم منذ سنتين مد خط تلغرافي من جاشك إلى مسقط، مما جعل عاصمتكم أكثر اتصالا بالعالم الخارجي. وقد اخترت أنا بنفسي الرائد كوكس الذي يتمتع بثقتي الكاملة كمواطن يمتاز بالمقدرة والحصافة ليمثل الحكومة الهندية في عاصمتكم، وقد أكد لي عظمتكم أنكم وجدتم فيه مستشاراً فطناً وصديقاً.

بالرغم من أن شخصكم لم يتمكن من تلبية الدعوة التي وجهتها إليكم بمناسبة الاحتفال العظيم الذي عقد في شهر يناير في دلهي بمناسبة تتويج جلالة الملك الامبراطور، فقد أتيح لي السرور بالترحيب بنجلكم تيمور والتباحث معه في أحوال عمان وتقدمها.

وقد أشار عظمتكم إلى الحقيقة الثابتة بأن الحكومة البريطانية وسعت في الماضي نطاق حمايتها لعمان وحكامها وأنها تدخلت في غير مناسبة واحدة لانقاذها من الشقاق والنزاع، ويستطيع عظمتكم أن يطمئن إلى أنها لن تحيد عن هذا التدبير ما دام حكام عمان يواصلون التزامهم بتعهداتهم الواردة في الاتفاقيات مع حكومة الهند، ويحكمون إمارتهم بالعدل والتقدم، وفي هذه الحالة سيبقى تلقيهم المعونة من الحكومة البريطانية التي تحفظ الأمن في هذه البلاد وتؤمن التجارة فيها. كما أننا لا نستطيع أن نتطلع برضي إلى محاولات بعض الفئات أو الأشخاص من رعايا عظمتكم تعكير صفو الطمأنينة في إمارتكم، لأنهم بعملهم هذا لا ينازعون سلطتكم فقط، ولكنهم يعرضون مصالح الرعايا البريطانيين للخسارة أيضاً، في حين أننا ملزمون بحماية هذه المصالح محافظة على مصلحتنا قدر ما هو محافظة على مصلحتكم، ونرجو لعظمتكم أن يواصل النجاح في التغلب على خصومه في المستقبل، مثلما تغلب عليهم في الماضي.

وإنني على ثقة من أن هذه المناسبة الهامة التي يقوم فيها حاكم عمان وممثل التاج السامي البريطاني في الهند، بتبادل التحيات ستبقى علامة بارزة في تاريخ العلاقات

العريضة العميقة بين دولتينا، إن الصداقة الوطيدة بينهما ستظل في نمو. وأرجو لعظمتكم أيضاً أن تنعموا بالصحة ومديد العمر حاكماً لشعب مخلص مطمئن.

وبقي علي أن أعلن أمراً ساراً لم أتسلم موافقة صاحب الجلالة الملك الامبراطور السامية عليه سوى أمس، وهو الأنعام على فخامتكم بالشرف الرفيع – وسام الصليب الأعظم للأمبراطورية الهندية – راجياً أن يبقى هذا التكريم لعظمتكم دليلاً على عواطف الصداقة المخلصة التي توليها الحكومة البريطانية لعظمتكم، كما أنه اعتراف لكم بالوفاء الذي أظهره عظمتكم بعواطف حارة في غير مناسبة واحدة خلال هذا اليوم والأمس، وبقي عليّ أن أقوم يملؤني السرور بتقليدكم الوسام حسب التقاليد المرعية بصفتي الرئيس الأعلى للوسام الأكبر[1].

**كلمة فخامة نائب الملك في المجلس العام الذي عقد على متن سفينة أرغونات في 21 نوفمبر 1903 في الشارقة:**

رؤساء ساحل العرب الذين تربطهم علاقات معاهدات مع الحكومة البريطانية، أنني أتيت إلى هنا كممثل للسلطة البريطانية في إمبراطورية الهند العظيمة التي عرفتموها أنتم وآباؤكم وأجدادكم، وتعاملتم معها منذ أكثر من مائة سنة، وهدفي أن أعطيكم الدليل على أن الحكومة لم تنسكم مع أنكم تعيشون على بعد من الشواطئ الهندية، بل أنها تتمسك بسياسة الوصاية والحماية التي وفرت لكم بها الأمن، وضمنت لكم فيها حقوقكم، خلال أفضل فترة من القرن المذكور، ولأريكم أن أول نائب للهند يزور هذه المياه لم يتركها دون أن يبحث عن فرصة الاجتماع بكم شخصياً وتجديد التأكيدات والالتزامات التي تربطنا منذ مدة.

أيّها الرؤساء: مما لا شك فيه أن آباءكم وأجدادكم قد أخبروكم عن التاريخ الماضي،

[1] جيه. جيه. لوريمر، **دليلُ الخليج (القسم التاريخي)**، ج 7، (قطر: قسم الترجمة التابع لمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، )، ص 3847- 3849.

وتعلمون أنه منذ مائة سنة كان في الخليج حرب ونزاع، وكان كل إنسان على الأغلب إما قرصاناً أو قاطع طريق، ولم تكن هناك سفينة تدخل البحر إلا وتخشى الهجوم عليها، موسم صيد اللؤلؤ مسرحاً سنوياً للصدام، ولم يكن للتجارة أمن أو اطمئنان، وأن الحكومة البريطانية هي التي تدخلت، وقررت بداع من مصلحة رعاياها ومصلحة تجارتهم وحقوقها الشرعية في مياه البحار التي تغسل الشواطئ الهندية، أن لا تستمر هذه الأوضاع في هذه الإمارات. وعندما ظهرت السفن الحربية البريطانية في هذه المياه، واحتلت قواتها الموانئ التي أرادتها من هذا الساحل تخلل ذلك قتال مرير، إلا أننا لم نعد نكابد من هذه الأحوال طويلاً.

وفي عام 1820م، وقعت أول معاهدة عامة بين الحكومة البريطانية والرؤساء العرب، وأبرم فيما بعد ما لا يقل عن ثمان مماثلات لتلك الاتفاقية في عام 1839م، وعقدت هدنة بحرية كانت تجدد من وقت لآخر، وفي عام 1853 أحرز نجاح آخر بالتوصل إلى معاهدة الصلح الدائم التي بقيت سارية من ذلك الوقت، وبموجب هذه الاتفاقية تحقق الاستئصال التام للصراع في البحر بين رعايا الرؤساء الموقعين عليها، وبذا تحقق الوصول إلى هدنة دائمة بحرية، وباستعمال الكلمة المناسبة وإلى الأبد، وجاء بمقتضاها أنه إذا حدث اعتداء على أحد في البحر، فعلى الطرف المعتدى عليه أن لا يلجأ إلى الثأر، بل يرفع الموضوع إلى المقيم السياسي في الخليج، وجاء فيها أيضاً أن على الحكومة البريطانية أن تراقب الأمن في الخليج، وعليها أن توكد في جميع الأوقات رعايتها لهذه الاتفاقية، وطبعاً أيها الرؤساء، لم تحل تلك الاتفاقية دون النزاع والقتال الذي قد ينشأ عرضاً، وكانت أحيانا ما تهمل أو تخرق إلا أنها في مجموعها جديرة باسمها، إذ نشأ بموجبها وضع أمن وسلام وفي الإمكان أن يتذكر المسنون منكم وحدهم حوادث قصص قائمة من الماضي، أما حديثو السن منكم فانهم قطعا لم يشاهدوا حوادث الحرب أو سفك الدماء في البحر، وقد مضت الآن 11 سنة على آخر حادث لتعكير صفو السلام هنا.

مجلة الهند ـ ـ ـ

ويجب كذلك أن يبقى تفوق نفوذ الحكومة البريطانية على نفوذ غيرها.

وهناك أمر واحد على الرؤساء تجنبه بأنفسهم مستقبلا ألا وهو انبعاث النزاع. وأرجو أن أخبركم أنه ليس لدى الحكومة البريطانية رغبة للتدخل في أموركم الداخلية، شأنها اليوم كشأنها في السابق، مفترضة أن الرؤساء يحكمون مقاطعاتهم بالعدل، ويحترمون حقوق الأجانب الذين يقيمون فيها. وإذا حدثت أية منازعات داخلية، فإنكم ستجدون دوماً في المقيم السياسي صديقاً لكم، وسوف يستخدم هذا نفوذه كما كان يعمل دائماً في السابق لمنع هذه الفتن من الوصول إلى الرأس، ولحفظ الحالة هادئة. ومن ناحية أخرى فإننا لا نستطيع أن نصادق على استقلال أي من الرؤساء يقوم بمهاجمة أرض رئيس آخر، وذلك لأنه بكل بساطة غير مسموح له بذلك في البحر، وإلا فإنه يحاول أن يتملص من روح التزاماته للمعاهدة، سوف أذكر حالة مطابقة لما ذكرت. إنكم جميعاً تخشون أن يقع الشريط الساحلي المعروف بساحل الباطنة، المواجه لشبه جزيرة عمان تحت حكم شيخ القواسم، بل أكثر من ذلك فإن سلطته في بعض المناطق نجد من ينازعها، ولذا فإن من المرغوب فيه أن تتوقف هذه المنازعات وأن يبقى السلام دون تهديد.

**أيها الرؤساء:** هذه هي الصلات التي دامت بين الحكومة البريطانية وبينكم. وإن ملك الامبراطورية الهندية يقيم بعيداً جداً منكم حتى إنه لين يقدر لأحد منكم رؤيته، كما أنكم سوف لا ترون وجهه، إلا أن أوامره تحملنا إلى أية بقعة في ممتلكاته الواسعة عن طريق موظفي حكومته التي تمثله في الهند، والمسؤولة أمامه من سعادتكم، وإني باسمها اليوم أتبادل التحية معكم هنا، وأجدد التأكيدات القديمة، وأرجو لكم النجاح في المستقبل.[1]

هناك فرق بين هاتين الترجمتين، فالترجمة الأولى التي قام بها الإمام حميد الدين الفراهي كانت شخصية الحاكم العام نائب الملك اللورد كرزون أمامه، فكان يلمّ بحنكة سياسته

[1] جيه. جي. لوريمر، **دليلُ الخليج (القسم التاريخي)**، ج 7، (قطر: قسم الترجمة التابع لمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني)، ص 3856- 3859.

مجلة الهند ـ ـ ـ

المقارنة بين الخطبتين المترجمتين

| ترجمة مكتب سمو الأمير لدولة قطر | ترجمة حميد الدّين الفراهي | النصّ الإنجليزيّ |
|---|---|---|
| رؤساء ساحل العرب الذين تربطهم علاقات معاهدات مع الحكومة البريطانية، | يا مشائخُ سواحلِ العربِ المعاهدونَ بالدولة البهيّة البرطانيّة! | *Chiefs of the Arab Coast who are in Treaty relations with the British Government* |
| صاحب العظمة أصحاب الفخامة أيّها السادة، | يا حضرة السلطان! ويا فضيلة أمير البحر! ويا جناب الحاضرين! | *Your Highness, Your Excellency, and Gentlemen!* |

**الخاتمة:** قد بحثت عن هذه الترجمة الأصلية التي قام بها الإمام حميد الدين الفراهي في الأرشيف الوطني الهندي بنيودلهي ووجدتها فيه. وقبل ذلك، كان كُتّاب سير الإمام الفراهيّ يشيرون إلى ترجمة الخطبتين إلى العربية لكنهم نقلوا النص الإنجليزي أو الترجمة الأردية للخطبتين اللتين قام بترجمتهما المولوي ذكاء الله في كتابه المعنون "كرزن نامه". وقد بالغ أحدٌ من كتّاب سير الإمام الفراهي في الذكر أنّ الإمام الفراهي قد أعدّ النص الإنجليزي لخطب اللورد كرزون، لكن السيّد شرف الدين ذكر في كتابه المُوسُوعي المعنون بـ"ذِكرِ فَرَاهِي" أنّ مسؤولية إعداد النص الإنجليزي للخطب أوكلت إلى الإمام حميد الدين الفراهي، فاعتقد أنها ليست بصحيحة وبعيدة عن الخلفية حيث أنّ الإمام الفراهي لم يكن ملمًا بالسياسة البريطانية تجاه الخليج العربي، وقد تشير الوثائق الموجودة في الأرشيف إلى أنّ السيّد لوريمر رفع طلبًا إلى بحث المترجمين للغتين العربية والفارسيّة، فأوصى المفوض القائم بالأعمال بالنيابة في السند الإمام

حميد الدين الفراهي لترجمة الخطب التي ألقاها اللورد كرزون في الخليج العربي خلال زيارته، وترجم خطبتين منها فقط إلى العربية. وقد أعد الخطبَ بالإنجليزية المسؤولون البريطانيون، بما فيهم السيد جيه ج. لوريمر والسير بيرسي كوكس بالتشاور مع اللورد كرزن وفقًا لأهداف الجولة والسياسة البريطانية في الخليج العربي.

والخطبة الأولى المترجمة إلى العربية قرأها في مسقط أمام الحضور الخَانْبَهَادُورْ عبد الرحيم الذي كان يعمل ملحقًا محليًّا في دائرة الخارجية بعدما ألقاها اللورد كرزون في المجلس، وكان الخطاب يتابع بأشد اهتمام من الحضور من أهل البلاد، وقوبلت الفقرات الأخيرة منه بفرح عظيم، وأما الخُطبة الثانية المترجمة إلى العربية فقرأها أمام الحضور في الشارقة السيد "جاسكين" الذي كان يعمل موظفًا سياسيًا مساعدًا في البحرين بعد ما ألقاها اللورد كرزون في المجلس.

مجلة الهند - - -

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ



( ٥ )

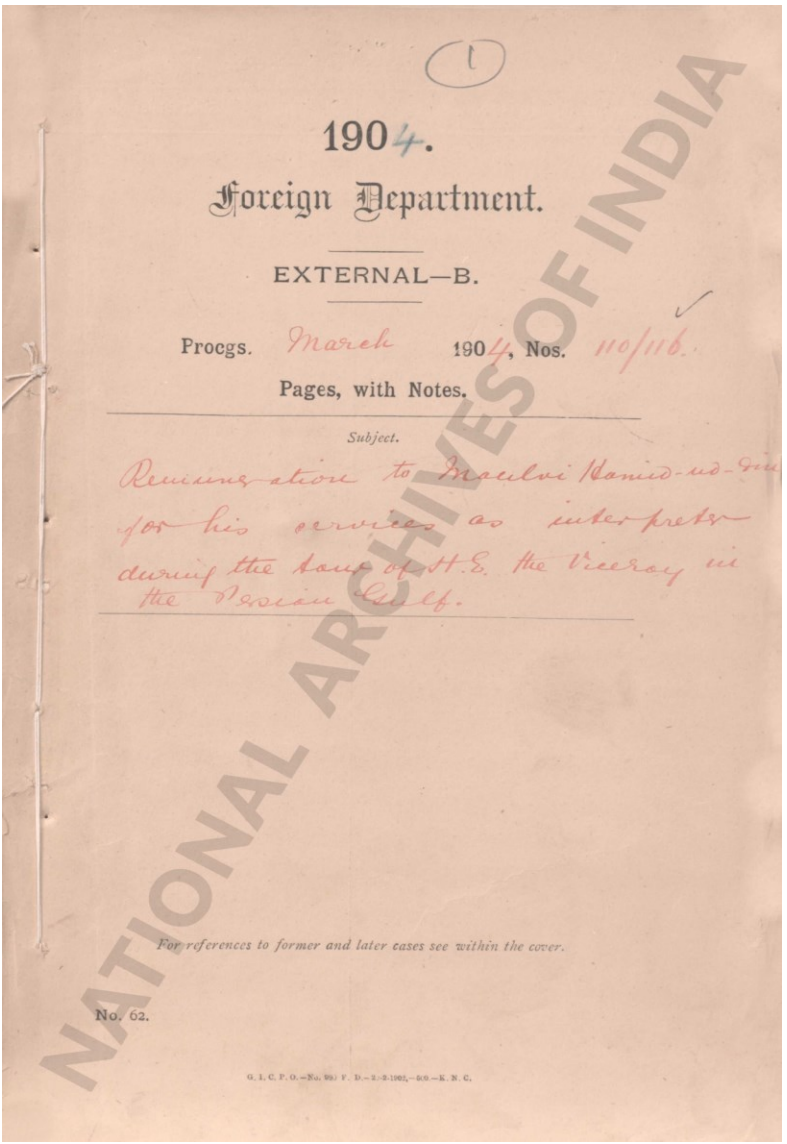
سنة من الآن حتى فرحت بزيارة مملكتكم ـ فاهنى حضرتكم بما تقرّ به عينى بما ارى من التقدم الذى ظهر فى بلاد كم منه ذ لك الزمان و مما يشهد بذ لك ان مقدار تجارة بلاد كم لم يزل يزداد يوما فيوما و ان مانصحت حضرتكم حكومة الهند بالتاكيد قبل بضع سنين من اقا مة محكمة الكمرك عوض الا جارة اثمر فوائد كثيرة ـ و فرحت كثيرا قبل اليوم بسنتين على انى حسب اجازة حضرتكم رُبطتْ هذه دارسلطنتكم مع ممالك الدنيا حولكم بوضع سلك تلغرافى من جشك الى مسقط ـ و ايضا بنفسى اخترت ميجر كاكس لنيابة حكومة الهند فى دارسلطنتكم ـ لانى اعتمدت كل الاعتماد على ذكا ئه و لياقته و حضرتكم قالت لى فى هذه الايام ان حضرتكم وجدتموه ناصحاً حازما و صديقا صميما ـ

فى شهر يناير الماضى لما لم يمكن بحضرتكم قبول دعوتى الى الاحتفال العظيم الذى عملناه فى دهلى لاداء مراسم تتويج جلالة الملك الامپراطور فرحت بترحيب ولد كم تيمور و بالتكلم معه فى حالة بلاد عمان و سلامتها و قد ذكرت فى بدء كلامى الاعتناء الخاص الذى بذلته الحكومة البرطانية فى الايام الماضية لحماية بلاد عمان و سلاطينها و قد دخلت الدولة الانكليزية غير مرة فى امور عمان

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

# الأوراق المعنية بتعيين المولوي عبد الحميد مترجماً في جولة نائب الملك الحاكم العام اللورد كرزون



(1)

1904.

Foreign Department.

EXTERNAL—B.

Procgs. March 1904, Nos. 110/116.

Pages, with Notes.

Subject.

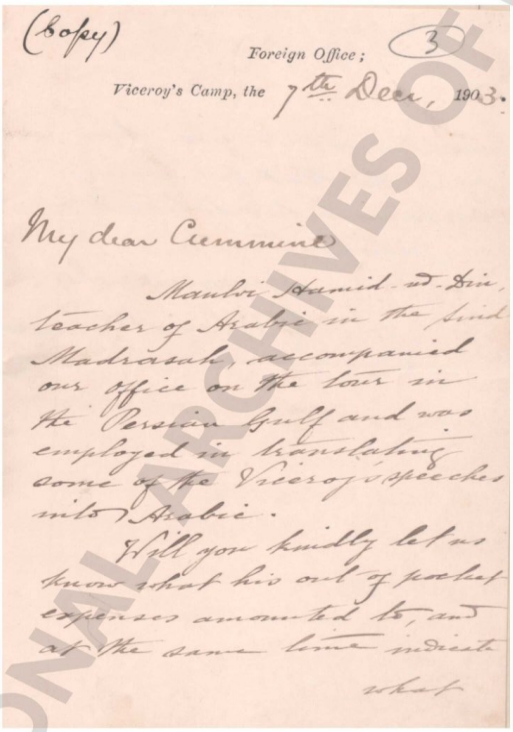
Remuneration to Maulvi Hamid-ud-din for his services as interpreter during the tour of H.E. the Viceroy in the Persian Gulf.

For references to former and later cases see within the cover.

No. 62.

G. I. C. P. O.—No. 99 F. D.—2-3-1905.—S.O.—K. N. C.

NATIONAL ARCHIVES OF INDIA



(Copy) 3

Foreign Office;

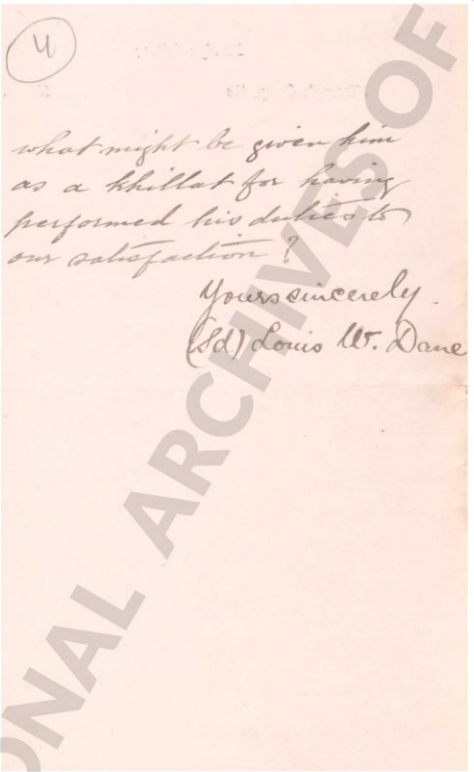
Viceroy's Camp, the 7th Dec., 1903.

My dear Cummins,

Maulvi Hamid-ud-Din, teacher of Arabic in the Said Madrasah, accompanied our office on the tour in the Persian Gulf and was employed in translating some of the Viceroy's speeches into Arabic.

Will you kindly let us know what his out of pocket expenses amounted to, and at the same time indicate what

NATIONAL ARCHIVES OF INDIA



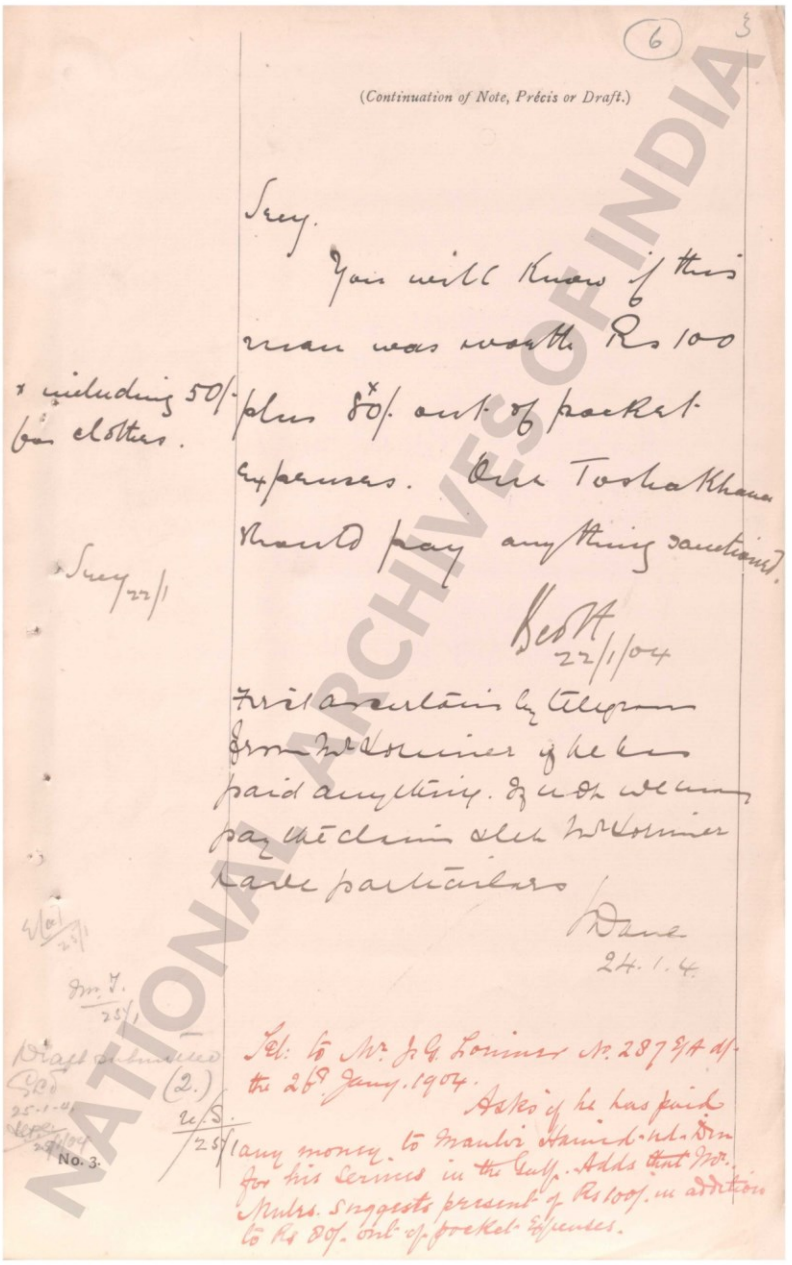
(4)

what might be given him
as a khillat for having
performed his duties to
our satisfaction ?

Yours sincerely.
(Sd) Louis W. Dane

NATIONAL ARCHIVES OF INDIA

مجلة الهند ـ ـ ـ



(6)

(Continuation of Note, Précis or Draft.)

Secy.

You will know if this man was worth Rs 100 plus 80/. out of pocket expenses. Our Toshakhana should pay anything sanctioned.

Secy 22/1

Scott
22/1/04

Trial ascertain by telegram from McLennan if he has paid anything. If not we can pay the claim duly McLennan's particulars.

Dane
24.1.4

4/Pol/22/1

Pol. F. 25/1

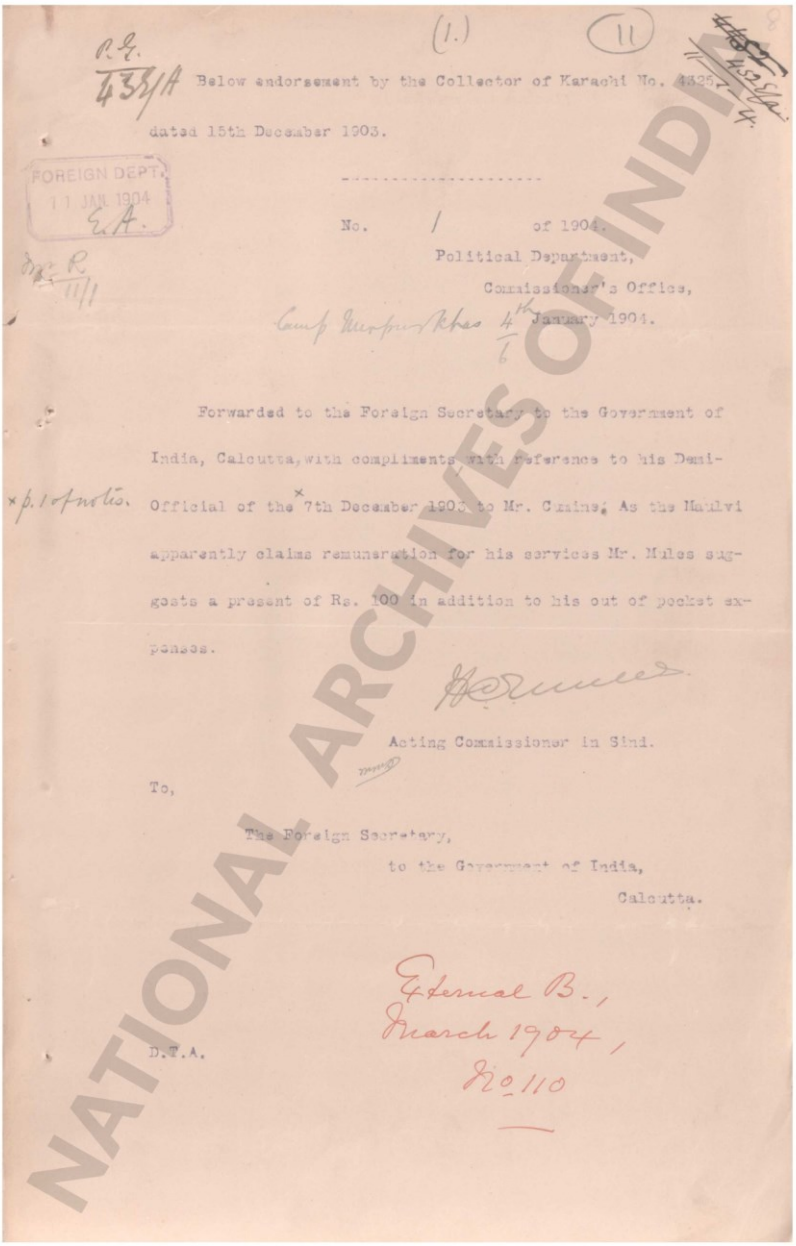
Draft approved (2.) 22/1/25/1

Tel: to Mr. J.G. Lorimer No. 287 S/A dt. the 26th Jany. 1904. Asks if he has paid any money to Maulvi Hamid-ul-Din for his services in the Gulf. Adds that Mr. Meadows Suggests present of Rs 100/. in addition to Rs 80/. out-of-pocket expenses.

No. 3.

NATIONAL ARCHIVES OF INDIA

مجلة الهند ـ ـ ـ



P.S.
438/A

(1.) (11)

Below endorsement by the Collector of Karachi No. 4325 dated 15th December 1903.

FOREIGN DEPT.
11 JAN 1904
E.A.

No. / of 1904.

Political Department,
Commissioner's Office,
Camp Mirpur Khas 4th January 1904.

Forwarded to the Foreign Secretary to the Government of India, Calcutta, with compliments with reference to his Demi-Official of the 7th December 1903 to Mr. Crains. As the Maulvi apparently claims remuneration for his services Mr. Miles suggests a present of Rs. 100 in addition to his out of pocket expenses.

Acting Commissioner in Sind.

To,

The Foreign Secretary,
to the Government of India,
Calcutta.

D.T.A.

External B.,
March 1904,
No. 110

NATIONAL ARCHIVES OF INDIA

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

ISSN: 2321-7928

# تقريظ وانتقاد

## تفسير سورة الفيل للعلّامة حميد الدين (عبد الحميد) الفراهي

- الشيخ أبو الليث شير محمد الندوي[1]

ترجمة من الأردوية: د. محمد معتصم الأعظمي[2]

ربما يعرف العديد من قرّاء مجلة "ترجمان القرآن" فضيلة العلّامة حميد الدين الفراهي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ شخصية بارزة في القرن الماضي تتميز بالعديد من الصفات الفريدة، ويمكن القول، بدون مبالغة، إنه كان فاقد النظير في مجال التفسير وفهم القرآن، ليس في الهند فحسب؛ بل في العالم الإسلامي بأسره. قبل ثلاث سنوات منذ الآن غابت شمس الإسلام هذه في مدينة "متهرا" مركز الكفّار إلى الأبد، إنّ الخسارة التي لحقت بالعلم والأدب بوفاة العلّامة الفراهي لا يمكن تقديرها إلا من قبل مَنْ يعرف شخصيته.

لقد وهبه الله تعالى كافّة المؤهلات، وكان بارعًا في اللغات الفارسية والإنجليزية والعربية، لكن ما يميّزه عن جميع الناس هو فهمه للقرآن الكريم، كان القرآن هو المجال الرئيس لجهوده، فقد ضحّى بكل شيء من أجله، على الرغم من أنه كان يشغل منصبًا رفيعًا في حيدرآباد يدرّ عليه براتب كبير، إلا أنه لم يبال بالمنصب والمال، وتخلّى عن كل شيء ليخلص نفسه لكتاب الله، لقد قضى معظم حياته بعيدًا عن السمعة والجاه، وجلس في زاوية، باحثًا عن أسرار القرآن، ولكن للأسف، لم يتمكن من نقل كلّ ما عرفه وفهمه، فوافته المنية وغابت شمس العلم هذه إلى الأبد.

[1] أمير الجماعة الإسلامية بالهند الأسبق.

[2] نائب مدير تحرير المجلة ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها، كلية سيوري فيديا ساغر، بنغال الغربية، الهند

لا يمكن تقدير ما حلّ بأهل العلم من مصيبة وما لحق بالعلم والفن من خسارة فادحة بوفاة الشيخ، ولكن لحسن الحظّ أنه ترك آثارًا من بحوثه، يمكن أن تعوّض بعضًا من هذه الخسارة وفاة الشيخ من خلال نشرها، تشمل الملاحظات التي أثرها الشيخ تتعلق جميعًا بتفسير القرآن وبلاغته وحكمته ونظمه وتاريخه وأسلوبه وما إلى ذلك، إذا تمّ نشر هذه المسوّدات، فيمكن القول حقًّا إن العديد من الصعوبات في فهم القرآن ستزول، ولكن للأسف لا يزال هذا الكنز الثمين مهملًا بسبب إهمال الناس وعدم توفر الأموال، ولم يتمّ حتى الآن اتخاذ أيّ ترتيبات لنشره. ولكن الدكتور حفيظ الله الجرّاح العامّ من مدينة بارابنكي، وحفيظ أحمد قاضي حيدر آباد يستحقان الثناء والتقدير، حيث آتت جهودهما ثمارها بنشر تفسير سورة الفيل، وهي واحد من مؤلفات الشيخ العربية.

هذا التفسير جديد تمامًا من حيث مضامينه ويتكون من خمسة عشر فصلًا تتضمن مواضيع ربما لم تطرق على أذنيك من قبل، فالفصل الأول يشرح الكلمات الصعبة في السورة، والفصل الثاني يناقش مَنْ هو المخاطب في "ألم تر"؟ ويقول المفسرون عامةً إنّ المخاطب في هذه السورة هو الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بينما يخالف الشيخ هذا الرأي، فيرى أنّ الخطاب هاهنا متوجه إلى جميع مَنْ رأى هذه الواقعة أو أيقن بها طريق تواتر الحكاية ممن رآها[1] وقدّم الشيخ العديد من الأمثلة من القرآن التي تدلّ على أنه يمكن خطاب الجمع بصيغة المفرد. ثمّ ذكر أربعة أسباب دفعت الشيخ إلى تكوين رأي مخالف لآراء المفسّرين التقليديين حول المخاطب، وستؤدي تفاصيل هذه الأسباب إلى طوالة البحث، لكنّ السبب الثالث جدير بالذكر، فلا أستطيع المضي قدمًا دون تقديم ملخص له.

إنّ الشيخ يقول: "الثالث أنّ القرآن إنما نزل ليقرأ على الناس، كما قال تعالى "وَقُرۡءَانٗا

[1] تفسير سورة الفيل، ص 721

فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ" (الإسراء: 106) فإن صرف هذا الخطاب إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا بدّ أن يراد به تسليته من الله تعالى، وأنه كما هزَمَ جنود أعداء البيت فكذلك سيَهزِمُ هؤلاء المشركين الأقوياء، فإنهم أعداء الله، فهذا المحمل وإن صحّ خطابًا بالنبي، ولكن إذا قرأه النبي على الناس صار حجةً لهم، فإنهم حينئذ يقولون: نحن أولى بنصر الله، فإنّا ولاة بيته؛ ألا ترى كيف انتصر الله لنا وأهلك أعداءنا؟ فلا يحسسن تأويل السورة إلى تهديدهم، وإنما يحسن تأويلها إلى تحريضهم على التوحيد بذكر النعمة التي أنعم عليهم بها، كما صرح به في السورة اللاحقة وهذا يقتضي صرف الخطاب إليهم".[1]

وفي الفصل الثالث، تمّ ذكر عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها[2] لأنّ الشيخ يعتقد أنّ آيات القرآن وسوره مرتبط بعضها بالبعض، فعمود هذه السورة تمهيد وجوب الشكر لله تعالى بذكر ما جعل لأهل مكة خصوصًا والعرب عمومًا من العزّ والكرامة بما حماهم وبلدهم ببركة هذا البيت المحرم.[3] وفي الفصل التالي، ذكر "بيان ما فضّل الله به هذا البيتَ وأهلَه على سائر المعابد وذويه".[4] وفي الفصل الخامس، جاء ذكر بعض الحقائق وإزالة بعض الشبهات. وأما في الفصل السادس فـ"إجمال القصة حسب ما نصَّ عليه القرآنُ".[5]

ثم الفصول التالية مهمّة جدًّا للغاية ففي هذه الفصول قام الشيخ بانتقاد العديد من الآراء المشهورة وعلى سبيل المثال، يُقال عادةً أنّ فاعل "ترميهم" هو الطير، لذلك يُعتقد أنّ الطيور رمت بالحجارة أصحابَ الفيل، لكنّ الشيخ يرى "إنّ الله تعالى أرسل

[1] تفسير سورة الفيل، ص 724
[2] تفسير سورة الفيل، ص 724
[3] تفسير سورة الفيل، ص 725
[4] تفسير سورة الفيل، ص 726
[5] تفسير سورة الفيل، ص 736

طيورًا لتطهير ناحية مكة من جيف القتلى، والمشهور أنّ الطير أرسلت لرميهم بالحجارة، فاعلم أنّ النظر في الروايات يكشف عن فريقين متباينين في تصوير هذه القصة"،[1] هذه الفكرة جديدة تمامًا، لذا فهي تثير الدهشة وتخلق أنواعًا مختلفة من الشكوك، لكنّ إحدى الخصائص الغريبة لهذا الكتاب هي أنه حيثما تنشأ شبهة، يتم تقديم إجابة عليها داخل الكتاب نفسه، ليس لدينا وقت الآن لتقديم ملخص لبعض الشبهات وإجاباتها، ولكن إذا اطّلع القراء على هذا الكتاب، فسوف يصدّقون قولي، وتدور المناقشات حول الحجارة حتى الفصل الثاني عشر ثم يأتي ذكر الأسباب التي تجعل الذهن لا ينتقل إلى التأويل الصحيح، أحدها هو أنّ لفظ "الطير" ورد قبل"ترميهم" فلذلك يُعتبر الطير فاعله، بينما الشيخ يعتقد أنّ فاعل "ترميهم" هو أنتَ (الخطاب)، "والخطاب هاهنا إلى أفراد أهل مكة، وكلمة (ترميهم) حال عن المجرور في "عليهم" أو جملة مستأنفة"[2] فقدّم الشيخ العديد من الأمثلة من القرآن وكلام العرب التي تدلّ على أنّ الحال تقع عادةً من الضمير المجرور".

وفي الفصول التالية، نوقش أصل رمي الجمار بمنى،[3] ثم حاول إثبات "أنّ رمي الجمار بمنى كان تذكرةً لرمي أصحاب الفيل"[4] ثم يذكر في الأخير "لأنّ رمي الجمرات يكفي تذكارًا لتلك الواقعة".[5]

وباختصار، إنّ هذا الكتاب يحتوي على مباحث جديدة وخصائص عديدة. كما قال الشاعر:

ز فرق تا بقدم هر كجا كه می نگرم  كرشمه دامن دل می كشد كی جا اینجاست[6]

[1] تفسير سورة الفيل، ص 746-747

[2] تفسير سورة الفيل، ص 758

[3] تفسير سورة الفيل، ص 763

[4] تفسير سورة الفيل، ص 765

[5] تفسير سورة الفيل، ص 773

[6] ترجمة: حيثما أرى من القدم إلى الرأس، يجذب كأنه هو الملقى لعصا الترحال.

وإنّي أطلب من العلماء أن يراجعوا هذا الكتاب بالتأكيد، وألّا يتسرّعوا في تكوين رأي قبل الدراسة، وأمّا تفاسير الشيخ التي تم نشرها حتى الآن فهي في الواقع تفسيرات منفصلة للسور المختلفة، ولكن لا ينبغي للمرء أن يفترض أنّ دراسة هذه الأجزاء لن تفيد البتة، لأنّ تفاسير جميع السور التي تم نشرها حتى الآن هي في الواقع تلك السور التي تحتوي على بعض الإشكالات الخاصة، أو التي وُجد رأي خاص فيها عند الشيخ، فلا بدّ من دراسة هذه الأجزاء من حيث أنها تكشف عن مبادئ فهم القرآن، ويتمّ الحصول على المفتاح الذي يفتح باب فهم القرآن، وأخيرًا أودّ أن أوضّح هنا أنّ جميع مؤلفات الشيخ المنشورة وغير المنشورة كتبت باللغة العربية، ولكنّ أجزاء التفسير المنشورة التي كانت باللغة العربية، قد تمّت ترجمة معظمها إلى اللغة الأردوية وقام بها الشيخ أمين أحسن الإصلاحي وهو تلميذ الشيخ، وكان الجدير بهذا في الواقع، وقد تمّت ترجمة "سورة الفيل" أيضًا ولكن لا ندري متى يتم نشرها وطباعتها؟[1]

[1] مع الشكر لمجلة "ترجمان القرآن"، 6/6/470-474

ISSN: 2321-7928

# مفردات القرآن
## بين الإمام عبد الحميد الفراهي والراغب الأصفهاني

- د. محمد البويسفي[1]

### مقدمة

يعتبر تفسير القرآن الكريم أوّل العلوم الإسلامية نشأة لحاجة الناس إليه، نظراً لمكانة القرآن الكريم في حياة المسلمين، فهو دستور المسلمين، ومصدرهم في الفكر والسلوك، وإليه يُهرعون عند حلول المشكلات والنوازل، وهو الحجة والدليل عند الحوار والإقناع.. إنه الحَكَم عند الاختلاف والنزاع.

وقد كان الصحابة الكرام أهل لسان وعربية، وحاجتهم إلى التفسير والبيان قليلة، خاصة مع وجود النبي صلّى الله عليه وسلّم بين أظهرهم، لكن بعد وفاته صلّى الله عليه وسلّم، ووفاة أغلب الصحابة، واتساع رقعة العالم الإسلامي، ودخول كثير من العجم في الدين الجديد، وكثرت الحوادث والنوازل، اشتدت الحاجة إلى تفسير القرآن واستنباط الأحكام الشرعية منه. وأول ما ظهر من التفسير هو تفسير مفردات القرآن الكريم، باعتبارها مفاتيح فهم القرآن، وتدبر معناه، والاهتداء بهديه.

ومن أسباب ودواعي الاهتمام بمفردات القرآن اشتمالُ القرآن الكريم على لغات العرب، من ثقيف وهذيل، واشتماله على ألفاظ معربة وافق استعمالها في لغات وأمم أخرى، مثل القسطاس، وتعني الميزان والعدل، استبرق، وتعني الديباج، وغسلين التي تعني صديد أهل النار، إضافة إلى اشتمال القرآن على ظواهر لغوية كالترادف والاشتراك، وقد خصص له العلماء كتباً عنونوها بالأوجه والنظائر، ثم المعاني الشرعية الجديدة التي جعلها القرآن

[1] جامعة القاضي عياض، المغرب

للألفاظ العربية، والتي لم تكن في العربية قبل نزول القرآن الكريم.

وإنّ الاهتمام بمفردات ألفاظ القرآن يبرز غنى القرآن وثراءه اللغوي، ويتيح لنا تحقيق المدلول القرآني للمفردات، ويفتح الآفاق لتدبر القرآن وتفسيره، ولا يتم ذلك إلا من خلال فهم ألفاظ القرآن الكريم زمن نزل الوحي، لأنّ كثيرًا من الألفاظ تغيّر معناها مع الزمن، فكلما تطوّرت العلوم تغيّرت معها معاني الألفاظ، إما توسيعًا لمعنى اللفظ أو تضييقًا له، ولذلك لا بد من فهم ألفاظ القرآن الكريم وفق مدلولها زمن النزول، وإلا وقع خطأ في فهم القرآن وتفسيره، وسبيل هذا الفهم وفق مدلول زمن النزول هو السياق بمعناه العام، سواء الداخلي أو الخارجي، وبذلك نستطيع تحقيق المدلول القرآني للفظ، وليس المعنى اللغوي أو الاصطلاحي الحادث بعد زمن النزول، وفي ذلك يقول محمد عبده: "فإنّ كثيرًا من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد، من ذلك لفظ "التأويل" اشتهر بمعنى التفسير مطلقًا أو على جه مخصوص، ولكنه جاء في القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى: "هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ" فما هذا التأويل؟ يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة؛ ليفرّق بينها وبين ما ورد في الكتاب. فكثيرًا ما يفسّر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى. فعلى المدقق أن يفسّر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله. والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرّر في مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ "الهداية"- سيأتي تفسيره في الفاتحة- وغيره، ويحقّق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إنّ القرآن يفسّر بعضه ببعض، وإنّ أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته".[1]

[1] تفسير المنار، رشيد رضا، الهيئة المصرية للكتاب. 1/19-20

## المحور الأول: مفردات القرآن عند عبد الحميد الفراهي

ومن الكتب المهمّة في مجال مفردات القرآن الكريم نجد مفردات القرآن للإمام عبد الحميد الفراهي، الذي تميز بجهوده الحميدة في خدمة اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وهي جهود مرتبطة بالقرآن الكريم، لأنه يرى أنّ الغاية الكبرى من العلوم الإسلامية هي خدمة القرآن الكريم، من حيث الفهم والاستنباط والتنزيل. أما اللغة العربية فهي من علوم الآلة التي تعين على فهم النص القرآن والاستنباط منه، لأنه نزل بلسان عربي مبين، وأنّ العربية هي مفتاح الدخول إلى أنواره وأسراره، والاغتراف من معينه. قال الله عزّ وجلّ: "إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢".[1]

**مركزية القرآن في المشروع العلمي للإمام الفراهي:** وقد أبدع الإمام الفراهي في العلوم الإسلامية، بحيث تميّزت كتاباته بالإبداع وعدم التقليد، وبالتأسيس بدل الحشد والتجميع، وبالشجاعة والجرأة العلمية في خوض غمار البحث والتأليف والنقد والتصحيح، وقد ساعده في ذلك تكوينه العلمي الرصين، الذي جمع بين التضلع في العلوم العربية والشرعية، وبين فقه الواقع، واطلاعه على اللغات القديمة كالعبرانية والسريانية، وما يروج فيه من أفكار ونظريات وافدة من العالم الغربي خاصة، وما يكتبه المستشرقون عن الثقافة الإسلامية ومصادرها الأساسية، وفي بؤرتها القرآن الكريم. وكان للمستشرقين تأثير بيّن في فكر نخبة من مثقفي بني جلدتنا، الذين درسوا في الغرب، أو تتلمذوا على المستشرقين في بلاد المسلمين، فنقلوا شبهات المستشرقين وتعاملوا معها بمنطق العثور، دون تمحيص أو نقد، فكانت هذه الشبهات تشوش الرؤية لدى الأجيال الناشئة من المسلمين، فكانت الحاجة ماسّة لبيان المنهج الصحيح في التعامل مع القرآن والسنة: فهمًا وتنزيلًا، وما يقتضيه ذلك من تأصيل وتمحيص وتأهيل للعلوم الإسلامية.

ولذلك فقد جاءت كتابات الإمام الفراهي في وقت أحوج ما تكون الأمة إلى من ينير لها

[1] سورة يوسف: 2

الطريق، من حيث بيان كيفية الاستفادة من كتاب الله، وتسديد الفهوم الخاطئة، ورد طعون المستشرقين الطاعنين في المصادر التشريعية: القرآن والسنة. فقد غطّت كتاباته الدراسات القرآنية في مجملها، وما ميز كتاباته أنها متناسقة ومتكاملة في مشروع فكري إصلاحي يروم من خلاله إحياء هذه الأمة وتجديد دينها، بدءًا بتجديد الفهم للقرآن الكريم.

وقد تجمعت للإمام الفراهي، شروط التجديد وأدواته، فقد نشأ في أسرة علم، وكرّس حياته للعلم: تأليفًا وتعليمًا، وامتلك أدواء البحث العلمي، خاصة علوم الآلة، واطلاع الواسع على الفكر الغربي، فأحسن المنطلق في الإصلاح باعتماده القرآن الكريم، وسبيل الإصلاح الذي تصحيح الفهم أولًا، وعناوين كتبه تبين ذلك: "التكميل في أصول التأويل" و"مفردات القرآن" و"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"..، سعى من خلال ذلك إلى تأسيس سياج نظري يؤطر فهم القرآن ويوجهه نحو الصواب، ويحمي التأويل من الانحراف.

وأكّد الإمام الفراهي في كتابه "إمعان في أقسام القرآن" على أنّ القسم إذا كان مجردًا عن المقسم به فإنما يراد به تأكيد قول أو إظهار عزم، أما إذا أقسم بشيء فإنّ المقصود هو الإشهاد، حتى في الأيمان الدينية. أما كتاب "أساليب القرآن" فهو كتاب صغير عبارة عن رسالة موجزة عن أساليب العرب، وإحاطة العلم بدلالات الصور والأساليب، ومواقع استعمالها، أما في كتابه "التكميل في أصول التأويل"، فنبّه إلى الحاجة الملحة لقانون يُرجع إليه ويُحتكم إليه لضبط الفهم والتأويل، وهذا القانون يقوم أساسًا على نظم القرآن حيث دعا إلى التفكر فيه. ومعلوم أنّ هذا كتاب في أصله مقدمة لكتاب "نظام القرآن"، وتمهيد له، وتقوم نظرية النظم عند الإمام الفراهي على فكرة أساسية هي أنّ القرآن الكريم هو نص منسجم متكامل ومتناغم، يكمل بعضه البعض الآخر، وأنّ القرآن الكريم قائم على حسن النظم والترتيب، في ألفاظه ومفرداته وسوره، فهي منتظمة ومترابطة في سلك واحد، لو تم تبديل أحدها عن مكانه لاختلّ

المعنى واضطرب. وسبيل الوصول إلى نظام القرآن هو التدبر مع مراعاة السياق، أما وظيفة النظام هي الوصول إلى تدبر صحيح للقرآن الكريم، والترجيح بين القوال المتضاربة، وتعيين الصحيح من الاحتمالات المتعددة، وهو الإقليد الذي تُفتح به كنوز القرآن، وكان هدف الإمام الفراهي هو الحرص على الفهم السليم للقرآن الكريم، وعدم اجتزاء النصوص من سياقها أو لَيّ أعناقها، وإبعادًا للفهم الجزئي للآيات القرآنية الذي من شأنه تحريف الفهم وإبعاده عن مقصد المتكلم الذي هو الله تعالى.

**مميزات مفردات القرآن عند الفراهي:** ولذلك نجد الإمام الفراهي في كتابه: "مفردات القرآن" ينبّه إلى أهمية المفردة القرآنية باعتبارها المفتاح لولوج القرآن الكريم والنهل من معينه الذي لا ينضب، ولأنّ سوء فهم الألفاظ قد يصرفه عن المقصود بالسورة كلها، وأنّ فهم الألفاظ القرآنية يجب أن يكون من القرآن نفسه، ووفق معهود العرب زمن نزول القرآن الكريم، وليس الوقوف على المعاني اللغوية للمفردة فقط، لأنّ المعاني المقصودة هي ما كانت زمن نزول الوحي، أما ما تم استحداثه من معانٍ بعده فيضرب عنه صفحًا. وهذا يفرض ضرورة معرفة كلام العرب وأساليبهم في التعبير قديمًا.

وقدّم نقده لكتب اللغة التي لم تفِ بالغرض لأنها لا تعطي حدًا تامًا للكلمات، ولا كتب السير والتفسير، وكتب العلوم الأخرى من العقليات والأخلاق، لا تعطي ما تضمن عليه القرآن من الحكم والأسرار. ويؤكد الحاجة إلى ثلاثة علوم هي اللغة والتاريخ والحكمة، فقال عن تقصير كتب اللغة بأنها مقصرة لأنها: "كثيرًا ما لا تأتي بحدّ تام، ولا تميز بين العربي القح والمولد، ولا تهديك إلى جرثومة المعنى فلا يدري ما الأصل؟ وما الفرع؟ وما الحقيقة وما المجاز؟ فمن لم يمارس كلام العرب واقتصر على كتب اللغة ربما لم يهتد لفهم بعض معاني كتاب الله".[1]

[1] مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي، تحقيق وشرح: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2002م، ص 53

ودعا إلى ضرورة القراءة الفاحصة والنقد لما في هذه الكتب والتمييز بين الصحيح والغلط، لأنه ليس كل ما حوته من معلومة صحيحة، ولذلك وجب إعمال العقل وإمعان النظر، من أجل الغربلة واختيار الصواب وترك غيره، وعدم الاعتماد على ما جاء في هذه الكتب لأنه يمكن للقارئ أن يقع في الخطأ تبعًا لخطئ أصحابها. يؤكد على أهمية المفردة القرآنية وعلوم اللسان للوصول إلى حكمة القرآن، والتي تتأتى باستعمال العقل وتدبر آيات القرآن الكريم، وهذا التدبر الذي ينفذ إلى أعماق القرآن واستخراج المعاني والحكم من بين طياته، وعدم الاكتفاء بالمعاني الظاهرة فقط.

من أجل ذلك لا بد من الوصول إلى موضوع السورة الرئيس، وهذا هو الذي فصله في نظام القرآن، وسبيل الوصول إلى هذا النظام هو معرفة معنى المفردة القرآنية ووجوهه وأحواله، ثم التزام بنظام القرآن، لأنّ الأول معين على الثاني، ولذلك جاء هذا الكتاب ضمن منظومة فكرية متكاملة لفهم القرآن الكريم والاهتداء بهداياته.

ويحتل هذا الكتاب- مفردات القرآن- مكانة مهمة في مشروعه الفكري، باعتباره مفتاح نظام القرآن والخطوة الأولى لفهم الكلام، والكتاب يبين عن منهجه في التعامل مع التراث الإسلامي عامة والقرآن الكريم خاصة.

وقد كان سبب تأليف هذا الكتاب، الذي يُعتبر من أهمّ كتبه رغم أنه لم يُكتَب للمؤلف أن يُتم كتابه، فتوفّاه الله تعالى والكتاب ما زال في المسودة، هو تفادي التكرير، فيكتفي بالإحالة عليه، لأنه يحتاج في تفسيره نظام القرآن إلى شرح مفردات القرآن بشكل من التفصيل والبسط، وهذا يُثقل الكتاب ويخرج به عن المقصود، فألّف كتاب "مفردات القرآن" حتى تكفيه الإحالة عليه في نظام القرآن، لمن أراد التفصيل والتدقيق والاستدلال. فقال: "فهذا كتاب في مفردات القرآن جعلته مما نحول إليه في كتاب نظام القرآن لكيلا نحتاج إلى تكرار بحث المفردات إلا في مواضع يسيرة يكون فيها الصحيح غير المشهور فنذكر بقدر ما تطمئن به القلوب السليمة، ولا

نورد في هذا الكتاب من الألفاظ إلا ما يقتضي بيانًا وإيضاحًا، إما لبناء فهم الكلام أو نظمه عليه، فإنّ الخطأ ربما يقع في نفس معنى الكلمة فيبعد عن التأويل الصحيح أو في بعض وجوهه فيغلق باب معرفة النظم وأما عامة الكلمات فلم نتعرض لها وكتب اللغة والأدب كافلة به، ومع ذلك تجد هذا الكتاب- إن شاء الله تعالى- محتويًا على جلّ ما يقتضي الشرح من ألفاظ القرآن".[1]

ثم بيّن فكرة الكتاب الأساسية وهي أنّ المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام، وبعض الجهل بالجزء يؤدي إلى الجهل بالكل، والنجاة من الخطأ تكون بالإحاطة بجميع الجوانب، ومن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن فاته سبيل التدبر، وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عليه نظم الآيات والسور، لأنّ المفردة القرآنية هي مفتاح التدبر والوصول إلى القراءة الكلية للقرآن الكريم، القائمة على الإحاطة بنظام الآيات والسور.

والفهم الخاطئ للكلمة له آثار وخيمة لأنه يتعدى إلى ما يدل عليه الكلام من المعارف والحكم، لأنّ أجزاء الكلام يبيّن بعضها ببعض للترابط بينها. وقد تجد الخطأ في معنى كلمة واحدة يصرف عن فهم وتفسير السورة كلها، وهكذا يمكن أن يؤدي الخطأ في الكلمة الواحدة يُنشئ مذهبًا باطلًا مضلّلًا للخلق ومضيعة للحقيقة الشرعية والدين القويم. ولو كان الضرر عدم الفهم لكان يسيرًا، ولكنه أكثر وأفظع. لأنه يتوهم عكس ما يُقصد من اللفظ، فيذهب إلى عكس مقصود الله، وهذا أخطر وأعظم.

وقدّم الإمام الفراهي لكتابه هذا بثلاث مقدمات، الأولى خصّها لمقصد الكتاب والحاجة إلى معرفة الألفاظ المفردة وهي الخطوة الأولى لفهم الكلام، ومن خفي عليه معاني الألفاظ المفردة من القرآن أشكل عليه فهم الجملة وخفي عليه نظم

[1] مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم، دمشق، ط3، 1418هـ-1997م، ص 93

الآيات والسور، أما المقدمة الثانية فخصّها للأصول اللسانية وتحدّث فيها عن كثرة الأوهام عن الكلمة، وأنّ سبب ذلك إما عدم تبين معنى الكلمة، وإما عدم تبين أحوالها الصحيحة. وفي المقدمة الثالثة تحدّث عن كون القرآن الكريم نزل بلغة عربية، وأنّ سبيل فهمه هو التمكن من العربية.[1]

ونبّه إلى تغير معاني الكلمات والمفردات عند نزول الوحي وما صارت إليه بعد ذلك، ومن تمكن من ناصية المفردة القرآنية زمن نزول الوحي سهل عليه فهم القرآن والنهل من أسراره وحكمه غير المتناهية، وفي ذلك يقول: "فإنّ مَنْ عرف معنى الكلمة وأحاط بوجوهه وما يتعلق به من الأحوال، أمكنه أن يطلع على ما هو أكملُ رِباطًا وأحسنُ تأويلًا".[2]

وأهمّ ما ميّز هذا الكتاب مقدماته التي تناول فيها مسائل مهمة تتعلق بلغة القرآن. وتقديمه لبعض تفسيرات جديدة لبعض الألفاظ. ثم كشفه عن أصول جديدة ترجع إليها مشتقات المواد اللغوية. وأخيرًا تأصيله لبعض الكلمات التي زعم الطاعنون أنّ القرآن أخذها عن اليهود والنصارى.[3]

## المحور الثاني: مفردات القرآن عند الراغب الأصفهاني

للراغب الأصفهاني تميز كبير في مجال مفردات القرآن، بحيث لا يخلو كتاب في التفسير أو علوم القرآن من أثره، بشكل أو بآخر، خاصة كتاب "مفردات القرآن"، الذي أبدع فيه أيما إبداع، وقدّم بذلك خدمة جليلة للمكتبة القرآنية، نظراً لما تميز به من عمق في النظر، وسلامة في المنهج، وتأصيل للمعنى القرآن الصحيح، بناء على فهم

[1] مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي

[2] مفردات القرآن، للفراهي، ص 112

[3] جهود الإمام عبد الحميد الفراهي الهندي في التفسير وعلوم القرآن، محمد فريد راوي بن عبد الله، رسالة الدكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2015م

كلام العرب وأساليبهم في التخاطب والتواصل.

وقد نوّه الزركشي بعمل الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات لاعتماده على السياق، حيث قسم الزركشي تفسير القرآن إلى قسمين، قسم ورد تفسيره بالنقل عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أو الصحابة أو كبار التابعين، وهذا القسم وجب التأكد فيه من صحة السند، وأما القسم الثاني، وهو الذي لم يرد فيه نقل، فطريق التوصل إلى "فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيرًا في كتاب "المفردات" فيذكر قيدًا زائدًا على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ؛ لأنه اقتنصه من السياق".[1]

ومن المعاصرين الذين نبّهوا إلى أهمية كتاب مفردات القرآن للراغب الأصفهاني وما تميز وانفرد به عمن سبقه من المشتغلين بغريب القرآن الدكتور الشاهد البوشيخي، حيث قال: "ولاسيما أصحاب كتب غريب القرآن، وفي مقدمتهم إمامهم الراغب الأصفهاني في "المفردات" الذي كاد يتفرد بشيء لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، وهو التفطن إلى خصوصية الدلالية القرآنية، مما أكسبه تدقيقًا في الشرح ميزه عن سواه تمييزا".[2]

**مركزية القرآن في المشروع العلمي للراغب الأصفهاني:** وكما رأينا في مشروع عبد الحميد الفراهي، فإنّ المشروع العلمي للراغب الأصفهاني يهدف إلى تقديم قراءة نسقية كلية للقرآن الكريم، تضمن فهمًا راشدًا لمبنى القرآن ومعناه، تُثمر استقامة في السلوك بعد استقامة الفكر، وقد جاء كتاب "مفردات القرآن" ضمن نسق معرفي موزع بين عدة كتب تهدف إلى تقديم تصور كلي لفهم القرآن، حيث ألّف كتاب: "الرسالة المنبهة على فوائد القرآن"، ثم كتاب "الذريعة إلى مكارم الشريعة"، وكان تركيزه على مفردات القرآن، لأنّ العلوم اللفظية هي المفتاح في كل العلوم.

2 البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار المعرفة، 1990م، 313/2،

[2] دراسات مصطلحية، د. الشاهد البوشيخي، دار السلام، ط 1، 2012م، ص 103

**مميزات مفردات القرآن عند الراغب الأصفهاني:** لكتاب الراغب الأصفهاني: "مفردات القرآن" قيمة علمية كبيرة تتجلى في اهتدائه إلى مفاتح النص القرآني، وهي مفردات الألفاظ التي لا يستغني عنها مشتغل بكتاب الله تعالى، فامتلاك المفاتيح وضبطها يسهل عملية الولوج إلى الوحي، ومن دخل في كتاب الله بعقله وفكره اهتدى، ومن اهتدى عاش حياة طيبة ملؤها السعادة والهناء، وهذه هي الطريقة الوحيدة الأسلم والأيسر لفهم كتاب الله تعالى، وهي الخطوة الأولى واللبنة الأساس التي لا يمكن الاستغناء عنها، وإلا يكون الواحد منا يدور حول النص وهو يظن أنه يغوص في أعماقه. وللكتاب تأثير فيما جاء بعده من كتب التفسير وعلوم القرآن.

وقد تكلّم المؤلف في المقدمة عن عظمة القرآن الكريم وأنه مصدر النور والهداية، لكن ليس كل الناس مؤهلون للنهل من معينه الذي لا ينضب، بل لا بد من صفاء القلب ونقاوة النفس من كل الأمراض، ثم نبّه إلى أنّ أول ما يحتاج إليه من علوم القرآن هو العلوم اللفظية، التي ترتكز على تحقيق الألفاظ المفردة، وهذه الأخيرة هي ما يعين على فهم القرآن، بعد ذلك تحدّث عن منهجه في تأليف الكتاب لكن باقتضاب شديد.

وهذا الكتاب لا يحتوي على فصول، ولا مباحث كما عهدنا في باقي الكتب الأخرى، وإنما نوعية الكتاب معجمية لذلك تجد بعد المقدمة مباشرة باب حرف الألف، وتدخل تحته كل المفردات التي تبدأ بحرف الألف. بعد ذلك تجد حرف الباء، وهكذا إلى آخر حرف من الحروف الهجائية.

في منهج التأليف: رتّب المؤلّف معجمه هذا ترتيباً الفبائيًا، أولًا في تبويب الكتاب: الألف أولًا ثم الباء ثم التاء... وهكذا. ثم في ترتيب الكلمات: فاء الفعل ثم عينه ثم لامه. مثلًا:

- في باب الألف: "أب"، "أتى"،" أثاث"، "أجر"، "أحد..."
- في باب الباء: "بأس"، "بتر"،" بث"، "بجس"، "بخع"، "بدر..."

- في باب الجيم: "جبت"، "جبر"، "جبل"، "جبن"، "جبه"،...

وفي ترتيبه لأبواب الحروف يقدم باب الواو على باب الهاء. وهذا الترتيب الألفبائي يكون في أوائل حروفه الأصلية دون الزوائد. هذا من حيث الترتيب المنهجي لأبواب الكتاب وترتيب الكلمات، أما من حيث طريقته في شرح مفردات ألفاظ القرآن فهو يعطي المعنى اللغوي، أي أصل الوضع في اللغة، ثم يعدّد المعاني التي يفيدها اللفظ حسب استعماله في الآية القرآنية. كما أنه عمل على كشف جذر الكلمة، والمقصود هو جذر المعنى الذي تلتقي عنده جميع معانيها.

أما الاستشهاد: فيستشهد بالقرآن الكريم إذا كانت تلك اللفظة المراد شرحها في آية أخرى وفي سياق آخر بنفس المعنى لكنه أوضح. كما أنه يستشهد بالأحاديث النبوية وأقوال الصحابة، وهذا يوجد خاصة عندما يذهب إلى معنى اصطلاحي أو شرعي، ثم يستشهد بأبيات من الشعر الذي هو ديوان العرب. كما أنه يستشهد بالأمثال المشهورة. وهذا الأمر لا نجده عند شرحه لكل لفظة من ألفاظ القران، بل قد يكتفي بالشرح اللغوي من غير استشهاد بغير القران، مثلًا عند شرحه لفظة "النبز" قال: "النبز التلقيب، قال: "ولا تنابزوا بالألقاب" هنا أوجز إيجازًا ولم يأتي بشاهد من اللغة أو غيرها، ولعله وضح المعنى فلم يشأ الإطناب. لكن في مواضع أخرى من الكتاب لا يكتفي بالشرح اللغوي بل يتعداه إلى المعنى الاصطلاحي والشرعي، مثال هذا الأخير في شرحه للفظة "توب"، قال: "والتوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة فمتى اجتمعت هده الربع فقد كمل شرائط التوبة".

وفي شرحه لألفاظ القرآن يعتني كثيرًا بالقراءات القرآنية، فلا يكتفي بالقراءة الواحدة وإنما يتعداها إلى غيرها من القراءات الثابتة عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فعندما شرح القدر قال: "والقدر وقت الشيء المقدر له، والمكان المقدر له. قال: "إلى

قدر معلوم"، وقال: "فسالت أودية بقدرها"، أي بقدر المكان المقدر لها لأن يسعها، وقرئ "بقدرها"- بسكون الدال وكسر الياء- أي تقديرها (..) وقدرت عليه الشيء ضيقته كأنما جعلته بقدر بخلاف ما وصف بغير حساب، قال: (ومن قدر عليه رزقه) أي ضيق، وقال: (يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر) وقال: (فظن أن لن نقدر عليه) ، أي لن نضيق عليه. وقرئ (لن نقدر عليه) بتشديد الراء وكسرها- وظاهر أنّ بتعدد القراءات تتعدد المعاني، فكان حكيمًا إذ ذكر القراءات.

وعند وقوفه على مفردة اختلف الصحابة أو التابعين في معناها نجده يعدد أقوال الصحابة أو التابعين أو هما معًا في المسألة فيرجح رأيًا أو ينشئ آخر مستقلًا به، فعند شرحه للفظة "قر" قال في قوله تعالى (فمستقر ومستودع": قال ابن مسعود مستقر في الأرض ومستودع في القبور. وقال ابن عباس مستقر في الأرض ومستودع في الأصلاب. وقال الحسن مستقر في الآخرة ومستودع في الدنيا. وجملة الأمر أنّ كل حال ينقل عنها للإنسان فليس بالمستقر التام". نلاحظ أنه تجاوز أقوال الصحابة والتابعين وأنشأ رأيًا خاصًا به، طبعًا لما كان اجتهاده منهم (ض) وليس نقلًا عن الرسول (ص). والذي يبدو أنه كان موفقًا في رأيه.

فالرجل ليس متضلعًا في اللغة فقط، كما يبدو من خلال عنوان الكتاب، بل له الدلو المعلى في العلوم الشرعية أيضًا، ويزهر ذبك في شرحه للفظة "شبه" حيث نجده لبس رداء الأصوليين وصار يقلب المعنى ويعمل فيها قواعد أصول الفقه، فكأنك أمام كتاب أصولي. قال: "والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشبهته بغيره، إما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى، فقال الفقهاء: المتشابه ما لا ينبئ ظاهره عن مراده، وحقيقة ذلك أنّ الآيات عن اعتبار بعضها ببعض- ثلاثة أضرب محكم على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه ومتشابه من وجه. فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب .: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتهما. والمتشابه من جهة اللفظ ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ

المفرد، والثاني يرجع إلى جهة الكلام المركب، وذلك على ثلاثة أضرب. كما تجده فقيهًا أحيانا أخرى، يستنبط الأحكام الفقهية ويرد على الفقهاء ويخطئ بعضهم، وسلاحه في ذلك اللغة، وهذا ما نجده عند شرحه للفظة "طهر" يقول: "وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا"، قال الشافعي رضي الله عنه: الطهور بمعنى المطهر، وذلك لا يصح من حيث اللفظ لأن فعولا لا يبنى من أفعل وفعل، إنما يبنى ذلك من فعل. وقيل إنّ ذلك اقتضى التطهير من حيث المعنى، وذلك أنّ الطاهر ضربان- ضرب لا يتعداه الطهارة كطهارة الثوب فإنه طاهر غير مطهر به، فوصف الله تعالى الماء بأنه طهور تنبيهًا على المعنى".

كما أنه يحذو في شرحه لألفاظ القرآن حذو التفسير الموضوعي، لأنه عمد فيما ذهب إليه إلى جمع الآيات ذات الموضوع الواحد ففسّرها. فجاء ترتيب مصنفه بحسب ما يأتي به التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

ونعطي هنا مثالًا وهو شرحه للفظة "البصر" قال: "البصر يقال للجارحة الناظرة نحو قوله تعالى "كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ" و"وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ" وللقوة التي فيها، ويقال: لقوة القلب المدركة- بصيرة و بصر، نحو قوله تعالى: "فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (..) أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى" أي على معرفة وتحقق وقوله: "بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ" أي تبصره فتشهد له وعليه من جوارحه بصيرة تبصره فتشهد له وعليه يوم القيامة كما قال: "تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ"و"وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً" أي تبصرة وتبيانا. "وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبَصَّرُونَهُمْ" أيجعلون بصراء بأثرهم. ذكر هنا جميع الآيات التي ذكرت فيها لفظة "البصر" ثم شرحها وأعطى المعاني التي تفيدها حسب موضعها وسياقها في الآية.

وفيما يلي باقي مميزات وخصائص منهج مفردات الراغب في مفردات القرآن:

تتبع المعاني المستعارة: يتتبع الراغب المعاني المستعارة بعد ذكر المعنى الأصلي للكلمة،

مثل: كلمة "ريش" يقول فيها الراغب: ريش الطائر معروف، وقد يُخَصُّ بالجناح من بين سائره، ولكون الريش للطائر كالثياب للإنسان استعير للثياب. قال تعالى "وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ" وقيل: إبلًا بريشها- أي ما عليها من الثياب والآلات- ورِشْتُ السهم أريشه رَيْشًا فهو مَريش: جعلت عليه الريش، واستعير لإصلاح الأمر، فقيل: رِشْت فلانًا فارتاش أي: حَسُنَ حال".[1]

تحرّي المعاني الصحيحة: يحرص الراغب على تحري المعنى الصحيح مثل: كلمة "سقم": يقول فيها الراغب: السَّقْمُ والسُّقْمُ: المرض المختص بالبدن، والمرض قد يكون في البدن وفي النفس، نحو "فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ" وقوله تعالى: "إِنِّي سَقِيمٌ" فمن التعريض أو الإشارة إلى ماضٍ، وإما إلى مستقبل، وإما إلى قليل مما هو موجود في الحال، إذ كان الإنسان لا ينفك من خلل يعتريه وإن كان لا يحس به..".[2]

نفي معان موهومة: يحرص الراغب على نفي المعاني غير المقصودة، ويبين المعنى اللائق باللفظ، وذلك كما ورد تحت مادة "خوف" حيث ذكر فيها الراغب: "والخوف من الله: لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب، كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد به الكف عن المعاصي وتحري الطاعات.[3]

قواعد كلية: يستخلص الراغب قواعد كلية استخلصها من تتبع الاستعمال القرآني للكلمة مثل: كل موضع ذكر فيه لفظ "تبارك" فهو تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات[4].[5]

---

[1] المفردات، للراغب الأصفهاني، ص 372

[2] المرجع السابق، ص 415

[3] المرجع السابق، ص 303

[4] المرجع السابق، ص 120

[5] لمزيد تفصيل، ينظر: معاجم مفردات القرآن: موازانات ومقترحات، أحمد بن حسن فرحات، ندوة: عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، تنظيم: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة

## المحور الثالث: مقارنة بين الراغب الأصفهاني وعبد الحميد الفراهي في كتبيهما

يعتبر كتاب مفردات القرآن للراغب الأصفهاني أكثر تداولًا وشهرة، ويصلح للباحثين وغيرهم من عامة المسلمين الطالبين للتفسير ولمعاني مفردات القرآن الكريم، وأكثر استيعابًا وشمولًا لمفردات القرآن، في حين أنّ كتاب الفراهي فهو أصلح للباحثين المتخصصين لما فيه من تحرير وتدقيق ونقد عميق، ولكونه اقتصر على المفردات القرآنية المستعصية والتي اختلف فيها العلماء والمفسرون، والتي كان يرى أنّ لها أثرًا على الفكر والعقيدة، فحرّر معناها وأوجه استعمالاتها.

ومن القضايا التي تميز كتاب الفراهي هي نفيه الغرابة عن مفردات القرآن الكريم لكونه نزل بلسان عربي مبين، وأنه نزل على العرب بلسانهم ليعقلوا معناه، في حين أنّ الغريب مدعاة للإبهام والتعقيد المنافي للبيان والإيضاح، فقال: "قد أفصح القرآن بكونه عربيًا مبينًا وقد وجدناه كذلك فإنه مَنْ مارس لغة العرب ونظر في أشعارهم وخطبهم ومحاوراتهم وجد القرآن أسهلها كلمًا وأقومها نظمًا وأبينها مقالة وأوضحها دلالة... فأما التسمية بالغريب فبالنسبة إلى العجم ومن قلَّ علمُهُ بالعربية"،[1] ولديه قاعدة مفادها: ضرورة مقابلة المستعمل عند العرب بنظيره في الأصول اللسانية غير العربية كالعبرانية، قال الفراهي: "إذا اشتبه المعنى فطريق التوضيح تتبع استعمال لفظه كما فعلنا في لفظ "آلاء" و"العصر" والنظر في أصله، واستعماله في أخوات العربية كالعبرانية والسريانية".[2]

مما تميز به الإمام الفراهي وتجلّى ذلك في كتابه المفردات، وميز الكتاب عنه غيره من الكتب في مجال مفردات القرآن الكريم، هو تمكنه من لغات أخرى خاصة العبرانية، حيث استشهد بهذه اللغة للدلالة على تحريف اليهود والنصارى لكلام الله، فقال في بيان معنى الابن في اللغة العبرانية تستعمل بمعان عدة: "كلمة الابن في العبرانية تستعمل

[1] مفردات القرآن للفراهي، ص 109

[2] المرجع السابق، ص 114

المعنيين للنسبة كابن السبيل وابن الليل، أو كابن صبح وابن حول وسنو وللعبد كالرجل والفتى والغلام، ولفظ الابن ليس كلفظ الولد، فإنّ الولد صريح في الأبنية، ولذلك ترى في القرآن لم يشنع إلا على لفظ الولد، وبين أنّ في استعمال لفظ الابن مضاهاة بالكفر، فينبغي أن يتجنب، كما أنّ لفظ الرب يشابه لمعبود، فبين في القرآن أنهم أفرطوا في هذين اللفظين"،[1] وسبب تأليف الإمام الفراهي لكتاب مفردات هو أهمية المفردة القرآنية في فهم القرآن الكريم ومراد الله تعالى منه، ولأنّ كتب اللغة وكتب غريب القرآن لا تفي بالغرض، لذلك كان تأليف هذا الكتاب لسدّ هذه الثغرة وهذا النقص.

لكل من عبد الحميد الفراهي والراغب الأصفهاني مشروع علمي متكامل ذو نسق معرفي مترابط، للتعامل مع القرآن الكريم، يفرض على الباحث قراءة كتبهما كلها حتى يُلم بفكرهما وتصورهما للعلوم الشرعية. وإذا كان الراغب الأصفهاني جعل كتابه "مفردات ألفاظ القرآن"، ضمن مشروع علمي متكامل في فهم الدين انطلاقًا من نصوصه المؤسسة، أي القرآن والسنة، حيث سبقه كتاب: "الرسالة المنبهة على فوائد القرآن"، ثم كتاب "الذريعة إلى مكارم الشريعة"، ثم إنه كان ينوي أن يُتبعه بكتاب آخر يحقّق فيه الألفاظ المترادفة على معنى واحد وما بينها من الفروق الغامضة،[2] وقد انطلق في مشروعه من كون العلوم اللفظية القائمة على تحقيق الألفاظ المفردة، هي السبيل لفهم معاني القرآن الكريم، وأنها مفتاح كل العلوم الشرعية، وأساسها الأول، وهذا تفطن منه وتنبيه لأهمية هذا العلم في زمن مبكر. ويقول الراغب في ذلك: "وليس ذلك نافعًا في علوم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم".[3]

[1] المرجع السابق، ص 249

[2] مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص 5-6

[3] المصدر السابق، ص 6

أما عبد الحميد الفراهي فله مشروع علمي متكامل في التعامل مع النصوص الشرعية خاصة والعلوم الإسلامية عامة، لأنّ منظومة الفكر الإسلامي له خيط ناظم دقيق، من أمسك به يكون قد تمكن من الوصول إلى سر الاهتداء والرشد في التفكير والتعبير والتدبير، ولذلك كان الهدف الأكبر هو نظام القرآن، وسبيل الوصول إليه هو المفردة القرآنية، ولا بد من توظيف كل العلوم للوصول إلى فهم راشد للقرآن الكريم والنهل من معينه الذي لا ينضب، فكانت كتاباته تدور أساسًا حول العربية نحوًا وبلاغة ومعجمًا، وحول علوم القرآن، خاصة تنبيهه المبكر إلى ضرورة استكمال علم أصول التفسير.

**خاتمة:** إذا كان العلماء قد بذلوا جهودًا كبيرة في علوم القرآن: سواء من حيث أدوات الفهم والتوثيق والتأريخ، فإنّ مجال مفردات القرآن ما زال من المجالات الخصبة والمهمة في الدراسات القرآنية، لارتباطها القوي بفهم القرآن وتفسيره، باعتبارها مفاتيح القرآن، والخطوة الأولى للدخول إليه والنهل من معينه، والاهتداء بهديه، وإذا كان علم مفردات القرآن من أول العلوم نشأة في التراث الإسلامي، فإنّ الحاجة ما زالت كبيرة إلى هذا العلم بسبب سيرورة الفكر البشري ونسبيته وتغيره، وحاجة المسلمين إلى فهم القرآن عبر العصور، إذ إنّ لكل عصر احتياجاته، وحاجة عصرنا كبيرة إلى الفهم السليم للقرآن والذي يؤدي استقامة العمل والسلوك، نظرًا لابتعاد الناس عن القرآن، وتأثير الثقافة الغربية وشبهاتها علينا. واتساع رقعة تحريف فهم القرآن.

## لائحة المصادر والمراجع


1. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار المعرفة، 1990م.
2. تفسير المنار، رشيد رضا، الهيئة المصرية للكتاب. د.ت.
3. جهود الإمام عبد الحميد الفراهي الهندي في التفسير وعلوم القرآن، محمد فريد راوي بن عبد الله، رسالة الدكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2015م
4. دراسات مصطلحية، د. الشاهد البوشيخي، دار السلام، ط 1، 2012م،
5. مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داودي، دار القلم، دمشق، ط3، 1418هـ-1997م.
6. مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي، تحقيق وشرح: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2002م.
7. ندوة: عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، تنظيم: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة

ISSN: 2321-7928

# مفردات القرآن للإمام الفراهي
## بين المعجمية اللسانية والسياقية التأويلية

- د. عامر خليل الجرّاح[1]

### مقدّمة في الدراسات القرآنية

تنوّعت وجوه النظر في القرآن الكريم، فظهر التفسير النقليّ (الأثر)، والتأويل العقليّ (الرأي). وظهرت الدراسات ذات البعد النصّيّ ابتداءً من النظم، ثمّ المناسبة، ثمّ نظام القرآن الذي افترعه الإمام الفراهيّ، والدراسات ذات الطابع اللسانيّ من مثل ما يتعلّق بالصوت والصرف والنحو (المستوى القواعديّ والتركيبيّ)، ثمّ الدلالة والبلاغة والأسلوبية (المستوى الفنّيّ والدلاليّ)، ثمّ التداولية والحجاج والتأويل (المستوى المعرفيّ والإقناعيّ)، وبالجملة ظهرت علوم القرآن لتستوعب شتّى أبواب مقاربة النصّ القرآني من الداخل ومن الخارج، وكان لدرس مفرداته نصيب وافر من اهتمام العلماء، ولا سيّما عند الفراهيّ.

حين جعل الفراهيّ السياق القرآنيّ الخاص والعامّ ثم كلام العرب أساسًا لتفسير المفردات لم يغفل المعاني المعجمية، ولم يُعرض عن كتب التفسير السابقة، لكنّه رأى أنّ كثيرًا من المعاني في كتب اللغة وكتب التفسير لم تسعفه في تطبيق النظام الذي جعله الفيصل في الحكم على المعاني، فاختار على هذا الأساس المفردات يفسّرها، لمّا رأى أنّها تحيد عن النظم، وتخرج عن إطار الكلّ، وتؤثّر في الفهم الصحيح، ومن ثمّ أحجم عن تفسير المفردات العامّة التي لا يُختلَف فيها.

جعلنا هذا البحث على أربعة مباحث: أوّلها في الحديث عن مجهودات الإمام الفراهيّ

[1] أستاذ مساعد، معهد اللغات الحيّة، جامعة ماردين أرتقلو التركيّة، تركيا

في علوم القرآن، ثم ثانيها في نشأة دراسة المفردة القرآنية وتطوّرها، وثالثها في طرائق معالجة المفردة القرآنية وتفسيرها، وآخرها معالجة المفردة القرآنية وتفسيرها عند الفراهي خاصّة، وهو صلب موضوع بحثنا؛ إذ كانت المباحث السابقة له كالتمهيد، وهذا المبحث الأخير تناولناه من جهة مضمون الكتاب، ومن جهة طبيعة مفردات القرآن بحسب دراسة الفراهيّ.

والله الموفّق وعليه التكلان.

## المبحث الأوّل: علوم القرآن الكريم عند الفراهي

**الفراهيّ ترجمان القرآن:** ترجمان القرآن هو اللقب الذي أطلقه عليه معاصروه "لعلوّ كعبه في علم التفسير وتعمّقه في أغوار علوم القرآن وتذوّقه لها وانقطاعه إلى تدبّر القرآن الكريم والعكوف على دراسته والإكباب على علومه وفنونه".[1] ترك الإمام عبد الحميد الفراهيُّ تراثًا غنيًّا يقرب من سبعين كتابًا ورسالةً بلغاتٍ عدَّةٍ كالأورديّة والعربيّة والإنكليزيّة والفارسيّة، وبعض كتبه قد أنهى تأليفها وطُبِعت في حياته أو بعد مماته، وبعضها الآخر لم يكتمل وطُبِع بعد وفاته، وخلا كثير منها من مقدّمات له لتلك الكتب، كما خلت بعض مباحثها من الشواهد، وبعضها جاء في بضع ورقات، ذلك أنَّه كان يعمل في تأليف أكثر من كتاب في وقت واحد، يتدبّر ويتأمّل، ثُمَّ يدوّن الفكرة في الكتاب المناسب لها، وهذا ما جعل كتبه مفتوحة لا مقيّدة بمخطط معيّن ما عدا كتابه (حجج القرآن)، ولم يُقدَّر له إتمام معظمها.

ألّف الفراهيّ اثني عشر كتابًا في القرآن وعلومه:[2]

- فجعل منها خمسة كتب في فهم ظاهر القرآن:

[1] عبد الحميد الفراهي، رسائل الإمام الفراهي في علو م القرآن، من مقدمة الطبعة الثانية، ص 3.
[2] يُنظر: عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن، ص 50 و91.

- منها ثلاثة متعلقة بلسان القرآن من حيث دلالته على معانيه، وهي: (مفردات القرآن)، و(أساليب القرآن)، و(أصول التأويل).
- وكتابان لدفع الظنون التي بُنيت على الأوهام الناشئة عن قلة النظر والتأمّل في روايات جمع القرآن ومواقع تنزيلها، وهما: (تاريخ القرآن)، و(دلائل النظام)

- وجعل سبعة كتب في علوم القرآن: كتاب (حكمة القرآن)، و(حجج القرآن)، و(القائد إلى عيون العقائد)، و(الرائع في أصول الشرائع)، و(إحكام الأصول بأحكام الرسول)، و(الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ)، و(أسباب النزول).

كما ألّف تفسيره (نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان) وهو أجلّ كتبه، بل إنّ كتبه جميعًا تُعدّ مقدمات بين يديه، وله أيضًا في قضايا جزئية من القرآن الكريم (الإمعان في أقسام القرآن)، و(الرأي الصحيح في من هو الذبيح) وغير ذلك من الكتب التي ألّفها بالعربية.

إنّ كتابه (مفردات القرآن) من الكتب المتعلقة بلسان القرآن من حيث دلالته على معانيه كما أسلفنا، وذكر أهمية بيان دلالة المفردات حيث قال: "لا يخفى أنّ المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام، وبعض الجهل بالجزء يفضي إلى زيادة جهل بالمجموع، وإنما يسلم المرء عن الخطأ إذا سدّ جميع أبوابه، فمن لم يتبيّن معنى الألفاظ المفردة من القرآن، أُغلق عليه باب التدبر وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسورة ... ثم سوء فهم الكلمة ليس بأمر هيّن، فإنه يتجاوز إلى إساءة فهم الكلام وكل ما يدلّ عليه من العلوم والحكم، فإنّ أجزاء الكلام يبيّن بعضها بعضًا للزوم التوافق بينها".[1]

[1] المصدر نفسه، ص 4-5.

## المبحث الثاني: نشأة دراسة المفردة القرآنية وتطوّرها

قال النبيّ عليه الصلاة والسلام في ابن عبّاس رضي الله عنهما: "اللهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل."[1]

تناول العلماء دراسة مفردات القرآن تحت عنوانات متعدّة، فمنها (الوجوه والنظائر)، ومنها (المشكل والغريب)، ومنها (المعرّب والدخيل)، ومنها (المقارنة بكلام العرب)، ومنها (لغات القرآن أو الحروف السبعة)، ومنها (التفسير)، ويُعدّ ابن عبّاس (ت68هـ) رضي الله عنهما أول مَنْ كتب في ذلك تأليفًا بنفسه، أو رواية عنه،[2] فهو الممهّد لانطلاق كل تلك العلوم المذكورة آنفًا المتعلّقة بالمفردة القرآنية، وكان يغلب على أعماله الحديث عن مصطلحات الوجوه والنظائر واللغات، ثمّ ظهر من بعده أبان بن تغلب البكري (ت141هـ)، ومحمد بن السائب الكلبي (ت146هـ)، ومقاتل بن سليمان (ت150هـ) وهؤلاء تحدّثوا عن غريب القرآن، ثم ظهر جيل آخر بعدهم مثل أبي عبيدة مَعْمَر بن المثنّى (ت210هـ)، وقطرب (ت204هـ) والأخفش الأوسط (ت215هـ) والكسائيّ (ت189هـ) والفرّاء (ت207هـ) تحت عنوانات مجاز القرآن ومعاني القرآن وإعرابه، وهؤلاء وظّفوا أساليب العرب ومذاهبهم في القول، وبرز في القرن الثالث ابن قتيبة (ت276هـ)، وفي القرن الرابع ابن عزيز السجستاني (ت330هـ)، وأبو عبيد الهرويّ (ت400هـ)، وهؤلاء تحدّثوا عن المشكل والغريب، ثمّ إلى بداية القرن الخامس بلغ التأليف ذروته، إذ وضع الراغب الأصفهاني (نحو 412هـ) مؤلّفه الشهير (مفردات القرآن)، وقد أثنى عليه كثير من العلماء، ثم جاء في القرن الثامن السمين الحلبيّ (ت756هـ) فألّف كتابًا

[1] الحاكم، المستدرك على الصحيحين، 617/3.

[2] للتوسّع يُنظر: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، مفردات القرآن للفراهي وأهميته في علم غريب القرآن، بحث في مجلة دراسات إسلامية، العدد: 6، سنة 1243هـ.

أسماه (عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ) أفاد من مفردات الراغب فهذّبها ورتّبها وزاد عليها، ثم ظهر في العصر الحديث (معجم ألفاظ القرآن) صنعة مجمع اللغة العربية بالقاهرة صدر سنة (1390هـ)، وكان قبله بنحو خمسين عامًا قد وضع الإمام الفراهيّ (ت1349هـ) كتابه (مفردات القرآن) وهو موضوع بحثنا، فدرس أهمّ المفردات القرآنية التي قد يُشكل فهمها على المتلقّي بالإفادة من كلام العرب الأقحاح والاستعانة بسياق النصّ القرآني الذي وردت فيه، وهو ما سنبيّنه في المبحث الآتي.

## المبحث الثالث: طرائق معالجة المفردة القرآنية وتفسيرها

قال الفراهيّ: "إنّ كثيرًا من العلوم المدوّنة ليست إلّا كالدواء للمرضى".[1]

يمكن أن نصنّف الأدواء أو الأمراض التي أصابت المجتمعات العربية بتأثير توسّع الدولة العربية والاختلاط بالأمم الأخرى إلى ثلاثة أصناف، هي:

1. مرض اللسان والنطق (اللحن)، والعلوم الشافية هي النحو والصرف والاشتقاق...
2. مرض العقل والفهم (التحريف)، والعلوم الشافية هي علوم المعجم والمعاني وفقه اللغة...
3. مرض الذوق والسليقة (العِيّ)، والعلوم الشافية هي النقد والبلاغة...

إنّ بحثنا في مفردات القرآن يرتبط بالمرض الثاني وهو مرض الفهم، والحق أنّ الاشتغالات التي توجّهت نحو دراسة المفردة بعامّة كانت ذات منحيين:

- أولاهما انطلقت من المفردة بحسب جذرها، وانتقلت إلى استحضار بعض سياقات استعمالها، فهي دراسة استقصائية تشمل اللسان العربيّ بعامّة، وهنا

[1] عبد الحميد الفراهيّ، التكميل في أصول التأويل، ص 20.

يكون الاهتمام بالمفردة في ذاتها لا بسياق استعمالي خاص بها، وهنا يكون الحديث عن المعاجم على اختلاف طرقها بين مراعاة المخارج أو بحسب الترتيب الألفبائي أو التقفية...

- الأخرى تنطلق من سياق الاستعمال، وتتناول المفردات بحسب نصوصها، مثل: القرآن، أو الحديث، وتكون الدراسة فيها انتقائية محدودة بما يُستعمل في النصوص المحدّدة وبما يُشكل منها على الفهم...

تخضع دراسة المفردات القرآنية لطريقتين في البحث، فإمّا أن ينطلق الباحث من المعنى الوضعي أو الحقيقي إلى الاستعمالي كما فعل الراغب الأصفهانيّ في مفرداته، وإمّا أن يُكتفى بالمعنى الاستعمالي السياقي كما هو صنيع الفراهيّ، فالفراهيّ لم يأبه للمعنى الوضعي أو الحقيقي أو المعجمي، بل اهتمّ بالمعنى السياقيّ مباشرة.

## المبحث الرابع: معالجة مفردات القرآن عند الفراهي وتفسيرها

قال الفراهيّ: "لا نورد في هذا الكتاب من الألفاظ إلا ما يقتضي بيانًا وإيضاحًا، إمّا لبناء فهم الكلام أو نظمه عليه".[1]

سنتناول حديث الفراهي عن المفردات من زوايا عدّة لنسلّط الضوء عليه بما يبيّنه ويفصّله، ثمّ ننتقل إلى صلب موضوعنا وهو حال دراسة المفردات بالاعتبار المعجمي والسياقي.

**المطلب الأوّل: مضمون مفردات القرآن للفراهي:** اشتمل الكتاب على ثلاث مقدمات، ثم تفسير الألفاظ والمفردات القرآنية، أمّا المقدّمات الثلاث التي قدّمها بين يدي تفسير المفردات فهي:

- المقدمة الأولى: في مقصد الكتاب وحاجتنا إليه، بيّن فيه أسباب تأليف

[1] عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن، ص 93.

الكتّاب، وهي ثلاثة أسباب:

- أوّلها أهمية المعرفة الدقيقة لمعاني المفردات وقصور كتب اللغة والغريب.
- الثاني الردّ على الطاعنين من المستشرقين الذين زعموا أنّ ألفاظ القرآن أخذها النبيّ عليه الصلاة والسلام من اليهود والنصارى.
- الثالث الإحالة في التفسير على كتّاب المفردات تجنباً للتكرار.

- المقدمة الثانية: في الأصول اللسانية، ذكر فيها مواضع الوهم من الكلمة، وقسمها إلى أربعة أقسام: المشكلة، والمشتركة، والجامعة، والمرادفة. ثم شرح كل قسم بذكر أمثلته مع الدلالة على ما يعين على فهم معناها.
- المقدمة الثالثة: في كون القرآن خالياً عن الغريب، أثبت فيه أنّ القرآن ليس فيه ألفاظ غريبة، وأنّ القصد بالغريب هو غرابة بعض ألفاظه بالنسبة للأعاجم ومن قلّ علمه بالعربية، ثم ذكر أسباباً أخرى لاعتقاد الناس بوجود الغريب في القرآن، وردّ عليها.

وأمّا المفردات القرآنية التي انتقاها الفراهيّ وتناولها بالدراسة فقد بلغت عِدّتها بعد أن جمعها تلامذته من هنا وهناك 121 مفردةً، مرتّبةً ترتيباً ألفبائيًّا بحسب رسمها لا أصلها أو جذرها مع إغفال الألف واللام، مفتتحةً بكلمة (الآل) ومنتهية بكلمة (يطيقون)، واصطفى منها ما كان بحاجة إلى فضل بيان، ورأى أنّ المفردات من حيث مرجع تفسيرها على ضربين: ضرب مرجعه القرآن والسّنّة النبوية المتواترة، وذلك في المصطلحات الشرعية كالصلاة والصيام ونحوهما، وضرب آخر مرجعه كلام العرب الأقحاح المثبت والاستعمال القرآني، وقد يرجع في تفسيرها إلى اللغات الشقيقة للعربية كالعبرية والسريانية.[1]

[1] يُنظر: عبد الحميد الفراهي، فاتحة نظام القرآن، ص 12.

## المطلب الثاني: طبيعة مفردات القرآن للفراهي

يتنزّل اشتغال الفراهي بمفردات القرآن في مشروع كبير هو نظام القرآن ينطلق فيه من الكلّ والمركّب واعتبار القرآن كالجملة الواحدة، واعتبار الشريعة كلّها جملة واحدة، يشدّ بعضها أزر بعض، فكانت كتبه كذلك حلقات لدائرة واحدة، وهذا يدلّل على انتظام فكره وعمله على بصيرة، ومن هنا كان تفسيره للمفردات خاضعًا لتصوّر عامّ يخضع للتصوّر الشرعيّ عمومًا وللتصوّر التأويلي المتمثّل بنظام القرآن على نحو خاصّ، ورأى الفراهيّ أنّ هذا التصوّر قائم على أنّ نظام القرآن يتأسس على ما أسماه أعمدة السور التي تمثّل مراكز تتحلّق حولها معاني الآيات والمفردات كذلك،[1] وطريقة منهجية تعتمد لغة القرآن ولغة العرب أساسًا للدراسة، لذلك رأى أنّ تفسير المفردات يخضع لسياق الآية ثمّ السورة ثم القرآن كلّه، ولا سيما فيما يتعلّق بالمفردات الشرعية، أمّا فيما عداها فيستند إلى الاستعمال اللغوي للعرب الأقحاح استنادًا كبيرًا، وقد يستعين في تفسير المفردات بما ورد في اللغات السريانية والعبرانية ليقوّي رأيه، ففي الجملة يظهر أنّ تفسيره المفردات تفسير سياقي، وأنّ التفسير المعجمي المعوّل على كتب اللغة والمعاجم لا يُعدّ طريقًا صحيحًا دائمًا، إلّا إذا راعى الاستعمال والسياق، ووافق النظام؛ فذكر "أنّ كتب اللغة والغريب لا تعطيك حدود الكلمات حدًّا تامًّا"،[2] وذكر أنّ "الخطأ ربّما يقع في نفس معنى الكلمة فيُبعد عن التأويل الصحيح، أو في بعض وجوهه فيُغلق باب معرفة النظم"،[3] كما ذكر أنّ "بعض الجهل بالجزء يُفضي إلى زيادة جهل بالمجموع".[4] فظهر بذلك أنّ تفسير المفردة لا يخضع للنظم أو النظام فحسب، بل إنّه يُسهم في معرفته أيضًا، فثمّة علاقة جدلية متبادلة بينهما.

---

[1] للتعمّق في الموضوع يُنظر: عبد الحميد الفراهي، دلائل نظام القرآن.

[2] عبد الحميد الفراهي، مفردات القرآن، ص 98.

[3] المصدر نفسه، ص 93.

[4] المصدر نفسه، ص 95.

إنّ الصناعة المعجمية تقوم في الأساس على إزالة العجمة (عدم الفهم) عن المفردات، فالفعل أعجم مزيد عن عجم الذي يعني لم يُفصح ولم يُبِن، ومنه الأعجميّ، وهمزة الزيادة تفيد معنى السلب أو الإزالة، فأعجم الكلمة بمعنى أوضح معناها، ومنه الإعجام في الكتابة أي وضع النقط على الحرف لبيانه، والحرف المعجم هو الذي نُقِّط مثل: (ز)، وخلافه المهمل غير المنقّط مثل: (ر). فتبيّن أنّ المعاجم لبيان دلالات المفردات، فنحن نعرف معاجم اللغة العامّة على اختلاف طرائق ترتيبها، ونعرف أيضًا المعاجم الخاصّة، وهي المعاجم الاصطلاحية للفنون المختلفة، وبين الضربين السابقين تقع معاجم مفردات القرآن، فهي عامّة من جهة استعمالها، وخاصّة من جهة خضوعها للسياق القرآني والديني، وهي بمقتضى ذلك تختلف من واضع لآخر لاختلاف الفهوم والمدارك في مقاربتها للسياقات القرآنية، وأقربها للصواب أشدّها ضبطًا، فالفراهي صاحب تجربة فذّة أفاد من سابقيه واستثمر أساليب متعدّدة لتفسير المفردات وبيان دلالاتها، وهو باستناده إلى لغة العرب الأقحاح ومحاولته فهمها فهمًا دقيقًا، وإدماج تفسير المفردات في مشروعه التفسيري الكبير نظام القرآن كان قريبًا إلى الدلالات المرادة، ونرى أنّنا إذا قلنا إنّ تفسير مفردات القرآن هي دراسة سياقية فما أخطأنا، وإن قلنا إنها مع نظائرها من كتب الألفاظ الأخرى تندرج في محاولة بناء معجم لألفاظ القرآن، مع التسليم بأنّ ما قيل ليس منتهى بلوغ المعاني وإقرارها.

ونمرّ على أهمّ أصول التفسير عند الإمام الفراهيّ ممّا يتعلّق بالدلالات المعجمية أو الاستعمال اللغوي أو الاستعمال السياقي:

## أولًا: الأصول السياقية

1. **مراعاة الدلالة الشرعية:** مثل مفردة (الإسلام)، فالإسلام "معناه ظاهر وبيّن، وهو الطاعة والخضوع، ولكن القرآن رفع هذه الكلمة، فخصّها بطاعة الله مثل كلمة (الدين)، فإنه الطاعة في أصل اللغة، وقد استعمله العرب لطاعة الله".[1]

[1] المصدر نفسه، ص 147.

2. **مراعاة التلازم بين المفردات:** ترد بعض المفردات في مواضع مختلفة مقرونة بمفردات مختلفة، نحو (الصلاة)، فإنها تقترن بالصبر، وبالإيمان، وبالنحر، وبالنسك، وغيرها، وهي ما سمّاه الفراهي بجهات الصلاة.[1]

3. **ذكر المعاني السياقية:** أدلّة ذلك كثيرة، ذلك أنّ الفراهيّ يورد للمفردة دلالات متعدّدة بحسب سياق ورودها، من ذلك مفردة الصلاة، فقد ذكر لها اثني عشر معنى،[2] ومن ذلك أنّه يستحضر علاقة المفردة بغيرها ممّا ياتي في سياقها ويفصّل في تلك العلاقة، على نحو ما نجد في مفردة (الصبر) فقد قرنها بمفردة (الشكر)، وجعل الصبر أساس الشكر، فهو سابق له، ثمّ أردفهما بالعمل الصالح، وجعل الشكر سابقًا للعمل الصالح، وفصّل في ذلك ودلّل.[3]

4. **التفصيل وملاحظة الفروق في التفسير:** فصّل الفراهيّ في معنى مفردة (الحقّ)، وميّز بين تفاصيلها، ومثّل لها، فجعل لها ثلاثة معانٍ: الأوّل هو الدلالة على ما هو واقع صدقًا، والثاني على ما هو الواجب خُلُقًا، والثالث على ما هو بيّنٌ ظهورًا، فالقيامة حقّ والله سبحانه حقَ بالمعنى الأوّل والثالث، والعدل حقّ بالمعنى الثاني، والحكمة حق بالمعنى الثالث، وبيّن أنّ شواهد المعنى الأوّل والثاني كثيرة، أمّا الثالث فشاهده قوله تعالى: "قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾" [سورة البقرة: 71].

## ثانيًا: الأصول الخارجية

1. **عدم التأثّر بالتوجّه الفكري في تفسير المفردات:** في تفسير مفردة (الذِّكْر) في

[1] يُنظر: المصدر نفسه، ص 211.
[2] يُنظر: المصدر نفسه، ص 212 وما بعدها.
[3] يُنظر: المصدر نفسه، ص 205 وما بعدها.

قوله سبحانه: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩" [سورة الحجر: 9]. رأى أهل الحديث أنّه الحديث الشريف، ورأى الشيعة أنّه النبيّ عليه الصلاة والسلام، وذهب الفراهي إلى أنّه عوض عن القرآن، لأنّ الذكر يشتمل على اللفظ والمعنى، بمعنى أنّ الحفظ يكون للقرآن في لفظه ومعناه، ولو قال القرآن بدل الذكر لكان الحفظ للفظ دون المعنى، ومعلوم أنّ القرآن أو لفظ القرآن تتلوه اليهود والمبتدعة وليسوا منّا.[1]

2. **الاستئناس بشقيقات العربية كالعبرانية والسريانية:** في تفسير مفردة (أبّ) في قوله تعالى: "وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١" [سورة عبس: 31]. قال الفراهي: "إنّما سُمّي المرعى أبًّا لنشئه أوّلًا بعد المطر، ومنه إبّان النبات لأوّل خروجه... تجدّ هذه المادّة بهذا المعنى في العبرانية وهي أخت العربية... (أبيب): وهي السنبلة الخضراء، وأوّل شهورهم وهو الربيع، لظهور النبات فيه أوّلًا".[2] والحقّ أنّه أراد أن يثبت أنّ وجود ألفاظ مشتركة بين العربية وأخواتها ينفي أن يكون القرآن قد أخذ منها، وينفي أنها ليست عربية.

3. **لغة العرب أصلٌ في التفسير:** استعان الفراهيّ بالشعر العربيّ كثيرًا في تفسير المفردات، فقد زاد عدد ما استشهد به منها على مئة شاهد، وأكثرها منسوبة لأصحابها إلّا ما ندر، كما أنّ معظمها لشعراء جاهليين أو مخضرمين، ونشير إلى أنّ الفراهي توصّل بتلك الاستعانة بالشعر إلى معانٍ وتفسيرات لم ترد في كتب اللغة والتفسير قبله؛ فمن ذلك تفسيره لمفردة (حَرْد) في قوله تعالى: "وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۝٢٥" [سورة القلم: 25]. قال علماء اللغة والمفسرون هي: القصد والمنع والغضب، أو السرعة والنشاط، وذهب الفراهي إلى أنّها بمعنى: التكبّر

[1] يُنظر: المصدر نفسه، ص 113-114.

[2] المصدر نفسه، ص 246.

والإعجاب بالقوة، واستدلّ بقول الشاعر الجاهلي قبيصة بن النصراني الجرميّ:[1]

إذا جيادُ الخيل جاءتْ تَردي مملوءةً من غضبٍ وحرْدِ

**الخاتمة والنتائج:** لنا أن نخرج من البحث بنقاط متعدّدة نذكر أبرزها:

1. إنّ كتاب (مفردات القرآن) للفراهي هو محاولة بناء معجم لأهمّ ألفاظ القرآن الكريم ممّا يقع فيه الاختلاف والخلاف في فهم مؤدّاها، فهو خطوة متقدّمة على المحاولات السابقة ذات البعد الاستقصائي.
2. الفراهي لم يكن ناقلًا مقلّدًا بل كان مجدّدًا، فله آراء جديدة خالف فيها سابقيه.
3. لم يكن عمل الفراهي ذا طابع معجميّ فحسب؛ إذ أدرجه ضمن مشروعه التفسيري الكبير (نظام القرآن)، فتفسير المفردات يتعاضد مع تفسير الآيات والسور والقرآن بعامّة، فهو يخضع للسياق التركيبي الخاص والقرآني العامّ.
4. يقوم تفسير المفردات عند الفراهيّ على ملاحظة كلام العرب الأقحاح.
5. يستأنس الفراهي في تفسيره بأخوات العربية كالسريانية والعبرانية، وينطلق من مسلّمة مفادها أن ليس في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي.
6. يرى الفراهيّ أن مفردات القرآن ليست غريبة في ذاتها، بل من جهة استغراب أهلها وبعدهم عن ممارسة كلام العرب الأقحاح، لذلك رأيناه متمرّسًا لكلامهم متعمّقًا فيه، فبنى عليه التفسير كما بنى عليه البلاغة في كتابه (جمهرة البلاغة).[2]
7. يستقصي الفراهي استعمالات المفردة ودلالاتها القرآنية، ويفصّل في علائقها

[1] يُنظر: المصدر نفسه، ص 166.

[2] عبد الحميد الفراهي، جمهرة البلاغة، ص 103 وما بعدها.

وارتباطاتها ممّا يعتمد السياق ويراعي النظام القرآني.

8. يرجع الفراهي في تفسير معاني المفردات إلى الشعر الجاهلي والمخضرم ممّا ثبت نقله، ويُسند أغلب الشواهد إلى قائليها، فقد استعان بأزيد من مئة شاهد.

9. يرى الفراهي أنّ المفردات الشرعية تُستخرج دلالاتها من الشرع؛ أي القرآن والسنّة، وما عداها فُمستخرجها من كلام العرب الأقحاح.

10. لم يُغفل الفراهي كتب اللغة والمعاجم ولا كتب التفسير لكنّه لم يتقيّد بها ولم يجعلها أصلًا.

وأخيرًا نشير إلى أننا حاولنا أن نقدّم خلاصة ما يبيّن حال كتاب (مفردات القرآن) للفراهي من حيث وصفه مع الوقوف على طبيعة تفكير المؤلّف والأسس التي اعتمدها في وضع الكتاب، ووظّفنا ذلك في بيان موضع الكتاب من الاشتغالات المعجمية، ولا أظننا أحطنا بجميع الأسس، بيد أنّا ذكرنا أبرزها، كما تحسن الإشارة إلى أنّ إشادتنا بضبط الفراهيّ للمفردات القرآنية وفق أسس معينة لا يعني أن ما توصّل إليه هو منتهى القول وغايته، فلا أظنّ أنّ أحدًا قد يصل إلى القول الفصل في مثل هذه القضايا التي تدلّل على اختلاف التفكير البشري وتفاوته. والحمد لله أوّلًا وآخرًا.

## المصادر والمراجع


1. القرآن الكريم
2. الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ= 1990م.
3. عبد الحميد الفراهي، التكميل في أصول التأويل، الدائرة الحميدية، سراي مير، 1388هـ.
4. .....، جمهرة البلاغة، تح: محمد الرهاوي وعامر الجراح، دار سنابل، إسطنبول، ط1، 2019م.
5. .....، رسائل الإمام الفراهي في علو م القرآن، الدائرة الحميدية، سراي مير، ط2، 1411هـ= 1991م.
6. .....، دلائل النظام، الدائرة الحميدية، سراي مير، ط1، 1388هـ.
7. .....، فاتحة نظام القرآن، الدائرة الحميدية، سراي مير، 1357هـ.
8. .....، مفردات القرآن، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002م.
9. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، مفردات القرآن للفراهي وأهميته في علم غريب القرآن، بحث في مجلة دراسات إسلامية، العدد: 6، سنة 1243.

ISSN: 2321-7928

# العلّامة عبد الحميد الفراهي وإسهاماته في علوم القرآن بالتركيز على "مفردات القرآن"

- د. ك.م.ع. أحمد زبير[1]

شهدت الهند خلال القرن التاسع عشر بروز العديد من العلماء والمفكّرين والمفسّرين الذين وقفوا حياتهم لخدمة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وأسهموا بشكل كبير في النهضة الفكرية والأدبية العربية الحديثة. من بين هؤلاء العلماء، يبرز العلّامة عبد الحميد الفراهيّ بمكانته المتميزة وإسهاماته الثرية في العلوم القرآنية، بالإضافة إلى إنجازاته في مجالات اللغة والأدب والبلاغة. يعدّ الفراهي من أبرز المفسّرين الذين ابتكروا منهجيات جديدة واستنبطوا قواعد غير تقليدية لفهم القرآن، وقد أبدع في تطوير مدرسة فكرية خاصة حول دراسة القرآن. تهدف هذه الدراسة إلى استعراض إسهامات العلّامة الفراهيّ وإنجازاته في العلوم القرآنية.

**الكلمات الرئيسية:** علوم القرآن، علم التفسير، لغات القرآن، مفردات القرآن، نظام القرآن، عبد الحميد الفراهي.

المقدمة:

يحتلّ علم التفسير منزلة رفيعة بين العلوم الشرعية، نظرًا لأهميته ومكانته العالية. لهذا السبب، بذل العلماء في مختلف العصور جهودًا عظيمة في تطوير هذا العلم من جوانب متعددة، وشهدت الهند أيضًا مشاركة بارزة، منها جهود الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930م)، الذي قدّم إسهامات عظيمة في هذا المجال، حيث كان يتمتع بشخصية متعددة الجوانب، وبرز بإتقانه للغات العربية والفارسية والعبرانية، إلى جانب

[1] أستاذ مشارك في القسم العربي، الكلية الجديدة، تشنائي، الهند

كونه بارعًا في الفلسفة والبلاغة والتعليم، إلا أنّ مجاله الأساسي كان الدراسات القرآنية. وقد ساهم الفراهي في تعزيز فهم القرآن ونشره في شبه القارة الهندية.

إنّ اهتمام العلماء الهنود باللغة العربية ينبع من حرصهم على فهم القرآن الكريم واكتساب المعارف الإسلامية. وقد قدّم هؤلاء العلماء خدمات جليلة في العلوم الإسلامية، وكان لجهودهم تأثير بارز في توجيه الفكر الإسلامي في الهند. كما ساهمت هذه الجهود في مواجهة تأثير الثقافة الغربية، ما شجّع على الانفتاح على القرآن كمنبع للمعرفة الإنسانية الشاملة. ومن بين العلماء الذين برزوا في هذا المجال، العلّامة عبد الحميد الفراهي، الذي أنشأ مدرسة فكرية تقوم على ربط الآيات والسور القرآنية بشكل منهجي. كان الفراهي شخصية موسوعية، واستمر في خدمة القرآن عبر أعماله الفكرية حتى وفاته.

**مولده ونشأته:**

ولد العلامة عبد الحميد الفراهي في 18 نوفمبر عام 1863م بقرية "فريها" بولاية أوتار براديش، ونشأ في أسرة علمية كريمة. درس الفراهي اللغة الفارسية والعربية منذ صغره، ثم أكمل تعليمه العالي في الأدب والفلسفة الحديثة، ما أتاح له تأسيس فهم موسوعي للمعارف. كما عمل مدرّسًا للغة العربية في عدة مؤسسات، وشغل منصب رئيس "دار المصنفين"، حيث واصل نشاطه العلمي.

**تطور علم التفسير في الهند:**

احتلّ علم التفسير مكانة رفيعة بين العلوم الشرعية، وقد اجتهد العلماء الهنود في تطوير هذا العلم. من بينهم العلّامة الفراهي، الذي يتميز بامتلاكه ثقافة واسعة تشمل علوم اللغة والأدب، ما تجلى في مؤلفاته التي شملت العربية والفارسية والإنجليزية. من أبرز إسهاماته كتابه "دلائل النظام"، الذي يعتبر مرجعًا في تفسير التناسب بين آيات القرآن الكريم وسوره.

**القرآن الكريم ومنهجه الفكري:**

يركّز منهج الفراهي الفكري على الوحدة الموضوعية للسور وترابط الآيات في إطار موضوع واحد يخدم غاية عامة لهداية البشر. كان يرى أنّ القرآن الكريم يعبّر عن منهج متكامل للحياة، ويحتاج إلى تدبر عميق لاكتشاف تسلسل الأفكار والموضوعات. وقد أرسى بذلك قواعد التأويل، معتمدًا على الاستقراء الدقيق للغة والبلاغة القرآنية.

**لغات القرآن ومفردات القرآن:**

تمثّل دراسة لغات القرآن ومفرداته جزءًا أساسيًا في فهم القرآن الكريم، وقد برز العديد من العلماء في هذا المجال في شبه القارة الهندية. من بينهم العلّامة الفراهي، الذي ألّف "مفردات القرآن"، حيث ركّز على تفسير المفردات وتوضيح دلالاتها.

**جهود العلامة الفراهي في الدراسات القرآنية:**

كان لإسهامات العلامة الفراهي دور كبير في نشر الفكر القرآني، إذ ساهم في إرساء قواعد جديدة في دراسة القرآن الكريم، واستطاع أن يلهم زملاءه وتلاميذه لاستكمال مسيرته العلمية. من أشهر مؤلفاته في هذا المجال: "التكميل في أصول التأويل"، و"فاتحة نظام القرآن"، و"دلائل النظام"، و"مفردات القرآن"، و"أساليب القرآن".

**التكميل في أصول التأويل:** يعدّ هذا الكتاب من أهم مؤلفات الفراهي، حيث يقدّم منهجًا دقيقًا لتأويل القرآن الكريم وتفسيره بما يعزّز الفهم السليم لكلام الله.

**إمعان في أقسام القرآن:** ألف الفراهي كتابين عن أقسام القرآن. الكتاب الأول هو رسالة صغيرة بعنوان "أقسام القرآن"، بينما الكتاب الثاني هو "الإمعان في أقسام القرآن"، الذي تناول فيه الموضوع بعمق أكبر. يناقش في هذا الكتاب تاريخ الأقسام وحاجتها، ويشرح معاني الكلمات ومفاهيمها.

يظهر الكتاب استيعاب الفراهي الواسع لأساليب الكلام والثقافات المختلفة، مما

يعكس عمق معرفته وتفانيه في دراسة القرآن وتفسيره.

بصفة عامة، تسلط أعمال الفراهي الضوء على أهمية فهم القرآن بعمق وشمولية، وضرورة اعتبار النظام والترتيب كجزء أساسي من عملية التدبر في النص القرآني.

**فاتحة نظام القرآن:** تعتبر "فاتحة نظام القرآن" مقدمة كتبها الإمام عبد الحميد الفراهي لتفسيره المعروف بـ"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان". يوضح فيها فكرته حول أهمية النظام والترتيب في القرآن الكريم، ويدعو إلى تجاوز القول بوجود مناسبات بين آياته، مشيراً إلى أنّ القرآن كله مُنظَّم ومرتَّب بصورة متكاملة. يؤكد الفراهي أنّ كلّ سورة وآية في القرآن تتصل ببعضها البعض، بحيث تشكل كلّ سورة وحدة متكاملة تعكس البلاغة والجمال في ترتيبها.

وينهج الإمام الفراهي في تفسيره وفق نقاط أساسية:

1. تفسير القرآن بالقرآن: أي الاعتماد على نصوص القرآن نفسه لتفسير معانيه.
2. تفسير القرآن بالسنة: الاستناد إلى الأحاديث النبوية التي توضح معاني الآيات.
3. تفسير القرآن بأقوال الصحابة: الاستفادة من فهم الصحابة رضي الله عنهم لتفسير النصوص القرآنية.

يؤكد الفراهي أنّ القرآن هو المصدر الأول للتفسير، وأنّ الصحاح لا يمكن أن تتعارض مع النصوص القرآنية، مما يضمن عدم فتح باب المعارضة للملحدين.

**تفسير "نظام القرآن":** ألّف الفراهي هذا الكتاب أثناء تدريسه في كلية العلوم الإسلامية، وتميز أسلوبه عن أساليب المفسرين الآخرين، حيث بدأ بتسليط الضوء على النظام الموجود في القرآن بدلًا من تفسيره من بدايته. أظهر الفراهي كيف أنّ القرآن مرتب بشكل متكامل وأنّ كل سورة لها نظام خاص بها، مع التركيز على السور القصيرة التي تركز على أسس الإسلام كالتوحيد والرسالة.

يقول الفراهي إنه كان مولعًا بتلاوة القرآن، ويعبر عن فهمه العميق للنظام في سورتي البقرة والقصص، مما حفزه على دراسة القرآن بتعمق.

ويصف الفراهي النظام بأنه الطريقة التي تجعل من السورة وحدة واحدة، مع وجود مناسبات تربط بين السور. هذا النظام هو الذي يمنح السورة كيانها المستقل، ويدعو الفراهي إلى عدم استخدام مناهج الفلسفة في تفسير القرآن، بل الاعتماد على النص القرآني نفسه.

يعتبر أنّ فهم النظام والترتيب في القرآن هو أساس الفهم العميق للقرآن، وينبغي أن يكون مدخلًا للتدبر الصحيح.

**مفردات القرآن:** يحتلّ كتاب "مفردات القرآن" مكانة بارزة بين مؤلفات الفراهي، ويعدّ جزءًا من مشروعه الأكبر الذي يتضمن اثني عشر كتابًا. في هذا الكتاب، يبرز أهمية معرفة الألفاظ المفردة لفهم المعاني الكاملة للآيات.

يؤكد الفراهي أنّ الخطأ في فهم كلمة واحدة يمكن أن يؤدي إلى تفسير خاطئ للسورة بأكملها، مما يستلزم الحرص على فهم دقيق لمعاني الكلمات. كما يستفيد من معرفته باللغة العبرانية للرد على الشبهات حول تأثير اليهود والنصارى على ألفاظ القرآن.

**مفردات القرآن للعلامة حميد الدين الفراهي: دراسة تحليلية**

ونودّ أن نفصّل قليلًا عن هذا المصنَّف الجليل. فالفراهي ألّف ما يزيد عن سبعين كتابًا وسفرًا، ومن أشهر أعماله "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، "إمعان في أقسام القرآن"، و"التكميل في أصول التأويل"، و"في ملكوت الله"، و"أساليب القرآن"، و"مفردات القرآن". تهدف هذه الورقة إلى تقديم دراسة تحليلية لكتابه "مفردات القرآن"، الذي يُعتبر من أهم مؤلفاته في تمهيد الفهم الصحيح للقرآن، إلى جانب كتابيه "أساليب القرآن" و"التكميل في أصول التأويل".

**مدخل البحث:** يعتبر علم التفسير من أهم العلوم الشرعية، حيث تلقى اهتمامًا كبيرًا من العلماء في مختلف العصور. وقد أسهم عدد من العلماء، بدءًا من ابن مسعود وابن عباس وأبي موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير، وصولًا إلى السيوطي والطبري والقرطبي، في إثراء هذا العلم. في الهند، كان للعلّامة عبد الحميد الفراهي دور ريادي في مجال الدراسات القرآنية، ومن أبرز مؤلفاته في هذا المجال كتابه "مفردات القرآن"، الذي يحتل مكانة خاصة بين مؤلفاته لما يكشفه من منهجيته الفريدة في فهم القرآن. ونظراً لأهمية هذا الكتاب، قام الدكتور محمد أجمَل أيوب الإصلاحي بتحقيقه وشرحه.

تتناول هذه الدراسة لمحة عن حياة الفراهي وإسهاماته، وتحليلًا لأبرز مؤلفاته المتعلقة بمعاني كلمات القرآن، وتحديدًا لكتابه "مفردات القرآن".

فقد ألّف الفراهي هذا الكتاب على اعتقاد أنّ فهم القرآن يعتمد على فهم الكلمات المفردة، حيث يقول: "المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم النصوص. من لم يتبين معاني هذه الألفاظ أغلق عليه باب التدبر، وصعُب عليه إدراك معاني الآيات والسور". لهذا السبب، قام العديد من العلماء والمفسرين قبل الفراهي بتأليف كتب حول مفردات القرآن، ومن أشهرها كتاب "تفسير غريب القرآن" لابن قتيبة و"مفردات الراغب" للأصفهاني.

لكن ما يميز تأليف الفراهي أنه لم يكن مجرد تكرار لما سبق، بل سعى لإيجاد منهج جديد. فهو لم يحاول جمع جميع المفردات، بل ركز على الكلمات الأكثر صعوبة واختلافًا بين العلماء. وبالرغم من حجم الكتاب الصغير، إلا أنه يعتبر من الكتب القيّمة في توضيح المفردات القرآنية.

يعتمد الفراهي على الشواهد الشعرية في تفسير الكلمات، ويوظف أحيانًا العبرانية لتوضيح بعض المفردات، مما يميز كتابه عن غيره في المجال. كما يوضح الفراهي أنّ القرآن لا يحتوي على كلمات غريبة، بل يثبت أصالة الكلمات التي قيل إنّ القرآن

أخذها من اليهود والنصارى.

ويضم الكتاب ثلاث مقدمات تتناول موضوعات مختلفة:

1. أهمية الكتاب وحاجتنا إليه.
2. الأصول اللغوية.
3. إثبات أن القرآن خالٍ من الكلمات الغريبة.

في المقدمة الأولى، يشير الفراهي إلى أهمية فهم الألفاظ المفردة كخطوة أولى نحو فهم القرآن. وفي الثانية، يتناول المشاكل والأوهام التي تحيط بفهم الكلمات، وفي الثالثة، يوضح أنّ القرآن نزل باللغة العربية الفصحى، وأنه يتسم بالوضوح والإيجاز مقارنة بغيره من النصوص.

من الأمثلة على تحليل الفراهي للمفردات القرآنية، تفسيره لكلمة "آية"، حيث يشرح أنها علامة للدلالة، وليست دليلًا كاملًا بحد ذاتها. ويستشهد بآية من سورة العنكبوت: " بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ..." (العنكبوت: 49). كما يورد شواهد شعرية تبرز مفهوم "الآية" في الشعر الجاهلي، ويقارن بين "الآية" والدليل المنطقي.

وقد تناول الفراهي كلمات أخرى، مثل الحق، والتكذيب، والصبر، والشكر، والصلاة، والزكاة، والإيمان، وقام بتحليلها في ضوء القرآن وأساليب العرب. ويذكر أنّ من أهدافه في التأليف التمييز بين معاني الكلمات زمن نزول القرآن ومعانيها اللاحقة، حيث يشير إلى أنّ معرفة المعاني وفق سياقها الزمني وروح القرآن أساسية لفهم النص.

## المصادر والمراجع


1. إصلاحي، شرف الدين (2002). ذكر الفراهي. الدائرة الحميدية.
2. الفراهي، عبد الحميد (2002). إمعان في أقسام القرآن (مقدمة كتبها أبو الحسن علي الندوي). دار القلم
3. الفراهي، عبد الحميد (2002). مفردات القرآن (تحقيق وشرح: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي). دار الغرب الإسلامي.
4. الفراهي، عبد الحميد (2009). حجج القرآن: الحكمة البازغة والحجة البالغة. الدائرة الحميدية.
5. الفراهي، عبد الحميد (مؤلف). أساليب القرآن (جمع: بدر الدين الإصلاحي). سرائ مير: أعظم كره، الدائرة الحميدية.
6. الفراهي، عبد الحميد. دلائل النظام. الدائرة الحميدية.
7. الفراهي، عبد الحميد. فاتحة نظام القرآن. سرائ مير: أعظم كره، الدائرة الحميدية.
8. الندوي، سيد سليمان (1994). في ترجمته للفراهي في مقدمة إمعان في أقسام القرآن. دار القلم.

ISSN: 2321-7928

قراءة في كتاب:

# رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن
## (المجموعة الأولى)

- د. عظمت الله[1]

هذا الكتاب يتضمن أهم الرسائل التي كتبها الإمام الفراهي في مجال علوم القرآن ولاسيما نظام القرآن، تناول فيه أبدع النقاط العلمية والفكرية الداعية إلى ضرورة التدبر والتفكر في القرآن. ويحتوي هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء مشتملة على رسائل ذات الصلة بعلوم القرآن، والأجزاء الثلاثة مصحوبة بثلاث مقدمات صدرت عن قلم الإمام الفراهي الرصين، إلا أنه لم يستطع أن يرى نور الطباعة في حياته. فقام بجمعها ونشرها الشيخ بدر الدين الإصلاحي، إذ كانت هذه الرسائل متوفرة ضمن مخطوطاته. وفيما يلي تفصيل الأجزاء الثلاثة:

الأول يختص بالنظم والنظام وما له شأن بنزول القرآن وترتيب آياته وسوره. والثاني يتعلق بخصائص القرآن أو ما نسمّيه بوجوه الأساليب في القرآن الكريم. أما الثالث فإنه يحتوي على أصول راسخة لتأويل القرآن الكريم.

ويتضح علينا بعد دراسة هذا الكتاب بكل اهتمام، أنّ الكتاب له أهمية بما يحويه من النقاط اللطيفة والفريدة من علوم القرآن علمًا وفهمًا وتدبرًا. ويطيب لي أن أنقل اقتباسًا من هذا الكتاب نظرًا لأهميته في هذا الصدد، وذلك "هذا كتاب أفردناه لذكر دلائل النظام، ونريد بالدلائل: ما يدلّ على وجوه النظام في القرآن ويثبته، وكذلك ما يهديك إلى معرفته وطريق استنباطه".[2]

[1] أستاذ مساعد، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو، نيو دلهي

[2] الفراهي، الإمام عبد الحميد، رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائمير، أعظم كره، الهند. ص 23

ونطلع من خلال دراسة هذا الكتاب: على أنّ الأمام الفراهي حاول من خلال رسائله، إبراز غرض فهم معاني القرآن الكريم ونقل رسائله إلى من يسعى إلى التدبر في القرآن والتعمق في معاني ومفاهيم الآيات القرآنية.

كما يتضح أنّ غرض هذا الكتاب تركيز خاص على بحث النظم والنظام في القرآن إجمالًا، وفي آياته وسوره تفصيلًا، مما يعين القارئ وأصحاب التفكر والتدبر على فهم القرآن وتفسيره علمًا وفنًا وعملًا، كما يشار من خلال هذا الكتاب، إلى أنه ومن أهم أغراضه ما يهدي إلى التدبر ومعرفة الكلام والعمل به وترغيب الناس فيه، وكتب الإمام الفراهي في الجزء الأول من الكتاب، عناوين عدة بما فيها تعريف النظم والنظام ولمن.. ولماذا... مشيرًا إلى أنّ "المقصود من معرفة النظام ليس إلا التدبر... في التدبر في الكتاب هو الوسيلة إلى الهدى والتقوى. مضيفًا أنه من لم يعرف النظام جهل الحقائق والغايات والحكم، وقل حظه في الاعتقاد والعمل. مما يؤكد على أهمية معرفة النظم والنظام بشكل أساسي.[1]

ويكتب في مكان: فإنّ فهم الكلام لا يمكن بدون معرفة النظام وإنه لهو السبيل الوحيد إلى فهمه.[2]

وفيما يخص الناحية التاريخية من نظم القرآن، فيكتب الإمام الفراهي: "ليس هناك خلاف في نظم القرآن بما أنه على ترتيب كان في عهد النبي عليه السلام فهو أمر لا يشك فيه إلا مَنْ جهل بالتاريخ، فإنّ السور كلها كانت تقرأ في الصلاة في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم، وبلغ هذا حد التواتر. فإنهم كانوا يقرؤونها في صلواتهم وكانوا يسمعون النبي عليه السلام يقرؤها.

وإنما يشكّ مَنْ يشكّ في ترتيب السور لا آياتها. هل هو كان في عهد النبي أم رتّبها

[1] المصدر السابق، ص 21

[2] المصدر السابق، ص 22

الجامعون للقرآن؟ والصحيح الثابت أنّ ترتيب سور القرآن أيضًا من عند الله، جاء به جبرئيل، وعلّمه النبي وهو علّمه الصحابة كما علم.[1]

علمًا بأنّ ربط الأمور ببعضها في الآيات القرآنية والسورة واضحة كالشمس في وضح النهار، حيث يطلع كلّ مَنْ يتعمق في تلاوة القرآن وتدبره وتأمله، على أنّ القرآن يفسّر بعضه البعض، فيما يكتب الأمام الفراهي في رسائله: أنّ القرآن يفسّر مطالب آياته بعضها ببعض، وذلك يدلّك على نظام مطالبها ومناسبتها، بما يأتيك بنظائره، فتكثر الشواهد على رباط أمر مع أمر.[2] مما يسهل الأمور في فهم معاني الآيات والسور بشكل أكثر وأعمق.

كما تحدّث الإمام الفراهي في هذا الجزء من الكتاب، عن ترتيب السور التي نزلت أولًا، ولكنها تم وضعها في آخر القرآن ترتيبًا، ولها حكمة وضرورة، وفيما أنه شرح ذلك حسب منطق العرب مبينًا: "الشكل وهو أسهله على هذا الترتيب، وترى ذلك في قوله تعالى: "أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾"، فبدأ بما هو أقرب وأمامهم، "وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾"، فارتفع النظر، ثم عاد من السماء نزولًا فقال: "وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾"، فنزل بالترتيب والتدريج كما ارتفع".[3]

وبعد ذلك، تطرق الإمام رحمه الله، إلى سرد ترتيب نزول السور المكية والمدنية ووضعها في القرآن جملة وتفصيلًا، موضحًا أنّ "أصل القرآن ما نزل بمكة، وأما ما نزل بالمدينة فأدرج فيه وضمن معه فصار كالجمان المفصل"، مستنبطًا بالآية الكريمة: "كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾"، فهذه إشارة إلى أصل

[1] المصدر السابق، ص 24
[2] المصدر السابق، ص 83
[3] المصدر السابق، ص 97

راسخ في ترتيب الآيات والسور.[1] وفي هذا الشأن، أورد الإمام الفراهي بعض الأمثلة من خلال سرد مجموعة من السور المكية والمدينة ابتداء من سورة الفاتحة، ويكتب:

"سورة الفاتحة وهي مكية، مع أربع مدنيات جملة واحدة، مع أنّ الفاتحة لها نسبة بمجموع القرآن. (1-5) ثم سورة الأنعام والأعراف مكيتان، مع الأنفال والبراءة المدنيتين ـ (6-9)".[2]

ثم كتب الإمام الفراهي عن عمود السور إجمالًا، مبينًا: "أنّ الفاتحة هي الديباجة لجميع ما ورد في القرآن الكريم"، و"أنّ سورة البقرة هي سورة الإيمان المطلوب وهو الإيمان ببعثة محمد صلّى الله عليه وسلّم، فجمعت دلائلها". وسورة آل عمران، سورة الإسلام وهو طاعة النبي صلّى الله عليه وسلّم فهي أشبه بالسابقة لما أنّ الإسلام إنما هو الجانب الظاهر من الإيمان".[3]

كما لخّص الإمام الفراهي مطالب السور ونظامها، في عدد لا بأس به من الأمور والعناوين ذات الصلة بنظم القرآن وذلك بكافة الدلائل والبراهين من خلال ذكر الآيات القرآنية.

ويمكن القول إنّ هذا الجزء من الكتاب ركز بشكل خاص، على ثبوت النظم والنظام في القرآن كله بما فيه الآيات والسور والمعاني والمطالب وربط بعضها بالبعض وترتيبها فيما يخص النزول ووضعها في القرآن. والأهمية التي تكمن وراء هذه الأمور التي تتعلق بفهم القرآن والتدبر فيه والعمل به وحث الناس على قراءته وفهمه والترغيب فيه. وطبعًا أنّ لهذه النقاط واللطائف أهمية، مما يعزز شوق ورغبة القارئين في التعمق في علوم القرآن علمًا وفهمًا وعملًا بجانب نشر التعاليم والرسائل القرآنية.

[1] المصدر السابق، ص 103

[2] المصدر السابق، ص 104

[3] المصدر السابق، ص 105

## الجزء الثاني من الكتاب

أما الجزء الثاني من الكتاب فإنه يختص بأساليب القرآن الكريم على وجه الخصوص ومن أهمها البلاغة، فيما تناول الإمام الفراهي أولًا، سرد الكلمتين أو القولين سواء كان بالعطف أو بدون العطف، وكتب كل ما شرح له في هذا الاتجاه، مشيرًا إلى أنّ فيه دلائل على معانٍ، وكان أحد القرينين للآخر توضيحًا وتأكيدًا: كقوله تعالى: عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ، أو ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ أو عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ.. ومنها: كشف أمرين متقابلين، كقوله تعالى: ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ، وٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ، وٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ وٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ.

وفي قران الصفات المختلفة بصفة خاصة كالغفار والرحيم والحكيم والعليم بالعزيز، يتبين لنا أنّ هذه المختلفة تحت أمر كلي، فإنّ الحكمة والعلم والرحمة تحت أمر كلي، وههنا غور عميق بذلك على وحدانية الصفات، فإنّ الحكمة من العلم، والعلم من القدرة، والحكمة من الرحمة، والعزة من القدرة، وكما أنّ الصفات المختلفة حسب الظاهر داخلة تحت معنى عام، فكذلك الصفات كلها تدخل تحت معنى الذات.[1]

ثم كتب الإمام الفراهي عناوين أخرى في هذا الجزء من الكتاب، مثل تنوع الخطاب، الحذف ومواقع الحذف، والتفصيل والاقتصار على بعض الشيء. الاستفهام، والشرط، واستعمال الحال، والنفي، والتكرار، والبدل والوصف وكثير من العناوين والأساليب ذات الصلة. وما هي أهم النقاط والأسباب اللطيفة التي توجد وراءها، وإنّ لكل هذا الأسلوب والتركيب معاني ومقاصد خاصة تميزها عن الأخرى، وتثبتها على غيرها وتفضّلها على أخراها، وليس بمجرد سرد أو ذكر الآيات والكلمات والصفات.

## الجزء الثالث من الكتاب

يضم الجزء الثالث من الكتاب، أصولًا راسخة لتأويل القرآن الكريم، مما يعني أنّ ذلك عبارة عن علوم التفسير، حيث كتب الإمام الفراهي عن أهمية هذا الفن والعلم بما أنه

[1] المصدر السابق، ص 160

يعتبر أساسًا وأصلًا للتفسير والتأويل، لافتًا إلى أنّ القرآن هو أصل تمام علم الدين، فمن الضروري أن يؤسّس أصولًا لتأويله وتفسيره وبمثابة علم عام لكل ما يؤخذ من القرآن. مما قد يؤدي إلى الحد من التفسير بالرأي والهوى أيضًا. وفي نفس الوقت، هذا الأساس يمهد الطريق إلى ضرورة التأمل والتفكر في كلام الله العزيز، والدعوة إلى التدبر في كتاب الله، كما أنها تعين على فهم القرآن الكريم فهمًا عميقًا وواضحًا.

وذكر الإمام الفراهي في هذا الجزء من الكتاب، تعريف التأويل وأهميته والفرق بين التأويل والتحريف والتفصيل قدر المستطاع، ليكون الأمر واضحًا كل الوضوح، ثم الأخطاء والتشابه الواردة في هذا السبيل، كما تحدث الإمام عن تأويل القرآن بالقرآن.[1]

جدير بالذكر أنّ هذا الجزء من الكتاب يناقش بشكل خاص، أهم الأمور الخاصة بشرح الألفاظ والكلمات وتأويلها، والتي تهدي إلى التفكير في المعاني والمفاهيم. فيكتب الإمام بشأن التأويل إلى معنى واحد، موضحًا: "كان للقرآن عند الصحابة تأويل واحد لتقواهم وعلمهم باللسان وبشأن النزول، ولذلك قلّ منهم السؤال والتفسير. أما التابعون للصحابة فخفي عنهم بعض شؤون النزول، فأوّلوا القرآن إلى آياته وآثار الصحابة فكأنهم اعتصموا بأصلين:

الأول: أنّ القرآن لا يخالف بعضه بعضًا، والثاني أنّ أفعال النبي وأقواله وعلم الصحابة أقرب شيء موافقة بالقرآن فوقع بعض الاختلاف في وجوه لمعنى واحد.[2]

كما سلّط الإمام رحمه الله، الضوء على التشابه والتأويل، خوضًا في عمق هذا البحث، وتحدّث أيضًا عن المواضيع الأخرى ذات الصلة ولاسيما أسلوب القرآن مشتملة إيجاز وإبلاغ وإجمال، وذلك من خلال إيراد الأمثلة من الآيات القرآنية، بشأن معنى الكلمات كمًا وكيفًا وزمانًا، ويعرف المراد بنظمه، مثلا الآية الكريمة: "ءَامَنُواْ

[1] المصدر السابق، ص 242

[2] المصدر السابق، ص 229

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ"، فالإيمان ههنا هو المجمل والاعتقاد لمقابلته بالعمل، والعمل الصالح هو المعروف لمقابلته بالأحكام الشرعية ومن الصلاة والزكاة. والتأويل الثاني تفصيل الإجمال، فالإيمان على هذا ما يشمل الاعتقاد والعمل، وذكر العمل الصالح تفصيل والعمل الصالح ما يشمل الخيرات، ذكر الصلاة والزكاة فتفصيله، وهذا مثال الكم.

أما الكيف فإذا أريد الإيمان الراسخ الشامل للاعتقاد والعمل مثلًا الآية الكريمة: "إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ". وأما زمانًا فإذا أريد به الدوام عليه وذلك حيث يناط به الثواب والعقاب وهذا كثير مثلًا: "فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ".[1]

إضافة إلى ذلك، خصّص الإمام الفراهي رحمه الله، بذكر بعض أهم النقاط التي تتعلق بطريقة التأويل وما يلزم من شرح وتفسير وتأويل لمعاني الكلمات والآيات القرآنية لفظًا ومعنًى ومفهومًا، فيما أورد الآيات القرآنية كمثال، ثم شرحها حسب السياق المطلوب، ليتضح المعنى في شكل معنى جامع ومعنى مشترك، مما يعني أنّ المعنى قد يأتي بعض الأحيان، لأحد المعاني، وربما يأتي في المعنى الجامع، كما أنه ناقش عددًا من المواضيع الأخرى ذات الصلة أيضًا مثل مفهوم الإثبات والنفي، وفي إطلاق الفعل، والفرق في إطلاق الاسم والصفة والفعل، وإطلاق الحكم على العام، ومواقع التدبر، وفي تعيين المجمل، والشاذ المنكر، والتفسير بالأحاديث وغيرها من المواضيع المعني بالتأويل وأصول التفسير بقدر من التفصيل، ولا يمكن ذكرها كلها في مقال واحد، لذا حاولت أن أشير إلى بعض أبرز العناوين وشرح عدد منها فقط.

**خلاصة القول:** إنّ هذا الكتاب المتمثل في رسائل القرآن للإمام الفراهي والذي يتضمن ثلاثة أبواب، يختص كلها بالأمور والعناوين التي تتحدّث عن نظم ونظام القرآن وسياقه

[1] المصدر السابق، ص 246

وربط الآيات والسور بعضها بالبعض، كما تتعلق بإبراز النقاط الفريدة في القرآن الكريم، وشرح الكلمات وتأويل الآيات والسور ونظمها وترتيب نزولها ووضعها في القرآن الكريم، وأيضًا تختص بأسلوب الإعجاز القرآني لفظًا ومعنًى وبلاغة وشرحًا. وتم سرد هذه العناوين كلها في أمثلة من الآيات القرآنية ليمكن شرحها شرحًا وافيًا. كما أتى هذا الكتاب بما يميزه عن الكتب الأخرى فيما يخص التدبر والتفكر والتعمق في آيات وسور القرآن الكريم، وطبعًا هذا الكتاب يدلّ قرّاءه ويعينهم على فهم معاني ومطالب الآيات القرآنية حسب السياق وفي ضوء نزولها، ويطيب صرف الانتباه إلى أنّ هذه العناوين هي التي تتطلب من أصحاب تفسير القرآن الكريم والراغبين فيه، أن يتعرفوا على هذه النقاط والملامح البارزة من علوم القرآن والتفسير. وإنّ الكتاب يستحق أن يقرأ مرارًا وتكرارًا من قبل كل راغب في علوم القرآن وتفسيره، بما أنه يحويه من إبداعات ونوارد فيما يخص فهم القرآن الكريم لفظًا ومعنًى، مما قد يشفي غليل القراء والرغبين في هذا المجال، ولاسيما سيرشدهم إلى الهدى والسعادة في الدارين.

وختامًا، أسأل العلي القدير أن يوفّقنا ومن يرغب في التدبر في القرآن الكريم، الاستفادة من هذه الجهود الفريدة المخلصة التي قام بها الإمام الفراهي في سبيل شرح النقاط والنكات العلمية في علوم القرآن، وأن يسهل لنا الطريق إلى التدبر في القرآن الكريم، وأن يحبب إلينا بفضلها، الإيمان والتقى، كما أتوجه إلى ربنا جلّ وعلا بأن يجزي صاحب هذا الكتاب العظيم أحسن الجزاء وأن يتقبل خدماته الجليلة في مجال علوم القرآن، وأن يجعلها في ميزان حسناته، وأن ينوّر مثواه بنور القرآن. اللهم تقبل هذه الجهود الغالية ونفع به العلم وأصحابه، وأن يكرّمنا بمنح مِثله من أبناء أمة نبيك الحبيب صلوات الله وسلامه عليه، ليكون خير شارح لمعاني القرآن في هذا الكون.

ISSN: 2321-7928

قراءة في كتاب:

# "التكميل في أصول التأويل"
## لعبد الحميد الفراهي

إعداد: خليل اليماني[1] ومحمود حمد[2]

يُعدّ الرجوع إلى النتاج العلمي السابق ودراسته دراسة جادة، خطوة لها مركزيتها وأهميتها في النهوض بالعمل العلمي وتطويره، والارتقاء به نحو فضاءات أكثر ريادة وعمقًا؛ وذلك لما تتيحه هذه الخطوة المهمة من إدراك لمواطن القوة في هذا النتاج التي يجب تنميتها ومتابعتها، ومكامن الضعف والقصور التي يتوجب الخطو إلى تلافيها؛ ومن هنا ارتأى موقع تفسير إطلاق سلسلة من القراءات التقويمية للمؤلفات في مختلف فروع الدراسات القرآنية، آملًا من وراء ذلك الإسهام في تسليط الضوء على طبيعة واقع التأليف في حقول الدراسات القرآنية، وكشف جوانب القوة والضعف فيه، وتحديد مواطن النضج والقصور، وكذلك فتح العديد من الآفاق البحثية والمجالات المعرفية للباحثين والدارسين؛ عبّر ما تثيره هذه القراءات من إشكالات وملحوظات.

**المؤلف في سطور:** مؤلف الكتاب هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي، حميد الدين أبو أحمد الأنصاري الفراهي.

ولد- رحمه الله- يوم الأربعاء سادس جمادى الآخرة سنة 1280هـ في قرية "فريها" من قرى مديرية أعظم كره في الإقليم الشمالي بالهند. وكانت ولادته في أسرة كريمة معروفة بنسبها وعلمها ومكانتها الاجتماعية ما هيأ له نشأة رغيدة كريمة، وبعد أن أتم

[1] باحث في الدراسات القرآنية، عضو هيئة تدريس بجامعة الأزهر، له عدد من الكتابات والبحوث المنشورة.
[2] باحث في التفسير وعلوم القرآن، شارك في عدد من الأعمال العلمية المنشورة.

حفظ القرآن الكريم اشتغل بتعلم العربية فنهل من علومها وآدابها الكثير والكثير ما جعله يقرض الشعر على طريقة الجاهليين ويسبك الرسائل على منوالهم، فضلًا عن إحاطته بالفارسية والعبرية. وقد تعرف كذلك على اللغة الإنجليزية في ريعان شبابه ونهل من الفلسفة الحديثة الكثير ونال شهادة الليسانس من جامعة "الله آباد".

اشتغل الفراهي بالتدريس والتعليم فترة طويلة من حياته، حيث بدأ بمدرسة الإسلام بكراتشي عاصمة السند، فدرّس فيها سنين، وكتب وألّف عددًا من المصنفات، ثم انتقل إلى جامعة عليكرة الإسلامية استقال الفراهي من أعمال التدريس- بعد ما أشرف على تحقيق فكرته بتأسيس جامعة أردية تقوم بتدريس العلوم الدينية باللغة العربية- وانقطع لتدبر القرآن والنظر في علومه حيث عكف عليه وانشغل بالتصنيف فيه إضافة لإشرافه على مدرسة الإصلاح الديني التي أسّسها قريبًا من قريته، وظلّ- رحمه الله- بقية حياته على هذا الحال حتى وافته المنية في التاسع عشر من جمادى الثانية سنة 1349هـ الحادي عشر من نوفمبر سنة 1930م.

**تمهيد:** أثرى العلامة الفراهي المكتبة القرآنية بالعديد والعديد من المصنّفات والكتابات المهمة كـ"دلائل النظام" و"مفردات القرآن، نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية". و"إمعان في أقسام القرآن"، وكذلك تفسيره "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" وغير ذلك، فهو صاحب نتاج كبير في حقل الدراسات القرآنية، ومن واقع تأملنا لهذا النتاج تبين لنا أنه يحمل مشروعًا متكاملًا، يحفل بالعديد من النظرات المهمة والخطيرة، تستحق أن تتناولها أقلام الكتبة بالبحث والدرس.

ولما كان كتاب "التكميل في أصول التأويل" من المؤلفات التي لم تنل حظًا من التعريف اللائق بها أحببنا أن نسلّط الضوء عليه، لا سيما وأنه في موضوع عظيم المحل حقيقة وواقعًا، وهو أصول التأويل، فكيف كانت رؤية الفراهي لهذا الفن؟ وما هي أبعاد هذه الرؤية ومكوناتها وأهم مشاغلها البحثية؟ وما موقعها في خارطة التأليف

المعاصر في أصول التفسير الذي تشهد ساحة البحث في ميدانه رواجًا وانتشارًا؟ وما صلة هذه الأصول بنظام القرآن تلك الفكرة المركزية والشهيرة في مؤلفات الفراهي، لاسيما وأنّ هذا الكتاب جعله الفراهي مقدمة لتفسيره "نظام القرآن" ذاته والذي سعى فيه إلى التطبيق العملي لفكرة نظام القرآن كما هو معلوم؟ هذه الأسئلة وغيرها مما سنحاول الكشف عنه في هذه القراءة.

وقبل أن ندلف إلى هذه القراءة تجدر الإشارة إلى أنّ العلامة الفراهي لم يتيسر له إتمام كتابه "التكميل" كما هو الحال في العديد من كتبه، والذي بين أيدينا منه جملة مباحث يعتري بعضها نقص، قام بجمعها وترتيبها الأستاذ بدر الدين الإصلاحي، إلا أنّ الكتاب- وبالرغم من ذلك- حافل بالعديد من النظرات والإشارات الواضحة في عدد من المسائل المهمة، كدعوته لتأسيس فن جديد ينهض بتأويل القرآن، ونظرته للقرآن وتفسيره، ورأيه في علاقة السنة بتأويله، ورأيه فيما اشتبه من آياته، إضافة لما عدّده من أصول وقواعد وغير ذلك مما سيظهر في استعراضنا لمحتويات كتابه في السطور التالية.

وبقدر ما كان نقص الكتاب مخوفًا من الإقدام على قراءته بقدر ما عزّز من أهميته؛ إذ ارتأينا هذه المحاولة من أهم وأكبر الخدمات التي يمكن أن تقدّم للكتاب؛ لتكون هذه القراءة مفيدة في بيان إطاره العام وتسييق أفكاره وقضاياه ونظمها بصورة أدعى لاستيعابها وهضمها، وفهم مرتكزاتها وأصولها ... إلخ ما يتعذر إدراكه بيسر وسهولة لدى مطالعة الكتاب نظرًا لهذا النقص الذي يعتريه.

**محتويات الكتاب:** تناول الفراهي في كتابه عددًا من المسائل وعَنْوَنَ لها، وهي كثيرة، لكن بالنظر في الكتاب وتأمل مادته يمكننا أن نقول: إن الكتاب منقسم إلى قسمين:

القسم الأول: مدخل إلى الموضوع، وقد تناول في هذا المدخل عددًا من المسائل على النحو التالي: أصول التأويل أولى بأن يجعل فنًا مستقلًا ويوضع في علم التفسير- بيان الخلل الفاحش الذي وقع في طريق تعلم الدين من جعل علم التأويل مقصورًا على الفقه- غاية

هذا العلم هو المنع عن التفسير بالرأي. التفسير بالرأي- فرض التدبر والتفكر في كتاب الله- دلائل وجوب التدبر في كتاب الله. وهو مدخل كما ترى متعلق ببيان واقع أصول التأويل وبيان غايته وبيان دلائل مشروعيته، وهذا المدخل على وجازته حوى نظرات مهمة كما سنبيّن، لأنه تطرق إلى الجانب التاريخي لأصول التأويل كما نص على حاجة هذا العلم للتكميل، وضرورة أن يكون هذا الفن مستقلًا ويوضع في علم التفسير.

القسم الثاني: هو في موضوع الكتاب، ويتناول المسائل التالية: غاية الكتاب- تعريف التأويل وحكمه الفرق بين التأويل والتحريف والتفصيل- من أسباب الخطأ في التأويل- التأويل إلى معنى واحد في المتشابه وتأويله- الأصول التي تهدي إلى معنى واحد- طريق الفهم للمعنى المراد- الأصول للتأويل.

وأمّا عن جريان الدماء فقال أبو حية النميري:

وبداية من هذا القسم ولج المؤلف- رحمه الله- إلى موضوع كتابه وهو الحديث عن التأويل تعريفًا وحكمًا، والفرق بينه وبين بعض المصطلحات المتداخلة، ثم سرد عددًا من قواعد وأصول التأويل، ونبّه على بعض مكامن الخلل وأسباب الانحراف في تأويل كلام الله تعالى.

**هدف الكتاب:** تكميل علم أصول التأويل، وذكر مجموعة من القواعد والأصول التي تعصم من الزيغ في تفسير كتاب الله تعالى وبيان معانيه.

**الإشكالات الرئيسة للكتاب:** يمكننا القول: إن تتميم علم أصول التأويل واستكمال تشييد أركانه هو الإشكال الرئيس لهذا الكتاب وذلك أنّ الفراهي- رحمه الله- لم يرضه كثرة اختلاف المختلفين في تفسير كتاب الله تعالى، وما آل إليه هذا الاختلاف- بحسب رأيه- من تضييع وتبديد معاني القرآن كما سيأتي، ومن ثم كان لزامًا وضع قواعد وأصول تعصم من الزلل، وتقي من الخطأ في بيان معاني القرآن، وهو ما حاوله الفراهي في هذا الكتاب.

**الفراهي وأصول التأويل:** أراد الفراهي- رحمه الله- بكتابه هذا- كما بيّنا- تكميل علم أصول التأويل، لكن الموضوع له عنده حكاية، نشرحها في العناصر التالية:

**الاختلاف في التفسير وموقف الفراهي منه:** إنّ من يطالع مصنفات التفسير ومدوناته يلحظ قدرًا كبيرًا من الاختلافات والتباينات في تفسير القرآن وبيان ومعانيه، حيث تتعدد المقولات والأفكار وتكثر المدارس والمذاهب بصورة كبيرة جدًا، وهو الأمر الذي نعى عليه الفراهي كثيرًا مبينًا أنّ كثرته- بسبب الروايات الضعيفة والاعتماد عليها في التفسير وظهور الفلسفات وغير ذلك- أدّت إلى تبديد المعنى الصحيح للقرآن، حيث تشبثت كل فرقة من الروايات والفلسفة بما أعجبها، فكثرت وجوه التأويل حتى صار الأمر الواضح ملتبسًا، وأظلمت سبل التفسير، وأغلق باب القرآن، ولكثرة الآراء وتشاجر الروايات ضاع الحكم الفيصل".[1]

ومن هنا تخلق جوهر الإشكال عند الفراهي- رحمه الله-، فحاول أن يضع لهذا حلًا وحدًا، والذي تمثل عنده في ضرورة الإيمان بأنّ القرآن لا يحتمل إلا تأويلًا واحدًا".

**القرآن لا يحتمل إلا تأويلًا واحدًا:** ذهب الفراهي- رحمه الله- إلى أنّ الحل الأمثل للداء العضال الذي ذكرناه عنه في النقطة السابقة يكمن في التمسك بالقرآن الكريم وردّ مختلف الروايات والآراء إليه، وهو الأمر الذي لا يكون إلا بالاعتقاد بأنه ليس له إلا تأويل واحد. وهذه الفكرة تمثل جوهر النظر عند الفراهي، وعصب نظريته في التأويل.

ولكي نفهم موقفه بوضوح ونتسلسل معه نقول: إنّ الفراهي لما تأمل كثرة الاختلاف في تفسير القرآن ظهر له أنّ من أبرز أثارها وأكثرها إشكالًا أنّ القرآن أضحى بهذه الصورة محتملًا لمعانٍ كثيرة مختلفة ولا يمكن القطع بأحدها، حتى إنه اعتبر أنّ هذه الحال قد أفضت بالمؤمنين إلى التمسك بالسنة ظنًا منهم بأنّ القرآن ذو وجوه والسنة بيّنة، فهو يرى أنّ الاعتقاد بأنّ القرآن حمال ذو وجوه هو السبب

[1] التكميل في أصول التأويل، ص 31

الرئيس الحدوث هذا الاختلاف واتساع رقعته بين المفسرين، ومثل لهذا بواقع بعض مدونات التفسير، وما تحفل به من تعددية آراء لا حدّ لها في بيان معاني الآيات، ومن هاهنا حاول الخلاص من هذا الإشكال، فتمثل له الحل في أمرين بوجه عام: اعتبار قطعية دلالات القرآن وتكملة علم أصول التأويل.

**الأول: اعتبار قطعية دلالات القرآن:** فكأنه بهذا استحضر أسباب الاختلاف ودواعيه في التاريخ وعند العلماء، فبدا له أنّ السبب الأول يكمن في الاعتقاد بفنية دلالة بعض آيات القرآن الكريم: ما فتح باب تعدد الاحتمالات والمقولات على مصراعيه دون القطع بصحة أحدها خلافًا للبقية نظرًا لاعتبار تلك الظنية، فاختلفت بذلك الأقوال، وتعددت الآراء والرؤى حول تفسير الآيات دون حدّ فاصل.

والحقيقة أنّ ظنية بعض آيات القرآن الكريم في دلالتها على المعاني وقطعية بعضها الآخر مما استقر عند جمهور العلماء نظرًا لطبيعة النص القرآني ولغته وغير ذلك من الأسباب، لكن يبدو أنّ الفراهي رحمه الله لم يرتض هذا، ولم يقبله؛ لأنه يراه سببًا رئيسًا في بقاء الاختلاف بين المفسرين دون تحديد وقطع، ومن ثم كان له رأي آخر، فإنه بعد أن عرض لاختلاف الأقوال في التفسير وكثرة وجوه التأويل والتباس الأمور الواضحات بيّن أنه لا دواء لهذا الداء العضال إلا التمسك بالقرآن وردّ الروايات والآراء إلى كتاب الله وهذا لا يكون إلا أن نؤمن بأنّ القرآن لا يحتمل إلا تأويلًا واحدًا وليس لعبارته إلا مدلول واحد، فكما أنّ القرآن قطعي الثبوت فهو كذلك قطعي الدلالة.[1]

فقد تمثل العلاج إذا لدى الفراهي للخروج من دوامة التأويلات المتعددة دون امتلاك زمام القطع بأحدها في أن ترجع إلى ما أسأنا به الظن أولًا، فنحسن به الظن، فنؤمن بأنّ القرآن هو قطعي في دلالته والفاصل في حكمه.[2] فيجب أن

[1] المصدر نفسه، ص 32

[2] المصدر نفسه، ص 38

يُصحح التصور إزاء القرآن بأن يعلم أنه قطعي في دلالاته وهو الفاصل في تحرير تلك الدلالة، أي أنّ آيات القرآن لها معنى واحد، ويجب الوصول إليه وتحديده من خلال القرآن ذاته؛ إذ فيه المعايير الموصلة إلى ذلك، والتي عبرها يمكن الوصول إلى الدلالة المطلوبة والقطع بها بدلًا من التوقف وإبقاء الباب مفتوحًا لتأويلات عديدة يضيع معها التأويل الصحيح.

ولما كانت نظرة الفراهي للقرآن بهذه الصورة وتصوره للإشكال على النحو السابق اضطر أن يخوض في معترك مسألة المتشابه وكيفية التعامل معه؛ كونها من أكثر المسائل التي تعكر عليه صفو القول بقطعية دلالات القرآن؛ إذ المتشابه قد لا يكون هناك سبيل لتأويله، وقد كان الاختلاف في تعيينه والاختلاف في تعيين ما لا يتوصل إليه من تأويله من أهم وأبرز دواعي الاختلاف بين مفسّري القرآن الكريم، حتى صار محكم قوم متشابه قوم آخرين، كما يصوّر ذلك الفراهي- رحمه الله- بقوله: ولما اختلف الناس في التفسير ورد بعضهم قول بعض غلب على ظنهم أنّ القرآن ليس قطعيًا في دلالته، وأن ليس للكلام حكم يقيني لبنائه على النقل... ثم كان دأبهم أن جعلوا الآيات الظاهرة متشابهات؛ إذ ظنّوها على خلاف ما برهنوا عليه فكانت الآية الواحدة محكمة عند فرقة، ومتشابهة عند أخرى،[1] ثم أتبع ذلك الحديث عن بعض الآراء في مسألة المتشابه، وانتصر للقول بأنّ المتشابه هو ما يمكن فهمه ولكن بدون تأويله، أي: تشخيصه كآيات القيامة والبعث ونحو ذلك، وهو بذلك الترجيح والاختيار يبدو متناغمًا مع رأيه بقطعية النص وعدم وجود ما لا يمكن تفسيره منه والقطع بدلالته.

وبذلك استطاع الفراهي أن يعالج الشق الأول من المسألة بأن يعتبر القرآن قطعيًا في دلالاته ويمكن الفصل في هذه الدلالات والقطع بصحة بعضها دون الآخر، وأماط أيّ إشكال من شأنه أن يشغب على رأيه في هذا الأمر، لكن السؤال الذي يفرض

[1] المصدر نفسه، ص 36

نفسه الآن: كيف السبيل إلى معنى واحد للقرآن بهذه القطعية التي يحدثنا عنها الفراهي؟ هذا ما يأخذنا إلى الحل والعلاج الثاني عند الفراهي.

**ثانيًا: تكملة علم أصول التأويل:** إذا كان القرآن قطعيًا في دلالته ويجب أن يتم تحرير دلالات نصوصه بوجه قاطع، فإنّ طريق تحرير هذه الدلالات يمثّل جزءًا رئيسًا من معادلة الحل وإلا بقي الخلاف مستحكمًا والتشاجر قائمًا وعدم إمكان القطع بصحيح الدلالات دون غيره مستمراً، ومن هنا تمثل الحل عند الفراهي في هذا الصدد في وضع أصول للتأويل، بحيث يكون هناك جملة معايير وضوابط صارمة يمكن عبرها ضبط التعامل مع دلالات النصوص وتحرير الخلاف فيها واختيار الصواب منها بوجه قاطع.

ولما كان المخرج عند الفراهي هو في وضع أصول ضابطة للتأويل قاده ذلك إلى النظر في هذا الباب من البحث وتأمله؛ حيث سعى إلى تتبع تاريخه والبحث في علة عدم اكتماله ونضجه، والتي أسهمت بشكل بارز في اعتبار عدم قطعية ظواهر القرآن حيث لا أصول يمكن التحاكم إليها بشكل دقيق. يقول الفراهي بعد بيانه لأهمية تشييد أصول التأويل وانصراف الناس إلى الأحاديث وإهمال القرآن لعدم قطعية ظواهره:

.... والظاهر أنّ القرآن هو المعتصم والمستمسك المعتمد والمبطلون إنما حرّفوه؛ فلو أوضحت لهم أصول التأويل لم يمكنهم التحريف ولأقيمت الحجة عليهم. واليأس من القرآن والتمسك بالأحاديث وهن وفتح لأبواب الأكاذيب".[1] ولم يكتف الفراهي ببيان طريق إكمال هذا الفن وتشييده؛ بل إنه قام بسرد جملة من الأصول التي يتيسر من خلالها كما ذكر ضبط الوصول إلى التأويل الواحد الصحيح من بين ركام التأويلات والتفسيرات.

[1] وردّ هذا النقل في النسخة التي بين أيدينا في ص 25 بهذه الصورة: "والمبطلون إنما حرّفوه. فلو أوضحت لهم أصول التأويل لم يمكنهم التحريف. واليأس من القرآن والتمسّك بالأحاديث وهنٌ وفتحٌ لأبواب الأكاذيب، ولا يتمّ الحجة عليهم". وظاهر ما فيها من لبس، وقد أثبتنا ما رأيناه أقرب لسياق الكلام.

**أصول التأويل ونظام القرآن:** وهذا هو أصل الأصول عنده، فإنه لما أبان عن إشكال تعددية الآراء في تفسير القرآن والاختلاف الكبير فيها، واستحضر دواعيه وأسبابه وعالجها على النحو الذي بيّناه قبل قليل، جعل التمسك بنظام القرآن هو العلاج الناجع لهذا الإشكال العتيد، والتمسك به هو السبيل الوحيد لبلوغ ما أسماه "معنى واحد للقرآن"؛ فالنظم هو الحبل المتين الذي يعصم من يعتصم به عن الزيغ، وهو السراج المنير الذي يدلّ على الحكم؛ فإنّ الآيات إنما تنتظم بما تتضمن من الحكمة فإنها هي الجامعة". والغفلة عن نظام القرآن عنده سبب اختلاف المختلفين أصلاً؛ لأنهم لم يراعوا نظام فتهافتوا على الروايات فخبطوا في العمايات.[1]

ومن هنا كان منطقيًا أن تتمحور أصوله حول هذه القضية، وأن يراها سبيلًا لتحرير الخلاف، وهو ذات المعنى الذي كرّره وألحّ عليه في غير ما موضع من كتابه "دلائل النظام"، مبيناً أننا لو ظهر لنا النظام وأخذنا من المعاني ما أراده الله لاجتمعنا تحت راية واحدة وما اختلفنا، وأنّ تدبر القرآن والإيمان بما يظهر لنا من نظامه هو الدواء الوحيد لداء الاختلاف والافتراق.

وإنّ نظرة سريعة في أصوله التي وضعها في التكميل تشي بهذا الارتباط بينها وبين مسألة نظم القرآن وما بينهما من وشائج وصلات؛ فمن تلك الأصول: عند الاحتمالات نأخذ بأحسنها وأوفقها بالنظام والعمود"، إذا كثرت وجوه التأويل في آية، كان الأمر كاشتراك اللفظ والحاكم عند اشتراك اللفظ موقع استعماله"، العلم بخصائص أسلوب القرآن؛ فإن لكل ذي كلام له في كلامه أساليب تخصّه، فإن لم تراعها وأوّلته حسب ما تعودت به أخطأت معناه"، "إذا احتمل كلمة أكثر من معنى واحد، سألنا هل هذه الكلمة أجدر بهذا المعنى من غيرها؟ فإن وجدنا كلمة أخرى أجدر وأقوم وتركها القرآن علمنا أنّ القرآن لا يترك أبين الكلام وأقومه فتركنا

[1] التكميل في أصول التأويل، ص 43

ذلك المعنى وأولناها إلى ما هي أصوب له"، كما أنه- تبعًا لترتيب جامع الكتاب- قسم الأصول في نهاية الكتاب إلى ثلاثة أصول أولية، ومرجحة، وكاذبة، وذكر أنّ الأولى يتمسك بها حيث لا احتمال معانٍ شتى، والثانية ما يتمسك به عند احتمال المعنى، والكاذبة ما اعتمد عليه وليس بشيء، ومن ضمن الأصول التي عددها تحت الأصول الأولية: "التمسك بنظم القرآن"، "المعنى الشاذ لا يلتفت إليه"، "فهم الكلام بعضه من بعض بالمقابلة وحمل النظير على النظير" وغير ذلك.

ولعلنا بذلك من خلال ما سبق ندرك سبب غياب اشتباك الفراهي في التكميل مع مدونات التفسير وبحثه عن سناد لأصوله من رحم تطبيقاتها واعتباره القرآن ذاته ميدانًا لاستخراج تلك الأصول لا كتب التفسير ومصنفاته، إذ اعتبر القرآن ذاته هو أداة الفصل عبر تتبع النظام وهي القضية التي دارت عليها رحى معظم الأصول،[1] وكذلك يمكننا أن نفهم لم سمّى الفراهي- رحمه الله- تفسيره بـ"نظام القرآن"، ولم وضع هذه الأصول في هذا التكميل ولأيّ شيء، وأيضًا يمكننا الآن قراءة أصوله التي أوردها قراءة صحيحة في ضوء فهمنا لنظريته بنحو متكامل.

وجدير بالذكر أنّ الفراهي حين قال بالتأويل الواحد للقرآن اضطره ذلك إلى أن طرح العديد من الإجابات التي يدفع بها بعض التساؤلات التي قد تثيرها مثل هذه الرؤية؛ من مثل حقيقة اختلاف الصحابة، والتي قد تشغب بقوة على هذه الرؤية، وهو ما حاول الفراهي الإجابة عنه بأنّ الصحابة كانوا على تأويل واحد لأسباب ذكرها، وكذا تفسير سبب غيبة القول بالتأويل الواحد في التراث التفسيري ووجود الاختلافات، والذي ردّه الفراهي لعدم التفات الأوائل لفكرة النظام، وأيضًا علاقة السنة النبوية

[1] يقول الفراهي في الدلائل تحت عنوان "مأخذ النظام هو القرآن نفسه": "إن سألتني عن مأخذ هذا العلم قائلًا بأنّك تصدّيت لأمر عظيم وألقيت دعوى كبيرة فزعمت أن فهم القرآن لا يمكن من غير معرفة نظامه، فاعلم- هداك الله وأرشدك- أني رجل قليل البضاعة ... إنما هو القرآن الحكيم نفسه قد دلّ على حسن نظامه". دلائل النظام، ص 28 بتصرف

بالكتاب والتي لم يكن لها كبير دور في بيان القرآن عنده في ضوء القول بفكرة النظام، واعتبارها الأداة الواحدة الكافية لقراءة القرآن وبيانه.

ولا شك أنّ مثل هذه الأجوبة والردود التي قال بها الفراهي في بناء فرضية التأويل الواحد ما يثير العديد من التساؤلات والإشكالات، والتي سنعرج عليها بعد بيان أهم مزايا الكتاب.

**أبرز مزايا الكتاب:** يحتل التعامل مع القرآن مساحة واسعة من اشتغال الدرس المعاصر لعلوم القرآن، وتكثر الدعوات القراءة القرآن من داخله والاستماع لهديه دون فرض وصايات خارجية، وقراءته قراءة تكاملية لا تجزيئية تبعًا لتخصصات بعينها ومشاغل ندخل بها مسبقًا على القرآن وتحكمها فيه وليس العكس إلى تلك الأطروحات التي تنتقد الدرس القديم في التفسير بوجه عام والتي صار لها مساحة كبيرة في واقعنا المعاصر ودراساتنا حول القرآن وتفسيره، حيث تناولها أقلام عديدة، إلا أنه وبغض النظر عن تقييمنا لهذه الأفكار واتفاقنا معها أو اختلافنا، فإنّ المتأمل لما سبق يلحظ أنّ بدايات هذه الأطروحات وجذورها تبدو ماثلة مع الفراهي في "التكميل" بصورة ملحوظة؛ بل إنّ الفراهي برغم تقدمه وسبقه في طرح مثل هذه الأفكار وكثرة تداولها بعده، إلا أنّ كتابه التكميل وغيره من مؤلفاته ربما تظل الأجدر بالبحث والدرس دون سواها. نظراً لاشتغاله فيها عملياً بوضع الجوانب النظرية والمنهجية اللازمة، إضافة لما تركه من تفسير للقرآن حاول فيه تطبيق نظريته وأصوله بصورة عملية.

كما أنّ المتابع للحركة العلمية المعاصرة في الدراسات القرآنية يلحظ دعوات كثيرة لضرورة النهوض بأصول التفسير واعتبارها علمًا مستقلًا، وهي دعوة نجد صداها ظاهراً مع الفراهي هنا في التكميل، بل إنه ربما يكون صاحب السبق في هذه الدعوة التي ربما لا نجد لها صدى بهذا الوضوح قبله في أيّ من المؤلفات.

وإذا كان هناك جدل دائر وحركة علمية ملحوظة في هذه الآونة حول أصول تفسير

القرآن وسبل النهوض بها، فإنّ من أعظم مزايا هذا الكتاب- فيما نرى- أنه تطرق لإشكال أصول التأويل؛ حيث عالج إشكالها في التاريخ، وأسباب عدم نضجها، وطرح جملة من التحليلات والتأويلات بهذا الصدد، وهي أمور تظلّ غائبة عن كثير من البحث المعاصر في أصول التفسير رغم أهميتها قبل النزوع قبل إلى وضع تلك الأصول.

كما أنّ الفراهي- رحمه الله- لم يكتف بإثارة بعض الأمور النظرية حول الموضوع، وإنما جاوز هذا لمحاولة عملية وتطبيقية، من خلال إيراده لعدد من القواعد والأصول التي ارتآها، نعم الكتاب لم يتمه الفراهي، لكن كثيرًا من أفكاره فيه ظاهرة، وقد أورد عددًا من الأصول، إضافة إلى تطبيقه في تفسيره، وتطبيقه في كتابه "مفردات القرآن"، وهذه المؤلفات لا تخطئ عين الناظر أنه ألّفها ضمن نظريته الكلية لتفسير القرآن، وتطبيقها عليه، فسواء اختلفنا مع مخرجات هذه النظرية أم اتفقنا معها، إلا أنه لا ينبغي الاختلاف على أهميتها في تشييد أركان علم أصول التفسير وقواعده؛ لما تمثله من تجربة نادرة للتأصيل والتطبيق.

هذا، وإنه لمن المؤسف حقًا أن ينطلق بعض المعاصرين إلى الكتابة والتأليف في أصول التفسير وقواعده دون دراسة واعية ومتأنية لهذه المؤلفات ذات الصلة الوثيقة بما نحن بصدده، مع الوضع في الاعتبار أنّ كثيرًا من المعاصرين ينصّون نصًا على حداثة الكتابة والتأليف في هذا الباب!

وجدير بالنظر أنّ كتاب "التكميل" حافل بالنظرات والإشارات التي تحتاج المزيد تأمل ودرس كعلاقة السنة بالقرآن، وكذلك به العديد من اللفتات الرائعة كالفرق بين العلم الفطري والنظري، وأيضًا يكتنز قدرًا كبيرًا من التحليلات التاريخية والتفسيرات المهمة للعديد من القضايا التي تحتاج لمزيد بحث في ضوء ما طرحه الفراهي.

**أهم الملاحظات:** يمكن أن يؤخذ على الفراهي في الجملة عدد من الأمور أبرزها: أولًا أنه استهلّ حديثه بأمر عام كبير؛ وهو الحديث عن أصول التأويل، وما تحتاج إليه

من تتميم وتكميل وأنه بصدد هذا، ثم إنه لم يمض في هذا السبيل بهذا العموم، ولا رتّب السير فيه كما ينبغي، وإنما قصر عمله على بيان نظرته ونظريته الخاصة بالتأويل، وأنّ القرآن ليس له إلا تأويل واحد، وراح يعدّد القواعد التي توصل إلى ذلك- كما بيّنا، ولذلك فاته تعريف ما هو بصدده ما كان يلزمه التنويه إليه كتعريف أصول التأويل وبيان حدودها ومبادئها وتعريف التفسير وبيان حده، وما يتصل بذلك من مسائل، وربما يعتذر عن ذلك بكون الكتاب مسودة لم يتمها صاحبها.

ثانيًا: ما يمكن أخذه على الكتاب بشكل عام أنه انطلق من فرضية غير محررة؛ وهي القول بأنّ القرآن قطعي في دلالته، وليس له إلا تأويل واحد يمكن القطع به والوصول إليه عبر مسألة النظم وما وضع من أصول تقود إلى ذلك.

فالفراهي- وبرغم خلافه في ذلك للمشهور عند العلماء- لم يتأمل هذه الفرضية على نحو دقيق؛ ذلك أنّ الناظر في أصوله وفي مسألة مراعاة النظام التي اعتبرها حاسمة وقاطعة لدابر الاختلاف وسبيلًا موصلًا للمعنى الواحد الصحيح لم يجدها قاطعة على هذا النحو الذي ذكر، وإنما تحمل تعددًا يتعذر معه القطع والحسم بالمعنى الصحيح الذي أراده، ومردّه تفاوت الفهوم واختلاف المدارك في النظم ذاته وما يتسق به بناء الكلام وهو ما اعتبره الفراهي أداة الحسم، وذلك أمر شديد الظهور لمن تأمل في أصول الفراهي ذاتها كـ"عند الاحتمالات نأخذ بأحسنها وأوفقها بالنظام والعمود"، "إذا كثرت وجوه التأويل في آية، كان الأمر كاشتراك اللفظ. والحاكم عند اشتراك اللفظ موقع استعماله"، "إذا احتمل كلمة أكثر من معنى واحد، سألنا هل هذه الكلمة أجدر بهذا المعنى من غيرها؟ فإن وجدنا كلمة أخرى أجدر وأقوم وتركها القرآن علمنا أنّ القرآن لا يترك أبين الكلام وأقومه، فتركنا ذلك المعنى وأوّلناها إلى ما هي أصوب له، فإذا كانت مراعاة النظام والبحث عن مواقع استعمال الألفاظ المشتركة وغيرها له أثره في الترجيح والاختيار بين الأقوال كما هو بين، إلا أن تطبيق

هذه الأصول يظل في ذاته منتجًا لاجتهادات متعددة كما لا يخفى، يصعب معها القطع على الصورة التي تصورها الفراهي في العديد من مواضع التفسير، وإلا فاختيار الاحتمال الأوفق بالنظام والعمود يبقى محل اجتهاد واختلاف تتفاوت فيه الأنظار، فضلًا عن وقوع مثل ذلك الاجتهاد والاختلاف في تحديد عمود السورة ذاته وما يستقيم به النظام. فنحن حتى لو سايرنا الفراهي في أصل دعواه وضربنا صفحًا عن أسباب الاختلاف في التفسير التي أطال العلماء في شرحها ما يتصل بطبيعة النص القرآني في ذاته واحتماليته لتعدد المعاني بسببها كأن يكون اللفظ مشتركًا وغير ذلك؛ إلا أنّ الأصول التي وضعها- وإن أعانت على الترجيح وتحرير الصواب- تبقى عرضة للاجتهاد في تطبيقها ما يتولد عنه اختلاف بطبيعة الحال. ولو أنّ الفراهي انطلق فقط من حاجتنا لوضع أصول التأويل وإنضاجها ككل لضبط التعامل مع الخلاف دون محاولة نفيه من أصله عبر فكرة قطعية دلالات الآيات التي نحا إليها، وجعل فكرة النظام وما وضع من أصول تمهيدًا لذلك وسبيلًا إليه لسلم كثابه من هذا الإشكال الذي ما كان لمثله أن يتورط فيه لفرط ظهوره.

ثالثًا: في إطار بناء الفراهي لفرضيته السابقة ونزوعه لفكرة التأويل الواحد، فإنه تطرق- كما ذكرنا- إلى ذكر بعض التفسيرات والتحليلات التي سعى بها إلى إكساب رؤيته قدرًا من الاتساق وردّ الإشكالات التي قد ترد عليها، إلا أنّ بعضها جاء مشكلًا جدًا، ومن ذلك ما يلي:

1. يعدّ اختلاف الصحابة في التفسير مثار تكدير ظاهر على فكرة التأويل الواحد التي اتجه إليها الفراهي؛ ولذا اجتهد- رحمه الله كما في ص 31- في طرح تسويغ لها قائلًا: "كان للقرآن عند الصحابة تأويل واحد؛ لتقواهم، وعلمهم باللسان، وبشأن النزول، وفي هذا نظر ظاهر، بل وخلاف لواقع تفاسير الصحابة فالصحابة وإن كان كثيرًا من اختلافهم هو اختلاف تنوع، إلا أنهم اختلفوا

في تأويل بعض الآيات خلاف تضاد كما هو معلوم.

2. وكذلك يعدّ سبب عدم ذكر العلماء لقضية التأويل الواحد على امتداد التاريخ أمرًا لافتًا للانتباه لاسيما مع كثرة التفاسير التي أنتجها التراث، وهو ما أجاب عليه الفراهي بدعوى إغفال العلماء لمسألة النظم وعدم اهتمامهم بها وإخضاعهم تفسير القرآن للروايات والآثار، وهي مقولات فيها مجازفات وتحتاج إلى تحرير كما هو بيّن، كما أنّ مثل هذا الطرح الذي يدعي الجدة والأسبقية ونظائره في الدرس المعاصر يجعلنا دومًا أمام سؤال جوهري وهو: هل نحن أمام تفسير منتج في التراث نحتاج إلى ضبط أصوله ومناهجه أولًا؟ أم أننا نريد إنتاج تفسير جديد بغض النظر عن القديم؟ وما جدوى الشروع في الثاني دون القيام بالجهد الأول؟ وهو أمر لازم لبيان حقيقة دعاوي الجدة في الطرح وخلوّها من التراث، وكذلك هو من أكبر سبل العون على ضبط هذه الدعاوي وإنضاجها؛ إذ اعتبار تراكمية العلم واستثمار التجارب السابقة والنظر فيها لا يخفى دوره في تنقيح اللاحق عليها، لاسيما إن كانت هذه التجارب السابقة صادرة عن عمالقة لهم وزنهم ومكانتهم في التراث.

3. للسنة النبوية علاقة بالكتاب وبيانه كما هو معلوم؛ وهو أمر قد يمثّل تشغيبًا أيضًا على فكرة النظام التي ذهب إليها الفراهي، وادعى كفايتها في فهم القرآن واستقلالها ببيانه، وهو ما جابهه الفراهي مبينًا- كما في ص 90-91- أنّ الأحاديث لا تزيد شيئًا على القرآن، وأنّ غاية الأمر أنها توضح أمرًا غامضًا قد يخفى على من لا يتدبر، وفي هذا نظر بيّن؛ فإنّ من القرآن ما لا يدرك إلا ببيان النبي- صلّى الله عليه وسلّم- له ولا يكفي فيه الاعتماد على تدبر المرء. وفي ذات السياق يبيّن المؤلف أنّ التهافت على الحديث قبل فهم القرآن يوقع في لبس، ويذكر أنّ السبيل السوي للخلاص من هذا هو أن يتعلم المرء الهدى من القرآن أولًا، ويبني عليه دينه، ثم بعد ذلك ينظر

في الحديث، وفي هذا نظر، إذ من القرآن ما لا ينبغي أن يستقل فيه المرء بفهم دون بيان النبي- صلّى الله عليه وسلّم- له.

رابعًا: مما يلاحظ على الفراهي أيضًا وقوعه في بعض الهنات وهو بصدد تقييمه لبعض التفاسير وتحريره لبعض القضايا منها:

1. يقول الفراهي عن تفسير الطبري: وأما النظر في الروايات من جهة القرآن والمعقول والتاريخ، فليس من شأنه حتى إنه جمع من المناكير الكبر من غير تنبيه على نكارتها،[1] وكذا وصف تفسير الرازي بعدها بأنه يجمع المناكير بلا تنبيه ويخلط الغث بالسمين. وفي أوصافه هذه نظر كبير وتحامل على المفسرين، لاسيما وأنّ لكل مفسّر مناهج لما تستكشف بعد بصورة دقيقة في أانسياق الاستدلال حتى تقرّر عليه مثل تلك الأحكام الشديدة.
2. في ص 16 يبيّن المؤلف أنّ المنقول من التفسير عن السلف أكثره أحاديث ضعيفة ومتناقضة ومخالفة لظاهر القرآن، وهذا تقرير مشكل مبني على عدم إلمام بمناهج مفسّري السلف وآليات فهم تفسيرهم.

**الخاتمة:** هذه قراءة سريعة وموجزة، سلّطنا فيها الضوء على كتاب الفراهي "التكميل في أصول التأويل"، إلا أننا نؤكد على أهمية وضرورة أن تخضع كل أعماله للبحث والدرس؛ فقد بدا لنا فترة اشتغالنا بعمل هذه القراءة أنه كان صاحب مشروع متكامل، ربما لم يسعفه الوقت لإتمامه، لكنه على كل حال قد أفضى فيه بالكثير وأبان عن ركائزه؛ ومن هنا تتحتم أهمية القراءة الشاملة والمستوعبة لأعمال الإمام الفراهي، وإخضاعها لعين البحث الجاد، وفي هذا لا شك خير كثير.[2]

[1] المصدر نفسه، ص 14

[2] مع الشكر لمركز تفسير للدراسات القرآنية

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

ويدخل في الباب أيضًا أمر آخر غامض، وذلك درء العداوة بالإحسان، كما قال تعالى: "ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ" (سورة فصلت: 34). فإنّ الشر يهيج الشر، والعفو والإحسان يطفئ العداوة.[1]

**خلاصة القول:** هذا الكتاب جامع ومختصر للإمام عبد الحميد الفراهي، قد تناول فيه حِكَم التشريع في مختلف الأحكام. وأوضح دقائق الأمور وتطرق إلى خباياها، وغاص بحر معاني القرآن وأحكامه وأتى بدرر الحِكم وقدم آراء سديدة قيمة. فهذا الكتاب يحمل في طيه توجيهات رشيدة وملاحظات مهمة تستحق اهتمام الباحثين والمعنيين بالموضوع.

[1] المصدر نفسه، ص 95.

ISSN: 2321-7928

**استعراض كتاب:**

# إحكام الأصول بأحكام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- د. غياث الإسلام الصديقي[1]

اسم الرسالة: إحكام الأصول بأحكام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

اسم المؤلف: الإمام عبد الحميد الفراهي

إعداد: الدكتور عبيد الله الفراهي

مراجعة: الشيخ أمانة الله الإصلاحي

عدد الصفحات: 20

الناشر: الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، يو.بي، الهند

سنة النشر: 1432هـ/2011م

**تمهيد**

علم أصول الفقه من أهم العلوم الإسلامية العربية، وهو يضع القواعد الأصولية لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلّتها الصحيحة، وكذلك هو علم يدرس أدلة الفقه الإجمالية، وما يتوصل به إلى الأدلة، وطرق استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، والاجتهاد والاستدلال. فالرسالة التي نحن بصددها، عنوانها "إحكام الأصول بأحكام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" رسالة مفيدة في هذا الموضوع.

**المؤلف في سطور:** هو الإمام عبد الحميد الفراهي من أعلام الهند ونوابغها، وله إسهام كبير

[1] مدرّس ضيف، كلية الطبّ اليونانية التابعة لجامعة دلهي، نيودلهي، الهند

في العلوم العربية. ولد في 18/ نوفمبر سنة 1863م بقرية "فريها" (أعظم كره، أوترابراديش)، وكان أبوه من أشراف الديار ومثقفًا بثقافة غربية وله مكتبة غنية كعادة أسلافه. بدأ الفراهي دراسته بقراءة القرآن الكريم فحفظه عن ظهر القلب ثم تلمذ على الشيخ محمد مهدي الشتاروي وابن خاله العلامة المؤرخ شبلي النعماني وتعلّم منهما اللغة الفارسية. ثم شرع يتعلّم اللغة العربية وعلومها على ابن خاله المذكور واستفاد من العلامة محمد فاروق الشرياكوتي أستاذ العلامة شبلي. ثم ارتحل إلى لكناؤ حيث استفاض من العلامة عبد الحي الفرنغي محلي في مجال الفقه الإسلامي. ولقد أنهى تعليم العلوم العربية والإسلامية على علامة الشرق فيض الحسن السهارنبوري. أنهى الإمام الفراهي هذه السلسلة التعليمية في 1883م. وبعد ذلك توجه إلى العلوم العصرية فصار متعلماً في كلية إله آباد آنذاك، ثم أكمل البكالويوس في الكلية الشرقية بعلي كره عام 1895م، واستفاد من علمائها وباحثيها ولاسيما البروفيسور أرنولد، وانتهت سلسلة تعلّمه الديني والعصري في 1897م.

قضى الفراهي حياة حافلة بالنشاطات العملية والفكرية والتدريسية، فاشتغل معلّمًا في مدرسة الإسلام بكراتشي عشر سنوات من 1897 إلى 1907م، ثم قام بالتدريس في علي كره، وفي كلية ميور التابعة لجامعة الله آباد. ثم في 1914م تعيّن عميدًا لدار العلوم بحيدرآباد، وفي 1919م رجع إلى وطنه لخدمة مدرسة الإصلاح التي ساعد في تأسيسها ابن خاله العلامة شبلي النعماني. ومنذ هذه الفترة بقي يخدم تلك المدرسة حتى وافاه الأجل في 11/ نوفمبر سنة 1930م.[1]

**المراجعة:** قام بمراجعة الرسالة، الشيخ أمانة الله الإصلاحي من مواليد 1940م تقريباً. إنه تلقّى الدراسات الابتدائية في مدرسة برامفور ثم التحق بمدرسة الإصلاح وتخرج فيها، فارتحل إلى المدينة المنوّرة واستفاد من أساتذة الجامعة الإسلامية بها وبعد ذلك بعث إلى نائجيريا حيث خدم لمدة طويلة، وبعدما أصابه المرض رجع إلى الهند، وله

[1] الأعظمي، د. أورنك زيب : الإمام عبد الحميد الفراهي وكتابه جمهرة البلاغة (alukah.net).

تعليقات على تفسير "تدبر قرآن" وتفسير "تفهيم القرآن" وكتاب "أسباق النحو".[1]

**أصل الكتاب:** إحكام الأصول بأحكام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسالة ثانية من مجموعة خمس رسائل، نشرت بعنوان "رسائل في علوم القرآن" وهي مجموعة ثانية لأربع رسائل للإمام الفراهي في علوم القرآن. قام بإعدادها الدكتور عبيد الله الفراهي وأما المراجعة فقد قام بها الشيخ أمانة الله الإصلاحي. إنها في 181 صفحة وصدرت عن الدائرة الحميدية في 2011م. ولو أنّ المجموعة تخلو من مقدمة المدير الجامع ولكنها تشمل المراجع الهامة الضرورية فهي طبعة شبه محقّقة.

**محتويات الكتاب:** هذه الرسالة فى علم أصول الفقه المأخوذ من استنباطات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القرآن الحكيم. يستهلها المؤلف بإلقاء ضوء على أهمية علم أصول الفقه، ويؤكد على أنّ الله أمرنا في كتابه بالتفكر، وأنّ علم أصول الفقه جزء وردء من أصول التأويل، وأنّ الحاجة قد اشتدت إلى استنباط الفروع، واجتهد فيه العلماء ولم يتحروا إلا الرشد واتباع سبيل المؤمنين. ثم أسّس المتأخرون للاستنباط أصولًا وأفرغوا في استخراجها جهدهم واختلفوا فيها.

وبعد التأكيد على أهمية أصول الفقه وضرورته، تناول المؤلف عدة فتاوى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصولها في القرآن الكريم، وأتبع ذلك عنوان "أمثلة" جاء فيها بعدة آيات قرآنية، وقام بتطبيقها على الأحكام الشرعية والأحاديث النبوية. فهنا ناقش أمورًا دينية نحو: القول المعروف والمغفرة من الصدقة، وحكم السرقة، وحد الزنا وإعطاء الخمس لذوي القربى من الغنيمة، ونواقض الوضوء، والرضاع، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها.

**علم أصول الفقه:** يصرح الفراهي بأنّ العلماء لم يلتفتوا إلى أصول الفقه لظنهم بأنّ الله تعالى لما فرض عليهم طاعة رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم أغناهم عن طلب السند لما كان يأمرهم به وينهاهم عنه. فإنّ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصل مستقل

[1] الأعظمي، د. أورنك زيب: الدائرة الحميدية تاريخها ومساهمتها في تطوير العلوم والآداب (alukah.net)، ص 19.

سواء استنبطه من الكتاب أم لم يستنبطه. وهذا أمر مسلم لا يشك فيه مسلم. ومع ذلك معلوم أنه عليه الصلاة والسلام كان يستنبط من كتاب الله كما جاء التصريح منه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في كثير من الأحكام، وقد أمره الله عزّ وجلّ بذلك في القرآن.[1]

**أحكام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** قد بيّن الإمام الفراهي أنّ أحكام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حيث نسبتها إلى الكتاب على ثلاثة أقسام موجودة وقسمين مفروضين: القسم الأول ما صرح فيه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه حكم بالكتاب، ولم يكن الحكم بظاهر الكتاب ونصه. فقد علمنا أنه كان يستنبط منه وقد أمره الله أن يبين للناس ما نزل إليهم كما نزل إليهم كان الله وما عرفت لوجه الاستنباط لا تصعب بعدم العلم بالأصل والفرع.

والقسم الثاني من الأحكام ما لم يصرح فيه بذلك ولكن وجه استنباطه من الكتاب ظاهر على العارف بدلالات الكلام. فالحكم بكونه مأخوذًا من الكتاب أقرب إلى الصواب، فإنّ الله تعالى أمره بالحكم بما أراه الله من نفس الكتاب الغامضة "إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ". (سورة النساء: 105)

والقسم الثالث ما لا نجده في الكتاب ولكن زياده به محتملة فجعلنا السنة فيه أصلًا مستقلًا فإنّ الله تعالى أمرنا عمومًا بإطاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر الرسول بالحكم بما يريه الله تعالى سواء كان بالكتاب أم بالنور والحكمة التي ملأ الله بها قلبه.[2]

**فتاوى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أورد الإمام الفراهي عدة فتاوى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القران الكريم فذكر قول الشافعي: "إنّ فتاوى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت مستنبطة من القرآن"، وذكر استدلاله بقوله تعالى: "وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ". (سورة المائدة: 49)، ثم علّق عليه الفراهي: سواء صح هذا الاستدلال أم لم يصح، لا شك أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يستنبط من القرآن، وذلك بدا لي من مطابقات وجدتها بين قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

[1] الفراهي، الإمام عبد الحميد: رسائل في علوم القرآن، إحكام الأصول بأحكام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ص109.
[2] المصدر نفسه، ص113-114.

والقرآن. ثم ذكر بعض استدلالات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من القرآن بما فيها قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، وهو مستنبط من قوله تعالى: "وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ". (سورة التوبة: 100) وقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: لا تجتمع أمتي على الضلالة، واستنباطه من قوله تعالى: "وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا". (سورة النساء: 115).[1]

وعلى هذا المنوال قد جاء المؤلف بعديد من المسائل والعقائد والعبادات التي ذُكِرت في القرآن مختصرة، وفُصلت في الحديث النبوي الشريف، أو بعكس ذلك، وقدّم نقاطًا علمية من القرآن الكريم مما يدلّ على ذوقه القرآني وشغفه بكتاب الله العزيز. وفي الختام، نقل المؤلف من سنن الدارقطني، رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما، وهي مهمة جدًا في موضوع القضاء، وعلى حد تعبير أبي العباس المبرد صاحب "كتاب الكامل في اللغة والأدب": "جمع فيها جمل الأحكام، واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس بعده يتخذونها إمامًا، ولا يجد محقّ عنها معدلًا، ولا ظالم عن حدودها محيصًا".[2]

**الخاتمة:** عقب دراسة هذا الكتاب نتوصل إلى أنّ الإمام عبد الحميد الفراهي له اطلاع واسع على علم أصول الفقه، ونظر ثاقب في الآيات المتعلقة به، فقدّم في هذه الرسالة نقاطًا علمية مهمة من علم أصول الفقه مما يجعلها إضافة قيمة ملموسة إلى المكتبة العلمية والعربية الإسلامية.

[1] المصدر نفسه، ص116.

[2]- https://shamela.ws/book/8505/13

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

هذه الآية في كذا"، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أنّ هذا كان السبب في نزولها. فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع".[1]

وكذلك نقل المؤلف من صاحب الإتقان سبعة وجوه لرفع الاختلاف في ذكر الأسباب، وهي:

1. كونها من جنس الاستدلال، وهو ما قال الزركشي رحمه الله.
2. ترجيح المصرح على المجمل. فإنّ الذي يصرح فعلمه أتم وأحفظ.
3. ترجيح الأصح على الأضعف صحة.
4. ترجيح ما كان راويه حاضر القصة أو نحو ذلك من وجوه الترجيح.
5. توفيق بين الأسباب بنزول الآية عقيبها، وذلك حين يحتمل قرب الأزمنة.
6. تعدد النزول إذا تباعدت أوقات الواقعات.
7. ردّ بعض الروايات إلى أن الراوي إنما سمع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه تلا وظنّ أنه نزل حينئذ.[2]

وبعد سطور يبين الفراهي أهمية المسئلة قائلًا: "فاعلم أنّ صاحب الإتقان نظر في هذه المسألة من جهة رفع الاختلاف إذا وقع في روايات سبب النزول. ولكن هذه المسألة في غاية الأهمية سواء وقع الاختلاف في سبب النزول أم لم يقع، لأنّ بيده زمام التأويل. ومعنى القرآن لابد أن يكون مأخوذًا من مآخذ مسلمة وإلا كيف يصح الاعتصام به وكيف تتفق كلمة الأمة في مدار أمرهم. ألا ترى الناس لم يختلفوا في شيء كاختلافهم في تأويل القرآن، أفليس هذا داءًا عظيمًا. فإن كان داءًا فماذا دواؤه؟"

[1] المصدر نفسه، ص 133.

[2] المصدر نفسه، ص 134.

ثم يرد هذا الأمر إلى اثنين مهمين ويقول: "ولا أرى ذلك إلا شدة الاحتياط في ذلك، فليكن الاعتماد على أصلين:

(الألف) لا يعتمد إلا على رواية صحيحة.

(ب) يستخرج شأن النزول من سياق الكلام ونظمه.[1]

وفي نهاية الرسالة عقد المؤلف عنوانًا "يوضع حيث تذكر أصول الأسباب" وأوضح وجهة نظره فيه قائلًا: "إنهم حاولوا رفع الاختلاف بين روايات تبين أسباب النزول وإنا نريد أن نرفع الاختلاف بينما يظهر من القرآن وبينما روي في الأخبار ونريد أن نعتصم بنظم القرآن ونرد الرواية إليه لا أن نؤوّل القرآن إليها".[2]

وبالتالي ذكر مثالين لمختلف أسباب النزول. فالمثال الأول لأسباب نزول الآية: "وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ" (الإسراء: 85)، والمثال الثاني لأسباب نزول الآية: "مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ" (التوبة: 113).

**الخاتمة:** هذه الرسالة وإن كانت مختصرة في كميتها، ولكنها جامعة ومفيدة للغاية في بيان أسباب النزول، وفي أثناء دراستها، يطلع القارئ على ضرورة هذا العلم وأهميته، ومختلف وجهات النظر ورأي المؤلف فيه، بالإضافة إلى معرفة أسباب النزول لعدة الآيات الكريمة. ولا ريب أنّ إسهام العلامة الفراهي بهذه الرسالة وأمثالها إسهام كبير في مجال العلوم القرآنية، وإضافة قيمة إلى المكتبة العلمية العربية.

[1] المصدر نفسه، ص 135.

[2] المصدر نفسه، ص 136.

ISSN: 2321-7928

**استعراض كتاب:**

# الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ

- د. غياث الإسلام الصديقي[1]

اسم الرسالة: الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ

اسم المؤلف: الإمام عبد الحميد الفراهي

إعداد: الدكتور عبيد الله الفراهي

مراجعة: الشيخ أمانة الله الإصلاحي

عدد الصفحات: 26

الناشر: الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، يو.بي، الهند

سنة النشر: 1432هـ/2011م

## تمهيد

علم الناسخ والمنسوخ من أهم علوم القرآن والتفسير، ولا يتيسر تفسير القرآن إلا بعد معرفة علم الناسخ والمنسوخ، وهو العلم الذي يبين مراحل نزول التشريع وتدرجه ويوضح منهج التشريع في إقرار الأحكام، وحكمته في خطاب المكلفين. فالرسالة التي نحن بصددها الآن هي "الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ" رسالة مؤجزة وقيّمة في هذا الموضوع.

**المؤلف في سطور:** هو الإمام عبد الحميد الفراهي، وفي تعريفه نكتفي هنا بما كتبه العلّامة السيّد سليمان الندوي على وفاته: "الصلوة على ترجمان القرآن نداء رفع للصلاة على جنازة

[1] مدرّس ضيف، كلية الطبّ اليونانية التابعة لجامعة دلهي، نيودلهي، الهند

ابن تيمية من مصر والشام حتى جدران الصين قبل الآن بستة قرون ونصف قرن، ومن الواقع أن يعاد هذا النداء مرة ثانية وأن يبلغ، على الأقل، مصر والشام من بلاد الهند بأن توفي ابن تيمية هذا العصر في 19 جمادى الثاني 1349هـ الموافق لـ11 نوفمبر 1930م ولا نتوقع في هذه الأوضاع الراهنة أن يبرز نظيره في العالم الإسلامي فقد كان العلامة كآية ربانية لتبحره في العلوم الشرقية والغربية وكان فاقد النظير في التضلع بالعربية ومثقفًا للإنجليزية وصورة حية للتقوى وتمثالًا ناطقًا للفضل والكمال وحافظًا للفارسية ونابغة للعربية فلو كان شخصية واحدة ولكنه قد جمع في فرديته عالمًا للحكمة، ودنيًا للمعرفة، وكونًا للعلم، فلو كان في عزلة عن الناس إلا أنه كان مجمعًا لأبحر العلم والفضل وكان مضرب المثل في غناه عن الناس مع ثروته العلمية. كان فريدًا في الإلمام بالعلوم الأدبية وذخرًا للعلوم العربية، وناقدًا للعلوم العقلية، وماهرًا للعلوم الدينية، وبارعًا لعلوم القرآن، وفوق تلك أنه كان في غنى عن متاع الدنيا وبعيدًا عن مدح الناس ومعتكفًا في زاوية لخدمة العلم فكان وحده ملكًا في دنياه ذاته. إنه أنفق ثلاثين سنة كاملة في التفكير على القرآن وسبر غوره بعيدًا عن ضجيج العالم وغوغائه... ولد فقضى عمره في تدبر القرآن ومضى لسبيله، ولكن الأسف أنّ العالم لم يسعه تقدير أهميته وفضله".[1]

**المراجعة:** قام بمراجعة الرسالة، الشيخ أمانة الله الإصلاحي، وهو من مواليد 1940م تقريبًا. إنه تلقّى الدراسات الابتدائية في مدرسة برامفور ثم تخرج في مدرسة الإصلاح، فارتحل إلى المدينة المنوّرة واستفاد من أساتذة الجامعة الإسلامية بها. ثم بعث إلى نائجيريا حيث خدم لمدة طويلة. وله تعليقات على تفسير "تدبر قرآن" وتفسير "تفهيم القرآن" وكتاب "أسباق النحو".[2]

[1] الأعظمي، د. أورنك زيب: الإمام عبد الحميد الفراهي وكتابه جمهرة البلاغة، نقلا عن ياد رفتگان للعلامة سيد سليمان الندوي، ص 124-125.

[2] الأعظمي، د. أورنك زيب: الدائرة الحميدية تاريخها ومساهمتها في تطوير العلوم والآداب (alukah.net)، ص 19.

**أصل الكتاب:** "الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ" رسالة رابعة من مجموعة خمس رسائل، نشرت بعنوان "رسائل في علوم القرآن" وهي مجموعة ثانية لرسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن. قام بإعدادها الدكتور عبيد الله الفراهي وأما المراجعة فقد قام بها الشيخ أمانة الله الإصلاحي. إنها في 181 صفحة وصدرت عن الدائرة الحميدية في 2011م. ولو أنّ المجموعة تخلو من مقدمة المدير الجامع ولكنها تشمل المراجع الهامة الضرورية فهي طبعة شبه محقّقة.

**محتويات الرسالة:** في هذه الرسالة بابان، أولهما في الكليات، والباب الثاني في تفصيل آيات تتعلق بالنسخ. وفيه ثلاث نكات: (1)النواسخ بالمعنى الحقيقي (2) النواسخ مجازًا لما في الكتب السابقة (3) النواسخ مجازًا لما في القرآن.

**أقسام العلوم ولأعمال:** تحت عنوان "نسخ الشرائع" بيّن المؤلف أنّ ما نزل إلينا بالوحي أمران: علوم، وأعمال. ثم فيهما أقسام متفاوتة. أما العلوم فثلاثة أقسام: الحقائق الثابتة، والوقائع الماضية أو الآتية، والوعد والوعيد. وأما الأعمال فقسمان: المقصود بالذات، والمقصود لغيره. فكل ما أخبر عنه الله تعالى لا يتطرق إليه النسخ عقلًا، ولكن فيه الوعد والوعيد المشروط. وربما لا يذكر الشرط. فإذا وجدت اختلافًا في ذلك فلا بد أن تصفح الشرط فتعلم حينئذ أن لا تبديل فيه، كما قال تعالى: "مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ". (سورة ق: 29)

**الأعمال المقصودة بالذات:** وبالتالي أوضح العلامة الفراهي أنّ المقصود بالذات من الأعمال مثل الحقائق الثابتة في العلوم لبنائها على الفطرة وطبائع الأمور، والنسب بينهما كعامة الصلاة والزكاة، والصبر والعفو، وحماية الحق والإصلاح. فلذلك هو الدين الذي وصى به الله الإنسان من آدم عليه السلام إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم كما قال تعالى: "شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ". (سورة الشورى: 13). وذلك هو الإسلام المبني على الإيمان واللازم له. هذا لا يقبل النسخ، ولذلك وجب الفرق بينه وبين المقصود

لغيره. فتمحص هذا القسم الواحد للنسخ مما كان من الله. ثم القرآن ينسخ ما دخل في الدين، وهذا النسخ يعمّ الأعمال والعلوم، وهو نسخ البدع والأهواء.[1]

**الأعمال المقصودة لغيرها:** وتحت عنوان "في بيان نسخ الشرائع الحقة" يصرح المؤلّف بأنّ الأعمال المقصودة لغيرها تنقسم إلى قسمين: الأول ما يبتني على أحوال خاصة بقوم أو ملك. والثاني مع كونه غير مقصود بالذات، له نسبة بالوسائط التي تتعلق بالفطرة السليمة التي عليها خلق الإنسان المستعد للكمال، كهيئة صلاتنا وشروطها، وسائر جزئيات أحكامنا التي أكمل بها الله دينه ولا يقبل النسخ. فمتى لم تستعد الأمم لقبول هذه الشريعة الفطرية الخاتمة أعطيت أحكامًا خاصة صالحة لأحوالهم معدة إياهم لقبول الكمال. مثلًا كتب الله ذبح البقرة على بني إسرائيل لقرب عهدهم بعبده البقرة أو بنى مذبحهم على مماثلة معابد الوثنيين وجعل مناسكهم كمناسكهم، لما أنهم لم يعرفوا من صوره التعبد غيرها.[2]

قد أكد المؤلف على أنّ الأسلوب ليس بالمقصود. إنما المقصود هو الحكم العام. مثلًا حرم الغيبة ومثلها بأكل اللحوم، وشنع على البخل وصوره بجعل اليد مغلولة أو مثل ذلك. فهذا من باب ما اختار الله لسان العرب لهذه البعثة، أو كما اختار أوسط الأقوام وأجدرها، أو كما اختار بلدًا خاصًا للحج. فهذه كلها لوجوه مختصة بها، وبذلك صارت للعرب مزية.[3]

**الإسلام دين الفطرة:** وبالتالي يبين الفراهي أنّ الأحكام جاءت حسب فطرة الإنسان الصحيحة وليس فيها رعاية للعرب ولا قوم من أقوام الأرض كما خيل إلى بعض حكماء المسلمين رحمهم الله، لما رأى من صور التعليم وأسلوب التشريع. إنّ

[1] الفراهي، الإمام عبد الحميد: رسائل في علوم القرآن، الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ، ص 151.
[2] المصدر نفسه، ص 152.
[3] المصدر نفسه، ص 155.

جميع أحكام هذه الشريعة حسب الفطرة العامة وأصول الحكمة المطلقة. فأحكام شريعتنا التي ليست مقصودة بالذات أيضًا ثابتة لا تحتمل النسخ، لبنائها على الفطرة. مثلًا حرمت الخمر قليلها وكثيرها، لما أنه من الحقيقة الثابتة أنّ الدقيق يهيج الجليل، والصغار من الأعمال يجلب الكبار. فكمال الشريعة أنّ يسدّ أبواب الفساد. ومثل ذلك تحريم السجدة لغير الله سدًا لأبواب الشرك. وعلى هذا القياس أحكام كثيرة.[1]

**عمل النسخ في الشريعة الأخيرة:** كما أنّ القرآن نسخ بعض أحكام الشرائع السابقة، فكذلك نسخ بعض ما نزل على هذه الأمة في أول الأمر، والأصل واحد. فإنه كما أنّ لنوع الإنسان سموًا وصعودًا طبقًا على طبق فكذلك للأمة الواحدة منهم سير وسلوك. والذي أنكر النسخ في هذا الدين فإنما أخذ للنسخ معنى خاصًا محدودًا. ولا شك في أنّ كثيرًا مما سمّاه العلماء نسخًا ليس إلا زيادة على حكم سابق، كتحريم الخمر بالكلية بعد أنْ حرّم أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، أو كتخفيف عدة المقاتلين بعد أن دخل في الإسلام كثير ممن لم يبلغوا مقام السابقين منهم وضعفت أحوالهم، أو كتخفيف صلاة الليل عند كثرة المصلّين. فنسخ الشرائع السابقة أهم وأكبر من نسخ أحكام هذه البعثة بعضها ببعض. وقد غفل أكثر المفسرين عن هذا الأصل، فأوّلوا آيات فيها ذكر النسخ إلى النوع الثاني وبعدوا عن حقيقة التأويل.[2]

**الحكمة في النسخ:** الحكمة في النسخ عند الفراهي ليست من الأمور الغامضة إلا عند من يتغافل، فإنّ التدبير الصائب، ليس في الشرائع فقط بل في الخلق كله، هو إخراج ما قد أضمر في الطبائع من القوة إلى الفعل. وعلى سبيل المثال: قال تعالى في كتابه: "إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ" (سورة الأنعام: 95). وهذا هو معنى الابتلاء، وبذلك تربية النفوس لتجتهد فتبرز

[1] المصدر نفسه، ص 155.

[2] المصدر نفسه، ص 157.

ما انطوت عليه وتخرج من أثمارها الحلو أو المر كما قال تعالى: "خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا" (سورة الملك: 2). وجملة القول إنّ النفوس بجهدها في إطاعة الأوامر تتم مصلحة خلقها فتبتلى بما فيه سعيها وإخراجها عن هواها وفطامها عن شهواتها. فإذا كان الأمر هكذا كان في محض إلقاء شريعة جديدة ونسخ ما تعودوها حكمة الابتلاء غير ما فيه من المصالح الخاصة.[1]

وعلّمنا القرآن هذه الحكمة حيث قال: "وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" (سورة المائدة: 48).

فتبين لنا أنّ النسخ من جهة الابتلاء أيضًا ينطوي على حكمه عالية، وصرح به القرآن في غير موضع. فمن ذلك ما جاء في سورة الحج من قوله تعالى: "وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾". (سورة الحج: 52-54).

يصرح العلامة الفراهي بأنّ هذه الآيات تشير إلى جهة الابتلاء في النسخ، كما صرح بها في هذه الآيات. والله تعالى مع ما ذكر من حكمه لا يصرح بأنّ النسخ كان للهداية إلى الصراط المستقيم ولم يكن لمحض الابتلاء. ثم هذه حكمة الابتلاء باقية بعد ختم النبوة

[1] المصدر نفسه، ص 159.

في إبطال البدع والأهواء، فإنّ ذلك من مثل النسخ المذكور في سورة الحج.[1]

**إنكار النسخ في القرآن:** تحت هذا العنوان ذكر الفراهي زعم بعض أهل الرأي أنّ في نسخ الشرائع حسب تبدل الأحوال دليلًا على أن لا نسخ في الحقيقة، فإن عادت تلك الأحوال وجب العمل على ما نسخ، وفائدة هذا الرأي تظهر في تدبير من يدعو إلى الإسلام أمة غير مستعدة لتحمل جميع الشريعة بأسرها. ويظنون أنّ التدريج في التشريع عين أسوة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ والعمل حسب التدبير الإلهي.

ثم رد الفراهي على هذا الرأي الخاطئ وهو يصرح بأنّ الإسلام لم يترك هذا الباب من التشريع، فرخص في قصر الصلاة عند خوف الفتنة، وخفف في أمر الصوم والوضوء، واستثنى من الوعيد المكره المطمئن القلب ثم جعل الله لنا قاعدة عامة في قوله تعالى: "لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ". (سورة الأنعام: 152، والأعراف: 42)، وفي قوله تعالى: "فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ". (سورة المائدة: 3). وفي كل ذلك لم يتجاوز الرخصة لكي يستقيم على البلاء من كان قويًا عليه، فيفوز بأجر عظيم. ولا يقال إنّ حمل الشريعة كان في الأول خفيفًا، كلا إنه جاء التخفيف آخرًا ... ولا يقاس على بدء الإسلام، فإنّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان في زمانه داعيًا واحدًا وصوت رجل لا أقول في البيداء بل في شغب الغوغاء. وأما الآن فقد صار الإسلام نارًا على يفاع وعلمًا يخفق على رأس علم، والداخل فيه يجد أنه من أمة تربو على سائر الأمم فيجد أنسًا وقوة وطمأنينة من الأسباب الظاهرة، علاوة على النور وشرح الصدر من جهة الباطن. فلا أقول بإثبات المنسوخ وإبطال الناسخ. وقد رأينا المتقين من الدعاة يعاملون أتباعهم أولًا بالمسامحة ثم يوفقهم الله للتثبت. وفي مثل ذلك قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: "يسروا ولا تعسروا".[2]

[1] المصدر نفسه، ص 161.

[2] المصدر نفسه، ص 164-165.

**الخاتمة:** وعقب دراسة هذه الرسالة يتبين أنها رسالة مختصرة في صفحاتها، وجامعة في مضامينها ومعانيها، وأحاط المؤلف موضوع الرسالة بعدة جوانب، وأضح أوجه النسخ وحكمته في الشريعة الإسلامية والشرائع قبلها، ولا شك في أنّ العلامة الفراهي قد أسهم بها إسهامًا ملحوظًا في موضوع علم الناسخ والمنسوخ.

ISSN: 2321-7928

استعراض كتاب:

# حواشي الفراهي على كتاب:
# "الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس"

- د. غياث الإسلام الصديقي[1]

اسم الرسالة: حواشي الفراهي على كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس

صاحب الحواشي: الإمام عبد الحميد الفراهي

إعداد: الدكتور عبيد الله الفراهي

مراجعة: الشيخ أمانة الله الإصلاحي

عدد الصفحات: تسع صفحات

الناشر: الدائرة الحميدية مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، يو.بي، الهند

سنة النشر: 1432هـ/2011م

## تمهيد

"كتاب الناسخ والمنسوخ" من أشهر وأوسع كتب النسخ في القرآن الكريم، وقد تميَّز بأنه يدخل ضمن الكتب المختصة بعلم الناسخ والمنسوخ من القرآن الكريم والاحتجاج لذلك بالحديث الشريف والآثار عن السلف رضي الله عنهم، مع ذكر الخلاف الواقع في كل مسألة والآراء التي وردَت عن الأئمة. ألّفه أبو جعفر أحمد المصري النحوي (المتوفى 338هـ) المعروف بـ"أبي جعفر النَّحَّاس"، وقام بتحقيقه الأستاذ محمد أمين الخانجي الكتبي، وطبع من مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر عام1323هـ/1905م.[2]

[1] مدرّس ضيف، كلية الطبّ اليونانية التابعة لجامعة دلهي، نيودلهي، الهند

[2] https://quranpedia.net/book/24156

**صاحب الحواشي:** هو الإمام عبد الحميد الفراهي من كبار علماء الهند، إنه ألّف ودوّن أكثر من سبعين كتاباً ومجموعة، ومن أبرز مؤلفاته ورسائله: "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، و"الرأي الصحيح في من هو الذبيح"، و"إمعان في أقسام القرآن"، و"مفردات القرآن"، و"التكميل في أصول التأويل"، و"في ملكوت الله"، و"أساليب القرآن"، و"القائد إلى عيون العقائد"، و"الرائع في أصول الشرائع"، و"إحكام الأصول بأحكام الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ"، و"أسباب النزول"، و"الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ".

**المراجعة:** قام بمراجعة الحواشي، الشيخ أمانة الله الإصلاحي. إنه تعلّم في مدرسة برامفور ثم تخرج في مدرسة الإصلاح، فارتحل إلى المدينة المنوّرة واستفاد من أساتذة الجامعة الإسلامية بها، وبعث إلى نائجيريا حيث خدم لمدة طويلة، وله تعليقات على تفسير "تدبر قرآن" وتفسير "تفهيم القرآن" وكتاب "أسباق النحو".[1]

**أصل الرسالة:** "حواشي الفراهي على كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس" رسالة خامسة من خمس رسائل نشرت مجموعتها بعنوان "رسائل في علوم القرآن" وهي المجموعة الثانية لرسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن.

**استعراض الحواشي:** ولا يخفى على مَنْ له اطلاع على خدمات علمية للعلّامة عبد الحميد الفراهي أن شغله الشاغل كان القرآن الكريم والتدبر فيه، وعلم الناسخ والمنسوخ من أهم العلوم القرآنية، فتناول الفراهي كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، ودرسه دراسة متأنية، فاستلفت انتباهه عدة مواضع منه فأبدى رأيه فيها وقام بالتحشي في تسع وعشرين صفحة من صفحاته. وعلى سبيل المثال لا الحصر نقدم بعض حواشيه فيما يلي:

وردت آية القصاص على صفحة 16 لكتاب الناسخ والمنسوخ : "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

[1] الأعظمي، د. أورنك زيب: الدائرة الحميدية تاريخها ومساهمتها في تطوير العلوم والآداب (alukah.net)، ص 19.

كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ"، (سورة البقرة: 178)، فيقول الفراهي: "إنّ هذه الآية في قتل الجماعة إن وقعت حرب بين المؤمنين. وصيغة الجمع في القتلى تؤيده. ومعنى القصاص هاهنا التكافؤ، والحديث فسّر هذه الآية ثم الآية التالية تؤيد هذا التأويل".[1]

وجاء في صفحة 62 قول الله تعالى: "وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ" (سورة البقرة: 228)، فقال الفراهي في الحاشية: اختلاف السلف في إطلاق النسخ والاستثناء والتبيين على أمر واحد. والتبيين أحسن، وذلك بأنّ المقصود من التربص ها هنا رفع الشبهة عن الحمل. فبين الله أن لا محل للتربص من غير المساس. فإن شئت سمّه الاستثناء، وإن شئت سمّه النسخ بمعنى أن لو لم يبينه الشارع لكادوا يجعلون الآية عامة.[2]

وذكر المؤلف قوله تعالى في صفحة 91: "وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم ..." (سورة النساء: 3)، فيقول الفراهي في الحاشية: في الآية إباحة النكاح مع شرطين، والسنة حسبما ذكر المصنف لا تتعلق بالنكاح الجديد، وإنما تتعلق بما كان عندهم من الأزواج فأمرهم بتسريح ما فوق الأربع. وهذا كما يظهر والله اعلم مستنبط من الشرط الثاني بالإشارة. فإنّ الله تعالى أمر بالاقتصار على واحدة عند خوف الجور في أمر الأزواج، فعلم أنّ المقصود أن يكفوا عن تكثير الأزواج لخوف الجور. وكان الطلاق قبيحًا فأمرهم بأمر بين بين، وهو غاية ما أجازه الله تعالى صراحة فاقتصر عليها. وهذا كله في ما نكحوا قبل ذلك.[3]

**الخاتمة:** "حواشي الفراهي على كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس" كتابات قيمة للعلامة الفراهي، وتبدو منها آراؤه و وجهات نظره في مختلف الآيات القرآنية،

[1] الفراهي، الإمام عبد الحميد: رسائل في علوم القرآن، حواشي الفراهي على كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، ص168.

[2] المصدر نفسه، ص 173.

[3] المصدر نفسه، ص 174.

والأحكام الفقهية المستنبطة منها، وآراء الأئمة الفقهاء فيها. ولوكانت هذه الحواشي مطبوعة على صفحات كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس لكانت أنفع، ولاستفاد منها القراء حق الاستفادة.

ISSN: 2321-7928

# التعليقات القرآنية للإمام الفراهي: خصائص وميزات

- البروفيسور أبو سفيان الإصلاحي[1]

ترجمة من الأردوية: د. محمد شفاء الرحمن المدني[2]

العلّامة الإمام حميد الدين الفراهي- رحمه الله- (1863-1930م) من الشخصيات التي استكشفت وجهات جديدة، وارتبطت بالتدبر والتفكر في كتاب الله تعالى طوال حياته، وأعطت فكرة أنّ القرآن الكريم منبع المعرفة والحكمة ومصدرهما، وهو قطعي الدلالة من بين المصادر والمراجع الإسلامية، وهذا كتاب وحيد سلم من جميع أنواع التحريفات والأوهام والأساطير. والفراهي لقّبه العلّامة سيّد سليمان الندوي بـ"آية من آيات الله". وأعرب عن عواطفه وانطباعاته على وفاته المأساوية بمقالته التي نشرت في مجلة شهرية "معارف" بعنوان: "الصلاة على ترجمان القرآن".[3] وجعل مثيلًا للعلّامة ابن تيمية- رحمه الله- بالنظر إلى مكتسباته القرآنية، وسوقَ عكاظ نظراً لإنجازاته الكبرى في الآداب العربية.[4] وعندما كان الإمام الفراهي يقضي مراحله الأكاديمية (مرحلة البكالوريوس) في مؤسسة تعليمية للسير سيّد أحمد خان، فلم يقف بلياقة وكفاءة الفراهي ولا سيما معارفه القرآنية فحسب، بل كان متأثرًا بها، حتى أنه طلب منه أن ينقل تفسيره إلى العربية، ولكن الفراهي لم يرد عليه ردًا إيجابيًا بسبب وجود المواضيع العديدة المثيرة للجدل في تفسيره.[5] ونظراً لعظمة الرموز القرآنية للفراهي، ووجهة زواياه

[1] أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند.

[2] مدرس بالجامعة الإسلامية، سنابل، نيو دلهي، الهند.

[3] مجلة "معارف" نوفمبر 1930م، 5/26، ص 322-324.

[4] المرجع نفسه، ص 322.

[5] حيات حميد (ترجمة حميد الدين الفراهي)، ص 36.

الأدبية نشر ابن خالته العلّامة شبلي النعماني، أستاذ الأدب العربي مقالًا توضيحيًا في مجلة "الندوة" الشهرية عن شمولية كتاب "دلائل النظام" الذي لا نظير له في موضوعه.[1] وأنّ هذا هو أول كتاب في العالم صرّح بأنّ القرآن الكريم كتاب توقيفي، وجاء بعدة أدلة على ذلك. وأنّ القرآن الكريم مربوطة سورها وآياتها بنظم، ولو أخذت آية من مكانها ووضعت في مكان آخر لوقع الخلل الكبير، فترى النظام على غاية المطابقة بها.[2] وكذلك قام بتعريف كتاب آخر "جمهرة البلاغة" للإمام الفراهي ناقش فيه وجهات أرسطو، والنقّاد الغربيين، والأفكار البلاغية للنقاد العرب، وحاول إظهار شراستهم جيدًا، وبيّن فيه النقاط البلاغية في القرآن الكريم ردًا على نظرية المحاكاة لأرسطو.[3] وسلط الضوء الشيخ أبو الحسن الندوي في خطاب له على أهمية هذا الكتاب، وقال: لا يوجد مثل هذا الكتاب في العالم الإسلامي. وقد بيّن البروفيسور محمد راشد الندوي،[4] والبروفيسور عبد الباري[5] أهمية هذا الكتاب ومكانته في مقالاتهما مفصلًا. كان يعتبر أرسطو إمامًا للبلاغة عند العرب. والإمام الفراهي بيّن تصور البلاغة القرآنية، وأظهر النقائص البلاغية عند أرسطو، فوصف البروفيسور أبو الكلام القاسمي هذا الجهد الأدبي والبلاغي للفراهي بأنه عديم النظير، ولكنه وقع في خطأ في تقديم وجهة النظر للعلّامة شبلي النعماني، والإمام الفراهي بسبب عدم الاستفادة مباشرة من جمهرة البلاغة للفراهي، حيث قال: إنّ كتاب "دلائل النظام" هو نفس كتاب "جمهرة البلاغة"، مع أنهما كتابان على حدة، وهما للفراهي.[6] وقد لاحظتم ذكر الكتابين الرائعين "دلائل النظام" و"جمهرة البلاغة" للفراهي، وله أكثر من خمسين كتابًا ذكرها الدكتور محمد أجمل

[1] مقالات شبلي، ص 12-28.

[2] انظر: دلائل النظام، ص 89.

[3] انظر: جمهرة البلاغة، ص 4-7.

[4] انظر: حميد الدين فراهي-حيات وافكار (حميد الدين الفراهي حياته وأفكاره)، ص 533-546.

[5] المرجع نفسه، ص 547-561.

[6] مشرق شعريات اور اردو تنقيدى روايات، ص 293-296.

أيوب الإصلاحي في مقدمة كتاب "مفردات القرآن" وفي مجموعة "مولانا حميد الدين- حيات وأفكار". وليس من المناسب ذكر خصائص هذه الكتب هنا، ولكن قبل الدخول في الموضوع تجدر الإشارة إلى تفسيره المعروف بـ"نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان". والمنهج الذي اختاره الفراهي في تفسيره ينعدم في العالم الإسلامي كله. وأنّ الفراهي قال عن سورة الفاتحة: "سورة الفاتحة جامعة كالديباجة، ففيها مفاتيح لجميع ما في القرآن".[1] وقال: إنّ لكل سورة عمودًا.[2] و"سورتا المعوذتين المدنيتان جملة خاتمة ذات اتصال بتمام القرآن"،[3] واللتان يدعو فيهما العبد ربه أن يرزقه الدوام والثبات على غرض القرآن الكريم، ويوفّقه للبقاء على التعاليم القرآنية، ويقويه لتجنب الأفكار الشريرة. ومن جهود الفراهي الجديدة في مجال التفاير أنه قسم السور القرآنية مع العناوين إلى تسعة أقسام لتسهل طرق فهم القرآن الكريم، وإليكم هذه الأقسام:

وأما التقسيم في الجملات على حسب الأحزاب فإنما كان من جهة المقدار وشيء من المطالب، وقد اختلفوا فيه. وليس ما نذكر من التقسيم مبنيًا على المطالب، بل المقصود في هذا الفصل هو التنبيه على موقع المدنيات من المكيات.

1. سورة الفاتحة وهي مكية، مع أربع مدنيات جملة واحدة. مع أنّ الفاتحة لها نسبة بمجموع القرآن). (1-5)
2. سورة الأنعام والأعراف مكيتان، مع الأنفال والبراءة المدنيتين. (6 - 9)
3. سورة يونس إلى سورة الأنبياء اثنتا عشرة سورة كلها مكية مع سورة الحج. (وهي عندي مدنية لما تتضمن الجهاد والقتال والهجرة). (10-22)
4. سورة المومنون المكية مع سورة النور المدنية، ولعلها مدرجة. (23 - 24)

[1] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 9/1.
[2] انظر: المرجع نفسه، 93/1.
[3] دلائل النظام، ص 93.

5. سورة الفرقان إلى سورة الم السجدة، ثماني مكيات مع مدينة واحدة، وهي سورة الأحزاب. (25-33)
6. سورة سبأ إلى سورة الأحقاف، ثلاث عشرة مكية، مع سورة محمد إلى سورة الحجرات، ثلاث مدنيات. (34 - 49)
7. سورة ق إلى سورة الواقعة، سبع مكيات مع سورة الحديد إلى سورة الطلاق عشر سور مدنيات. (50-66)
8. سورة الملك إلى سورة الإخلاص جملة واحدة، قد أدرج فيها سورة المطففين وهي مكية، وسورة النصر المدنية، وسورة اللهب المكية التي نزلت قبل الهجرة. (67-112)
9. سورتا المعوذتين المدنيتان، جملة خاتمة ذات اتصال بتمام القرآن وبما قبلها، مثل سورة الفاتحة ذات نسبة بما بعدها وبجميع القرآن. (113 – 114).[1]

والمأثرة الثانية الكبرى للفراهي هي أنه قال: إنّ القرآن الكريم قطعي الدلالة. وأما المراجع الإسلامية الأخرى فهي لا تتمتع بهذه المكانة. وتؤخذ هذه الفكرة من كتابه، وهو "الرسوخ في معرفة الناسخ والمنسوخ". وذلك أنه قد انتقد في تفسيره وكتبه الأخرى، الأحاديثَ الضعيفة. بينما المفسرون الآخرون فسّروا الآيات القرآنية بالروايات الإسرائيلية. وطريقة التفسير هذه لا يستحسنها الفراهي. وقد ناقش مولانا أسير الأدروي هذا الموضوع نقاشًا جيدًا في كتابه "تفسيرون ميں إسرائيلي روايات" (الروايات الإسرائيلية في كتب التفسير).[2] وذكر الفراهي في كتابه "التكميل في أصول التأويل" أصوله التفسيرية في ضوء الكتاب والسنة.[3] ومن أهم مؤلفاته كتاب "مفردات القرآن"

[1] انظر: دلائل النظام، ص 92-93.
[2] تفسيرون ميں اسرائيلي روايات (الروايات الإسرائيلية في كتب التفاسير)، ص 85-110.
[3] أنظر: التكميل في أصول التأويل، ص 69.

الذي لا يوجد له نظير في الذخائر القرآنية كلها. ولا بد من تعيين المفاهيم للمفردات القرآنية في ضوء نظم القرآن الكريم عنده، كما أنّ نظم القرآن ضروري لتفسير الآيات، فلا يمكن الوصول إلى مفاهيم المفردات القرآنية بمجرد الرجوع إلى المعاجم والقواميس. وجعل هذا الكتاب موضوع بحثه الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي نظرًا لأهميته العلمية. وطبع من دار الغرب، بيروت.[1] وفي ضوء نظم القرآن الكريم بيّن الفراهي معنى لفظ "الآلاء" فقال: "أجمعوا على معناه النعم، ولكن القرآن- وأشعار العرب- يأباه، والظاهر أنّ معناه الفعال العجيبة".[2] ومن مؤلفاته القيمة كتاب "حكمة القرآن" وتكلم فيه عن المراد بالحكمة عند المفسّرين بقولهم: "والحكمة هي السنة" فخالفهم الفراهي في ذلك، وبيّن معناها في ضوء القرآن الكريم، وقال: إنّ حكمة القرآن شيء آخر، وأنها نعمة عظيمة تحصل بتلاوة القرآن الكريم، والدعاء الدائم، ومواصلة التدبر والتفكر فيه.[3] والبحث القاموسي هو تعريف موجز للفراهي أثنى عليه رشيد رضا في مجلة المنار.[4]

وقد يهدف هذا المقال في السطور الآتية إلى إبراز ما في التعليقات القرآنية للفراهي من خصائص وميزات، وهي التي صدرت في مجلدين عام 2010م بعنوان: "تعليقات في تفسير القرآن الكريم". ما هي هذه التعليقات؟ كان الفراهي مولعًا بالتدبر في القرآن من بداية شعوره إلى نهايته. وأنّ ما قال المودودي عن الفراهي حق، وهو أنه قضى أكثر حياته في تحقيق معاني كلام الله تعالى، وألّف تفسيرًا محققًا باللغة العربية قلّ نظيره في مؤلفات المتقدمين.[5] وكان يلتزم صلاة التهجد وقراءة القرآن الكريم في آخر

[1] مفردات القرآن، (مقدمة الكتاب).

[2] مفردات القرآن، ص 25-26.

[3] إن كتاب "حكمة القرآن" قد نقله إلى الأردية خالد مسعود، ويمكن أن يلاحظ مقالي عن هذا الكتاب. "حكمت قرآن- ايك مطالعه، مجله علوم اسلاميه (مجلة العلوم الإسلامية)، ص 67-78.

[4] مجلة المنار، مصر، 2/12، 29 صفر عام 1327م، 22 مارس 1909م، ص 135-136.

[5] ترجمان القرآن، لاهور، 2/6، جمادى الآخرة، 1354هـ، ص 475.

الليل،[1] ويقرأ القرآن دائمًا بالتدبر والتفكر. وكانت حياته كلها مليئة بتأليف الكتب، وقرض الأشعار. وكانت هذه الآية أمامه دائمًا، وهي قوله تعالى: "أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ"،[2] ولذلك أنه لم يترك التدبر والتفكر في القرآن الكريم طول حياته. وبيّن مكانة القرآن على النحو التالي:

"أيها الطالب الواعي إني أضرب لك مثلًا للقرآن إنه كأرض طيبة ذات مروج وزروع وجنات وأنهار وأشجار، وفيها قرى وشوارع. وقد دخل فيها أنعام سوم وإنسان. منهم متفرج وعابر سبيل ومجتن ومقتطف وحاصد ومحتطب فتعطي الكل منهم حظًا وافيًا ولكن لا يهم أحدًا إلا شأنه فمن الذين يقرءون القرآن مقرئ ونحوي ومتفقه وجدلي ومتصوف وفلسفي. ومنهم رجال خشع وعباد طوع. قد قال الله تعالى فيهم: "تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ"[3] فالعبد الخاشع لا ينظر في أوامر القرآن كالمتفقه ولا في أنحاء البيان كالنحوي ولا في دلائله كالجدلي ولا في الصفات الإلهية كالمتصوف، بل هو لا يمرّ على آية إلا وقلبه منغمس في ذكر الله خاشع مقشعر".[4]

وكانت سلسلة التعليقات القرآنية على النحو الآتي، وهو أنه إذا طرأت أيّ نقطة على ذهن الفراهي أثناء تلاوة القرآن الكريم يكتبها على الصفحات مباشرة، ولهذا السبب أنه أمر بتجليد مصحفه بحيث توضع صفحة بيضاء بعد كل صفحة من المصحف الشريف ليمكن له كتابة ما ظهر من النتائج خلال تدبره في القرآن الكريم. وقد داوم على هذه السلسلة لتدبر القرآن طوال حياته. ومن الضروري أنْ أوضح هنا أنّ هذه

[1] علامة حميد الدين الفراهي، حيات وأفكار، ص 35-36.

[2] سورة الرعد: 19.

[3] سورة الزمر: 23.

[4] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 1/72-73.

التعليقات تكملة لتفسيره "نظام القرآن". وفي هذه التعليقات أعطى الفراهي مكانة رئيسة لنظم القرآن. ولأجل ذلك ذكر هنا المهائمي الذي هو من مؤيدي نظم القرآن.[1] "أنّ الفراهي لا يُعرض وجهة نظره في أي قضية قرآنية بدون نظم القرآن؛ لأنّ حقائق القرآن لا يمكن عرضها بدونه، وأنّ نظم القرآن هو مفتاح لفهم القرآن الكريم، والذي من خلاله يمكن التفسير الصحيح للآيات. وبرعايته يتبيّن أنّ كل سورة وحدة، كما أنها متماسكة تمامًا مع سورها السابقة واللاحقة.[2] وقد تجاهل عدد كبير من المفسّرين نظم القرآن، ولهذا ابتعدوا عن هدف القرآن، وجعلوا تفسير القرآن من الألغاز والأمور المعقدة. وقد بيّن أمين أحسن الإصلاحي تصور نظم القرآن لأستاذه الجليل الفراهي في مقالته "نظم القرآن" مع الأدلة. وكلامه يستحق النظر فيه للغاية. ومن ذلك أنّ إنكار نظم القرآن الكريم ظلم كبير عليه. والثاني أنّ الكنز الحقيقي لمعارف وحكم القرآن مخفي في نظمه.[3] وأنّ كتاب البروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي "نظم القرآن" دراسة تحليلية من الوثائق الأصيلة الداعمة لهذا الموضوع. وفي هذا الصدد قيل شيء جميل عن الفراهي وهو أنّ هناك فريقين من العلماء في ذلك. الأول: العلماء القليلون الذين يعترفون بالنظم في القرآن الكريم، وفي طليعتهم العلّامة حميد الدين الفراهي.[4] وأنّ البروفيسور الأعظمي ذكر نظم جميع السور

[1] إنّ المخدوم علي المهائمي مفسّر شهير، ويوجد تفسيره بعنوان: "تبصير الرحمن وتيسير المنان" وأنّ مولانا صباح الدين عبد الرحمن پرواز رتّب كتابًا قيّمًا على حياة علي المهائمي بعنوان: "حيات- آثار وافكار، أعرب فيه عن ميزات تفسيره. وهناك رسالة حول التصوف للمهائمي بعنوان "أجلة التأئيد في شرح أدلة التوحيد" نقلها إلى الأردية الدكتور محمد عارف العمري، وهي لا زالت مخطوطة، وتوجد عند البروفيسور عبد الستار الدلوي. ليت هناك سبيلًا لنشره. ومن المناسب أن أوضح هنا أن مولانا عبد الرحمن قد عرّفه في كتابه.

[2] نظم قرآن ايك تعارف (نظم القرآن دراسة تعريفية)، ص 16.

[3] المرجع نفسه، ص 37.

[4] نظم قرآن ايك تجزياتى مطالعه (نظم القرآن دراسة تحليلية)، ص 9.

في كتابه الذي يشتمل على خمس مائة وخمس وسبعين صفحة، وقال بناء على ذلك أنّ نظم القرآن الكريم حقيقة علمية لا ينكرها إلا من لديه قلة البصيرة، أو يكون دماغه خاليًا من التدبر والتفكر.[1] وأنّ كتاب الروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي في نظم القرآن له قيمة كبيرة. وعلاوة على ذلك أدخلت في هذا الكتاب الإشارات التفسيرية للتفسير الناقص لكثير من السور. كما أنّ المرتب حاول حقًا جعل هذا الفكرة الموجودة في تعليقاته موثقة بالأدلة من كتب الفراهي الأخرى.

ذكر البروفيسور عبيد الله الفراهي ثلاث نسخ لكتاب "تعليقات في تفسير القرآن الكريم". الأولى: وهي التي قام بكتابتها وترتيبها الإمام الفراهي نفسه. والثانية: نقلها مولانا أختر أحسن الإصلاحي لنفسه من النسخة الأولى. والثالثة: نقل منها أيضًا مولانا بدر الدين الإصلاحي لنفسه. والنسخة الأخيرة التي أشار إليها البروفيسور عبيد الله الفراهي بأنها لمولانا بدر الدين الإصلاحي ونقلت من النسخة الأولى، وهي في الحقيقة نسخها المولوي أبو سفيان الإصلاحي بيده، وقد سلّمها إلى الإمام الفراهي بالإضافة إلى خمسة آلاف روبية لطباعتها ونشرها.[2] فصدر هذا الكتاب "تعليقات في تفسير القرآن الكريم" إلى عالم الوجود اعتمادًا على النسختين الأخيرتين. وأما النسخة الأصلية التي كتبها الفراهي بيده ذهب بها مولانا أمين أحسن الإصلاحي إلى باكستان. وأنّ ما فعل به من ذهاب نسخة الفراهي إلى باكستان فهذا مؤسف جدًا تجاه الدائرة الحميدية. وحتى الآن لا يُعرف أين هذه الأمانة القرآنية، وفي يد من وقعت هذه الأمانة الثمينة؟ وهذا لا يزال طي الحجاب ولم يكتشف أنّ مسؤولي المدرسة الإصلاحية أرسلوني إلى مولانا أمين أحسن الإصلاحي للاستفسار عن طباعة هذا الكتاب "تعليقات في تفسير القرآن الكريم"، ولأطلب منه أن يكتب التقديم لهذا الكتاب. فبمجرد أنه سمع مني كلمة "طباعة" غضب غضباً شديدًا. وأنه

[1] المرجع نفسه ص 575.

[2] مكتوب شرف الدين بنام ڈاکٹر ابو سفیان اصلاحی (رسالة شرف الدين إلى الدكتور أبي سفيان الإصلاحي).

كان ذا مكانة في الهند وباكستان. فلغضبه شأن. وحينذاك كان خطاب له عند نصف النهار، فبدأ يلقي خطابه وهو يعبر عن مشاعره وانفعالاته بكل لطف ودون تردد. وواصل خطابه مدة ساعة عن طباعة هذه التعليقات مما يعني أنّ مسؤولي المدرسة لا يعرفون أستاذي الكريم العلّامة حميد الدين الفراهي، ولو عرفوا لما تحدثوا عن طباعة هذه التعليقات. وقد تلمذت على أستاذي الكريم، وتشربت من فكرة الفراهي، وكان هدفي الأصيل إيضاح هذه الفكرة ونشرها طوال حياتي. وفي ضوء هذه الفكرة رتّبت تفسيري "تدبر قرآن" وتلون جميع كتباتي وخطبي بلون هذه الفكرة، ولا وجود شخصيتي. بل وجودي هو نفس فكرة الفراهي، وهي أساس كتاباتي ومسودّاتي. ومن خلال "مجلة الإصلاح" قمت بنفخ الروح في هذه الفكرة، وقمت بتعريفها بين أرباب العلم والمعرفة عن طريق تفسير أستاذي "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، وكتبه الأخرى. يؤسفني أنّ مسؤولي المدرسة ما زالوا لا يعرفون فكرة الفراهي، بل يجهلونها، وأضاف قائلًا: أثناء إلقاء الكلمات الختامية أريد أن أنبّه مسؤولي الدائرة الحميدية على أن لا ينشروا هذه التعليقات القرآنية؛ لأنّ هذا سوف يشوّه صورة الإمام الفراهي. كنت أريد أن أطالب بالتعليقات القرآنية التي كتبها الفراهي بيده، ولكن خفت من عظم قدره، وصرت نادمًا وفاقدًا للوعي. ولو طالبت منه هذه التعليقات القرآنية لعله طردني من بابه. ومن الجدير بالذكر أنه قد استفاد بشكل كبير من هذه التعليقات في ترتيب تفسيره "تدبر قرآن" واستمد العديد من الأفكار فيما يتعلق بتأويل الآيات من نفس التعليقات. وأنه أشار في تفسيره "تدبر قرآن" إلى تفسير الفراهي، وإلى الكثير من كتبه الأخرى، ولكن لا توجد إشارة على الإطلاق إلى هذه التعليقات في تفسيره ولا في بقية مؤلفاته. وقد ناقش الإمام الفراهي في تفسيره العديد من النقاط التفسيرية نقاشًا علميًا على المنهج التفسيري فلا يوجد عُشرها في هذه التعليقات، ولكن في ضوء هذه التعليقات يمكن أن يقال إن الإمام الفراهي فسّر القرآن الكريم مختصرًا بأكمله. ومن الميزات الخاصة

لهذه التعليقات أنه تم فيها بيان عمود جميع السور، كما أنه تمت فيها مناقشة موضوعات السور. وقد توجد في التعليقات جوانب كثيرة تنبثق منها أشعة فهم القرآن الكريم. وأنّ فكرة البروفيسور الفراهي مبنية على الحقيقة، وهي أنّ الإمام الفراهي لم يتمكن من إكمال تفسيره، وتوجد في هذه التعليقات مجموعة ثمينة للجواهر والحكم التفسيرية.[1]

ستُذكر النقاط المهمة للتعليقات في هذا المقال المتواضع، ويُعرض قبل كلّ شيء ما ذكر من عمود بين السورتين، ومسائلها أمام القرّاء. وفي الحقيقة أنّ العمود هو الموضوع المركزي للسورة الذي تدور حوله السورة بأسرها. وأنّ العمود هو محور السورة. وهذه العمودات للسور هي نتيجة تدبر وتفكر الإمام الفراهي، وقال مبيناً عمود سورة البقرة: "فهذه (أي سورة الفاتحة) سورة الشكر، والبقرة سورة الإيمان".[2]

وأنّ سورة الشكر هي النغمة الأزلية والأبدية التي ملأت ظاهر الكون وباطنه، لا يوجد في الكون زاوية وهي خالية من هذه النغمة.[3]

وقد جاء في السطور السابقة أنّ سورة الفاتحة سورة الشكر، وأنّ سورة البقرة هي سورة الإيمان، وعمود سورة آل عمران الإسلام، وطاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هي الإسلام. وهذه السورة لها تشابه عميق مع السور التي سبقتها. وجاء في الحديث أنّ سورة البقرة وسورة آل عمران هما زهراوان. وأنّ الفراهي صرح أثناء إلقاء الضوء على موضوعات سور آل عمران صراحة علمية. وأن سورة البقرة هي سورة بدر، وسورة آل عمران سورة أحد. قال الفراهي مسلطًا الضوء على موضوعات سورة آل عمران: إنّ هذه السورة جاء فيها بيان البغض والحسد لليهود ومخالفي الإسلام. وفيها تم بيان الموضوعات الإجمالية لسورة البقرة، وأضاف قائلًا مبيناً الموضوعات:

[1] انظر: تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 6/1.
[2] المرجع نفسه، 10/1.
[3] المرجع نفسه، 10/1.

"ونصف هذه السورة في الاحتجاج على أهل الكتاب، والنصف الأخير في جمع شمل المسلمين وتثبيتهم وحثّهم على القتال وبشارتهم بالغلبة وتنبيههم على ما ألقوا من الشبهات لكي يفترقوا حين أصابهم القرح ويخالفوا النبي صلّى الله عليه وسلّم في تدبيره وحكمه كما فعلت أمة موسى عليه السلام فتاهوا أربعين سنة".[1]

وقد بيّن الفراهي هذه النقطة في كتبه "تفسير نظام القرآن" و"دلائل النظام" و"التكميل في أصول التأويل" بأنّ بعض السور أزواج، ومعنى ذلك أنّ هناك تشابهًا في موضوعات السورتين اللتين هما أزواج، وتشابهًا في أساليبهما وخطاباتهما وطريقة تقديمهما، ولا يوجد الفرق بينهما إلا مجرد الإيجاز والإطناب، كما قال الفراهي عن سورة الواقعة، وسورة الحاقة":

"هذه السورة تشبه الواقعة في أمور: هيئة القيامة، ذكر أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، ذكر القسم في الوسط على صحة القرآن، ذكر المكذبين في الأول والآخر والخاتمة على قول مماثل.[2] "إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ".[3]

وقال موضحًا أكثر لهذه النقطة:

"المزمل والمدثر توأمان في حديث النبي على التشمير، ودعوة الناس، والصبر والصلاة، والرجاء من القرآن الذي يهدي الله به من يشاء".[4] وقال: "سورة القيامة وسورة الدهر توأمان. في الأولى تفصيل ذكر الكفار وفي الثانية تفصيل ذكر المؤمنين".[5]

ومن أساليب القرآن المعروفة تصريف الآيات مما يعني أنّ هناك العديد من المواضيع

[1] المرجع نفسه، 1/86-87.
[2] المرجع نفسه، 2/380.
[3] سورة الواقعة: 95 – 96.
[4] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 2/393.
[5] المرجع نفسه، 2/401.

في القرآن الكريم عرضت في السور المختلفة بأساليب متنوعة وبشتى كلمات.[1]

وأنّ الحادثة الواحدة تم بيانها بآية واحدة في سورة ما، وبعض الأحيان عرضت بعدة آيات، بينما تم عرضها مفصلًا في حين من الأحيان. وفي الحقيقة أنّ تصريف الآيات هو الهدف الأصلي لتفسير الآيات. وأحسن تفسير عند الفراهي هو تفسير الآيات بالقرآن الكريم. وهذه الطريقة للتفسير هي الطريقة الأولى، وأرجح الطرق. وقد ناقش في ذلك الفراهي في كتابه "التكميل في أصول التأويل". وقد قدّم السير سيّد وجهة النظر هذه في كتابه "التحرير في أصول التفسير".[2] وقد تكلم البروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي عن هذه النقطة كلامًا قيمًا في كتابه "تفسير قرآن کے أصول ومسائل" (أصول تفسير القرآن الكريم وقضاياه).[3] وقد قدّم الفراهي أمثلة رائعة لطريقة التفسير هذه في تفسيره، ويمكن رؤية اللمحة الواضحة عن ذلك في كتابه "تعليقات في تفسير القرآن الكريم"، ويمكن العثور على الكثير من هذه الأمثلة في الكتاب المذكور. وقد ذكر في القرآن الكريم واضحًا فيما يتعلق بالشفاعة أنّ جميع الشفاعة تكون يوم القيامة غير مسموحة، فلا مجال لأحد أن يشفع شفاعة عند الله إلا بإذنه. وقد بيّن الفراهي حقيقة تصور الشفاعة بالآيات العديدة، وهي كالآتي:

"يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ"[4] أي لا مال عنده فيفتدي به، ولا خليل فيفديه به، ولا مولى فيشفع له. "لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ"[5] "قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ"[6] "يَشْفَعُ" [طه: 109- 111]. "يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ

[1] هذه النقطة قد ناقشها مولانا أبو الليث الإصلاحي الندوي مدللًا في مقالته "قصه آدم وشيطان اور تكرار" (قصة آدم والشيطان والمباحثة)، انظر: قرآنی مقالات، ص 158-194.

[2] التحرير في أصول التفسير، ص 36.

[3] فهم قرآن کے اصول (أصول فهم القرآن)، ص 271-332.

[4] سورة البقرة: 254.

[5] سورة البقرة: 255.

[6] سورة الزمر: 44.

وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠ *وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا". من الآية "ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ" إلى "مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ"[1] جملة معترضة في نفي الشفاعة وأن الله يجازي بنفسه ويرقي في الهداية، والأنبياء ليسوا إلا كالباب. الشفعاء لا يعلمون إلا ما شاء الله فلا ينبغي لهم أن يجترؤا بالقول إلّا بإذنه كما قال في الأنبياء: "وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ".[2] وذكر الله سعة علمه عند ذكر الشفاعة.[3]

وقد ذكرنا في البداية كتاب الفراهي الشهير "مفردات القرآن" الذي ذكر فيه الأصول والمبادئ المختلفة لتعيين معاني المفردات القرآنية التي ناقشها الدكتور محمد أجمل الإصلاحي مناقشة قيمة.[4]

وقد سبق أنّ أول المصادر عند الفراهي لتفسير المفردات هو القرآن الكريم. وأنّ كلمة واحدة ترد في مختلف السور بشكل عام، فإنّ الفراهي يحدّد معاني المفردات مع مراعاة كلّ هذه الآيات الكريمة، وجعل الأحاديث أيضًا معينة ومؤيدة في تحديد المعاني. كما قام بدراسة آراء المفسرين التحليلية فيما يتعلق بالمفردات، وبيّن أخطاءهم. وأنه يرى للوصول إلى معاني المفردات لا بد من الاستشهاد بخطب العصر الجاهلي مع الأشعار الجاهلية والإسلامية. وأنّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ولكنها لا تمتع باللسان العربي المبين، فلا بد من الاستشهاد بكلام العرب لفهم فصاحة القرآن، وعظمته اللغوية.[5] ويمكن أن تلاحظ ثقافة العرب، والقيم الاجتماعية، والدوافع الاقتصادية، والعوامل الدينية في أشعارهم. كما أن تلاحظ

[1] سورة البقرة: 255 – 260.
[2] سورة الأنبياء: 26 – 27.
[3] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 78/1 – 79.
[4] انظر: مفردات القرآن، ص 43-82.
[5] انظر: مفردات القرآن، ص 59-67.

فيها أسواقهم، وحروبهم، وتصوراتهم تجاه النساء، وأحوال أسفارهم، والقوافل التجارية، والسلاسل الزراعية. ويشهد في هذا الصدد على ذلك شهادة موثوق بها كتابُ "عرب وهند کے تعلقات" (العلاقات بين العرب والهند)[1] للعلّامة سيّد سليمان الندوي، وكتاب "رجال السند والهند" للقاضي أطهر المباركفوري، وكتاب "Religious Trends in Pre-Islamic Poetry"[2] للدكتور غلام مصطفى على أنّ كلام العرب يلعب دورًا أساسيًا في تفسير المفردات، وفي توضيح قيم العرب الاجتماعية. كما يظهر نفس الانطباع في هذا الصدد من مقالتي الطويلة "عربی شاعری میں حمد کا ارتقاء" وهو أنّ كلام العرب له دور مهم في تفسير الكلمات القرآنية.[3] ويقال عن الإمام الفراهي أنه حفظ جزءًا كبيرًا من كلام العرب أدلى بشهادته مولانا عبد الحي اللكنوي.[4] وأنّ فكرة الإمام الفراهي تستحق الاعتناء والاهتمام إلى حد كبير، وهي أنه إذا لم يتم تحديد معاني المفردا ت بشكل صحيح فإذًا يلزم أن يكون الانحراف والانزلاق عن تفسير الآيات. وقد كتبت مقالة عن ذلك في مجلة "تحقيقات إسلامي" بعنوان: "الاستشهاد بكلام العرب في تدبر القرآن الكريم". وكتبت مقالة ثانية حول الاستشهاد بكلام العرب في "مجلة علوم القرآن" بعنوان: "الاستشهاد بكلام العرب في تفسير الفراهي. عرضت فيها هذه الناحية بأن الفراهي كان متضلعًا في الاستشهاد بكلام العرب في توضيح مفردات القرآن وتنقيحه. وقد ورد في القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا ذكر السعادة الأخروية لعباد الله المتقين، والكلمة التي وردت عن تعبيرها في القرآن الكريم مرارًا كلمة "أفلح" أو "مفلحون". وبالإضافة إلى ذلك فقد جاء ذكر الخلود في الجنة لهم، أي أنهم يعيشون في الجنة خالدين فيها، وهذا هو مأواهم ومسكنهم دائمًا.

[1] انظر: عرب وهند کے تعلقات (العلاقات بين العرب والهند)، ص 268.

[2] Religious Trend in Pre-Islam Poetry, Asia Publishing House, New Delhi, 1971, P: 195.

[3] (45)عربی شاعری کا ارتقاء (رقي الأشعار العربية) ص 595-658.

[4] نزهة الخواطر، عبد الحيء اللكنوي، 8/229-230.

"وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ"[1] أي هم الفائزون بالجنة وهم الوارثون. أفلح: بقي. فهذا كقوله: "فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"[2] أي هم يرثون الجنة. وبين ذلك في قوله: "قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ"[3] قوله: "خَـٰلِدُونَ" بيّن معنى "ٱلْمُفْلِحُونَ".[4]

قوله تعالى في سورة الكهف: "وَإِنَّا لَجَعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا"[5] إنّ معنى "صعيدًا جرزًا" الأرض التي لا ينبت فيها شيء وهي يابسة ملساء. إذا لم يُهتم بمخارج الكلمات ومشتقاتها لم تتكشف حقائقها ومظاهرها، وإذا كانت تعنى بمعاني الكلمات الحقيقية يسهل فهم المراد منها، وإطلاقاتها واستخداماتها الأخرى. كل كلمة لها عالم، ولها تاريخها، ورمزيتها الخاصة. والكلمات تسافر (تتغير) باستمرار. يرى اللغويون أنّ الكلمة الواحدة تغيّر هيئتها أحيانًا، وتدور في المناطق واللغات المختلفة وشتى الأمم. وتصادم الثقافات المتنوعة وتداخلها ومن ثم يكون التعارف عليها. وأحيانًا تتشكل هيئة جديدة وعجيبة نحو كلمة "الشاهد" يستعمل لله سبحانه وتعالى، ولكن بعد سفر طويل يشرع يستخدم في معنى المحبوب. ويتبادر الذهن من كتابه "مفردات القرآن" أنه كان على دراية تامة بروايات الكلمات، ورفعها وخفضها (أشكالها)، ومراحلها

[1] سورة البقرة: 5.
[2] سورة البقرة: 38.
[3] سورة المؤمنون: 1-11.
[4] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 1/18-19.
[5] سورة الكهف: 8.

التاريخية. وكان يعرف حقائق المفردات العربية وكنهها، ولم يكن يعرف اللغة العبرانية فحسب، بل كان مسيطراً على أطرافها وجوانبها. وفي ضوء مباحثه اللغوية أقول بدون تأمل أنه كان متضلعًا في اللغة الفارسية. حيث أنه بيّن معنى لفظ "الآلاء" في ضوء كلام العرب بقوله "والظاهر أن معناه: الفعال العجيبة"، بيّن معناه بالفارسية لتوضيح الكلام أكثر بقوله: فارسيته: كرشمه".[1] وكذلك أنه اعتمد على اللغة الإنجليزية في مؤلفاته للتنبيه على تفسير الكلمات وبيان تفاصيلها، فإنه كان يعرف اللغة الإنجليزية ولطافتها. ولذلك أنّ النواب عماد الملك قدّم شخصية الفراهي لمراجعة ترجمة القرآن الكريم التي قام بترجمته إلى اللغة الإنجليزية سيّد حسين البلغرامي لأنّ الفراهي كان قادراً على كلتا اللغتين، ولكن من سوء الحظ لم يكتمل هذا العمل لسبب وفاة النواب عام 1926م. وفيما يتعلق بالدكتور شرف الدين الإصلاحي فمن المناسب أن نذكر أنّ الأمر عندما صدر من قِبل حكومة بوبال بالتعليقات على ترجمة القرآن الكريم باللغة الإنجليزية فقدّمت شخصية الفراهي أيضًا لهذا العمل.[2] ولعل من المناسب أيضًا أن نذكر هنا أن اللورد كرزن كان يزور السواحل العربية فعرض العلّامة شبلي النعماني اسم تلميذه العزيز للترجمة له.[3] وهنا لا بد من البيان لتوضيح معنى كلمة "جزر" وهو أنّ الفراهي قد بيّن الهيئة الحقيقية لها، يقول في معنى كلمة "جزر":

"جرز: (فض) بريدن. سيف جراز. رجل جروز معناه بسيار خور، وكذلك ناقة جراز. أرض مجروزة زمين كه علف اورا خورانيدا باشد. جرز: تنكسال. جرز: زمين بي نبات. (جرز) أي يابسًا، لا نبات عليه. قال تعالى: "أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا"[4] الآية. والأصل هو القطع. يقال: سيف جارز، أي

[1] مفردات القرآن، ص 126.

[2] ذكر فراهي (ترجمة الفراهي)، ص.

[3] حيات حميد، ترتيب: عبد الرحمن ناصر الإصلاحي، ص 34-35.

[4] سورة السجدة: 27.

مستأصل. الجروز: الأكول. يقال: للناقة: إنها لجراز الشجرة. سنة جرز: مجدبة. جرزت الأرض الجراد والشاء. امرأة جارزة: أي عاقر".[1]

قوله تعالى في سورة محمد: "فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ"[2] فهذا الخطاب للنبي صلّى الله عليه وسلّم أن يدعو الله تعالى ويستغفره له لذنبه، مع أنّ الأنبياء والرسل يكونون معصومين، ولا يُتصور عندهم الخطأ والنسيان. وهنا ورد لفظ "الذنب" لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ومن أساليب القرآن الكريم أنه يخاطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولكن في الحقيقة يكون المراد منه أمته. كذلك أنه صلّى الله عليه وسلّم يكون شريكًا مع أمته في الأعمال المختلفة، وفهذا هو المقصود هنا. كما كتب الإمام الفراهي:

"لِذَنۢبِكَ" هذا من كمال الشفاعة، وهو أن يوحد نفسه بالتائبين فيقول: يا رب اغفر لي ولمن تبعني. قد حكى الله تعالى عن دعاء نوح عليه السلام: "رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا"[3] وهكذا جاء في أدعية الأنبياء. قال دانيال 9: 20 "وأعترف بخطيئتي وخطيئة شعبي".[4]

وكذلك في سورة الفتح قوله تعالى: "لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ"[5] وهنا أيضًا خطاب للنبي صلّى الله عليه وسلّم. وهو أن يغفر الله لجميع خطاياه الماضية والمستقبلية. ومن الضروري لتحديد معنى "الذنب" هنا أن يكون النظر في آية سورة الشعراء وهي قوله تعالى: "وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ" وفيه إشارة إلى أنّ موسى

[1] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 1/381-382.
[2] سورة محمد: 19.
[3] سورة نوح: 28
[4] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 2/258.
[5] سورة الفتح: 2.

عليه السلام وكز الرجل القبطي فقضى عليه وهو كان من آل فرعون، ولكن فرعون جعل موسى عليه السلام قاتلًا لهذا الرجل القبطي فأراد قتله، فكان يخاف موسى عليه السلام من مواجهته، بينما ليس هناك ذنب لموسى، بل اتهم بالقتل فقط. وفي الحقيقة أنّ الذنب هنا في معنى الاتهام. ونظراً إلى ذلك يمكن أن يقال إن المراد بالذنب الذي ورد في سورة الفتح الاتهامات التي افترتها قريش ومعارضو الإسلام على النبي صلّى الله عليه وسلّم. وقال الفراهي في تأويل ذلك إنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم يحمل ذنب أمته ويشفع لها. وقد فسّره الفراهي مراعاة لوجهة النظر هذه:

"ولا يخفى أنّ الله تعالى جعل فتح مكة ذريعة لمغفرة الحجاج من المتقدمين والمتأخرين وبه أتم نعمته عليهم كما أنزل في حجة الوداع: "ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي"[1] وذريعة لنصره العزيز. وقد بيّن هذا التأويل في الآية (5) فإن أبيت إلا أن تريد بالذنب ذنب النبي على إضافة الذنب إلى فاعله، فعلى هذا أيضًا بقي التعليل كما كان، فإنّ الحج يحتّ الذنوب عمن أذنب. فعلى هذا "مَا تَقَدَّمَ" أي قبل الفتح".[2]

وورد في سورة الأنبياء "وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا"[3] ذكرت فيها عصمة مريم عليها السلام. كتب الفراهي موضحًا "أحصن فرجه":

"أحصن فرجه" تحصّن من السوء، كما يقال: سدّ الثلمة، ورتق الفتق، وجبر الكسر، حمى البيضة، فما يراد منه حقيقة أفراد الألفاظ. والفرج هنا بعينه لا يدلّ على مظنّة السوء، مثل الخلل، وقد استعمل للرجال والنساء ولفرجة رجلي الفرس".[4]

وفي بداية سورة النجم أثني على جبرئيل عليه السلام بقوله: "عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥

[1] سورة المائدة: 3.

[2] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 262/2.

[3] سورة الأنبياء: 91.

[4] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 414/1.

ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ"[1] قد شرح الفراهي كلمة "استوى" حيث كشف معناها. ولا بد من معرفة الكلمات المتضادة للوصول إلى حقائق الكلمات. وكانت هذه الخصوصية لدى الفراهي في أتم صورة. يقول الفراهي:

"الاستواء ضد الانحناء. استوى المرء: قام سويًا. استوى الليل: انتصف. كأنك رأيته ينبسط في جانبيه كما شبّهه امرؤ القيس بداية قامت واستوى ظهرها. "فَٱسْتَوَىٰ" أي ظهر له كاملًا، فلم يكن تخيلًا".[2]

قد تبيّن تمامًا أنّ المرجع الموثوق به لشرح وتحقيق الكلمات هو الاستشهاد بكلام العرب. وتتضح هذه الفكرة بأكملها في التعليقات أيضًا. وقد لعب كلام العرب دورًا كبيرًا في فهم القرآن الكريم، ومباحث السيرة. كما يمكن مشاهدته في كتاب سيرة ابن إسحاق، وكتاب "سيرة ابن هشام". ويتفوق القرآن الكريم من الناحية الأسلوبية واللغوية على سائر المتخصصين في اللغة العربية وآدابها. وهذا هو الفرق بين الوحي وغير الوحي. ولكن القرآن الكريم يتبع هذه التقاليد العربية القديمة، والميزات اللغوية للعصر الجاهلي التي كانت سائدة في العرب، أو في العهد النبوي. وقد حاول الفراهي شرح وتفسير الكلمات القرآنية في ضوء التعابير والأمثال العربية. وأنه استشهد في المباحث القرآنية بكلام العرب في كتابين مهمين له "أقسام القرآن" و"أساليب القرآن" علاوة على كتبه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" و"دلائل النظام" و"مفردات القرآن"، وهذا الأسلوب يوجد في كتابه "تعليقات في تفسير القرآن الكريم" أيضًا. وقد جاء في سورة البقرة قوله تعالى: "وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ" فكتب الإمام الفراهي مسلطًا الضوء على هذا التعبير:

"شبّه الهلاك بالماء الغمر، والذي يلقي نفسه فيه كمن يرمي نفسه في الماء فيلقي بيديه

[1] سورة النجم: 5-6.

[2] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 2/297-298.

فيه مكبًا، قال لبيد:

حتى إذا ألقت يدًا في كافر

وكانوا يشبّهون النجوم عند غروبها كمن يساقط نفسه في الماء، كما قال أعرابي: "خرجت حيث انحدرت أيدي النجوم وشالت أرجلها". وليس هناك يد ولا رجل ولكنه أراد سقوط النجم في المغرب. وقد فهم هذا من فسّره بقوله: "ولا تلقوا أنفسكم" ولكن لم يفهمه من ظن أنّ اليد بمعنى النفس".[1]

وقوله تعالى في سورة الكهف: "فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا"[2] وقد فسّر الفراهي السرب تفسيرًا جميلًا ظهر به معناه بوضوح، لاحظوا تفسيره في السطور التالية:

"سَرَبًا" ترجمة: "سرنك بناكر".[3] والمعقول عندي أنّ السرب مصدر. سرب سربًا: جرى جريًا سهلًا خفيفًا. سرى في الأرض: ذهب. قال تعالى: "وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ"[4] قال الأخنس بن شهاب التغلبي:

أرى كلّ قوم قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب[5]

ومنه يسمّى قطيع البقر والظباء: سربًا. ومنه: لجماعة النساء. سرّب الماشية: سرحها. وعلى هذا قال أبو حاتم في تأويل الآية: هو المصدر، كأنه قيل: ذهب ذهابًا. وقال الزجاج: إما هو مصدر، أو ظرف. أي اتخذ سبيله طريقًا لا يحيد عنه".[6] وورد هذا

[1] المرجع نفسه، 1/64-65.

[2] سورة الكهف: 61.

[3] هذه الترجمة باللغة الأردية، وهي في الحقيقة سرنگ، بالكاف الفارسية.

[4] سورة الرعد: 10.

[5] شرح ديوان الحماسة، أبو زكريا التبريزي، 1/303.

[6] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 1/386-387.

اللفظ في لسان العرب.[1]

وقوله تعالى في سورة البروج: "هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ"[2] وقد كشف الفراهي الأمنيات الكاذبة للكفار فلاحظوا في السطور التالية.

"أنت صدقت بما جاءك من حديث فرعون وثمود، ولكنّ الكافرين في تكذيب أي يكذبون بهذا الحديث. أو هم في تكذيب المنى، قال عبيد بن الأبرص:

المرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب[3]

أي هم مغترون ولكن الله تعالى محيط بهم. ولا بأس بتكذيبهم بما تقرأ عليهم من نبأ الجزاء، فإنّ الله رفع منزلته وحفظه (الانشقاق: 20-22)".[4]

توجد في أشعار العرب هذه الفكرة، وهي أنّ هذه الجبال الشامخة في الأرض ثابتة وراسخة لا يمكن أن تحيد عن مكانها، ولا يمكن أن تُحدى استقلاليتها، ولكن القرآن الكريم أبطل هذه الفكرة وقد ذكر مرارًا أنّ هذه الجبال تكون هشيمًا يوم القيامة، حتى تكون كالعهن المنفوش. كما أجاب النبي صلّى الله عليه وسلّم عن سؤال العرب. قال تعالى: "وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا"[5] ويُعلم بالنظر في الآية الكريمة أنّ القرآن الكريم أبطل فكرتهم هذه واستأصلها. وأيضًا مثل زهير هذه الفكرة للعرب. يعرف أهل العلم مكانة الفراهي العلمية وميزاته اللغوية. وأنه كان يعرف روح اللغة العبرانية، وكان متضلعًا في حقائقها. وبناء على ذلك أنه بيّن بسهولة معنى جبرئيل

[1] انظر: لسان العرب، مادة (سرب).
[2] سورة البروج: 17 – 20.
[3] شعراء النصرانيين، ص 608.
[4] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 430/2.
[5] سورة طه: 105.

بالعبرانية، وهو في الواقع مرادف روح القدس في العربية، قال الفراهي: "روح القدس معناه جبرئيل بالعبرانية".[1] وأنه قد شرح الكلمات العبرانية في مواضع متعددة. ويشهد على براعته في اللغة العبرانية كتابه الشهير "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" الذي نقله إلى اللغة الأردية مولانا أمين أحسن الإصلاحي باسم: "ذبیح کون ہے؟". وأرى من المناسب أن أصرّح هنا أنّ مولانا عنايت رسول، ومولانا أبا الجلال الندوي كانا من أمثال هؤلاء العلماء، وكانا متضلعين في اللغة العبرانية.

من ميزات تفسير نظام القرآن أنّ المؤلف ركّز فيه على تفسير القرآن بالقرآن بشكل مكثّف يمكن ملاحظة أمثلتها في تصانيفه. وهذه الفكرة جعلها موضوع بحثه في كتابه "التكميل في أصول التأويل". وفي هذا الصدد مقالة مهمة جديرة بالدراسة، وهي لمولانا نسيم ظهير الإصلاحي بعنوان: "تفسیر بالرأي اور تفسیر ماثور کے بارے میں امام فراهی کا نقطه نظر" (التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور وموقف الإمام الفراهي منه)،[2] ومقالة لمولانا أشهد رفيق الندوي بعنوان: "مولانا فراهی کے تفسیری اصول" (أصول التفسير عند الإمام الفراهي).[3] ومثّل هذه الفكرة للفراهي مولانا خالد مسعود في "تفسیر قرآن کے اصول" (أصول تفسير القرآن).[4] وبالإضافة إلى ذلك أنّ تلميذه مولانا أمين أحسن الإصلاحي وسّع هذه الفكرة في كتابه المعروف "مبادئ تدبر قرآن" (مبادئ تدبر القرآن). وقد ناقش البروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي مسألة "تفسير القرآن بالقرآن" بالأدلة بطريقة علمية في تفسيره "ميزان القرآن".[5] وأنه صرّح مستدلًا بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية بأنّ أول المآخذ والمصادر للتفسير هو القرآن نفسه،

[1] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 40/1.

[2] علامه حميد الدين-حيات وافكار، ص 336-346.

[3] المرجع نفسه، ص 347-356.

[4] أصول تفسير القرآن، ص 153-164.

[5] تفسير قرآن کے اصول ومسائل (أصول تفسير القرآن الكريم وقضاياه) ص 271-332.

وكذلك جعل الأحاديث النبوية من المآخذ والمصادر لتفسير القرآن الكريم، ولكنها لا تحتل على درجة قطعية الدلالة. وأنّ المفسرين ذكروا الأحاديث في كتبهم بدون التحقيق، مع أنّ مجموعات الأحاديث المختلفة مليئة بالأحاديث الضعاف. بل أكّد المفسّرون أيضًا على أن تكون الآيات الكريمة مقيدة بالأحاديث. وقد خطا الإمام الفراهي في هذا الموضوع بحذر شديد. وأنّ الأحاديث لا تحتل عنده درجة الحَكم على القرآن الكريم. ومن يحتاج لفهم القرآن الكريم إليها فيجب عليه أن لا يختار من مجموعات الأحاديث لتفسير الآيات الكريمة التي تهدم الأصل.[1] وهنا تقدم بعض الأمثلة من التعليقات، وقد اهتم الإمام الفراهي عند نقل الأحاديث برواتها وموضوعاتها دائمًا، كما كتب ضمن الآية الكريمة من سورة الحج وهي قوله تعالى: "ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ":[2]

"يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ" أي فيما اختلفوا فيه من الدين لما حبب إليهم البدع والأهواء كما جاء كثيرًا في القرآن. ومنه قوله تعالى: "وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ"[3] "فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ"[4] ذكر ابن جرير روايات طويلة باطلة ولم ينبّه على سخافتها. ومن ههنا يتبين لك سوء مذهب أهل الرواية. وكذب الرواية ظاهر من آيات القرآن والعقل".[5]

وأشار الإمام الفراهي إلى الأحاديث الموضوعة عند ذكر آية سورة النور، وهي قوله تعالى: "وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ"[6] "العذاب لا يراد به إلا ما سبق ذكره، وهو مئة جلدة.

[1] تفسير نظام القرآن، ص 39.
[2] سورة الحج: 56.
[3] سورة الشورى: 10.
[4] سورة الجاثية: 17.
[5] تعليقات في القرآن الكريم، 424/1.
[6] سورة النور: 8.

فالقول بالرجم لا يصح. ولا يبعد أنّ اليهود لما رأوا الإسلام قد جاء بتخفيف وكانوا يكتمون الرجم، وضعوا حديث "الشيخ والشيخة"[1] وحديث "قد جعل الله لهن سبيلًا"[2] تحريفًا لما جاء في سورة النساء. وأما قصة ماعز فللنكال. وقد صرح به في الحديث. والنكال ثابت من الآية: 34 من سورة المائدة".[3]

وقوله تعالى: "يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ" اعتمد المفسّرون في تفسير هذه الآية على الروايات الموضوعة التي تخالف القرآن الكريم[4] فقدّم الإمام الفراهي وجهة نظره عن هؤلاء المفسرين:

"وما روي أنهم يذهبون إلى ما كانوا يعبدونهم ويبقى المسلمون فيأتيهم الله ولا يعرفونه حتى يكشف لهم عن ساقه فيخرّون ساجدين فلا يصح؛ لأنه خلاف القرآن. فإنّ الناس كلهم يحضرون عند الله وكذلك آلهتهم".[5] كما في سورة يس، وهي قوله تعالى: "وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ".[6]

لقد بيّن الإمام الفراهي أهمية الصلاة بأساليب مختلفة في تعليقاته، والصلاة هي الفرق

[1] هذا الحديث ورد في غير واحد من كتب الحديث من ابن ماجة، وموطأ، ومسند الإمام أحمد، وسنن الدارمي، وصححه كثير من العلماء البارزين المتخصصين في هذا المجال، .ومنهم العلامة الألباني رحمه الله، انظر: مختصر إرواء الغليل برقم (2338)، وغيره كثير.

[2] هذا الحديث ورد في كثير من كتب الحديث من صحيح مسلم برقم (4509)، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، وشرح معاني الآثار، ومسند الإمام أحمد وغيره من كتب الأحاديث، كما صححه العلامة الألباني رحمه الله. انظر: صحيح الجامع الصغير برقم (5526).

[3] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 442/1.

[4] كان ينبغي له أن يشير إلى تلك الأحاديث الموضوعة المشار إليها في نصه مع ذكر المراجع.

[5] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 378/2.

[6] سورة يس: 51 – 53.

بين الإيمان والكفر، وقد ورد ذكر عظمة الصلاة في القرآن الكريم والحديث النبوي، والصلاة هي أساس الدين، وهي لا يجوز تركها في أي حال، إلا إذا كان يفقد الإنسان وعيه ولا يعقل ففي هذه الحالة تسقط الصلاة. وقد ذكرت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا. وبذلك تنشأ قربة لله تعالى، والثبات على الدين، وقوة الجهاد، وتثمر الأعمال الصالحة، وينتهي المنكر والفحشاء. وأنّ إقامة الصلاة تجلب الجمال والنور على الوجوه، ويناجي المصلي مع ربه. فتكلم الإمام الفراهي عن كلمة "الصلاة" مثيرًا للتفكير في كتابه "مفردات القرآن".[1] وقام بتوضيح مظاهر الصلاة. يقول مسلطًا الضوء على نظم سورة طه:

"نفهم من نظمها أنّ أول الأمر ذكر الله والتفكر في آياته وذكر نعمه، وذلك وهو الصلاة. ولذلك نزل القرآن. فنتلوه في الصلاة. ثم كمال الذكر والتذكرة والدعوة، ولذلك أيضًا نزل القرآن. ثم من مضمون الذكر ذكر القيامة".[2]

قد بيّن الإمام الفراهي معنى وحقيقة كلمة "الصلاة"، وأعرب عن جوانبها المختلفة. ولا شك أنّ الصلاة هي أكبر العبادات، ورأس التسبيحات يتقوى بها تدين الإنسان وورعه. ولذلك تكلم الفراهي في كتابه "الرائع في أصول الشرائع" كلامًا حكيمًا حول أهمية الصلاة وفوائدها. يقول: "إنّ الصلاة أول الشرائع بعد التوحيد أي الإيمان".[3] ولذلك جاء في القرآن الكريم عن الصلاة، فقال تعالى: "وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ"[4] قال الفراهي في تفسيرها: "فالصلاة يقرب إلى الرب، والتقوى يبعد عن سخطه".[5] وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تدلّ على أن لا يُغفل عن الصلاة

[1] مفردات القرآن، ص 209-216.

[2] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 397/1.

[3] الرائع في أصول الشرائع (رسائل في علوم القرآن، المجموعة الثانية)، ص 48.

[4] سورة البقرة: 45.

[5] الرائع في أصول الشرائع (رسائل في علوم القرآن، المجموعة الثانية)، ص 20.

قطعًا، وإنها عمل ذو الوقار فلا ينبغي أن لا تُلوّث بالقيم الجاهلية. وجاء في سورة الأنفال، قال تعالى: "وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً"[1] كأنّ معنى البيت العتيق هو إقامة الصلاة التي تجعل الإنسان موحّدًا، وتنفره عن الشرك. وبيّن مولانا أمين أحسن الإصلاحي أهمية الصلاة وفوائدها في "حقيقة الصلاة". وهي ترياق للشرك ذكره في "حقيقة الشرك" وليست الصلاة استكبارًا وتكبّرًا، بل هي تواضع وتذلل. وقد عبّر الإمام الفراهي عن آثار الصلاة في مواضع كثيرة في كتابه "تعليقات في تفسير القرآن الكريم":

"أصل معنى الصلاة: الإقبال والتوجه، وباطنها: الإنابة، كما قال: "وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ"[2] ويؤيده آيات أخر. والتسبيح هو الخشوع والسجود، وصلاتنا جامعة لكليهما. وقوله: "و لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ"[3] ناظر إلى مفهوم التسبيح والصلاة. وعلى هذا فجريان كل شيء له. وأوضاع كل شيء بحسب طباعه صور لخشوعه الظاهر وصلاته".[4]

قوله تعالى: "ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ"[5] قد حاول الإمام الفراهي إبراز أهمية الصلاة في ضوء هذه الآية، يقول:

"قد عدّ الله صفات المؤمنين، وبدأ بالصلاة وختم بها. وكذلك جعل في أول سورة المؤمنون. وفي سورة بني إسرائيل كذلك بدأ وختم بالتوحيد، وبذلك صارت الصلاة كحلقة مفرغة يبدأ منها ولا يخرج عنها جميع الأعمال الصالحة. وهذا يظهر بتأمل ما".[6]

[1] سورة الأنفال: 35.
[2] سورة الأعراف: 29.
[3] سورة النور: 42.
[4] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 447/1.
[5] سورة المعارج: 23.
[6] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 385/2 – 386.

ومن الواضح أنّ القضايا التي اهتم بها القرآن الكريم اهتمامًا بالغًا هي الصلاة التي إمامتها حنون للإنسان، وعندما تدخل هذه الروح داخل الإنسان يترك العداوة والخباثة والوساوس الشيطانية، وعدم الالتفات إلى خالقه. وأنّ الصلاة تجعل الإنسان واعيًا، ومتدبرًا في القرآن، ومخلصًا، وصاحب الحياء. وينمي فيه روح الصبر والشكر، وصوّر الإمام الفراهي الصلاة صورة جميلة عند تفسير الآية، وهي قوله تعالى: "وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ"[1] يقول:

"وجعل أساس الدين الصلاة، وأساس الصلاة ذكر اسمه، كما قال: "وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ"، أيضًا: "وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا".[2] تبتّل إليه: أي صلّ له كما يعلم من نظم الآية. والاسم واسطة لذكر الشيء، فذكر اسم الله ذكر الله، وهو أساس الصلاة. فأبقى ذكر الله حين تعذّرت الصلاة بصورتها الكاملة، وأمر به حين أمكنت تنبيهًا على أنه هو الأصل".[3]

وقد بيّن الفراهي معنى الشكر في مواضع مختلفة من تعليقاته. وأنّ متطلبات القرآن الكريم والإيمان والإسلام هو أن يشكر الله تعالى دائمًا، وأنّ الشكر له أنماط مختلفة، وتتحقق مقتضياته بالعبادات والتسبيحات. وأنّ طاعة الوالدين من الشكر، وتدريس المدرس، والتجارة مع الأمانة، وتلاوة القرآن الكريم، والدعوة إلى الدين، وأداء الشهادات كلها من أنماط الشكر لله سبحانه وتعالى. وقال الفراهي: إن سورة الفاتحة هي سورة الشكر. فهو أصل الإيمان وأساسه. والشكر جامع للدين أعني الشرائع والإيمان، أي الكتاب والحكمة. وقال مزيدًا في تفسير سورة الفاتحة: الشكر أول الحكمة، والشكر بناء الإيمان، لم تظهر وحدانية الله تعالى بدونه، وهو يقي الإنسان من

[1] سورة الأعلى: 15.

[2] سورة المزمل: 8.

[3] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 393/2 – 394.

عذاب الله تعالى، قال تعالى: "مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ".[1]

وذكر الإمام الفراهي قصة آدم والشيطان في سورة البقرة، وأوضح أنّ الشكر ينجي الإنسان من الكبر. وينشأ به التواضع في الإنسان، ويكون به الشعور بعظمة الله تعالى وكبرياء الخالق. وبذكر أسمائه الحسنى تطمئنّ قلوب البشر. ويوجد في تعليقات الفراهي الإشادة بالشكر. وأنّ أسلوب بيانه يغرس عاطفة الشكر في قلوب القارئين، كما أنه عكس الشكر بهذا الطراز:

"روعي جانب الإنذار في ذكر قصة آدم، وأمر الخلافة في سورة البقرة. موقع قصة آدم مع الشيطان هو استكباره عما أمر به وعدم شكره. وبين الكبر وعدم الشكر لزوم. والشكر مفتاح الطاعة كما أنّ الكبر أم المعصية. وأسلوب هذه القصة يدلّ على أنّ الشيطان اللعين عمد في إفساده إلى أصل الدين ومركزه وهو الشكر. فإنه قد وجد في نفسه أنه إنما غوى لعدم شكره".[2]

ويتنعم الإنسان بنعم الله تعالى في كل لحظة، ولو توقف إنعامه وإحسانه ولو لثانية واحدة فإنه يموت. ولكن كثيرًا من الإنسان مستغرقون في الكفر والضلال والانحراف والعصيان حتى أنهم لا يرون نعم الله تعالى على أنفسهم. ولقد ورد في القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا أنّ الله تعالى سخّر للإنسان كل ذرة من ذرات الكون. وكل شيء من البحر والبر مأمور في خدمات الإنسان. وقد ذكّر الله سبحانه وتعالى الإنسان مرارًا بأن يتزين بالشكر ويرطب به لسانه، ويجعل العبادات والتسبيحات عادة حياته. وما أسمى هذه الفكرة للفراهي وهي أنّ الشكر يزرع في القلب السليم، والكفر والمعصية ينشأ من القلب الخبيث، وقال أيضًا: إن الشكر باب الإيمان.[3] وأيضًا جعل

[1] سورة النساء: 147.

[2] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 209/1.

[3] انظر: تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 210/1.

كفران النعمة موضوع بحثه بالإضافة إلى الشكر، ويبرز هذا الجانب في التعليقات، ونقل قوله تعالى: "بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ".[1] وقال: يطبع على قلوب الإنسان بالكفر والمعصية وكفران النعم، فلا يمكن أن يصدر عنهم الخير. ومن الكفر عدم معرفة المنعم والتجاهل عن المحسن. وذكر الفراهي مسلطًا الضوء على قصة آدم أنّ إحدى الصور الحقيقية لكفران النعم الإهمال لحق مالك الملك. وقد بيّنها بكلماته التالية:

"ومن هنا ظهر أنّ الكفر من الكفران، قال تعالى: "وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا". وقبله: "إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ".[2] والكفران من التكبر، فإنّ الكبر يمنع عن قبول المنة فيأخذ كالمستحق ولا يرى على نفسه حقًا للمنعم مع علمه بالإنعام. ومن الكفر أيضًا استحقار النعمة وتركها يشبه الاستحقار. ومن ههنا يقبح تحريم ما أحل الله".[3]

ومن أوضح جوانب التعليقات أنّ الإمام الفراهي بيّن فيها علامات التقوى، وقد ذكرت في القرآن الكريم مراحل التقوى المختلفة، ووضحت فيه صفات المتقين وأخلاقهم. وفي الحقيقة أنّ التقوى هي معرفة الله تعالى التي تنصحنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دائمًا، وأنّ التقي إنسان حسّاس يهتم بحفظ حدود الله تعالى. والتقوى عبارة عن طهارة القلب وصفائه، وأنّ القرآن الكريم أكثر فعالية لتطهير القلب، وأنّ تطهير القلب ليس له علاقة بالصوفيين والأولياء، وزيارة القبور والأديرة. وأنّ كتاب الهداية يمشي مع التقوى؛ ولذلك وُضح في بداية القرآن الكريم أنّ الهدى إنما هو للمتقين. وقد بيّن الإمام الفراهي تفسير "هدى للمتقين" حيث فيه الطلب والرغبة والإنابة والطاعة.

"قوله تعالى: "لِّلْمُتَّقِينَ"[4] يبيّن أنّ التقوى شرط لتأثير الهدى، والكبر سدّ دونه كما تعلم

[1] سورة النساء: 155.
[2] سورة الإسراء: 27.
[3] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 209/1 – 210.
[4] سورة البقرة: 2

من قصة إبليس. وعلى هذا شواهد كثيرة في القرآن. والتقوى هي الخوف الناشئ من معرفة العدل وعزة الربّ، وسلامة القلب من الحمق والهوى. ثم هي منبع جميع الأعمال الصالحة، فهي مثل صلاح الأرض الطيبة. بعد هذه الجملة عرف التقوى حتى قال في آخر الباب: "وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ".1 "هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ".[2] أي من ينتفع بالهدى. وقال أوضح من ذلك: "وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ".[3] أي من ينتفع بالموعظة فالموعظة في الحقيقة له. وأوضح من ذلك: "ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ"[4].[5]

ووضح الفراهي التقوى مزيدًا فقال: "فالتقوى جامعة للصلاة والزكاة معًا".[6] وأنّ جميع العبادات والأعمال بدون التقوى ليس لها أثر، ولا روح فيها. والتقوى تصقل القلوب للطيبات، وتمنح الجمال الداخلي والخارجي للإنسان، وتفكر في كل ما في العالم من شيء بأنّ هذه الآيات الكونية تمنح الإدراك والمعرفة. وقدّم الفراهي أفكارًا ثمينة جدًا في تفسير الآية من سورة يونس، وهي قوله تعالى: "لَّآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ".[7]

"لَّآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ" فإنّ من يخاف الشر فهو دائم التيقظ ليجتنب المعاصي، فمن عادته النظر والحذر وعدم الغفلة. وأيضًا يخاف ربه، فهو دائم التيقظ. وأيضًا يوقن بالحكمة المشهودة في الخلق فيوقن بالمجازاة".[8]

وأنّ الإمام الفراهي وضّح "سنة الله، وفطرة الله" في التعليقات. ومن الضروري أن

---

[1] سورة البقرة: 177.

[2] سورة البقرة: 2.

[3] سورة آل عمران: 138، وسورة المائدة: 46.

[4] سورة هود: 114.

[5] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 15/1.

[6] المرجع نفسه، 17/1.

[7] سورة يونس: 6.

[8] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 259/1 – 260.

أصرّح في هذا السياق أنّ "قول الله وكلام الله" لا يوجد تناقض بينهما ولا فرق عند السير سيّد، ويعتقد أنّ الدنيا تجري على سنة الله تعالى. ولا يمكن أن يُرفع عيسى عليه السلام، وأنّ فكرة قصة المعراج غير صحيحة. وأنّ الجنة وجهنم شيء رمزي، وكذلك يوجد العديد من مثل هذه التصورات عند السير سيّد أحمد خان، كأنه لا يعتقد بخوارق العادات أو المعجزات. ولا يرى أنّ الملائكة يأتون في المعركة من السماء.[1] وأنّ الإمام الفراهي لا يتفق مع أفكاره المذكورة قطعًا، وأنه ذكر في كتابه "القائد إلى عيون العقائد" أنّ هذه التصورات للسير سيّد لا أتفق معها، كما أنه فسّر قوله تعالى: "وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا".[2] على النحو التالي:

"وظنوا أنّ المراد من سنة الله طبائع الخلق كلها. فالنار مثلًا لا بد أن تحرق الإنسان، فعادات المخلوقات غير متبدلة. وعلى هذا أنكروا المعجزات. وغرّهم أقوال من سمّى هذه الطبائع سنة الله. وأول من استعمل كلمة "سنة الله" في هذا المعنى هم أصحاب رسائل إخوان الصفا. وتبعهم صاحب "حجة الله البالغة". وتأويل القرآن إنما يصح حسب استعماله".[3]

ووردت قصة موسى عليه السلام، وفرعون في القرآن الكريم عدة مرات، وإلى جانب معجزاته المتنوعة ذكرت هذه المعجزة، وهي عندما طارد فرعون وجيشه موسى عليه السلام وأصحابه، فجعل يهاجر موسى وأصحابه من أرض فرعون، ولما سافر للهجرة وقد كان أمامه البحر فلم يكن يسهل عبور البحر المتموج العميق لهم، فبأمر من الله تعالى ضرب موسى بعصاه على الماء فانشقّ البحر إلى قسمين وعبروا البحر يبسًا، فلما أراد فرعون وجنوده أن يتبعوا موسى وأصحابه فأغرقهم الله تعالى. وأنّ

[1] معجزات قرآنی اور سر سید، ص 30-54.

[2] سورة الأحزاب: 62، وسورة الفتح: 23.

[3] القائد إلى عيون العقائد، ص 165، وفي ملكوت الله، ص 35-38، وتعليقات في تفسير القرآن الكريم، 98/2.

السير سيّد لم يصدق هذه القصة، بل قال، إنها ليست إلا مدًا وجزرًا. وهذا هو الرأي للإمام الفراهي أيضًا، وأنّ معنى قوله تعالى: "وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوٗاۖ".[1] أي ساكنًا. "الرهو" هو السكون. وسكون البحر يكون بسكون الريح.[2] وكذلك ذكر الله هذه القصة، وقال تعالى: "وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ".[3] وقال الفراهي: إنّ المراد بـ"بكم" في الآية الكريمة حين دخولكم البحر.[4] فهنا أيضًا يعبر الفراهي عن انطباعه في معنى هذه الآية أي: أننا قسمنا البحر عند دخولكم فيه إلى قسمين بالهواء، كأن عصا موسى ليس لها دور في ذلك. والسبب الأصلي لذلك هو الهواء. وقد سلّط القرآن الكريم الضوء على الرياح بطرق مختلفة.

وقال تعالى: "وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي".[5] والمراد بذلك عند المفسّرين عمومًا هو سورة الفاتحة التي تشتمل على سبع آيات. وتثنى مرارًا في الصلاة، وقد أشمل المفسّرون سورًا أخرى أيضًا في السبع المثاني، كما كتب الإمام الفراهي:

"في القرآن سور كرّرت، وهي بمجموعها أعظم القرآن، وسورة الفاتحة من هؤلاء. وهذه المكررات سبع: (1) الحمد لله 5. (2) الـ 13. (3) ط 4. (4) حم 7. (5) يا أيها المزمل، والمدثر. (6) سبح، ويسبح. (7) قل. ومجموع ذلك قرآن عظيم. وإن صحّ ذلك فسورة الفاتحة من المثاني. وقد جاء في القرآن أنّ القرآن كتاب متشابه مثاني، فيشبه بعضه بعضًا. ويحتمل أيضًا أن يكون في القرآن أكثر من سبع مثانٍ، فإنّ الآية إنما تدلّ على كون السبع حين نزلت هذه الآية. وعلى كلا التأويلين ليس المراد من السبع سبع آيات، بل المراد بها سور.

---

[1] سورة الدخان: 24.

[2] انظر: تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 236/2.

[3] سورة البقرة: 50.

[4] انظر: تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 35/1.

[5] سورة الحجر: 87.

والمشهور من التأويل أنها سبع آيات الفاتحة. وهذه التأويلات على فرض صحة ذلك الحديث، وإلا فالسبع المثاني محتملة لتعينات أخر، مثل سبع ال حم، وأربع عشرة سورة من سورة البقرة إلى سورة الحجر".[1]

وقد قدّم مولانا أمين أحسن الإصلاحي على خلاف أستاذه والمفسّرين الآخرين وجهة نظره الجديدة، وهي أنّ الله تعالى قسم القرآن الكريم إلى سبعة أقسام. وجعل عمودها موضوع بحثه. وأنّ الإمام الفراهي قسم القرآن الكريم بتدبره إلى تسعة أقسام، وأشار إلى ميزاته وعناوينه. وأنّ الإصلاحي قدّم الآية الكريمة رقم 23 من سورة الزمر.[2] وقد ناقش ذلك مستنصر مير في كتابه، وأنّ هذه الفكرة لمولانا أمين أحسن الإصلاحي جديدة. ولكنه عزز هذه الفكرة بالأدلة. وقد قمت بمقارنة الأقسام المعينة التي قام بتقسيمها الإمام الفراهي وأمين أحسن الإصلاحي في مقالتي بعنوان: "سورتوں کے گروف کے سلسلے میں فراہی واصلاحی نقطۂ نظر کا جائزہ" (دراسة أفكار الفراهي والإصلاحي في تقسيم السور إلى مجموعات).[3] وقد جعله مولانا الإصلاحي موضوعًا للنقاش في تفسيره "تدبر قرآن". وتستحق فكرته هذه الاهتمام والتأمل، وفي هذا الصدد يكتب الإصلاحي":

وقد توجد في التعليقات نقاط كثيرة، وهي عمومًا بعيدة عن متناول المفسرين. وأنّ الفراهي لم يعترف بتفسير الآيات بمساعدة التفاسير، ويضمن تفسير الفراهي وتعليقاته للنتائج الفكرية. وآراؤه التفسيرية لا أساس لها من الصحة. وقد أعطاه الله تعالى نعمة التدبر والتفكر في القرآن الكريم، وكان معتادًا على قيام الليل، والتدبر في القرآن طوال حياته، وكانت تنهمر رموز القرآن عليه من الله تعالى. كان يتلو القرآن الكريم قبل صلاة الفجر بوقت طويل، ومن ثمرات هذه التلاوة والتدبر في القرآن الكريم ظهر

[1] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 1/336-337.

[2] تدبر قرآن، 4/376-378.

[3] دراسة فكرة الفراهي والإصلاحي في مجموعة السور، ص 111-221.

إلى حيّز الوجود نظام القرآن والتعليقات القرآنية. ويتميز في بعض آرائه التفسيرية عن المفسّرين الآخرين. مثلًا ورد قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا".[1] فللعلماء في ذلك آراء كثيرة، ومعناها عند الفراهي "الطاعة الكاملة، أي لا يوجد فيه أدنى العصيان".[2] ويقدّم إليكم بعض النقاط المهمة من التعليقات:

قوله تعالى في سورة الرعد "لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ".[3] والمراد بـ"المعقبات" عند الفراهي "المعقبات الملائكة الذين يحفظونه بأمر الله". وقال الإمام الرازي: معقبات بالليل والنهار. وهذا لا يراه الفراهي صحيحًا.[4]

وجاء في سورة الرحمن ذكر جنتين أولًا، قال تعالى: "وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ".[5] وبعد ذلك قوله تعالى: "وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ".[6] فما الفرق بينهما؟ وما طبائع نفسية وراء زينتهما. وقد بيّن الإمام الفراهي الفرق بينهما بشكل واضح. وقال: إنّ جنتين أوليين روعي فيهما ثقافة فارس، وجنتين أخريين لوحظ فيهما ثقافة الشام والعرب. ولا يمكن أن يقول هذا إلا من له دراية تامة على لطافة كلتا الحضارتين. ولعله لم يكد يخفى عليه جانب من جوانب الحضارة العربية، وأما حضارة فارس فكانت كل ناحية من نواحيها في نظره، ويشهد على ذلك ديوانه الفارسي "ديوان پهلوى"، ومن شواهدها أيضًا أنّ العلامة شبلي النعماني استعان كثيرًا بتلميذه (مولانا الفراهي) في ترتيب كتاب "شعر العجم" و"سوانح مولانا روم" (ترجمة مولانا روم)، ويمكن أن يلاحظ ذلك في رسائل شبلي.[7]

---

[1] سورة النحل: 120.

[2] التكميل في أصول التأويل، ص 59.

[3] سورة الرعد: 11.

[4] انظر: تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 314/1.

[5] سورة الرحمن: 46.

[6] سورة الرحمن: 62.

[7] مولانا فراهي مكاتيب شبلى كے آئينے ميں( مولانا الفراهي في ضوء رسائل شبلي)، ص 442-452.

لاحظوا كلام الفراهي عن أربع جنّات":

"ذكر الله تعالى جنتين ثم جنتين، فهل فيهما فرق؟ نعم، جنتان مثلهما مثل جنات فارس، وجنتان مثلهما مثل جنات الشام والعرب. في الأوليين عين جارية، وجنى دان، ونساء قاصرات الطرف مع أنها نساء المدن، وفرش استبرق. وفي الأخريين عين متدفقة بين الجبال ونخل ورمان ونساء سود العيون ساكنات في الخيام، ورفرف خضر عبقري. ألا ترى أنّ الحمرة والاستبرق للفرس، وليس لهم السرير والنخل والرمان والخيام والعبقري كما هي للعرب مع الحور العين وميلهم إلى الخضرة. والشواهد على هذه الأمور في غير هذا المقام. واعلم أنّ الله يجمع لهم هذه الأربع، وهكذا ذكر في سورة الدهر فجمع ما للعرب وما للعجم، فانظر هناك ولكن جعل هذه النعم هناك أيضًا لمن خاف الله".[1]

إنّ هذه التعليقات التي قام بها الإمام حميد الدين الفراهي ليست إلا إشارات واختصارات إلا أنها تظهر كتفسير مختصر مفيد. ويوجد فيها كثير من الأفكار القرآنية، ويُفهم بها فكرة الفراهي، وإذا أجريت دراسة مقارنة بين تفسير "تدبر قرآن" والتعليقات سيُعلم بها أنّ مولانا أمين أحسن الإصلاحي قد استفاد كثيرًا من هذه التعليقات، ولكن من المؤسف أنه لم يذكر ذلك في تفسيره مع كونه مشتملًا على تسعة مجلدات، ولا في أيّ كتاب من كتبه. هنيئًا لمولانا أشفاق أحمد الإصلاحي رحمه الله، والبروفيسور عبيد الله الفراهي على ما تحملا عبء طباعتها، واليوم لم يتم نشر هذه التعليقات فحسب، بل قام بترجمتها البروفيسور عبيد الله الفراهي ونشرها،[2]

[1] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 314/2.

[2] من المهم أن أوضح هنا بشيء من التفصيل، وهو أنه لم تحذف من التعليقات إلا تلك الأشياء التي يمكن بها أن يُنتقد الإمام الفراهي. وهذا ليس بصحيح علميًا، وأن البروفيسور عبيد الله الفراهي أخرج من المقالات الكثيرة تلك المباحث التي اختلف فيها عن مولانا الفراهي عند ترتيب كتاب "علامه حميد الدين فراهي- حيات وأفكار". وأنّ الإمام الفراهي عالم جليل القدر، ولكن يوجد مجال للخلاف منه، كما اختلف عنه مولانا أمين أحسن الإصلاحي في كتابه "تدبر قرآن" (تفسير تدبر القرآن)، والبروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي في كتابه "ميزان القرآن".

إلا أنه قد حذفت في النسخة المترجمة أشياء كثيرة كانت غير مناسبة. ومن المستحسن أنه تمت الإشارة في أماكن كثيرة من هذه التعليقات إلى مؤلفاته الكثيرة للاستفادة من أفكاره الأخرى. وكان من الأفضل وضع هذه المراجع في الهوامش، وهذا هو من أصول الترتيب والتدوين. وأيضًا كان من مناهجه أنه يشير في كتابه إلى كتبه الأخرى، ولكنه لم يذكر الصفحات. ومن نواحي هذا الطبع أنه قد ذكرت الأفكار التفسيرية والنحوية لمولانا محمد أمانت الله الإصلاحي في مواضع عديدة من هذه التعليقات، وهي تنافي أصول الإعداد والترتيب. وأنبه هنا على أنّ مولانا أمين أحسن الإصلاحي لم يرد ذكره في التعليقات كلها ولو مرة واحدة، ولا أُشير إلى تفسيره، وهذا ليس من المستحسن، ويبدو أنّ هذه نتيجة فكره خاصة، مع أنّ مولانا أمين أحسن الإصلاحي قد قضى كل لحظة من حياته في تعريف فكرة الفراهي ونشرها. ولا يمكن أن يوجد أحد بديله تجاه هذه الخدمة. وأنّ خطبه وأفكاره التفسيرية لم تشتمل إلا على فكرة الفراهي، وبالإضافة إلى ذلك أنه جعل تفسيره "تدبر قرآن" ثمرة من ثمرات أستاذه المكرم حميد الدين الفراهي، ومن انطباعاته المتنوعة يظهر أن وجوده معدوم بدون فكرة الفراهي، لاحظوا كلماته: "سيكون من دواعي فخري أن أقول: "إن كل ما في هذا الكتاب ليس إلا ما استفدت من أستاذي حميد الدين الفراهي رحمه الله؛ لأنّ هذه هي الحقيقة الأصلية".[1] وقد جعل البروفيسور عبيد الله الفراهي مولانا أمين أحسن الإصلاحي بعيدًا عن هذه التعليقات، ولو ورد ذكره فيها لزادها قدرًا وقيمة. وهذا من البروفيسور شيء مؤسف.

وإذا نظرنا إلى مراجع هذه التعليقات نجد أنه استفيد فيها من القرآن الكريم، والكتب السماوية، وكتب الأحاديث، وذلك علاوة على تفاسير الشاه عبد القادر، والإمام الرازي، وابن جرير، والقاضي عياض، والبيضاوي، والزمخشري، وفي الغالب انتقد الإمام الفراهي أفكارهم وآراءهم، وبالإضافة إلى ذلك أنه ذكر فيها آراء النحويين،

[1] تدبر قرآن، 1/غ.

وبيّن ما فيه من النقائص التي ذكرها الدكتور أبو سعد الإصلاحي في مقالاته.[1] وكذلك درس أفكار العلامة ابن تيمية رحمه الله تعالى، وذكر في تعاليقاته تفسير مفاتيح الغيب مرارًا وتكرارًا، وكما رجع إلى تاريخ الطبري مع اعتنائه بـ"لسان العرب" لابن منظور (رحمهم الله جميعًا). وقد سبق أنه استعان بدواوين شعراء العصر الجاهلي في تعيين معاني المفردات. وكذا أنه استفاد من الآراء والأفكار النحوية لعكرمة، وابن زيد، وإبراهيم النخعي، والضحاك، ونقد فيها بعد أن قدّم دلائل لبعض آرائهم وأفكارهم. ومن المهم أن أوضح هنا أنّ أساس أفكار الإمام الفراهي مبناه على التدبر والتفكر الذاتي بخلاف المصادر والمراجع. وهناك كثرة نقل المصادر والمراجع في العصر الحاضر، وعليها اعتماد تأليف الكتب وترتيبها، كما أنه يتم إعداد كتب التفسير من التفاسير السابقة. وأنّ تفسير الإمام الفراهي، ومؤلفاته، وتعليقاته خالية من هذا المرض.

[1] يمكن ملاحظة ميزات وخصائص لكتاب "تعليقات في تفسير القرآن الكريم" في ضوء المقالات الثلاث التي كتبها الدكتور أبو سعد الإصلاحي حول التعليقات، وهي: 1-مولانا فراهي کے قرآنی حواشی ایك تعارفی مطالعه (تعليقات في تفسير القرآن الكريم دراسة تعريفية)، ششماهی علوم القرآن (مجلة النصف السنوي)، علي كره، يوليو - ديسمبر 2023م، 2/28، ص 85-104. 2- تعليقات فراهي میں احادیث سے استفاده (الاستفادة من الأحاديث في تعليقات الفراهي)، ششماهی علوم القرآن، علي كره، يوليو - ديسمبر 2021م، 2/36، ص 49-74. 3- قديم مفسرين کے تسامحات اور مولانا فراهي (الأخطاء عند المفسرين القدامى وموقف الفراهي منها)، ششماهی علوم القرآن، علي كره، يوليو - ديسمبر 2023م، 2/38، ص 71-91.

## المصادر والمراجع


1. القرآن الكريم.
2. أصول تفسير قرآن، الإمام حميد الدين الفراهي، ترتيب وترجمة: خالد مسعود، قرآن وسنت اكيڈمی، نيو دلهي، الطبعة الأولى، أكتوبر 2003م.
3. الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ(نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1420هـ-1999م.
4. التحرير في أصول التفسير، السيّد أحمد، نول كشور اسٹيم پريس، لاهور، 1913م.
5. تدبر قرآن (تفسير تدبر القرآن)، مولانا أمين أحسن الإصلاحي، مركزى انجمن خدام القرآن، لاهور، الطبعة الثالثة، 1976م.
6. تعليقات في تفسير القرآن الكريم، الإمام عبد الحميد الفراهي، إعداد: الدكتور عبيد الله الفراهي، مراجعة: الشيخ أمانة الله الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، يوبي، الهند، الطبعة الأولى، 1431هـ-2010م.
7. تفسير قرآن کے اصول ومسائل (أصول تفسير القرآن الكريم وقضاياه)، البروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي، مكتبة الحسنات، دهلى، 2014م.
8. تفسيرون ميں إسرائيلي روايات (الروايات الإسرائيلية في كتب التفاسير)، تحقيقات إسلامي، إداره تحقيق وتصنيف، علي كره، أبريل-يونيو، 2023م.
9. التكميل في أصول التأويل، المعلم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبها، الطبعة الأولى، 1388هـ.
10. جمهرة البلاغة، الإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مطبعة معارف بمديرية أعظم كره، الهند، 1360هـ.

11. حيات حميد (ترجمة حميد الدين الفراهي)، ترتيب: عبد الرحمن ناصر الإصلاحي الجامعي، مطبعة معارف، أعظم كره، بدون تاريخ.
12. دراسة فكرة الفراهي والإصلاحي في مجموعة السور، مولانا حميد الدين فراهي: مفسر ومحقق قرآنك ريسرچ سينٹر، كبير كالونى، علي كره، 2008م.
13. دلائل النظام، الإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبها، الطبعة الأولى، 1388هـ.
14. ذكر فراهي (ترجمة الفراهي)، الدكتور شرف الدين الإصلاحي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، الهند.
15. رجال السند والهند إلى القرن السابع، القاضي أبو المعالي أطهر المباركفوري، المطبعة الحجازية، مومبائي، الهند. د.ت.
16. شعراء النصرانيين، جمع وتصحيح: الأب لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء المرسلين، بيروت، 1890م.
17. صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، العلامة محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1408هـ-1988م.
18. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت. د.ت.
19. عرب وهند کے تعلقات (العلاقات بين العرب والهند)، مولانا سيد سليمان الندوي، دار المصنفين شبلي اكيڈمى، 2010م.
20. عربى شاعرى كا ارتقاء (تطوّر الشعر العربي)، أبو سفيان الإصلاحي، نقوش قرآن نمبر لاهور.
21. علامة حميد الدين فراهي-حيات وافكار (حميد الدين الفراهي حياته وأفكاره)، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1992م.
22. علامه حميد الدين فراهي كي تفسير پر تبصره از سيد رشيد رضا، مجلة المنار،

مصر، 2/12، 29 صفر عام 1327م، 22 مارس 1909م.
23. قرآني مقالات، ترتيب: إشتياق أحمد ظلى، إداره علوم القرآن، علي كره، 2012م.
24. مختصر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، العلامة محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1405هـ-1985م.
25. مشرقى شعريات اور اردو تنقيدى روايت، أبو الكلام القاسمي، قومى كونسل برائے فروغ اردو زبان، نئى دهلى، جنورى تا مارچ 2002م، أو 2003م.
26. مفردات القرآن، الإمام الفراهي، تحقيق وتشريح: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م.
27. مقالات شبلي، اهتمام ورعاية: مسعود علي الندوي، مطبعة معارف، أعظم كره، الطبعة الثانية، 1950م.
28. نظم قرآن ايك تجزياتى مطالعه (نظم القرآن دراسة تحليلية)، البروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي، البلاغ پبلى كيشنز نئى دهلى، 2023م.
29. نظم قرآن ايك تعارف (نظم القرآن دراسة تعريفية)، ترتيب: البروفيسور عبيد الله الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، 1994م.
30. Religious Trend in Pre-Islam Poetry, Asia Publishing House, New Delhi, 1971, P: 195

ISSN: 2321-7928

# نظرات في مؤلفات الإمام عبد الحميد الفراهي

## (في ضوء ما نُشِرَ في "مجلة الهند" عن الإمام الفراهي)

- د. جمشيد أحمد الندوي[1]

﴿4﴾

### دلائل النظام

لا شك في أنّ القرآن كان أحبّ الكتب إلى الإمام الفراهي وأنّ العلم الذي استولى على عقله وخاطره وحياته كلها هو علم القرآن فاشتغل به اشتغالًا منقطعًا نظيره، ولم يشتغل عنه بعلم أو بشيء، فبلغ فيه إلى منزلة عالية لم يبلغها إلا القليل من العلماء، فهو، و لا غرو، يعدّ من أعاظم رجاله وأئمة فنّه فلقّب بـ"ترجمان القرآن" من قبل معاصريه، وكلما أخذه من العلوم العقلية والنقلية وكلّ ما درسه من اللغات وآداب الشرق والغرب وكلّ ما برع فيه من الدراسات الفلسفية الحديثة والقديمة إنما استعملها لخدمة فهم القرآن، ولم يستخدم إنجازاته العلمية التحقيقية كلها إلا لخدمة هذا الكتاب فيقول العلّامة السيّد سليمان الندوي:

"جمع علومه من كل مكان فقضى فيه أكثر عمره ومات وهو مكبّ على أخذ ما فات من العلماء، وقد ألّف ما نشروا ولمّ ما شتّتوه وتحقيق ما لم يحقّقوه، فكان لسانه ينبع علماً بالقرآن وصدره يتدفق بحثًا عن مشكلاته وقلمه يجري كشفًا عن معضلاته".[2]

منح الله الإمام الفراهي حظًا وافراً من علم القرآن وفهمه وفتح عليه ما شاء منه من حكمته وأدبه والكشف عن نظامه والنظر في مباحثه المهمة عن مسائل الدين والعلم

[1] رئيس قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مومباي، مهاراشترا

[2] إمعان في أقسام القرآن، ص 17

والحياة البشرية، وليس بين مؤلفاته الإمام الفراهي شيء خارج عن القرآن وقد ألّف كتبًا كثيرة في موضوعاته المتنوعة، وكل موضوع يدور حول مبحث خاص من مباحث القرآن، فقضى معظم حياته فيه. وله الفضل الأكبر في ندرته في تفسير القرآن، ونبوغه في تفسير كتاب الله وتأويله يرجع إلى التزامه بنظام القرآن وبيان دقائقه عند التفسير. فلا شك أنه من نعم الله التي قد أنعمها عليه بفضل القرآن وإعجازه. فقد فاق أقرانه بغزارة العلم، وقوة الاستدلال، وكمال الاجتهاد، وحسن الإبداع.

وقدّم الفراهي أصول تدبر القرآن في كتابه "التكميل في أصول التأويل"، وفي رأيه أنّ العلماء قد حصلوا على علم تأويل القرآن ولكنهم استخدموه فقط في خدمة الفقه، مما أضرّ كثيرًا بهدف تعلم الدين. ولم يتم التحقيق في هذا العلم كما كان يجب كعلم مستقل. ولأنه كان يستخدم في نطاق محدود، فلم تتخذ فيه تلك الاحتياطات التي تتخذ لأصول الدين. وكانت نتيجة عدم تدوين أصول التأويل أنّ كل شخص وضع لنفسه معنًى خاصًا للقرآن حسب فهمه واعتبر كل ما خالف ذلك من مفاهيم، مفاهيم خاطئة، ونتج عن ذلك خلاف على كل كلمة وكل آية، أدّى إلى تفرق الأمة وتشتتها إلى فرق عديدة. وإن كانت قواعد وضوابط تأويل القرآن قد حدّدت، لما كان هناك هذا الخلاف في الرأي والفكر. إنّ الأصول التي وضعها الفراهي لتأويل القرآن الكريم. حيث يقرّر الوجهة الصحيحة للكلام ويصلح السلوك المنحرف لأهل البدع والضلال، ويحفظ كلام الله من التحريفات والتأويلات الخاطئة. لا يمكن الحصول على الحكمة من الكلام إلا إذا قرأناه بربط المعاني. ويعتبر الفراهي في تحقيقه كل سورة بمثابة وحدة تتحدّث عن موضوع معين. وتوضح فيها جميع الآيات جوانب مختلفة من نفس هذا الموضوع. وقد شرح الفراهي النقاط العلمية والعملية لنظم الكلام في كتابه "دلائل النظام".

وقد صنّف الفراهي الكتابين لذكر نظام القرآن وإيضاحه:

- الكتاب الأول: "دلائل النظام" ، وهو من خير ما خطّه العلّامة الفراهي رحمه الله.

وأقام بالدليل على ذلك وأنّ الواحد منا لا يرضى أن يكون كلامه مختل النظام أو ضعيف الرباط. فكيف يرضى بهذا الخلل في كلام الحكيم العليم؟ والطريق إلى ذلك برأيه هو التدبر والتبصر في آيات الله. والكتاب قمة في شرح الطريق والوسائل التي يتمكن بها القارئ من معرفة دلالات الكلام ومفاهيمه، وأثبت فيه المؤلّف نظام القرآن بالدلائل، وأوضح الإمام فكرته فيه مبيناً أنّ للترتيب والنظام دورًا رئيسيًا في القرآن الكريم وبيّن عددًا من الأصول لحلّ مشكلات النظم، والتي تظهر أنّ القرآن الكريم كتاب الله المنظم المربوط، وأنّ العلماء في كل عصر اعترفوا بهذا النظم وحاولوا مراعاته في تفاسيرهم.

هذا الكتاب من أهم الكتب التي استعرض فيها النظام، وتحدّث فيه على أنّ معرفة النظام من الضروريات لعلماء الأمة، حتى يعلموا الناس ما فهموا.

- والكتاب الثاني: "تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" ويعتبر الكتاب المحاولة العملية لتطبيق الأفكار على شكل تفسير متكامل، ولكن الكتاب مع الأسف لم تكتب له الاستمرارية.

قام عدة من العلماء المتقدمين والمتأخرين في عصورهم بخدمة نظام القرآن وكل واحد منهم جدير بالثناء لأعماله الجليلة التي تركها، ولكن الإمام الفراهي رحمه الله هو العالم الوحيد الذي اهتم بهذا العلم اهتمامًا بالغًا حتى لا نجد أحدًا من العلماء المتقدمين والمتأخرين بذل جهوده مثل العلّامة الفراهي بأنه جعل نظام القرآن الكريم شغل حياته المباركة، وقدّم في هذا الصدد الأصول والنظريات، وتأثر بها المتأخرون بعد ذلك بأهمية نظام القرآن ودقّته، وخير نموذج لها كتابه الفريد "دلائل النظام".

أما "النظام" فالمقصود به ما يسمّيه الكتّاب المعاصرون بالوحدة الموضوعية، فكل سورة لها موضوع معيّن- يسمّيه الفراهي عمود السورة- تدور عليه بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطًا معنويًا محكمًا. ويختلف النظام عن التناسب الذي عني به جماعة من علمائنا القدامى، وعدّوه علمًا شريفًا، والفرق بينهما "أنّ التناسب جزء من النظام، فإنّ التناسب

بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئًا واحدًا مستقلًا بنفسه، وطالب التناسب وربما يقنع بمناسبة ما، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئًا واحدًا. وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإنّ الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها. فإنّ عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيرًا. ومنها ما ترى فيه اقتضابًا بينًا، وذلك إذا كانت الآية أو جملة من الآيات متصلة بالتي على بعد منها".[1] وتبين من ذلك أنّ هذا الأصل- أي النظام- أيضًا راجع في حقيقة الأمر إلى الأصل السابق، وهو تفسير القرآن بالقرآن.

ومراعاة النظام عند الفراهي ليس أمرًا مقصودًا لذاته، وإنما هو المنهاج الصحيح لتدبر القرآن، والنظام هو الحكم عند تضارب الأقوال، وهو المرجح عند تعدد الاحتمالات، وهو الإقليد الذي تفتح به كنوز حكمة القرآن.

وفي الكشف عن نظام القرآن لا يلجأ الإمام الفراهي إلى مناهج أهل الفلسفة والمنطق أو المتصوفة، وإنما يعتمد على القرآن نفسه. وفي ذلك يقول رحمه الله: "أجمع أهل التأويل من السلف إلى الخلف أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا، وأنه هو أوثق تعويلًا وأحسن تأويلًا، فنقول: كما أنّ القرآن يفسّر مطالب آياته بعضها ببعض، فكذلك يدلّك على نظام مطالبها ومناسبتها، بما يأتيك بنظائره، فتكثر الشواهد على رباط أمر مع أمر، وبذلك يحثّك على التأمل في جامع وصلة بينها، ثم يأتي عليه بأمثلة كثيرة بعضها أوضح من بعض، حتى يتدرج بك على ما كان أدقّ وأغمض".[2]

يرى الشيخ الفراهي أنّ القرآن منظّم بيانه، ومنسّق كلامه فلكل سورة موضوع مركزي كما ترتبط آيات السورة فيما بينها وحتى أنّ السور القرآنية مرتبطة فيما بينها فالقرآن كمثل كلام موحّد منسّق منظّم. ولإثبات هذه النظرية البديعة قام الشيخ

[1] دلائل النظام، ص 87-89

[2] المصدر نفسه، ص 83

الفراهي بتأليف كتاب قيّم يسمّى "دلائل النظام" لإقامة الحجة على وجود النظام في كل سورة من سور القرآن الكريم، وبيان الطرق التي تهدي إلى نظام السورة، وألقى الضوء عليه بالدلائل والشواهد وأثبت أنّ أحدًا لا يقدر أن يفسّر الآيات القرآنية بدون هذا النظام الرباني التوقيفي ولا يجد الأسرار والرموز القرآنية. و يتحدّث عن الدلائل والبراهين على وجود النظام في القرآن كما هو يهدي إلى الطرق للوصول إلى نظام السورة وتوحيد القرآن.[1]

إنّ كتاب "دلائل النظام" للعلّامة الفراهي يعتبر من المعالم البارزة في الدراسات القرآنية، ولا نبالغ إذا قلنا إنّ هذا الكتاب لم يصنّف مثله في بابه، ويرى الإمام الفراهي أنّ جلَّ اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سواء "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ".

هذا التأليف الصغير لأستاذنا الإمام الفراهي رحمه الله من خير التآليف القرآنية التي أخرجت للناس حتى الآن، و له من الأثر العظيم في علوم القرآن وآدابه، فلا نبالغ إذا قلنا: إنه كتاب لم يصنّف مثله من قبل وأتى فيه بالبراهين القاطعة بوجود النظام في القرآن، واستدل بالآثار على صحة ما أراد، وأقام عليه الحجج، وبيّن بالأمثلة أصولًا لحل المشكل من النظم في القرآن، وفتح لنا بابًا عظيمًا بهذا الكتاب لفهم أسرار القرآن وبلاغته وسهّل لنا الانتفاع به علمًا وعملًا، ووضّح أنَّ للترتيب والنظام حظًا وافرًا في كل مركب، ولاسيما في القرآن الحكيم، والذين يزعمون خلاف ذلك فإنهم أخطأوا في زعمهم، ولم ينصفوا كتاب الله.

ألّف الإمام الفراهي هذا الكتاب لإقامة الحجة على وجود النظام في كل سورة من سور

[1] قام بتلخيصه الدكتور شرف الدين الإصلاحي في مجلة "فكر ونظر" الفصلية الصادرة عن الباكستان، راجع: 10/15-13

القرآن الكريم، وبيان الطرق التي تهدي إلى نظام السورة، وهيّأ لنا به سلمًا نبلغ به نهاية سعادتنا شوقًا ومحبة ولذة، ولكن مع الأسف لم يجد الإمام فرصة لإتمام هذا الكتاب المهم.

قد أفرد الإمام الفراهي نظام القرآن في كتابه المذكور أي دلائل النظام، وما له من المكانة في الكلام، فأثبت فيه أولًا بالدلائل الواضحة أنّ للترتيب بالنظام حظًا وافرًا في كل مركب لاسيما في الكلام البليغ ولاسيما في هذا القرآن الحكيم بأنّ كلام الله منظّم على غاية حسن النظم والذين يزعمون خلاف ذلك فإنهم قد أخطأوا في زعمهم ولم ينصفوا كتاب الله. ألا ترى أنّ أحدًا منهم لا يرضى بأن يكون كلامه مختل النظام أو ضعيف الرباط، بل لو لاح له بعد زمان، شيء من الاختلال أو الضعف راجع فيه النظر وهذّبه بغاية ما يمكنه. فكيف يرضون بهذا الخلل الفاحش في كلام الله الحكيم العليم؟[1] فلا شك أنّ الذين ذهبوا إلى نفي النظام في كلام الله، فقد تفوهوا بما لم ترض به نفوسهم، عفا الله عنهم.

وأوضح، ثانيًا، الوسائل التي تهدي إلى معرفة النظام، وأهمها عنده التدبر في القرآن، لأنّ الله تعالى قد جعله محلًا للتدبر والتفكر كما قال: "كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ" وكما قال في موضع آخر: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ". وهذا كثير جدًا. فالتدبر في آياته هو أول إقليد لفتح هذا الباب. فمن نظر في مطالب الآيات على حدتها ولم يتأمل في مناسبة أجزاء السورة فقد عميت عليه الحكمة وحسن نظامها، لأنّ أكثر الحكم مخبوءة تحت دلالات النظام وإنه لا يبرز إلا بالتدبر.

ولكن مع ذلك للتدبر أيضًا أساس: لا يدور قطب رحاه إلا عليه وهو الإيمان الصادق بالآخرة، كما قال تعالى: "وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ

[1] دلائل النظام، ص 14.

حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا" فإنّ معاني القرآن لا تكشف إلا للمتقين الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم. فليلتمس أولًا من أراد التدبر في القرآن نفسه، هل له الإيمان الصادق بالآخرة؟ فإن وجد هناك الإيمان، فقد وجد نورًا لفهم القرآن ولا خلاف في ذلك.

فالتدبر مع الإيمان بالآخرة لهو أول مفتاح به يفتح كنوز القرآن، فالذي يكون بيده هذا المفتاح وهو كان عالمًا بصحيح علوم اللسان الذي أنزل فيه القرآن، فلا شك أنه يطلع على حسن نظامه ودقائق حكمته وإعجاز بلاغته، ويكون عند احتمال التأويلات الكثيرة على بينة من ربه فيختار ما كان أحسن منها تأويلًا، وذلك هو الفوز العظيم.

ثم مهّد السبيل، ثالثًا، إلى طريق علم النظام وأصوله. ولا شك أنه قد أدّى حقه وأوفى ذمته، حتى جعله فنًا مستقلًا على أصول راسخة، مستنبطة من أساليب القرآن وقواعد اللسان، لم يهتد إليه أحدٌ ممن سبقه وهو قد اهتدى إليه بنور القرآن وذلك من فضل الله.

يتناول "دلائل النظام" موضوع النظم والترتيب في القرآن بشكل مفصل فشرح الفراهي فيه فكرة النظام في القرآن الكريم، وذكر دلائل على كون القرآن كتابًا منظمًا فأشار إليه قائلًا: "المقصود من معرفة النظام ليس إلا التدبر، فإنه الإقليد له، ثم التدبر في الكتاب هو الوسيلة إلى الهدى والتقوى، فهما أصلان. فإنّ النفس بالهدى تستبصر، وبالتقوى تتزكى. والإيمان مع شعبه العلمية يدخل في الهدى، والشرائع والأخلاق والأحوال تدخل في التقوى. وقد بين الله ذلك في القرآن..".[1]

وقد أثبت الإمام الفراهي بهذا الكتاب أنّ للنظام حظًا وافرًا في كل كتاب ولاسيما

[1] انظر دلائل النظام، من المجموعة الأولى لرسائل الإمام الفراهي: 21. واسترسل قائلًا: ".. ثم يهتدي إلى النظام بأوائل التدبر، فيضطر إلى معرفة النظام، فإن أقل جملة من القرآن يستدعي تدبرًا أو يهدي إلى ما هو فوقه وثم، فثم، حتى إذا اتضح النظام كل الاتضاح، تجلى محاسن السورة والحكمة التي هي تمام العلم والتقوى" المصدر نفسه: 21.

في الكتاب البليغ. فذكر في كتابه أنّ القرآن الكريم كلام منظم ومرتّب من أوله إلى آخره على غاية حسن النظم والترتيب، وليس فيه شيء من الاقتضاب لا في آياته ولا في سوره، بل آياته مرتبة في كل سورة كالفصوص في الخواتم، وسوره منتظمة في سلك واحد كالدرر في القلائد، فلو قدّم ما أخّر، أو أخّر ما قدّم لبطل النظام وفسدت بلاغة الكلام بل ربما يعود إلى قريب من الهذيان.

وقدّم الإمام الفراهي في الكتاب المذكور رؤية واضحة للنظم وأثبت أنّ تفسير القرآن الكريم بدون رعايته لا يمكن. هو يقول: "المقصود في هذه الفصول أنّ معرفة النظام من الضروريات لعلماء الأمة، حتى يعلموا الناس حسب ما فهموا. فإنهم إن لم يفهموه واختلفوا فيه كيف يرشدون الناس؟ بل يشتد ضرر قيادتهم لأنفسهم ولجميع المسلمين".[1]

هذا جدير بالذكر أنّ علم المناسبات، أو علم تناسب الآيات ليس جديدًا في علم التفسير، فكثير من المفسرين أشاروا إليه، وأشادوا بذكره، وجماعة من العلماء المتقدمين نوّهوا بأهميته في تفاسيرهم، وقصدوا إلى هذا العلم- أي علم نظم القرآن- واعترفوا بأنّ علم المناسبة علم شريف وإنّ أكثر لطائف القرآن في حسن نظمه، كما صرّح به الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب)، وأيقن به الزمخشري في تفسيره النفيس (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، الإمام الشوكاني في تفسيره القيم (فتح القدير)، وادّعى علمه ابن العربي، ومنهم من تفرغ له، وبذل له اهتمامًا كبيرًا، وأسهب في ذكر المناسبات بين الآيات مثل الإمام برهان الدين البقاعي في تفسيره الكبير (نظم الدرر في تناسب الايات والسور)، والإمام أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان كتابه (البرهان في مناسبة سور القرآن)، وأفرد له المخدوم المهائمي الهندي في تفسيره الوجيز (تبصير الرحمن وتيسير المنان) وغيرهم من العلماء المحققين الذين قد

[1] راجع للتفصيل: رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن (المجموعة الأولى)، الإمام عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائمير، أعظم جره، الطبعة الثانية، 1411هـ-1991م، ص22

صنّفوا فيه وبيّنوه علمًا شريفًا واستحسنوه حتى شنعوا على المنكر به.

ولكنهم، وإن كان سعيهم مشكورًا، لم يبذلوا جهدهم إلا في الكشف عن المناسبة بين الآيات المتجاورة، أو السور اللاحقة والسابقة، ولم يمعنوا النظر في الكشف عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام من أوله إلى آخره فيصير شيئًا واحدًا فقنعوا بمجرد بيان المناسبة بينها من غير أن ينظروا إلى أمر عام شامل بكل ما يحتوي عليه الآية أو السورة. فلذلك لم يصيبوا في أكثر المواضع بل خبطوا خبط عشواء، وذلك لأنّ أكثر الآيات وهكذا أكثر السور أيضًا ليست بمتصلة في كل موضع، بل الآية التالية أو السورة اللاحقة ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها، فمن طلب المناسبة بينها مع عدم اتصالها فكيف يهتدي إلى نظامها؟ وكيف يفهم مرامها؟ فإن خبطوا فيها فلا عجب.

ولكن مع ذلك الفضل للمتقدم، فإنهم قد أبرزوا اعتناءهم أولًا بربط الآيات ونظام السور فلا شك أنهم قدوة لنا. ولو تمّم المتأخرون ما تركوه غير تام، وأوضحوا ما خفي عليهم لصار ذلك العلم فنًا مستقلًا. ولكن لم يتوجهوا إليه كما ينبغي، ولم يكن هذا إلا لدقّته وغموضه، فبقي هذا العلم على ما كان في عصره الأول، حتى جاء أستاذنا الإمام رحمه الله وبحول الله وتوفيقه قد جعل هذا الجدول نهرًا. فإنه قد أسّس أولًا لهذا العلم بنيانًا على أصول راسخة، واستخرج له فروعًا جامعة، ثم صاغه في قالب الفن المستقل، ولم يترك لنا مجالًا أن نخبط في وادي الشكوك حيرانًا.

وهنا أيضًا نرى الفراهي متميزًا عن جماعة المفسرين، ومبرزًا في هذا المجال، فإنه عُني بهذا العلم عناية لم يُعن به أحد من أئمة التفسير، وأدرك من ضرورته وأهميته ما لم يدركه غيره من أهل العلم.

قال الفراهي، وهو ينوّه بأهمية هذا العلم وخطورة شأنه: "فهم الكلام لا يمكن بدون معرفة النظام، وإنه لهو السبيل الوحيد إلى فهمه".

وقال رحمه الله: "القائلون بوجود التناسب جعلوه علمًا شريفًا، ولكن لم يجعلوه جزءًا

عظيمًا من مفهوم القرآن، فبقي متروكًا لإشكاله. وأما نحن فنقول: إنّ فهم القرآن محوّل إليه. والتردد بين الوجوه الكثيرة في التأويل، وعدم التوصل إلى التأويل الصحيح الذي يسدّ باب الاحتمالات إنما نشأ من قلة الاعتناء بنظام الآيات؛ فإنه هو الموصل إلى صحيح التأويل، وهو العصمة من الشكوك والحيرة في التفكير".[1]

**الفرق بين نظام الآيات وتناسب الآيات:** ويتميز الإمام الفراهي عن المتقدمين والمتأخرين بحيث إنه أحاط بجميع جوانبه وبحث عن جميع أبعاده. ويرى الإمام الفراهي أنّ جميع سور القرآن الكريم وآياته تترابط وتتناسب بعضها مع بعض بحيث لو حذفت آية واحدة يختل نظمه.

وكما يختلف النظام عن التناسب بين الآيات والسور الذي اعتنى به بعض العلماء، كأبي جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سمّاه "البرهان في مناسبة سور القرآن"، وبرهان الدين البقاعي صاحب كتاب "نظم الدرر في تناسب الآي والسور".

فالتناسب عند الإمام الفراهي هو جزء من النظام؛ لأنه يرى أنه حتى يكون النظام صحيحًا يجب أن يكون الكلام حسن الترتيب، حسن التناسب، وقوي الوحدانية.

والنظام عند الإمام الفراهي ليس أمرًا مقصودًا لذاته، وإنما هو المنهج الصحيح لتدبر القرآن، وهو الحَكَم عند تضارب الأقوال، وهو المرجح عند تعدد الاحتمالات، وهو الإقليد الذي تفتح به كنوز حكمة القرآن.

والمفسرون أكثروا من ذكر "التناسب" و"المناسبات" ولكن الفراهي جاء بشيء أكبر من ذلك، ألا وهو "نظام القرآن" و"نظام الآيات"، والفرق بينهما كبير. يقول الفراهي، وهو يبين هذا الفرق:

"لقد صنّف بعض العلماء في تناسب الآي والسور، وأما الكلام في نظام القرآن فلم أطلع

[1] دلائل النظام، ص 10-75

عليه، والفرق بينهما: أنّ التناسب إنما هو جزء من النظام، فإنّ التناسب بين الآيات، بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئًا واحدًا مستقلًا بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، وربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام، فيصير شيئًا واحدًا، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإنّ الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بُعد منها، ولولا ذلك لما عجز الأذكياء عن إدراك التناسب، فأنكروه، فإنّ عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيرًا، ومنها ما ترى فيه اقتضابًا بينًا، وذلك إذا كانت الآية، أو جملة من الآيات متصلة بالتي على بُعد منها. وبالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كلامًا واحدًا، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بُعدما، كما قدّمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أنّ الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السور معترضة. وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلامًا واحدًا، ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر، فتبين مما تقدم أنّ النظام شيء زائد على المناسبة وترتيب الأجزاء".[1]

هذا ما أفادنا الفراهي في الفرق بين التناسب، الذي كثر ذكره في كلام سادات المفسرين، وبين النظام الذي هُدي إليه بفضل من الله وتوفيقه. ويمكن تلخيص كلامه في النقاط الآتية:

** التناسب جزء صغير من النظام، وليس هو المقصود الأصل من تدبر القرآن.

** التناسب تكون له جهات، وتكون له أحوال، فبعضها قريبة، وبعضها بعيدة، وبعضها غريبة، وبعضها موهومة، وليست كلها مقصودة.

** لا ينتظم الكلام بكل مناسبة، والمقصود المطلوب من المناسبات ما ينتظم به الكلام.

** لايجري الكلام دائمًا على خط واحد، ولا ترتبط الآيات كلها بما قبلها، وبما

[1] المصدر نفسه، ص 74-75

بعدها ارتباطًا مباشرًا، بل تأتي أحيانًا بعض الآيات، وأحيانًا أخرى جملة، أو فقرة من الآيات كالجملة المعترضة في أثناء الكلام، وهذا الاعتراض لا يخلو من مناسبة، ولكن المناسبة القريبة الحميمة تكون مع ما ورد بعد الاعتراض.

** كما يكون الاعتراض في الآيات، كذلك يكون في السور، فقد تكون السورة في جنب السورة، وهي لاترتبط بها ارتباطًا مباشرًا، بل يكون ارتباطها بها مثل ارتباط الجملة المعترضة بما قبلها وبما بعدها، وارتباطها المباشر يكون بما بعد تلك المعترضة، وقد تكون السورة المعترضة واحدة، وقد تكون أكثر من واحدة.

** الأصل المطلوب هو نظام السورة، الذي يربط الآيات كلها، بعضها ببعض، حتى ينتظم به الكلام انتظامًا، وحتى تصبح السورة كلها كأنها كلمة واحدة.

تلك ستّ نقاط تتعلق بنظام الآيات والسور، وهي نقاط في غاية الأهمية، لا يستغني عنها من أحب أن يتقن فهم القرآن ولا يمكن الوصول إلى معنى الآيات القرآنية بدون فهم أجزاء مهمة للكلام نحو التعليل، والتفريع، والتأصيل، والتفصيل المجمل، التمثيل، وإيراد المشابه من البيان، وإيراد المقابل والضد، والتنبيه بالوعد والوعيد، والتحسين، والتقبيح.[1]

ولكن ربما يحصل علم أجزاء الكلام ويختفي معنى الآية أو مجموعة من الآيات، فترى أنّ الكلام يجري على نهج إذ ينعطف إلى جهة أخرى، وتنقطع سلسلة الكلام باعتبار المعنى، ففي هذه المواقع يختفي العقد، والاتصال، ويسميان بمعاطف الكلام، فينبغي لطالب النظام أن يتأمل فيها كاملًا، وإذا عرف العقد والاتصال، يسهل الوصول إلى نظم الآيات.[2]

ولابد للمعرفة الصحيحة للنظم القرآني من إحاطة أساليب الكلام مع أجزائه وتعيين

[1] المصدر نفسه، ص 72

[2] المصدر نفسه، ص 73

العمود من الحذف، والمجاز، وتبديل المحل، والاعتراض، والالتفات، وروابط النظم مثلًا: التقابل، ونسبة العموم والخصوص، وبيان المجمل، ودفع الدخل المقدر، ونسبة التشابه، ونسبة الأصل والفرع وغيرها؛ ولكن لا يمكن المعرفة بهذه الأمور كاملًا حتى يتعود الطالب التدبر؛ فإن معرفة النظام لا تحصل إلا بالتدبر.[1]

**تكميل علم المناسبة بين الآيات:** إنّ العلّامة الفراهي شرح نظام القرآن، وقدّمه كعلم مستقل، ووضع أصوله، حتى لا تجد له شريكًا فيه، كذلك قام بتكميل علم المناسبة، ووضح بأنه جزء من علم النظام، وكثير من العلماء المتقدمين لم يدركوه، يكتب الفراهي: "المعترفون بوجود التناسب جعلوا التناسب علمًا شريفًا؛ ولكن لم يجعلوه جزءًا عظيمًا من مفهوم القرآن، ولذلك بقي متروكًا لأشكاله؛ فإنّ التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئًا واحدًا، مستقلًا بنفسه، والمراد بالنظام أن تكون السورة كاملًا، واحدًا، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، فكما أنّ الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السور معترضة، والقرآن كله كلام واحد ذو مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر، فتبين بأنّ تناسب الآيات جزء من النظام".[2]

وقد وضح الجهات الحكيمة لتناسب الآيات في مقدمة تفسيره "نظام القرآن":

"إن كنت ممن يوقن بأنّ الله راعى النظام الحكيم في كلامه، ورأيت أمرًا قد قرن بأمر، فلا بدل كأن تطلب المناسبة، فهذا الطلب يهديك إلى أمور خفية لا يهتدي إليها من مر عليه ولم يتدبر؛ فإن الأمر الواحد له جهات مختلفة، واعتبارات شتى، فمن جهة هو يناسب بأمر، ومن جهة أخرى بأمر آخر، مثلًا: الصلاة تناسب الحج لكونهما صورة ذكر الله ولما أن فيهما تعبدًا جسمانيًا، ولما أنهما منوطتان ببيت الله،

[1] المصدر نفسه، ص 41

[2] المصدر نفسه، ص 74-75

ولماثبت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنّ الطواف صلاة، ثم للصلاة مناسبة بالصوم لكونهما غير مختصين بمكان، ولكون الصبر مدارهما، حتى إنّ السكوت قد كان شرط الصوم، فالصلاة صوم النفس في باطنها، فهذا من جهة التشابه.

ثم للصلاة مناسبة بالزكوة من جهة التقابل، وتكميل الواحد بالآخر، وانشعابهما من أصل واحد، فأصل الصلاة ركون العبد إلى ربه محبة وخشية، وأصل الزكوة ركون العبد إلى العبد محبة وخشية، فلا يكمل الصلاح إلا بهما، فالمحبة أصلهما، فعلمنا أنّ أصل الدين هو المحبة، ورقة الباطن، ولطافة الشعور، فالتأمل في مناسبة الصلاة يهدينا إلى أصل الدين، ومخ الشرائع".[1]

وبعد ذكر المناسبات بين الصلاة والعبادات الأخرى، قام الفراهي ببيان المناسبة بين الصلاة، والطيبات. والحق أنه قد أدّى حق التدبر في القرآن، فقال:

"قد ذكر الله تعالى في سورة العقود (المائدة) ما أحلّ من المآكل، ثم من المناكح، ثم الوضوء، فههنا أمران: الشيء وشرط الشيء، فذكر من الشرائط ما يتطهر به، فالذبح طهور للبهائم، والمهر وقصد الإحصان طهور للنساء، والوضوء طهور للصلاة، ثم هدى الله إلى هذه الحقيقة، فقال في آخر الآية: "مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ" (سورة المائدة:6) أما الشيء نفسه، فههنا ذكر ثلاثة أشياء: طيبات الطعام، والنساء، والصلاة، فإن تدبرت، علمت أنّ هذا العالم عالم الفناء والكون، فالشخص، والنوع، والروح ثلاثة عوالم، فجبر اضمحلالها بالطعام، والنكاح، والصلاة، ثم ترى المناسبة بين الطعام، والنكاح في تخصيص محلهما من المحرمات حتى إنه نزلت آياتهما على صورة واحدة، حيث قال: "حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ". (سورة النساء:23) و"حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ". (سورة المائدة:3) وكذلك ترى المناسبة بين النكاح، والصلاة من جهة أخرى، فالنكاح وازع

[1] مقدمة تفسير نظام القرآن للفراهي، ط: الدائرة الحميدية، أعظم جره، 1990م، ص 50

عن التدنس، والصلاة "تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ". (سورة العنكبوت:45)

ثم انظر المناسبة في هذا المثال بين النكاح، والصلاة من جهة الطهور، وفي سورة البقرة من جهة التخفيف، حيث قال: "حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا". (سورة البقرة:39-238)

والحفظ على النكاح واجب حتى الوسع، ثم عند الطلاق بعض التخفيف في الآخر، فكذلك في الصلاة، فاعلم أنّ لكل قران منظراً كقران النجوم".[1]

قد ثبت بما ذكر من تفاصيل نظرية نظم القرآن أنّ العلامة الفراهي قد أكمل ما أسّسه العلماء من علم المناسبة، وبفضل جهوده الفكرية المشكورة قد تشكل علم المناسبة في صورة أكمل وأجمع مما قبله، وعلمنا من هذا العلم بأنّ آيات القرآن لا ترتبط بعضها بالبعض فقط؛ بل ولها نظام جامع، ولكل سورة عمود، ومطالبها المختلفة ترتبط به من جهات وأشكال مختلفة، فكأن العمود يربط مضامين السورة، ومحتوياتها، ولفهم ذلك النظام نحتاج إلى التدبر، وبدونه لا نفهم حقًا معاني السورة العامة، فضلًا عن النظام.

وهو لا يهمل عن إيضاح أهمية نظام القرآن والترابط المعنوي بين أجزائه كلها، فالكلام عنده "إنما هو نظامه"، وهو يرى أن لكل سورة من سوره موضوعًا رئيسيًا سمّاه "عمود السورة" والقرآن كله ككلمة واحدة بوحدته الموضوعية ونظمه المعنوي، فمن خفي عليه هذا الإقليد لا يمكنه أن يبلغ إلى مفاهيم قصدها، فعنده تأويل القرآن يستند على المقياسين: أولهما نظام القرآن والآخر تفسير القرآن بالقرآن، فالمراعاة بهذا النظم عنده هو الطريق الصحيح لتأويل القرآن والتدبر في آياته لأنه يكشف القناع عن معارضات الكلام واحتمالاته، وهو مفتاح كنوزه المكنونة، ولم يقتصر على هذا التأكيد في كتبه المختلفة فقط، بل أفرد كتابه "دلائل النظام" لإيضاح هذه الفكرة والاستدلال عليه، وقد ألّف عدة كتب كمقدمات لتفسيره: نظام القرآن.

[1] المصدر نفسه، ص 50-51

**علم نظام القرآن:** إنّ الكلام يتفاوت من جهة الوحدانية، والمناسبة، والترتيب، يمكن أن يكون ذات وحدانية؛ ولكنه خالٍ عن التناسب، والترتيب، مثلًا إذا ألّفت كتابًا في النصائح، وقد جمعت فيه أقوالًا كثيرة مما يتعلق بالدين، والأخلاق، والمعاشرة، والسياسة، فإن وضعت كل ذلك من غير ترتيب؛ لم يكن خاليًا عن وحدانية ولو ضعيفة، لما أنّ كله في النصائح، فله نوع من الوحدانية، والشخصية المميزة؛ ولكنه عديم المناسبة، والترتيب. فأما إذا قسمته في أبواب: مثلًا: باب في الدين، وباب في الأخلاق، وهلم جرًا، ووضعت كل قسم من الأقوال في بابه، صار الكتاب متناسب الأجزاء مع بقائه على ضعف الوحدانية. فأما إذا نظمت نصائح كل قسم في قصة جامعة كما ترى في كتاب "كليلة ودمنة"، صار كل باب شديد الوحدانية مع بقاء الكتاب على ضعف الوحدانية. فأما إذا راعيت حسن الترتيب والمناسبة في تقديم الأبواب بعضها على بعض، ومع ذلك جعلت الكلام في كل باب بيانًا واحدًا جاريًا إلى موضوعه مع تناسب في أجزاء الكلام، صار الكتاب ذا نظام كامل،وبالجملة فلا بد لحسن النظام من أن يكون الكلام حسن الترتيب، حسن التناسب، قوي الوحدانية.[1]

قد علم من هذا أنّ العمود هو العنصر الرئيسي في فهم النظام، وهو المقصود في الكلام، وجميع أجزاء الكلام يرتبط به، والعمود ليس هو جزءًا للكلام فقط؛ بل روحه المكنونة فيه، والكلام بمنزلة شرحه؛ ولكن نحتاج إلى التأمل والتفكير لتعيين العمود، وتكرار النظر في السور المتشابهة، حتى يتضح العمود ويتعين، ولما يتعين العمود، تنكشف معاني السورة كضوء النهار، ويتضح نظامها، ويمكن معرفة المعنى الحقيقي لكل آية، ويتعين التأويل الراجح من بين التأويلات المختلفة؛ ولكن يصعب تعيين العمود لأسباب:

الأول: إنّ القرآن نزل متشابهًا، مثاني، فترى سورًا متشابهة المطالب مع اختلاف عمدها، ومتحدة العمد مع اختلاف المطالب.

[1] المصدر نفسه، ص 75-77

والثاني: إنّ الله تعالى كما أنزل هذا الكتاب لواجبات العقائد، والشرائع، أنزله لتعليم الحكمة أيضًا، ولا يحصل ذلك إلا بالتدبر والتفكر فيه؛ ولذا كما جعل القرآن جانبًا منه ظاهرًا بينًا، فكذلك جعل جانبًا منه باطنًا مكنونًا؛ لكي نهتدي إلى الباطن بوسيلة الظاهر، وللباطن مدارج؛ لكي يترقى المجتهد في درجاته من الأقرب إلى الأبعد، والكلام إذا كان منظمًا من جهة الظاهر، لم يحتج الناظر فيه إلى تأمل، ولكن إذا كان اتصاله ظاهرًا تارة، وتارة خفيًا، فليتوقف الناظر، ويتأمل فيه؛ فإنه كيف يرضى بالخلل الفاحش في كلام الحكيم العليم؟!

والثالث: إن الله تعالى جعل القرآن على نهاية الإيجاز لتربية العقل وملأه حكمًا جمة، حتى يتحير الناظر فيها، ويصعب عليه أنْ يصطفي من بين معانيه.[1]

لقد اهتم الفراهي بالدلائل المأخوذة من القرآن وصريح العقل للبحث في ما يتعلق بفهم معنى الكلام وتأويله، وذلك من خلال تقعيد أصول يستنبط منها المسائل، فألّف "التكميل في أصول التأويل" وأشار إلى أنّ غاية هذا العلم هو المنع عن التفسير بالرأي، وغاية الكتاب وأنها معرفة الأصول، وقسم الأصول إلى قسمين:

القسم الأول: ما يعصم عن الزيغ في التأويل.

القسم الثاني: ما يهدي إلى الحكم التي يتضمنها كتاب الله. والأمر الجامع لهذين هو التفكر في نظم القرآن.

إنّ النظم هو الحبل المتين الذي يعصم من يعتصم به عن الزيغ وهو السراج المنير الذي يدلّ على الحكم فإنّ الآيات إنما تنتظم بما تتضمن من الحكمة فإنها هي الجامعة. ثم تحدث بعد ذلك عن التأويل والفرق بينه وبين التحريف والتفصيل، والمتشابه وتأويله، ثم الأصول التي تهدي إلى معنى واحد، ثم ختم بطريق الفهم للمعنى المراد.

[1] المصدر نفسه، ص 77-79

يعتبر الفراهي أنّ أصول التأويل ثلاثة:

أصول أولية: وهو ما يتمسك به حيث لا احتمال لمعان شتى.

أصول مرجحة: وهي احتمال الكلام معاني مختلفة؛ فإذا أعملنا الأصول المرجحة أخذنا ما هو الراجح وتركنا المرجوح.

وأصول كاذبة: اعتمدوا عليها وليست بشيء وإنما تذكر ليتم اجتنابها.

ويعتبر الفراهي أنّ الأصول الأولية تقوم على أربعة أصول:

الأصل الأول: التمسك بنظم الكلام وسياقه، وهذه هي النظرية التي يقررها الفراهي والتي من أجلها ألّف تفسيره "نظام القرآن في تأويل الفرقان بالفرقان".

ووضع الفراهي كتاب "دلائل النظام" ليدلل على أنّ للنظام حظًا وافرًا في كل كتاب ولاسيما في الكتاب البليغ. وذكر في كتابه أنّ القرآن الكريم كلام منظم ومرتب من أوله إلى آخره على غاية حسن النظم والترتيب، وليس فيه شيء من الاقتضاب لا في آياته ولا في سوره، بل آياته مرتبة في كل سورة كالفصوص في الخواتم، وسوره منتظمة في سلك واحد كالدرر في القلائد، فلو قدّم ما أخّر، أو أخّر ما قدّم لبطل النظام وفسدت بلاغة الكلام بل ربما يعود إلى قريب من الهذيان.

ويعتبر الفراهي أنّ الوسيلة الموصلة لمعرفة النظام هي:

التدبر في القرآن، لأنّ الله- تعالى- قد جعله محلًا للتدبر والتفكر كما قال تعالى: "كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩" [سورة ص: 29]. وكما قال في موضع آخر: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤" [سورة محمد: 24].

فمن نظر في مطالب الآيات على حِدَتِهَا، ولم يتأمل في مناسبة أجزاء السورة، فقد عميت عليه الحكمة وحسن نظامها، لأنّ أكثر الحكم مخبوءة تحت دلالات النظام.

ويرى الفراهي أنّ معاني القرآن لا تنكشف إلا للمتقين الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون.

فالتدبر مع الإيمان الصادق بالآخرة هو أول مفاتيح كنوز القرآن كما قال تعالى: "وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾" [سورة الإسراء: 45-46]

أما الكيفية التي بها يستنبط النظام ومقصوده بالنظام "الوحدة الموضوعية"، فكل سورة لها موضوع معين يسمّيه الفراهي عمود السورة تدور عليه بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطًا معنويًا محكمًا.

ويختلف النظام عن التناسب بين الآيات والسور الذي اعتنى به بعض العلماء، كأبي جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سمّاه "البرهان في مناسبة سور القرآن"، وبرهان الدين البقاعي صاحب كتاب "نظم الدرر في تناسب الآي والسور".

فالتناسب عند الفراهي هو جزء من النظام؛ لأنه يرى أنه حتى يكون النظام صحيحًا يجب أن يكون الكلام حسن الترتيب، حسن التناسب، وقوي الوحدانية بأن النظام عند الفراهي ليس أمرًا مقصودًا لذاته، وإنما هو المنهج الصحيح لتدبر القرآن، وهو الحَكَم عند تضارب الأقوال، وهو المرجح عند تعدد الاحتمالات، وهو الإقليد الذي تفتح به كنوز حكمة القرآن.

ويعتمد الفراهي في الكشف عن نظام القرآن على القرآن نفسه لأن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وهو أوثق تعويلًا وأحسن تأويلًا، بما يأتيك به من نظائر، فتكثر الشواهد على رباط أمر ما، وبذلك يحثك على التأمل في جامع وصلة بينهما، ثم يأتي عليه بأمثلة كثيرة بعضها أوضح من بعض، ثم يتدرج بك على ما كان أدق وأغمض.[1]

[1] انظر: مقدمة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 5، وما بعدها بتصرف كبير.

**الأصل الثاني: عدم الالتفات للمعنى الشاذ:** مثاله تأويل قوله تعالى في سورة التحريم: "إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ" [سورة التحريم: 4]، حيث سعى المبطلون إلى تحويل معنى "الصغو" إلى الزيغ، ووضعوا لتأويلهم الباطل قراءة باطلة لم تثبت فضلًا عن أن تكون متواترة.[1]

**الأصل الثالث: فهم الكلام بعضه من بعض بالمقابلة وحمل النظير على النظير وذلك هو التأويل بالقرآن:** قال العلماء قديمًا[2] إنّ القرآن يفسر بعضه بعضًا، فالقرآن يذكر الأمور بعبارات مختلفة مرة إجمالًا ومرة تفصيلًا فما ترك في موضع ذكره في موضع آخر.

وقد صرح القرآن بهذه الصفة التي فيه في غير موضع،[3] فهذا أصل راسخ، ولكن قل استعمال هذا الأصل وذلك بأن طرق الدلالة على المعاني غير محصورة فربما تدل آية على معنى يكون دليلًا على معنى آية أخرى.[4]

---

[1] حدثنا بن حميد قال ثنا يحيى بن واضح قال ثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن مجاهد قال كنا نرى أن قوله: "فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ" شيء هين حتى سمعت قراءة ابن مسعود: "إن تتوبا إلى الله فقد زاغت قلوبكما". حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة: "فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ" أي مالت قلوبكما. حدثنا بن عبد الأعلى قال ثنا بن ثور عن قتادة: "فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ" مالت قلوبكما، حدثت عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ يقول ثنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول في قوله: "فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ" يقول: زاغت حدثنا بن حميد قال ثنا مهران عن سفيان: "صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ" قال: زاغت قلوبكما. حدثني يونس قال أخبرنا بن وهب قال بن زيد قال الله عزّ وجلّ: "إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ" قال سرهما أن يجتنب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جاريته وذلك لهما موافق صغت قلوبكما إلى أن سرهما ما كره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. انظر: تفسير الطبري، 161/28

[2] انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص 32، ومجموع الفتاوى لابن تيمية: 363/13، وقال السيوطي في الإتقان (467/2) قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولًا من القرآن، فما أجمل منه في مكان فقد فسّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر. وقد ألف ابن الجوزي كتابًا فيما أجمل في القرآن في موضع وفسّر في موضع آخر منه.

[3] وهو قوله تعالى: "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ" [سورة القيامة: 19]. وقوله تعالى: "كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ". [سورة فصلت: 1]. وغيرها كثير.

[4] انظر: التكميل في أصول التأويل للفراهي، ص 242 بتصرف.

ومراد الفراهي أنّ القرآن يفسر بعضه بعضًا ما يسمّيه بتفسير النظائر، لأنّ النظائر تفسر بعضها بعضًا وخاصة إذا كان الكلام محتملًا لتأويلات مختلفة، فالمصير إلى ماله نظير في القرآن أحوط، لأن ما هو ليس في القرآن قد يكون رأيًا محضًا وضلالة، وأما ما كان له نظير في الحديث فلا بد من صحته رواية ودراية، ثم المصير إلى النظير الذي في القرآن أوثق. ومثال ذلك الشذوذ في الحديث، فالتأويل إلى معنى شاذ مع إمكان غيره ومع دلالة أصول أُخَر بعيد عن الصواب.

فالقرآن كثيرًا ما يترك مجملًا ما فصله في مقام آخر، والمعنى يفهم من غير أن نحتاج إلى تفصيله من نفس الكلام، مثاله: ما جاء في آخر سورة الأنفال:

"إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢" [سورة الأنفال: 72]

وبعيد ذلك جاء: "وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤" [سورة الأنفال: 74]، فلم يذكر "بأموالهم وأنفسهم" وهو مفهوم. ثم جاء بعيد ذلك: "وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥" [سورة الأنفال: 75]، فلم يذكر "في سبيل الله ولا بأموالهم وأنفسهم" ولكن ذلك مفهوم، وقد دلّ عليه "معكم".[1]

إنّ الإمام الفراهي ليس هو العالم الوحيد الذي قال بنظم القرآن؛ بل هناك جمع من العلماء قبله الذين كانوا يعتقدون به،[2] وقد ألفت بعض المؤلفات المفيدة حول الموضوع

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه

من قبل؛ ولكن ما امتاز به الفراهي في هذا الصدد هو نظرية النظام وبأن كل سورة للقرآن تحتوي على نظام محكم، وكل آياتها مترابطة تحت عمود خاص، يكتب: "إن المراد بالنظام أن تكون لكل سورة صورة مشخصة؛ فإن معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض، وجرت إلى عمود واحد، وكان الكلام ذا وحدانية، فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخصة، فإذا نظرت إلى الكلام، رأيت ما فيه من الجمال، والإتقان، والفصاحة".[1]

وقال في موضع آخر موضحًا للنظام: "إن الكلام الصحيح النظام لابد له من عمود يجري إليه الكلام، فلا بد لطالب النظام أن يتأمل في مساق الكلام؛ فإنك ترى في السورة الواحدة مطالب شتى، ولا تعلم ما هو العمود الذي سيق إليه المعاني، ولن تهتدي إلى معرفة اتصال الكلام بعضه ببعض دون معرفتك بمساق الكلام ووجهته التي تسلك إليها أجزاؤه، حتى تراها منظومة في سلك واحد، وبالجملة فالنظام هو الذي يعطي السورة وحدانيتها التي بها صارت سورة كاملة، مستقلة بنفسها، ذات عمود تجري إليه أجزاؤه".[2]

إنّ علم النظام الذي قد ابتكره الأستاذ الإمام فإنه علم جامع، ليس كعلم المناسبة الذي كان مركزًا لأفكار السلف ومطمحًا لأنظارهم. لأن التناسب إنما هو جزء من أجزائه، والنظام شيء زائد عليه بل أوسع منه، وأعمّ كما هو مبسوط في موضعه، فعلم النظام لا يظهر التناسب وحده بل يجعل السورة كلامًا واحدًا، ويعطيها وحدانيتها التي بها صارت سورة كاملة مستقلة بنفسها، ذات عمود تجري إليها أجزاؤها ويربط الآيات بعضها ببعض حتى يأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها، فمن تدبر القرآن في ضوء النظام فلا شك أنه لا يخطئ في فهم معانيه، وذلك لأن النظام قد يبيّن له سمت الكلام، وينفي عنه تشاكس المعاني،

[1] المصدر نفسه، ص 75

[2] المصدر نفسه، ص 74

ويرد الأمور إلى الوحدة، ويسدّ أبواب الدخول فيه للأهواء حتى يجبره أن لا يأخذ إلا بصحيح التأويل ولا يعتمد إلا عليه وهو أعظم مطلوب.

ويرى الإمام الفراهي أنّ مَنْ حرم فهم النظام فقد حرم حظًا وافرًا من معنى الكلام، ويوشك أن يشبه حاله حال مَنْ قبله من أهل الكتاب كما أخبر الله تعالى عنهم "فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ" وأخاف أن تكون هذه العدواة والبغضاء التي تراها في المسلمين من هذا النسيان، فلا تهدأ عداوتهم ولا يرجعون عن اختلافهم. وسبب ذلك ما ذكرنا في الأمر الأول، لأنا إذا اختلفنا في معاني كلامه اختلفت أهواؤنا وصرنا مثل أهل الكتاب. غير أنّ رجاءهم كان معقودًا بهذا النبي، وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم، وأما نحن فليس لنا إلا هذا الكتاب المحفوظ".[1]

إن الإمام الفراهي لم يكن مقلدًا في هذا المجال، بل تفرد بدلائل النظام فقال رحمه الله: "وكنت في هذا على بصيرة من ربي، غير متبع لأحد".[2] وكان أحق بها وأهلها، اضطلع بمسؤوليته على جدارة واستحقاق، امتلك ناصية البحث، برؤية واضحة، وثقة كاملة، وأريحية عالية، وملكة راسخة، فانقشعت أمامه سحب التعقيد واللبس، وانحلت أقفال كثيرة، وكان فضلُ الله عليه عظيمًا!

ولمعرفة بداية فكرة علم نظام القرآن في ذهن الإمام الفراهي وفكره يمكن أن نلاحظ

[1] انظر: فاتحة تفسير نظام الفرقان للفراهي، ص 3-4. انظر: الكتاب النافع الماتع الذي ألّفه الدكتور محمد عناية الله سبحاني والذي سماه "إمعان النظر في نظام الآي والسور"، طبعة دار عمار، الأردن.

[2] تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 15. ويقول بدر الدين الإصلاحي: "فأحس بشدة الحاجة إلى تأسيس هذا الفن، واجتهد فيه وبتوفيقه تعالى، قد أسّسه على أصول راسخة، بنيت على قواعد اللسان وأساليب القرآن، تهدي إلى سواء السبيل، وتعين على فهم المعنى المراد، وتعصم من الزيغ في التأويل وتحفظ عن التفسير بالرأي، وتكون كالمعيار والميزان لكل ما يؤخذ من القرآن" انظر دلائل النظام، ص 15، من تقديم بدر الدين الإصلاحي.

اقتباسًا كتبه الإمام:

"فقد اجتهدت في هذا الكتاب- بحول الله وتوفيقه- أن أكشف عن نظام آيات القرآن العظيم، وأن أفسر تفسيرًا ساذجًا غير خالط به من اختلاف نجم فينا بعد عصر نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فالتمست معنى الآيات من أخواتها، وكذلك استنبطت نظام السورة من أعماقها، ومن سياقها، ثم بعد ذلك أيدت ما فهمنا من القرآن بالنقل والعقل، ففي أمر النظام تدليت في غور الكلام بالبصر الناقد، وفي أمر التفسير عضضت على كتاب الله بالنوجذ".[1]

وكذا يكتب:

"وكنت في هذا على بصيرة من ربي، غير متبع لأحد، ومع ذلك لم أكن بديعًا في تتبع النظام، ولأن جماعة من العلماء قصدوا إليه، وصنفوا فيه".[2]

بعد قراءة هذا الاقتباس نصل إلى النتيجة أنّ قلبه هداه إلى دراسة نظام القرآن وهذا لا يؤتى إلا بحب كلام الله. وما من شك أنّ القرآن مصدر الأحكام المختلفة ومجموعة من الحكم والعبرة ولذلك فإن من يرغب في دراسة القرآن ويستفد منه ويحصل على جمال القرآن في شكل موحد مثل المرآة، ير المشاهد فيها منظراً خلاباً وجميلًا من كل النواحي، ويكون هذا المنظر ظاهراً فيعترف به بدون أي إشكال. ولكن في مرآة الفكر والوجدان لا يرى المرء شيئًا في الظاهر، ويستطيع الرؤية من يفوز بوجود هذه الصفة بعد التدبر والتفكر في القرآن الكريم.

قد ذكر العلّامة الفراهي في عدة مواضع من كتابه "دلائل النظام" بأنّ كثرة الاختلاف في تفسير القرآن والتأويلات العديدة لآية ما قدحدثت لعدم رعاية نظم

[1] ديباجة نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، ص 15

[2] المصدر نفسه، ص 16

الكلام، فمثلًا قال الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: "لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضَاۚ". (سورة النور:43) بأنّ في تأويلها أقوالًا:

"1- لا تجعلوا أمره إياكم ودعاءه لكم كما يكون من بعضكم لبعض؛ إذ كان أمره فرضًا لازمًا، والذي يدلّ على هذا قوله فيما قبل"فليحذر الذين يخالفون عن أمره".

2- لاتنادوه كما ينادي بعضكم بعضًا، مثلًا: يامحمد! ولكن قولوا يا رسول الله! يا نبي الله! (عن سعيد بن جبير)

3- لا ترفعوا أصواتكم في دعائه كما قيل في موضع آخر "إن الذين يغضون من أصواتهم عند رسول الله". (عن ابن عباس)

4- احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه؛ فإن دعاءه موجَب، ليس كدعاء غيره".

قد انتقد الفراهي هذه التأويلات، فقال:

"ولكن المعنى أنّ الرسول إذا دعاكم فلا بد أنْ تأتوا إليه، إن كان لكم أو عليكم، وتسمعوا، وتطيعوه، ولا تذهبوا قبل أنْ يقضي الرسول ما لأجله دعاكم؛ فإن مخالفة أمره إثم، ولعل المبرد والقفال أرادا هذا المعنى، ولم يفهمه الرازي؛ فإنّ الدال على هذا المعنى تمام هذه الآية، وهي "لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضَاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ" والدليل الواضح على هذا المعنى ما مرّ من آيات47 و52 في هذه السورة".[1]

والمثال الثاني قوله تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ

[1] المصدر نفسه، ص 42

مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾". (سورة المائدة: 35-36)فقد أراد أكثر المفسرين من الوسيلة العمل الصالح، وبعضهم أرادوا معنًى آخر، فكتب الشاه عبد القادر الدهلوي أنّ المراد من الوسيلة اتباع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول العلّامة الفراهي: "هذا كلام صحيح في نفسه، ولكنه ليس ههنا محله في ترجمة الوسيلة، ولا حاجة إلى دفع دخل زعمه مقدرًا، فإنّ العمل الصالح لا بد أنْ يكون فيه طاعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه إنما جاء للدعوة إليه والبيان له".[1]

والمثال الثالث قوله تعالى: "وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾" (سورة الأنعام: 126)قال العلّامة عبد القادر الدهلوي: "المراد من الصراط المستقيم الإذعان للطاعة، ونبذ العقل" ويقول الفراهي: "هذا تأويل غير صحيح، قد كثر في القرآن بيان الصراط المستقيم بمعنى التوحيد".[2]

والمثال الرابع قوله تعالى: "يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـَٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾". (سورة البقرة: 40)

قال العلّامة عبد القادر الدهلوي: إنّ الله يعذب عذابًا أليمًا على إثم صغير إن شاء فلا اعتراض عليه، ولكن الفراهي يبطل هذا التأويل ويقول: "إنّ المراد من الآية أن الله تعالى يعذّب الظالمين، ويتوب على التائبين، فهو المالك على الإطلاق، فكما يعذّب بقدرته، فكذلك يغفر بقدرته، وهذا تأويل يوافق بنظم الكلام، إن الله هو الفاعل المختار، لا اعتراض عليه فيما يفعل، ولكنه لا يفعل غير الحق والقسط".[3]

لولم نراع نظم الكلام، لصَعُبَ تعيين المعنى الحقيقي له؛ بل تنفتح أبواب التأويلات الفاسدة، فقد استدل أهل البدعة والضلال من آيات القرآن المتفرقة حسب

[1] المصدر نفسه، ص 68-69
[2] المصدر نفسه، ص 70
[3] المصدر نفسه، ص 70

مزعوماتهم، ولم يعبأوا بأن ما أرادوا هو المعنى الحقيقي للآية أم لا؟ فالسبيل الواحد للاجتناب من احتمال التأويلات المختلفة بأن نتمسك بنظم الكلام ولا نتركه أبدًا، يقول العلّامة الفراهي: "من نظر في مطالب الآيات على جملتها، ولم يتأمل في مناسبة أجزاء السورة، عميت عليه الحكمة وحسن نظامها من جهة البلاغة والاستدلال، بل لم يجد مخرجًا عند احتمال المعاني، بل ربما اختار التأويل الباطل لما تعلق به بعض رأي زائغ، أو مذهب مرجوح، أو عقيدة فاسدة، فكان في ظلمات بعضها فوق بعض، وأشدّ وأفظع من كل ذلك أن يفتح للمبطلين والمبتدعة أبوابًا لتأويلاته الفاسدة، ترى منهم من يأوّل القرآن، فيضلّ الناس بمحض رأيه، أو يمني نفسه بأنه أعلم بحقائق الأمور، وأسرار الدين، ولكن مَنْ تدبّر في القرآن، ونظمه الحكيم، اطلع على حسن نظامه، وإعجاز بلاغته، ودقائق حكمته، وفتح عليه باب عظيم من المعاني، وكان على نور عند احتمالات التأويلات، فاختار ما هو الحق الواضح، ولم يتبجبج فينبذ الباطل".[1]

يعتبر الإمام الفراهي أنّ الوسيلة الموصلة لمعرفة النظام هي:

* التدبر في القرآن، لأن الله- تعالى- قد جعله محلًا للتدبر والتفكر كما قال تعالى:

"كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴿٢٩﴾" [سورة ص: 29].

وكما قال في موضع آخر: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴿٢٤﴾" [سورة محمد: 24].

فمن نظر في مطالب الآيات على حِدَتِهَا، ولم يتأمل في مناسبة أجزاء السورة، فقد عميت عليه الحكمة وحسن نظامها، لأنّ أكثر الحكم مخبوءة تحت دلالات النظام. ويرى الإمام الفراهي أنّ معاني القرآن لا تنكشف إلا للمتقين الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون.

فالتدبر مع الإيمان الصادق بالآخرة هو أول مفاتيح كنوز القرآن كما قال تعالى:

[1] المصدر نفسه، ص 42

"وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴿٤٦﴾" [سورة الإسراء: 45-46]

أما الكيفية التي بها يستنبط النظام ومقصوده بالنظام "الوحدة الموضوعية"، فكل سورة لها موضوع معين يسمّيه الإمام الفراهي عمود السورة تدور عليه بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطًا معنويًا محكمًا.

ويعتمد الإمام الفراهي في الكشف عن نظام القرآن على القرآن نفسه لأنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا، وهو أوثق تعويلًا وأحسن تأويلًا، بما يأتيك به من نظائر، فتكثر الشواهد على رباط أمر ما، وبذلك يحثّك على التأمل في جامع وصلة بينهما، ثم يأتي عليه بأمثلة كثيرة بعضها أوضح من بعض، ثم يتدرج بك على ما كان أدق وأغمض.[1]

مقصود الفراهي بالنظام هو أن تكون السورة وحدة متكاملة. ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتي قبلها أو بعدها على بعدما كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أنّ الآيات ربما تكون كالجمل المعترضة، فكذلك السور قد تكون كالجمل المعترضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلامًا واحدًا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر.

وإذا ظهر النظام في القرآن، فلا بد أن تظهر لكل سورة صورة مشخَّصة، فإنّ معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، وكان الكلام ذا وحدانية فحينئذٍ لا يكون إلا وله صورة مشخَّصة. فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضوح.[2]

[1] انظر: مقدمة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 5، وما بعدها بتصرف كبير.

[2] انظر: دلائل النظام للفراهي، ص75، وإمعان النظر في نظام الآي والسور للدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني، ص 24.

ولتتبع النظام مزايا عديدة منها:

- التأمل في النظام يرشد إلى فحوى الكلام وملابساته، والذي يغفل عنه يتعذر عليه العثور على ما ترمي إليه تلك الآيات.

- النظام هو الدليل إلى صحيح التأويل، إذا اشتبهت الوجوه وكثرت الاحتمالات.

- النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه، كما أنه سرّ من أسرار إعجازه، فإنه هو الذي جعل القرآن بحراً لا يسبر غوره ولا ينفد كنزه.

- النظام يجلي الأمور في أكمل صورها ويكشف عن قدرها وأهميتها، وإذا لم ننتبه لنظام الآيات فكثير من الأمور لا ندركها، ونظل غافلين عن قدرها وأهميتها.

- النظام يشخص معاني الآيات المكررة، ويحدّد مراميها، لكن الذي يغفل عنه يتعثر ولا يكاد يفرق بين موطن وآخر.

- النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن، لكن الذي لايهتم به يتعذر عليه أن يتذوق بلاغة القرآن، أو يدرك ميزته التي أعجزت فرسان الكلام.

- رعاية النظام تفتح على الدارس ما تقرّ به عينه ويستنير به قلبه، وتورثه برد اليقين، الذي لا يتزلزل ولا يتزعزع.

- رعاية النظام تمكن من فهم أسباب النزول، والذي يغفل عنه يتحير في فهمها، ويضعها في غير موضعها، ثم يتحير في تفسير الآيات وتأويلها.

- رعاية النظام والبحث عن رباط الآيات هي المحك الناجح لنقد الروايات التفسيرية فبها تتميز الضعاف من الصحاح ويتميز السقيم من الصحيح.

- رعاية النظام في دراسة القرآن تساعد على الوصول إلى أصول الصحاح في القرآن، فإنّ الأحاديث الصحاح مأخوذة منه كما نص عليه فريق من جلة العلماء.

- الوقوف على نظام الآيات يسمو بالدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل إليها أبدًا من لايهتم بنظامها، فإنّ هذه المشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بزيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان.[1]

قد قام د. حسن يشو في مقالته المهمة "الإمام عبد الحميد الفراهي وجهوده في خدمة القرآن وعلومه دراسة نظرية تحليلية تطبيقية" بدراسة نظرية نظم القرآن وعمود السورة للإمام الفراهي في ضوء كتابه "دلائل النظام" وكتبه الأخرى وأوضحها بأسلوب سهل تحت الفصل العاشر: نظام القرآن، والفصل الحادي عشر: عمود السورة، والفصل الثاني عشر: هل كان الفراهي بِدعًا من القول بالنظام؟، والفصل الثالث عشر الربط بين السورتين السابقة واللاحقة من مقالته والفصل الثاني والعشرون: دلائل النظام. هذه الدراسة تمهد السبيل لفهم نظرية نظم القرآن للإمام الفراهي فهي إليكم تمامًا بالترتيب:

## نظام القرآن

لقد تميز الإمام الفراهي بتفسيره الذي سمّاه "نظام القرآن" متصورًا أنّ القرآن الكريم يسير على نظام رائع يتجلى فيه بيانه وإعجازه! على المتدبرين أن يكتشفوا إعجازه في نظمه ونظامه، فما المراد بالنظام؟ وما هي إشكالاته المطروحة؟ وهل قال به أحد قبله؟ هذا ما نتناوله خلال هذا الفصل وعبر المباحث الآتية:

**المبحث الأول: تعريف النظام:** النظم: التأليف وضم شيء إلى شيء آخر، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظمًا ونظامًا، ونظّمه: ألّفه وجمعه في سلك، فانتظم وتنظم، والنظام: كل خيط يُنظم به لؤلؤ ونحوه جمع نظم.[2] ومنه قول لبيد:

وتضيء في وجه الظلام منيرة كجمانة البحري سلّ نظامها[3]

[1] انظر: إمعان النظر في نظام الآي والسور للدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني، ص 106.
[2] انظر مادة (نظم) في القاموس المحيط، للفيروز آبادي، ولسان العرب، لابن منظور.
[3] انظر ديوان لبيد، 1/ 112.

وقالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

أما لعينيك لا تهجع تُبكّى[1] لو أن البكا ينفع

كأن جُمانا[2] هوى مرسلا دموعهما أو هما أسرع

تحدّر[3] وانبت[4] منه النظام فانسلّ من سلكه أجمع[5]

والنظام في علوم القرآن هو ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني.[6]

يقول الإمام الفراهي: "مرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتي قبلها أو بعدها على بُعدٍ ما كما قدّمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أنّ الآيات ربما تكون كالجمل المعترضة، فكذلك السور قد تكون كالجمل المعترضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلامًا واحدًا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر. وإذا ظهر النظام في القرآن، فلا بد أن تظهر لكل سورة صورة مشخّصة، فإنّ معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، وكان الكلام ذا وحدانية فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخصة. فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضوح".[7]

[1] من بكّى الميت: إذا بكاه ورثاه.

[2] الجمان: اللؤلؤ.

[3] تحدّر: نزل.

[4] انبتّ: انقطع.

[5] ديوان الخنساء، ص 92.

[6] انظر البرهان في علوم القرآن، 36/1.

[7] دلائل النظام، ص 75 (مع تصرف يسير).

**المبحث الثاني: مزايا النظام بإجمال:** يقول محمد عناية الله سبحاني: "الذي يؤمن بنظام الآيات، ويؤمن برباط المعاني في كتاب الله، ويعنى به عناية بالغة جادة خلال دراسته للقرآن يملأ يديه بنزايا كثيرة متنوعة لا يجد عرفها ولا يشم ريحها من يرغب عن هذه الفكرة ولا يرفع بها رأسًا"؛[1] ومن تلكم المزايا التي ذكرها ما يأتي:[2]

- أنّ النظام يرشد إلى فحوى الكلام ومقاصد الآيات، ويحلّ الإشكالات والمعاملات.

- أنه مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه، كما أنه سر من أسرار إعجازه، ويفتح العيون على وجوه بلاغته.

- وأنه يوضح المعاني التي يفيدها تكرار بعض الآيات، ويحير في فهمها، ويضعها في غير موضعها.

- وأنه المحك الناجح لنقد الروايات التفسيرية فبها تتميز الضعاف من الصحاح ويتميز السقيم من السليم.

- وأنه طريق الدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل إليها من لا يهتم بنظامها، فإن هذه المشاعر والأحاسيس تزداد بزيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان.

## المبحث الثالث: كيف بدأت رحلة الفراهي مع النظام؟

لقد عُني الإمام الفراهي بالنظام وذكر كيف هداه الله إليه فقال رحمه الله: "وقد يسّر لي بمحض نعمته فهم نظم القرآن في سورة البقرة، وسورة القصص من نفس القرآن، وإني كنت مولعًا بتلاوته وهو أحب الكتب وألذها عندي- ولله الحمد- وقد كنت أسمع أنّ القرآن الكريم أشتّ الكتب نظمًا، لنزوله نجمًا، ولكن بعدما ظهر لي النظام

[1] إمعان النظر في نظام الآي والسور، ص 105.

[2] انظر إمعان النظر لسبحاني، ص 105- 106 مع شيء من التصرف.

في سورتين، حثّني على التدبر في باقيها، وكنت في حدث السن وعز الفرصة، فمضت بضع عشرة سنة حتى وفقني الله تعالى أن ابتدأت من أول القرآن، ويسّر لي الإتمام في سنة كاملة، وهممت أن أبرزه للناس فردعني عظم الذمة وروّعني كبر المغبة، فكثت أراجع فيه النظر مرة بعد مرة أمدًا طويلًا مستعيذًا بالله من ظلمات النفس وغوايات الجهل، ومع ذلك وددت لو طويته على غرره وسكتّ عن حلوه ومرّه، ونجوت من إثمه وبره، ولكن اضطرني إليه أمور".[1]

## المبحث الرابع: أسباب اهتمام الفراهي بالنظام

لقد بيّن الإمام الفراهي خمسة أسباب مهمة لاهتمامه بالنظام واعتماده في تأويل كتاب الله تعالى نوجزها فيما يأتي:

أنّ النظام سبب لاجتماع الكلمة، وطريق للاعتصام بحبل الله تعالى كما قال سبحانه: "وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ" [سورة آل عمران: 103]. وذلك بطريق التأويلات التي شتّت الناس فرقًا وأحزابًا، فبالنظام يتبين سمت الكلام، فينفي عن آيات الله أهواء الميتدعين، وانتحال المبطلين، وزيغ المحرفين الذين "يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ" [سورة النساء: 46]، والذين يقلعون كلام الله عما بين يديه ومن خلفه ويضمون إليه ما يعجب هوى نفوسهم.

أنّ في توضيح هذا العلم ردًا على الملحدين الذين طعنوا في القرآن من جهة سوء النظم، ومنافحة عن كتاب العزيز "كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ۝٥" [سورة الكهف: 5]، "وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلٗا ۝١٤١" [سورة النساء: 141].

أنه لا يخفى أنّ نظم الكلام بعض منه، فإن تركته ذهب بعض معناه، فإنّ للتركيب

[1] فاتحة نظام القرآن، ص 17.

معنًى زائدًا على أجزاء الأشتات، فلا شك أنّ مَنْ حرم فهم النظام فقد حرم حظًا وافرًا من معاني الكلام التي لا تظهر إلا بتأمله وتدبره.

أنّ الأحكام تتضح بالنظام ويعلم ناسخها من منسوخها، فقد تنزل الآية بحكم ثم بعد فترة ينزل الله ما يخفف ذلك الحكم، وتكون الآية التي تحمل حكم التخفيف موضوعة بجانب الآية التي تحمل الحكم الأول، وذلك واضح في مواضع معلومة في كتاب الله تعالى.

أنّ مَنْ تجلت له- بفضل الله وحده- سواطع البرهان في نظام القرآن، علم فضل الله عليه، فازداد على علمه إيقانًا، وعلى فهمه اطمئنانًا، وحدّث بنعمة الله عليه، وهكذا قد فعل من رزق من ذلك شيئًا من سلفنا الصالح، إذ كيف يشك فيه من وجد مس برده، وشم ريح ورده، وتمتع بنسيم عرار[1] نجده، ولكن من لم يذق فإن ارتاب فيه فلا تثريب عليه.[2]

## المبحث الخامس: النظام هو السبيل الوحيد لفهم القرآن

يرى الإمام الفراهي أنّ فهم القرآن الكريم على جدارة واستحقاق يتوقف على معرفة النظام، فأضحى العلم به من قبيل العلوم الضرورية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، يقول رحمه الله: "إنّ معرفة النظام من الضروريات لعلماء الأمة، حتى يعلموا الناس حسب ما فهموا، فإنهم إن لم يفهموه واختلفوا فيه كيف يرشدون الناس؟ بل يشتدّ ضرر قيادتهم لأنفسهم ولجميع المسلمين. وقد رأينا ذلك في أهل الكتاب فإنهم زاغوا عنه مع دعواهم بأنهم حافظوا عليه فكانوا كما قال الله تعالى فيهم: "فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ" [سورة الصف: 5]، وكما قال المسيح عليه السلام في علماء اليهود: "العميان قادة العميان"، وقد نرى أنهم أقروا بذلك واشتغلوا بالعلوم التي هي وسائل إلى فهمه وأكثروا في تفسير الكتاب، ولم يتركوا

[1] العَرار: بهار البرّ، وهو نبت طيب الريح.

[2] انظر فاتحة النظام، ص 17- 21.

من هذه العلوم ما ظنّوه نافعًا لهذا المطلب الأسنى. ومع ذلك تراهم مختلفين غاية الاختلاف، تكثر بهم الآراء... فإنّ فهم الكلام لا يمكن بدون معرفة النظام. وإنه لهو السبيل الوحيد إلى فهمه".[1]

## المبحث السادس: النظام هو الإقليد لصحيح التأويل

إنّ النظام هو الإقليد لصحيح التأويل، والحكم الفاصل بين التأويلات المتباينة، فلا ينبغي أن ترتضي فيه الهوينا. فإنّ كلام الرب تعالى لا يكون واهن النظم كما أنه لا يكون خلوًا عنه، بل كما قال الإمام الرازي رحمه الله: "إنّ أكثر لطائف القرآن في حسن نظمه".[2]

وأعطي أنموذجًا في منهجية التفسير لديه انطلاقًا من تفسيره سورة الفيل فذكر فيها خمسة عشر مطلبًا وهي على الترتيب الآتي:

في تفسير كلمات السورة.

في تعيين المخاطب بهذه السورة.

عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها.

بيان فضل الله بهذا البيت وأهله على سائر المعابد وذويه.

أمور مهمة مما يتعلق بتقديس المسجد وحفظه.

إجمال القصة حسبما نص عليه القرآن.

النظرة الأولى وهي فيما زعموا من سبب مجيء أبرهة وفرار أهل مكة وما جرى بينه وبين عبد المطلب.

[1] دلائل النظام، ص 10.

[2] انظر المصدر نفسه، ص 92.

النظرة الثانية وهي في رمي أصحاب الفيل بالحجارة وكونها من الآيات العظام.

النظرة الثالثة وهي فيما كان من الطير التي أرسلت على أصحاب الفيل.

الاستدلال بكلام العرب على أنّ الرمي كان من السماء والريح.

في أكل الطير أصحاب الفيل تصديق لبشارة عظيمة في نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أسباب صارفة عن التأويل الراجح.

بيان معنى الرمي بالحجارة وتمهيد للنظر في أصل رمي الجمار بمنى.

أصل سنة رمي الجمار.

أثر هذا التأويل في القلوب عند عمل رمي الجمار.

**المبحث السابع: الغفلة عما يهدي إليه النظام حرمان من لطائف القرآن**

تحدّث الإمام الفراهي على أنّ النظام له دلالة خاصة، تمامًا كما استدل أبو بكر الصديق ﷺ على قتال من أبوا إيتاء الزكاة كأنه قال ﷺ علمنا أن الذين لا يصلون ليسوا منا ونقاتلهم والله تعالى قرن الزكاة بالصلاة كثيرًا فعلمنا محلها في الدين من محلها في كتاب الله ذكرًا.

ثم أكد رحمه الله على أنّ الغفلة عن كل ما يهدي إليه النظام يحرمنا من أحكامه وحكمه بل ولطائفه العجيبة فقال: "فإن غفلنا عما يهدي إليه النظام غفلنا عن حظ وافر من كتاب الله. وجعل حقيقة الربا خلاف حقيقة الزكاة وآذان بحرب آكل الربا فكذلك مانع الزكاة".[1] وذلك لأنّ "أكثر لطائف القرآن في حسن نظمه".[2] كما ألمعنا إليه آنفًا.

[1] تفسير نظام القرآن، ص 59.

[2] انظر دلائل النظام، ص 92.

## المبحث الثامن: حل مشكلات النظام

وأقدم سورة الفاتحة أنموذجًا على سبيل المثال لا الحصر:

فقوله: "ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢" يعطيك حالة الشكر، و"ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣" يعطيك حسن الظن بالله علمًا وحالًا، و"مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤" يعطيك حال التوكل والطمأنينة إلى ربك.

ثم انظر في حسن النظم: أول المعرفة هو العلم بالنعم، وأول الفرائض الشكر، ومن هنا ينشأ العلم بكون الخالق رحمانًا ورحيمًا، وتكرار الرحمة نبّه على رحمة تكون على الشاكرين، فنبّه الجزاء وحث على الدعاء، وغاية التضرع، التفويض والتوكل، ولكن ما أحسن التوكل بعد حسن الظن ولحسن رباط هذه الآيات وجوه أخر.[1]

## المبحث التاسع: المناسبة جزء من النظام

بادئ ذي بدء فما المناسبة لغة واصطلاحًا، قال الإمام الزركشي:

المناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلانًا، أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب، الذي هو القريب المتصل، كالأخوين وابن العم ونحوه. وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما، وهو القرابة. ومنه المناسبة في العلة في باب القياس: الوصف المقارب للحكم؛ لأنه إذا حصلت مقاربته له ظُنّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم؛ ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول. وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها، ومرجعها- والله أعلم- إلى معنى ما رابط بينهما: عام أو خاص، عقلي أو حسي، أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات. أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين، ونحوه أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخير.

[1] المصدر نفسه، ص 118.

وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله البناء المحكم، المتلائم الأجزاء".[1]

لقد كان الإمام الفراهي آية في العلم، بحيث كان ديدنه عدم تكرار الموجود، وإنما تشغله الإضافة والابتكار، في عامة كتبه ومؤلفاته حتى اهتدى إلى نظام القرآن، وأخذ يؤلف فيه وقد وافته المنية دون استكمال بقية مشاريعه، حيث مات وتركها مفتوحة وهي كثيرة وعريضة، وقد اعتمد أسلوب النظام في تفسيره وهو الوحدة الموضوعية، وكل سورة لها عمود كما ألمعنا إليه آنفًا يسميه عمود السورة تدور عليه بأجزائها المترابطة فيما بينها ترابطًا معنويًا محكمًا، ويرى فضيلته أنّ المناسبة غير النظام، ذلك لأنّ التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئًا واحدًا مستقلًا بنفسه، وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة ما، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام، فيصير شيئًا واحدًا، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإنّ الآية التالية ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها، فإنّ عدم الاتصال بين آيات متجاورة يوجد كثيرًا، ومنها ما ترى فيه اقتضابًا بيّنًا، وذلك إذا كانت الآية أو جملة من الآيات متصلة بالتي على بعد منها وهذا ما صرح به الإمام الفراهي بقوله: "وبالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كلامًا واحدًا، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعد منها، فكما أنّ الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السورة تكون معترضة وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلامًا واحدًا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر".[2]

ولا بأس عنده من تعدد النظام كتعدد وجوه الحكمة في الأمر الواحد، ولا بد

[1] البرهان في علوم القرآن، 1/35- 36.

[2] انظر دلائل النظام للفراهي، ص 87، من رسائل الفراهي، المجموعة الأولى.

لحسن النظام أن يكون الكلام حسن الترتيب، حسن التناسب، قوي الوحدانية، والنظام على كل حال لدى الفراهي ليس أمرًا مقصودًا لذاته بل هو المنهاج الصحيح لتدبر القرآن، وهو الحكم عند تضارب الأقوال والمرجح عند تعدد الاحتمالات، وهو الإقليد الذي تفتح به كنوز حكمة القرآن. والحق أنّ الإمام الفراهي يفسّر القرآن بالقرآن ويعتبره الأصل الأصيل دون استعانة بمناهج الكلام والفلسفة والمنطق، وقد كان عاشقًا للقرآن ولغة القرآن العربية فبرّز فيها على غيرهم حتى من العرب.

**المبحث العاشر: هل التأويل يراعي الزمن في النزول؟**

إنّ ترتيب السور والآيات لم يكن على ترتيب نزولها، بل كانت تجري على وفق الأسباب المعلومة، ويأمر النبي ﷺ بوضعها في مواضعها المناسبة، كل ذلك رعاية لنظم القرآن وحسن السياق؛ قال الإمام الزركشي: "الزمان إنما يشترط في سبب النزول، ولا يشترط في المناسبة؛ لأن المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها".[1]

من هنا نجد الإمام الفراهي يتأمل النظم القرآني في تناسب أجزائه كما هي مرتبة في القرآن الكريم فقال رحمه الله: "فلم يراع زمان النزول، بل نظام القول ثم ربما نبّه أنّ هذا بيان بعض الآيات، فإنك ترى بعد أكثر آيات ألحقت بأخواتها للبيان".[2]

ويقول في ديباجة نظام القرآن: "ثم مع ما علمنا من القرآن بالتدبر في آياته نرى فيما روي عن الأصحاب أن النبي ﷺ كان يأمر بوضع الآيات في مواقعها، وكان جبريل عليه السلام يقرأ عليه السورة بعد تمامها، فهذا هو الجمع والقرآن والأمر باتباع. ثم نرى أنّ الأمة بنعمة الله لم تختلف في ترتيب الآيات، وليس في أيدي جميع فرق المسلمين إلا القرآن بهذا الترتيب والله يفعل ما يشاء وهو فعال لما يريد".[3]

[1] البرهان في علوم القرآن للزركشي، 1/ 26.
[2] نظام القرآن، ص 27.
[3] تفسير نظام القرآن، ص 20.

**المبحث الحادي عشر: الفرق بين النظام والتفسير الموضوعي**

إنّ التفسير الموضوعي علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر، إذ يلتقي مع علم المناسبات فيما يتعلق بدراسة السورة موضوعيًا، "وذلك لأننا نلحظ أنّ الآية أو مجموعة الآيات تنزل في أسباب مختلفة وحوادث متفرقة ثم توضع في سورة واحدة، وقد تكون بين الآيات التي وضعت في موضع ما من السورة والآيات التي وضعت عقبها فترة زمنية لا تتعدى الأيام، وقد تكون فترة طويلة تتجاوز عدة سنوات.. ولكننا عندما نقرؤها نجد أن وحدة الموضوع يجمعها، ومرمى الهدف والغاية من سياقها جميعها شيء واحد".[1]

**المبحث الثاني عشر: كيف تلتمس طرق النظام؟**

يقول الشيخ أحمد حسن فرحات: "ويبدو أنّ الطريقة التي كانوا يلجأون إليها- في غالب الأحيان- هي طريقة التحليل، حيث كانوا لا يتجاوزون الآيتين المتجاورتين، وبالتالي ينحصر البحث في معنى الآيتين ولا يجاوزهما إلى معان أخرى تفهم من مجموع الآيات في السورة الواحدة، ولو أنهم بعد أنْ سلكوا هذا الطريق التحليلي، عادوا فنظروا إليه نظرة محلية تركيبية؛ لأمكنهم أن يربطوا بين الآيات كلها ربطًا محكمًا، لاشبهة فيه، ولا تكلف.

ومن هنا فالطريق الصحيحة لإدراك المناسبة لا بد فيها أن يستخدم أولًا منطق التحليل، حيث يضع الفرضيات الأولى للمناسبة بين الآيات، ثم يأتي بعد ذلك منطق التركيب الذي يحاول استكشاف الوحدة الكلية الموضوعية التي يقوم عليها بناء السورة فإذا ما أدرك ذلك أمكن تصحيح التكلف والتعسف الذي ينشأ من منطق التحليل، بذلك تبدو المناسبة قوية محكمة لا تحتاج إلى تكلف ولا تعسف".[2]

[1] مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، ص 57.

[2] انظر آراء العلماء في المناسبات، أ. د. أحمد حسن فرحات، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد الرابع، 1972م.

وعليه فيمكن حصرالطرق الآتية في التماس نظام الآيات:[1]

البحث أولًا عن التأويل الصحيح أو الجملة من الآيات باتباع معايير دقيقة لا تخطئ في بيانه والحكم عليه بإذن الله، منها:

إذا كانت الآية- مثلًا- تحتمل وجوها عديدة من المعاني، فلا يؤخذ منها إلا ما كان أقرب لحسن التأويل، وأليق بعظمة هذا الكلام.

ولا يؤخذ من التأويل إلا ما كان موافقًا لمحكم الكتاب والسنة.

وتقديم التأويل الذي له شاهد في العبارة مما ليس له شاهد.

تقديم التأويل المتفق مع أسلوب العرب في الكلام بعيدًا عن التكلف والتعسف، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فكل ما يجرد القرآن عن هذا الوصف فهو رد على صاحبه.

وتقديم التأويل المنسجم مع المعنى المتبادر في لغة العرب على غيره، إلا إذا صرفته قرينة معتبرة.

التماس المناسبات بين الآيات بعضها بعضًا- بعد أنْ اتضح تأويلها- ولنقل إنه التماس مبدئي للوصول إلى تحديد عمود السورة ومحورها الأساسي الذي عليه تدور.

تحديد عمود السورة ومقصدها الأساسي بعد الاطلاع على التناسب الأولى بين أجزائها، وإمعان النظر في تلك الأجزاء على حدتها ومجتمعة، ومراعاة مضامين السور المجاورة ومقاصدها، والنظر في السمات المشتركة التي تجمع أو تفرق بينها، ولا بد من التأكيد على أنّ للسورة محورًا رئيسيًا واحدًا فقط، وبه كانت سورة مستقلة عن غيرها.

وإذا تحدد واتضح عمود السورة، أصبح كالنور الذي يضيء كل شيء يتعلق بها، وكالمفتاح الذي يفتح بابها، فتتضح الأمور التي لم تكن واضحة من قبل، بل إن تأويل

[1] انظر ما كتبه عناية الله سبحاني في البرهان في نظام القرآن، ص 55- 57، والإمام الفراهي وجهوده في التفسير، ص 270- 271.

بعض الآيات السابق قد يطرأ عليه تصحيح بعد أن انكشف نظام السورة وعمودها، وهكذا لا يلبث هذا الترتيب الثلاثي أن يتداخل بعضه في بعض، ويتعاون بعضه مع بعض تحقيقًا للغاية المنشودة.

## المبحث الثالث عشر: ما السبيل إلى النظام؟

إننا باستقراء كتبه نتبين جملة من الأمور التي تحتاج إلى الوقوف على النظام، وينبغي مراعاتها، والتركيز فيها على سبيلين هما:

إدمان النظر في كتاب الله تعالى، ومصاحبته وتدبره، وجعله المصدر الأساسي لتأويل القرآن، فالقرآن يفسّر بعضه بعضًا، فإن انكشف شيء من معانيه فاحمد الله على تلك النعمة، وإن تعثرت أحيانًا- وذلك وارد لا محالة- فاعزه إلى قلة العلم، وقصور الفهم، وأعد الكرة بعد الكرة، فعسى الله أن يفتح لك.

ممارسة كلام العرب وفهم أساليبهم فإنعام النظر في ذلك الكلام وشواهده وتطبيقاته، وما يرتبط به من علوم كالبلاغة ونحوها، والتضلع من تلك العلوم ما استطاع السالك لذلك سبيلًا.

ويمكن تقوية هذا السبيل بمراجعة كتب الفراهي المهمة منها:

1. فاتحة نظام القرآن.
2. دلائل النظام.
3. التكميل في أصول التأويل.

## عمود السورة

لقد كان الإمام عبد الحميد الفراهي مبدعًا ومجددًا في طرحه لمعنى النظام، وكمله بمسألة عمود السورة التي يكتمل النظام بها؛ إذ يتصور رحمه الله أنّ السورة تسير وفق عمود

متين تشد إليه أجزاء السورة وإن اختلفت وتنوعت، والمتدبر عليه أن يكتشف العمود في أفق اكتشاف النظام والدوران بفلكه؛ وهذا ما نتناوله خلال المباحث الآتية:

## المبحث الأول: تعريف عمود السورة

العمود لغة: هو قضيب من الخرسانة أو الخشب أو الفولاذ؛ لتحمُّل قوّة ضغط المباني والأرصفة البحريَّة والمنشآت الأخرى، ويطلق على السَّيِّد الذي يُعتمد عليه في الأُمور، وعمود الأمر: قوامه الذي لا يستقيمُ إلا به.[1]

يرى الإمام الفراهي أنّ السورة لا يكون فيها إلا عمود واحد فتأمل! وليس العمود هو أعظم المقاصد حقيقة! "بل هو الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها، ولكنه أهم الأمور بيانا في سورة ذكر فيها".[2] ثم إنّ هذا العمود الواحد يمكن أن يكون من محتوياته أشياء كثيرة لكنها تشد إلى رباط العمود؛ كما سيأتي في الأمثلة قريبًا.

قال فخر الدين الرازي: "كل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسّرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلامًا واحدًا منتظمًا مسوقًا نحو غرض واحد فيكون هذا التفسير أولى مما ذكروه"؛[3] لأنه- أي الرازي- هو القائل: "إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".[4]

## المبحث الثاني: عمود السورة أول ما يطلب لأجل التأويل الصحيح

إنّ القرآن يأتي بجملة من المعاني على نظام مختلف، وإنّ اختلاف الأسلوب لا يكون

[1] ومنه العمود الكهربائيّ: ما تسند إليه الأسلاك الكهربائيَّة الهوائيَّة، والعمود من الإعصار: ما يسطع في السماء، وعمود الأذن: ما ارتفع فوق الشحمة فتثبت عليه الأذن.. إلخ. انظر مادة (عمد) من المعاجم العربية.

[2] تفسير نظام القرآن، ص 42- 43.

[3] مفاتيح الغيب، 133/27.

[4] البرهان في علوم القرآن، 36/1.

إلا بزيادة الفائدة، وكلام الله مصون عن التكرار، وإن اختلفت في الأمر الواحد ترتيباته فالمتدبر عليه يسبر أغوارها ويغوص في أعماقها؛ لأنّ الأمر الواحد ربما يؤتى به كالعمود وربما يذكر كالتبع،[1] وحينًا يورد مجملًا[2] وحينًا مفصلًا، ومرة يقدم وأخرى يؤخر، وتارة يفرد وتارة يقترن؛ فتلك إذن أربعة تقسيمات، تحت كل واحدة منها قسمان؛ فالجملة ثمانية أبواب.

يقول الإمام الفراهي معقبًا: "وقبل أن نبحث عنها مفصلًا نشير إلى أنّ أول أمر يطلب هو العمود، ومنه يتبين لك قسمه، ثم ما هو المجمل؟ فإنّ المعنى الذي يحتوي المعاني المفصلة يذكر مجملًا! ثم إذا تأملت في ترتيب أجزاء الكلام علمت وجه وضعها مقدمًا أو مؤخرًا. ثم إذا قايست جملة من المعاني المتحدة في سور شتى فرأيت أنّ أمرًا واحدًا ذكر في مقام مفردًا وفي الآخر مقرونًا بقرين له، ثم ربما رأيت أنّ أمرًا واحدًا يقرن بأمور تارة بهذا وتارة بذاك، فإذا نظرت في الترتيب من هذه المناظر رأيت لأمر واحد وجوهًا حسب وضعه، وهديت إلى تأويله الصحيح".[3]

## المبحث الثالث: أمثلة على العمود والأجزاء المرتبطة به

إنّ هذا العمود الواحد يمكن أن يكون من محتوياته أشياء كثيرة؛ ومن أمثلته الرائعة سورة الحجرات؛ عمودها هو "التوبيخ على سوء الخلق ظنًا وقولًا وعملًا"؛ وأما أجزاؤه فذكر منها:

[1] أما التبع فتشييد بحجة، أو مثل، أو تمهيد لما يتلوه، أو توسيع ما سبق، أو تحديده، أو جواب سؤال مستكن، أو تمهيد لما يأتي بكلمة، أو ذكر ما يلائم الموضع من حكمة وحكم، أو تفصيل ما سبق، أو تحريض من الوعد والوعيد والمدح والذم، أو بيان بمزيد العلم، أو إظهار الحمد وصفات الرب حسب الموقع، وذلك روح القرآن. انظر نظام القرآن، ص 43.

[2] وأما المجمل فلبيان الأصول والكليات، وبه ينبه على سر الشرائع والمفصل فهذا باب واسع لتوجيه النظر وتعليم التدبر والحكمة. نظام القرآن، ص 43.

[3] تفسير نظام القرآن، ص 42.

النهي عن التقدم بين يدي الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

والنهي عن رفع الصوت فوق صوته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

والنهي عن الجهر له كجهر بعضهم لبعض.

والنهي عن ندائه حين الصبر خير لهم.

النهي عن الوثوب على قوم بقول كل فاسق.

أمر بالإصلاح بين طائفتي المؤمنين.

وأمر بالعون على الباغي.

وأمر بالعدل بينهما.

والنهي عن السخر من الناس ولمزهم.

والنهي عن التنابز بالألقاب.

والنهي عن سوء الظن والتجسس والغيبة والفخر بالنسب.

النهي عن تزكية النفس، وأقبحها أنْ يمنّ أحد على النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إسلامه.

ثم علّق رحمه الله فقال: "وما أردت هنا إلا تمثيلًا لكثرة في وحدة، وحسن نظامها مبين في موضعها".[1]

وبمناسبة كلامه عن عمود السورة وربطها بالتي قبلها والتي بعدها قال: "ذكر القرآن في السورة السابقة كل همزة لمزة مفتخر بماله، ذاهل عن مآله فدعا عليه بالويل، وأنبأه بأنه ينبذ في الحطمة والنار الموقدة، ففي هذه السورة إشهاد على ما فعل بأمثاله حين اعتمدوا على قوة شوكتهم واجترأوا على الله؛ لأنهم قد علموا في كتبهم حرمة هذا البيت العتيق.. إلخ، ثم

[1] المصدر نفسه، ص 42.

يقول: فاتضح مما قدمنا أنّ عمود هذه السورة: تمهيد وجوب الشكر لله تعالى بذكر ما جعل لأهل مكة خصوصًا والعرب عمومًا من العز والكرامة بما حماهم وبلدهم ببركة هذا البيت المحرم، فجعل لذكر هذه النعمة سورة كاملة فلم يذكر ما يتعلق به من الأحكام أي "فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣" [سورة قريش: 3]، فجعله في سورة تالية لكي يعرفوا منزلة هذه النعمة التي فضلهم بها على سائر الأمم حتى بني إسرائيل، فإنهم أسروا وقتلوا ومزقوا كل ممزق وكذلك أخذ عنهم بلدهم وهيكلهم ودمر وحرق، "مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝١٠٥" [سورة البقرة: 105]، فيعطي حسب علمه وحكمته فليشكروا له ولا يغتروا بنعمته، وإنا نذكر أسباب هذا التفضيل أنّ ذلك كان على غاية الحكمة".

والعجيب أن تكون سورة البقرة من آخر ما تدبره وأعمل فيها منهاجه في التفسير وقد تجلى في النقاط الآتية:

المقدمة: وهي أمور كلية من عمود السورة ومطالبها، ومواقع نزولها، ووجه خطابها، وترتيب أجزائها.

الكلم: فهو في معنى الكلمة ومادتها وصورتها، والاستدلال فيه بالقرآن وكلام العرب.

النحو: ففي تأليف الكلمة، والاستدلال فيه بالنظائر وحسن التأويل.

البلاغة: ففي دلالة الأساليب على معان تناسب التأويل.

التأويل: ففي حمل الكلام على مراده حسب المحل، وفي ذلك معظم الاستدلال بالقرآن وكلام العرب.

التدبر: ففي ذكر المبادئ والنتائج، أي اقتضاء النص وإشارته، والاستدلال فيه بصريح العقل وكتاب الله.

النظم: ففي بيان موقع جمله من الكلام، ورباط بعضها ببعض.

## المبحث الرابع: كيف يستخرج العمود؟

إنّ استخراج العمود الذي تشد إليه أطراف السورة ومعاطفها، وتربط به أجزاؤها ومطالبها، ليس بالأمر الهين والبسيط، ولكنه مطلب لا سبيل إليه إلا بالتدبر العميق والتأمل الطويل حتى يهتدي إلى المراد أو بعضه. يقول الفراهي: "اعلم أنّ تعيين عمود السورة هو إقليد لمعرفة نظامها، ولكنه أصعب المعارف. ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة والمتجاورة، حتى يلوح العمود كفلق الصبح فيضيء به السورة كلها. ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها".[1]

"وعند النظر في النظام لا يهمنك أولًا إلا هذه المعاطف. فإذا اطمأننت بوصلها، اطمأننت بنظم السورة".[2]

"ومعالم السورة مع كونها مهمة وجالبة للنظر، لا تغرنك في اختيار العمود، فإنما العمود ما يعطيك الوحدانية في السورة والمناسبة بما سبق وبما لحق إما متصلًا أو بواسطة..".[3]

## المبحث الخامس: وجوه اشتداد الصعوبة في استخراج العمود

وتشتد الصعوبة في إدراك العمود واستخراجه بناء على الوجوه الآتية:[4]

لأنّ القرآن الكريم إنما نزل متشابها مثاني، فنلاحظ سورًا متشابهة المطالب مع اختلاف عمدها، ومتحدة العمد مع اختلاف المطالب، فمن لم يقم بإجالة النظر في مطالبها مرة بعد مرة، وجمعها تحت عمد مختلفة؛ فإن الشيء الواحد يدخل تحت كليات مختلفة، حتى يتبين له من بينها ما هو الأرجح، كان كسالك سبيل بلغ مجتمع

[1] دلائل النظام، ص 89.
[2] المصدر نفسه، ص 92.
[3] المصدر نفسه، ص 94.
[4] انظر المصدر نفسه، ص 89 وما بعدها (بتصرف).

الطرق، فضل، فكلما ذهب بعد عن مستقيمها.

إنّ الله تعالى كما أنزل هذا الكتاب، لواجبات العقائد والشرائع، فكذلك أنزله لتعليم الحكمة، وجعل ذلك من أخص صفات نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وبذلك جعله خير المعلمين، وأعطاه من الآيات ما تكون أكثر اتباعًا وأكمل تعليمًا.[1]

إنّ الله تعالى لمثل المصلحة التي ذكرنا آنفًا جعل القرآن على نهاية الإيجاز، ومع ذلك ملأه حكمًا جمة. فلكثرة المطالب العالية والأطايب الغالية يتحير الناظر فيه ويصعب عليه أن يصطفي من بين معانيه معنى واحدًا كالعمود، كمن يطلب من بين الجواهر واسطة العقد، ومن غاية الحسن كلها يروقه، فلا يدري أيها أولى؟!

## المبحث السادس: عمد بعض السور كما يراها الفراهي

الفاتحة: جامعة كالديباجة، ففيها مفاتيح لجميع ما في القرآن.

سورة البقرة: سورة الإيمان المطلوب، وهو الإيمان ببعثة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فجمعت دلائلها.

سورة آل عمران: سورة الإسلام، وهو طاعة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فهي أشبه بالسابقة لما أنّ الإسلام هو الجانب الظاهر من الإيمان.

سورة النساء: كالردء لسورة الإسلام، بما أنها تبين أنّ الشريعة رحمة على الناس كافة وكذلك صاحبها.

سورة العقود (المائدة): مثل السابقة يذكر بناء الإسلام على العهد الإلهي ويذكر أواسط هذا العهد ونهايته.

[1] قال الفراهي: "ولا يخفى أنّ تعليم الحكمة لا يتأتى بإلقاء المعارف، وإنما يتأتى باستعمال الفكر والعقل، وحثه وتنبيهه على النظر حتى يبرز قواه الكامنة كما هو الأصل في كل تربية. فعلى هذا كما جعل القرآن جانبًا منه ظاهراً بيناً، فكذلك جعله جانبًا من باطناً مكنوناً، ولكي يهتدوا إلى بطونه، جعل الباطن على مدارج؛ لكي يترقى المجتهد في درجاته من الأقرب إلى الأبعد، فإن التربية لا تتم بدون ذلك". دلائل النظام، ص 90.

سورة الأنعام: موقع الأحكام من عهد التوحيد، لسد أبواب الشرك.

سورة الأعراف: تنذر أهل القرى وتوعدهم بالهزم وغلبة الحق.

سورة الأنفال: في فرائض الجهاد ووعد سطوع الحق والتطهير.

سورة التوبة: غلبة الحق والجهد في التطهير.

سورة الذاريات: جهة الدينونة والجزاء.

سورة التحريم: استقلال الإنسان بأمانته والتوبة النصوح، والذمة الدينية، وحسم أدواء الضلالة ليتطهر من كان له أهلًا.

سورة القيامة: إبطال ظن المنكرين بالقيامة والجزاء، وكان منشأ إنكارهم حب هذه العاجلة الفانية.

سورة المرسلات: أصول الدعوة الأولى؛ وهي ثلاثة أمور: الإنذار بيوم القيامة، والخشوع لله تعالى، والإحسان إلى الخلق.

سورة عبس: إنها من النذر، وكان الإنذار أهم مطالب أول الدعوة، ومع ذلك تتنوع وجوه البيان ففي هذه السورة بني الكلام على كف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن إضاعة الوقت بالذين أصروا على كفرهم وعصيانهم.

سورة الشمس: إنذار قريش ورئيسها الأشقى بما كذبوا الرسول في أمور التوحيد والمؤاساة والجزاء.

سورة التين: هو إثبات الدين، أي الدينونة والقضاء على الإنسان حسب أعمالهم.

سورة العصر: فيها بيان الخسران ثم بيان طرق الفلاح واقتناء الفوز العظيم والحظ الكامل من هذا العمر المستودع...

سورة الفيل: تمهيد وجوب الشكر لله تعالى بذكر ما جعل لأهل مكة خصوصًا

والعرب عمومًا من العز والكرامة بما حماهم وبلدهم ببركة هذا البيت المحرم.

سورة الكوثر: بشارة للنبي ﷺ بكثرة أحبائه وبقطع أعدائه عن بركات الكعبة.

سورة الكافرون: إعلان عن قطع حبال المودة من الكفار وتركهم مقطوعين عن الأمة المباركة.

سورة المسد: تؤكد وتوضح معنى النصر المذكور قبلها وتبشر به.. إلخ.

**المبحث السابع: تلخيص مطالب السورة ونظامها**

وأقدّم سورة البقرة على سبيل المثال لا الحصر، وهذه مطالبها حسب ما يراه الإمام:

القرآن، والتوحيد، والبعثة، والإسلام، وقبلته، والصلاة، والجهاد والحج، إحلال الطيبات، وتحريم القرابين الباطلة، والميتة والدم ولحم الخنزير، والقصاص، الوصية، الصوم، رعاية أيام الحج، اليتامى، وتحريم النكاح المشركات، والطهارة، والتوبة، الإيلاء، والطلاق، والرضاع، الصلاة، الجهاد، الإنفاق، الربا، الدين، الرهن، الشهادة، دعاء التسهيل والعفو والنصرة.[1]

**المبحث الثامن: ظهور النظام واستبانة عمود الكلام**

يقول الإمام الفراهي: "إني رأيت جلّ اختلاف الآراءفي التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لوظهر النظام واستبان لنا عمودُ الكلام لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سواء "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾" [سورة إبراهيم: 24]، وجعلنا معتصمين بحبل كتابه كما قال: "وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ" [سورة آل عمران: 103]، وكيف الخلاص من التفرق الأصلي وقد جعلوا هذا الحبل أشتاتًا في ظنونهم وهو بحمد الله متين "لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

[1] دلائل النظام، ص 111.

خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢" [سورة فصلت: 42]، فيؤوله كل فريق حسب ظنه ويحرف طريق الكلام عن سمته، وبالنظام يتبين سمت الكلام، فينفي عن آيات الله أهواء المبتدعين وانتحال المبطلين وزيغ المحرفين الذين "يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ" [سورة النساء: 46]، والذين يقلعون كلام الله عما بين يديه وما خلفه ويضمون إليه ما يعجب هوة نفوسهم".

وقال رحمه الله: "إنه لا يخفى أن نظم الكلام جزء منه، فإنْ تركته ذهب بعض معناه، فإنّ للتركيب معنًى زائدًا على معنى الأجزاء. فلا شك أنّ مَنْ حرم فهم النظام فقد حرم حظًا وافرًا من معنى الكلام. ويوشك أن يشبه حاله حال من قبله من أهل الكتاب كما أخبر الله تعالى عنهم: "فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ" [سورة المائدة: 14]، وأخاف أن تكون هذه العداوة والبغضاء، التي تراها في المسلمين، من النسيان، فلا تهدأ عداوتهم ولا يرجعون عن اختلافهم؛ وسبب ذلك ما ذكرنا في الأمر الأول؛ لأنا إذا اختلفنا في معاني كلامه اختلفت أهواؤنا وصرنا مثل أهل الكتاب، غير أنّ رجاءهم كان معقودًا بهذا النبي، وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم. وأما نحن فليس لنا إلا هذا الكتاب المحفوظ".[1]

## هل كان الفراهي بِدعًا من القول بالنظام؟

إنّ موضوع النظام والتناسب في القرآن الكريم وعمد السور وما إليها من موضوعات النظرات العميقة والدقيقة لم يكن الإمام الفرافي بدعًا منها، بل كان الجلة من العلماء والمفسرين يقولون بذلك من قبل ومن بعد، من الأقدمين ومن المحدثين؛ وهذا ما نحاول إضاءته خلال المباحث الآتية:

[1] انظر فاتحة نظام القرآن، ص 3- 4.

## المبحث الأول: المنكرون للنظام والتناسب

ينسب هذا الإنكار إلى بعض الأعلام المرموقين كالإمامين العز بن عبد السلام، ومحمد بن علي الشوكاني رحمهما الله ومن درج على قولهما من المتأخرين.

يقول الإمام العز بن عبد السلام (ت 577هـ): "المناسبة علم حسن، ولكن لا يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة، لم يرتبط فيه ارتباطُ أحدِهما بالآخر" ويزيد الأمر بيانًا فيقول: "ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا ركيك يُصان عنه حسن الحديث فضلًا عن أحسنه، فإنّ القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة. وما كان كذلك لا يتأتى ربطُ بعضه ببعض إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب كتصرف الملوك والحكام والمفتين، وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة. وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض، مع اختلافهما في نفسها واختلاف أوقاتها".[1]

وهذا الإمام محمد بن علي الشوكاني (ت 1250هـ) يقول: "اعلم أنّ كثيرًا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة. بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف. فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف. ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلًا عن كلام الرب سبحانه. حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته".[2]

[1] البرهان في علوم القرآن، 37/1.

[2] انظر فتح القدير، 72/1.

## المبحث الثاني: الشبهات المثارة ودحضها

إنّ أبرز شبهة أثارها الفريق المنكر للنظام هي أنّ التماس المناسبة ضرب من التكلف والتكلم في القرآن بمحض الرأي المنهي عنه؛ وينبغي في دحض هذه الشبهة أن نبين أنّ الرأي المنهي عنه هو كل قول في كتاب الله بغير دليل ناهض؛[1] ويكفي أن يكون اكتشاف المناسبة في آيات الله تعالى بما تشهد له البراهين الساطعة، ويتفق مع سياقات الآيات، ولا يتعارض مع صحيح الروايات، ثم يتمشى مع أصالة اللغة العربية وأساليبها، يكفي أنْ يكون ذلك ضرباً من التدبر الذي دعانا إليه الله تعالى في أكثر من آية:

"كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩" [سورة ص: 29].

"أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤" [سورة محمد: 24].

"أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢" [سورة النساء: 82].

"وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥" [سورة الأنعام: 25].

قال الزركشي: "قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلًا وعلى حسب الحكمة ترتيبًا، والمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره

[1] وذلك مثل من فسر قوله تعالى: "ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ" [سورة النازعات: 17]. فأبعد النجعة إذ رأى أنّ فرعون هو النفس البشرية التي ينبغي مجاهدتها! لذلك قال ابن تيمية: "فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روي... فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به. فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه" انظر مقدمة في أصول التفسير، ص 46-50.

كلها وآياته بالتوقيف. وحافظ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل. وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى ولا كما نزل مفرقًا بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة".[1]

وكلمة الفصل يوضحها الإمام الفراهي في تقريراته حيث قال: "لما رأى أهل السنة أنّ أهل البدعة والباطل جعلوا يؤولون القرآن بالهوى، ويحملون النصوص على غير مرادها، تحرجوا من الاشتغال بالأقاويل في التفسير إلا ما روي عن الصحابة والتابعين. ولا شك أنهم لم يريدوا بذلك إلا سدًا لأبواب الفتنة. وكان ذلك هو الطريق. فإنّ التأويل إذا لم يؤسس على قواعده التي تكون فارقة بين الحق والباطل، لم يمنع عن القول بالرأي المحض.

أما الصحابة والتابعون فأوّلوا القرآن بالعلم والنظر الصحيح، فإن تصفحنا الأصول التي جروا عليها، كانت لنا أسوة حسنة في تدبر كتاب الله. وقد جمع أهل التأويل نبذًا من أقوالهم، ولكنهم لم يجمعوا أصول تدبرهم والحاجة إلى ذلك شديدة. فإنّ الله تعالى أوجب التفكر في كتابه بصريح القول في غير ما آية. وقد حث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على ذلك، وعلمهم النظر والاستنباط، وكان ذلك مما فرض الله عليه.

وإذ غلب على أكثر الناس أنّ القول بما لم يُرْوَ عن السلف هو القول بالرأي، فصار ذلك مانعًا عن التفكر والتدبر، احتجنا إلى بيان الفرق بين القول بالرأي المنهي عنه وبين طريق السلف الذين تفكروا وتدبروا في القرآن. وإلى بيان الحاجة الشديدة إلى استعمال الفكر والتدبر في كتاب الله.

من العجائب بل من المصائب أن يشتبه الحق بالباطل عند أهل الحق فيتعصبون للباطل ويعثرون في وضح النهار بعد ما جاءتهم البينات. فمن ذلك حرموا الفكر والنظر في آيات الله المشهودة المتلوة، وجعلوا السنة بدعة والبدعة سنة. وذلك بعد أن علموا

[1] البرهان في علوم القرآن، 37/1.

أنّ القرآن حث على الفكر والتدبر في كليهما، وأنّ الصحابة- رضي الله عنهم- كانوا يتدبرون القرآن، ويقولون بما فهموا منه ينقلون ذلك عنهم".[1]

وعليه فثمة حقائق في ضوء تلكم النصوص نقرّرها فيما يأتي:[2]

معايشة كتاب الله، والتفكر في آياته، والبحث عن أسراره وحكمه، والفحص عن كنوزه وفرائده بأسلوب علمي نزيه، مع إخلاص النية والتجرد لله، فضيلة ومحمدة حثّ عليها ربنا، وسنة سنّية كان عليها سلفنا الصالح.

محاولة التوصل إلى أسرار كلام الله في ظل أصول محكمة وقواعد ثابتة لا تسمّى تفسيرًا بالرأي.

التصدي لتفسير كتاب الله تحت سيطرة الهوى، أو بدون كفاءة علمية كافية هو التفسير بالرأي المنهي عنه في دين الله.

من كره العدول عن تفسير مأثور إلى تفسير آخر إنما كرهه خوفًا من البدعة وسدًا لأبواب الفتنة وإلا فإعمال الفكر والروية في كتاب الله ومحاولة الكشف عن أسراره وعلومه واجب من واجبات علماء الأمة.

الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يجتهدون رأيهم وما كانوا يمتنعون أبدًا عن تفسير القرآن إذا لم يكن عندهم شيء ثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعظم التفاسير المروية عنهم ليست إلا نتائج تدبرهم وتفكرهم في كتاب الله.

### المبحث الثالث: القائلون بالتناسب جمهور الأمة

إننا حين نتقفر كتب التفسير وعلوم القرآن والمفردة في التناسب ننتهي إلى أنّ القول بالتناسب كان عليه الجلّة من علماء السلف، وقد صدرت عنهم درر لطيفة تستجيد النظام،

[1] التكميل في أصول التأويل، ص 8- 9.

[2] انظر إمعان النظر في نظام الآي والسور للدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني، ص 65.

وتعتبره ضرباً من إعجاز النظم القرآني، وهذه عيّنات قديمة ومحدثة من أقوالهم البديعة:

قال مسلم بن يسار رحمه الله: "إذا حدثتَ عن الله حديثًا فقِفْ حتى تنظر ما قبله وما بعده".[1]

قال الشيخ أبو الحسن الشهرباني: "أول من أظهر ببغداد علم المناسبة، ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري، وكان عزيز العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة".[2]

يقول جار الله الزمخشري: "الحمد لله الذي أنزل القرآن كلامًا مؤلفًا منظمًا، ونزّله بحسب المصالح منجّمًا، وجعله بالتحميد مفتتحًا، وبالاستعاذة مختتمًا".[3]

يقول العلامةابن العربي: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علمٌ عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله ﷻ لنا فيه، فلما لم نجد له حمَلة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه".[4]

يقول الإمام فخر الدين الرازي: "إنّ أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط".[5]

قال الشيخ كمال الدين الزملكاني: "وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور، فما ظنك بالآيات وتعلق بعضها ببعض! بل عند التأمل يظهر أنّ القرآن كله كالكلمة الواحدة".[6]

---

[1] عمدة التفسير لابن كثير، 48/1.

[2] البرهان في علوم القرآن، 36/1.

[3] الكشاف عن حقائق التنزيل، 3/1-5.

[4] البرهان في علوم القرآن، 36/1.

[5] المصدر نفسه، 36/1.

[6] المصدر نفسه، 39/1.

قال الشيخ ولي الله الملوي: "والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جمٌّ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له".[1]

يقول ابن القيم: "وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت أو الرسالة أو الخطبة بعضها ببعض من أوله إلى آخره. ولهذا قيل: خير الكلام المسبوك المحبوك، الذي يأخذ بعضه برقاب بعض. والقرآن العظيم آياته كلها كذلك فاعرفه".[2]

قال أبو إسحاق الشاطبي: "فاعتبار جهة النظم مثلًا في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أنّ الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها".[3] وعليه فقد قرر بعد تحليل وتدقيق قائلًا: "فلا محالة أن ما هو كذلك فكلام واحد، فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار".[4]

يقول الإمام الزركشي: "ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز، ولهذا ترى صاحب "الكشاف" يجعل الذي سيق له الكلام معتمدًا، حتى كأنّ غيره مطروح".[5]

يقول الإمام البقاعي: "فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال... فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو" واسترسل رحمه الله في البيان قائلًا: "... وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات،

[1] المصدر نفسه، 37/1.
[2] الفوائد، ص 224.
[3] الموافقات، 279/3 (المسألة الثالثة عشرة).
[4] المصدر نفسه، 284/3.
[5] البرهان في علوم القرآن، 317/1.

وأنّ كل سورة أعيدت فيها قصة فالمعنى أدعى في تلك السورة، استدل عليه بتلك القصة، غير المعنى الذي سيقت له في السورة السابقة.

ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل، مع أنها لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذي تكونت به القصة. وعلى قدر غموض تلك المناسبات بان وضوحها بعد انكشافها".[1]

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: "أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجّمة، يحسبها الجاهل أضغاطًا من المعاني حُشيت حشوًا، وأوزاعًا من المباني جمعت عفوًا، فإذا هي لو تدبرتَ بُنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعبة وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة: لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام. كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلًا والمختلف مؤتلفًا.

ولماذا نقول إنّ هذه المعاني تتسق في السورة كما تتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم الأعضاء في جسم الإنسان: فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب. ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين. وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًا، كما يأخذ الجسم

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 1/6- 12 (بتصرف يسير).

قوامًا واحدًا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية".[1]

يقول الأستاذ الكبير سيّد قطب رحمه الله: "وهذه الرواية أقرب الروايات إلى تقديم تفسير مقبول لوضع السورتين هكذا، وعدم الفصل بينهما بسطر: "بسم الله الرحمن الرحيم" كما أنها تفيدنا في تقرير أنّ وضع الآيات في السور، وترتيبها في مواضعها كان يتم بأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته. وأنّ سورًا متعددة كانت تظل مفتوحة في الوقت الواحد، فإذا نزلت آية أو آيات في مناسبة واقعة تواجه واقعًا قائمًا، أو تكمل حكمًا أو تعدله، وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين، أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن توضع في موضعها من سورتها... وبذلك كانت هناك حكمة معينة في أن تتضمن كل سورة ما تضمنته من الآيات، وحكمة معينة كذلك في ترتيبها في مواضعها من السورة.

ولقد لاحظنا كما أثبتنا ذلك مرارًا في التعريف بالسور أنّ هناك شخصية خاصة لكل سورة، وسمات معينة تحدّد ملامح هذه الشخصية. كما أنّ هناك جوًا معينًا وظلالًا معينة. ثم تعبيرات بتعبيرات بعينها في السورة الواحدة، تؤكد هذه الملامح وتبرز تلك الشخصية! ولعل في الفقرة السابقة، وفي حديث ابن عباس قبلها، ما يفسر هذه الظاهرة الواضحة التي أثبتناها مرارًا في التعريف بالسور في هذه الظلال".[2]

يقول الإمام الفراهي رحمه الله كما مرّ معنا: "إني رأيت جلّ اختلاف الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمودُ الكلام لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سواء "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾" [سورة إبراهيم: 24]...وقال رحمه الله: "إنه لا يخفى أنّ نظم الكلام جزء منه، فإنْ تركته ذهب بعض معناه، فإن للتركيب معنًى زائدًا على معنى الأجزاء. فلا شك أنّ من

[1] النبأ العظيم، ص 155.

[2] في ظلال القرآن، 111/4- 112.

حرم فهم النظام فقد حرم حظًا وافرًا من معنى الكلام".[1] فالنظام حسب الفراهي "المقصود به ما يسمّيه الكتّاب المعاصرون بالوحدة الموضوعية، ويختلف النظام- برأيه- عن التناسب، فالتناسب جزء من النظام"[2] كما مرّ معنا.

## المبحث الرابع: التناسب والنظام ضرب من البلاغة

إنّ القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، يتجلى فيه الإعجاز البياني من غير خلاف، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، في رحابه حطت رحال البلاغة وأسرار الفصاحة، فهو مصدرها، ما يجعل قضية التناسب في آياته ضربًا من البلاغة والفصاحة وحسن البيان ورونق الأسلوب، ولما كان العرب يأنفون فضول الكلام، ويستجيدون منه ما كان على غاية من الإحكام، فصار الاقتضاب ظاهرة صحية ينفع في الوثب إلى معاني سامية، ونكتشف الخيط الرابط بعمق تدبرنا، ودقة متابعتنا للخطاب القرآني وأسلوبه، وهو ما أقره بلغاء العرب والعربية السامقون في عباراتهم الدقيقة الآتية:

البلاغة: أن يكون أول كلامك يدل على آخره، وآخره يرتبط بأوله.[3]

البلاغة: القوة على البيان مع حسن النظام.[4]

أبلغ الكلام: ما حسُن إيجازُه، وقلّ مجازُه، وكثر إعجازُه، وتناسبت صدورُه وأعجازُه.[5]

البلاغة: إجاعة اللفظ وإشباع المعنى.[6]

البلاغة: معان كثيرة في ألفاظ قليلة.[7]

---

[1] انظر فاتحة نظام القرآن، ص 3-4.

[2] من مقدمة الناشر لتفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان للفراهي، ص 4- 5.

[3] العمدة لابن رشيق، 244/1.

[4] المصدر نفسه، 244/1.

[5] المصدر نفسه، 246/1.

[6] المصدر نفسه، 242/1.

[7] المصدر نفسه، 242/1.

البلاغة: إصابة المعنى وحسن الإيجاز.[1]

البلاغة: لمحة دالة.[2]

البلاغة: كلمة تكشف عن البقية.[3]

البلاغة: بلوغ المعنى ولمّا يطل سفر الكلام.[4]

البليغ: من اقتصر على الإيجاز، وتنكب الفضول.[5]

البليغ: من يحوك الكلام على حسب الأماني ويخيط الألفاظ على قدود المعاني.[6]

لتكون بليغًا: فلتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد.[7]

يقول ابن القيم: "قال علماء البيان: التخلص هو أن يأخذ المؤلف في معنى من المعاني، فبينما هو فيه، إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سببًا إليه، فيكون بعضه آخذًا برقاب بعض من غير أن يقطع المؤلف كلامه ويستأنف كلامًا آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغًا... وقد ورد في القرآن العظيم من هذا النوع آيات كثيرة".[8] وهذا ما يعزز وجود النظام ومسألة التناسب في آيات الله الواسعة.

وهذه مسألة الحذف: بحيث وردت في كلام العرب: نثرهم وشعرهم، نظراً لولوعهم بالإيجاز، وجنوحهم إلى إجاعة اللفظ وإشباع المعنى، مع وجود الإنسان العربي

[1] المصدر نفسه، 242/1.

[2] قالها خلف الأحمر. انظر المصدر نفسه، 242/1.

[3] قال الخليل بن أحمد الفراهيدي. انظر المصدر نفسه، 242/1.

[4] قالها ابن المعتز. انظر المصدر نفسه، 242/1.

[5] قالها عمرو بن العاص ﷺ حين سأله معاوية بن أبي سفيان: من أبلغ الناس؟ انظر المصدر نفسه، 242/1.

[6] العمدة، 128/1، وزهر الآداب، 153/1.

[7] زهر الآداب للقيرواني، 152/1.

[8] الفوائد لابن القيم، ص 140-141.

الأحوذي ذي القريحة الذي يفهم مقاصد الكلام، كان يستثقل الحشو، والإسهاب من غير مسوغ بلاغي، فكان الحذف في كلامهم يشبه بالوثبات؛ قال الإمام عبد الحميد الفراهي: "الحذف في كلامهم يشبه كلامهم بالوثبات، والقرآن كمطر السحاب من وجوه مختلفة، وهذه الوثبة من بعض وجوه المطر. قال امرؤ القيس في صفة السحاب ومطره:

له وثباتٌ كوثب الظباء فواد خطاء وواد مطر

فالكلام الذي لا حذف فيه لا محل فيه للعقل والنظر، وهو كدبيب لنمل، والعرب لا تستجيده ولا تتأثر به لذكائهم وسرعة فهمهم وتنفّرهم عن الفضول، وإن كان ضروريًا عند غيرهم، وهذا مبسوط في بحث الحذف".[1]

ومن تعوّد على الكلام البليغ صارت البلاغة صنعته ويمكن ارتجالها من غير تصنع؛ ما يدلنا على أنّ كلام الله الذي نكتشف أسراره يومًا بعد يوم؛ ونربط أوله بآخره، في تناسب كامل؛ يقول الإمام عبد الحميد الفراهي في سطور هي روعة من البيان، تنبئ عن امتلاكه ناصية العربية، يقول رحمه الله: "الذي لا يجد في نفسه قدرة على الارتجال يظنه أمرًا بعيدًا، ولا يؤمن به، لاسيما إذا رأى كلامًا ملئ حكمة ودقة وتنوعًا وإصابة، فإذا رأى سرعة تصنيف في أحد ظنّ أنه كان في خطبة أو شعر أو كان في تأليف أو تصنيف حكمي أمر ممكن وليس من المستبعد الذي يُعدّ محالًا، فإنه أمر قد وقع ويقع. نعم إنه قليل، وأكثر هذا القليل غير مستجاد. كما هو الشأن عند الرازي في سرعة تصنيفه فإنه ما جاء إلا في وهن كنسج العناكب.

ولكي أقرب لك هذا الأمر أضرب لك مثل الريح المعصرة فحين لا ترى السماء إلا كلبة فإذا بريح باردة ثم بقطعة غمامة. وبينما ننظر إذ هي غطت السماء ثم ما هي إلا

[1] دلائل النظام، ص 67-68.

سخٌّ وتسكاب حتى فاض السهل وأفعم البطاح.

فكما أنّ الجو ممتلئ بالبخار، ومسُّ الريح جعله غمامة ثم وابلًا ثم سيلًا كأن محتلبًا يمس ضرع لقحة، فكذلك عقلك ممتلئ خيالًا وعلمًا لا تحس به، ولا تريد أن تقول أو تكتب شيئًا حتى إن وافته باعثة ودعته داعية أنشأت العجائب لا تدري أين كانت ومن أين جاءت. فتسمّيها إلهامًا وإلقاء ولست مخطئا في هذه التسمية.

وليس الارتجال في الأقوال بأعجب من الارتجال في الفعال. ألا ترى أنّ العرب كيف بلغوا الغاية في التمدن في قليل من الزمان.

فقوم تراهم يمشون وكأنهم واقفون، وقوم يمرون كأنهم برق خاطف، فإذا سمعت أنّ العرب كانوا يلقون من غير رويّة خطبًا بليغة طوالًا، أو ينشدون القصائد الغرار ارتجالًا، أفلا تظنهم أجدر بهذا من أقوام يدبّون دبيب النمل.

وقد علمت مما نطقوا في مواسمهم وحروبهم من الخطب والقصائد والرجز حتى كأنهم لم يملكوا أن يردوا شقشقة لسانهم وجيش صدورهم فتراهم أولى باسم الحيّ الناطق ممن سواهم".[1]

## المبحث الخامس: مزايا تتبع النظام الذي دعا إليه الفراهي

إنّ الذي يؤمن بنظام الآيات ويؤمن برباط المعاني في كتاب الله، ويعنى به عناية بالغة من يرغب عن هذه الفكرة ولا يرفع بها رأسًا.

ومن العسير جدًا أنْ نعدد تلك المزايا كلها ونحصيها إحصاء، فلا أقل من أن نشير إلى ما يتسم بالأهمية منها وهي كما يأتي:

التأمل في النظام يرشد إلى فحوى الكلام وملابساته، والذي يغفل عنه يتعذر عليه

[1] جمهرة البلاغة للفراهي، ص 83-84.

العثور على ما ترمي إليه تلك الآيات.

النظام هو الدليل إلى صحيح التأويل إذا اشتبهت الوجوه وكثرت الاحتمالات.

النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه، كما أنه سرّ من أسرار إعجازه، فإنه هو الذي جعل القرآن بحراً لا يسبر غوره ولا ينفد كنزه.

النظام يجلي الأمور في أكمل صورها، ويكشف عن قدرها وأهميتها، وإذا لم ننتبه لنظام الآيات فكثير من الأمور لا ندركها، ونظل غافلين عن قدرها وأهميتها.

النظام يشخص معاني الآيات المكررة، ويحدد مراميها، لكن الذي يغفل عنه يتعثر ولا يكاد يفرق بين موطن وآخر.

النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن، لكن الذي لا يهتم به يتعذر عليه أن يتذوق بلاغة القرآن، أو يدرك ميزته التي أعجزت فرسان الكلام.

رعاية النظام تفتح على الدارس ما تقر به عينه، ويستنير به قلبه، وتورثه برد اليقين، الذي لا يتزلزل ولا يتزعزع.

رعاية النظام تمكّن من فهم أسباب النزول، والذي يغفل عنه يتحير في فهمها، ويضعها في غير موضعها، ثم يتحير في تأويل الآيات وتفسيرها.

رعاية النظام والبحث عن رباط الآيات هي المحك الناجح لنقد الروايات التفسيرية؛ فبها تتميز الضعاف من الصحاح، ويتميز السقيم من السليم.

رعاية النظام في دراسة القرآن تساعد على الوصول إلى أصول الصحاح في القرآن، فإنّ الأحاديث الصحاح مأخوذة منه كما نص عليه فريق من جلّة العلماء.

الوقوف على نظام الآيات يسمو بالدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة التي لا يصل إليها أبدًا من لا يهتم بنظامها، فإنّ هذه المشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بزيادة المعرفة

بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان.[1]

تلك إحدى عشرة مزية يتميز بها من يتدبر القرآن ويتمسك في تدبره بسياق الكلام ولطائف النظام، ولا يغفل عن الوشائج التي تربط المعاني بعضها ببعض؛ لذلك قال ابن تيمية رحمه الله: "فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن، تبين له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه أكثر غلطًا من المفسرين المشهورين، فإنهم لا يقصدون معرفة معناه كما يقصد ذلك المفسرون".[2]

قال الشاطبي: "كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى السياق في دلالة الصيغ وإلا صار مضحكة وهزءة، ألا ترى إلى قولهم: فلان أسد، أو حمار، أو عظيم الرماد، أو جبان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القرط، وما لا ينحصر من الأمثلة، لو اعتبر اللفظ بمجرده لم يكن له معنى معقول، فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".[3]

**الربط بين السورتين السابقة واللاحقة:** إنّ مسألة الربط بين السورتين السابقة والتالية اللاحقة طغت على تفسير الإمام الفراهي في حدود ما وصلنا من تفسيره الموسوم بنظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، على أنّ ذلكم الربط جزء من النظام، يضفي على عمود السورة رونقًا وجمالًا معنويًا رائعًا، وهذه أنموذجات نحاول سوقها مع شيء من التصرف بما يقتضيه المقام من تفسير الإمام الهمام الفراهي رحمه الله تعالى وفق الآتي:

[1] انظر إمعان النظر في نظام الآي والسور للدكتور محمد عناية الله أسد سبحاني، ص 105-106.
[2] مجموع الفتاوى، 94/15.
[3] الموافقات، 419/3- 420.

### المبحث الأول: ربط سورة "الذاريات" بما قبلها "ق"

اعلم أنّ في السابقة (سورة ق) إثبات البعث وإبطال شبهتهم فيه، وفي هذه السورة إثبات الجزاء.

فبدأ السابقة بقوله: "قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣" [سورة ق: 1- 3].

وأما هذه السورة (الذاريات) فلما جعل عمودها جهة الدينونة والجزاء بدأها بالشهادات عليها وصرح بها حيث قال: "إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦" [سورة الذاريات: 5- 6].

### المبحث الثاني: ربط سورة "التحريم" بما قبلها وما بعدها

هذه السورة آخر السور العشر التي نزلت في تطهير المؤمنين وتزكيتهم كما وعد الله، وهي خاتمة سورة الأحكام الشرعية. وتفصيل هذا البحث في أول سورة الحديد. وهي صنو لسورة الطلاق التي قبلها. وختم هذه العشر الكاملة بهذه السورة التي تؤكد الاحتساب الشديد على أنفسهم وأهليهم، وختم هذه السورة بما صرح بأنّ في دين الله العزيز "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ".

### المبحث الثالث: ربط سورة "القيامة" ما قبلها وما بعدها

ولما كانت السورة السابقة (سورة المدثر) قد صرحت بحالهم من الاستكبار والإنكار، وذكرتهم بتهويل شديد: "ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦" [سورة المدثر: 11- 26] قلّل في

هذه السورة (سورة القيامة) من ذلك التصريح وخاطبهم بالدلائل، ومع ذلك تجد في أسلوب السورة بقايا الغضب من ذكر عتو الإنسان واجترائه.[1]

وأما علاقتها بما بعدها فالكلام يجري من غاية الشدة والتصريح إلى حد وسط... فالسورتان تخاطبان المنكرين، ثم في سورة الإنسان ترى الالتفات إلى المؤمنين كأنّ الخطيب قد فرغ من الكافرين فأعرض عنهم. مع أنّ عمود هذه السور الثلاث واحد، فوجه الكلام فيهن من الشدة إلى اللين، ومن الزجر والنهر إلى الإعراض والإهمال، لكي يتفكروا ويرجعوا إلى أنفسهم.[2]

**المبحث الرابع: ربط سورة "المرسلات" ما قبلها وما بعدها**

في السورة السابقة ورد الاستدلال على المعاد فبسط في هذه السورة (المرسلات)، وهناك في تصوير المعاد بسط جانب الترغيب، فههنا بسط جانب الترهيب، وذلك رعاية لإلحاق الإنذار بالتبشير.[3]

**المبحث الخامس: ربط سورة "عبس" ما قبلها وما بعدها**

وقد ختم السورة السابقة بقوله: "إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾" [سورة النازعات: 45]. فبيّن في هذه السورة أنك غير مأمور بالإلحاح على الذين لا يخشعون. ولما علم الله أنّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لغاية رأفته لا يكاد يملك نفسه عن الإلحاح أكثر في القرآن من النهي عنه على طرق شتى.. ولما أنّ القرآن ينتظر الوقائع المناسبة لتعليم الأمور، فأخذ واقعة الأعمى سبباً لصرف النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن الإصرار الذي لا يليق بشأنه، فأخرج الكلام مخرج التنبيه والعتاب بحسب الظاهر.[4]

[1] نظام القرآن، ص 214، بتصرف.
[2] المصدر نفسه، ص 242.
[3] المصدر نفسه، ص 248.
[4] المصدر نفسه، ص 273.

### المبحث السادس: ربط سورة "الشمس" بالتي قبلها والتي بعدها

ربط في السورة السابقة أصحاب الميمنة والمشأمة الذين بدلوا نعمة الله وأبطلوا مقصد أمانته وفرائض بيته من المواساة، فشقوا به أكبر شقوة لطغيانهم. فضرب لهم مثلًا في هذه السورة من قصة أشقى الناس الذي جلب عليهم الهلاك، لما اجترأ في جنب الله. فقريش أولًا هدموا مقصد بيته الحرام، وثانيًا سيهمّون برسوله المكرم مثل ثمود فيشقون به كما شقوا بكعبته.

ثم بعد هذا الإنذار العظيم رجع إلى أمر المواساة، وبين حال المعطي الأتقى والبخيل الأشقى. ومآل أمرهما في السورة التالية، كما ستعرف في تفسيرها.[1]

### المبحث السابع: ربط سورة "التين" بما قبلها وما بعدها

تضمنت السورتان السابقتان ما حمل النبي الكريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من أعباء هذه البعثة العظمى التي أسّس بنيانها بيد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وجعل لأجلهما هذا البلد مأمونًا من كيد الأعداء. ولذلك أسكن فيه إبراهيم ذريته. ومع أنّ الله تعالى أخر أمرها وغشى موضعها ظلمة إلى مدة، ما ودعهم وما قلاهم حتى أشرقه بنور أتم. فبعث فيه هذا النبي ليكمل مقصد بناء هذا البلد، وهو التوحيد الكامل والمواساة بالضعفاء. والرب تعالى حكيم عليم وجعل لكل أمر أجلًا مسمّى.

فذكر في سورة التين كيف يدين الإنسان بالحكمة، ويقيم من بينهم أمة ويعطيهم الأمانة، ويرفع قومًا ويضع قومًا ليدينهم حسبما أوفوا بعهده وأمانته، كما قال تعالى: "وَهُوَٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾" [سورة الأنعام: 165]. فذكر في هذه السورة شواهد على ظهور بركات هذا البلد، وإن كان هذا مبنيًا على سنة الله

[1] المصدر نفسه، ص 312.

بالإنسان من أول أمره.

فبحسب هذا الربط أتبع هذه سورة البلد سورة اقرأ، وجعل نعمه غاية خلق الإنسان والبرهان على كونه أحسن تقويم وبين ذلك في السورة التالية فقال: "ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥" [سورة العلق: 10 5]... وبالجملة فكون الإنسان في أحسن تقويم يتبعه أن يعطى القرآن، فإن ذلك هو الرجوع إلى أحسن تقويم، وبروز ما أودع في فطرته من الكمال.[1]

## المبحث الثامن: ربط سورة "العصر" بالتي قبلها والتي بعدها

اعلم أنه قد مرّ في السورة السابقة أنّ أهل العلم انهمكوا في طلب المال، فأفنوا فيه أعمارهم، وهذا هو الخسران العظيم.[2] فهذا ذكر أهل النعيم المستهزئين بالرسل، وآيات الله، ولقائه. وفي أول سورة العصر بيّن خسران هؤلاء واضحًا، ثم بيّن طريق الفلاح واقتناء الفوز العظيم والحظ الكامل من هذا العمر المستودع لكي يتنافسوا فيما هو أحق به، وينتبهوا عن نوم اللهو والغفلة قبل الفوات والحسرة.[3]

والسورة التالية في تصوير عقاب هذه الطائفة، وذلتها، وهوانها على رغم حبها للترف، والعزة، والفخار. فوضع هذه السورة بينهما بحيث ينبههم على خيبة عملهم وضلال رأيهم.[4]

---

[1] المصدر نفسه، ص 373- 375، بتصرف.

[2] كما قال الله تعالى: "قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠٦" [سورة الكهف: 103-106].

[3] نظام القرآن، ص 382.

[4] المصدر نفسه، ص 410.

**المبحث التاسع: ربط سورة "الفيل" بالتي قبلها والتي بعدها**

ذكر القرآن في السورة السابقة كل همزة لمزة مفتخر بماله، ذاهل عن مآله، فدعا عليه بالويل وأنبأه بأنه ينبذ في الحطمة والنار الموقدة. ففي هذه السورة إشهاد على ما فعل بأمثاله حين اعتمدوا على قوة شوكتهم واجترأوا على الله؛ لأنهم قد علموا في كتبهم حرمة هذا البيت العتيق. وقد فعلوا مثل ذلك بالمسجد في أورشليم عناداً لليهود كما فعل اليهود بهم. وفي السورة التالية (قريش) قال: "فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣" [سورة قريش: 3] لكي يعرفوا منزلة هذه النعمة[1] التي فضلهم لما على سائر الأمم.[2]

**المبحث العاشر: ربط سورة "الكوثر" بما قبلها وما بعدها**

إنّ السورة السابقة نزلت في ذكر الذين كبرت خيانتهم في ولاية الكعبة، لما أنهم أفسدوا الحج ومناسكها وأبطلوا حقيقة الصلاة والنحر بإبطال التوحيد والمواساة بالمساكين، فباءوا بالويل واللعنة، وحق لهم أن يسلبهم الله هذا الخير ويعطيه من استحقه حسب سنته كما قال: "وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم" [سورة محمد: 38]. وكأنّ الله تعالى ينزع ولاية الكعبة من الخائنين. فبهذه السورة بشّر الله تعالى نبيه بأنه اصطفاه وأمته لولاية بيته المحرم، ومسكن خليله وذريته التي يبارك بها الأمم... ولا شك أنّ هذا العطاء هو الفوز الأكبر والخير الكوثر، وهو الضمان للحوض الكوثر الذي يعطيه الله تعالى في الآخرة. فموضع هذه السورة بالتي قبلها كموقع ذكر النعمة بعد النقمة، والعطاء بعد السلب، والمستخلفين بعد المهلكين.[3]

[1] لأنّ عمود هذه السورة هو تمهيد وجوب الشكر لله تعالى بذكر ما جعل لأهل مكة خصوصا والعرب عموماً من العز والكرامة بما حماهم وبلدهم ببركة هذا البيت المحرم.

[2] نظام القرآن، ص 425-427 بتصرف.

[3] المصدر نفسه، ص 483. بتصرف.

ولما كانت السورة التالية (الكافرون) في إعلان الهجرة من جوار بيته حسن في نظم الكلام تقديم سورة التبشير والتسلية؛ ليدلّ القرآن بنظمه على أنّ الله تعالى قضى باليسر قبل العسرة وإن كان وقوعه بعدها. فترى أنّ إعلان الهجرة الذي تضمنته سورة (الكافرون) وضع بين سورتي التبشير (الكوثر) وسورة (النصر). ثم لما كانت هذه السورة بشارة للنبي بكثرة أحبائه، وبقطع أعدائه عن بركات الكعبة جاءت الكافرون بيانًا لأصل هذه المقاطعة: وهو التوحيد الذي بنى عليه هذا بيت الله الواحد.

**المبحث الحادي عشر: ربط سورة "الكافرون" بما قبلها وما بعدها**

قد علمت أنّ في سورة الكوثر بشارة لظهور هذه الأمة وسموّ أمرها وجمع شملها، وحكمًا على قطع عدوها من الشجرة المباركة للإسلام. فأتبعها بهذه السورة التي تعلن بقطع حبال المودة من الكفار، وتركهم مقطوعين عن الأمة المباركة.[1]

ولما كانت هذه السورة سورة الحرب أتبعها الله بسورة النصر للدلالة على أن النصر متصل بالحرب، كما ترى في القرآن كثيرًا اتصال هذين الأمرين.[2]

**المبحث الثاني عشر: ربط سورة "اللهب" بما قبلها وما بعدها**

فوضع سورة اللهب بين هؤلاء لابد له من سبب؛ لكي لا يكون قاطعًا لربط بعضها ببعض. فاعلم أنّ سورة اللهب تؤكد وتوضح معنى النصر المذكور قبلها وتبشر به كأنه قيل: "قد نصر الله نبيه وأهلك عدوه".. وقوله: "تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١" [سورة المسد: 1]، وتبت يداه: أي إنه صار عاجزًا عن الانتصار؛ لأنّ كسر اليد كناية واضحة عن كسر القوة والعجز.[3]

[1] المصدر نفسه، ص 551.

[2] المصدر نفسه، ص 569.

[3] المصدر نفسه، ص 575-576، بتصرف.

وقد اتضح خصوصية أبي لهب بالذكر دون سائر الكفار على وجه يدل على مناسبة السورة بما قبلها، وعلى أنها ليست بدعاء ولا شتمًا لمخالفته للنبي ﷺ... فهي تمهيد للإخلاص الذي أعلنه في السورة التالية. وبيان ذلك أنّ الله تعالى إذا خص بصراحة الذكر هذا عم النبي دون سائر الكفار مع شدة إيذائهم إياه علمناه أنه ضرب مثلًا مثل آزر، لنعلم أنّ مَنْ قطعته أعماله عن ربه لن تنفعه قرابة الصلحاء حتى النبي الحبيب.

فكما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه بعد إتمام الحجة وإفراغ الجهد في النصيحة له، فكذلك هذا النبي صدع بالحق خلاف عمه بعد إتمام الدعوة ولزوم الهجرة، وهذا أشد عليه. فإنه عليه السلام كان على غاية الرحمة عمومًا وبذوي القربى خصوصًا كما علمنا من أحواله، وكان يستغفر لهم حتى نهاه الله عنه.[1]

## دلائل النظام

إنّ دلائل النظام من أهم ما تركه الإمام الفراهي، لأنه المفصح عن اهتماماته، والمعرب عن مشروعه الذي قضى فيه عمراً طويلًا ولم يكمله، وهنا نعلق بما يسمح به المقام على كتاب "دلائل النظام" وقد سبق تفصيل بعض الموضوعات فيه كالنظام وعمود السورة ومحاور أخرى. نتناول الكتاب وفق المباحث الآتية:

[1] المصدر نفسه، ص 583-584، بتصرف؛ وذلك في قوله تعالى: "لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۚ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾" [سورة الممتحنة: 3- 4].

وقوله تعالى أيضًا: "وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾" [سورة التوبة: 114].

## المبحث الأول: كتاب: "دلائل النظام"

للإمام الفراهي كتاب نفيس بعنوان: "دلائل النظام" من أنفس ما انعقدت عليه خناصره، وطبع ضمن المجموعة الأولى في علوم القرآن،وتشتمل على ثلاث رسائل:

1. دلائل النظام.
2. أساليب القرآن.
3. التكميل في أصول التأويل.

وسبقت الإشارة إلى الكتب الثلاثة وتوظيفها في استكشاف أصول التأويل عند الإمام، والنظام وغيره. وقد نشرت الكتاب الدائرة الحميدية في طبعتها الثالثة عام 2005م بالهند.

## المبحث الثاني: أهمية الكتاب

جاء الكتاب في حوالي (131) صفحة. وقد جاء في كلمة الجامع بدر الدين الإصلاحي المكتوبة في غرة محرم، 1388هـ، في حوالي سبع صفحات قال فيها: "لا نبالغ إذا قلنا إنه كتاب لم يصنف مثله من قبل".

وأشار إلى أنّ المؤلف أثبت بهذا الكتاب أولًا أنّ للترتيب والنظام حظًا وافرًا في كل مركب، لا سيما في الكلام البليغ وعلى رأسه كتاب الله تعالى، ثم صرح بعد ذلك بأنّ القرآن كلام مرتب ومنظم من أوله إلى آخره على غاية حسن النظام والترتيب.

ثم أوضح الوسائل التي تهدي إلى معرفة النظام، وأهمها التدبر في الكتاب العزيز، وأنّ لذلك التدبر أساسًا أيضًا وهو الإيمان الصادق بالآخرة. فمن تدبر وهو مؤمن بالآخرة صدقًا وحقًا وكان عالمًا بصحيح علوم اللسان فسيفتح الله له من حسن نظام كتابه ودقائق حكمته وإعجاز بلاغته ما يفتح.

ثم مهّد السبيل إلى طريق استنباط علم النظام وأصوله، ولا شك أنه قد أدّى حقه وأوفى ذمته، حتى جعله فتقلًا على أصول راسخة، مستنبطة من أساليب القرآن وقواعد اللسان.

ثم بيّن الجامع أن جماعة من العلماء المتقدمين قصدوا إلى هذا العلم وأشاروا إلى أنّ علم المناسبة علم شريف، ثم قارن بين جهودهم- ولهم فضل السبق- وبيّن جهد الإمام الفراهي رحمه الله حيث جعل الجدول بحراً زاخراً، كما وضح الفرق بين علم النظام وعلم المناسبة.[1]

ثم إنّ الإمام الفراهي لم يتيسر له إلا أن يرتب الفقرات العشر الأولى من هذا الكتاب، أما ما بقي فقد كان مبثوثًا في مخطوطاته، والجامع هو من قام بترتيبه.

وإذا لم يكن أكثر هذا المجموع إلا كإشارات التي يختزنها المصنفون لمصنفاتهم من غير تفصيل، فلا غرو إن كان فيه شيء من الإجمال والإبهام فحري بأهل الفكر أن يتفكروا فيه، فإن في التفكير رياضة.

## المبحث الثالث: النظام لماذا؟

للإمام الفراهي كلمة تحت عنوان: النظام لماذا؟ قال فيها: المقصود من معرفة النظام ليس إلا التدبر، فإنه الإقليد له.- أي المفتاح له-.

ثم إنّ التدبر في الكتاب هو الوسيلة إلى الهدى والتقوى، فهما أصلان، فإنّ النفس بالهدى تستبصر وبالتقوى تتزكى، والإيمان مع شعبه العلمية يدخل في الهدى، والشرائع والأخلاق والأحوال تدخل في التقوى. وقد بيّن الله ذلك في القرآن والتوراة والإنجيل. ثم يهتدي إلى النظام بأوائل التدبر، فيضطر إلى معرفة النظام، فإنّ أقل جملة من القرآن تستدعي تدبراً وتهدي إلى ما هو فوقه وثم فثم حتى إذا اتضح النظام كل الاتضاح تجلت محاسن السورة والحكمة التي هي تمام العلم والتقوى.

[1] تعرض رحمه لهذا الفرق وقد أوردناه في محله من سفرنا هذا حين التفريق بين النظام والمناسبة! فلا داعي لإعادته ههنا.

**المبحث الرابع: النظام لمن؟**

من خلال كتابه "دلائل النظام" أشار رحمه الله إلى أنّ معرفة النظام ضرورية للعلماء حتى يعلموا الناس حسب ما فهموا؛ فإنهم إن لم يفهموه واختلفوا فيه فكيف يرشدون الناس؟

وقد شرع رحمه الله في مقدمة مختصرة وضح فيها أنه يقصد بهذا الكتاب بيان ثلاثة أمور هي:

- ما يدل على وجود النظام في القرآن ويثبته.

- ما يهدي إلى معرفة النظام وطريق استنباطه.

- إيراد أمثلة لترتيب المطالب وترتيب سورة سورة.

وقد وضح رحمه الله موضوع الكتاب وهو معرفة النظم في معاني الآيات والسور، وهو يشير هنا إلى أنه لا شك عنده أنّ ترتيب السور توقيفي كما هو ترتيب الآيات في كل سورة وأشار رحمه الله إلى أنه فصل في ذلك في كتاب له بعنوان (تاريخ القرآن).

**المبحث الخامس: أسباب قلة الاعتناء بعلم النظام وردها**

يمكن اختزال أسباب قلة الاعتناء بعلم النظام في سببين:

عدم إدراك أهمية النظام وبالتالي الزهد فيه.

قول بعضهم إنّ القرآن أنزل للعمل به والاستهداء بنوره لا للاشتغال بلطائفه ونكات بلاغته.

وقد تولّى الفراهي الرد بقوله: "إنّ هذا القائل لم يتصور ما نحن بصدده، فلطائف البلاغة ووجوه الإعجاز ليست مقصودة لذواتها، ولا هي غاية ما تفوز به، بل ليست معرفة نظام الكلام وروابط معاني الآيات طلبتنا- كل ذلك يأتيك عرضًا- إنما المقصود هو التدبر في معنى القرآن الذي سيق إليه بيانه، ومعرفة

النظم إنما هي الوسيلة إليه، فهل تظن أنك في غنى عن ذلك؟ أن ليس لك حاجة إلى ما أنزل الله إليك من عيون الحكمة والنور والشفاء؟ وهل ترضى أن تجعل نفسك ممن يظن أنّ كتب الفقه قد تكفّلت مما أمر الله ونهى، فلم تبق لنا حاجة إلى القرآن؟ أليس أنّ ظواهر الأحكام منوطة بالعقائد والنيات؟ ولكن إذا غلب الفساد، وفسدت العقائد... تبدد من الملة نظامها، وزاغ من الشريعة قوامها، واستحوذ سلطان البدع والأهواء، اشتد احتياجها إلى الحكمة الإلهية، ومعرفة طريق الشفاء، والخروج من فتن الشقاق في الدين، حين التبس الطريق، وأعجب كل ذي رأي برأيه، وضرب الجهل بجرانه، ورفض الاستهداء بالقرآن الحكيم الذي عرفه الله تعالى بالنور والشفاء، وعشوا عن الحكمة التي أودعها الله تعالى كتابه، فهل يطلع عليها من يمر به كالراكب السريع أو الريح العاصف؟ ولولا ذلك فلماذا أمرنا الله تعالى بالتدبر في كتابه والتفكر في آياته؟".[1]

## المبحث السادس: أهمية العمود

سبق أن وقفنا مع عمود السورة لدى الإمام الفراهي لكنه في الدلائل أبدع فقال: "وأما العمود فهو جماع مطالب الخطاب، فإليه مجرى الكلام وهو المحصول والمقصود منه، فليس من أجزائه الترتيبية، ولكنه يسري فيه كالروح والسر، والكلام شرحه وتفصيله، وإنتاجه وتعليله، وربما يحسن إخفاؤه فلا يطلع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبر".

ثم قال أيضًا: "العمود كالحد المنطقي، لا يلع عليه بالصحة إلا بعد رجع النظر في النظم وعلم روابط الجملات وإحاطة المطالب جملة، ثم إن وجدت العمود المفروض، أوفق بالنظم وأقرب إلى زيادة التوضيح وحسن التنظيم، فقد أصبت، وإلا بلا بد من طلب عمود آخر".[2]

[1] انظر دلائل النظام، ص 29- 30.

[2] المصدر نفسه، ص 85.

### المبحث السابع: لماذا جعلت بعض السور غاية في الإيجاز؟

لقد أشار رحمه الله إلى أهمية جعل بعض السور غاية في الإيجاز والقصر، كسورة العصر، وسورة الكوثر، وسورة الإخلاص، وما يقرب منها؛ وذلك لتحقيق وعد الله سبحانه بحفظ هذا الدين؛ حيث جعل الأصول الكلية الجامعة لهذا الدين على غاية الإيجاز والوضوح فيها، فإن لم يحفظ أفراد الأمة كتاب الله كاملًا لم يعجزهم حفظ هذه القصار، فيحفظ الله عليهم بهذه السور دينهم. فصرح رحمه الله في موضع آخر بقوله: "السور القصار ألذ وأحلى، وأسهل وأجلى، فالقارئ ينتظرها كالمسافر إلى منزل طيب مريع بهيج، أو كما يوضع على المائدة أحلى الأطعمة في الآخر، أو كما أنّ المرء يترقى من الأرض إلى السماء، فكلما قرب إلى آخر القرآن قرب إلى معالي الأمور، وأصول الدين".[1]

### المبحث الثامن: النظر في معالم السور يعين على استخراج العمود

قال رحمه الله: "فإنك ترى في كل سورة ما يكون نادرة وليس ذلك ما نريد بالعمود، ولكن النظر إلى معالم السور من المهمات، وربما يعين على استخراج العمود، ولا جامع لهذه المعالم، فإنها تجلب الالتفات من جهات مختلفة: فبعضها من جهة اللغة، وبعضها من جهة الإعراب، وبعضها من جهة البلاغة، وبعضها من جهة التاريخ، وبعضها من جهة الفقه، وبعضها من جهة الحكمة وهلم جرًا، غير أنها تستدعي التوجه في أول النظر كأنها نادر على يفاع، فلا يسوغ التغافل عنها".[2]

### المبحث التاسع: الحذف أسلوب أصيل

قال رحمه الله: "اعلم أنّ كلام العرب كله نمط أعلى من كلام الأمم الذي تعوّدت به؛ لأنهم مولعون برزنامة القول وتهذيبه من أمور سخيفة، فهم يجردون كلامهم من

[1] المصدر نفسه، ص 98.

[2] المصدر نفسه، ص 92- 93.

كل رابطة، ولو فعلوا ذلك كان عارًا على السامع؛ فإنه يفهم الروابط بذكائه؛ فلذلك كثر فيهم الحذف، ألا ترى قولهم: "أنا ذاهب" كلمتان وفي أكثر اللغات ثلاث كلمات، فخف عليهم بهذا الإيجاز إعمال المنطق كأن كلامهم قد وضع حسب اقتضاء الفكر والفهم، فترى كلامهم مربوطًا برابطة عقلية وعليك أن تميز بين الروابط من كل قسم فإنهم لا يصرحون بها".[1]

**المبحث العاشر: صعوبة الوقوف على العمود**

قال رحمه الله: "اعمل أنّ تعيين عمود السورة هو إقليد لمعرفة نظامها ولكنه أصعب المعارف، ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة والمتجاورة، حتى يلوح العمود كفلق الصبح، فيضيء به السورة كلها، ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها، وإنما صعب ذلك لوجوه نذكر بعضها ههنا:

أنّ القرآن إنما أنزل متشابهًا مثاني، فترى سورًا متشابهة المطالب مع اختلاف عمدها، ومتحدة مع اختلاف المطالب، فمن لم يقم بإجالة النظر في مطالبها مرة بعد مرة، وجمعها تحت عمد مختلفة، فإنّ الشيء الواحد يدخل كليات مختلفة، حتى يتبين له من بينها ما هو الأرجح، كان كسالك سبيل بلغ مجتمع الطرق، فضلّ، فكلما ذهب بعد عن مستقيمها.

أنّ الله تعالى كما أنزل هذا الكتاب لواجبات العقائد والشرائع، فكذلك أنزله لتعليم الحكمة، وجعل ذلك من أخص صفات نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبذلك جعله خير المسلمين، وأعطاه من الآيات ما تكون أكثر اتباعًا وأكمل تعليمًا.

ولا يخفى أنّ تعليم الحكمة لا يتأتى بإلقاء المعارف، وإنما يتأتى باستعمال الفكر

[1] المصدر نفسه، ص 77.

والعقل، وحثه وتنبيهه على النظر، حتى يبرز قواه الكامنة كما هو الأصل في كل تربية، فعلى هذا كما جعل القرآن جانبًا منه ظاهرًا بينًا، فكذلك جعل جانبًا منه باطنًا مكنونًا، ولكي يهتدوا إلى بطونه، جعل الباطن على مدارج؛ لكي يترقى المجتهد في درجاته من الأقرب إلى الأبعد، فإن التربية لا تتم بدون ذلك.

والكلام إذا كان منظمًا من جهته الظاهرة، لم يحتج الناظر فيه إلى تأمل، ولكن إذا كان اتصاله تارة ظاهرًا وتارة خفيًا، توقف فيه، فإنه كيف يرضى بالخلل الفاحش في كلام الحكيم العليم؛ ولذلك آمن من آمن بالنظام.

ثم جعل الله تعالى ما أخفى من النظام على مراتب؛ فجعل أكثره على غاية البطون، وإذ جعل النظام من أكبر ما يحث به على النظر والتأمل، أخفى العمود، فلو صرح بالعمد لم يبق كبير مشقة في فهم النظام، فصار غير محتاج إلى النظر وأبطل الحكمة، وإذ خبأ الله ليمتحن به العقول، لا بد أن يكون صعب المطلع، فكأنه وضعه مناط الثريا.

أنّ الله تعالى، لمثل المصلحة التي ذكرنا آنفًا، جعل القرآن على نهاية الإيجاز، ومع ذلك ملأه حكمًا جمّة، فلكثرة المطالب العالية والأطايب الغالية، يتحير الناظر فيه فيصعب عليه أن يصطفي من بين معانيه معنى واحدًا كالعمود، كمن يطلب من بين الجواهر واسطة للعقد، ومن غاية الحسن كلها يروقه، فلا يدري أيها أولى".[1]

## المبحث الحادي عشر: ومحتويات أخرى

لقد أثار الكتّاب محتويات كثيرة عرض لها بنوع من الإجمال، وقد تناولناها بشيء من التفصيل في مواضع أخرى فلا داعي لإعادتها ولكن للإلماع إليها فقط ومنها:

**العلاقة بين النظام والحكمة:** تحدّث عن علاقة المناسبة بالترتيب، وأن ذكر أمر واحد مرات عدة بترتيبات مختلفة الغرض منه فائدة غير ما كان وأشار إلى أنّ أنحاء

[1] المصدر نفسه، ص 89- 90.

الترتيب أربعة: إذ الأمر الواحد ربما يؤتى به كالعمود أو كالتبع، أو يورد مجملًا أو مفصلًا، أو يقدم أو يؤخر، أو يستقل أو يقترن.

بيّن أنّ الوقوف على العمود في السورة هو أصعب المعارف وغاية في الصعوبة.

تحدّث عن ترتيب السور، وكيف أن الأوائل نزولًا كانت الأواخر ترتيبًا.

كيف نلمس موقع الكلام من الوقائع والأحوال والنظر في تاريخ النزول.

تكلم عن نظم السور بعضها مع بعض.

تكلم عن عمود كل سورة من سور القرآن بشكل إجمالي ثم لخص مطالب السور ونظامها.

تحدث عن الحذف وهو أسلوب أصيل في كلام العرب، ومنهج متبع، وفهمه أساس في فهم القرآن الكريم.

تحدث عن كثرة الوجوه في النظام وأنه ممكن، وهو مما يسوغ كثرة التأويل.

ولا تضاد في كثرة وجوه المناسبة كما لا تضاد في كثرة وجوه الحكمة في أمر واحد.

تحدث عن معالم السورة وأهميتها، لأن النظر فيها يعين على استخراج العمود!

فالأصول التي وضعها الإمام الفراهي لتأويل الآيات لا تعتمد على أي فلسفة ذاتية مختلقة بل هي مقتبسةمن قواعد اللغة العربية الثابتة ومستنبطة من أساليب القرآن المحكمة. ومراعاة هذه الأصول تجنب من التيه والضلالات وتمنع من أن تسلك طريق الاعوجاج باختيارالتفسير بالرأي المحض، كما أنها توفر مستوى ومقياسًا أعلى لفهم القرآن الكريم.

معاني القرآن الكريم عند الفراهي قطعية الدلالة فلا يمكن أن يكون مدلول جملة أكثر من واحد. لكل آية موقع وهذا الموقع يحدد مفهوم الآية. وفي ضوء هذه الأصول، كان الإمام الفراهي بدأ كتابة تفسيره الخاص بعنوان "نظام القرآن"، بدءًا ببعض

السور القصار ثم كتب تفسير سورة البقرة. وما إن انتهي منه حتى قيض الله روحه الطاهرة وهو لم يستطع تنفيذ مشروعه العملاق ولكن ما ترك من الثروة التفسيرية تكفي للاسترشاد في هذا المجال.

إن د. عامر خليل الجرّاح قد ألقى الضوء على نظرية الإمام الفراهي حول نظم القرآن في مقالته "أسلوب الحِجاج عند الإمام الفراهيّ من خلال الإجابة عن أسئلة نظام القرآن" من جهة جديدة وأجاب بعض الأسئلة عن نظريته وأبعد غموضها فهو يكتب:

"إذا كان التخييل طاقة شعرية أو موهبة لصيقة بالشاعر فإنّ الحِجاج طاقة عقلية خطابية تميّز الخطيب من الشاعر، فالتخييل أقرب إلى سحر الشعر، والحِجاج ألصق ببيان الخطابة، وبينهما يتردّد شأن الكذب والصدق غير أنّ الشعراء والنقّاد تبنّوا خُلُق الكذب ووسموه بالكذب الفنّيّ، وأعني هنا المتأخّرين الذين جعلوا من البديع وتوليد المعاني منطلقهم وديدنهم، ويرى الإمام الفراهيّ رحمه الله أنّ تأثّرهم بالفلسفة اليونانية وبمحاكاة أرسطو هو ما دفعهم إلى ذلك حتى إنهم قالوا: "إنّ أعذب الشعر أكذبه"، والنبيّ عليه الصلاة والسلام نبّه إلى تداخل مسارات الشعر والخطابة في قوله: "إنّ من البيان لسحرًا، وإنّ من الشعر لحِكَمًا"، غير أنّ الأمر بات متمايزًا مع تمايز مدرستي الطبع والصنعة، والحِجاج يدخل في غير مجالات النصّ الخطبيّ أو القرآنيّ أو حتى الشعريّ، فقد يكون أسلوبًا وأداةً لبناء نظري كما سنُظهر ههنا في إجابات الإمام الفراهيّ عن أسئلة علم نظام القرآن؛ إن إثباتًا لهذا العلم وأهمّيته، وإن بيانًا لأدواته والوسائل الموصلة إليه، فيكون البحث بذلك حديثًا في مبحثين: الأوّل في حِجاج منكري النظام وإثبات أهمّيته، والآخر في حِجاج منكري وسائل النظام وأدواته، ونجعل بين يدي المبحثين مقدّمة في الكلمات المفاتيح؛ أي نظرية الحجاج ومفهوم نظام القرآن. تكمن أهمّية البحث في عرضنا لجانب حِجاجي جديد لم يلتفت إليه المتكلّمون في الحِجاج أو البلاغة الجديدة، وهو الحِجاج التطبيقي النظري، وفي تسليطنا

الضوء على الاقتدار الحِجاجي عند الإمام الفراهيّ الذي أفاد فيه من دراسته الفلسفة الحديثة وثقافته الواسعة التي امتدت على مساحة ثقافات عديدة هي العربية والفارسية والإنكليزية والعبرية إضافة إلى ثقافته الهندية الأمّ، وتكمن الأهميّة فوق ذلك في كشف القناع عن نظام القرآن، وإزالة الإشكالات العالقة؛ إذ إنّ الإمام قد أتى بعلم جديد ابتدعه من عند نفسه، وكان له أثر كبير في الكشف عن المعاني القرآنية المتشابهة التي اختلف فيها المفسّرون وترجيح أقوى الأقوال فيها، وكان هناك بالمقابل من شكّك في النظام وجدواه في التأويل والترجيح، فكان هذا البحث، وعلى الله التّكلان، وإليه قصد السبيل.

**مقدّمة في مفهوم الحِجاج ونظام القرآن:** نتكلّم في هذه المقدمة على الكلمات المفاتيح للبحث، ونعني هنا الحِجاج بوصفه نظرية تداولية، ونظام القرآن بوصفه علمًا لتأويل القرآن الكريم.

أوّلًا: الحِجاج: نتحدّث عن الحِجاج في هذا البحث بوصفه أسلوبًا اعتمده الإمام الفراهيّ في إثبات نظام القرآن وأهميّته وأدواته، وهو في الواقع نظرية تداوليّة لها مفهومها واتّجاهاتها وأدواتها الإجرائية ومدارسها، ونشير إلى أنّ الحِجاج يمثّل بُعدًا تداوليًّا تأثيريًّا،[1] وسنعرض لذلك مبيّنين أهمية الحِجاج.

يُعدّ مفهوم الحجاج التداوليّ عند المحدثين من الدارسين الغربيين امتدادًا للبلاغة الأرسطية القديمة المسمّاة بلاغة المواضع أو الطوبيقا (Topiques).[2] فهو بلاغة جديدة تفارق البلاغة القديمة التي قصرت اهتمامها على الجانب التزييني (النَّصّيّ) في اهتمامها بالجانب التداوليّ (الخطابيّ) المتجلّي في الاهتمام بالمتخاطبين، وفي تركيزها على الفعالية الاجتماعية، وتسليطها الضوء على البعدَينِ: الحجاجيّ والتأثيريّ الدافعَينِ إلى

[1] يُنظر كتابنا: الإجراءات التداوليّة التأثيريّة في التّراث البلاغيّ العربيّ بين التّأويل والحِجاج والإنجاز.
[2] يُنظر: التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، ص 29.

تحقيق الإقناع والفعل، وغير ذلك،[1] والحقّ أنّ هذه "البلاغة الجديدة تتأسّس- من بين ما تتأسّس عليه- على تعاضد فكرتين جوهريتين: أولاهما وجوديةٌ ظاهراتيةٌ في آنٍ، عمادها مقولة هيدكر (Heidegger) التي عدّ فيها اللغة هي الوجود بكل أبعاده وأزمنته، أمّا الثانية فتأويليةٌ (هرمينوطيقيةٌ) مفادها الانطلاق من اللغة المرسلة في مقامٍ معينٍ، ثم تفكيكها والغوص فيها للوصول إلى مكوّناتها الأساسية وعلاقتها بالمتكلّمين والمخاطبين".[2] إنّ هذا النوع من الحجاج يهدف إلى الإقناع انطلاقًا من اللغة وظروف الخطاب وأطرافه.

يُظهر لنا التتبّع التاريخيّ للحجاج أنّه يمتدّ من زمن أرسطو إلى يومنا، فترسّمت خلال ذلك الزمن الطويل معالم هذه النظرية، ولنا أن نقف على ثلاث مراحل أو مدارس مهمةٍ في تاريخها، ترسّخت فيها الدعائم، وتوضّحت فيها المعالم: مرحلةٍ قديمةٍ تتمثّل في البلاغة الكلاسيكية (بلاغة أرسطو)، وأخريين حديثتين تتجلّيان في البلاغة الجديدة لبيرلمان (CH.Perelman)، والحجاج اللسانيّ لديكرو (O.Ducrot)، وذلك على النحو الآتي:

الخطابة (La rhétorique) والجدل (La dialectique) عند أرسطو الذي يمثّل الاتجاه الإغريقي أو البلاغة الكلاسيكية؛ فنذكر أن أرسطو أقرّ بوجود الحجاج في غالب الأقاويل، واهتمّ تحديدًا بجنسين حجاجيين جامعين يمثّلان مؤسّستين قوليتين مهمّتين في المجتمع اليونانيّ، هما: المناقشة الجدلية (Discussion dialectique)، والخطبة (Discoursoratiore) ووراء تحليلهما يكمن نمطان حجاجيان هما: الحجاج الجدليّ والحجاج الخطبيّ.[3]

[1] يُنظر: الفلسفة والبلاغة؛ مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، ص 17.

[2] الحجاج في البلاغة المعاصرة؛ بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص 105.

[3] يُنظر: الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب (أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، ص 120-121.

البلاغة الجديدة (La nouvelle rhétorique) لبيرلمانوتيتيكا (L.Tytica) اللَّذَيْن يمثّلان مع مايير (M. Meyer) وجهة نظر المدرسة البلجيكية. أعاد بيرلمانوتيتيكا في مُصنَّفهما الحجاجيّ (البلاغة الجديدة) المنشور سنة 1958م تمثيل الحجاج الأرسطيّ الذي اندثر زمنًا طويلًا؛ إذ كان البلاغيون يحتفون بالجانب التزييني فحسب جاعلين ذلك هِجّيراهم. على أن المؤلّفين لم يحاكيا حجاج أرسطو حرفيًّا، بل قاما بتجديده؛ وهذا معنى تسميتهم البلاغة الجديدة، والحقّ أنّ مشروعهما الذي تبنّيا من خلاله تجديد البلاغة هو مشروعٌ يقوم على محاولة التأصيل لعلمٍ يرتبط من جهةٍ باللغة، ومن جهةٍ أخرى بالواقع بكلّ أبعاده أو بمعنى آخر ينطلق من عبارة هيدكر التي تفيد أنّ "اللغة هي الوجود بكلّ أبعاده وأزمنته"،[1] ويتأسّس على صفتي الحرية والعقلانية. إنه يقوم على احترام المتخاطبين من خلال تبنّي مفهوم (الاقتناع) بدلًا من (الاستدلال) الذي يقضي باستلاب حرية المخاطَب بحسب الجدل الأرسطيّ، وبدلًا من (الإقناع) الذي يعني التلاعب بعواطف المخاطَب كما في الخطابة.[2] إن في ذلك ما يُسهم في إيلاء المخاطَب أهميةً كبرى. أمّا (مايير) فقد ركّز من خلال نظرته اللغوية والبلاغية والفلسفية إلى الحجاج على تحقيق التواصل ومن ثمّ الإقناع بتضييق شِقّة الخلاف بين المتخاطبين أو إلغائها متّبعًا بذلك السبل المتاحة كلّها، فمن هذا المنطلق ومن منطلق ضرورة الاهتمام بإنسانية الإنسان، تحت اسم (بلاغة النوازع)، أعلى من شأن المتكلّم بإحلاله محلّ العارف المتيقّن الواثق من نفسه، وأعاد إلى دائرة الضوء أثر نوازعه (الإيتوس) وطاقته التأثيرية وثقافته ووعيه بمستوى المتلقّي وأهدافه (الباتوس)، وكذلك أثر المقام في تقليص المسافة بينه وبين المتلقّي، ومن ثمّ تحقيق الإقناع سادًّا الثغرات التي تركها أستاذه بيرلمان من جهةٍ، وراجعًا إلى أرسطو معيدًا بلاغته إلى

[1] حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، ص 16.

[2] يُنظر: الحجاج؛ أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال (مصنّف في الحجاج؛ الخطابة الجديدة) لبيرلمانوتيتيكا، ص 300-301.

دائرة الاهتمام من جهةٍ أخرى.[1] غير أنّ مايير لاحظ أنّ الاعتماد على تصوّرات المتكلّم وتوقّعاته ووعيه بالمتلقّي وبالعالم من حوله يبقى غير مضمونٍ، فحوّل اهتمامه بدرجةٍ كبرى إلى لغة الخطاب (اللوغوس) من خلال المجاز بما يتيحه من ضمانات توصف بأنها حجاجيةٌ،[2] ومن خلال (نظرية المساءلة).[3] فالخطاب يتشكّل في كلامٍ ليس هو سوى الوجه الآخر للفكر والعقل، وعملية التفكير ليست سوى عملية مساءلةٍ؛ لذلك نجده يركّز على السؤال ويشترط له أن يكون حاملًا لطرافةٍ فكريةٍ تحقّق للمتلقّي في أثناء بحثه عن دلالاتها متعةً من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى تؤيّد أو تؤكّد مضمون الفرضيات المُقدّمة فيها،[4] وليس ذلك إلا في البنى الأسلوبية ولا سيّما الصور المجازية.

الحجاج في اللغة (L'argumentationdans la langue) لديكرو الذي يجسّد مع أنسكومبر جهود المدرسة الفرنسية تحت عنوان (التداولية المُدمَجة)، ويُعدّ الحجاج (التداوليّ) عند ديكروووأنسكومبر ذا صبغة لسانية وبلاغية؛ إذ "يُحلّل القول حسب التداولية المدمجة اعتمادًا على الربط بين جملة من المعطيات اللغوية التي تعود إلى (المكوّن اللغويّ) وجملة من المعطيات غير اللغوية التي تعود إلى (المكوّن البلاغيّ)".[5] إنّ نظرية ديكرو في التداولية المدمجة عامّةً وفي الحجاج خاصّةً تأسّست بوضوحٍ على أساس إنعام النظر في أنّ الأدوات الحجاجية (العوامل والروابط) تساعد على تأويل الأقوال الحاضنة لها وبيان قيمتها الحجاجية على أساس عملها داخل

[1] يُنظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 134-135-136-137.

[2] يُنظر: البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، ص 400.

[3] يرى مايير أن أزمة الفكر الغربيّ المعاصر وفلسفته تكمن في أنه جعل العناية بالتساؤل ثانويًّا كما أنّ الفلسفة القديمة لم تُعنَ به بما فيه الكفاية مع أنّ الوصول إلى السؤال الجوهريّ هو الذي يجسّد النظرية، أو أنه يُعدّ أهمّ خطوةٍ فيها، وفي أيّ موضوعٍ. يُنظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 134.

[4] يُنظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 134-135.

[5] نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب (أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، ص 354.

الأقوال، وعلى أساس النتائج المتحصَّلة منها بمعونة الأغراض والمقاصد متجاوزةً بذلك معاني الأقوال. وبمعنى أوضح تسهم الأدوات الحجاجية في تحديد القيمة الحجاجية (التداولية) للأقوال داخل البنى التركيبية (التركيب) باستقلالٍ عن المحتوى الإخباريّ (الدلالة)، فانتهى الأمر بديكرووأنسكومبر تبعًا لذلك إلى رفض النموذج الخطّي الذي يتمّ الانتقال فيه من مستوى التركيب إلى مستوى الدلالة فإلى مستوى التداول.[1] ثم إنّ التمييز بين تلك المكوّنات أو الأدوات اللغوية المسمّاة روابط وعوامل حجاجيةً يسهم أيضًا في ترجيح حجّةٍ على أخرى، ومن ثمّ في تحقيق الوظيفة الحجاجية، وفي توجيه الخطاب أو القول حجاجيًّا من دون الرجوع إلى المقام أو قوانين الخطاب (السياق التداوليّ).[2]

نذهب في حصيلة كلامنا المتقدّم على اتجاهات الحجاج ومدارسه إلى ما توصّل إليه محمد طروس في مقاربته الموسوعات والقواميس المتخصّصة لتحديد مفهوم الحجاج،[3] وما قام به العزاوي من تمييزٍ بين نمطين من الحجاج الطبيعيّ،[4] ذلك أننا نقف على اتجاهين متقاطعين يفترقان في أنّ أحدهما لسانيٌّ يعالج الأقوال من الداخل، وهو المتوسّل باللغة وإمكاناتها كما هو الحال عند ديكرووأنسكومبروماييرـ والآخر تداوليٌّ يعالج الأقوال في الغالب من الخارج أي بمراعاة المقامات وقوانين الخطاب ونوازع المتخاطبين كما هو الحال عند أرسطو وبيرلمانوتيتيكا، مع الإشارة إلى أنّ هذا التصنيف ليس صارمًا أو نهائيًّا، كما أنه لا يعني أنّ كلًّا من الاتجاهين منفصلٌ عن

[1] يُنظر: اللغة والحجاج، ص 26.

[2] يُنظر: المرجع نفسه، ص 25.

[3] يرى طروس في وضعه تحديدًا أوليًّا للحجاج أننا أمام نظرتين متقابلتين: الأولى تعدّ الحجاج سلسلةً من حججٍ تتّجه جميعها نحو النتيجة نفسها، والأخرى تبيّن أن مجال الحجاج هو مجال المحتمل والمعقول وميدان تفاعل الذوات. يُنظر: المرجع نفسه، ص 8.

[4] يرى العزاوي أن النمط الأول يتمثّل في "اعتبار الحجاج تقنياتٍ بلاغية ومنطقية وأصولية وكلامية... [وأن النمط الثاني ينظر إلى] الحجاج باعتباره آلياتٍ لغوية محضٍ". الخطاب والحجاج، ص 35.

الآخر، إذ لا يمكن لأحدهما أن يعمل بمعزل عن معطيات الآخر،[1] إنما هي نظرةٌ تقوم على أساس طغيان مادّة التحليل وأدواتها، واختلاف زاوية النظر عند المحاجيين، وثمّة نقطةٌ افتراقيةٌ أخرى مهمّةٌ تتمثّل في أنّ هدف المحاج في الاتجاه اللسانيّ هو إعادة الاعتبار للّغة بوساطة الإنسان، أمّا هدفه في الاتجاه التداوليّ فيتمثّل في إعادة الاعتبار للإنسان المعبَّر عنه بوساطة اللغة.[2]

إذا كانت دراسة المحاج من الداخل تتمثّل في اختيار الحجج وترتيبها وإيراد الأدوات المحاجية وفق معطيات اللغة الطبيعية وإمكاناتها، فإنها تتجلّى من الخارج بدراسة البنيات والوقائع المتمثّلة في: (النموذج والشاهد والمثل والتمثيل) بوصفها "بنياتٍ مستمدّة من الواقع الماضي بما يختزنه من تجارب إنسانيةٍ وأحداثٍ تاريخيةٍ أو شخصيةٍ تترجمها الحكم والأمثال والحكايات والكنايات وغيرها... [ويُشترط] أن يكون توظيفها محكمًا حتى لا تفقد طاقتها وقوتها الإقناعية، كما تختلف توظيفاتها في المحاج حسب الخصائص المميّزة لها ووفق الضرورة السياقية أو المقامية".[3] ونشير إلى أنه قد جرى حديثٌ عن مفهوم محاجيّ يتّصل بتلك البنيات، ألا هو مفهوم المواضع، أو المبادئ المحاجية ( Les Topoî) التي تمثّل معتقداتٍ وفِكَرًا مشتركةً متّفقًا عليها بين جمهورٍ واسعٍ، ويرتكز عليها الاستدلال في اللغة؛ إذ تربط بين الحجج نفسها أو بينها وبين النتائج.[4]

إنّ هذا البناء النظريّ للمحاج يعقبه بناء تطبيقيّ في مبحثي البحث نعرض فيه لمحاج الإمام الفراهي منكري النظام وأهميّته، وهو محاج منطقي (استدلالي) لا يخلو من

1 يؤكّد ذلك التضافر بين مستويات اللغة التركيبية والدلالية والتداولية دعوة ديكرو إلى (البلاغة المتكاملة) "التي تستثمر منطق اللغة المتكامل وتستفيد من جميع المستويات والمحاور التي تتقاطع في نسق اللغة". الفلسفة والبلاغة؛ مقاربة محاجية للخطاب الفلسفيّ، ص 107.

2 يُنظر: المرجع نفسه، ص 120.

3 عندما نتواصل نغيّر، ص 94.

4 يُنظر: اللغة والمحاج، ص 31. ونظرية المحاج في اللغة، ص 380.

التأثير، يتوسّل باللغة، ويُراعي طبيعة مادّة الحِجاج، وينبني على الأسئلة والإجابة عنها.

ثانيًا: نظام القرآن: يُعدّ علم (نظام القرآن) أبرز ما قدّمه الإمام، وهو عبارةٌ عن قراءةٍ جديدةٍ لآلية تأويل القرآن الكريم، ونشير إلى أنّ له قراءاتٍ جديدةً للبلاغة العربية والإعجاز وتفسير مفردات القرآن الكريم وشأن النزول وغير ذلك، ويُعدّ (نظام القرآن) مركز دراساته وجِماعها، وخلاصة أفكاره، وكلّ الدراسات الأخرى تنتهي إليه أو تمهّد له أو تتفرّع عنه. نعرّف بالنظام ههنا نظريًّا استنادًا إلى كتابه (الدلائل)، وإلى (التكميل) وتفسيره (نظام القرآن) الذي يمثّل الإجراء التطبيقي لتلك النظرية أو العلم كما يأتي:

النظام هو علم تأويل القرآن جملةً وفق وجهة نظرٍ تركيبيةٍ- التركيب له قيمةٌ عليا عند الفراهيّ، فهو أصل ماهية كلّ شيءٍ وحقيقة وجوده- ترى أنّ القرآن كالكلمة الواحدة ترتبط آياته وسوره بروابط مركزية تبدأ من الأعلى ببيان الهدف العام للقرآن الكريم، ثمّ بتوزيع سوره وجمعها في مجموعات تلتقي في معانٍ مركزية يلتقي فيها المعنى العام لكل سورة (عمود السورة)، وهذا العمود تلتقي فيه المعاني الفرعية للآيات (المطالب)، وبذلك تتحقّق وحدة القرآن ويُفهم نظامه وتتحدّد أصحّ التأويلات فيه، وتنفتح أمامنا الحِكَم التي ينطوي عليها.

يقوم النظام على أسس الترتيب والتناسب وقوّة الوحدانية.

يقوم النظام على أجزاء إجمالية تتمثّل في العمود، وهو المعنى المركزي الذي تجري إليه المعاني الفرعية أو المطالب، والتمهيد الذي يتقدّم بين يدي العمود ويمهّد له، والمنهج وهو الذي يحدّد جهات الخطاب، والخاتمة التي ينتهي عندها العمود. وتوجد أجزاء تفصيلية تمثّل آليات إجرائية تحقّق فهم النظام ترتيبًا وتناسبًا ووحدانيّة، ومنها: الاستدلال والتعليل والتأصيل والتفريع والتفصيل والتمثيل وغير ذلك...

مفاتيح معرفة النظام متمثّلة في تدبّر القرآن الكريم والإيمان باليوم الآخر مع العلم باللسان العربيّ، والتدبّر هو وسيلة معرفة النظام وهو غايته.

يرى الفراهي أنّ خلْقَ الإنسان جاء لغاية العبادة، وأنّ العبادة لا تتحقّق على وجهها إلا وفق مراد الله، ولا يكون ذلك إلا بتعلّم القرآن وتعليمه؛ كما جاء في أوائل سورة الرحمن، فالعلم بالنظام هو ما يحقّق التعلّم والتعليم والفهم والعبادة وفق مراد الله، وإلا كيف افترقت الأمّة على ثلاثٍ وسبعين فرقة، فالجهل بالنظام حجب عنهم أنّ القرآن قطعيّ الدلالة.

تتجلّى أهداف النظام في تحقيق الفهم الأمثل لمعاني القرآن والانتفاع به وتحقيق الإيمان وتكميل الفطرة الإنسانية التي سجدت لها الملائكة، وثمّة هدف جوهري آخر يتمثّل في توحيد الأمّة؛ إذ إنّ النظام يخلص إلى توحيد التأويل الذي يكون أصحّ التأويلات، فيسدّ باب الاختلاف والخلاف والأهواء التي تتسبّب في الشقاق والبغضاء كما حدث مع أهل الكتاب من قبل، والفراهي ذهب إلى أنّ نظم القرآن دليل على نظم الديانة كلها.

أفضل طرق التأويل بالاستعانة بالتدبّر والإيمان هو تأويل القرآن بالقرآن، والمعرفة باللسان العربيّ، أما الاعتماد على السنّة والأحاديث وأقوال الصحابة وكتب الأمم السابقة فيأتي تبعًا وتوكيدًا وزيادة ثقة واطمئنانًا بما أظهره النظام.

يجعل الفراهيّ إدراك العمود وتحقّق الوحدانية في السورة واتصال أجزائها بحيث تصبح سورة كاملة مستقلة= مرهونًا بمعرفة مساق الكلام ووجهته التي تسلك إليها أجزاؤه حتى تراها منظومة في سلك واحد، وبالجملة فالنظام هو الذي يعطي السورة وحدانيتها.[1]

يرى الفراهيّ أنّ النصّ المراد تحليله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: أوّلها هو تركيب الكلمة بالكلمة، وهذا هو (الجملة)، وهو مجال اشتغال نظرية النظم، وثانيها هو تركيب الجملة بالجملة، وهذا نسمّيه (النصّ الناقص) إن صحّ الوصف، وهو مجال مشترك بين أنواع الدراسات القرآنية المذكورة، وآخر الأقسام هو مجموع من الجمل يتضمن تأليفًا آخر، له

[1] يُنظر: دلائل النظام، ص 88.

دلالة على ما يدلُّ عليه أجزاء هذا التأليف من حيث الانفراد، وهذا الأخير يسمّيه الفراهيّ (الكلام)،[1] ونسمّيه (النصّ الكامل)، وهو مادّة اشتغال النظام بخاصّة، ويرى أنّ الكلام إنما هو بنظامه، فإنه يحسن أو يبلغ أقصى البلاغة لا بمحض أجزائه، بل بنظامه وترتيبه على ما ينبغي، فمن أراد أن يطلع على حسن بيانه وقوة استدلاله وتأثيره في النفوس ودلالته على مكنون الحكمة، فلا بد أن يلتمس ذلك من معرفته بتركيب جملاته، فإن ذلك حصل للكلام من مواقع معانيه وترتيبها.[2]

يشرح الفراهيّ أحوال النصّ بحسب تردد ثلاثية التناسب والترتيب والوحدانية أو تصاحبها، يقول: "الكلام يتفاوت من جهة الوحدانية والمناسبة والترتيب، فيمكن أن يكون ذا وحدانية، ولكن خاليًا عن التناسب والترتيب، مثلًا إذا ألّفتَ كتابًا في النصائح، وقد جمعتَ فيه أقوالًا كثيرة ممَّا يتعلّق بالدين والأخلاق والمعاشرة والسياسة، فإن وضعتَ كل ذلك من غير ترتيب لم يكن خاليًا عن وحدانية ولو ضعيفة لما أنّ كله في النصائح، فله نوع من الوحدانية والشخصية المميزة، ولكنه عديم المناسبة والترتيب، فأمَّا إذا قسمته في أبواب مثلًا، باب في الدين، وباب في الأخلاق، وهلم جرًّا، ووضعت كل قسم من الأقوال في بابه، صار الكتاب متناسب الأجزاء مع بقائه على ضعف الوحدانية، فأما إذا نظمت نصائح كل قسم في قصة جامعة، كما ترى في كتاب كليلة ودمنة، صار كل باب شديد الوحدانية مع بقاء الكتاب على ضعف الوحدانية. فأما إذا راعيت حسن الترتيب والمناسبة في تقديم الأبواب بعضها على بعض، ومع ذلك جعلت الكلام في كل باب بيانًا واحدًا جاريًا إلى موضوعه مع تناسب في أجزاء الكلام صار الكتاب ذا نظام كامل. وبالجملة فلا بد لحسن النظام من أن يكون الكلام حسن الترتيب، حسن التناسب، قويّ الوحدانية".[3] فهذه الثلاثية (حُسن الترتيب

[1] يُنظر: المصدر نفسه، ص 84.
[2] يُنظر: المصدر نفسه، ص 31.
[3] المصدر نفسه، ص 88-89.

وحُسن التناسب وقوّة الوحدانية) هي المعالم الكبرى التي تحدّد مفهوم النظام القرآني، وتميّزه من غيره من الأنظمة. ولها نظير في الدراسات النصّية الغربية؛ إذ يُقيم فان دايك القسم الدلاليّ من علم النصّ أو تحليل الخطاب على ثلاثية (الترابط، والانسجام، والبنيات الكلية)،[1] إضافةً إلى القسم التداوليّ.

تكلّم الفراهي على أجزاء النظام أو أجزاء (الكلام) المنتظم، وجعلها في ضربين: إجمالية، وتفصيلية، وذلك قوله: "اعلم أنّ الجملة كما أنّ لها أجزاء تركيبية من جهة النحو كالمبتدأ والخبر والفعل والفاعل وأقسام المفاعيل والحال والتمييز والتوابع وغيرها، فكذلك للكلام- وهو مجموع الجمل- أجزاء تركيبية، فالأجزاء الإجمالية منها: (1) العمود (2) التمهيد (3) المنهج و(4) الخاتمة.

وأمّا الأجزاء التفصيلية فمنها:

التعليل إما لإثبات أو لدفع شبهة. (الدليل ربما ينبّه عليه لتعليم التفكّر، وربما يذكر عرضًا لكيلا يتنفّروا).

التفريع ببيان الفروع، ومنه الإنتاج، ويدخل فيه الشرائع كثيرًا.

التأصيل ببيان الأصول، وبه ينبّه على سرّ الشرائع والاستدلال البرهاني.

التفصيل لمجمل، وهذا باب وسيع يفرق في مواضع لتوجيه النظر وقلّة المؤنة وتعليم التدبّر والحكمة.

التمثيل إمّا للتوضيح أو للتدليل من القصص وضرب الأمثال وذكر الوقائع، وبهذا يتوسّل إلى تعليم الحكمة والاستنباط.

إيراد المشابه من البيان، وفي هذا يُضَمّ قرين بقرينه.

[1] لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 27.

إيراد المقابل والضدّ؛ ليدلّ على مقامهما، كالشرك مع الزنا، والتوحيد مع الإحسان بالوالدين وصلة الرحم.

التنبيه بالوعد والوعيد والتحسين والتقبيح، وهو خطاب إلى القلب، كما أن الاستدلال خطاب إلى العقل".[1]

تمثّل الأجزاء الإجمالية صلب نظرية النظام أو علم النظام، لأنها ترسم الإطار العامّ للسور، في حين أنّ الأجزاء التفصيلية تتعلّق بربط الآيات، وبعضُها ذُكر في حديثنا السابق عن أساليب إدراك النظام، وهي أساليب تفصيلية جزئية تأتي في خدمة الأساليب الإجمالية الكلّية التي سنفصّل فيها فيما يأتي.

- بيّن الفراهي ماهية الأجزاء الإجمالية للكلام (النصّ)، فتحدّث عن العمود والتمهيد والمنهج، غير أنه لم يتحدّث عن الخاتمة، وترك في مكانها بياضًا كما يشير الجامع، وهذا دأبه- رحمه الله- لكثرة انشغاله، وبركة وقته، فكان يتنقّل من فكرة إلى أخرى، ومن كتاب إلى آخر، وينسى أن يتمّ ما تركه، لاحظنا ذلك في تحقيقنا كتابه الجمهرة، فعمدنا أن نسدّ الثغرات هناك.

يقول الفراهي في تحديد ماهية العمود والتمهيد والمنهج: "أمّا العمود فهو جماع مطالب الخطاب، فإليه مجرى الكلام، وهو المحصول أو المقصود منه، فليس من أجزائه الترتيبية، ولكنه يسري فيه كالروح والسر والكلام وشرحه وتفصيله وإنتاجه وتعليله، وربما يحسن إخفاؤه، فلا يطلع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبّر فيه.

وأمّا التمهيد فأكثر ما يحتاج إلى تقديمه في الكلام إذا خوطب به من لعله يصعب عليه، فيُقدَّم بيان؛ ليُمهَّد لإلقاء ما هو المقصود، وهذا هو الأصل فيه، ولكنه يأتي على أنحاء لا تحصى، ومقادير متفاوتة ومحاسن غير محصورة، وملاك أمره ذكر كلِّ ما

[1] دلائل النظام، ص 84.

له تأثيرٌ في قلب السامع وعقله، حتى يصغي، ويستمع، ولا تستحسن إطالته حتى يصير أكثر أو قريبًا من المقصود، ولكن المتكلّم الماهر ربما يصرف في الكلام ما لم ينتظروه، ويدخل على السامعين من باب جديد، فربما يطيل التمهيد فإمّا يأتي بالمقصود بأوجز عبارة، أو لا يذكره أصلًا، ولكن التمهيد قد كفاهم، وربما يتدرّج منه إلى المقصود، فلا تكاد تفصل بينهما، وهذه أنحاء الكلام في الابتداءات لا تكاد تحصى، وربما يُترَك التمهيد، وذلك حين يُخاطَب المطيع المنقاد الفاهم، أو يلقي الأمر بالقهر والغضب، فيهجم على المخاطَب كالصاعقة، كما ترى في سورة النور والبراءة وفي كل ما خوطب به النبيّ- صلّى الله عليه وسلّم- وهذا الذي ذكرنا يتعلّق بالتمهيد من جهة الترك؛ لتعلم مقتضى الحكمة في الإتيان به والامتناع عنه.

وأما المنهج فهو مساق الكلام، وهو إما خطاب إلى النبيّ، أو إلى المؤمنين، أو إلى المنكرين، أو جامع، فإلى النبي إما بما يخصّه من التسلية والصبر والصدع بالحق"[1] ولعلّ الفراهيّ أراد أن يُكمل فيقول: وهو إلى المؤمنين بما يثبّتهم ويبشّرهم، وإلى المنكرين بما يحاجهم وينذرهم، وذلك كثير في كتاب الله، أمّا الخاتمة فالمراد بها ما ينتهي إليه مساق الحديث، أو هي نهاية السورة، كما أنّ التمهيد بدايتها، والخاتمة قد تناظر التمهيد من جهة الوجود أو الانعدام، وهي قد تكون بمنزلة نتيجة لما سبق، أو رابطة، أو توضيح...

إذًا نحن أمام ثلاثة معطيات لعلم النظام: مادّة الاشتغال (السياق)، والأسس البنائية (الإجراء)، والأجزاء التفصيلية والإجمالية.

## المبحث الأوّل: حِجاج منكري نظام القرآن

قسّم الإمام الفراهيّ كتابه (دلائل النظام) قسمين: أوّلهما في الاحتجاج لوجود النظام وأهميته (ما يدلّ على وجود النظام في القرآن ويثبته)، والآخر في بيان أصول

[1] المصدر نفسه، ص 85-86.

النظام (وما يهديك إلى معرفة النظام وطريق استنباطه)،[1] فهو كتاب حجاجيّ بمعنى الكلمة، ونحن جعلنا لكل من القسمين المذكورين مبحثًا؛ نفصّل فيهما، وكان أوّلهما في إثبات النظام وأهميته، فما يقول الإمام في ذلك؟ وكيف يحتجّ للنظام؟

جعل الفراهي نظام القرآن مدخلًا إلى تفهيم القرآن كما ذكر وارث المظهري،[2] ولعل هذه هي غايته الأسمى، وقالها الفراهي بصيغة أخرى: هي التدبّر، وقال: إنه بالتدبّر يتّضح النظام، "وإذا اتّضح النظام كل الاتّضاح تجلّى محاسن السورة والحكمة التي هي تمام العلم والتقوى"،[3] وذكر أنّ من أهمّ الفوائد الانتفاع بالقرآن وتحقيق الإيمان وتكميل الفطرة الإنسانية التي سجدت لها الملائكة،[4] وثمّة هدف جوهري آخر يتمثّل في توحيد الأمّة؛ إذ إنّ النظام يخلص إلى توحيد التأويل الذي يكون أصح التأويلات، فيسدّ باب الاختلاف والخلاف والأهواء التي تتسبّب في الشِّقاق والبغضاء كما حدث مع أهل الكتاب من قبل.[5] فالفراهي ذهب إلى أنّ نظم القرآن دليل على نظم الديانة كلها،[6] وبذلك يحتّج لأهمية النظام وفهمه، وأثر ذلك في وحدة الأمّة، فأعظم به من هدف، وأعظم بها من حُجّة.

بدأ الفراهي من حيث انتهى سابقوه من علماء المناسبة، فوقف على حجج من ذهب إلى أنّ المناسبة ضرب من الهذر، وأنه من مزلّات الأقدام، وأنّه ليس من مهمات الدين،[7] وفنّدها ليؤكّد مشروعية المناسبة وما هو أعمّ من المناسبة، وذاك علم النظام، وبيّن أنّ

[1] يُنظر: المصدر نفسه، ص 23.

[2] إطلالة على رسائل في علوم القرآن لحميد الدين الفراهي، ترجمة: محمد معراج الحقّ البغدادي، مجلة الهند، 6/1-608/4.

[3] يُنظر: دلائل النظام، ص 21.

[4] يُنظر: المصدر نفسه، ص 26.

[5] يُنظر: المصدر نفسه، ص 17.

[6] يُنظر: المصدر نفسه، ص 46.

[7] يُنظر: المصدر نفسه، ص 29.

الاهتمام بالنظم والتركيب ليس هو الغاية، بل هو وسيلة لتدبّر القرآن وفهم معانيه ومقاصده؛ يقول: "ليست معرفة نظام الكلام وروابط معاني الآيات ما هي طُلْبتنا، كل ذلك يأتيك عَرَضًا، إنما المقصود هو التدبّر في معنى القرآن الذي سبق إليه بيانه، ومعرفة النظم إنما هي الوسيلة إليه"،[1] فالتدبّر هو الذي يفتح نوافذ الفهم والتأويل، وأنّ لغة القرآن لغة خاصة تميّزه من غيره، وكذلك تكون دراسته وتأويله، كما أنّ لغة الشعر لغة خاصة تميزه من لغة النثر، والحقّ أنّ هذا ما توصّل إليه الفراهي حين بيّن أنّ القرآن يدلّ على نفسه بنفسه، وأنّ الأمر يحتاج إلى فطرة سليمة واكتساب قويم.

إنّ دراسة الأساليب لغاية فنية إمتاعية محضة لا يدخل في مقاصد القرآن، وكم خلط المفسرون في تفسيراتهم؛ لأنهم لم يقفوا على الغاية حق الوقوف. نحن لا ننكر وجود الأساليب الفنية في القرآن الكريم، لكننا نؤكد أنها ذات أهداف سامية لا تفارق أهداف القرآن نفسه في عبادة الله وتوحيده، وبناء الإنسان وتوجيه وهدايته، وليست هي لمجّرد الزخرفة أو التحسين، فينبغي الوقوف على غاياتها.

يسأل الفراهي أولئك الذين احتجبوا عن معرفة المناسبة والنظام بالغفلة؛ يقول: "لماذا أمرنا الله تعالى بالتدبّر في كتابه والتفكّر في آياته؟ وإن لم يكن هنالك معارف مكنونة فبماذا يرجع التدبّر والتفكّر فيه؟".[2] إنّ هذين السؤالين كفيلان بحِجاج أولئك، غير أنّ الفراهي استمرّ في بيان مشروعية النظام، فبعد أن تحدّث عن أهمية التركيب أو النظام ومكانته في التفهيم بيّن أن ذلك لا يكون بمعرفة أجزائه، بل بالنظر في كلّه، فإنّ ذلك حرًى أن يُطلِعَ على حسن بيانه وقوة استدلاله وتأثيره في النفوس ودلالته على مكنون الحكمة.[3] ثمّ يعتمد التمثيل، لأنه أشدّ إيضاحًا وحِجاجًا؛ قال: "فإن كنت في شكّ ممّا ذكرنا، أو أردت زيادة اطمئنان وإيضاح فاعمد إلى خطبة بليغة مشتملة على

[1] يُنظر: المصدر نفسه، ص 29.
[2] المصدر نفسه، ص 30.
[3] يُنظر: المصدر نفسه، ص 29.

الترغيب والترهيب والحكم والأمثال والحجة والاستدلال، ثم سل عنها النظام، وقدِّم وأخِّر من غير مراعاة مواقعها، ثم انظر كيف ذهب عنها أكثر ما فيها من التقريب بين الدعوى وعللها، والتدريج من المقدمات إلى المقاصد، والتوضيح لما يقتضيه، وكل ما فيها من حسن البيان وكمال البلاغة، وكل ما يشير إليها من المطالب والفوائد، أو حلَّ شبهة ناشئة أو إلماع إلى معارف تاريخية أو أخلاقية أو حكمية، ربما يكون بعضها أصلًا لمعارف جمَّة وأصول مهمة، فإن خليتها عن نظامها فربما تعود إلى قريب من الهذيان".[1] والفراهي ينظر بعين المفكّر الفيلسوف، فيرى أنّ هنالك أسبابًا اضطرت الزاهدين في معرفة النظام إلى زهدهم فيه، فرأى أنّ الوقوف على تلك الأسباب يعزّز موقفه في إثبات مشروعية النظام، فذكر:

الأول: وهو أقوى الأسباب، تبرئة كلام الله عن كل عيب وشين، ولا شك أنه ظاهر النظام والترتيب في كثير من المواضع، ولكنهم لو ادَّعوا أنّ كله منظم، والنظم مرعيّ فيه لاضطروا في مواضع إلى القول بعدمه، وذلك لغموضه ودقّته، فتركوا هذا المسلك، ولم يحولوه إلى قصور أفهامهم، فإن ما وجدوه خلاف أصل النظم، وتيقنوا أنه لا يمكن تصوُّر نظم ما...

الثاني: وليس بأدون من الأول، ولكن الأول يتعلّق بالمصنّفين، والثاني يتعلّق بالناظرين في كلامهم، وهو أنّ أكثر من ذهب إلى وجود النظم كالإمام الرازي- رحمه الله- فتح في هذا الأمر الصعب بما هو أهون من نسج العنكبوت مع سبقه الظاهر في العلوم النظرية والذكاء، فمن نظر في كلامه تيقّن بأنّ النظم لو كان كما يدّعيه هذا الإمام المتبحّر وأمثاله لَمَا خفي عليه مع خوضه فيه، وإذ لا يأتي هو ولا غيره إلا بكل ضعيف، فلا مطمع فيه لأحد بعد هؤلاء، فإمَّا بقي على قوله بوجود النظم، ولكن يئس من علمه، وأغلق بابه، فإن سمع أحدًا يدعوه إليه لم يسمعه، وإمّا صار إلى الرأي

[1] المصدر نفسه، ص 32.

الذي ظنه أسلم، وهو أنّ القرآن إنما نزل منجّمًا مفرّقًا، فلا يطلب فيه نظامٌ.

والثالث: إكثار الوجوه في التأويل، وإكثار الجدل وقال وقيل، وذلك بأنّ النظم إنما يجري على وحدة، فبحسب ما تكثرت الوجوه تعذّر استنباط النظام، فمن نظر في هذه الوجوه المتناقضة والأقاويل المتشاكسة تحيَّر، لا يدري ماذا يختار منها؟ ... عدم التمسك بالنظام هو أكبر سبب للولوع بكثرة التأويل، فإنّ النظم هو الذي يوجهك إلى الوجه الصحيح، والسلف رحمهم الله لم يجمعوا وجوهًا، بل كل منهم ذهب إلى أمر واحد، وإنما شاع إكثار الوجوه في الخلف...

والرابع: وهو قريب من الثالث، إنّ تحزّب الأمة في فرق وشيع قد ألجأهم إلى التمسك بما يؤيدهم من الكتاب، فراق لهم تأويله الخاص، سواء كان بظاهر القول أو بإحدى طرق حمل الكلام على بعض المحتملات، ولا يخفى أن غلبة رأي وتوهّم يجعل البعيد قريبًا، والضعيف قويًّا، وكذلك يفعل كل فريق، فلكل حزب تأويل حسب مذهبه، وحينئذ لا يمكن رعاية النظام، فإنّ الكلام لا بد له من سياق، ولا بد لأجزائه من موقع يخصّه، فلو رعوا النظام ظهر ضعف ما يمليه ويجذبه إلى غير مساقه، كما أنّ الكلمة الواحدة ربما تكون مشتركة بين المعاني المتعددة، ولكن إذا وضعت في كلام منعَ موقعُها وقرائنُها من كثرة الاحتمالات، وتعيَّن منها ما وافق معنى الجملة، والتأم به...".[1]

يتحدّث الفراهي عن أهمية النظام بعد أن أثبت مشروعيته بذكر أهداف عديدة تكمن وراءه وهي:

"التقريب بين الدعوى والدليل، فمن فرق بينهما لم يطلع على دليل، فكيف بالتقريب؟

الإيقان بما قد استدل عليه ...

المصداق، فمن لم يعلمه خفي عليه ما نيط به من الأمور...

[1] المصدر نفسه، ص 35-36-37-38.

وجوه البلاغة من حسن التقسيم والإشارة وبراعة الاستهلال وحسن الترتيب وغير ذلك.

زيادة الشوق والمحبة واللذة، فإنما يحصل ذلك بقدر زيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة الاستدلال، ومن فاته ذلك يقلق، ويتبرم به، ولو أخفاه فهو على جانب من العمى.

الإتيان بما أمر الله من التدبّر والتفكّر والتذكّر".[1] ونتيجة التدبّر في الفهم، ثم في الإيمان والتقوى. ثم ذكر أهدافًا أخرى في موضع آخر تحت عنوان: (الحاجة إلى معرفة النظم) أو النظام، فذكر:

أنّ النظام يهدي إلى معالم الأمور وحكمها، وهذه المعالي هي الحقائق والغاية.

أنّ ترك النظر في النظام ترك لمعنى القرآن معظمه، والقرآن حكمة ونور.

أنّ ترك النظر في النظام يؤدّي إلى الإعراض عن تعاليم النبي- عليه الصلاة والسلام- وإلى عدم اتّباعه؛ إذ إنه بُعِث لتعليم الحِكَم كما بُعِث لتعليم الأحكام، والحِكَم إنما تتحصّل بمعرفة النظام.

أنّ النظام من دلائل إثبات النبوة وهو دليل إعجاز القرآن الكريم.2

إنّ بيان أهمية النظام لا ينفكّ عن بيان مشروعيته؛ إذ إنّ تلك الأهمية التي تحدّدت بالأهداف الجزئية المذكورة أخيرًا، والأهداف الكلّية المذكورة أوّلًا هي التي تُفضي إلى تأكيد مشروعيته، وكانت مناقشات الفراهي في الوقوف على آثار عدم الإلمام بالنظام، ثم بيان أسباب الزهد فيه، والمحاجة عن طريق السؤال والحوار والمناقشة وقانون المخالفة، كل ذلك يؤدّي بنا إلى القول: إننا أمام ذهنية فذّة فريدة؛ تؤمن بما تعتقده، وتتّبع السبل الفكرية المقنعة لإثبات اعتقادها، وتدأب من ذلك لخدمة الدين والبشرية.

[1] المصدر نفسه، ص 38-39.

[2] يُنظر: المصدر نفسه، ص 50-51.

## المبحث الثاني: حِجاج منكري أدوات نظام القرآن ووسائله

يقع الحديث في هذا المطلب تحت سؤال الفراهي: كيف يهديك القرآن إلى نظامه وأصوله؟ والحق أنّ الفراهي جعل التدبّر المشروط بالإيمان باليوم الآخر، وجعل علم التناسب مدخلين إلى العلم بالنظام، كما ذكر أهمية العلم باللسان العربيّ والعلم بأساليب القرآن وأثرهما في ذلك.[1] وذكر أساليب إدراك النظام، وهي بمنزلة قوانين تعتمد أسلوب المقايسة والموازنة بين المتشابهات والمختلفات والمثاني في القرآن الكريم، وتتّكئ على ما أسماه الفراهي الفكر الفطريّ، وبناء تلك الأساليب يقوم على مذهبه في أنّ مأخذ النظام هو القرآن نفسه، أي هو الذي يدلّ على انتظامه ونظامه بنفسه، ومن تلك الأساليب:

الحمل على النظائر في التركيب والنظم، وفي الربط.

الاستدلال باللزوم والمشابه والضد والعام والخاص.

الانتقال من تصوّر إلى آخر.

ملاحظة الجامع.[2]

النظر في محلّ السورة.

الاستدلال اللغويّ.

الاستتمام.[3]

التفصيل والإجمال.[4]

التلازم أو القِران.[5]

[1] يُنظر: المصدر نفسه، ص 13-14-15.
[2] يُنظر: المصدر نفسه، ص 43-44-45.
[3] يُنظر: المصدر نفسه، ص 60-61.
[4] يُنظر: المصدر نفسه، ص 70.
[5] يُنظر: المصدر نفسه، ص 75.

الحذف.[1]

إنّ أمر التدبّر عظيم عند الفراهي، فهو أهمّ وسائل معرفة النظام، وهو الضابط الذي عرت منه ممارسات المفسّرين من قبل، وإن كان البقاعي قد أشار إليه في حديثه عن التأمّل،[2] غير أنّ الفراهي ضبطه بالإيمان باليوم الآخر، وجعله أساسًا لمعرفة ضابط علمي منهجي أسماه العمود، فقال: "اعلم أنّ تعيين عمود السورة هو أقليد لمعرفة نظامها، ولكنه أصعب المعارف، ويحتاج إلى شدة التأمُّل والتمحيص وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة والمتجاورة حتى يلوح العمود كفلق الصبح، فيضيء به السورة كلها، ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات المحتملة أرجحها".[3] فالفراهي لم يختلف عن البقاعي في التسليم للفكر الفطري، وعمق التدبّر الذي يخصّ الله به ناسًا دون آخرين، وهذا الضابط يقابل ضابط علماء النص الغربيين في اعتماد قانون (المعرفة بالعالم)،[4] وهو يعني عند العلماء المسلمين (المعرفة بالله سبحانه)، فهو أمر توفيقي فطريّ، غير أنّ الفراهي اختصّ بخصيصة ميزته عن كل من سبقه هي اعتماد العمود، وهو ما سنفصّل فيه في المطلب الآتي، وما يدلّ على العمود هو سابق حديث أوردناه عن ابن العربي والزركشي في أنّ التناسب يُفضي إلى عدّ القرآن الحكيم بناءً متكاملًا أو هو كالكلمة الواحدة، غير أنهما لم يوضّحا كيفية ذلك، كما أنّ البقاعي لم يوضّح مفهوم التدبّر وكيفية تأثيره في معرفة التناسب.

إنّ وجوه إنكار وسائل النظام التي وفدتْ أو قد تَفِدُ على النظام تظهر من جهتين: الأولى الاعتماد في التأويل على القرآن دون الأحاديث أو المأثور، والأخرى

[1] يُنظر: المصدر نفسه، ص 77.

[2] يُنظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 11/1.

[3] دلائل النظام، ص 89.

[4] نظرية النصّ بين التنظير والتطبيق، علامات في النقد، 13/49، سبتمبر 2003م، ص 516 بتصرّف يسير.

الاكتفاء بالعقل أو الرأي والعلم باللسان العربي.

يرى الفراهيّ أنّ الاعتماد على الرأي أو العقل لا يخرج عن مراد القرآن؛ يقول: "ليستِ الحكمةُ إلا تربيةَ النظرِ والأخلاقِ، وقد استعملَ القرآنُ لذلك طرقاً شتّى:

فمِن جهةِ كونِهِ مُتشابهاً ومثانيَ حثَّ النَّظرَ على الانتقالِ مِن النَّظيرِ إلى النَّظيرِ.

وعلى تصوُّرِ البعضِ مِن بعضٍ آخرَ، وهما مِن طرقِ الفِطرةِ، ينتقلُ العقلُ مِنَ العلامةِ إلى ذي العلامةِ، ومِن المِثْلِ إلى المِثْلِ.

حذفَ بعضَ المُقدّماتِ، فرُبَّما يذكرُ الطَّرفينِ، ويتركُ الوسطَ، ورُبَّما يكتفي مِنَ الأمرينِ بأحدِهما، ورُبَّما يكتفي مِن أربعةِ أمورٍ فيها مزدوجانِ بأمرينِ، فيأخذُ من كلِّ مزدوجٍ زوجاً. وهذا بحثُ الاستدلالِ باللُّزومِ، وهو الأصلُ الأعظمُ في فطرةِ العقلِ، ويقتضي التَّدبُّرَ والتَّفكُّرَ، وقد جاءَ في كلامِ العربِ قبلَ الإسلامِ".[1]

إنّ المعرفة باللسان العربي والتمكّن فيه مع التدبّر والإلمام الشامل بالقرآن ومعانيه هو ما يسدّد الرأي ويوضّح المعاني، فالرعيل الأوّل من العرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم إنّما فهموا القرآن من القرآن نفسه ومن تملّكهم زمام اللغة، ففهموا القرآن وآمنوا ببلاغته وإعجازه، وأمر آخر أنّ الفراهيّ رحمه الله كان يؤسّس النظام وفي ذهنه، إضافة إلى تأمين الفهم الأمثل للقرآن وتعلّمه وتعليمه، الردّ على رادّي النظام من المسلمين، والقائلين باضطراب نظام القرآن من الزنادقة، لذلك جعل القرآن هو الأساس في التأويل؛ يفسّر بعضه بعضًا، وكان الرجوع إلى السنّة والمأثور والكتب المقدّسة السابقة لتعزيز ما استبان من النظام، وللاحتجاج به على الآخرين، ويرى أنّ التفسير بالمأثور كتفسير الإمام الطبري الذي يُعدّ إمامًا في هذا الباب فيه آراء متشاكسة متناقضة،[2] وهو غير موثّق، فلا يؤخَذ منه ولا من غيره إلا ما يقبله نظام

[1] دلائل النظام، ص 43-44.

[2] يُنظر: المقدّمة الخامسة من تفسير الفراهي: (تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان)، ص 39.

القرآن ويتوافق مع معانيه ومطالبه ومقاصده وأعمدته، فالقرآن حكمٌ على غيره، وهذا الكلام لا ينعكس، ويقول: "ترى في القرآنِ أهمَّ شيءٍ أمْرَ الآخرةِ والقرآنِ، فإنَّ العملَ لا يأتي إلا على الإيمانِ بالجزاءِ والبعثِ بعدَ الموتِ، والإيمانُ بكتابٍ يهديهم، والشُّبهةُ على هذَينِ الأمرَينِ تبقى على مرِّ الدُّهورِ. وكذلك ترى أمرَ الوحدانيَّةِ أهمَّ، فإنَّهُ كالأساسِ والأبجدِ، فترى في القرآنِ هذه الأمورَ مشتبكةً ومعتورةً ومدرجةً ومندمجةً بعضَها في بعضٍ، فتجدُها كما قالَ الشَّاعِرُ:

نَطْعَنُهُمْ سُلْكَى ومَخْلُوجَةً كَرَّكَ لِأَمَيْنِ على نَابِلِ

ويلحقُ بذلك ما يُناسبُهُ كالإطاعةِ والشُّكرِ، وتفصيلِ أمورِ الآخرةِ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ، وحُسْنِ أحكامِ القرآنِ بذكرِها وغيرها".[1] إنّ الحديث عن حجج إثبات وسائل النظام كثيرة، إذ إنّ الوسائل نفسها كثيرة متشعّبة، وقد جعل الإمام الفراهي كلّ همّه ووكده إثبات النظام وأهمّيته، وسلك لذلك كل سبل المحاج وأساليبه قبل أن يتّجه نحو إفراد تفسير خاصّ أسماه (تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان)، غير أنه لم يتسنّ له أن يفسّر القرآن كاملًا رحمه الله.

**خاتمة البحث:** قدّم الفراهي علمًا جديدًا هو علم النظام، وهو فوق نظرية النظم الجرجانية وفوق علم المناسبة، أسّه وسعى إلى إثباته بما أوتي من حجج في كتابه (دلائل النظام)، وله كتاب آخر في هذا الباب هو (التكميل في الأصول التأويل) إضافة إلى مقدّمات ذكرها في بداية تفسيره، وثمّة كتب أخرى تصبّ في بوتقة ذلك مثل (تاريخ القرآن) و(مفردات القرآن) وغيرهما، ولم أشأ أن أدخل في الحديث عنها خشية الإطالة، فكتاب (دلائل النظام) الذي استندت إليه لم أتمم تفاصيل حججه، والحقّ أنّ قارئ الحجج سيصل إلى يقين أنّ النظام العلم الذي أوجده الفراهي هو سبيل ممهّدة للتأويل والترجيح، فجعلت هذا البحث لبنة لبناء تصوّر واضح أقدّمه للقارئ

[1] دلائل النظام، ص 133.

العربي ليطّلع على تراث الإمام ويفيد منه، فالعلم إن لم يخرج للناس وينفعهم يفقد قيمته، وهذا العمل مواصلة لبحوث وتحقيقات سابقة حول تراث الإمام.

لقد بسط الإمام لنا معاني القرآن كما فهمه الرعيل الأوّل بحسب ما يرى بالاعتماد على الفهم الثاقب للقرآن وللسان العرب، بالتوسّل بالإيمان والتدبّر، كما بدا أنّه يميل إلى رجال ذلك الزمان ويقدّسهم ويفتخر بأخلاقهم وفهمهم وسجاياهم وبلاغتهم، وخصّ لذلك مقدّمة في تفسيره بعنوان (المعروف ما عرفته العرب صالحاً، والمنكر ما أنكرته) فهم الذين اصطفاهم الله سبحانه لحمل رسالته الخاتمة والخالدة، وكان يؤيّد الجاحظ في بيان فضل زمانهم ومكانهم وسجاياهم وبلاغتهم، وأنّه قد خلفَ من بعدهم خلْفٌ خرجوا عن سيرتهم وأبعدوا وخلطوا عملًا صالحاً وآخر سيّئًا. فالقرآن بيّنٌ نزل بلسان عربيّ مبين، وتعهّد الله ببيانه فقال: "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾" (سورة القيامة: 19) إنّما اختلفت الآراء في فهمه وتأويله عند المتأخّرين لمّا غاب عنهم فهم نظامه، فأكثروا من التأويلات التي تسير على غير هدى، وتخضع للاعتقادات البشرية الفاسدة التي تُحيل إلى معتقد المؤوِّل، ولا تخضع لنظام النصّ القرآنيّ أو لمراد الله، فالإمام ربط معرفة النظام بحفظ الديانة وصلاح الأمّة ووحدتها، فحسبه ذلك من شرف، وكفاه من حجّة، فبدا الإمام من خلال طرح الأسئلة والإجابة عنها فيلسوفًا حجاجيًّا يمتلك طاقات استدلالية، ومبعث ذلك كلّه فيما ظهر لي من ثقافته الواسعة ومن إيمانه بما يقدّمه من أفكار ونظريات وعلوم أيّد بعضها بعضًا، وقبل كلّ شيء من توفيق الله وهداه، ألم يقل سبحانه: "إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾" (سورة يونس: 9). ولا يُزكّى على الله أحد. وآخر دعوانا أنِ الحمد لله.

وكما استعرض د. شكري فيصل "دلائل النظام" بطراز جديد ومن جهة وناحية جديدة كما يلي:

العالم والمعلّم الجليل عبد الحميد الفراهي- رحمه الله- من أبرز وجوه الحركة العلمية والإصلاحية في شبه القارة الهندية، وعلم من أعلام المسلمين هناك. والذين لا يعرفونه معرفة دقيقة في شرقنا العربي الإسلامي يعرفون- على الأقل- كتابه المشهور (إمعان في أقسام القرآن) الذي ألقى فيه أضواء جديدة حقًا على ظاهرة القسم في القرآن الكريم.

ولقد كتب المعلّم- كما يجب تلامذته والناهلون من فضله أن يلقبوه- عديدًا من الكتب، وطبع عددًا من الأبحاث في موضوعات من موضوعات القرآن الكريم، ودراسة ظواهره، أو الوقوف عند بعض القضايا التي أثيرت من حوله ..... فهناك كتابه (فاتحة نظام القرآن)، وكتابه الآخر (مفردات القرآن)، وتفسيره (سورة الفيل)، وتفسيره (سورة اللهب)، وكتابه (الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح).

ويبدو أن المعلّم الفراهي كان يدخر كثيرًا من الدراسات القرآنية: ينوي بعضها ويباشر بعضها الآخر، ويوشك أن ينتهي من بعض ثالث قبل أن يختاره الله لجواره، فلما انتقل بقيت هذه الثروة من الملاحظات والأبحاث، وبدايات الأبحاث، تترقب من ينظر فيها أو يخرج للناس ما يمكن إخراجه منها.

من هذه الدراسات التي كان المعلم الفراهي يعدها هذه الدراسة التي طبعتها "الدائرة الحميدية" باسم (دلائل النظام).

والواضح أن دلائل النظام لم يكتمل صناعة وتأليفًا .... إنه كما يقول الأستاذ بدر الدين الإصلاحي- <مدير الدائرة الحميدية وأحد تلاميذ المعلّم الكبير> في مقدمته التي كتبها له: "مجموعة من أفكار الإمام التي أعدها لهذا الكتاب لم يتيسر له أن يرتبها ما عدا الفصول العشرة الأولى في أوله، وهي تشغل الصفحات 9-32، وأما ما عدا ذلك فهو مما كان مبثوثًا في مخطوطاته، جمعته ورتبته حسب ما رأيته مناسبًا، فإن أصبت فيه فبتوفيق ربي، وإن أخطأت فمن نفسي، والأستاذ الإمام- رحمه الله- بريء منه" (من المقدمة ص 6).

وكذلك نواجه قصة من قصص التآليف التي يغادر أصحابها الدنيا قبل أن يستطيعوا إنجازها ..... إنها قصة ذات وجهين: وجهها الأخلاقي، ووجهها العلمي.

أما وجهها الأخلاقي فذلك الذي يتبدي في صنيع الأستاذ بدر الدين الإصلاحي ... فالأستاذ بدر الدين الإصلاحي كان تلميذ المغفور له "أختر أحسن الإصلاحي" والأستاذ أختر كان تلميذًا رشيدًا- على حد الوصف للأستاذ بدر الدين- للإمام الفراهي وأمينًا لمخطوطاته. وقد أوصى الأستاذ أختر تلميذه بدر الدين في العام الذي توفي فيه قبل أن يعمل على طبع مخطوطات الفراهي، بعد أن مضى عليها ما يزيد عن ربع قرن دون أن يطبع منها إلا النزر اليسير.

من هذه الوصاة انطلق الأستاذ بدر الدين يعمل في جمع هذه الأفكار القرآنية وفي إلحاق بعضها ببعض.... فكان بذلك مثلًا للوفاء الذي تفرضه تقاليد الحياة العلمية الإسلامية على التلاميذ تجاه أساتذتهم، وعلى المريدين تجاه شيوخهم .... وكان جهده في ذلك هذا الجهد الذي يخاف ثقل المهمة، ولكن الوفاء يجعل وصية الشيخ دائمًا بين عيني تلميذه.

ويظهر أن الأستاذ بدر الدين عانى من ذلك بعض المعاناة القاسية، إذ يقول في المقدمة: "فخشيت هذا الأمر العظيم ورأيت مرارًا أن أطويه على غرة، ولكن لم تزل وصيته رحمه الله تضطرني إليه، فراجعت فضيلة الأستاذ الجليل "أمين أحسن الإصلاحي" مستشيرًا في ذلك وهو ثاني اثنين يتأدبان بآداب الإمام الفراهي بمدرسة الإصلاح، وهو المرجع الوحيد بهذا العصر لأفكار الأستاذ الإمام وعلومه القرآنية، فشجعني على الوفاء بما عهد إليّ شيخنا المغفور له، ووعدني بكل أمانة أحتاج إليها، فأرضيت بعد ذلك نفسي بهذا العمل العظيم، مستعيذًا بالله من ظلمات النفس وغوايات الجهل".

هذا عن الوجه الأخلاقي لقصة هذا الكتاب ... أما الوجه العلمي فالذي يبدو أن الأستاذ بدر الدين رجع إلى مخطوطات الفراهي وأوراقه التي كان يكتبها، وبطاقاته

التي كان يعدها، فجمع منها ما يتصل بفكرة الكتاب: (نظام القرآن)، ورتبها حسب الذي رآه مناسباً من ترتيبها.

ولعل الأستاذ الإصلاحي أحس أنه لا يقدم كتاباً على النحو الذي كان يعيش في ذهن صاحبه، وإنه إنما يقدم مشروع، كتاب بعضه من إعداد صاحبه، وبعضه مما قدر أنه أقرب ما يكون خدمة لفكرة الكتاب وتحقيقًا لهدفه ... ومن هنا كان جدّ أمين في إطلاق اسم (مجموع) على هذا الكتاب، وملاحظة أن هذه الفقرات أو الصفحات التي اقتبسها من مخطوطات الشيخ إنما هي الأفكار الأولى التي كانت تتولد في ذهنه، والتي كانت ستؤلف عنده مادة الكتاب إذ يعيد النظر فيها، وإنه لا بد لها- لهذا كله- من أن يكون فيها شيء من الإجمال والإبهام. وفي ذلك يقول الأستاذ بدر الدين في المقدمة: "وإذا لم يكن أكثر هذا المجموع إلا كالإشارات التي يختزنها المصنفون لمصنفاتهم من غير تفصيل، فلا غرو إن كان فيه شيء من الإجمال والإبهام، فلذلك ينبغي لمن درس هذا الكتاب أن لا يمر به كالريح العاصف أو البرق الخاطف، بل يقف على كل سطر منه ويتفكر فيه عسى أن يجده فصلًا مستقلًا".

ويظهر أن الأستاذ بدر الدين الإصلاحي هم أن يعيد النظر في هذه الأفكار التي جمعها ونسقها على هذا النحو، ولكنه آثر أن لا يمزج أفكارًا بأفكار وأسلوبًا بأسلوب، ولذلك ترك ما كان المعلّم قد كتبه على حاله دون تغيير أو تبديل (المقدمة ص 6).

موضوع الكتاب "معرفة نظم القرآن في معاني الآيات والسور" (ص 12) .

ومن المعروف أن العلماء قد انصرفوا إلى أشياء من ذلك قبل . . . فصنفوا في تناسب الآي والسور "ص 74" وأقام الجرجاني "عبد القاهر ...-471هـ" نظريته في إعجاز القرآن الكريم على أن هذا الإعجاز يتمثل في النظم وذلك عمله في كتابه (دلائل الإعجاز).

ولكن الشيخ الفراهي يريد أن يجاوز ذلك ليجعل من الحديث عن النظام في القرآن

علمًا يسبق هو إليه : وأما الكلام في نظام القرآن فلم أطلع عليه، ص 74".

ولقد اضطره ذلك إلى أن يفرق بين ما هو معروف من تصانيف حول تناسب الآي والسور (البقاعي في كتابه الذي لم يطبع: نظم الدرر في تناسب الآي والسور) وبين ما يريد أن يذهب إليه من التفريق بين الكلام في التناسب وبين الكلام في نظام القرآن.

وخلاصة ذلك عنده أن التناسب إنما هو جزء من النظام، وأن النظام يقتضي التناسب فهو أعم، ولكن التناسب "لا يكتفي في الكشف عن كون الكلام شيئًا واحدًا مستقلًا بنفسه. وطالب التناسب ربما يقنع بمناسبة فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئًا واحدًا، وربما يطلب المناسبة بين الآيات المتجاورة مع عدم اتصالها، فإن الآية في الغالب ربما تكون متصلة بالتي قبلها على بعد منها ..." ص 74.

وإذن فالنظام الذي ينشده الأستاذ الفراهي ويتحدث عنه هو شيء يزيد على المناسبة وعلى ترتيب الأجزاء ... إنه يريد أن يرى "القرآن كلامًا واحدًا، ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر" ص 75.

وقد أوضح ذلك على نحو آخر في الفصول العشرة الأولى التي كان رتبها فقال: "بيان النظام الكلي بحيث يعلم أن القرآن كلمته، كما أنه مرتب الآيات فكذلك منظم السور، فإن قدمت وأخرت ذهب طرف من الحكمة كما لو بدل ترتيب الآيات ... ص 12".

وكذلك نرى أن الفراهي أراد أن يجاوز في موضوع النظام في القرآن كل ما كان قبله في هذا الاتجاه:

أ. أراد أن يجاوز أن يكون النظام بلاغة ... "فالنظام فن مستقل عن البلاغة، بل هو الذروة العليا منها ص 11" وعنده أننا نستدل بالقرآن على البلاغة، ولا نستدل بالبلاغة على القرآن: "لم نطلع على الحقيقة البلاغة ونهجها لولا كشف القرآن القناع عن وجهها كما قد أوضحناه في كتاب جمهرة البلاغة ص 11".

ب ـ أراد أن يجاوز أن يكون النظام الذي يريده هو التناسب الذي سبق إليه العلماء، كما قدمنا.

ج. أراد أن يجاوز- فيما أقدر- نظرية الجرجاني في النظم، وإن كان لم يخض في ذلك ولم يشر إليه ... فلعله رأى أن غاية الجرجاني تفسير نظرية الإعجاز، بينما كانت غايته هو فهم القرآن فهمًا مستقيمًا يجتمع المسلمون جميعًا عليه ... تلك غاية فنية وهذه غاية لا تقتصر على الجانب الفني وحده ولا تفسر الإعجاز، وإنما يجمع بين ذلك وبين فهم القرآن على نحو جديد.

ماذا يعني النظم إذن بدقة؟ وما مدى ما كان من أثر الكتاب في ذلك ..

هذان هما السؤالان الرئيسيان اللذان يلحان على القارئ، وهو يقرأ كل صفحة أو كل فقرة من الكتاب.

وعندي- أقولها متهيبًا- أن الفكرة لم تأخذ كل أبعاده في ذهن الإمام المعلم أو لنقل في هذا الكتاب .. لقد قطع عليه الموت ما كان يريد أن يصل إليه، أو ما كان يريد أن يوضحه.

وعندي كذلك أن الكتاب في هذا كتاب إثارة .. إنه قادر على أن يلفت القارئ وأن يستوقفه .. بل هو قادر على أن يوحي إليه وأن يلهمه .. إنه يطرح عليه كثيرًا من الملاحظ والآراء، منها ما هو مثير ومنها ما هو منير، ومنها ما يبعث على تجديد النظر أو تحديده أو الدلالة على زاوية من زواياه ... ولكنها، هذه الملاحظات والآراء التي يطرحها، لا تكفي ولا تأتي منسقة على النحو الذي يجعل كلام المؤلف في النظام نظرية كاملة تقود القارئ إلى ما كان المؤلف يريد أن يقوده إليه.

وقد يكون من الظلم أن نقول هذا في كتاب لم ينته صاحبه من تأليفه، أو لعله لم ينته من التفكير فيه ... كان يراوده على شكل ملاحظات وأنظار .... وما أصعب أن

يناقش كتاب، أو تناقش فكرة، كانت لا تزال تتوالد ... كانت لا تزال في طريقها بعدُ إلى الوضوح والتكامل واستيفاء الحجج والأمثلة.

الشيء المؤكد الذي يبقى في قلب القارئ وفي عقله إذ ينتهي من مطالعة الكتاب إنما هو إيمان الفراهي بما كان يدعو إليه .. فما من شك في اقتناعه به، وما من شك في دفاعه عنه، وما من شك كذلك في أنه نوّع الطرق في إيضاحه، وفرّع الأساليب في اللفت إليه والإقناع به.

ومما يجعل لهذه القناعة مكانتها أن الأستاذ الفراهي- رحمه الله- كان يذهب في ذلك إلى بعيد. وكان يرى أن معرفة هذا النظام ليست أمرًا علميًا فحسب، ولكنها قضية تتصل بحركة الإصلاح التي استبدت بكثير من علماء المشرق الهندي .. وإنها ليست نظرية في نظم القرآن فحسب، ولكنها طريقة في قيادة العلماء لأنفسهم، وفي قيادتهم للمسلمين قيادة موحدة.

وقد عبر الفراهي عن ذلك في الفقرة التي شغلت الصفحة العاشرة وعنوانها: النظام لمن؟ وفي ذلك يقول: "إن معرفة النظام من الضروريات لعلماء هذه الأمة حتى يعلّموا الناس حسب ما فهموا، فإنهم إن لم يفهموه واختلفوا فيه كيف يرشدون الناس؟ ...".

وهو على اعترافه بكل ما بذله المسلمون في فهم القرآن برى- في كثير من التجوز- أن هذا لا يكتمل ولا يتوحد إلا إذا عرف النظام "فإن فهم الكلام لايكون بدون معرفة النظام، وإنه لهو السبيل الوحيد إلى فهمه".

يبقى بعد هذا كله أن تظل آراء الكتاب موضوع مدارسة ... وأزعم أن نشر المؤلفات الأخرى للفراهي أمر يساعد على هذه المدارسة وبخاصة الكتاب الذي يشير إليه باسم (كتاب الأساليب) انظر ص 50. والآخر الذي يسمّيه على وجه الورقة الأولى: (تفسير نظام القرآن).

يبقى كذلك أن معرفة المؤلفات الأخرى التي نشرت للمؤلف أمر لا بد منه في محاولة إلقاء الأضواء على رأيه في (النظام) الذي يذهب إليه.

ولعل باحثًا أو دارسًا- في نطاق الدراسات العليا أو بعيدًا عنها- يفرغ لهذه المؤلفات، حتى تكون آراء الفراهي أكثر وضوحًا، وحتى نكون في المشرق العربي على صلة نيرة بها وإفادة منها.

تلكم خطوتان متكاملتان: طبع بقية آثار الؤلف، ودراسة ذلك دراسة تستطيع أن تجد الكل الذي كان يقصد إليه.

وذلك ما أرجو أن يتم، وذلك ما تقرضه قراءة الكتاب.

ولا بد، قبل وبعد، من تحية طيبة للأستاذ الجامع بدر الدين الإصلاحي على ما كان من جهده ووفائه، وما كان من هذه الإفادات الكثيرة التي ذيل بها صفحات كثيرة من صفحات الكتاب، بغية التوضيح والإنارة.

والشكر للدائرة الحميدية التي طبعت الكتاب، والأمل بمتابعة طبع الكتب الأخرى.[1]

وكما استعرض الأستاذ سعيد أحمد الأكبرآبادي كتاب "دلائل النظام" في جريدته الشهيرة باللغة الأردية مثيرا سؤالا هل هل يوجد الربط والنظم بين الآيات والسور في القرآن أم لا؟ وأجابه بنفسه قائلا:

"وهذه المسألة اختلف فيها السابقون واللاحقون على السواء، وكان العلامة الفراهي الذي حاز منزلة سامية ومكانة عالية بين معاصريه من أجل التدبر والخوض في معاني القرآن وعلومه، وكانت وجهة نظره الخاصة بأنّ القرآن كله من أوله إلى آخره مرتبط فيما بينه مثل أجزاء مختلفة من جملة ترتبط وتنسجم فيما بينها، ولا يوجد ربط ونظم في آيات سورة فقط، ولهذا عني العلامة في تفسيره بهذه الوجهة الرئيسية

[1] مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، 49/4/908-915

في كل مكان وفسّر كل سورة في ضوئها، وفي هذا الكتاب أثبت العلامة وجهة نظره الخاصة بالأدلة والبراهين وتكلم عن إمكانياتها العملية وأوضحها بالأمثلة.

وهذا الكتاب ليس مرتبطًا ومنظمًا كما ذكر مرتّبه الشيخ بدر الدين الإصلاحي في ديباجته، ولم يؤلّف العلامة كتابًا مستقلًا على هذا الموضوع بل كتب مذكرات فجمعها المرتب المتأهل ونشرها في شكل كتاب، ولا شك فيه .... ما هي حقيقة الربط والمناسبة، لا يمكن أن يعلمها أحد على وجه القطع إلا الله ورسوله، لأنّ وجوه الربط والمناسبة ليست منحصرة في خمسين، ومئة بل هي لا تعدّ ولا تحصى، وبناء على هذا شأنه تعالى "لا تقضى عجائبه" والإنسان محصور ومقيّد، فكيف يستطيع أن يحيط بها، ولهذا كانت الجهود التي قام بها الإمام الرازي والأئمة الآخرون في وجوه النظم منها ما هو موضع الاختلاف والنزاع، وإن كان الفراهي قد طوّر هذا الفن، ولكن بخصوص هذا الشأن كثير من أدلته إقناعي، ويمكن أن يقال البرهان اللمي فقط، وأما ما بحث العلامة عن ظاهر القرآن وباطنه في هذا الكتاب، فهذا مؤذن للدمار....فلذلك ما قام به إخوان الصفا والشيخ ابن عربي في هذا الخصوص من الزخارف قد أضرّت بالإسلام كثيرًا، ولم يُتدارك حتى الآن، ولذلك يستحق هذا الكتاب التقدير والمطالعة من الناحية العلمية والفنية، وقد انتقد العلامة منكري النظام نقدًا لاذعًا، متكلّمًا عن أهمية النظم وضرورة علمه في 30-35 صفحات من أوائل الكتاب، وقال: لا يتم الاعتقاد والعلم بدون علم النظام (ص 38) وهذا يندرج عندنا تحت "إعجاب ذي رأي برأيه" ويوجد فيه بعض الأخطاء المطبعية التي لم تذكر في فهرسة الخطأ والصواب، وعلى سبيل المثال، تحسن إضافة "لتركيب" في "بعد المعرفة تركيب أجزائه" وإضافة "بالبعض" في "تناسب بعضه" في السطر الخامس من الصفحة السادسة عشر".

**جماع القول في علم النظام:** ليس الأصل في علم النظام، حسب رؤية الفراهي، أن نربط الآية بالآية، أو الفقرة بالفقرة، أوالسورة بالسورة ، بأي رابط كان، حتى ولو كان رابطًا غثًا بعيدًا، رابطًا فيه وهن وتكلف.إنما الأصل في علم النظام أن نتملى

الآيات، ونتدبرها حتى تتكشف لنا تلك الروابط اللطيفة، والوشائج الحكيمة:

التي تملؤ الآيات، وتتشابك فيها كتشابك الأفنان في أشجار البستان، أو كتشابك العروق في جسم الإنسان.

والتي تُظهر وتبلور ما في آي القرآن من روعة وطلالة تبهج الوجدان.

والتي تساعد في تذوق ما فيها من جلال الأسلوب، وبديع الخطاب، وعذوبة البيان.

والتي تقرّب الذهن إلى إدراك ما فيها من قوة ورصانة وإتقان.

والتي تمدّ العقل بما تزخر به الآيات من علوم جمّة وحكم حسان.

والتي تشفي الروح بما وُضع فيها من علاج لأدوائها العضال، وأسقامها الجسام.

إذن، فعلم النظام يفقد اعتباره، ويفقد قيمته وأهمّيته:

إذا لم يكن سبباً إلى حب القرآن وتذوقه والاستمتاع بجمال أسلوبه.

وإذا لم يكن داعياً إلى معايشة الآيات، والتشبع بروحها.

وإذا لم يكن سبيلاً إلى علاج النفس من أدوائها وأسقامها.

وإذا لم يكن سلّمًا إلى صقل المواهب، وتوجيهها وترشيدها.

وإذا لم يكن حافزاً على تطهير العلوم في ضوء نصوص القرآن، وتطويرها.

وإذا لم يكن باعثًا على العمل الجادّ لإظهار نور القرآن على المبادئ كلها.

ولايعزبنّ عن بالنا أن النظام هو سرّ إعجاز الآيات، وملاك معارف القرآن.

فهو الذي أعجز فرسان الكلام، وألجم فحول البيان، وأخرس حكماء اليونان!

وهو الذي جعل القرآن بحراً لايسبر غوره، ولاينفد كنزه، ولاتنتهي دُرره!

وهو الذي جعل القرآن بحيث لاتبلى جدّته، ولاتنتهي روعته، فهو جديد ما اختلف

الجديدان! ورائع أخّاذ ماخفق الفؤاد، وما خطّ البنان!

زد إلى ذلك أن الإمعان في نظم الآيات، ونظام السور هو المفتاح لفهم القرآن.

فهو الطريق إلى ما فيه من رموز وكنوز!

وهو المنظار لما فيه من علوم وحكم ليست لها حدود!

نسأل الله ربنا الرحمن، الذي أنعم علينا بالقرآن، أن يوفقنا للغوص في أعماقه، والتحليق في أجوائه، والإمعان في نظامه، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من كنوزه ورموزه، ويجعل لنا نصيباً من علومه. إنه سميع قريب مجيب.

**وجوه خفاء النظم:** قد عُلِم من هذا الحديث بأنّ أصول النظم هو أساس لفهم القرآن، ووسيلة للوصول إلى معارفه الكثيرة، والتأويلات الصحيحة للآيات المتشابهة؛ ولكن هنا ينشأ سؤال بأن نظم الكلام لوكان هامًا لهذه الغاية، فكيف خفي على العلماء السلف، ولم يذكره أكثرهم؟ فقد أجاب عنه العلامة الفراهي بأنهم تركوه لصعوبة فهمه، وكونه من مزلات الأقدام، فلم يدخل في مهمات الدين، ومن أسباب الغفلة عن هذا العلم الدليلُ بأنّ نزول القرآن للعمل به، والاستهداء منه، لا للاشتغال باستنباط لطائفه ونكات بلاغته، ولاشك في أن لطائف البلاغة، ووجوه الإعجاز ليست مقصودة لذواتها، وإنما المقصود منه هو التدبر في معاني القرآن وفهمها. ومعرفة النظم إنما هي الوسيلة إلى الحصول على كنوز الحكمة، والنور المخفي في القرآن،[1] ولكن لا يطلع عليها من يمرّ به كالراكب السريع، أو الريح العاصف، ولولم يكن القرآن حافلًا بالمعارف لما أمر الله بالتدبر والتفكر فيه، فمن ظنّ بأن المعارف كلها مودعة في الجمل التامة، ومن فهمها فقد اطلع على ما تضمنه، سواء عرف نظامها أو لم يعرف، فهو على خطأ صريح.[2]

[1] المصدر نفسه، ص 17

[2] المصدر نفسه، ص 18

**إنكارُ بعض العلماء لنظم القرآن:** وإنكارُ بعض العلماء لنظم الكلام لا يقوم على دلائل قوية، فمثلًا يقول المنكرون بأن كلام الله محفوظ من كل عيب ونقص؛ ولكن في بعض المواقع نظم الكلام غير واضح، ويلوح بأنه مختل النظم، فهذا يدل على أنّ جميع آيات القرآن ليست مرتبة، وبعضهم أنكروا لقصور فهم النظم على الرغم من جلالة علمهم، فقد عجز من بعدهم أيضًا، وذهبوا إلى نفي النظام؛ ولكن لا يدلّ عملهم هذا إلا على التقليد المحض والقصور في الفهم الذي لا نحتاج إلى الرد عليه.[1]

ويستدل على إنكار النظم بأن القرآن أنزل نجمًا نجمًا في أحوال مختلفة، ومع أسباب عديدة، فلا يمكن لآياته أن تترتب أو ترتبط بعضها بالبعض، ويستدل أيضًا بما ذكر من أنّ بعض الآيات لها تأويلات مختلفة؛ فإنّ هذا الاختلاف يدل على أنه لا يوجد نظام بين الآيات والسور.[2]

ومن أسباب الإنكار بعض الأخطاء التاريخية أيضًا؛ فإنّ بعض أهل العلم والمستشرقين خاصة يظنون بأنّ القرآن جمع على الصورة الموجودة بغير رعاية للترتيب والنظم في أجزائه، ولا يوجد الترتيب فيما بين السور والآيات، ويستدلون بالآيات البينات التي نزلت بعد النزول الأول، ثم وضعت في سور مختلفة، فاختل النظام، وقد أجاب العلامة الفراهي عن القولين وقال: "كلا القولين ظاهر البطلان ومبني على الجهل الفاحش بجمع القرآن وترتيبه ومواقع الآيات المبينة والمتصلة بعد النزول الأول، أما الأول؛ فلأنّ السور كانت متلوة في عهد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأمر الله النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالتلاوة حسب تلاوة جبريل كما صرح به القرآن، وقد كان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يعلم الناس السورة باهتمام ويسمع منهم، والقرآن مجموع في المصاحف ليس إلا على نسق جاء به جبريل وقرأه على النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في تلاوته الأخيرة، ولو صح ما زعم، فلِمَ أمر الله نبيه باتباع

[1] المصدر نفسه، ص 23

[2] المصدر نفسه، ص 26

قراءة جبريل؟ ولم كان يأمر بوضع الآيات بمواقعها الخاصة؟ وأما الثاني، فلأنّ الآية المدخولة لا تقطع النظم إذا أدخلت في موضع يليق بها، والآيات المدخولة كلها معلومة الربط بما قبلها أو بعدها، وقد قال تعالى: "الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١". (سورة هود:1) فلو قيل بأن الله تعالى لم يرد أن ينزل كلامًا منظمًا، كما لم يرد أن يجعله شعرًا، أو سجعًا، أو غير ذلك مما يراعي فيه المتكلم من البدائع، والتكلف، إنما هو كلام أريد به الهداية، والحكمة، فأنزل حسبما اقتضت الأحوال من الدلائل، والشرائع، وربما اجتمعت المقتضيات من وجوه مختلفة، وسورة خاصة تحمل مطالب مختلفة مترتبة بأحسن وأجمل طريق.[1]

**استخدام نظرية الإمام الفراهي ورؤيته:** هل من الممكن أن تستخدم نظرية الإمام الفراهي ورؤيته عملًا فجوابه نعم بأنّ الإمام الفراهي قد قام بتفسير القرآن حسب رؤيته ونظريته وسمّاه تفسير "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" لكن المنية لم تمنح الفرصة أن يكمله وبعد وفاته قام تلميذه الأجلّ الشيخ أمين أحسن الإصلاحي باستخدام نظرية الإمام الفراهي ورؤيته في تفسيره الشهير "تدبر قرآن" وفاز بتحقيق حلم أستاذه الجليل. قد قام د. إياز أحمد باستعراض "تدبر قرآن" للشيخ الإصلاحي في ضوء أصول الإمام الفراهي وكلياته عن نظم القرآن في مقالته القيمة "نظرية نظم القرآن للشيخ أمين أحسن الإصلاحي والإمام عبد الحميد الفراهي" فهي إليكم:

الشيخ أمين أحسن الإصلاحي (1904-1997م)[2] من المفسرين الذين بنوا تفاسيرهم على نظم القرآن الكريم. وبَيَّن أفكاره الأساسية عن نظم القرآن الكريم تفصيلًا في تفسيره "تدبر قرآن"[3] وهو في تسعة مجلدات ضخمة. ولا يخفى على أهل

[1] المصدر نفسه، ص 40

[2] انظر لتفاصيل ترجمته: مجلة علوم القرآن نصف السنوية عدد ديسمبر 2000م (عددخاص بالشيخ أمين أحسن الإصلاحي)

[3] هذا التفسير باللغة الأردية

العلم أنه استفاد كثيرًا في تفسيره من أفكار أستاذه الإمام عبد الحميد الفراهي، وحاول فيه مراعاة أصول ونظريات أستاذه التفسيرية في كل مرحلة، بل تبعه تمامًا في أهم المواقع على وجه العموم، وخاصة في شرح النظم الداخلي بين أجزاء القرآن الكريم، ومسائل النحو والصرف، وأصول النظم والترتيب، وفي تأويل الآيات والسور القرآنية الصعبة. وكذلك يرى الشيخ الإصلاحي أنّ تفسير القرآن بالقرآن هو الأصل في هذا الباب كما يقول بذلك الإمام الفراهي الشارح لمسألة النظم الموجود في القرآن، وقال الشيخ الإصلاحي: إن نظم القرآن هو من أهم الوسائل لفهم القرآن الكريم.[1] ولأنّ النظم من أبرز الميزات في تفسيره، فركّز عليه فضلًا عن المباحث الأخرى. ولكن كما نعلم أنه تلميذ الفراهي، وأفكاره في النظم القرآني مستوحاة من أفكاره، ولذا من الأفضل أن ننظر كيف يربط فكره بفكر الإمام الفراهي، وفكرته في النظام القرآني قبل دراسة فكرة النظم لديه. ومن هذه الناحية إذا نظرنا في تفسيره وجدنا هذه الكلمات في الصفحة الأولى: "قضيت من عمري خمسًا وخمسين سنة في هذا التفسير "تدبر قرآن" منها ثلاث وثلاثون سنة في الكتابة والتسويد، ولو أضفنا إلى هذه المدةِ الفترة التي قضاها الأستاذ الإمام في تدبر القرآن الكريم والتي حاولت مزجها في هذا الكتاب أصبح عصارة قرن تقريبًا في تدبر القرآن الكريم، وها هي في شكل تفسير يسمّى بـ"تدبر قرآن". وإنه من سوء الأدب أن أربط فكرتي بفكرة الأستاذ رحمه الله، ولكن غاية منشودتي أن أقتفي على آثاره مدى الحياة، وبالتالي ظهر فكري كنتيجة طبيعية لفكرته ولهذا تجرأت على هذه النسبة".[2]

وذكر الشيخُ أستاذَه بمثل هذا الكلام في موضع آخر فقال: إن جهده هو أول محاولة ناجحة في نظم القرآن الكريم، وقال عن كتابه "تدبر قرآن":

"أعتز بأن أدعي أن ما في هذا الكتاب هو من إفادات الأستاذ رحمه الله وهذه هي

[1] الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، تدبر قرآن، تاج كمبني دلهي، 1989م، 1/20-21.
[2] المصدر نفسه، 1/7.

الحقيقة، ولكن أتخذ الحذر في هذا الادعاء لا سمح الله أن أنسب أي خطأ إليه".[1]

استفاد الشيخ أمين أحسن الإصلاحي رحمه الله من الفراهي رحمه الله من ثلاثة طرق:

الطريقة الأولى: إنه أخذ علوم القرآن منه مباشرة متلمذًا عليه، وتفقّه فكرة نظم القرآن مبدئيًا فحسب، بل استفاد من توجيهاته الحكيمة في كثير من الآيات والسور من حيث نظم القرآن الكريم.

الطريقة الثانية: إنه استفاد من الكنوز العلمية من كتبه المطبوعة وغير المطبوعة، ومنها التعليقات القرآنية القيمة التي لم تطبع بعد.

الطريقة الثالثة: إنه استفاد من كتب الفراهي التي درسها وقد علّق عليها رحمه الله وهي في شتى الفنون من علوم القرآن والنحو والأدب والفلسفة.[2]

وأشار إلى هذه الجوانب الشيخ أمين أحسن الإصلاحي رحمه الله إشارة واضحة في الأماكن المتعددة في مقدمة تفسيره، وإذا أمعنا النظر في كلماته الآتية يتبين لنا أنه استفاد من كنوز أستاذه العلمية استفادة خاصة.

"وبهذه المناسبة أريد أقول ببساطة أن ما فعلته هو ليس من خالص جهدي، بل هو من جهود أستاذي الفراهي رحمه الله الذي أشار إلى مثل هذه الأمور المفيدة بعد قراءتها والتي تفيد عند تفسير القرآن الكريم، وعملي ليس فيها إلا أني قرأتها فاستوفيت قراءتها، واستفدت منها في حل مشكلات القرآن الكريم، وفي تدقيق أساليبه

[1] المصدر نفسه، 41/1.

[2] مؤلفات الشيخ الفراهي التي لم تطبع بعد، منها التعليقات القرآنية القيمة ولها أهمية بالغة وعلق فيها الفراهي على كل آية تقريبًا حسب الترتيب، ونسخ هذه التعليقات التي تم نقلها من الأصل وهي الآن موجودة عند بعض العلماء. انظر لتفاصيل مؤلفات الشيخ الفراهي غير المطبوعة: تراث مؤلفات الشيخ الفراهي غير المطبوع الشامل لحياة وأفكار الفراهي، للدكتور محمد أجمل الإصلاحي، طبعتها الدائرة الحميدية، بمدرسة الإصلاح، سراي مير، 1992، ص 57- 96.

وتعابيره، وفي دقة لطائفه وبدائعه".[1]

يرى بعض العلماء لخفاء حقيقة الأمر عليهم، كما أظن، أن الشيخ الإصلاحي استفاد من الشيخ الفراهي رحمه الله في الأصول فقط، وإنما كان لديه كتاب باسم "إفادات الفراهي" في تفسير بعض السور القصار، وكذلك بعض الكتب الأخرى في العلوم القرآنية، ولهذا معظم أجزاء التفسير "تدبر قرآن" من نتاج فكرته الأصيلة وليست مستوحاة من فكرة الفراهي. ولعل من أسبابه أنّ الشيخ أمين أحسن الإصلاحي رحمه الله لم يهتم كثيرًا بالمصادر والمراجع في تفسيره الذي هو مجموعة أفكار وآراء الفراهي رحمه الله، حتى اعتمد كاملًا في أكثر المواضع التي تفرد فيها الإمام الفراهي رحمه الله على آرائه. ويتجلى في ضوء دراستنا أن تفسيره يعتمد تمامًا على "إفادات الفراهي" في كافة بحوث نظام القرآن الكريم تقريبًا. ويكفي لإزالة سوء الفهم هذا تذكير كلمات الشيخ أمين أحسن الإصلاحي المذكورة، وبالخصوص كلماته الآتية "أنّ ما في هذا الكتاب هو من إفادات الأستاذ رحمه الله"، وهذه هي الحقيقة. ولنتدبر في أن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي لم يستخدم كلمة "الاستفادة" بل استخدم كلمة "الإفادة" وأن الفرق بين الكلمتين في المعنى ومواضع الاستعمال بيّن. وسينجلي الأمر تمامًا بالتفاصيل الآتية أن الشيخ الإصلاحي استفاد من "إفادات الفراهي" رحمه الله فأكثر الاستفادة، واعتمد عليها في تفسيره إلى حد كبير.

ومن الأهداف الخاصة لنقل هذه العبارات هو الانتباه إلى السبب الحقيقي لخدمات الشيخ أمين أحسن الإصلاحي، ونستعرض في السطور الآتية أفكاره وخدماته تفصيلًا ضمن الموضوعات المتعلقة بنظم القرآن الكريم وأصوله، ولكن أفكاره في النظم بصفة رئيسية تتوافق مع نظرية الفراهي رحمه الله إلى حد كبير، ولهذا يكون من المناسب أن نذكر معًا نظريات الفراهي وأهم جوانب فكرة النظم عند الضرورة.

[1] تفسير تدبر قرآن، 15/1- 16.

أما فكرة الفراهي في نظم القرآن فهي جامعة وذات جوانب مختلفة إلى حد يصعب بيانه ضمن بحث ما، ودراسته تتطلب بحثًا مستقلًا. وهنا نذكر أفكار الفراهي بشكل موجز ضمن دراسة فكرة النظم للشيخ أمين أحسن الإصلاحي، وإن مست الحاجة إلى أكثر التفاصيل في جانب من الجوانب فنعتذر لها.

فكرة النظم: ولا شك في أن فكرة النظم للشيخ أمين أحسن الإصلاحي تقوم على أساس فكرة "النظام" للفراهي رحمه الله، فأعرب هو عن رأيه في جميع المسائل تقريباً مقتفياً على آثار الفراهي، فأول ما كتب في تعريف النظم، على سبيل المثال، وأهميته وفوائده هو جزء من فكرة الفراهي، بل كلماته هي نفس كلمات الفراهي تقريباً. يكتب الشيخ الإصلاحي في هذا الصدد: "نظم الكلام جزء من الكلام لا ينفك عنه، ولا تتصور جودة الكلام إلا به".[1]

هذا هو التعريف الذي ذكره الفراهي مراراً في الأمكنة المتعددة كأهم الدلائل للنظم، وقدّم هذا الجانب في مقدمة تفسيره "نظام القرآن" كالدليل الثالث للنظم وهو كالتالي:

"أنه لا يخفى أنّ نظم الكلام بعض منه، فإن تركته ذهب بعض معناه، فإن للتركيب معنًى زائدًا على أشتات الأجزاء. فلا شك أن من حرم فهم النظام فقد حرم حظًا وافراً من الكلام".[2]

ويبين هذه النكات في كتابه "دلائل النظام"[3] الذي ألّفه كحجة على وجود النظم

[1] المصدر نفسه، 17/1.

[2] الإمام حميد الدين الفراهي، تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، أعظم كره، 1990م، ص 31.

[3] طبع هذا الكتاب على حدة من قبل، ولكنه طبع الآن ضمن مجموعة رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن عن الدائرة الحميدية، أعظم كره، وهذه المجموعة تشتمل على رسائل الإمام الفراهي الثلاث (دلائل النظام والتكميل في أصول التأويل وأساليب القرآن)، وقد نفدت نسختها بعد طبعتها الثانية، والنسخة التي بين يدي هي طبعة سنة 1991م وهي الطبعة الثانية، و"دلائل النظام" من هذه المجموعة التي أخذت منها المعلومات في هذا المقال.

والربط في أجزاء مطالب القرآن الكريم وموضوعاته وهي كالتالي:

"فلا شك أن الكلام إنما هو بنظامه، فإنه يحسن أو يبلغ أقصى البلاغة، لا بمحض أجزائه، بل بنظمه وترتيبه على ما ينبغي، فمن أراد أن يطلع على حسن بيانه، وقوة استدلاله، وتأثيره في النفوس، ودلالته على مكنون الحكمة، لا بد أن يلتمس ذلك من معرفته بتركيب جملاته، فإن ذلك حصل للكلام من مواقع معانيه وترتيبها".[1]

أما الإمام الفراهي رحمه الله فبين هذا الدليل لنظم الكلام في مقدمة تفسيره كدليل ثالث أو قاعدة، وأدخله في أصول النظم الأساسية لتفسيره، وتكلم في هذا الجانب في رسالته "دلائل النظام" تحت عنوان "أسباب قلة الاعتناء بعلم النظام". وحاول أن يثبت بنظريته الخاصة "الكلام إنما هو بنظامه" أنه إذا أكد على نظم القرآن الكريم، فلا يخطيء أحد في فهمه ويقول: إن نظم القرآن أمر خارجي يسلط على القرآن الكريم، أو هو شيء محض كاللطائف العلمية،[2] بل إنما المقصود من شدة الاعتناء بالنظم وربط المعاني مع أجزاء القرآن الكريم هو أن نظم الكلام جزء منه، أو نقول: إنّ الكلام في الحقيقة هو النظم أو ربط مطالب الكلام بعضها ببعض، ولذا إنه يرى أنّ من ترك عنصرًا للنظم أو الربط مع أجزاء الكلام فقد أبعد نفسه عن مفهوم الكلام ومعناه، فلديه نظم الكلام مفتاح لفهم الكلام. وأكّد الفراهي مرارًا على أنّ فهم أي كلام لا يمكن من دون التناسب والترابط مع أجزائه.[3] وخلاصة القول إنّ الشيخ أمين أحسن الإصلاحي استدل على نظم القرآن بهذه النقطة للإمام الفراهي وأثبت أنه يجب الاهتمام بنظامه للغاية لفهم التأويل الصحيح للآيات والمقصود من كلام الله العزيز.

استدل الشيخ الإصلاحي على نظم القرآن الكريم من ناحية أخرى، وهي مستفادة

[1] رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، الدائرة الحميدية، سراي مير، أعظم كره، 1991م، ص 31.
[2] انظر للتفاصيل: رسائل الإمام الفراهي، ص 29-32.
[3] المصدر نفسه، ص 21، و28، و31.

من مقدمة تفسير نظام القرآن للفراهي وهي وحدة الأمة وعدم تفرقها. ويرى الإمام الفراهي أن القرآن الكريم هو السبب الوحيد لتنظيم الملة الإسلامية وتوحيد صفوفها، وهذا كتاب الله هو الضامن الوحيد لحفظ الملة الإسلامية من تفرقها وتحزبها الفقهي والمذهبي، ولكن لا يمكن هذا التوحيد إلا عندما نعين بنظم الكلام مفهوم الآيات الذي تقتضاه، فلا يأول أحد كلام الله تعالى كيف يشاء، ولا يصرف الآيات القرآنية عن معانيها الحقيقية باسم التأويل أو التفسير. ولذا طريق النجاة الوحيد هو أن يُفَسَّر كلام الله تعالى في ضوء النظم الموجود في القرآن الكريم.[1]

يقول الشيخ الإصلاحي في هذا الصدد: "إنّ القرآن الكريم هو السبيل الوحيد لدفع الاختلافات في الأمة، ولكن إذا وقع الخلاف في نفس التأويل لكلام الله تعالى فالنظم الموجود في كلامه العزيز هو الطريق المعتمد الوحيد لدفع هذا الخلاف، ولكن لعدم الاهتمام بهذا النظام اهتمامًا جيدًا وقع الخلاف وجرى في صورة دائمة".[2] وقال الشيخ الفراهي رحمه الله: إنّ الخلاف الفقهي الذي وقع في الأمة إنما هو لأجل التأويل الخاطىء في القرآن الكريم، وهذا هو السبب الأول الذي دفعني إلى أهمية نظم القرآن الكريم وضرورته". وقال في مقدمة تفسيره تحت عنوان "نظم القرآن":

"ولكن اضطررت إليه بأمور، أولها: أني رأيت جلّ اختلاف الآراء في التأويل من عدم مراعاة الناس بالنظم في الآيات، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمود الكلام لاجتمعنا تحت راية واحدة".[3]

القرآن الكريم رسالته "وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ"[4] وهو حبل الله المتين

[1] انظر: تفسير نظام القرآن، ص 30 – 31.
[2] تدبر قرآن، 22/1.
[3] تفسير نظام القرآن، ص 30–31.
[4] سورة آل عمران: 103.

لأهل الإيمان، ويوجهنا الشيخ إلى أهمية نظم القرآن الكريم معربًا عن غمه وهمه على الاختلاف والتشعب في الأمة الإسلامية على الرغم من وجود هذا القرآن فيها، فيقول: "يؤول كل فريق حسب ظنه ويحرف طريق الكلام عن متنه، وبالنظام يتبين سمت الكلام، فينفي عن آيات الله أهواء المبتدعين، وانتحال المبطلين، وزيغ المحرفين".[1]

وذكر الشيخ أمين أحسن الإصلاحي أفكار الشيخ الفراهي بقوة وتأكيد في بداية المقال الذي كتبه في مقدمة تفسيره تحت عنوان "أهمية النظم" وقال:

"وُحِّدَت الأمة الإسلامية بحبل الله المتين، وأمر جميع المسلمين أن يعتصموا بهذا الحبل ولا يتفرقوا ..... ومقتضيات هذا الأمر الفطرية أن يرد الاختلاف الذي يحدث بيننا إلى القرآن الكريم، ولكن من سوء حظنا أن آرائنا لا تتحد في القرآن الكريم نفسه، وتوجد أقوال متعددة في تأويل آية واحدة..... وإذا وقع الخلاف في كلام فأحسن طريقة لرفعه تطمئن بها القلوب هو سياقه ونظامه، ولكن المشكلة في القرآن الكريم أن الناس لا يقولون بالنظام".[2]

نظرية النظم في القرآن: لا يصعب لمن يلقي نظرة عابرة على تفسير الشيخ أمين أحسن الإصلاحي أن توجد عنده فكرة جامعة للنظم، فلم يكتف ببيان الترابط والتناسب العام بين الآيات بل حاول الاعتناء بفكرة النظم هذه للفراهي عمليًا، والتي وحِّدت فيها كل سورة، ووضع القرآن الكريم كله في شكل كأنه كلام واحد. وتكلم في نظم الآيات والسور وفي الأقسام الأخرى لنظم الكلام، وفي أهم جوانبه حتى برز النظام العام للقرآن الكريم. وأعاد الإصلاحي هذه الفكرة لأستاذه بجمال ولمعان أن نظم القرآن الكريم ليس ربط الآيات المجاورة أو الإشارة إلى المناسبة بين الآيات فحسب بل غايته الكبرى هي أنه يوضح الارتباط بين أجزاء الدين والأخلاق.[3] وهذا عنده

[1] تفسير نظام القرآن، ص 31.

[2] تدبر قرآن، 1/21-22.

[3] المصدر نفسه، 1/32.

أعلى مقاصد علمية، ومعناه أن جميع آيات القرآن الكريم وسوره ترابطت بالنظام العام، ويجب التمسك بحبل هذا النظام لفهم موضوعات القرآن الأساسية، وافتراقه في أي مرحلة يبعد عن المعنى الحقيقي والمقصود، ويبين رأيه هذا في موضع:

"وأنّ ما عرض فله علاقة بالنظام الداخلي لكل سورة، وبعبارة أخرى أنّ كل سورة في وحدة مستقلة، ولها عنوان على حدة وهو العمود، وتترابط جميع أجزاء هذه السورة بهذا العنوان، وعلى هذا أقول إن في القرآن نظامًا خاصًا من حيث الجملة".[1]

استخدم الشيخ الفراهي مصطلح "النظام" بشورى بعض أهل العلم في كتابه لترابط الأجزاء القرآنية، وأحبّ هذا المصطلح لأنه يمثل فكره الجامع لنظام القرآن الكريم، ويقدمه من حيث "الشيء الزائد" بمقابلة علم المناسبة العام. ويجب على كل طالب يرغب في معرفة نظم القرآن الكريم أن يعلم أنّ هذا هو الجانب المميز لخدمات الإمام الفراهي المتعلقة بنظم القرآن الكريم، واهتم بتقديم فكرة النظام العام للقرآن الكريم في أتم التفاصيل في كتابه "دلائل النظام" و"تفسير نظام القرآن"، إضافة إلى ذلك هناك جانب آخر وهو أن الشيخ عندما يبين نظم أي سورة أو آية، أو يتكلم في جانب من جوانب علوم القرآن تستنير فكرته هذه كالشمس والقمر. ولهذا الغرض قدّم كل سورة من القرآن الكريم في صورة وحدة، وقسم كل سورة من حيث الموضوع إلى مجموعات متعددة، وقدّم تعليقاته النقدية على تقسيم القرآن الكريم إلى هذا الشكل الموجود في الأجزاء والركوعات، وقال إنّ نظم الكلام أعلى من هذا التقسيم. ولا يعتمد عليه في طلب نظام القرآن الحقيقي، لأن التقسيم الحالي يراعي متطلبات الوصل والفصل الظاهرة، بينما عنده من حيث النظم "يجب أن يراعى في التقسيم الوصل والفصل معًا".[2] ولهذا الغرض أكد على تلك النظريات بأنه:

[1] المصدر نفسه، 24/1.

[2] انظر للتفاصيل: تفسير نظام القرآن، ص 60-61.

يكون لكل سورة موضوع مركزي أو في مصطلحه الخاص يكون عمود يربط جميع موضوعات السورة.[1]

تكون كل سورة مرتبطة بالسور السابقة واللاحقة من حيث المعنى.

كذلك ربما تكون السورة معترضة كما أن الآيات تكون معترضة، فلا تكون متصلة بالسورة التي بعدها مباشرة بل تعترض بينها سورة أو سور عدة من مجموعة أخرى.[2]

وخلاصة القول أن الفراهي رحمه الله تكلم في تلك الجوانب للنظم في المواضع المتعددة بطرق شتى، وهذه الأقوال لا توجد عند من سبقه من العلماء والمفسرين القائلين بالنظم. وهذه هي موهبة ومهارة الشيخ أمين أحسن الإصلاحي أنه بيّن أصول النظم الأساسية لأستاذه الفراهي يسهل به اليقين في نظام القرآن العام لأدنى طالب القرآن الكريم، سواء تكون فكرة عمود السورة أو فكرة وحدة السورة، أو تكون السور والآيات معترضة أو يكون سبب النزول تابعًا لنظم الكلام، وفكرة عمود المجموعات المختلفة للسور القرآنية وطريقة طلبها، فاقتفى هو على آثار أستاذه الإمام الفراهي في جميع تلك المسائل. أما فكرة عمود السورة، وفكرة المجموعات المختلفة للسور القرآنية، ونظريات الترابط بالأحكام والشرائع الإسلامية المذكورة في القرآن الكريم فلها أهمية خاصة، وهذه هي اكتشافات الإمام الفراهي التي لا يشاركه فيها أحد. وفي تاريخ نظم القرآن الكريم نجد كثيرًا من العلماء الذين يبينون المناسبة بين الآيات، ولكن إعطاء فكرة النظام العام وتزيينها بالأصول والشروط مأثرة متميزة للإمام الفراهي. وأشار الشيخ الإصلاحي إلى هذه النظرية الجامعة للنظم في كلماته المذكورة سابقًا، كما أن هذه الأصول والشروط للنظم هي التي ذكر خلاصتها في مقدمة "تدبر قرآن".[3]

[1] لتصور العمود أهمية بالغة في فلسفة نظام القرآن للفراهي.

[2] انظر لمزيد من التفصيل: رسائل الإمام الفراهي، ص 86-87، 95- 96.

[3] انظر للتفصيل: تدبر قرآن، 1/24-27، ويوجد الموجز عنه في نهاية المقال.

ما هو العمود: كما أشير فيما مضى أن للعمود أهمية خاصة في فكرة النظام للإمام الفراهي، ومعناه أن لكل سورة موضوعًا مركزيًا (عمودًا) تدور حوله أجزاؤها، والإمام الفراهي هو الذي أوجد مصطلح "العمود"، ولهذا الغرض استخدمه الشيخ الإصلاحي في تفسيره، وأحب أن يستخدم مصطلح أستاذه هذا بدلًا عن الموضوع المركزي، وأشار إلى أهميته في مقدمة تفسيره أيضًا، كما سبق. ولأهمية هذا العمود اهتم هو قبل تفسير كل سورة بإيضاح عمودها، فالحاصل أنه من أهم أعمدة النظم عند الشيخ الفراهي لأن النظام العام للسورة يعتمد على عمود أو موضوع مركزي، وألقى الضوء على فكرة عموده في موضع بأسلوب جامع للغاية.

"اعلم أنّ مرادنا من النظام أن تكون لكل سورة صورة مشخصة، فإن معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض، وجرت إلى عمود واحد، وكان الكلام ذا وحدة، فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخصة، فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة، رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضاحة".[1]

فالخلاصة أن تعيين عمود السورة عنده هو إقليد لمعرفة نظامها.[2]

مثال نظم السورة: كما أشير في السطور الماضية اختصارًا إلى أصول نظم الإمام الفراهي حاول استعمالها الشيخ الإصلاحي في تفسير جميع سور القرآن الكريم حتى الوسع. وحاول إيضاح عمود سورة قبل تفسير نظمها، وبالإضافة يبين ربط السورة بما قبلها، ويقدم تحليل مطالب السورة الأساسية، ويلقي الضوء على ترابط بعضها ببعض، وبعد ذلك يقسم الآيات إلى مجموعات مختلفة، ويهتم بترجمتها وتفسيرها وإيضاح نظمها حسب الترتيب، ثم يقوم بتفسير وتأويل آيات السورة بعد توزيعها إلى أجزاء صغيرة، وينظر هنا في تصوره عن النظام العام وطريقة بحثه في ضوء شرحه

[1] انظر: رسائل الإمام الفراهي، ص 87.
[2] المصدر نفسه، ص 89.

لأبواب السورة بمثال. ولمعرفة أنه كيف يبين نظم السورة في تفسيرها يجب النظر في تفسير بعض السور مثلًا وبهذا الغرض اخترنا سورة النساء لبعض الوجوه. ويعلم طالب القرآن أن لسورة النساء أهمية كبيرة من بعض الجهات في السور المدنية، منها:

أولًا: أنّ سورة النساء من السور الطوال التي تأتي فيها مشاكل النظم مرارًا لتنوع المعاني والمطالب فيها.

ثانيًا: أنّ سورة النساء من سور المجموعة الأولى للقرآن الكريم في هذا المقام من حيث الترتيب طرأ فيه التغير الخاص على الأسلوب والمخاطب والمطالب. وفي ضوء تلك الجهات يكون النظر في تفسير الإمام الفراهي لسورة النساء معينًا لنا في فهم تصور النظم له.

ثالثًا: ولها وجه ثالث يتضح بنفسه في السطور الآتية.

مثال نظم السورة من "تدبر قرآن" (نظام سورة النساء): بدأ الشيخ الإصلاحي تفسير هذه السورة في ضوء نظم القرآن الكريم حسب العادة بإيضاح عمود السورة (موضوعها المركزي). وعمود هذه السورة عنده هو تعليم المسلمين الاتحاد والاتفاق اجتماعيًا، ويقول: اختتمت السورة السابقة بتعليمهم الثبات على الدين كما قال تعالى: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٢٠٠"،[1] وتكلمت هذه السورة عن الثبات على الدين مفصلًا، وغرضها اتحاد المسلمين واتصالهم اجتماعيًا وجماعيًا، ولا يتصور بدونه الثبات على الدين في أي مجتمع، لأنه لا يمكن حسب قوله الثبات عمومًا وبالأخص الثبات الاجتماعي بدون اتصال المجتمع القوي، وبأسلوب آخر عنده أن جميع ما ذكرت في هذه السورة من حيث العمود (الموضوع المركزي) فهو يجب لإحكام المجتمع الإسلامي ونتائجه الفطرية "الحكومة الإسلامية" وحفظها عن الاختلاف.[2]

[1] سورة آل عمران: 200.

[2] تدبر قرآن، 237/2.

تمهيد: الآية الأولى من السورة تمهيد للعمود لدى الشيخ إذ ذكّر فيها الإنسان بتقوى الله عز وجل، والعناية بصلة الرحم بأسلوب عام. ابتدأت هذه السورة بقوله تعالى: "يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ....."[1] ذكّرت فيها بأن قرابة الجميع مشتركة في الرحم بأن قيل إن جميع الرجال والنساء من أولاد الأب الواحد، ويتطلب هذا أن الجميع ليتقوا خالقهم وأن يحكموا تلك القرابة التي مضى ذكرها اجتماعياً. ويتعلق هذا التعليم بالموضوع المركزي للسورة بأن قام المجتمع الإسلامي على هذين الأساسين.[2] ويقول الشيخ الإصلاحي عن هذا: "الآية التي بين أيدينا هي تمهيد جامع للأحكام التي أنزل الله تعالى لتنظيم المجتمع الإنساني، والأحكام التي يأتي ذكرها فيما بعد في هذه السورة".[3]

أبواب السورة: نظراً إلى نظامها أنه قسّم مطالب السورة العامة إلى ثلاثة أبواب سيأتي تفاصيلها.

(ألف) تعليم إصلاح المجتمع وإحكامه:4 (الآيات من 1 إلى 43): بينت هذه الآيات مبدئيًا الأحكام والقوانين للحياة الاجتماعية من حيث العمود (الموضوع المركزي)، وتفاصيل هذه الأحكام الاجتماعية كالتالي:

إنّ الله سبحانه وتعالى أمر جميع الناس بتقواه قبل كل شيء (الآية 1)، وبعده أمر بحفظ أموال اليتامى وحقوقهم، وأشار إلى طرقه (الآيات 2–10)، وأحكام قسمة الميراث (الآيات 11–14)، إلى مجموعة هذه الآيات فيها سدّ لذرائع المفاسد الناتجة عن الطرق المالية والمادية، ثم يتبع ذكر الأحكام والإرشادات المعتدلة منعًا للاختلاف الجنسي والطغيان الشهواني (الآيات 15–18)، وبيان حفظ حقوق النساء، وتجنب اتهامهن، وتفاصيل مسائل النكاح وشروطه (الآيات 19–23–24–25)، وبينها ثلاث

[1] سورة النساء: 1.

[2] تفسير تدبر قرآن، 238/2.

[3] المصدر نفسه، 246/2.

[4] المصدر نفسه، 238/2– 240، 247– 296.

آيات وردت تنبيهًا وتذكيرًا للناس ومن أغراضه إرشاد المسلمين إلى قيمة الأحكام المذكورة (الآيات 26-28)، ثم المزيد من التوضيح والإيضاح المتعلق بالأحكام والحدود السابقة بعدما ذكر بعض الأمور ضمنًا (الآيات 29-32)، الإرشادات الأصولية المتعلقة بتنظيم الأسرة (الآيات 34-35)، ثم عند الشيخ "الآيات لخاتمة الباب" كأنما انتهت هنا سلسلة الأحكام الاجتماعية التي ابتدأت، ثم تذكير حقوق الله وحقوق العباد (الآيات 36-43).[1]

(ب) التعقيب على المخالفين والتشجيع للمسلمين:2 هذا الباب يشتمل على الآيات من 44 إلى 126. ويعرف الشيخ الإصلاحي هذه المجموعة للآيات أو هذا الباب من حيث المطالب والموضوعات.

"كما أشرنا عند الآية رقم 43 بأن انتهى باب الأحكام المتعلقة بإصلاح المجتمع، ويأتي بيان هذه الردود التي ظهرت من مخالفي تلك الإصلاحات. وإلى جانب آخر يُبشَّر المسلمون بمملكة تكون هي نتيجة لبلوغ وكمال المجتمع. والبداية باليهود من مجموعة المخالفين قبل كل شيء لأنهم من أهل الكتاب فينبغي لهم أن يكونوا أكثر تأييدًا لهذه الإصلاحات، ولكنهم من سوء الحظ خالفوها أكثر من غيرهم".[3]

وبهذه الإيضاحات يقدر بأن الشيخ الإصلاحي رحمه الله كيف يهتم تدريجيًا ببيان الترابط والنظم بين آيات السورة وبين موضوعات مجموعاتها المختلفة. وبعده يأتي، طبقًا

[1] المصدر نفسه، 294/2. ليعلم هنا وإن لم يقسم أمين أحسن الإصلاحي أجزاء السورة في بدايتها من حيث الأبواب ولكن أشار بالتأكيد بهذا الأسلوب إلى نهاية الأجزاء السابقة وبداية الأجزاء الجديدة وذلك عند نهاية الأجزاء المختلفة، وبه يتم تحديد أبواب السورة الأساسية جيدًا، فمثلًا يقول في الأخير بعد تحليل مواضيع ومطالب الباب الأول: "هذه آيات خاتمة الباب" وكذلك أشيرت إلى الأبواب الأخرى، وهذا هو السبب لتحليل الأجزاء المختلفة للسورة وتقسيم الأبواب بأنه يتصور الوحدة المعنوية لكل سورة كالشيخ الفراهي رحمه الله.

[2] انظر: تدبر قرآن، 240/2-242، وأيضًا 318/2-383.

[3] المصدر نفسه، 304/2.

لتقسيمه، ترتيب مطالب الباب كالتالي:

كما بيّن هنا نظمَ هذا الجزء ذُكر فيه طبقًا له قبل كل شيء إصلاح المجتمع الإسلامي، ومؤامرة اليهود خلافًا لأحكامه، وفي مقابلة مخالفتهم تسلية للمسلمين (44-57)، ثم نُبه المسلمون على أن يقدروا أمانة الشريعة الإلهية التي حولت إليهم من اليهود ويؤدوا حقها، ويجتنبوا كليًا أن يحذوا حذوهم، لأن لا يواجهوا سوء العاقبة كما واجهتها اليهود بشنيعتهم. وبعده أمروا بعدم الاختلاف وتجنبه، وباتباع الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وباتخاذ الحذر من المنافقين الأعداء لوحدة المسلمين وتقدمهم، وبالثبات على سبيل الحق والعدل، وبالإضافة أرشدوا إلى السبل التي تضمن على اتحادهم (58-70)، وبعد ذلك خوطب المسلمون ولكن الإشارة إلى المنافقين الذين قيل عنهم بأنهم يدعون الإسلام، ولكنهم غير مستعدين لتضحية في سبيله. وأيضًا وجهت الإرشادات إلى المسلمين أن يجتنبوا عن مثل أفعالهم، وأن يكونوا مستعدين للجهاد في سبيل الله على كل حال، فذكرت فيها أهمية الجهاد وعظمته (71-76)، ثم ذكر المنافقين أكثر، وفصلت الأمور الضرورية حفظًا للمسلمين عن مؤامرة المنافقين ووساوسهم، ثم تسلية للمسلمين بذكر مثال خوفهم عن الموت (77-85)، وأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعرض عن ثرثرة المنافقين لإعطاء المزيد من فرص إصلاحهم (81) ولكنه لا يقطع الصلة عنهم كليًا، وغير ذلك بيان لدية القتل والقصاص، أي الحدود الإسلامية بأسلوب آخر (86-100)، ثم أمروا بالأحكام المهمة أثناء الجهاد من صلاة الخوف تظهر بها أهمية الصلاة والجهاد مع إلقاء الضوء على الترابط بينهما.[1]

ثم وجه الأمر إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنّ القرآن هو المقياس الأصلي والفرق بين الحق والباطل، فلا تحكم إلا به ولا تراع أحدًا ولا المنافقين في الحق، ثم وردت تنبيهات للمسلمين الذين تأخذهم الرأفة في المنافقين وأعداء الإسلام (105-115)،

[1] المصدر نفسه، 2/ 366-367.

ثم تهديد للمنافقين على نفاقهم، وذكرت جناياتهم مفصلًا التي سيصلون بها جهنم. ثم ذكر الشرك وعاقبة أهله، وذكر فلاح الموحدين (116-126).

(ج) النصائح المهمة للمسلمين والتنبيهات لمخالفي الحق:[1] هذا الباب هو الجزء الختامي للسورة وهو يشتمل على الآيات من 127 إلى 167، أما كلماته التمهيدية عن الموضوع الأساسي لهذا الباب الختامي، فهي كالتالي:

"اكتملت الكلمات المفتاحية التي كانت تتعلق بتأسيس المجتمع الإسلامي، والتنظيم والتطهير في الآيات السابقة، والآن الجزء اللاحق إلى نهاية السورة هو خاتمتها، وأجيب فيها عن بعض الأسئلة الناتجة بموجب الأحكام المذكورة في الآيات من 1 إلى 4 من نفس السورة، ثم بعد ذلك إلى نهاية السورة وعظ فيها المسلمون والمنافقون وأهل الكتاب كالتنبيه بتوجيه الخطاب إليهم، وأجيب عن الأسئلة الناتجة من بعد في آخر باب للسورة ليتضح أن هذه الآيات نزلت في الأخير".[2]

أما ترتيب مطالب هذه المجموعة بمقتضى تقسيم الشيخ الإصلاحي فهو كالتالي:

تبدأ هذه المجموعة بالآية رقم 127 وبرأيه يجب النظر في الآيات الأولى من 1 إلى 4 لفهم موضوع هذه المجموعة ونظام السورة.[3]

إعادة التوجيهات إلى بعض الجوانب المذكورة في الآيات الأولى من 2 إلى 4، وهناك أذن بنكاح أمهات اليتامى حفظًا لحقوقهم مع شروط أداء الصداق والعدل وقيود الأربع من الزوجات، ونبه على متطلباتها بأن الغرض من نكاحهن ليس إهمال حقوق المرأة المنكوحة لمصالح الأيتام، فإن أثقلت حقوقهن كواهل أحد وخاف هو ألا يعدل بينهن فالأفضل له أن لا يتزوج بهن، بيد أنهما على خيار

[1] انظر لفهم نظم هذا الجزء: تدبر قرآن، 393/2-438.

[2] المصدر نفسه، 393/2.

[3] المصدر نفسه

للتفاهم في الصداق والمسائل الأخرى إذا رضيت المرأة. وأما العدل والمساواة فالأصل فيه صفاء النية والقلب، وليس معناه أن يكون الميل الطبيعي والسلوك الظاهري والشرعي مساويًا كإبرة الميزان[1] (127-134). ثم بعد ذلك تذكير المسلمين على فرائضهم، وتلقينهم باتخاذ الحذر من المنافقين، وتنبيه وتهديد المنافقين (135-152). وهدد الله سبحانه أهل الكتاب بكلمات شديدة مع بيان جرائمهم على أن يصلحوا أحوالهم أو يذوقوا وبال أمرهم، وهنا على قول صاحب "تدبر قرآن": "اللهجة شديدة إلى حد أن الغضب ينفجر بركانه من كل لفظ"[2] (152-153)، وفي الآيات التالية تسلية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن الرسالة حق، وتنبيه لأهل الكتاب بالعواقب الشديدة لإنكارهم الحق، ودعوة لهم إلى الإيمان بالرسول خاتم النبيين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالقرآن الكريم (162-175). ثم وردت الآية الأخيرة كالملحقة بمسألة خاصة (مسألة الكلالة) من المسائل والأحكام التي تم بيانها في بداية السورة (الآية رقم 12) وأعيد فيها توضيحها (176).

يقول الشيخ الإصلاحي في نهاية تفسير آيات هذا الباب في نظم الآية رقم 176 "انتهت مطالب السورة قبل هذه الآية في الآيات (163-175)، وهذه الآية جاءت في الأخير كالملحقة التي وضحت فيه المسألة المتعلقة بأحكام الإرث، أشير إليها بقوله "كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ....." بأنها آية توضيحية".[3] تظهر ثلاثة أشياء من هذه التفاصيل التي تم ذكرها أعلاه في مثال نظم السورة، وهي كالتالي:

1- منها أن الشيخ الإصلاحي يبين كأستاذه عمود السورة، والنظام العام للسورة بكاملها، واقتفى عمليًا على آثاره في أصول النظم الأخرى، فاختار في تفسير السور الطوال المدنية الأخرى نفس الطريقة التي اختارها في تفسير هذه السورة حتى يتكلم

[1] انظر: المصدر نفسه، 2/393-394.

[2] المصدر نفسه، 2/415.

[3] المصدر نفسه، 2/438-439.

في المجموعات المختلفة لآيات السور بالترتيب، ثم يهتم بتفسير الأجزاء الصغيرة من السور وتأويلها في ضوء النظم حسب تقسيمه.

2- الجانب الآخر البارز لتفسيره هو أنه يستفيد من أصول الإمام الفراهي أتم الاستفادة في تحقيق الجهات المختلفة لنظم السورة، ومع ذلك تظهر طريقته الخاصة في تفسيره "تدبر قرآن" في نواح متعددة من ترجمة القرآن الأردية، واللغة والأسلوب، وطريقة الاستدلال المنطقية التي هي من الجوانب المتميزة لـ"تدبر قرآن".

3- أما الجزء الأول من السورة فهو كما يرى الشيخ الإصلاحي مجموعة الإصلاحات التي ذكرها القرآن الكريم للمجتمع العربي الإسلامي. ومن الجدير بالذكر هنا أن المفسر رحمه الله يبيّنِ جميع الأحكام والشرائع، والتوجيهات والإرشادات المذكورة في هذا الجزء بطريقة بديعة كأنما تترابط هذه الأحكام بعضها ببعض من البداية إلى النهاية، وهي كلها مربوطة بعمود السورة (الاتحاد بين المسلمين واتصالهم بالجماعة، وصلة الرحم والتقوى).

أما الجزء الثاني من السورة فليس على علاقة بالجزء الأول فيما يبدو ولكن الشيخ ربط الجزء الثاني بالجزء الأول بأسلوب جميل وذلك عن طريق إيضاح النظم المعنوي في الآيات مع توضيح أشكال الترابط المختلفة. يقول الشيخ: إن الجزء الأول يحمل الأحكام والإصلاحات للمسلمين، بينما الجزء الثاني يذكر العواقب لمخالفي الإصلاحات، والتدابير للحفاظ من مؤامرة المنافقين ليبقى المجتمع الإسلامي في سلك الوحدة محكمًا في الداخل لا يكسر شوكتها مؤامرة.

أما الجزء الثالث فهو تذكير للأمور الماضية كنهاية الكلام، كما يحمل هذا الجزء الردود على الشبهات المحتملة والأسئلةِ المتعلقة ببعض الأحكام المذكورة في الآيات السابقة كحقوق اليتامى، ومسألة الإرث (الكلالة). وكذلك فيه تسلية للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصحابه، كما في الأخير تهديد لمخالفي الإسلام بأسلوب شديد.

وبهذا الملخص يقدَّر كيف اتضح لنا نظام سورة النساء وعمودها، وعلى الرغم من أن باب الاختلاف عن رأيه وتأويله مفتوح، ولكنه من المتعذر ألا يقرّ أحدٌ بهذه الحقيقة عن إعطائه النظم المكانة الخاصة في تفسيره الذي نشعر به الترتيب المنطقي في أجزاء السورة من أولها إلى آخرها.

الاستفادة من إفادات الشيخ الفراهي رحمه الله: لا يكتمل الكلام في نظم القرآن للإصلاحي رحمه الله بدون الإشارة إلى الإمام الفراهي رحمه الله فإن فكرة الفراهي جزء لا يتجزأ من هذا المقال. أما السؤال الذي لا بد من إثارته عند دراسة التفسير للإصلاحي فهو: ما مدى استفادة الإصلاحي من أستاذه الإمام في توضيح نظام السورة؟ وقد تبين بالتفاصيل المذكورة إلى حد كبير، وفي الحقيقة أن بناء فكرة الإصلاحي للنظم قائم على فكرة الفراهي للنظم، وأثره ظاهر في مقدمة تفسيره، بل في تفسيره كاملًا، ولا يخفى على من درس الأفكار القرآنية للفراهي رحمه الله أن أكثر التأليفات القرآنية للإصلاحي رحمه الله مبنية على فكرة الفراهي رحمه الله. وسواء أحال الشيخ في "تدبر قرآن" إلى الفراهي أو لم يُحِلْ، ففي كلا الموضعين يتجلى في النظرة الأولى أنّ أثر إفادات الفراهي رحمه الله عميق على تفسير الإصلاحي، ولكن قال بعض العلماء: إن الشيخ الإصلاحي اكتشف في تفسيره كثيرًا من الجوانب الجديدة المتعلقة بنظم القرآن والتي لا توجد عند الفراهي رحمه الله وهذا لأنهم لا يطلعون، كما أظن، على جميع التراث العلمي للفراهي رحمه الله. ويقول البعض: إنه اختار الطريقة التي تركّز على شرح نظم القرآن خاصة أثناء تفسير السور الطوال فهي طريقة خالصة له، وفي هذه المواضع اكتفى بذاته في تأويل الآيات وشرح نظم الكلام، ولم يستفد فيها من أستاذه الإمام إلا قليلًا. ومن القائلين بهذا القول الشخصية المشهورة البروفيسور مستنصر مير الذي حصل في أمريكا على درجة الدكتوراه في فكرة النظم لدى

الإصلاحي بعنوان: ( Coherence in the Qur'an: A Study of Islahi's Concept of Nazm).[1] ويظهر من كتاب البروفيسور مستنصر في مواضع مختلفة انطباعه أن الشيخ أمين أحسن الإصلاحي لم يتبع الفراهي رحمه الله في فكرة النظم له فحسب، بل قدمه بخطوات من بعض الوجوه، وقدم كثيرًا من الجوانب البديعة للنظم، وهذا شيء جديد في هذا المضمار،[2] حتى أنه تفوق على أستاذه في بعض النواحي.[3] وفي هذا القول نظر من وجوه مختلفة، وسيقدم تحليل هذا الجانب لاستعراض حقيقة الحال مفصلًا.

ركّز المؤلف كثيرًا على أنّ الشيخ الإصلاحي استفاد من فكرة الفراهي وأصوله وتفاسيره،[4] ولكنه لم يجد نموذجًا من أستاذه في تفسير السور المدنية، فلم يكن بين يديه إلا أصوله الذاتية وفكرته الخاصة به. ولم يمكن هذا على حسبه، لأن الإمام الفراهي لم يجد فرصة في حياته لتفسير السور الطوال طبقًا لأصوله سوى بعض السور المكية. وأما السور المدنية فلم يستفد كثيرًا من إرشادات وتوجيهات الفراهي في تفسيرها إلا فيما كانت موجودة في كتبه، ولهذا بيّن بنفسه نظم السور الطوال والصعبة. وقدّم سورة النساء مثالًا لإثبات دعواه، وأشعر أنه لم يكتف بالاستفادة

[1] فوضت جامعة مشي غان بأمريكا درجة الدكتوراه لمستنصر مير على هذا المقال البحثي، ونشر هذا المقال لأول مرة في أمريكا في شكل الكتاب سنة 1983م، وتفصيله كالآتي: Mustansir, Mir Themetic and Structural Coherence In the Quran: Study of Islahi's concept of Nazm, Indianapolis (U.S.A), 1983, PP 125. وعلق البروفيسور عبيد الله الفراهي على هذا الكتاب تعليقات جامعة قبل سنين، انظر: علوم القرآن نصف السنوية، علي كره يوليو-ديسمبر 1986م، ص 120-131.

[2] انظرللمثال: Coherence in the Quran، ص 25-35 - 42- 44- 46.

[3] المصدر نفسه، 35- 50- 85.

[4] انظر للتفصيل: Coherence in the Quran، ص 25-43، وهو يقول: يستفيد كثيرًا من تفسير السور التي فسّرها الفراهي (Barrows very heavily from his teacher's) ولكنه يفسر السور المدنية الطويلة أصلًا إل حد كبير، انظر: المصدر نفسه، ص 43، وأيضًا ص 50-85.

من أصول الفراهي بأسلوب جميل واقتفاءه على آثاره فحسب، بل بيّن عمود هذه السورة ونظم أجزائها الأساسية من عنده، وهذا دليل واضح على أن أعماله في السور الطوال المدنية مستقلة إلى حد كبير، بل أن أعماله أفضل من الفراهي من وجوه متعددة، وخاصة في بيان عمود السورة، وأسلوبه أوضح من أسلوب الفراهي. بالإضافة إلى هذا يقول السيد مستنصر: يتضح من هذا المثال أن الإصلاحي أسّس في تحقيق عمود السورة ونظامها طريقًا جديدًا بدلًا من إعادة أصول الفراهي.[1] ويقول في ملخص هذا البحث:

"But a close look at the Islahi's treatment of An-Nisa reveals that he has also developed a new technique that helps explain the Nazm of Quranic Surahs, especially Madina Suras".[2]

توضيح بعض الأمور: قدمت خلاصة ما قال مستنصر مير لفهم نظريته، وهي تنفي الأشياء التي تم تقديمها إلى الآن، وهي تتعلق باستفادة الإصلاحي من الفراهي في باب نظم القرآن، ولذا يجب علينا النظر بعد استعراض حقيقة الأمر مفصلًا في نتائج بحث البروفيسور، وإلى أي حد تطابق الواقع، لأنه لم يقدم أي دليل لإثبات دعواه، غير أن نموذج الفراهي ليس موجودًا في تفسير السور المدنية أمام الإصلاحي. وأن السور الطوال المدنية تتحدى كثيرًا من حيث النظم لاحتوائها مجموعات من الموضوعات المتنوعة بالنسبة إلى السور القصار. وليس عنده شيء من دونهما يستدل به على تأييد رأيه، والسؤال هنا: ما هو الواقع فيه؟

وهذا مثال سورة النساء قدّمه دليلًا لدعواه ولا يوثقه أن الإصلاحي لم يستفد من الشيخ الفراهي في تفسير السور الطوال، أو لم تساعده ذخائر الفراهي العلمية القيمة في

[1] المصدر نفسه، ص 50.

[2] المصدر نفسه، ص 50.

هذا السبيل. يجب هنا توضيح الأمرين قبل النظر في بعض الأمثلة المتعلقة بنظم سورة النساء، وإلى أي حد أنه استفاد من إفادات أستاذه في تفسير سورة النساء؟

الأمر الأول: لا يهم أن نظم السور المدنية صعب بالنسبة إلى نظم السور المكية، أو نظم السور القصار (أكثرها مكية) أسهل من نظم السور الطوال (أكثرها مدنية). فالحقيقة أن تحقيق نظم السور الطوال يكسر الهمم من بعض النواحي مثل كثرة المطالب وتنوعها، ومن بعض الوجوه تأتي المشكلة في نظم السور المكية أيضًا، ومن أكبر هذه الوجوه غاية الإيجاز فيها. وهذا يكون أسهل في السور الطوال بأن نفهم الإجمال من التفصيل، والخاص من العام، والتأخير من التقديم، وبالعكس، ولكن لا نحصل على هذه التسهيلات في السور القصار، بل الآيات الصغار فيها بحر المعاني طبقًا على طبق لا يمكن فيها جمع الدرر من دون الغوص، ولهذا يهتم الشيخ الفراهي رحمه الله بنظم السور الطوال والقصار على حد سواء، كما يعرب في موضع عن رأيه: "إن القصار من السور تضاهي الطوال منها قدرًا ومعنًى ولفظًا".[1]

الأمر الثاني: الأمر المهم الذي يتعلق بإفادات الفراهي، والذي يُظَنّ فيه أنه لا يوجد شيء من إفادات الفراهي من المطبوعة أو غير المطبوعة المتعلقة بالسور المدنية أمامه، وهذا القول ليس له أساس علمي، وهو من سوء التفاهم الذي ليس له علم تام بجميع ذخائر الشيخ الفراهي العلمية المتعلقة بخدمات تفسير القرآن ونظمه. والحقيقة أن ذخائر علمية للفراهي من المطبوعة أو غير المطبوعة من مخطوطات تفسير سورة البقرة، وسورة آل عمران وسورة الحج، والتفاسير الأخرى الناقصة غير المطبوعة للفراهي رحمه الله كانت متوفرة أمامه والتي نُشرت حاليًا، ذكرها في تفسيره في مواضع متعددة، كما أشرت إليها في بداية هذا المقال، وأيضًا ذكرها مير بنفسه. وتفسير سورة البقرة من أهم التفاسير المطبوعة للفراهي رحمه الله إلى الآن من حيث أنه حاول فيه

[1] تفسير نظام القرآن، ص 52.

بيان تصوره للنظام الخاص بيانًا كاملًا.[1] وعلاوة على هذه المطبوعات والمخطوطات كانت عنده التعليقات القرآنية المهمة للفراهي رحمه الله، وفيها أشير إلى نظم جميع الآيات الصعبة تقريبًا من حيث النظم، وعمود السور، وموضوعاتها الأساسية. وإضافة إلى ذلك ذكرت المعلومات الأساسية المتعلقة بجميع جوانب النظم والاتصال مع عمود سورة النساء وجميع السور القرآنية في كتابه "دلائل النظام".

وهذه الحقائق لو كانت أمام أي شخص لا يهتم بالتفريق بين السور سواء كانت مكية أم مدنية، قِصارًا أم طوالًا في استفادة الإصلاحي من الفراهي رحمه الله. والحقيقة أن الشيخ الإصلاحي استفاد من مؤلفات الفراهي رحمه الله في قضية النظم استفادة تامة في تفسيره من البداية إلى النهاية. ولإثبات هذا القول يناسب لنا أن نذكر قبل كل شيء بعض الأمثلة من تفسير سورة النساء التي بينها مير رحمه الله.

**بعض أمثلة الاستفادة من إفادات الفراهي رحمه الله:**

(ألف) بعض الأمثلة من تفسير سورة النساء: كما ذكر أعلاه أن مستنصر مير جعل تفسير سورة النساء للإصلاحي موضوعًا خاصًا لتحقيقه، وأشار إلى سبب اختياره بأن الشيخ الإصلاحي فسّر هذه السورة على منهجه الخاص كالسور المدنية الأخرى ولم يستفد فيه من الفراهي إلا قليلًا، حتى أنه قدّم تفسير هذه السورة دليلًا لإثبات دعواه، وقال: إن الإصلاحي استكشف أسلوبًا جديدًا في تحقيق عمود السورة ونظمها. ولكن ما هو الأسلوب الجديد؟ لم يوضح هذا مع أن استقصاء تراث الفراهي العلمي يصدق أن الإصلاحي استفاد كاملًا من إفادات الفراهي في تفسير هذه السورة الطويلة عند أهم المواقع لنظم الكلام تقريبًا،كما استفاد في تفسير السور القصار، وأقدّم إليكم بعض أمثلتها وهي فيما يلي:

[1] طبع هذا التفسير لأول مرة من الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سراي مير، أعظم كره، الهند، سنة 2000م.

1- بيّن الإمام الفراهي في كتابه "دلائل النظام" ترابط هذه السورة مع السورة السابقة، وجعل هذه السورة تكملة لها[1] (آل عمران) قائلًا: (سورة النساء كالردء لسورة الإسلام، بما أنها تبيّن أن الشريعة رحمة على الناس كافة وكذلك صاحبها). والشيخ الإصلاحي يقول أيضًا: إن هذه السورة تكملة للسورة السابقة. وكأن الإمام الفراهي أشار بقوله "سورة النساء كالردء لسورة الإسلام" إلى ذلك العمود، لأنها تكلمت عن الجهات المختلفة للشريعة الإسلامية، ثم شرح الأحكام الاجتماعية المذكورة أو نظام المجتمع في التعليقات القرآنية، وأشار إلى الموضوع المركزي لها بقوله "نظام المعاشرة وإصلاحها".[2] وقال الإصلاحي أيضًا إن هذه السورة تكملة للسورة السابقة اتباعًا للفراهي، ويقول: "هذه السورة ابتدأت بعد السورة السابقة (آل عمران) تظهر بكلماته الأولية بأنها تكملة لسورة آل عمران".[3] ولا يخفى على العلماء أن الكلمة العربية (الردء) للفراهي وكلمة الإصلاحي (التكملة) تحمل كلتاهما معنًى واحدًا، مع العلم بأن الفراهي استخدم هذه الألفاظ كثيرًا لبيان الترابط بين السورتين المتصلتين.

2- اتبع الإصلاحي أستاذه في بيان الموضوع المركزي لهذه السورة كما رأيت في السطور الماضية. والموضوع المركزي لهذه السورة عند الشيخ الفراهي رحمه الله هو تنسيق وترتيب وإصلاح المجتمع، حتى أنه قال إنها ملحقاتها وأشار إلى عمودها. وهنا يجدر بالذكر أن الشيخ الإصلاحي كتب في الحاشية بعد بيان عمود السورة السابقة ونظام أجزائها "هذا البحث التمهيدي استفدت أكثره من إفادات أستاذي".[4] ولا يصعب الفهم بهذا إذ يقول إن هذه تكملة وملحقة للسورة السابقة كما يرى أستاذه، ومعًا إيضاحاته في عمود السورة السابقة والنظام الأساسي لها تبنى على إفادات أستاذه فهذا

[1] رسائل الإمام الفرهي، ص 105.
[2] التعليقات القرآنية على سورة النساء للفراهي رحمه الله.
[3] تدبر قرآن، 237/2.
[4] انظر: تدبر قرآن، 14/2.

يثبت فطريًا ومنطقيًا بأنه اقتفى على آثاره في بيان عمود السورة ونظم أجزائها وربطها. يقول الشيخ الإصلاحي عن موضوع السورة "لا يمكن الثبات، وبالأخص الثبات الاجتماعي بدون الاتصال المتين الجماعي... وهذا لا يكون بالصدفة، فلذلك ذكر في هذه السورة ما يهم لاستحكام المجتمع الإسلامي ونتائجه الفطرية "الحكومة الإسلامية" وحفظها من التشعب".[1] ويتبين بكلمات الفراهي رحمه الله "نظام المعاشرة وإصلاحها" والنظرة الخاطفة في هذه العبارة أنه يوجد التشابه والتماثل إلى حد كبير بينهما.

3- مجموعته الأولى عند الشيخ الفراهي رحمه الله من الآية 1 إلى الآية 43، بينما يرى خاتمة الباب من الآية 36 إلى الآية 43، "هذه الآيات كالخاتمة لما مر من أمر المال والمعاملة في ما بين أهل البيت، وفي الخاتمة أمور كلية عليها مدار تلك الأحكام" ويتبين جيدًا بما نقل أعلاه من خلاصة تفسير الإصلاحي رحمه الله لسورة النساء أنه اقتفى على آثار الفراهي رحمه الله أساسًا في تبويب السورة وتقسيمها. والآيات من 1 إلى 43 من سورة النساء جزؤها الأساسي الأول عند الشيخ الفراهي رحمه الله كما أنه واضح بتعليقاته، وهذا الجزء مبني على الأحكام التي تتعلق بأساس النظام الاجتماعي للمسلمين وإصلاح معاشرتهم. ويقبل الإصلاحي قبولًا تامًا تقسيم هذه الموضوعات التي قسمها أستاذه، ويضع أساس تقسيم الجزء الآتي وتفسيره على هذه الفكرة، ويقول إن الآيات من 44 إلى 57 موضوع تمهيدي عن النظام المجموعي، وهو موضوع للآتي ويقول عنه "انتهى باب الأحكام المتعلقة بإصلاح المجتمع عند الآية 43 كما أشرنا أعلاه، ويأتي بيان الردود التي ظهرت من قبل مخالفي الإصلاحات، وأيضًا بُشِّر المسلمون بالمملكة العظيمة التي هي نتيجة كمال المجتمع.[2]

تقسيم موضوعات السورة يلعب دورًا مهمًا لفهم النظام المجموعي لأي سورة، وتوجد

[1] المصدر نفسه، 237/2.

[2] المصدر نفسه، 304/2.

هذه الإشارات في تعليقات الفراهي رحمه الله، وهي تشير إلى مدى المساعدة لفهم نظام السورة.

4- يرى الفراهي رحمه الله آيات الجزء الأول للسورة من 1 إلى 28 آيات التذكير قدّمت فيها الشريعة الإسلامية كنعمة للمسلمين، ووُجِّه فيها إلى قيمة الأحكام والشرائع المبينة، ويقول عنه في تعليقاته على القرآن الكريم: "هذه الآيات على عادة القرآن من أن الأحكام ليست من الأصر والأغلال"،[1] وبيّن الإصلاحي أيضًا نظمها على نهجه وقال: "هذه الآيات جاءت تذكيرًا وتنبيهًا خلال الأحكام المتعلقة بإصلاح المجتمع".[2]

5- ويرى الشيخ الإصلاحي بداية الجزء الثاني من مجموعة الآيات 44 إلى 57، وقال: موضوعها التهديد لأهل الكتاب وإعفائهم من الإمامة وإعلان إعطائها لأمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لأنهم خانوا في مسؤولياتهم وباعوا الإيمان.[3] وترى تقسيم الآيات بمراعاة النظم مع إيضاح هذا المضمون في تعليقات الفراهي رحمه الله أيضًا، وتعليقاته على هذه الآيات وهي: "44 – 57 أهل الكتاب أوتوا أمانة الله فاشتروا الضلالة فلعنهم الله وسلبهم هذه النعمة وأعطاكم فهم يحسدونكم".[4]

6- نقل الشيخ الإصلاحي رحمه الله آيات هذه السورة 36-43 وفسّرها من حيث الجزء المستقل، وجعل هذه المجموعة في الموضوع التمهيدي قبل التفسير كخاتمة الباب الأول للسورة (المجموعة المشتملة على آيات من 1 إلى 43) ويقول:

"الآن تأتي آيات خاتمة الباب، انتهت على هذه الآيات سلسلة الأحكام التي كانت

[1] تعليقات القرآن، تعليقات على سورة النساء، آيات من 25 إلى 28.

[2] انظر: تدبر قرآن، 281/2، اعلم أن يبتدئ التذكير في الحقيقة من الجزء الأخير للآية رقم 25، ولهذا أدخلها الفراهي في آيات التذكير والتنبيه، بينما يرى الإصلاحي أنه يشتمل على آيات من 26 إلى 28، وهذا فرق جزئي للغاية لا يتأثر به نفس المسألة.

[3] انظر: تدبر قرآن، 304/2-305.

[4] التعليقات، تعليقات على سورة النساء، آيات 44 – 57.

تستمر، ختم هذا الباب بأمر عبادة الله تعالى، كما بدأه بأمر تقوى الله عز وجل، حق الله تعالى عبادته، وإبطاله الشرك، ولهذا نفي الإشراك به مع تذكير حقه، ومن أكبر حقوق العباد الإحسان بهم والإنفاق عليهم، وهادمها البخل والكبر والرياء، ولهذا نفيت هذه الأشياء مع تأييد الإحسان والإنفاق".[1]

ويجدر بالذكر هنا أن الإمام الفراهي رحمه الله أيضًا جعل الآيات من 36 إلى 43 من هذه السورة خاتمة باب الجزء الأول لها في تعليقاته القرآنية، وكتب ملاحظات مع هذه الآيات من 36 إلى 43 على الموضوع الإجمالي لهذه المجموعة وذكر فيها الأشياء التي ترجمها الشيخ الإصلاحي إلى اللغة الأردية، ويمكن تقديرها بسهولة من المقارنة بين العبارات المذكورة لصاحب "تدبر قرآن" وبين الكلمات الآتية، ويقول:

"هذه الآيات كالخاتمة بما مرّ من أمر المال والمعاملة في ما بين أهل البيت، وفي الخاتمة أمور كلية عليها مدار تلك الأحكام، عبادة الله غير مشرك به ثم الإحسان غير مراء وملاك العبادة الصلاة والطهارة باطنة وظاهرة، فهل ترى كيف ذكر مع العبادة الشرك ومع الإحسان الرياء ومع الصلاة الخيانة".[2]

7- قسّم الشيخ الإصلاحي مجموعة الآيات الثانية للجزء الثاني في آيات 58-70، وبيّن نظم موضوعها على حدة والذي يشتمل أساسًا على طاعة النبي ﷺ وبعض الأحكام الأخرى، وإلى هذا أشير في التعليقات القرآنية للفراهي رحمه الله، ويقول: "57 - 70 في طاعة النبي صلى الله عليه وسلم".[3]

8-عند الفراهي رحمه الله: في مجموعة آيات 71-104 ترغيب في القتال للمسلمين أساسًا وحماية للضعفاء وأحكام للفرق بين الأصدقاء وأعدائهم، "حث على القتال

[1] تدبر قرآن، 294/2.

[2] التعليقات، تعليقات على سورة النساء، آيات 36-43.

[3] المصدر نفسه، آيات 58- 70.

لحماية الضعفاء وإعلاء كلمة الله فذكر فيها مما يتعلق بالقتال..."."[1] إن المنافقين من أعداء المسلمين فطريًا، وفي نهايتها بيان صلاة الخوف التي تتعلق بأمور القتال. وبيّن الشيخ الإصلاحي أيضًا نظم آيات هذه المجموعة طبقًا لهذا التقسيم من حيث الموضوع على نهج الفراهي رحمه الله، وكلماته كالآتية:

"ويستمر الموضوع السالف الذكر، والخطاب وإن كان عامًا للمسلمين، ولكن المقصود منه هم المنافقون قيل فيهم أعلاه أنهم يدعون الإسلام ولكن لم يستعدوا لأي إصابات في سبيله، ولا للهجرة والقتال. وأمر المسلمون أولًا للاستعداد والقيام للقتال..... وبعده ذكر أجر عظيم لحثهم على القتال (أجر القيام لنصرة وحماية المسلمين الضعفاء المظلومين)."[2]

ليس الفرق في بيانهما سوى فرقين جزئيين:

أ- بيّن الشيخ الإصلاحي تفسير هذه المجموعة مقسمًا إلى أربعة أقسام (هذا فرق فطري للتفسير والتعليقات).

ب- في كلام الإصلاحي رحمه الله حث على الملاحظات على المنافقين أكثر من موضوع القتال مع أن غرض الآيات الأصلي هو حث المسلمين على القتال والهجرة، وتنبيههم من كل عدو والمنافقين جانب من جوانب القتال. وكذلك ترغيب المسلمين في الإيثار، وتحذيرهم من المنافقين، وعدم رأفتهم عليهم وإرشادهم وتوجيههم إلى كامل الاهتمام بالصلاة أثناء القتال ظاهر في هذا الجزء. وجميع هذه الأمور تتعلق بالقتال أساسًا، ولهذا لو جعل القتال موضوعًا للآيات المذكورة ليكون أكثر انسجامًا مع اقتضاء نظم الكلام. ومع ذلك الفرق الظاهري ليكون أنسب أن يقال إن كلام الشيخ الإصلاحي رحمه الله أساسًا هو شرح جامع لكلمات الفراهي رحمه الله.

[1] المصدر نفسه، آيات 70- 104.

[2] تدبر قرآن، 332/2.

9- قال الشيخ الإصلاحي رحمه الله إن الجزء الثاني للسورة يشتمل على الآيات الأخيرة للجزء الأول من 44 إلى 126، وبعبارة أخرى وهو يقول في ترتيب وتقسيم مجموعات الآيات من حيث النظم أصوليًا بأن الجزء الثاني لموضوعات السورة مشتملة على تنظيم المجتمع الإسلامي وإصلاحه ينتهي على الآية رقم 126، فلذلك هو يقول بعد هذه الآية عن الموضوع التمهيدي للآيات 127- 134 "انتهت الأشياء الأصولية التي تتعلق بتأسيس المجتمع الإسلامي وتنظيمه وتطهيره عند الآيات المذكورة، والآن الجزء الآتي إلى نهاية السورة وهو بمنزلة خواتيم السورة".[1] وفي تعليقات الفراهي أيضًا دلالة واضحة عليها، ويقول عن هذه المجموعة للآيات وهو كالآتي "105- 126 كالخاتمة لما مرّ (44- 57) فعاد كما بدأ"،[2] ولعل أحدًا ينكر أن في هذه الكلمات دلالة واضحة على ختام الباب الثاني للسورة وبداية الباب الآتي لها، ويسمّى هذا نظام السورة.

10- قدّم الشيخ الإصلاحي المجموعة الأولى للجزء الثالث في الآيات 127- 134، وعند الشيخ الفراهي رحمه الله هذه المجموعة تشتمل على الآيات 127- 130، ويقول: "127- 129 بيان لما مر في أول السورة من الصلح والقسط".[3] وهنا جدير بالذكر أن الآيات 133- 134 هي من أنواع التذكير، ولهذا يُرى تقسيم الفراهي رحمه الله تقسيمًا منطقيًا، وعلى هذه المجموعة اللاحقة تشمل الآيات 137- 152 عند الفراهي رحمه الله، بينما عند الإصلاحي تشمل الآيات 135- 152. ومع هذا الفرق الجزئي اتبع الإصلاحي أستاذه في هذا التقسيم أصوليًا. وإضافة إلى ذلك قال الفراهي معلقًا على الآيات 127- 129 على حدة "127- 130 بيان لما مر في أول السورة من الصلح والقسط والتقوى في أمور اليتامى والنساء".[4] وهذه الألفاظ تشير إلى علاقة مجموعة

[1] المصدر نفسه، 393/2.

[2] التعليقت، تعليقات على سورة النساء، آيات 105-126.

[3] التعليقات، تعليقات على سورة النساء، آيات 127- 129.

[4] انظر للتفصيل: التعليقات، تعليقات على سورة النساء، آيات 127- 130.

الآيات السابقة واللاحقة وإلى ترابط ونظم موضوعاتها الأساسية، بل من أهم الأمور يكون بها تحديد بداية باب السورة الثالث والأخير. وكذلك هذه الإشارات تكفي ترتيب وتقسيم موضوعات السورة الإجمالية، والشيخ الإصلاحي اعتمد على هذه الإشارات في تقسيم أجزاء السورة من حيث النظم. ولذلك بيّن الترابط بين الآيات السابقة واللاحقة في الموضوع التمهيدي لتلك الآيات، وقال: "ألق نظرة عابرة على الآيات 2- 4 لفهم مجموعة آيات هذا البحث الذي هو بين أيدينا" وهكذا يوجهنا من قبل إلى هذا الجانب: "الجزء اللاحق إلى نهاية السورة بمنزلة الخاتمة، وأجيب فيه أولًا عن بعض الأسئلة التي جاءت بعد بيان الأحكام في الآيات 2- 4".[1]

وهنا يجدر بالذكر أن في الآيات 2-4 أحكام الحقوق والصلح والتقوى المتعلقة بالأيتام وأمهاتهم وغيرها من النساء التي بيّنها الإمام الفراهي رحمه الله في تعليقاته. إضافة إلى ذلك بيّن الشيخ الإصلاحي خلاصة نظم الموضوعات الأساسية لسورة النساء تحت عنوان "تحليل مطالب السورة" ويوافق نهجه على نهج الفراهي رحمه الله في تعليقاته. اقرء بإمعان ألفاظ الفراهي رحمه الله التي نقلت من تعليقاته، ثم انظر إلى ألفاظ الإصلاحي الآتية فسترى الوحدة والمماثلة بينهما، يقول: "الأحكام التي ذكرت في بداية آيات السورة (127-130) وتتعلق بأحكام اليتامى وأمهاتهم وغيرها من النساء وهي إجابة عن بعض الأسئلة التي وردت فيما بعد".[2]

11- اختار الشيخ الإصلاحي رحمه الله الرأي الوحيد للفراهي رحمه الله في تأويل بعض آيات السورة أيضًا، ومثاله الواضح الآية رقم 3 من السورة، وهي قوله تعالى: "وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ....."،[3] والمراد بالنساء في الآية عند الفراهي رحمه الله هن أمهات اليتامى، وباليتامى هم الأيتام

[1] انظر: تدبر قرآن، 393/2.

[2] المصدر نفسه، 243/2.

[3] سورة النساء: 3.

واليتيمات، بينما أراد المفسرون الآخرون باليتامى اليتيمات، وبالنساء عامة النساء، وهكذا يوجد الفرق الواضح بين التأويلين. وعلّق الفراهي رحمه الله على هذه الآية "من النساء أي أمهات اليتامى فإن اليتامى من لم يبلغوا النكاح من الذكر والأنثى وليس المراد به الإناث فقط"،[1] تأويله هذا أقرب إلى نظم السورة، وبه يكون تفسير الآية في أوضح صورة. وحسب منشأ الفراهي رحمه الله معنى هذه الآية هو توجيه المسلمين إلى أنهم إذا لم يستطيعوا أداء حقوق اليتامى ويخافوا أن لا يقسطوا فيهم، فالأفضل لهم أن ينكحوا أمهاتهم وبهذا يقومون بالعدل ويستطيعون أداء الفرائض التي تتعلق باليتامى في أحسن وجه.

وبالمقابل معنى هذه الآية حسب تأويل المفسرين الآخرين وهو إن ترغبوا في نكاح اليتيمات فأقيموا العدل والقسط لأداء حقوقهن، ولا تحسبوا نكاحهن إلا شيئًا عاديًا، وتكملوا أهدافكم ومقاصدكم به ولكنكم تنسون حقوقهن، وإن تخافوا أن لا تقسطوا فيهن بعد نكاحهن، ولا تستطيعوا أداء متطلباتهن، وأن تميلوا في أي مرحلة من المراحل عن العدل فالأفضل لكم أن تنكحوا ما طاب لكم من النساء دون اليتيمات، وبه يتضح أن رأي الفراهي رحمه الله يختلف عن هذا الرأي أو الآراء الأخرى التي تشابهه، وهو يفسر آية هذه السورة الـ127 "وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ..." كالمفسرين الآخرين، وهي توضح المزيد من الأحكام المذكورة في بداية الآية، ولكنه هو والمفسرون الآخرون يبينون معناه على حدة حسب تأويلهم للآية السابقة. ويقول الفراهي رحمه الله: إن الآية 127 يتضح بها أكثر أن الآية السابقة في الحقيقة تتعلق بشروط نكاح أمهات اليتيمات وبالعدل والمساواة معهن. وعلى حسبه يتضح هذا الجانب إلى حد كبير بكلمة "يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ" من الآية 127، ويبيّن هذا الرأي بتعليقاته على الآية 127 كالآتي:

"اختلف المفسرون في تأويل تلك الآيات والآية 3 من بداية السورة، والمراد بها عندي، والله أعلم، أن في آية السورة الـ3 نهي عن نكاح أكثر من المرأة في حالة

[1] التعليقات على القرآن، تعليقات على سورة النساء، آية 3.

خوف عدم العدل والمساواة، فيتضح بهذه الآية أن تلك الآية في الحقيقة عن الأيتام الذين يرغب الناس في نكاح أمهاتهم ولكنهم لم يعدوا أنفسهم لأداء الواجبات والحقوق التي تتعلق بهن".[1]

ويتضح بتأويل الإمام الفراهي رحمه الله نظم هاتين الآيتين ويقدر هذا أيضًا أنه يفسر الآيات المشكلة من حيث التأويل بمساعدة نظم الكلام بأحسن صورة لأنه أسوة حسنة في نفسه لطالب القرآن الكريم. وعيّن الشيخ الإصلاحي معنى هذه الآية كأستاذه رابطًا بآية هذه السورة الـ127.[2] وعنده أيضًا المراد بـ"النساء" أمهات اليتامى، ويأول هذه الآية كالآتي:

"معنى هذه الآية: إن خفتم (الخطاب لأولياء الأيتام) أن لا تستطيعوا حفظ أموال اليتامى وحقوقهم الواجبة، وهذا أمر صعب عليكم، ولا تبرأوا من مسؤولياتكم، وإن تشاركم أمهاتهم أيضًا في هذه المسؤوليات فتستطيعوا أداء هذه المسؤوليات جيدًا، لأنهن يحببنهم من صميم القلب لا يحبهم أحد مثلهن، ويستطعن حفظ حقوقهم بطريقة جيدًا، ولا يمكن هذا لأحدٍ ما، فانكحوا ما حل لكم من النساء بشرط أن لا يتجاوز عددهن أكثر من أربع".[3]

ولا مجال هنا لمزيد من التفاصيل للبحث على هذه الآية، وذكر هذا التفصيل هنا لمجرد توضيح أن الشيخ الإصلاحي قدّم رأي الفراهي هذا بقوة في تفسيره بدون أن يذكر اسمه. مع أن الفراهي وحيد في رأيه هذا كما نعلم. وهناك مواقع كثيرة بيّن فيها الإصلاحي نظم الآيات بمساعدة خزينة أستاذه العلمية. وفي أكثر المواضع لم يُحِلْ إليه، ولهذا يخطئ بعض الناس أحيانًا لعدم الوقوف على جميع خزائنه العلمية بأن

[1] المصدر نفسه، تعليقات على سورة النساء، آية 127.
[2] انظر للتفصيل: تدبر قرآن، 2/351-353، وأيضًا 2/397- 398.
[3] تدبر قرآن، 2/352.

الشيخ الإصلاحي له رأي أساسي في توضيح نظم القرآن بدلًا من أن يستفيد من أستاذه الإمام الفراهي.

(ب) نظم السور المجاورة: اهتم الشيخ الإصلاحي قبل تفسير كل سورة ببيان النظم والربط بين السور السابقة واللاحقة، وبعبارة أخرى أنه اعتنى عناية خاصة بشرح الترابط بين كل من السورتين المجاورتين، وقدّم في مقدمة تفسيره صورة خاصة بأن كل سورتين من سور القرآن مترابطتان مع بعضهما كمثل الزوجين، ويقول فيها:

"كل سورة مترابطة بالأخرى، وبينهما مناسبة كما تكون بين الزوجين، بأن يكون في إحداهما نقص تسدّه الأخرى، ويختفي في إحداهما جانب توضحه الأخرى، فكذا تتضحان معًا كالشمس والقمر. مثلًا: سورة البقرة وآل عمران في السور الطوال، والمعوذتين في السور القصار".[1]

ويقدم آيات سورة الحجر لتأييد تصوره: "وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ"،[2] ويقول أيضًا: "هذا النظام في القرآن الكريم كمثل نظام الكائنات، لأن في هذه الكائنات أيضًا كل شيء مترابط".[3] ويشير في نهاية هذا البحث إلى مجموع نظام القرآن الكريم، ويقول مؤكدًا على رأيه هذا: "إذا تكون هذه المجموعات السبع أمامي، ويقع النظر في السور بأنها مترابطة فانتقل ذهني فورًا إلى قوله تعالى: "وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ"،[4] فلذلك أوّل الآية السابقة أيضًا خلال تفسير سورة الحجر وفقًا لوجهة النظر هذه.[5]

[1] المصدر نفسه، 26/1.
[2] سورة الحجر، آية 87.
[3] تدبر قرآن، 26/1.
[4] المصدر نفسه، 27/1.
[5] انظر: تدبر قرآن، 377/4– 378.

واعلم أنّ المفسرين عمومًا أرادوا بقوله تعالى: "سَبۡعًا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي" سورة الفاتحة التي تشتمل على سبع آيات، أو السور السبع الأولى، بينما أراد الشيخ الإصلاحي رحمه الله به المجموعات السبع للسور "سَبۡعًا" وأنها مترابطة أيضًا "مِّنَ ٱلۡمَثَانِي"، واختار هذا المعنى حسب تأويله. وعلى هذا الأساس تنقسم عنده جميع السور القرآنية إلى سبع مجموعات من حيث المطالب، وتكون كل سورة مترابطة بالسورة المجاورة. ولكن يمكن أن يكون إشكال كبير في هذا التأويل للآية وهو إن كان معنى الآية "سَبۡعًا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي" المجموعات السبع للسور، وكونها مترابطة فهذا يشمل القرآن الكريم كاملًا، إذن ما الحاجة لذكر قوله تعالى: "وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ"[1]؟ والشيخ الإصلاحي قدّم عليه دلائل فهي غالبًا لا تكون قابلة للاقتناع. ولكن يجب علينا حالًا أن ننظر في فكرة كون السور مترابطة هل هذه الفكرة جديدة في بابها كليًا؟ إن كان قصده هو النظم والربط بين السورتين المجاورتين بدلًا من أن ندخل في تفاصيل هذه المسألة، أم يوجد تصور النظم والترابط من قبل عند أستاذه أو عند بعض المصنفين الآخرين. وفي الحقيقة إن أخرج منها لفظ "الترابط" فقط، فهذا ليس بفكر جديد بل وفي الحقيقة هذا الفضل يرجع إلى الفراهي رحمه الله بأنه وضع أصلًا مهمًا في النظم للسورتين المجاورتين، وجعله أوضح واستدل عليه، وأنه أشار إشارة قيمة إلى العلاقة والربط بين جميع السور المجاورة تقريبًا في إفاداته. وربط أكثر السور القرآنية المجاورة والقريبة بعضها مع بعض من حيث النظم، وقال إن هذا ليس من الضروري أن تكون كل سورة متصلة مباشرة، بل أن السورة اللاحقة أو أكثر ترد كملحقة أو كجملة معترضة. ويجب النظر في مثل هذه الحالة هل نوع الربط جزئي أو هناك اتحاد كامل بين السورتين من حيث الموضوع المركزي. واستخدم لتوضيح نوعية العلاقة بين السورتين مصطلاحات متنوعة من المثنى والتوأم والردأ والملحقة والتكملة. واستفاد الإصلاحي

[1] سورة يس: 2.

من إفادات الفراهي في بيان الربط بين كل من السورتين، وبالعموم استخدم في مثل هذه المواضع مصطلاحاته المذكورة لتوضيح رأيه.

ويتبين أن الإصلاحي إلى أي حد استفاد من أستاذه في مثل هذه الأقسام للنظم بالأمثلة المتعددة، مثلًا العلاقة التي قدّمها الإصلاحي رحمه الله بين سورة البقرة وسورة آل عمران وهي موجودة في كتب الفراهي رحمه الله. وقال الفراهي رحمه الله: إن السورة الأولى هي "سورة الإيمان وسورة العلم وسورة بدر"، والثانية هي "سورة الإسلام وسورة العمل وسورة أحد".[1] وألقى الضوء مفصلًا على الربط بينهما في تفسيره لسورة البقرة تحت عنوان "حقيقة السورة ونسبتها بالفاتحة وسورة آل عمران"،[2] ويقول عن العلاقة والربط بين سورة البقرة وسورة آل عمران: "وأما موقعها قبل سورة آل عمران فلكونها مشابهتين غير أنه فصل في الأولى جانب العلم، وفي الثانية جانب العمل مع الاتحاد في المطالب، كما سيتضح بعد النظر في تفسير تلك السورة. ولذلك جمعها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الوصف بأنها الزهراوان، وأنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان..... فكما أن هذه السورة أولى السور بالفاتحة، فلذلك سورة آل عمران أولهما بهذه السورة".[3]

ويقول أيضًا في العلاقة بينهما في تعليقات القرآن الكريم "تأكيد في إحدهما على مسألة العمل، وفي الثانية على مسألة العلم، وهكذا بينهما نسبة الإيمان والإسلام"،[4] وهكذا نوع العلاقة بينهما وهو الإجمال والتفصيل، والتقديم والتأخير، وهما مشابهتان

[1] انظر: رسائل الإمام الفراهي، ص 105-111.

[2] الفراهي رحمه الله، تفسير نظام القرآن، سورة البقرة، الدائرة الحميدية، سرائي مير، أعظم كره، 2000م، ص 29- 31، والتعليقات، تعليقات على سورة آل عمران، قبل تفسير سورة البقرة ألقى الضوء بالتفصيل على النظم والربط بين سورتها السابقة والسورة اللاحقة، وبين أيضًا أربعة أسباب لتقديها على آل عمران من حيث النظم.

[3] تفسير نظام القرآن، سورة البقرة، ص 30-31.

[4] التعليقات، تعليقات على سورة النساء، الكلمات التمهيدية.

ومماثلتان من حيث الموضوع، وإن كان في إحداهما نقص فتكمله الأخرى. وأعاد الشيخ الإصلاحي هذه الجهات مع مثل هذه الألفاظ في بداية تفسير سورة آل عمران.[1] ويقول في موضع "إذا تدبرت في هذا الجانب فتحس أن سورة آل عمران هي سورة أحد كما أن سورة البقرة هي سورة بدر، ثم تدبر أكثر فتتبين هذه الحقيقة بأن ذكرت في سورة البقرة حقيقة الإيمان، وفي هذه السورة ذكرت حقيقة الإسلام.[2] وكذلك النظم والربط بين سورة الأنعام والأعراف،[3] وبين سورة يونس وهود،[4] وبين سورة يوسف والرعد،[5] وبين سورة آل عمران والنساء، وبين سورة بني إسرائيل والكهف،[6] وبين سورة الكهف ومريم،[7] وبين سورة المجادلة والحشر،[8] وبين سورة الجمعة والمنافقون،[9] وما إلى ذلك. ونوع العلاقة بين كل سورتين من تلك السور الذي بيّنه الإصلاحي وهو نفسه تقريبًا في إفادات الفراهي، ويتبين في هذا المزيد عن هذا الجانب بالنظر في بعض عباراتهما المتعلقة ببعض السور.

جعل الإمام الفراهي سورة الأنعام وسورة الأعراف مشابهتين من حيث الموضوع، ويقول: "ولكن تلك داعية وهذه منذرة"،[10] ويبين الإصلاحي هذه الأشياء في هذه الألفاظ "سورة الأنعام دعت قريش إلى الإسلام كما تبين مفصلًا، والأعراف

[1] انظر للتفصيل: تدبر قرآن، 9/2–13، قال في حاشية نهاية هذا المقال "هذا المقال التمهيدي مأخوذ أكثره من إفادات الأستاذ رحمه الله".

[2] تدبر قرآن، 12/2.

[3] انظر للتفصيل: التعليقات، تعليقات على سورة الأعراف، تدبر قرآن، 215/3.

[4] المصدر نفسه، تعليقات على سورة يونس، تدبر قرآن، 98/4.

[5] المصدر نفسه، تعليقات على سورة الرعد، تدبر قرآن، 263/4.

[6] المصدر نفسه، تعليقات على سورة بني إسرائيل، تدبر قرآن، 551/4.

[7] المصدر نفسه، تعليقات على سورة الكهف، تدبر قرآن، 629/4.

[8] المصدر نفسه، تعليقات على سورة الحشر، تدبر قرآن، 279/8.

[9] المصدر نفسه، تعليقات على سورة المنافقون، تدبر قرآن، 393/8.

[10] المصدر نفسه، تعليقات على سورة الأعراف، ويقول عن سورة الأعراف في دلائل النظام "تنذر أهل القرى وتوعدهم بالهزم وغلبة الحق" انظر: رسائل الإمام الفراهي، ص 106.

قسيمة الأنعام غلب فيها جانب الإنذار بدلًا من الدعوة"،[1] وانظر إلى المثال الثاني: يقول الفراهي رحمه الله موضحًا علاقة سورة هود مع سورة يونس: "هذه السورة (سورة يونس) وسورة هود توأمتان، وفي هذه السورة بعض ذكر القرى، وفي هود أكثر ذكرها"[2] والآن انظر إلى كلمات الإصلاحي رحمه الله فيقول في تفسير سورة هود: "هذه السورة في وجهة نظرنا هي قسيمة يونس، ولهذا لا يوجد فرق في نفس العمود..... الأمور التي ذكرت في سورة يونس إجمالًا مثلًا قصص القرون الماضية فصلت في هذه السورة".[3]

يقول الإمام الفراهي رحمه الله في العلاقة والربط بين سورة الكهف والسورة السابقة (سورة بني إسرائيل) والسورة اللاحقة (سورة مريم): هذه سورة الإنذار والتبشير، أكدت هذه السورة على الصبر، والسورة اللاحقة على الصلاة، وهدد في السورة السابقة لليهود، وأُنذِر في هذه السورة للنصارى"،[4] وجعل الإصلاحي رحمه الله أيضًا موضوع هذه السورة إنذارًا وتنبيهًا لقريش، وتبشيرًا للنبي ﷺ ولأصحابه، وتلقينًا للصبر، وبيّن العلاقة بين السورة السابقة واللاحقة كالتالية:

"كشف النقاب عن اليهود في السورة السابقة (بني إسرائيل) كما كشفه عن النصارى في هذه السورة (سورة الكهف) والسورة اللاحقة (مريم)".[5]

ويتضح الأمر بمثال آخر يشبهه، لاحظ كلمات الشيخ الإصلاحي عن سورة النور:

"هذه السورة من أواخر سور هذه المجموعات، وهي مدنية، وتكملة لسورة المؤمنون..... وذكرنا في المقدمة "سورة النور": للطاعة في أحكام المجتمع والتمدن، وتتمة للسورة

[1] تدبر قرآن، 215/3.
[2] التعليقات، تعليقات على سورة يونس.
[3] تدبر قرآن، 98/4.
[4] التعليقات، تعليقات على سورة الكهف.
[5] تدبر قرآن، 551/4.

السابقة"،[1] ويقول عنه في موضع آخر: "سورة النور فيها تفصيل وتفسير لما مر في أول سورة المؤمنون"،[2] قال الإصلاحي مستفيدًا مما أشار الفراهي رحمه الله إلى موضوع أول سورة المؤمنون: "بيّنت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والاجتناب عن اللغو والفواحش في آيات سورة المؤمنون من 1 إلى 11 كصفات للمؤمنين الذين لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى، وعلى حسب قوله كأنها اهتمت بالإصلاح الاجتماعي بعد الإصلاح والتطهير الانفرادي، وسورة النور من السور التي اهتمت به".[3]

ولاحظ مثالًا آخر له، يقول الإمام الفراهي رحمه الله عن سورة الشورى.[4] "ولا يخفى أن بنائها على الاسمين العزيز والرحيم المستلزمين لأمور"،[5] وبناء الكلام في السورة اللاحقة (سورة النمل) على صفات الله تعالى، وهي العلم والحكمة (العليم والعليم).[6] وهذا الجانب قدّمه الإصلاحي أيضًا في تفسيره. وعنده أيضًا موضوع تلك السور إثبات الكتاب والنبوة كالفراهي، وهاتان السورتان تابعتان للسورة السابقة (سورة الفرقان).[7]

وبالنظر إلى هذه التفاصيل بأن التصور الذي قدّمه الإصلاحي في نظم السور المجاورة هو تصور جديد ومستقل عن تصور الفراهي، وليس فيه تأثير من إفادات الفراهي، قول لا يوجد فيه دليل قوي، وأما كون كل سورتين مترابطة ببعضهما، فهذا ليس من الأمور التي يعبر عنها أنها لا تكتشف إلا بمشقة كبيرة. وكتب أيضًا غير الفراهي

[1] رسائل الإمام الفراهي، ص 104– 108.

[2] التعليقات، تعليقات على سورة النور.

[3] تدبر قرآن، 355/5.

[4] والصحيح هي سورة الشعراء، لأن العبارة الآتية "وبناء الكلام في السورة اللاحقة" والسورة اللاحقة هي سورة النمل، وكذلك العبارة "وهاتان السورتان تابعتان للسورة السابقة، والسورة السابقة هي سورة الفرقان، و"سورة الشورى" قبل الزخرف وبعد فصلت.

[5] التعليقات، تعليقات على سورة الشعراء.

[6] المصدر نفسه، تعليقت على سورة النمل.

[7] انظر: تدبر قرآن، 495/5 و573.

رحمه الله من الثقفي[1] وبعض الشارحين الآخرين لنظم القرآن الكريم في النظم والربط بين السور المجاورة. والأمر الثاني الذي يجدر ذكره أن الشيخ الإصلاحي وقع في الورطة بتقديم تصور تقسيم السور إلى كل سورتين مترابطة ببعضهما أو في ألفاظ مير (Concept of the pairing of the Surahs) لأنه لم يُطَبِّق جميع السور على حسب تخطيطه هذا، والسور التي لم يستطع تقسيمها على حسب تخطيطه يجعلها ملحقات وتتمات للسور الأخرى،[2] وإن كان كذلك فكيف يقبل هذه الدعوى بأن كل سورتين مترابطة ببعضهما. ولا تنقص أهمية السورة لكونها تتمة لبعض السور، فيقال إنها تتمة وجزء من الآخر.

(ج) النظام الكامل للقرآن الكريم: تكلم الشيخ الإصلاحي رحمه الله عن النظام الكامل للقرآن الكريم بعد تقسيم السور إلى مجموعات مختلفة كأستاذه. والفرق بينهما أن الفراهي رحمه الله قسم سور القرآن الكريم ظاهراً إلى تسع مجموعات، بينما قسم الإصلاحي رحمه الله إلى سبع مجموعات فقط. وفي الحقيقة هذا الجانب للنظم اكتشفه الفراهي رحمه الله، وهذا هو أكبر الجوانب المتميزة في جميع أعماله. وكتبت مقالًا مستقلًا لإظهار أهم اكتشافاته بعنوان: "من النظم إلى النظام"، وفصّلت القول فيه عن فكرته في النظام الكامل للقرآن الكريم، ولكن في هذا الموقع لا أطيل الكلام، بل أركز على فكرة النظام الكامل للقرآن الكريم الذي قدّمها الإصلاحي

[1] ناقش الإمام ابن الزبير الثقفي مناقشة تامة في الربط بين السور المجاورة في كتابه "البرهان في تناسب سور القرآن"، وهكذا أحاط نظم جميع سور القرآن الكريم. انظر لبعض الأمثلة: ص 77- 78، و79- 80 (الترابط بين سورة الفاتحة وسورة البقرة) 80-85، (النظم بين سورة آل عمران وسورة البقرة) 85-88، (النظم بين سورة النساء وسورة المائدة) 105، (النظم والربط بين سورة الأنفال وسورة التوبة)، انظر للتفاصيل أيضًا: مقال كاتب هذا المقال "ابن الزبير الثقفي ونظم القرآن الكريم" "نظام القرآن" الفصلية، مدرسة الإصلاح، أعظم كره، عدد: يوليو - سبتمبر، 2001م، ص 57-69، ج2، عدد: أكتوبر - ديسمبر، 2001م، ص 45-57.

[2] انظر: تدبر قرآن، 27/2.

ليتضح به جهوده وجهود الفراهي فيه. ولا شك في أن الإصلاحي حاول محالة ناجحة واقتفى بآثاره عمليًا لتقديم فكرة الفراهي لنظام القرآن الكريم الكامل في تفسيره كله، وذكره أيضًا في مقدمته خصوصًا. ولهذا لا يغفل عن هذا الجانب عند استعراض خدماته التي تتعلق بنظم القرآن الكريم. ونقلت ألفاظ الإصلاحي في النظام الإجمالي للقرآن الكريم في بداية هذا المقال عند ذكر فكرته للنظم، أكد فيها بالخصوص على أن هناك نظامًا إجماليًا للقرآن الكريم كما أن لكل سورة وحدة معنوية وموضوعًا مركزيًا (عمودًا)، ومن حيث المعنى أن جميع سور القرآن الكريم تنقسم إلى مجموعات متعددة ومنها لكل مجموعة موضوع مستقل. وإضافة إلى ذلك أنه قسم النظام الإجمالي للقرآن الكريم من حيث الإجمال إلى جانبين:

(1) الجانب الظاهري للنظام.

(2) الجانب الخفي للنظام.

وأظهر هذه النكتة في الجانب الظاهري أن السور المكية والمدنية رتبت من حيث الترتيب الحالي للمصحف بخلاف الترتيب النزولي بطريقة أنها صارت سبع مجموعات للسور المكية والمدنية، منها تبدأ كل مجموعة بسورة مدنية أو أكثر وتنتهي بسورة مكية أو أكثر،[1] ولها سبع مجموعات كالتالية:

(1) سورة الفاتحة إلى سورة المائدة.

(2) سورة الأنعام إلى سورة التوبة.

(3) سورة يونس إلى سورة النور.

(4) سورة الفرقان إلى سورة الأحزاب.

(5) سورة سبإٍ إلى سورة الحجرات.

[1] المصدر نفسه، 25/1.

(6) سورة ق إلى سورة التحريم.

(7) سورة الملك إلى سورة الناس.[1]

ويقول أيضًا كالفراهي: إن الترتيب الحالي للقرآن الكريم ترتيب توقيفي، ولذلك هذا الترتيب ليس خاليًا من الحكمة.[2]

وبكلمة أخرى كأنه يقول: إن الترتيب الحالي بيان النظام الداخلي لأجزائه. وبالنظر الدقيق يظهر أن جميع سور القرآن الكريم من حيث المعاني والمطالب تنقسم إلى سبع مجموعات، ومنها أن يكون الموضوع الجامع أو العمود لكل مجموعة، ويكون ربط جميع هذه المجموعات بعضها ببعض.[3] واعلموا أن الفراهي أيضًا قسم جميع سور القرآن الكريم ظاهراً إلى مجموعات متعددة لإظهار حكمة هذا الترتيب، وقسمها إلى تسع مجموعات، بل لا يظهر من ألفاظه أن هذا التقسيم الظاهري يقتصر على تسع مجموعات في كل حال، كما يرى عند الإصلاحي، بل أنه قدمّه كنموذج كما سيأتي تفصيله، وينعطف به الذهن إلى النظام الإجمالي للقرآن الكريم.

إضافة إلى ذلك أن النكات التي أكد عليها الإصلاحي من حيث الجانب الخفي لنظام القرآن الإجمالي، وهي نفس النكات التي قدّمها الفراهي إلا واحدة في كتابه "دلائل النظام" وفي مقدمة كتابه "تفسير نظام القرآن" من حيث الأصول الأساسية لنظم القرآن الكريم. وخلاصة الجوانب السبعة لنظام القرآن الكريم الخفي وهي كالتالية:

لكل مجموعة من السور عمود كما لكل سورة عمود.

السور المكية والمدنية من كل مجموعة تتحد تمامًا.

[1] انظر للتفصيل: المصدر نفسه

[2] المصدر نفسه

[3] المصدر نفسه

لكل سورة زوج.

سورة الفاتحة ليس لها زوج، بل هي مستقلة وحدها، واستثنيت من قاعدة أن السور أزواج، لأنها مقدمة القرآن الكريم.

بعض السور تتمة، ولا تكون زوجًا مستقلًا لأي سورة من حيث الغاية، بل تكون كمعترضة توضح جانبًا من جوانب السورة السابقة.

عصور الدعوة الإسلامية بارزة في كل مجموعة، بل فيها فرق من حيث الإيجاز والتفصيل.

تتقدم مجموعة الشريعة على جميع المجموعات، وآخر المجموعات هي مجموعة الإنذار.[1]

يتضح جيدًا بالسطور الماضية واللاحقة أن التفاصيل التي قدّمها الإصلاحي في صورة الجانب الخفي للنظام الكامل من القرآن الكريم، وهي خلاصة الأصول الأساسية للنظم التي قدّمها الفراهي. وكذلك تفاصيل جانبي النظم الكامل للقرآن الكريم التي قُدِّمت وهي في الحقيقة ترجمان أفكار الفراهي، ولكن كما استعرض مؤلف كتاب "Coherence in the Qur'an" فكرة الإصلاحي هذه يبدو منه أن هذه الفكرة هي من اكتشافات الإصلاحي حقيقة، وهذه الفكرة عند الفراهي هي فكرة تمهيدية تمامًا أكملها الإصلاحي وطوّرها، وعمله هذا أصيل إلى حد كبير.[2] (His Treatment of it is, thus original to very large extent) ولكن تبطل دعواه باستعراض جميع جوانب فكرة النظم للفراهي. والإمام الفراهي وفّر المواد كثيرًا في كتابه "دلائل النظام" وفي تعليقاته "التعليقات على القرآن الكريم"، ومنها تقسيم مجموعات السور المكية والمدنية وترتيبها، ومكانة السور المكية والمدنية، وتقسيم سور القرآن الكريم إلى مجموعات متعددة من حيث المراحل الثلاث الدعوية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموافقة موضوعاته مع المراحل

[1] انظر للفصيل: المصدر نفسه، 1/26-27.

[2] Coherence in the Qur'an، ص 85.

الدعوية، والفرق بين الترتيب النزولي والترتيب الحالي، فتوجد عنده النكات المهمة والإشارات القيمة المتعلقة بهذه الأشياء وغيرها من الجوانب الأخرى، والأشياء التي كتبها الإصلاحي في هذا الموضوع وهي خلاصة تلك الإشارات إلى حد كبير، وليس فيها شيء جديد أساسًا، ونستعرض هذا الجانب مفصلًا في السطور الآتية:

وقبل الدخول في الاستعراض يجب إيضاح أن تقسيم جميع السور من حيث موضوعاتها الأساسية وتعيين الموضوع المركزي لكل مجموعة، أو في اصطلاح الفراهي تعيين عمودها، وإيضاح النظم والربط بين الأجزاء الأساسية للقرآن الكريم، وتبيين الفرق بين السور من حيث موضوعاتها بأنها تمثل أصل الموضوع أحيانًا أو أنها تكون تتمة لسورة أحيانًا، وهذه الأشياء كلها جزء من النظام الكامل للقرآن الكريم، وكما مضت الإشارة في السطور الماضية أن الفراهي أول من بحث في جميع تلك الجوانب للنظم بعنوان "نظم الأصول الأساسية" بحثًا مرتبًا، واستدل عليه استدلالًا كاملًا، وجهد فيها أقصى الجهد لإعطاء فكرة النظام الكامل للقرآن الكريم، ولذا ليس من العدل أن ينسب هذا الاكتشاف إلى أحد، أو تُقدم خدمات الفراهي في طريقة لا تتضح أهميتها وجميع أنواعها. ولا شك أنه توجد هناك نظريات المناسبات والروابط بين الآيات، أو فكرة النظام بين الأجزاء المختلفة لسورة عند العلماء الآخرين قبل الإمام الفراهي، ولكن إيضاح النظم والربط بين السور بعد تقسيمها إلى مجموعات مختلفة من حيث المعنى، بل أكثر من ذلك إعطاء نظرية الربط والعلاقة المنطقية بين الأحكام المذكورة في القرآن الكريم، فهذه المآثر التي لم يقم بها أحد قبل الإمام الفراهي رحمه الله إلى حد علمنا، والنظام الكامل للقرآن الكريم الذي ذكره الإصلاحي رحمه الله وهو خلاصة ما استفاده من فكرة أستاذه تمامًا. ويصح هذا بأن الفراهي رحمه الله لم يستطع إكمال تفسير القرآن الكريم، وبهذا السبب حسب فكرته لم يستطع البحث في جميع جهات النظم والربط الداخلي للمجموعات المختلفة من سور القرآن الكريم من حيث الموضوعات كما يريد، ولكن ليس معنى هذا أنه أشار إلى جملة أو

جملتين فقط وترك هذا البحث. وهذه حقيقة أن الإشارات المهمة التي تركها في مسألة واحدة من هذه المسائل للنظم فقط بالخصوص في كتابه "دلائل النظام" ومقدمة "تفسير نظام القرآن" و"التعليقات على القرآن الكريم" (غير مطبوع) ولو جمعت تلك الإشارات لصارت رسالة مختصرة، ولهذا كان من الضروري أن النظام الكامل للقرآن الكريم كان هو هدف البحث الأصلي للفراهي رحمه الله. وسلّط الضوء على هذا الجانب للنظم في كتابه "دلائل النظام" في أربعة مواضع على الأقل تحت العناوين المستقلة. وذكر غفلة العلماء عنه وعدم اعتنائهم به، فقال: أظهر بعض العلماء رأيه عن علم المناسبة عمومًا، ولكن لم يتكلم أحد في النظام الكامل، ولم يكمل متطلبات وحدة الكلام المعنوية ببيان المناسبة بين الآيات فقط، ولهذا على حسب قوله يقتنع بأي نظم يكتفي بنظم الآيات القريبة فقط، وربما يغفل عن النظم الذي يتحد به الكلام في المعاني فيصير شيئًا واحدًا.[1] وما المراد بالنظام عنده بمقابل علم المناسبة العام، ويُفهَم هذا جيدًا بكلماته الآتية:

"وبالجملة فمرادنا بالنظام أن تكون السورة كلامًا واحدًا، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، أو بالتي قبلها أو بعدها على بعدها، كما قدّمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أن الآيات ربما تكون معترضة، فكذلك ربما تكون السورة معترضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلامًا واحدًا، ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر".[2]

فتبين من هذا سواء كان النظم الكامل للسورة أو النظام الكامل للأجزاء الأساسية من القرآن الكريم بكامله، فهو يهتم اهتمامًا بالغًا بالكلام المطلوب أو الموضوع المركزي في كل مكان، وتبين أيضًا من هذه العبارة كما أن لنظم السورة أصولًا عنده فكما أن للنظام الكامل من القرآن الكريم، أو لمطالعة العلاقة والربط بين مجموعات سوره أصولًا جادة،

[1] رسائل الإمام الفراهي، ص 86.
[2] المصدر نفسه، ص 86-87.

ومن أهمها كما يجب علينا لمعرفة نظم السورة أن ننظر في أي آية أو آيات وردت بين الآيات المترابطة من حيث النظم كجملة معترضة أو تتمة لها فكما ترد بعض السوركتتمة بين السور المتحدة من حيث المعنى،[1] ويصعب فهم النظم الكامل للقرآن الكريم بدون فهم مكانتها. أكد الإمام الفراهي رحمه الله على هذا الجانب للنظم في مواضع مختلفة لأن الآيات أو السور الواردة الموضحة لمسألة تلعب دورًا مهمًا للإيصال إلى المركز الأصلي لنظم الكلام، ولو يفهم مرة فيرى القرآن الكريم بكامله كأنه كلام واحد.[2] ويعلم من أهمية هذه الأصول أن فكرته للنظام الكامل للقرآن الكريم أسست على الأصول الجادة. والبحث الذي يتعلق بالنظام الكامل للقرآن الكريم ينقسم إلى جزأين:

(1) الجزء الأول يشتمل على نظم مجموعات السور، ومعناه أن جميع سور القرآن الكريم من حيث المعنى منقسمة إلى مجموعات خاصة، وهذه المجموعات متحدة ومرتبطة بعضها ببعض معنويًا.

(2) الجزء الثاني يبحث عن الربط والعلاقة المنطقية بالأحكام والشرائع المذكورة في القرآن الكريم، وأوضح الفراهي بأن الأحكام المختلفة والإرشادات المتنوعة إذا ذكرت معًا في القرآن الكريم فتكمن فيها حكم كثيرة تنكشف بعد فهم ربط الأحكام والشرائع بعضها ببعض،[3] وبمقابل الفراهي ما بحثه الإصلاحي من هذه الجهة للنظم في مقدمة تفسيره، أو في السورة المتعلقة بكل مجموعة هو مختصر ظاهراً ومعنويًا، وإضافة إلى ذلك ما تكلم فيه وهو في الواقع أخذه من أستاذه مع فروق جزئية.

وما بحثه الشيخ الفراهي رحمه الله في مثل هذه الجهات المتنوعة للنظم في مواضع مختلفة في كتابه "دلائل النظام" ومنها أحد الموضوعات التي كتبها بعنوان "الكلام في نظم السور بعضها مع بعض وبيان النظم العمومي" وقسم السور المكية والمدنية من

[1] المصدر نفسه، ص 89.

[2] المصدر نفسه

[3] انظر: رسائل الإمام الفراهي، ص 45- 46، وتفسير نظام قرآن، ص 60.

حيث ترتيب بعضها مع بعض إلى تسع مجموعات، وفي الواقع أن هذا التقسيم ليس من حيث المطالب والموضوعات، وإن وضح ذلك في الكلمات التمهيدية قبل تقسيمها، ولكنه قال أيضًا: كل مجموعة السور ابتدأت بالمكية، وختمت بالمدنية، أو كل مجموعة السور المكية قد أدخل فيها سورة مدنية أو أكثر منها في الترتيب، فهذا يدل على ترتيب السور الحالي الذي أوجبه الله ورسوله (أو أنه توقيفي)، ولا يخلو من حكم النظم.[1] وبمقابل تقسيم الفراهي رحمه الله إلى تسع مجموعات قسم الإصلاحي رحمه الله جميع السور إلى سبع مجموعات من حيث الترتيب المكي والمدني، ومنها نقصت مجموعة لأجل ضم المجموعة الرابعة للفراهي مع المجموعة الثالثة للإصلاحي، ونقصت مجموعة ثانية لأن الفراهي جعل السورتين الأخيرتين (المعوذتين) في مجموعة مستقلة، بينما جعلهما الإصلاحي جزءًا من المجموعة الأخيرة. وعند الشيخ الفراهي سورة الفاتحة لها مكانة مستقلة لكونها كالديباجة ففيها مفاتيح لجميع ما في القرآن الكريم، كذلك سورتا المعوذتين كخاتمة لجميع القرآن الكريم، كما كانت علاقتهما من جهة بالسورة

[1] انظر: رسائل الإمام الفراهي، ص 103– 104، والمجموعات التسع للفراهي هي كالآتية:

[1] سورة الفاحة وهي مكية، مع أربع مدنيات جملة واحدة، مع أن الفاتحة لها نسبة بمجموع القرآن. (1-5)

[2] سورة الأنعام والأعراف مكيتان مع الأنفال والبراءة المدنيتين. (6-9)

[3] سورة يونس إلى سورة الأنبياء اثنتا عشر سورة كلها مكية مع سورة الحج. وهي عندي لما تتضمن الجهاد والقتال والهجرة. (10-22)

[4] سورة المؤمنون المكية سورة النور المدنية، ولعلها مدرجة. (23-24)

[5] سورة الفرقان إلى سورة الم السجدة، ثماني مكيات مع مدنية واحدة، وهي سورة الأحزاب. (25-33)

[6] سورة سبأ إلى سورة الأحقاف، ثلاث عشرة مكية، مع سورة محمد إلى سورة الحجرات، ثلاث مدنيات. (34-49)

[7] سورة ق إلى سورة الواقعة، سبع مكيات مع سورة الحديد إلى سورة الطلاق عشر سور مدنيات. (50-66)

[8] سورة الملك إلى سورة الإخلاص جملة واحدة، قد أدرج فيها سورة المطففين وهي مكية، وسورة النصر المدنية، وسورة اللهب المكية التي نزلت قبيل الهجرة. (67-112)

[9] سورتا المعوذتين المدنيتان، جملة خاتمة ذات اتصال بتمام القرآن وبما قبلها، مثل سورة الفاتحة ذات نسبة بما بعدها وبجميع القرآن. (113-114) انظر: رسائل الإمام الفراهي، ص 104-105.

السابقة (سورة الإخلاص) التي هي خلاصة الموضوعات المركزية للقرآن الكريم، فكما كانت علاقتهما من جهة أخرى بجميع السور السابقة كخاتمة القرآن الكريم.[1]

وعلى كل حال أن ما قام به الإصلاحي رحمه الله في تقسيم السور إلى المجموعات من حيث النظم فهو في الحقيقة جزء من إفادات الفراهي رحمه الله، والفرق الذي يوجد عندهما في تقسيم المجموعات ظاهر وجزئي كليًا لا يتأثر به المقصود الأصلي. ونعلم هنا أن الاكتشاف الأصلي هو تقسيم السور إلى مجموعات، وإظهار النظم والربط الموجود بينهن، وليس من المهم هنا أنها تقسم إلى كم مجموعة، لأنه بعد وضوح الموضوعات والمطالب لأي كتاب يمكن تقسيم أبوابه الأساسية إلى مجموعات مختلفة حسب الضرورة مراعاة للسياق مع إمكانية زيادتها ونقصها عند البعض دون الآخرين لا تتأثر به الموضوعات والمقاصد الأساسية للكتاب، وتكون المشكلة عندما لم يعرف كليًا النظم والترتيب لأبوابه، ولا يعرف أي موضوع لأي باب، ولا يعرف أطرافه الأولى من الآخرة، وهذا هو حال سور القرآن الكريم، إن لم توجد هذه الفكرة أصلًا بأن سوره يربط بعضها ببعض من حيث المعنى، وهذه السور منقسمة إلى مجموعات إجمالًا كالأبواب والفصول للكتاب وكلها متصلة بالأخرى من الجوانب، فكيف يمكن لأحد أن يفكر في ربطها بعد تقسيمها إلى مجموعات؟ نعم إذا ظهرت مرة فكرة النظام الكامل لها فسهلت هذه الأشياء للاحقين، ولا يبقى ذا أهمية كبيرة أن من يقسمها إلى كم مجموعة، ويستعرض مطالبها وموضوعاتها، وهذاجانب من الجوانب الظاهرة للمسألة فقط، وأصل الموضوع هو أن يبين ربط الموضوعات المذكورة في تلك المجموعات بعضها ببعض بأسلوب يتبين به النظام الكامل للقرآن الكريم مشرقًا كالبدر الكامل.

قبل أن نستعرض تقسيم السور القرآنية باختصار الذي قام به الفراهي رحمه الله يناسبنا النظر في الروح الحقيقية للنظام الكامل للقرآن الكريم وإعادة التوجيه إلى أن الإصلاحي

[1] انظر للتفصيل: رسال الإمام الفراهي، ص 104- 105 و110.

رحمه الله أكد على تقسيم تلك السور القرآنية من حيث المكية والمدنية إلى سبع مجموعات، ولعل أكبر سببه هو أنه استدل على فكرته لتقسيم جميع السور القرآنية من حيث المواضيع إلى سبع مجموعات، ولكون كل من السورتين زوجًا زوجًا بقوله تعالى: "سَبۡعًا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي" مضت تفاصيله في السطور الماضية. وأما مسألة تقسيم السور إلى المجموعات من حيث المواضيع فراعى الإصلاحي معًا الجانبين للتقسيم إلى سبع مجموعات (يعني تقسيمه الظاهري للمجموعات من حيث المكية والمدنية، وتقسيمه لها من حيث الموضوعات والمطالب)، بينما جعل الإمام الفراهي رحمه الله تقسيمه تقسيمًا ظاهريًا، وكما يظهر من كلماته أنه قدّم هذا التقسيم الظاهري كنموذج فقط، ودعانا إلى التدبر والتفكر في هذه المسألة، وقال أيضًا: إن تظهر هذه الحقيقة بالتدبر في هذا الجانب للقرآن الكريم أن كون عدة السور المكية والمدنية مرتبة في مجموعة واحدة، وظهور جميع السور من حيث المواضيع في عدة مجموعات يدل على معرفة كل مجموعة من جميع السور للقرآن الكريم بموضوعاته ومطالبه الأساسية كما يقول الفراهي رحمه الله: "وبالجملة فالحكم بكون عدة من السور جملة واحدة، مبني على الاستدلال بالمطالب".[1] والشيخ الإصلاحي، كما أوضحنا، سلط الضوء على نظم المجموعات السبع التي قسمها في مقدمة تفسيره، وعلى الكلمات التمهيدية لتفسير السورة الأولى من كل مجموعة. وهو يقول: "إن تُتل سور المجموعات السبع المذكورة مرارًا بالتدبر والتفكر فتتضح حِكَم هذا الترتيب".[2] ثم عنده أكبر حكمة لهذا النظام الكامل وهي ترشدنا إلى المجموعات المختلفة للسور، وإلى موضوعاتها الأساسية، ونعلم بها كما أنه يكون موضوعًا لكل سورة فكما يكون موضوعًا لكل مجموعة من السور، تتصل به جميع سور هذه المجموعة.[3]

وموهبة الفراهي رحمه الله هي أنه قدّم الفكرة العظيمة لانقسام جميع السور إلى

[1] المصدر نفسه، ص 104.
[2] تدبر قرآن، 26/1.
[3] المصدر نفسه

المجموعات المختلفة من حيث الموضوع، ولكونها متحدة المعاني، بل أشار إشارة قيمة في تأليفاته المطبوعة وغير المطبوعة نعلم بها جيدًا أن جميع سور القرآن الكريم من حيث موضوعاتها ومطالبها منقسمة إلى ثلاثة أجزاء إجمالًا، وأوضح فيها هذه النكتة أيضًا أن ما رعي فيها من السور من حيث الترتيب النزولي المتطلبات الفطرية للدعوة والنبوة،يستعرض بها النظام الكامل للقرآن الكريم بعد تقسيم الموضوعات والمطالب القرآنية إلى ثلاث مجموعات، ومجموعاته الثلاث هي كالتالية:

(1) تمهدت بنزول القرآن الكريم قبل كل شيء الأسس التي تبنى عليها الأحكام والشرائع، ووجه في هذه المجموعة قبل كل شيء إلى تلاوة القرآن الكريم، والصلاة، والتقرب إلى الله تعالى، والمظاهر العقلية والفطرية لألوهيته وربوبيته سبحانه، ليكون الثبات والطمأنينة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه في أفعال الدعوة التي يصبر عليها من جهة، ومعًا يمهد الطريق لإبلاغ الدعوة والتوحيد والرسالة المحمدية.

(2) وأمر بالدعوة ونشر الحق في المرحلة الثانية، وفصلت الآيات فيها أيضًا تبشيرًا وإنذارًا، وترغيبًا وترهيبًا خطوة تلو الأخرى لأهداف التعليم والتربية والتذكير. وأيضًا الأمور التي تتعلق بتعليم الكتاب والحكمة، ونفي الشرك، والتقوى والإنابة، والترغيب في الأعمال الصالحة، وتربية الصبر والثبات، وهي كلها جزء للمرحلة الثانية، ومذكورة في الآيات التي نزلت في المرحلة الثانية للدعوة.

(3) المجموعة الثالثة للقرآن الكريم نزولًا، والمجموعة الأولى ترتيبًاحاليًا وتوقيفيًا هي التي تتعلق بالمراحل التي تأتي بعد استحكام الأسس لإكمال الدين ونشر الحق. وهذه مبنية على تفاصيل الأحكام والشرائع التي هي للأمة المسلمة. فلذلك هذه هي المجموعة من الأحكام والشرائع مع المواعظ والنصائح المهمة والترغيب والترهيب آخر ما نزل.[1] وفيها سورة الفاتحة والسور الأربع الأولى الطوال. ويوضح أيضًا في هذا الموقع، وهذه حقيقة تاريخية

[1] انظر: رسائل الإمام الفراهي، ص 96-98، 99-100، 101-102.

أيضًا، أن الترتيب الحالي التوقيفي للقرآن الكريم لا يوافق ترتيب القرآن الكريم نزولًا، بل ظهر هذا باعتبار الترتيب المنطقي للموضوعات والمطالب، والمتطلبات الفطرية لبيئة ذلك الوقت، والتعليم والتربية، وعلى حسب قوله أنّ أول ما نزلت من السور وضع في آخر القرآن، وآخر ما نزلت وضع في الترتيب الأول.[1] ولأنه قد تغيرت الآن أرض الدعوة، وأحوال المدعوين، وبتبدلها تغيرت الضروريات، كان المخاطَبون للقرآن الكريم مشركي العرب أولًا، والآن المخاطَبون هم مسلمو العرب، والمجتمع الإسلامي، فأولًا يحتاجون إلى الأحكام والشرائع المتعلقة بجميع جوانب الحياة المهمة، ولهذا وضع ذلك الجزء الذي تحتاجه الأمة المسلمة أولًا، يعني ذلك الجزء الذي يبنى على الأحكام والشرائع. ثم ذلك الجزء الذي يأتي في المرحلة الثانية من حيث الترتيب النزولي، والترتيب التوقيفي منطقيًا. وفي الأخير ذلك الجزء الذي نزل أولًا. وإضافة إلى ذلك أن الفراهي رحمه الله أشار إشارة حكيمة إلى مواضيع المجموعات الأساسية للسور، والعلاقة والربط بعضها ببعض، وذكر الجهات المختلفة للنظام الداخلي من تلك المجموعات خصوصًا في رسالته "دلائل النظام" (40، و41، و43، و44، و45). ومن وجهة النظر للنظام الكامل من القرآن الكريم استحكمت تلك الأسس التي يمكن أن يبنى عليها المباني الشامخة تحت بعض فصول الكتاب المذكور، والبحوث المتعلقة بالتعليقات القرآنية. وقدّم الشيخ الإصلاحي رحمه الله خطة النظام الكامل للقرآن الكريم مستخدمًا تلك الأسس، ولكن الأشياء التي يرى فيها عند الفراهي نقص في بحث النظام الكامل للقرآن الكريم، وكذلك عنده لا يوجد أكثر مما كان موجودًا عند الفراهي رحمه الله، بل لا يوجد أي وضع في بعض الأماكن من ناحية ترجمان فكرة النظم للفراهي تطمئن به النفس. ولا يسعه التفصيل في هذا الموقع، بل أرى مناسباً في هذا الموقع أن أشير إلى جانب أو جانبين.

يقول الشيخ الإصلاحي في مقدمة تفسيره مسلطًا الضوء على النظام الكامل بعد الاستعراض السريع لمطالب مجموعات السور، وبعد بيان أهميتها في نظم القرآن الكريم:

[1] المصدر نفسه، ص 96.

"وتذكر هنا، مثلًا، مجرد أن القانون والشريعة تغلب على مجموعة، وتاريخ الملة الإبراهيمية وأصولها وفروعها يغلب على مجموعة، ونشوب الصراع بين الحق والباطل، وظهور جزء البيان فيه يغلب على مجموعة، والنبوة والرسالة وميزاتها وخصائصها تغلب على مجموعة، ويظهر التوحيد ومقوّماته ومتطلباته في مجموعة، والبعث والحشر والنشر ومتطلباته في مجموعة، والمجموعة الأخيرة للإنذار التي تشتمل على أكثر السور المكية".[1]

أكبر النقص الذي يوجد عنده في هذه المسألة هو أن الفراهي رحمه الله أبرز المراحل التاريخية للدعوة الإسلامية خصوصًا في تقسيم مجموعات القرآن الكريم من حيث المطالب ونظم الكلام، وهذا لا يرى في كتابات الإصلاحي في أتم الصورة، إما من وجهة نظره أن هذا الجانب ليس ذا أهمية كبيرة يُعتنى به، وإما لم يستطع إدخال فكرة الشيخ الفراهي في تفسيره، والحقيقة هي أن ما قدّمه الفراهي من تخطيط النظام الكامل للقرآن الكريم في ضوء تاريخ الدعوة الإسلامية،[2] لم يفز في بيانه كاملًا، ولم يستطع

[1] تدبر قرآن، 1/26-27.

[2] أوضح الشيخ الفراهي الربط بين السور بعضها ببعض بعد أن قسم السور القرآنية إلى ثلاث مجموعات في ضوء المراحل للدعوة والنبوة، فلا يوجد فيه بحث كامل له، ولكن تظهر فكرته كاملًا بدراسة مباحث الجزء الأخير من كتابه "دلائل النظام" وحواشيه بدقة، ولا يسعنا التفصيل في هذا الموقع، بل أرى مناسبًا أن أشير هنا إلى أنه كما سلط الضوء على الموضوعات المركزية لجميع السور القرآنية، وربط بعضها ببعض في كتابه "دلائل النظام" تحت عنوان "عمود السور إجمالًا" فيعلم به المجموعات الأساسية الثلاث للقرآن الكريم وموضوعاتها. ومن حسن الحظ أحيط جميع السور في هذا البحث، وفي أثنائه يقول بوضع العنوان "جملة ثانية": "من سورة 10- إلى سورة 24- إنذار وتبشير، وإجراء الكلام من وسط النبوة إلى وسط الهجرة بالترتيب الزماني". وتقدر المجموعة السابقة بنفسها، وكذلك تقدر المجموعة الثالثة بعد البحث في المجموعة الثانية يعني السورة رقم 24 (سورة النور) خُط خطًا في وسط الصفحة، وكذلك استعرض الموضوعات الأساسية للسور القرآنية إجمالًا في ضوء المراحل التاريخية لتاريخ نزول القرآن الكريم، والنبوة والدعوة والهجرة، وما قدمه من الأسس الجادة للنظام الإجمالي من القرآن الكريم وهو روح فلسفته لنظام القرآن الكريم أصلًا، وعلى هذا الأساس هو يعتبر أول معلم لـ"فلسفة نظام القرآن". انظر للتفصيل: رسائل الإمام الفراهي، ص 105-109. وبحثت أنا بالتفصيل في هذه المسألة في إحدى مقالاتي بعنوان "من النظم إلى النظام".

التقدم كاملًا بتصوير نظم القرآن الكريم الذي عكسه الفراهي لفلسفة نظام القرآن الكريم، ولعل من أسبابه هو أن زاد اعتماده على التأويل الخاص لآية "سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي" وعلى فكرة تقسيم السور إلى سبع مجموعات نتيجة له إلى حد غابت فكرة الفراهي عن المشهد في هذا، فعلى هذا يقينه قوي أن تقسيم السور إلى سبع مجموعات توقيفي أيضًا في رأيه كالسور والآيات القرآنية، لأن هذا هو التقسيم الذي يصدق الآية "سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي" لو كان الوضع في أتم الصورة فيمكن أن يقال إن لم يكن اعتماده قويًا بهذا القدر في هذا التقسيم، فلعله يفوز أكثر في تطبيق فكرة الفراهي للنظام الكامل للقرآن الكريم. واعلم أنّ فكرة الفراهي ليست محدودة في تقسيم السور إلى مجموعات، بل علاقتها بالمراحل التاريخية للدعوة الإسلامية، وتاريخ نزول القرآن الكريم، والفرق بين ترتيب القرآن الحالي التوقيفي والترتيب النزولي، ونزول الأحكام والشرائع التدريجي للأمة المسلمة وتنفيذها، ومكانة السور المستقلة والسور كتتمة، وعمود المجموعات المختلفة للسور القرآنية، وهذه الأشياء المتعلقة بالنظام الكامل للقرآن الكريم جزء من فكرة الفراهي، ولو أهمل شيء منها فلا يكتمل بناء النظام الكامل للقرآن الكريم. ولا شك أنه يسلك على ضوء إفادات الفراهي إلى حد كبير في وضع عمود ومجموعات كل سورة في وحدة، ولكنه لما دخل في أهم مراحل النظام الكامل للسور فلم يستطع الثبات تمامًا على السبيل الذي سلك عليه أستاذه الفراهي، وما قدّمه من النظم في تفسيره، وإن كان فيه شأن عظيم لأجل العلاقة مع فلسفة نظام القرآن الكريم للفراهي، ولكن لم تظهر فكرته فيه، ولا فكرة الفراهي في أتم الصورة بشيء من التبديل قبل الوصول إلى المنزل.

وما عرض من فكرة نظام القرآن الكريم الكامل للإصلاحي أعلاه ونقدّم له مثالًا واحدًا من كلماته:

"قُدِّمت مجموعة القانون والشريعة على جميع المجموعات الأخرى في هذا الترتيب، وأُخِّرت مجموعة الإنذار، وهذا يشير إلى أن المقصود بالإنذار في الواقع هو وقاية الناس

سوء السبيل، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، وهذا هو صراط الشريعة".[1]

وليس من الصعب بالتدبر في هذه العبارة أن تقدر أنه اتبع أستاذه في قوله الأول بأن مجموعة الأحكام والشرائع أول المجموعات في الترتيب لمصلحة، ولكن قوله في الجانب الآخر لهذه المسألة ففيه إجمال بقدرٍ، وهو يقول: إن مجموعة الإنذار وضعت في الأخير، وهذا يُشكل وهو هل توضع مجموعة الإنذار في مجموعات السور مستقلًا؟ فمع النظر في جميع المجموعات نعلم أن سلسلة التنبيه والتهديد من القرآن الكريم لمشركي مكة وكفار العرب ليست محدودة في مجموعة، بل هي منتشرة في القرآن الكريم بكامله.[2] وهذا الإنذار مباشر في بعض الأماكن، وفي بعضها بواسطة. ومن سورة البقرة إلى سورة اللهب، وهذا العنصر جزء من كلام الله تعالى في أي صورة. ويوجد أثرها في المجموعات السابقة كالمجموعة الأخيرة على حسب الإمام الفراهي، ومع ذلك ليس مستقلًا أو عمودًا أو غاية للكلام في أكثر السور، بل هو تتمة. ومن جانب كانت تسلية للمسلمين من خلال الترغيب والترهيب، ومن جانب آخر تخويف لمخالفي الإسلام من الله تعالى ورسوله ﷺ بتذكيرهم سوء العواقب، ولكن المقصود به ليس تهديدًا وتخويفًا فقط، بل المقصود الأصلي به هو توجيه المخاطبين ولفتهم. وهنا إشكال آخر وهو أن المجموعة الأخيرة التي هي المجموعة الأولى لكلام الله تعالى من حيث الترتيب النزولي، إن تبنى على الإنذار فقط، فكيف تكون الآيات التي تشتمل على تعاليم الإسلام والعقائد الأساسية من توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وعلى إثبات الرسالة والآخرة ونفي الشرك جزءًا لهذه المجموعة؟ وكيف يكون صحيحًا أنها تسمى مجموعة الإنذار مع تلك الموضوعات؟ ولو فرضنا أن مجموعة الإنذار وضعت قبل كل شيء فيكون معناه أن القرآن الكريم هدّد مشركي

[1] تدبر قرآن، 27/1.

[2] انظر: رسائل الإمام الفراهي، ص 97-98 مع إفاداته.

العرب قبل عرض تعاليم الإسلام الأساسية والدعوة إلى توحيد الله تعالى وهذا ظاهر أنه خلاف للِحِكَم الدعوية كليًا. والأمر الثاني لو بدأ الكلام بآيات الإنذار فيكون معناه أن الناس يتنفرون من دعوة الإسلام في المرحلة الأولى، ويتركون كلام الله تعالى ويكونون بعيدين عنه قبل وصول رسالة القرآن الكريم إليهم، بينما ثبت من التاريخ أن القرآن الكريم حمل عيون الإيمان إلى جريانها في أرض العرب المتحجرة، وألجأ الرجال القاسية إلى ذَوُبهم أمامه كالشمعة بإعجازه البياني وقوة تأثيره، وتنكّست العرب متأثرة بإعجازه أمام حقية الإسلام في مدة ثلاث وعشرين سنة فقط. ونظرًا إلى هذه الجهة جعل الفراهي رحمه الله المجموعة الأخيرة مجموعة التعاليم بني عليها أساس الأحكام، ويقول: "فنزل ما يبنى عليه الأحكام".[1] وتلك التعاليم التي بني عليها أساس الشريعة الإسلامية بعد هي عقائد الإسلام الأساسية، والتوحيد، والرسالة والآخرة وغيرها، وذكر الترغيب والترهيب مرارًا في جوانب تلك التعاليم، وإضافة إلى ذلك على حسب الضرورة التلقين والتذكير للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بالصبر والصلاة، والتقوى والتقرب إلى الله، وطاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا أهم جزء لموضوعات هذه المجموعة، ولكن هذه الأشياء التي هي من أصول دعوة القرآن الكريم إلى التوحيد تتمة للموضوع المركزي لهذه المجموعة، كما يقول الفراهي: "إنما نزل القرآن حسب تربيتهم، فنزل ما يبنى عليه الأحكام، ثم نزل ما فيه الأحكام مع الخلط بالترغيب والترهيب وتفصيل الأحكام جاء بعد الإجمال".[2]

فاتضحت مما سبق علاقة موضوع الترغيب والترهيب أو الإنذار والتبشير مع الموضوعات الأصلية للأجزاء الأساسية من القرآن الكريم. والحقيقة هي أن تذكر النصائح والمواعظ مع التوحيد ودعوة الرسالة في أماكن مختلفة من القرآن الكريم لأن الذين قد انجمدت في

[1] المصدر نفسه، ص 98.

[2] المصدر نفسه، ص 98.

قلوبهم الطيّات السميكة للكفر والشرك عبر الأجيال لا يقعون في سوء الفهم، ولا يصعب عليهم فهم أن هذه الدعوة هي دعوة رب العالمين وأحكم الحاكمين الذي هو المالك الحقيقي لهذا الكون، له الحكم في كل مكان، وهو قادر على التقليب بقوله "كن" فقط، وهكذا ما بيّنه الفراهي من الموضوعات الأساسية للمجموعة الأخيرة من بين مجموعات السور المقسمة نظمًا، وهو أقرب من روح النظام الكامل للقرآن الكريم.[1]

الشييخ أمين أحسن الإصلاحي شارح وترجمان لفكرة الإمام الفراهي. وقام بتعريف نظريات الفراهي التفسيرية أساسًا بين الأوساط العلمية. وله دور كبير في نشر الأفكار والنظريات. وعرّف الأوساط العلمية بفكرة النظم للإمام، بل أثبت عاملًا بها في تفسيره العظيم "تدبر قرآن" أن هذه ليست فكرة فلسفية فقط، بل هي فكرة تستحق العمل بها، ومع ذلك أن ما يظهر من حقيقة الأمر في ضوء العرض المذكور في السطور الماضية يصعب القول في ضوءه أن الإصلاحي أضاف شيئًا ما إلى أفكار الشيخ الفراهي رحمه الله بالنسبة للنظام الكامل للقرآن الكريم، ومع ذلك أنه حاول حتى الوسع ليبين أفكاره في ضوء إفاداته، ولكن لا يوجد فيه ما يعكس على فكرة الإمام الفراهي رحمه الله كاملًا. ففي هذه الحال لو قلنا: إن فكرة النظام الكامل للقرآن الكريم هي فكرته الأصلية" أو قدّمها بمقابل الإمام الفراهي في أتم صورة لما وافقنا الصواب.

**طبعة الكتاب:** قد اعتنى الشيخ بدر الدين الإصلاحي بهذا الكتاب ونشره في ثوبه الجديد وذكر كلمات في ما يتعلق بجمع هذا الكتاب وترتيبه كما يلي:

فاعلم أنّ هذا الكتاب ليس إلا مجموع من أفكار الإمام الفراهي رحمه الله، ابتكرها لكتابه هذا، دلائل النظام، ولكن لم يتيسر له أن يرتبها، ما عدا عدة فصول توجد في أوائله (1-10) فما زاد على ذلك فهو مما كان مبثوثًا في مخطوطاته. فجمعته أنا كما وجدته ورتبته حسب ما رأيته مناسبًا فإن أصبت فيه فبتوفيق ربي وإن أخطأت فمن

[1] المصدر نفسه، ص 108 (تفصيل موضوعات المجموعة الثالثة).

نفسي، والأستاذ الإمام بريء منه.

وإذ لم يكن أكثر هذا المجموع إلا كالإشارات التي يختزنها المصنفون لمصنفاتهم من غير تفصيل، فلا غرو إن كان فيه شيء من الإجمال والإبهام، فلذلك ينبغي لمن درس هذا الكتاب أن لا يمرّ عليه كالريح العاصف أو البرق الخاطف، بل يقف على كل سطر منه ويتفكر فيه، عسى أن يجده فصلًا مستقلًا.

وكان في وسعي أن أفصّل ما أجمل، وأفسّر ما أبهم، ولكنني أحببت أن أتجنبه كيلا يختلط مع أفكاره فكر آخر. فلم أزد عليه ولم أنقص منه شيئًا بل أبقيته كما وجدته في المخطوطة. فانظروا فيه وتفكروا، فإن في التفكر ترويضًا لعقولنا وتربية لها.

أنا معترف بأنني لم أكن أهلًا لهذا الأمر العظيم ولكني قد اضطررت إليه بالوصية التي أوصاني بها شيخنا المغفور له أختر أحسن الإصلاحي الذي كان تلميذًا رشيدًا للإمام الفراهي رحمه الله وأمينًا لمخطوطاته النادرة. إذ قال لي يومًا في عام قد توفي فيه ما يكون لهذه الأمانات التي قد أودعناها الأستاذ الإمام رحمه الله، وأشار إلى مخطوطاته، فقلت له ماذا تريد؟ فقال أريد أن تطبع كلها من غير تأخير، فقد مضى عليها أكثر من ربع قرن ولم يطبع منها إلا نزر يسير فأجبته لذلك ولكن قبل أن أهيء لها أسباب الطبع، حان له الرحيل وهو ارتحل إلى جوار رحمة ربه الكريم فوقفت بعد ذلك في حيص بيص، لأني كنت رجلًا قليل البضاعة في العلم ومن كان لنا معتمدًا فيه ومستندًا إليه لم يبق فينا. فخشيت هذا الأمر العظيم ورأيت مرارًا أن أطويه على غره، ولكن لم تزل وصيته رحمه الله تضطرني إليه فراجعت فضيلة الأستاذ الجليل أمين أحسن الإصلاحي مستشيرًا في ذلك، وهو ثاني اثنين إذ هما يتأدبان بآداب الإمام الفراهي بمدرسة الإصلاح، وهو المرجع الوحيد بهذا العصر لأفكار الأستاذ الإمام وعلومه القرآنية، فشجعني على الوفاء بما عهد إليّ شيخنا المغفور له، وهو وعدني بكل إعانة احتيج إليها فأرضيت بعد ذلك نفسي بهذا العمل العظيم مستعينًا بالله من ظلمات النفس وغوايات الجهل.

فهذا أول مجموع من أفكاره النادرة القرآنية التي وفقني الله لجمعه وترتيبه وهكذا أجمع كل تأليف له وأنشره واحدًا بعد واحد إن شاء الله تعالى. وبيده التوفيق.

طبع الكتاب بعد جمع وترتيب بدر الدين الإصلاحي من الدائرة الحميدية ومكتبها، مدرسة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، الهند، ط1، 1388هـ/ 1968م،127 صفحة.

ثم طبع ضمن رسائل الإمام الفراهي في علوم القرآن، المجموعة الأولى، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، الهند، ط2، 1411هـ، 1991م.

**ديوان حميد (باللغة الفارسية)**

كان العلامة الفراهي نابغًا في اللغة العربية والفارسية، وكانت كفاءته موهوبة، ولهذا إذا اتجهت قريحته عند أيّ انفعال من الفرح والغم فتتحوّل إحساساته القلبية وانطباعاته إلى الشعر باللغتين، ونشر فيما بعد باسم ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي وديوان حميد فالكتاب الأول هو مجموعة من أشعاره العربية، والكتاب الثاني مجموعة من أشعاره الفارسية ومنظوماته، وإن كانا موجزين، لكن يعرف بهما أنّ العلامة كان شاعرًا بليغًا وقادرًا باللغتين، وأشعاره العربية سلسلة صافية مثل أشعار البحتري، وأما كلامه بالفارسية فيظهر فيه لون آخر، ربما لون حافظ وربما لون صائب وبيدل.

وقد كتب الشيخ بدر الدين الإصلاحي المقدمة على هاتين المجموعتين العربية والفارسية على الترتيب، تكلّم فيها عن خلفيات شعر العلامة كلامًا مفيدًا.

كان الإمام الفراهي شاعرًا فطريًا وأديبًا موهوبًا، وكما كان شاعرًا مفلقًا للغة الفارسية وكان منذ طفولته ميالًا إلى الشعر والأدب، فبعد تعلم اللغة الفارسية قرض قصيدة بالفارسية على منوال شعراء الفارسية الأقدمين فبارى فيها شاعر الفارسية الطائر الصيت "خاقاني الشرواني" المتوفى سنة 595هـ ولم يناهز عمره السنة السادسة عشر في ذلك الحين.[1] وسرعان ما حصلت له بذكائه وتوقد ذهنه ملكة قوية في اللغة الفارسية،

[1] مختصر حيات حميد، ص 3-4

وامتلك ناصية البيان، ولم تمض مدة قصيرة حتى أخذ يجاري فحول شعراء الفارسية.

قد استعرض الميرزا إحسان أحمد مساهمة الإمام الفراهي في الشعر الفارسي في مقالته القيمة "الشعر الفارسي للإمام عبد الحميد الفراهي". قام بتعريبه د. أورنك زيب الأعظمي ونشرت في عدد مجلة الهند الخاص بالإمام الفراهي (المجلد الثالث).

الطبعات: قد اعتنى بجمع ديوان الإمام الفراهي الوجيز وطبعه أخوه الحاج رشيد الدين الفراهي، ناظر مدرسة الإصلاح، أول مرة من مطبعة شمسي بحيدرآباد في سنة1321هـ/ 1903م وكان الإمام الفراهي حيًا. ويبدو من دراسة هذا الديوان أنّ الإمام كان قديرًا بكتابة الغزلية والقصيدة والمثنوي وغيرها من أصناف الشعر الفارسي.

في مقالة: وعُيّنَ مدرّسًا في مدرسة الإسلام بكراتشي (حاليًا في باكستان). وهي من أقدم المدارس الإنكليزية للمسلمين ولها شهرة كبيرة في مدينة السند فمكث بها الإمام حتى 1324هـ/1906م وخلال قيامه (1321هـ/1903م) بهذه المدرسة طبع ديوانه الفارسي.

ثم نشره بدر الدين الإصلاحي عام 1967م بعنوان "نوائ فهلوي" من الدائرة الحميدية، مدرسة الاصلاح، سرائي مير، أعظم كره، تحتوي على قصائد وغزليات لم تنشر في هذا الديوان كما أنها تحتوي على ما نشر في مجموعة شعره القديمة، وقدّم له الشيخ بدر الدين الإصلاحي. هذه المقدمة دليل حيّ على براعته في اللغة الفارسية، وكما كتب الأستاذ نبي هادي من قسم اللغة الفارسية وآدابها بجامعة علي كره الإسلامية مقدمة للديوان. هذه المقدمة تدل دلالة خبير على روعة شعر الفراهي. وأما القصائد والغزليات والرباعيات التي قالها الإمام الفراهي فهي نماذج رائعة للأدب الفارسي المنظوم ومملوءة بالحكم والأمثال والمحبة الربانية الخالدة.[1]

هذا الديوان يشتمل على 113 صفحة.

[1] مقالات إحسان، ص 337-354

## ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي (باللغة العربية)

إنّ العلامة عبد الحميد الفراهي كان من أبرز شعراء العربية في الهند، الذين لهم باع طويل في اللغة العربية وقدرة موهوبة على قرض الأبيات والقصائد. كان العلامة شاعرًا بليغًا وقادرًا، وأشعاره العربية سلسلة صافية مثل أشعار البحتري، ولكنها مليئة بالتدفق والانفعال فيها، ولايُرى أثر العجمة فيها، وأكثر أشعاره متعلقة بحرب بلقان وطرابلس التي انهزم فيها الترك انهزامًا شديدًا، وأما تأثير الأشعار فيبدو أنّ الشاعر نشر فلذة كبده وقطعة قيّمة من قلبه على الصفحات.

ترك الفراهي ديوان شعر لطيف في العربية يشتمل على قصائد غراء زاخرة بذكر الدعاء والرثاء والتذكير والتهنئة والحكمة والأخلاق والوقائع والأحداث بأسلوب رائع يتسم بعذوبة البيان ومتانة التركيب وسهولة العبارة وقلة التكلف، وهو خير شاهد على كونه أديبًا بارزًا وشاعرًا قديرًا في هذه اللغة، وشعره جيد السبك، رائع الأسلوب بديع الخيال، قوي المنطق، يمتاز بقلة الحشو وجزالة اللفظ ورشاقة الأسلوب.

ولا يختلف اثنان في أنّ قصائد الفراهي تتسم بالسهولة والبساطة إلى حد أنه لمن الصعب أن يأتي أحد بمثلها ولا يتأتى هذا النوع من الشعر إلا بعد التمكن من اللغة العربية وألفاظها وأساليبها تمكّنًا كاملًا، وكل من يلقي نظرة على ديوانه يلاحظ فيه هذه الميزة.

ولا شك في أنّ ديوان الفراهي كله زاخر بالقصائد والأبيات التي تحمل المعاني والمطالب القرآنية وتقدم الاحكام والتعليمات الإلهية في طياتها، لأن شاعرية الفراهي، كما قلنا من قبل، ليست شاعرية مهنية جوفاء، بل لها أغراض سامية وأهداف نبيلة يعرفها أهل العلم وأصحاب الفن بطريق أحسن.

ومع الأسف الشديد نكتب هنا أنّ قدرًا ملحوظًا من كلامه العربي قد ضاع ولا يوجد له أي أثر الآن، وقد أشار جامع ديوان الفراهي إلى هذا الجانب قائلًا:

"قد أخبرنا بعض الثقات أنّ له قصائد لم تصل إليها أيدينا، فيخطر ببالنا أن كان له شيء مما عداها، فهو إما أن يكون قد تلاعبت به أيدي الأيام وأفنته وإما أن يكون موجودًا عند أخلائه أو تلامذته، فإن كان عندهم شيء منها، فالرجاء منهم أن يتفضلوا به علينا".[1]

حينما نقوم بدراسة ديوان الفراهي العربي فيبدو تارة كمعلم الحكمة والأخلاق وتارة أخرى أنه يبرز كشاعر مفسّر وملهم يقدم التعليمات الإلهية والتعابير القرآنية في شعره، وتارة أنه يظهر في أبياته كمسلم حساس ومؤمن صادق يلتهب غيرة وحماسة وحمية للإسلام والمسلمين، يفيض تألمًا وحرقة على أوضاع المسلمين المشجية المبكية للقلوب دمًا لا دمعًا، فيتفطر قلبه على ما يعانيه المسلمون من المصائب والمظالم في مختلف أصقاع العالم، وجاشت مشاعره وخواطره إلى حد أنها ظهرت في صورة الأشعار التي تمس القلوب وتهز الشعور وتثير العواطف والوجدان.

وكما يظهر الفرق بين ديوانيه العربي والفارسي أن ديوانه الفارسي يتكون من كل أنواع الشعر، إذ أنّ ديوانه العربي لا توجد فيها هذه الصفة.

وكما يوجد جزء كبير من ديوانه يشتمل على تعليم الحكمة والموعظة الحسنة والاستعاذة بالله والتذكير بالموت.

رتّب الشيخ بدر الدين الإصلاحي ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي ونشره من الدائرة الحميدية سنة 1387هـ أول مرة وكتب عليه مقدمة وجيزة كما يلي:

"هذه مجموعة من القصائد التي قرضها أستاذنا الإمام المعلّم عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى. قد جمعتها من مخطوطاته وليس الغرض منها إلا أنْ تكون به مصونة عن الضياع وتبقى لقائلها ذكرى، وما توفيقي إلا بالله.

[1] المصدر السابق، ص7

إنّ أستاذنا الإمام كان أديبًا بليغًا وشاعرًا حكيمًا كما يدلّ عليه هذا المجموع، ولكنه مع ذلك لم يقرض إلا قليلًا، وذلك لأنه قد انقطع، بحول الله وتوفيقه، من بدء شبابه إلى النظر في القرآن والتدبّر فيه، حتى وجد منه ما تهدء به العواطف وتطمئنّ به القلوب وتسكن إليه الأرواح، فبه سكنت فيه عوامل الشعر وهدأت، لكنه مع هذا إذ كان في نفسه شاعرًا مطبوعًا، فإذا جاشت فيه عاطفة شديدة وهجمت عليه فهو إذن يقرض، وهو إذ كان ماهرًا باللسان الذي أنزل فيه القرآن وبارعًا فيه، فيقرض على منوال الجاهليّين وينشد على سبك فصحائهم.

إنّ شعره كان جيّد السبك، رائق الأسلوب، بديع الخيال، قويّ المنطق، يمتاز بقليل الحشو، إنك تجد في شعره ما لا تجد في غيره من جزالة اللفظ ورشاقة الأسلوب.

قد جاء نظمه سهلًا خفيفًا، يطمع السامع أنْ يأتي بمثله لكنه إذا حاول، عجز، إنه قد أتى بقريضه للغة العربية دقة في التركيب، رقة في الأداء، جمالًا في الأسلوب، حسنًا في الخيال، رونقًا في البيان، وطلاوة في المعنى، وإنّ هذه كلها تدلّ على أنه كان من الشعراء المطبوعين المجيدين الذين لا يقرضون إلا بفيض قريحتهم ووحي فطرتهم.

إنّ كثيرًا من هذا المجموع يتعلّق بالحروب التي تلظت نارها بين الطليان والتركية وبما شبّت من سعيرها على طرابلس والبلقان فلا شكّ أنها كانت داهية عظيمة، حلّت بالعالم الإسلامي حتى لم تبق منه أرض إلا وقد نالت من لهيبها. فجزع هو على هذه الملحمة الكبرى وجاش بها صدره حتى قذف على لسانه ما اهتاج للقول. فبكى وأبكى ورثى قتلى طرابلس بأبلغ الرثاء.

وأما قليلًا منه ما يتعلّق بالحكمة والموعظة الحسنة فقد نبّه بذلك الإنسان من غفلته وحذّره من تقلب الزمان وفتنته وأرشده إلى نور الإيمان وحكمته. وإنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قد جمعنا في هذا المجموع ما وجدناه في مخطوطاته، ولكن أخبرنا بعض الثقات أنّ له

قصائد لم تصل إليها أيدينا، فيخطر ببالنا أنْ كان له شيء مما عداها فهو إما أنْ يكون قد تلاعبت به أيدي الأيام وأفنته وإما أنْ يكون موجودًا عند أخلّائه أو تلامذته، فإنْ كان عندهم شيء منها فالرجاء منهم أنْ يتفضّلوا به علينا".[1]

هذه المجموعة موجزة إلى حد يصعب لنا أنْ نسمّيه "ديوانًا" ولكن كل ما توفر لنا نشكر الله عليه وليقرأ مادحوه كأنه حرز علقوه عن الفراهي. ليت ورثته حاولوا هذا من قبل لنرجونّ أن يزداد. يرى جامعه، وهو صادق في رأيه هذا، أنّ للفراهي قصائد غير هذه مما لم يقدر على حصولها، ولا يستبعد أن تلامذة ومحبي الفراهي سيملكون أشياء غير هذه فيضمها إليها لو سمحوه بها. ويدلّ على نقصها أنها تفقد المرثية التي كتبها الفراهي على وفاة أستاذه الشفوق العلامة فيض الحسن السهارنفوري والتي أشار إليها الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ذاته فيقول الشيخ أمين متحدثًا عن علاقته مع أستاذه: "والمرثية التي كتبها الإمام الفراهي على وفاته كل كلمتها مليئة بالحزن والوجد".[2] يبدو من هذه الفقرة أنّ هذه المرثية كانت متداولة ولم تكن نادرًا وجودها آنذاك، وكذا يبدو من ذكر الشيخ أمين هذا أنّ هذه المرثية ستكون بديعة من بين قصائد الفراهي الأخرى.

وكذا نرى أنّ قدرًا كبيرًا من كلامه قد ذهب به الدهر كما يحدث مع كلّ شاعر. وفوق ذلك أنّ الفراهي ذاته لم يكن يعتني بشعره، وأنّ لغته كانت عربية لا نجد في الهند من يلتف إليها أو يفهمها إلا قليلًا نادرًا.

وكذا لم يكن ينشد مثل هذا الكلام في الأمسيات الشعرية ولا كان ينشر في مجلات الهند. ومؤلفات الفراهي معظمها بالعربية، ثم بالفارسية وأقلّها بالأردوية، ونعرف جيدًا ما حال قراء العربية ومدركيها في شبه القارة الهندية والباكستانية ففي هذه

[1] نشرته الدائرة الحميدية في 1387هـ

[2] مجموعه تفاسير فراهي (بالأردوية)، ص 23

الحالة السيئة الاهتمام بجمع وصيانة كلام الفراهي العربي شيء كأنه لا مساس.

هذا الديوان العربي يشتمل على خمس عشرة قصيدة رائعة بليغة جميلة لأغراض متعددة، منها الدعاء والرثاء والتذكير والتهنئة والحكمة والموعظة واستخدام العقل فتوجد القصائد عن التهاني وتعاليم الإسلام المواعظ والنصائح والحروب التي دارت بين مسلمي بلقان وأعدائهم الألدّاء، وهجوم إيطاليا على طرابلس الغرب في ليبيا عام 1911م، ومناسبات متعددة اخرى وتدلّ على قدرة الفراهي على قرض القصائد بمختلف المناسبات وكما تدلّ على علاقته الوطيدة مع العرب وحماسه لهم، ويستهل بالدعاء والتضرع إلى الله والاستعاذة به من جميع وساوس النفس ومكايد الشيطان وفتنة الأموال والأولاد، وهو بمثابة إكليل لديوانه.

إليكم عناوين قصائد لديوان بالترتيب:

"في الاستعاذة"، و"في غفلة الإنسان"، و"في تقلب الأيام بالناس"، و"في نور الحكمة والإيمان"، و"في تطاول الطليان على طرابلس"، و "في ذكر هجوم الطليان وظلمهم"، و" في كرة العرب على الطليان"، و" في عتاب العرب الترك على الصلح بالطليان"، و" في ثوران الفتنة البلقانية"و"في ذكر أشراط الساعة"، و"في ذكر الملحمة الكبرى"و"في ذكرى الأيام"، و" في التهنئة للعلامة شبلي النعماني" (حين تلقّبه بشمس العلماء)، و"في الرجوع إلى العقل"، و"في التحذير عن الدنيا".يسهل بها تقدير نوعية أبياته ولونها المتميز و في ضوء هذه العناوين.

هذا جدير بالذكر هنا أنّ الشيخ السنوسي حين سمع قصيدته المشهورة عن حادثة طرابلس الدامية دمعت عيناه. وبسبب أشياء مثلها كان تحت مراقبة وكالة الاستخبارات الإنجليزية لفترة من الوقت.

والجدير بالذكر أيضًا أنّ د. أورنغ زيب الأعظمي قد أضاف إلى ديوان الإمام الفراهي العربي قصيدتين: "في التهنئة للعلامة شبلي النعماني"، و هي قصيدة أخرى،

و"في الفخر بهدية أستاذه".

وبالجملة يدور ديوانه حول الإنسان فالترحم على ألمه والسرور بصلاحه وإرشاده إلى ما فيه الخير وتنبيهه عما يغضب الله الحكيم العزيز. والأبيات والقصائد الموجودة في ديوانه المطبوع تكفي لوضعه في قائمة كبار شعراء العربية الهنود لبعض ميزاته الشعرية الخاصة. ويقول الشيخ ضياء الدين الإصلاحي مستعرضًا لديوانه العربي:

"كان الإمام الفراهي عالمًا كبيرًا للقرآن فالشعر لم يكن، بالنسبة له، مما يفتخر به ولكنه كان مطبوعًا على الشعر فعندما تأثر بحدث ما فينطلق لسانه بالشعر. كان الفراهي يقرض الشعر في كل من الأردوية والفارسية والعربية --- معظم محتويات شعره العربي ما وقع في بلقان وطرابلس من أحداث الحرب المدمية، وهذا يدل على حميته الدينية. ومنه ما يشتمل على الحكمة والموعظة فقد نبّه الفراهي البشر عن تقلب الأيام وفناء الدنيا ---".

أثنى العرب على شعر الإمام الفراهي مثل العلامة تقي الدين الهلالي المراكشي (ذكر فراهي، ص 33-34)، والدكتور أحمد حسن فرحات (المصدر نفسه، ص 788)، والدكتور جلال السعيد الحفناوي، (مجلة "ثقافة الهند"، 55/2/55-56) ونكتفي على ذكر ما قال العلامة تقي الدين الهلالي المراكشي عن شعر الإمام الفراهي فهو يقول في مذكراته: "وللشيخ المذكور ديوان شعر، سمعته منه، بليغ مؤثر في استنهاض همم المسلمين، وبثّ الحياة في قلوبهم، وذكر عداء الإفرنج لهم، وذكر حرب طرابلس، والحرب الكبرى....."."[1]

**أدبية ديوان الإمام الفراهي:** عندما نرجع النظر إلى ديوان الفراهي نجده متصفًا بكل ما نجده من أوصاف الشعر الرائع ففيه معالي الأفكار التي يليها اختيار المفردات والتعابير والأمثال وبدائع الحكمة متحليًا بالبلاغة ودالًا على شغف قائله بالقرآن

[1] مجلة الضياء، عدد رجب 1352هـ.

وتخلقه بأخلاقه وامتثاله بإرشاداته. وفيما يلي لمحات عن هذه الجوانب كلها:

أولًا: معالي الأفكار: الشيء البارز الذي نراه حين دراسة هذه القصائد هو اشتمالها على معالي الأفكار فنراها توصلنا بالخالق ومخلوقه، وتدلّنا على ما يظهر وما يكمن من العبر والأسرار في الكون، وتبشّرنا بحسن العقبى وسوء العذاب فكأنها تشرح محتوى القرآن الكريم. يقول، مثلًا، وهو يرشدنا إلى ما يضرّنا في هذه الدنيا وعسى أن تفسد بها آخرتنا:

أمَا للناس أحلامُ أ هُمْ في السكرِ نوّام
وهم وُرَّادُ حَوضِ المو تِ أصرامٌ فأصرام
فآباءٌ وأبناءٌ وأخوالٌ وأعمـام
وإخوانٌ وخُلّانٌ وأخدانٌ وأحلام
فخانتهم قراباتٌ وأنسابٌ وأرحام
وريبُ الدهر يبريهم وتُوْهِيْ العظمَ أسقام
فحبلُ الموتِ ممدودٌ وحبلُ العيشِ أرمام
وهم باللهو واللذا تِ مشغولونَ ما داموا
بجمع الوفرِ منهومو نَ والآثامُ هيّام
لهم بالبغي تهمامٌ وبالفحشاءِ إبرام
وهم لا بدّ محشورو نِ يومًا وهو أيّام
عن النعماءِ مسؤولو نَ والسائلُ علّام
سؤالًا فيه إيلامٌ وإلزامٌ وإفحام
وتفجيعٌ وتقريعٌ وتخضيعٌ وإرغام

هذه المنظومة تنبّه الناس عن ملذات الدنيا وتعدهم بما يواجهون يوم القيامة حينما يقومون أمام الرب الديّان وحينئذ لا يجدون مبرّرًا لما قدّموه.

وفي الديوان توجد مقطوعة أخرى ينبّهنا الشاعر فيها عن ملذات الدنيا.

وثانيًا: اختيار الكلمات والتعابير والأمثال: ونجد في شعر الفراهي اختيار الكلمات والتعابير على مستوى عالٍ كما نجد فيه ذكرًا كثيرًا للأمثال ونكتفي على بعض أمثلة فالإمام الفراهي يقول متحدثًا عن فجأة الموت وقطع علائق الحياة بغتة:

مَا بَالُ أَتْرَابٍ لَنَا قَطَعَوْا عَنَّا حِبَالَ الوُدِّ إِذْ سَارُوْا

فاستخدام كلمة "أتراب" بهذه المناسبة أفصح وأبلغ لأنّ الشاعر يودّ أن ينبّه أنّ الموت لا يأتي فقط في الشيخوخة بل هو يأتي أحدًا وهو طفل أو شابّ وحتى لا يفرّق بين صديق وصديق، وحبيب وحبيب بل يأخذ صديقًا ويترك صديقًا آخر وإنه كناقة عمياء وطأت من وقعت عليه أقدامها وتركت من أفلت منها. فاستخدام كلمة "أتراب" تدل على جوانب عديدة من مفاجأة الموت.

يقول الإمام الفراهي:

دَهَمَتْهُمُ الرَّوْمُ الفَوَا تِكُ بِالمَرَاكِبِ وَالمَدَافِعْ
جَاءُوْا عَلَى صِرْدٍ بِجَمْـ ـعِهِمِ فَضَاقَ بِنَا المَفَازِعْ
دَخَلُوْا المَدِيْنَةَ يَقْتُلُوْ نَ بِهَا المَشَائِخَ وَالرَّعَارِعْ

فتعبير "ضاق بهم المفازع" تعبير تأثر فيه الإمام الفراهي بقوله تعالى "ضاقت الأرض بما رحبت" فعندما يحيط العدو من كل جانب بالقوم الذي يهجم عليه ولا يترك له مكانًا للفرار منه فالتعبير الأنسب عن هذه الحالة هو ما استخدمه الفراهي والفرق بين "ضاقت الأرض بما رحبت" و"ضاقت بهم المفازع" أنه في التعبير الأول لا يجد المرء

الذي يبحث عن الملجأ أحدًا يعينه ضد المقابل بينما في التعبير الثاني يودّ المرء الفرار ولكن لا يجد مكانًا يفرّ من خلاله فتعبير الفراهي كما هو مأخوذ من القرآن فكذلك مناسب للموقع.

ويقول معبّرًا عن حالة الخوف:

كَيْفَ القَرَارُ وَحَوْلَنَا الأَعْدَاءُ تَرْتَقِبُ الخِلْسْ
مِنْ كُلِّ ذِئْبٍ إِنْ رَأى مِنْ غِرَّةٍ فِيْنَا اخْتَلَسْ
أَوْ أَفْعُوَانٍ مُطْرِقٍ إِنْ لَمْ نُبَادِرْه نَهَسْ

فإذا كان المرء محاطًا به من جانب من عدو أبناء جنسه يحبّ أن يغلبه ومن جانب آخر من حيوان وحشي يحاول أن يفترسه ومن جانب ثالث من عدو تحت قدميه ألا وهو الحية فكأن المرء يغشاه الخوف من كل جانب. فاستخدام العدو والذئب والحية للتعبير عن هذه الحالة استخدام أنسب وأولى.

ولنا نماذج بليغة حيث ضرب الفراهي أمثالًا جميلة بمختلف المناسبات فلنقرأ ما يلي من البيتين:

ما الترك إلا مثل كفْـ ـفِ الباسل العاري الأشاجع
والعرب مثل أصابع لا كفَّ إلا بالأصابع

وكذا قوله التالي:

والكلب يجهل أنّ بعـ ـض العظم ينشب في الحناجر

وإليكم مثل آخر:

أ وضعتِ نفسكِ بين أقـ ـوام كرام في المفاخر

ولأنتِ في الدول العظا م كما من الأيدي الخناصر

وليس هذا فحسب بل يدلّنا الفراهي على مكامن الحكم والأمثال فيقول عن القرآن الذي كله حكمة:

كم حكمةٍ فيه وكم مثلٍ للنصح والتفكيرِ جمّاع

وكذا نجد عددًا ملموسًا من الأمثال في سير الأسلاف وحوزة الزمن الماضي فيقول الفراهي مشيرًا إلى هذا:

فيمن مَضَى وقد قَضَىَ نحبَه للمرْءِ تفكيرٌ وإنذار

وثالثًا: بدائع الحكمة: العرب كانوا مولعين بالحكم والمثل فنجد كلامهم، منثورًا كان أو منظومًا، مليئًا بالحكم والأمثال إلا أن الشعر قد غلب عليه هذا اللون فنجد في ديوان كل شاعر عربي ما يدلّ على المثل أو الحكمة حتى قد اشتهر به بعض منهم كمثل زهير وأبي تمام والمتنبي. وأما شعر الإمام الفراهي العربي فنجد فيه أيضًا ما يدلّ على بدائع ومحاسن الأمثال فمثلًا شعره التالي:

العيش إحلاء وإمرار والدهر إقبال وإدبار

وكذا قوله التالي:

فالموت خير من حيا ة تحتوي ذلًا وشينا

هذا مثل جميل للموت حرًا بدل أن يحيى رقيقًا.

ورابعًا: جوانب بلاغية أخرى لشعر الفراهي: في شعر الإمام الفراهي جوانب بلاغية عديدة ولو قمنا ببيانها وتوضيحها لطال المقال فقد بيّنّا شطرًا منها في اختيار الكلمات والتعابير والأمثال فلا نودّ إعادته وهنا نحبّ أن نستدل بأبيات أخرى لإلقاء الضوء على بلاغة شعره. نبدأ ببيت للفراهي جاء فيه التذييل بصورة

جميلة فيقول الإمام الفراهي:

وَاسْتَجْمِعُوْا عُدَدًا فَمَا تَجْرِيْ السَّفِيْنُ عَلَى اليُبُسْ

فـ"فما تجري السفين على اليبس" تذييل.

ولنقرأ منظومة للفراهي بعنوان "غفلة الإنسان" حيث يختار أسلوب السؤال فيطرحه على الناس النائمين عن الآخرة بدنياهم الفتّانة الخدّاعة ثم يجرّهم شيئًا فشيئًا إلى الموضوع فينبّههم عن الغفلة ويدعوهم للتقوى. يقول الفراهي:

أَمَا لِلنَّاسِ أَحْلَامُ أَ هُمْ فِي السكرِ نُوَّامُ
وَهُمْ وُرَّادُ حَوْضِ المَوْ تِ أَصْرَامٌ فأَصْرَامُ
فآبَاءٌ وَأَبْنَاءٌ وَأَخْوَالٌ وَأَعْمَامُ
وَإِخْوَانٌ وَخُلّانٌ وَأَخْدَانٌ وأَحْلَامُ
نَخَانَتْهُمْ قَرَابَاتٌ وَأَنْسَابٌ وَأَرْحَامُ
وَرَيْبُ الدَّهْرِ يَبْرِيْهِمْ وَتُوْهِيْ العَظْمَ أَسْقَامُ
فَجَلُ المَوْتِ مَمْدُوْدٌ وَحَبْلُ العَيْشِ أَرْمَامُ
وَهُمْ بِاللَّهْوِ وَاللَّذَّا تِ مَشْغُوْلُوْنَ مَا دَامُوْا
بِجَمْعِ الوَفْرِ مَنْهُوْمُوْ نَ وَالآثامُ هُيَّامُ
لَهُمْ بَالبَغْيِ تَهْمَامٌ وَبِالفَحْشَاءِ إِبْرَامُ
وَهُمْ لَا بُدَّ مَحْشُوْرُوْ نَ يَوْمًا وَهُوَ أَيَّامُ
عَنِ النَّعْمَاءِ مَسْؤُوْلُوْ نَ وَالسَّائِلُ عَلَّامُ

| | | | |
|---|---|---|---|
| سُؤَالًا | فِيْهِ | إيْلَامٌ | وَإلْزَامٌ | وَإِحْفَامُ |
| وَتَفْجَيْعٌ | وَتَقْرِيْعٌ | وَتَخْضِيْعٌ | وَإِرْغَامُ | |

فانظروا كيف نبّههم على غفلتهم وعواقبها في اليوم الآخر. بهذا سنذكر أبا العتاهية الذي يعرف بأشعاره في الزهد ولكن شاعرنا يمتاز عنه بمهارته في القرآن الكريم وأحاديث رسوله عليه أفضل الصلوات والتسليم.

وليس هذا فحسب بل لو نظرنا فيها مرة أخرى لوجدناها مستخدمة ما استخدمه الشعراء القدامى ولكن بأسلوب يجعله فوقهم أو أبلغ منهم فالتعبير عن ورود الحوض تعبير استخدمته الخنساء فقالت مخاطبة أخاها صخرًا:

يا صخر، قد كنت بدرًا يستضاء به فقد ثوى، يوم متَّ، المجد والجود
فاليوم أمسيت لا يرجوك ذو أمل لمّا هلكت، وحوض الموت مورود[1]

والآن اقرء ما كتبه الفراهي، وأما إضافة "أصرام" وما بعدها من الكلمات فقد وجّهها الفراهي وجهة بلاغية أخرى لا نجدها في شعر الخنساء.

وخامسًا: شغف الفراهي بالقرآن الكريم: والشيء الذي يبرز لكل من يقرأ شعر الفراهي أنه يأخذ الكلمات والتعابير والأمثال والحكم والجمل والأساليب من القرآن الكريم كأن الشاعر قد استقى من مناهل القرآن لمدة طويلة وهذه هي الحقيقة فقد انقطع الفراهي إلى التدبر في القرآن لجزء كبير من حياته وتوفي وهو كان يتلو هذا الكتاب العزيز. وفيما يلي طرف من أبياته التي تم فيها استخدام مفردات أو تعابير أو حكم أو جمل أو أساليب للقرآن الكريم:

قال الفراهي متعوذًا من أشياء بما فيها طاغوت:

[1] ديوانها، ص 38-39

أَعُوْذُ بِاللهِ العَظِيْمِ الإِفْضَالِ الغَافِرِ الذَّنْبِ الشَّدِيْدِ الإِنْكَالِ
مِنْ هَمَزَاتِ النَّفْسِ ذَاتِ الإِيْغَالِ وَنَفَثَاتِ كُلِّ بَاغٍ مُحْتَالِ
وَفِتْنَةِ الغَاوِيْ المَسِيْحِ الدَّجَّالِ وَكُلِّ طَاغُوْتٍ إِمَامِ الجُهَّالِ

وعادة ما نجد لون كلام الفراهي كذلك، ولقد صدق جامع ديوانه الشيخ بدر الدين الإصلاحي حيث قال: "وهو إذ كان ماهرًا باللسان الذي أنزل فيه القرآن وبارعًا فيه، فيقرض على منوال الجاهليّين وينشد على سبك فصحائهم".[1] فنجد في ديوان الفراهي عددًا كبيرًا من الشعر يسمع فيه بالصراحة صدى آيات القرآن والحديث النبوي فتبدو أنها كلها أو جزؤها مأخوذ من الآيات القرآنية جزئيًا أو كليًا. وأما أثر آيات القرآن على ديوانه فلا نجد بيتًا فيه إلا وهو متأثر بها.

وسادسًا: مقارنة بينه وبين الشعراء العرب: ولو أنّ هذا ليس من مباحث هذه المقالة ولكنّا نودّ أن نشير إلى فضل الفراهي في مجال الشعر كذلك حيث نجده مجيدًا وفي بعض الأحيان متفوقًا على الآخرين ولهذا نقارنه مع الآخرين من شعراء العرب فلنقرأ أولًا كيف تعبّر الخنساء عن الهم والحزن الذي لحقها إثر موت أخيها فهي تقول:

يا عين جودي بالدموع المستهلّات السوافح
فيضًا كما فاضت غروب المترعات من النواضح
وابكي لصخر إذ ثوى بين الضريحة والصفائح
رمسًا لدى جدث تذيع بتربه هوج النوافع
السيد المجحجاح وابن السادة الشم المجاجح
الحامل الثقل المهم من الملمات الفوادح

[1] المصدر نفسه (كلمة الجامع)

الجابر العظم الكسير من المهاصر والممانح
الواهب المئة الهجان من الخناذيذ السوابح
الغافر الذنب العظيم لذي القرابة والممالح
بتعمد منه وحلم حين يبغي الحلم راجح
ذاك الذي كنا به نشفي المراض من الجوانح
ويردّ بادرة العدو ونخوة الشنف المكاشح
فأصابنا ريب الزمان فنالنا منه بناطح
فكأنما أم الزمان نحورنا بمدى الذبائح
فنساؤنا يندبن نوحًا بعد هادية النوائح
يحنّ بعد كرى العيون حنين والهة قوامح
شعثت شواحب لا ينين إذا ونى ليل النوائح
يندبن فقد أخي الندى والخير والشيم الصوالح
والجود والأيدي الطوال المستفيضات السوامح
فالآن نحن ومن سوانا مثل أسنان القوارح[1]

بعد قراءة هذه القصيدة لنقرأ ما يلي من قصيدة الإمام الفراهي:

يَا عَيْنِ بَكِّيْ بِالهَوَامِعْ لَا تَرْقَأَنَّ لَكِ المَدَامِعْ
قَتْلَى طَرَابُلَسَ الذِيْنَ تَطَحْطَحَتْ بِهِمِ القَوَارِعْ
نَبْكِيْ عَلَى إخْوَانِنا أهْلِ المَكَارِمِ وَالدَّسَائِعْ

[1] ديوانها، ص 25-27

دَهَمَتْهُمُ الرُّوْمُ الفَوَا تِكُ بِالمَرَاكِبِ وَالمَدَافِعْ
جَاءُوْا عَلَى صِرْدٍ بِجَمْـ ـعِهِمِ فَضَاقَ بِنَا المَفَازِعْ
دَخَلُوْا المَدِيْنَةَ يَقْتُلُوْ نَ بِهَا المَشَائِخَ وَالرَّعَارِعْ
قَتَلُوْا المَرَاضِعَ فِيْ المَضَا جِعْ وَالضَّوَارِعَ فِيْ الشَّوَارِعْ
وَعَلَوْا بِطَيَّارَاتِهِمْ يَتَحَسَّسُوْنَ لَنَا المَوَاقِعْ
صَارَتْ تُحَلِّقُ فَوْقَنَا مِثْلَ الغَرَانِيْقِ الطَّوَالِعْ
يَرْمُوْنَ مِنْهَا بِالكِرِيـ ـنِ تَمُجُّ بِالزَهْرِ القَوَارِعْ
لِيُبَدِّدُوْا أفْرَاسَنَا وَيُحَرِّقُوْا مِنَّا الوَشَائِعْ
لَا دِيْنَ عِنْدَهُمُ وَلَا حِلْمٌ عَنِ العُدْوَانِ وَازِعْ
يُبْدُوْنَ نَصْرَانِيَّةً زُوْرًا وَقَدْ رَفَضُوْا الشَّرَائِعْ
بَلْ يَشْمَئِزَّ الكُفْرُ مِمَّا يَرْكَبُوْنَ مِنَ الشَّنَائِعْ
البَغْيُ مِنْ أخْلَاقِهِمْ وَالغَدْرُ سِيْطَ مِنَ الطَّبَائِعْ
غُرُّوْا بِأنَّ البُعْدَ بَيْنَ العَرْبِ وَالأتْرَاكِ شَاسِعْ
وَبَأنَّ بَيْنَ قُلُوْبِنَا صَدْعًا مِنَ الأضْغَانِ وَاسِعْ
يَا ضَلَّةً لَمْ يَعْلَمُوْا أنَّ الخِلَافَةَ خَيْرُ جَامِعْ
فَلَنَبْذَلَنَّ لَهَا النُّفُوْ سَ وَدُوْنَ حَوْزَتِهَا نُدَافِعْ
مَا التَّرْكُ إلَّا مِثْلُ كَفْـ ـفِ البَّاسِلِ العَارِيْ الأشَاجِعْ
وَالعَرْبَ مِثْلُ أصَابِعَ لَا كَفَّ إلَّا بِالأصَابِعْ

فنجد أن قصيدة الفراهي لها كلمات فصيحة وتعابير جميلة وهدف عالٍ وفيها أمثال وحكم.

ولنقرأ قصيدة أخرى للخنساء أيضًا:

يا عين ابكي فارسًا حسن الطعان على الفرس
ذا مرة ومهابة بينا نؤمله اختلس
بينا نراه باديًا يحمي كتيبته شرس
كالليث خفّ لغيله يحمي فريسته شكس
يذر الكمي مجدلًا ترب المناخر منقعس
خضب السنان بطعنة فالنفس يحفزها النفس
فالطبير بين مراودٍ يدنو وآخر منتهس
يعم الفتى عند الوغى حين التصايح في الغلس
فلأبكينك سيدًا فصل الخطاب إذا التبس
من ذا يقوم مقامه بعد ابن أمي إذ رمس
أو من يعود بحلمه عند التنازع في الشكس
غيث العشيرة كلها الغائرين ومن جلس[1]

بعد قراءة هذه القصيدة لنقرأ ما يلي من قصيدة الإمام الفراهي:

كَيْفَ القَرَارُ وَقَدْ نُكِسْ أَعْلَامُنَا بِطَرَابُلُسْ
كَيْفَ القَرَارُ وَحَوْلَنَا الأَعْدَاءُ تَرْتَقِبُ الخُلُسْ
مِنْ كُلِّ ذِئْبٍ إِنْ رَأَى مِنْ غِرَّةٍ فِينَا اخْتَلَسْ
أَوْ أَفْعُوَانٍ مُطْرِقٍ إِنْ لَمْ نُبَادِرْه نَهَسْ

[1] ديوانها، ص 73

نَبْكِيْ عَلَى إِخْوَانِنَا بَيْنَ القَتِيْلِ وَمَنْ حُبِسْ
كَمْ مِنْ تَقِيٍّ طَاهِرٍ فِيْهِمْ وَنِحْرِيْرٍ نَدِسْ
نَبْكِيْ لِرَبَّاتِ الخُدُوْ رِ شَرَقْنَ بِالمَاءِ السَّلِسْ
جَرَتِ الحُتُوْفُ عَلَى الأُلُوْ فِ مِنَ الزُحُوْفِ وَمَنْ جَلَسْ
يَا أُمَّةَ الإِسْلَامِ يَا أَبْنَاءَ آبَاءٍ شُمُسْ
هَلْ تَنْعَسُوْنَ وَخَصْمُكُمْ عَنْ كَيْدِه مَاإِنْ نَعِسْ
هَلْ تَرْتَضُوْنَ بِذُلَّةٍ وَالأَمْرُ لَيْسَ بِمُلْتَبِسْ
إِنْ لَا تَهُبُّوْا اليَوْمَ فَا لإِسْلَامُ يَنْعَسُ بَلْ تَعِسْ
قَدْ زُلْزِلَتْ أَرْكَانُه حَتَّى تَقَعْقَعَتِ الأُسُسْ
فَالخَصْمُ يَجْهَدُ أَنْ يَرَى الإِسْلَامَ فِيْ بُؤسٍ بَئِسْ
هَلْ لَا ذَكَرْتُمْ مَا أَصَا بَ المُسْلِمِيْنَ بِأَنْدُلُسْ
سَلَبُوْكُمُ شَطْرَ البِلَا دِ وَمَا لَهَا مِنْ مُلْتَمِسْ
أَفَكُلَّ يَوْمٍ يَنْكِصُ الإِسْلَامُ حَتَّى يَنْدَرِسْ
هَذَا وَلَمَّا يَنْكَأِ الجُرْحُ القَطِيْعُ بِأَنْدُلُسْ
هَلْ يَذْهَبُ الحَقُّ النَّقِـ يَّ وَيَغْلِبُ الكِذْبُ الرَّجِسْ
هَلْ تَرْتَضُوْنَ بِذُلِّ دِيْنِـ كُمُ وَلَيْسَ بِمُلْتَبَسْ
وَاللهِ لَا نَرْضَى بِه مَا دَامَ فِيْنَا مِنْ نَفَسْ
فَالْيَوْمَ إِنْ لَمْ تَدْفَعُوْا فَلْيَأْتِيَنْ يَوْمٌ نَحِسْ
إِنِّيْ أَرَى فِتَنًا تَمُوْ جُ وَقَدْ ظَهَرْنَ لِمَنْ حَدَسْ

نَارًا تَأَجَّجُ فِيْ البِلَا دِ وَقَدْ تلهَّبَتِ الأُطُمْ
الخَصْمُ لَيْسَ بِمُؤْتَل حَتَى يَرَى الحَقَّ طَمِسْ
يَبْغُوْنَ قُسْطُنْطِيْنِيَـ ـةَ وَبَعْدَهَا أَرْضَ القُدُسْ
وَاللهُ يَأْبَى أَنْ يُدَنِّسَ قُدْسَه القَوْمُ النَجِسْ
قَدْ صِيْحَ فِيْ حُجُرَاتِهَا وَلَتَسْمَعَنَّ لَهَا الجَرَسْ
فَلَنَنْضِحَنْ أَوْ نُقْتَلَنْ عَنْ قُدْسِنَا القَوْمَ النَجِسْ
فَاحْمَوْا ذِمَارَ المِلَّةِ البَيْضَاءِ كَالأُسُدِ الشُكُسْ
وَاسْتَجْمِعُوْا عُدَدًا فَمَا تَجْرِيْ السَّفِيْنُ عَلَى اليُبُسْ
أَعْنِيْ المَرَاكِبَ وَالمَدَا فِعَ وَالكَتَائِبَ وَالحَرَسْ
وَتَعَلَّمُوْا حِيَلَ الحُرُوْ بِ لِتَغْلِبُوْا الخَصْمَ الشَّرِسْ
فَتَأَهَّبُوْا وَتَأَلَّبُوْا وَتَلَبَّبُوْا لِوَغًى ضَرِسْ
وَاسْتَنْصِرُوْا اللهَ المَهَيـ ـمِنَ فِيْ العِشِيِّ وَفِيْ الغَلَسْ
"وَلَيَنْصُرَنَّ اللهَ مَنْ يَنْصُرُهُ" فَلْيَحْتَمِسْ

فنجدها تضاهي بقصيدة الخنساء في الفصاحة وتتفوق عليها في الرسالة. وعلاوة على ذلك لا تقل عنها في السلاسة والموسيقى. وكذا يزيدها المقتبسات القرآنية حسنًا وجمالًا.

وسابعًا: موسيقى الشعر: وبجانب سلاسة شعر الفراهي وروعته وبلاغته نجده مليئًا بالموسيقى فلو أنّ الموسيقى جزء من الشعر ولكن شعر الفراهي أكثر تحليًا بهذه الصفة من أشعار الآخرين فيقول، مثلًا، عن الأشياء التي تعوذ عنها:

أَعُوْذُ بِاللهِ العَظِيْمِ الإِفْضَالِ الغَافِرِ الذَّنْبِ الشَّدِيْدِ الإِنْكَالِ

مِنْ هَمَزَاتِ النَّفْسِ ذَاتِ الإِيْغَالِ وَنَفَثَاتِ كُلِّ بَاغٍ مُحْتَالِ
وَسَطَوَاتِ كُلِّ طَاغٍ مُخْتَالِ وَفِتْنَةِ الجُبْنِ وَبَلْبَالِ البَالِ
وَفِتْنَةِ الحِرْصِ وَطُوْلِ الآمَالِ وَفِتْنَةِ الأَهْلِ وَمَالٍ مَيَّالِ
وَفِتْنَةِ الدُنْيَا كَرَقْرَاقِ الآلِ وَفِتْنَةِ العِلْمِ وَزَيْغِ الأَقْوَالِ
وَفِتْنَةِ الجَهْلِ وَسُوْءِ الأَعْمَالِ وَفِتْنَةِ الشَّيْطَانِ رَأسِ الضَّلَالِ
وَفِتْنَةِ الغَاوِيْ المَسِيْحِ الدَّجَّالِ وَكُلِّ طَاغُوْتٍ إمَامِ الجُهَّالِ

فكل بيت من هذه القصيدة مليئة بالموسقى الرنانة.

وله قصيدة رائعة عن أشراط الساعة اقرأها وتمتع بموسيقاها:

لَقَدْ لَجَّ بِالرَّوْمِ إشْطَاطُهَا فَتَعْدُوْ إلَى الهُلْكِ أشْوَاطُهَا
وَكَمْ أهْلَكَ البَغْيُ مِنْ أمَّةٍ وَخَيْرُ الأُمُوْرِ لَأَوْسَاطُهَا
فَإنْ صَعَّدَ الرومَ رَيْبُ الدَّهُوْ رِ لَنْ يَعْجِزَ اللهَ إهْبَاطُهَا
فَقَدْ خُطَّ فِيْ زُبُرِ الأَوَّلِيْـ ـنَ أنْ تُسْقِطَ الرَّوْمَ خُطَّاطُهَا
قُبَيْلَ القِيَامَةِ مِيْعَادُهَا فَقَدْ قَرُبَ اليَوْمَ إسْقَاطُهَا
فإنَّ القِيَامَةَ قَدْ أزْلَفَتْ إلَيْنَا فَقَدْ جَاءَ أشْرَاطُهَا
فَقَدْ أخَذَ النَّاسُ جُهَّالُهُمْ هُدَاةً فَيَخْبِطُ خَبَّاطُهَا
فَضَاعَ الأُمُوْرُ وَشَاعَ الفُجُوْرْ وَذَاعَ الخُمُوْرُ وَإفْرَاطُهَا
وَقَدْ أوْرِطَتْ أمَّةُ المُسْـ ـلِمِيْنَ فِيْ هُوَّةٍ، شَدَّ إيْرَاطُهَا
وَأوْقَعَهَا الدَّهْرُ فِيْ عُقْدَةٍ تَعَسَّرَ لِلقَوْمِ إنْشَاطُهَا

وَقَامَتْ لِتَعْزِيْزِ دِيْنِ الإِلَهْ مِنْ أَهْلِ سُوْدَانَ أَقْطَاطُهَا
هُتَافُهُمُ اللهُ قَوْلًا بِهِ جِمَاعُ الأُمُوْرِ وَحُوَّاطُهَا
وَعَادَ اليَهُوْدُ إِلى أَرْشَلِيْمْ أَحَاطَتْ بِصَيْهُوْنَ أَسْبَاطُهَا
وَمِنْ قَبْلُ كَانَتْ مُمَزَّقَةً فَقَدْ جُمِعَ اليَوْمَ شِمْطَاطُهَاظ
وَمَا أَكْثَرَ الرَّوْمَ فِيْ العَالَمِيْـ ـنَ طَبَّقَتِ الأَرْضَ ضُبَّاطُهَا
فَدَبَّتْ عَقَارِبُهَا فِيْ البِلَادِ وَصُبَّتْ عَلَى النَّاسِ أَسْوَاطُهَا
وَمِنْ جَوْرِهَا أُمَمٌ أَهْلِكَتْ وَشَرَّ مِنَ الجَوْرِ أَقْسَاطُهَا
تَدُوْسُ البِحَارَ كَأَنْ بُسِطَتْ عَلَى بثج البَحْرِ أَثْمَاطُهَا
يَطِيْرُ لَهَا مَرْكَبٌ فِيْ السَّمَاءِ وَأَوْدَعَتِ البَرْقَ أَخْيَاطُهَا
وَمَا بَيْنَ قُدْسٍ وَبَيْنَ البِحَا رِ قَدْ ضَرِبَ اليَوْمَ فُسْطَاطُهَا
وَضُمَّتْ بِيَاجُوْجَ مَاجُوْجُهَا تَحَزَّبَ لِلشَّرِّ أَرْهَاطُهَا
فَأَبْنَاءُ جَوْمَرَ فِيْ جَمْعِهَا وَنَسْلُ تَجَرْمَا وَأَخْلَاطُهَا
كَأَنِّيْ بِهَا كَآتِيْ الجِبَا لِ أَرْسَلَتِ السَّبْلُ إِفْرَاطُهَا
تَرَجْرَجَ فِيْ بَعْضِهَا بَعْضُهَا كَغَطْمَطَةِ البَحْرِ أَلْغَاطُهَا
فَإِنْ كَانَتِ الشَّامُ مَوْرِدَهَا فَقَدْ بَلَغَ السَّدّ فُرَّاطُهَا
فإِنْ بَسَطَتْ بَاعَهَا بَسْطَةً تَأَبَّطَتِ القُدْسَ آبَاطُهَا
إِذَا يُنْزِلِ اللهُ نارَ العَذَابْ عَلَيْهَا، فَتَّامَ إِسْخَاطُهَا؟

**آراء العلماء والناقدين عن شعر الفراهي العربي:** وعند الختام يناسبنا أن نذكر طرفًا من

أقوال وآراء العلماء والناقدين عن شعره العربي وهكذا نرى هل حقّ تحليلنا لشعره أم بطل وضلّ عن سواء النقد. يقول العلامة تقي الدين الهلالي:

"وللشيخ المذكور (حميد الدين) ديوان شعر سمعته عنه، بليغ مؤثر في استنهاض همم المسلمين وبثّ الحياة في قلوبهم وذكر عداء الأفرنج لهم وذكر حرب طرابلس والحرب الكبرى".[1]

ويقول عروج أحمد القادري:

"ميزة أدب الفراهي التي أثّرت في الكاتب هي أن نظريته الأدبية إسلامية بحتة فلم يضل عن الجادة التي أرشد إليها أدب القرآن العالم كله فلا نجده ثنويًا فيتبع القرآن في كل من نثره وشعره".[2]

ويقول الشيخ بدر الدين الإصلاحي:

"إنّ أستاذنا الإمام كان أديبًا بليغًا وشاعرًا حكيمًا --- ولكنه مع ذلك لم يقرض إلا قليلًا --- وهو إذ كان ماهرًا باللسان الذي أنزل فيه القرآن وبارعًا فيه، فيقرض على منوال الجاهليّين وينشد على سبك فصحائهم. --- إنّ شعره كان جيّد السبك، رائق الأسلوب، بديع الخيال، قويّ المنطق، يمتاز بقليل الحشو، إنك تجد في شعره ما لا تجد في غيره من جزالة اللفظ ورشاقة الأسلوب. --- قد جاء نظمه سهلًا خفيفًا، يطمع السامع أنْ يأتي بمثله لكنه إذا حاول، عجز، إنه قد أتى بقريضه للغة العربية دقة في التركيب، رقة في الأداء، جمالًا في الأسلوب، حسنًا في الخيال، رونقًا في البيان، وطلاوة في المعنى، وإنّ هذه كلها تدلّ على أنه كان من الشعراء المطبوعين المجيدين الذين لا يقرضون إلا بفيض قريحتهم ووحي فطرتهم".[3]

[1] مجلة "الضياء"، رجب 1352هـ، ص 208

[2] مجلة "زندكي" الشهرية (رامبور)، نوفمبر 1967م، ص 60

[3] ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، ص 7

ويقول الدكتور جلال سعيد الحفناوي:

"لقد شذّ الشاعر حميد الدين الفراهي عن القاعدة التي نشأ عليها الشعر السياسي العربي في المهجر الشرقي في شبه القارة الهندية حتى يمكن اعتباره الشاعر السياسي الوحيد في هذا الصدد، فالفراهي المتوفى 1349هـ/1930م لم ينظم كثيرًا من أغراض عصره كالمديح والرثاء والمواعظ، بل كان معظم شعره في السياسة ---".[1]

ويمضي قائلًا: "--- شاعرنا الفراهي أكثر اهتمامًا بالموضوع على حساب المعاني والقوافي".[2]

ويقول الشيخ ضياء الدين الإصلاحي:

"كان الإمام الفراهي عالمًا كبيرًا للقرآن فالشعر لم يكن، بالنسبة له، مما يفتخر به ولكنه كان مطبوعًا على الشعر فعندما تأثر بحدث ما فينطلق لسانه بالشعر. كان الفراهي يقرض الشعر في كل من الأردوية والفارسية والعربية --- معظم محتويات شعره العربي ما وقع في بلقان وطرابلس من أحداث الحرب المدمية، وهذا يدل على حميته الدينية. ومنه ما يشتمل على الحكمة والموعظة فقد نبّه الفراهي البشر عن تقلب الأيام وفناء الدنيا ---".[3]

ويقول فخر عالم بدر الدين الأعظمي في مقالته الرائعة عن شعر الفراهي:

"--- لم يقل الشعر إلا قليلًا نادرًا فنجد ديوانه صغيرًا ولكن هذا القدر يكفي أن يجعله في صفوف شعراء الدرجة الأولى من شعراء العربية (في الهند) --- كلامه مليئ بالحكمة والبلاغة --- ليس في شعره ما نجد في شعراء التغزل فلا نجد فلا نجده يهيم في كل واد من الكلام البذيء بل هو يأخذ بيد قارئه إلى حقائق الكون ---

[1] مجلة "ثقافة الهند"، 55/2/55

[2] المصدر نفسه، ص 61

[3] مجلة "معارف" الشهرية، ديسمبر 1989م، ص 480

شعره رسالة وليس بما يروّح البشر --- ويعكس على شعره شغفه بالقرآن".[1]

قد استعرض عديد من الباحثين العرب والهنود شعر الإمام الفراهي العربي وأبرزوا ميزاته وخصائصه بالتفصيل مع ذكر مكانته في الشعر العربي الهندي بالتفصيل نحو د. عرفات ظفر الأعظمي (العلامة عبد الحميد الفراهي ومساهمته في الشعر العربي، العدد الأول)، ود. أورنك زيب الأعظمي (الشعر العربي للإمام الفراهي، دراسة تحليلية، العدد الخامس) ود. عبد الله القتم (عبد الحميد الفراهي شاعرًا، العدد السادس)، ود. محمد خالد الرهاوي وعامر خليل الجراح (أسلوبيّة الاختيار في شعر الإمام عبد الحميد الفراهيّ، العدد السادس)، ود. شرف الدين الإصلاحي/الشيخ بدر جمال الإصلاحي (طابع القرآن الكريم على الشعر العربي للإمام عبد الحميد الفراهي، العدد السادس)، ود. محمد معتصم الأعظمي (العروض والقوافي وشعر الإمام الفراهي العربي نموذجًا، العدد السابع).

الطبعات: قام الشيخ بدر الدين الإصلاحي بجمع ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي وتدوينه وتقديمه ونشره من الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح- سرائ مير، أعظم كره، الهند أول مرة في 1387هـ/1967م ويشتمل على 36 صفحة،

وأعيد طبعه في الدار نفسها سنة 1409هـ/1989م.

وكذا نشر من دار سنابل للتحقيق والنشر، أسطنبول، تركيا، 2019م.

في النهاية يجدر بنا أن نشير إلى الاختلاف الذي يوجد عن اسم الديوان فنجد اسمه كما يلي:

ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي

ديوان الإمام الفراهي

ديوان أبي أحمد الأنصاري وغير ذلك. يقول أحد الباحثين عن كنيته:" أما كنيته

[1] مجلة طلبة مدرسة الإصلاح السنوية، 1990م، ص 143-154

"أبو أحمد" فكنّى بها نفسه في أول ديوانه العربي إذ سمّاه: "ديوان أبي أحمد الأنصاري"، ولم يكن من أبنائه من يسمى "أحمد"، فالظاهر أنه قصد بهذه الكنية التعمية على استخبارات الاستعمار البريطاني التي كانت تراقبه لأسباب من أكبرها قصائده العربية في وصف عداء الصليبيين للمسلمين وهجومهم على بلادهم، وتحريض المسلمين على جهادهم".

وكما يجدر بنا إلى أن نشير إلى أنّ د. أورنغ زيب الأعظمي قد قام بتحقيق ديوان الإمام الفراهي باسم "ديوان المعلّم عبد الحميد الفراهي المكنّى بأبي أحمد الأنصاري" وأضاف إليه قصيدتين: في التهنئة للعلامة شبلي النعماني وهي قصيدة أخرى، وفي الفخر بهدية أستاذه.

ونشره في عدد مجلة الهند الخاص بسيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي رحمه الله تعالى (الجزء الرابع) ولكن لمّا ير النور في صورة كتاب.

ISSN: 2321-7928

# التفصيل بعد الإجمال

- الإمام عبد الحميد الفراهي[1]

تحقيق وتقديم: د. أورنك زيب الأعظمي[2]

## (5) ومنها التفصيل بعد الإجمال[3]

التفصيل بعد الإجمال أسلوب عام في القرآن وكلام العرب، وفي ذلك فوائد:

فمنها: أنّ الحكيم يعلم أنّ الكلام المحكم يحتوي على أمور غامضة، فيفهم الغامض حيث لا تفصيل له.

ومنها: أنّ القاصر الفهم يفهم ما لم يفهمه أولًا. وهذا يشبه تكرار القول.

ومنها: أنّ المحكم خفيف، فيستحضر به معان جمة في لمحة. وفي التفصيل يمضي المتقدم فيأتي المتأخر، والمركب الممتزج أكثر لذة وأكبر حسنًا.

ومنها: تسهيل التعليم، فإنّ المحكم يحتوي الكليات فيسهل العلم والعمل من وجوه،

---

[1] الشخصية التي خصصنا بسيرتها وأعمالها هذا العدد.

[2] مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

[3] "أساليب القرآن" كتاب رائع للإمام عبد الحميد الفراهي، لم يخصّه الإمام بذكر أساليب القرآن بل أراد أنْ يبيّن فيه أساليب العربية بما فيها أساليب القرآن. ولذا سمّاه "كتاب الأساليب"، ولكنه لم يوفّق له سوى بيان بعض أساليب القرآن فسمّاه الجامع رحمه الله بـ"أساليب القرآن". قمت بتحقيقه حينما كنت طالبًا في مدرسة الإصلاح بأعظم كره، ولكن لم يتيسّر لي تنضيده على الكمبيوتر إذ شغلتني أعمال علمية عديدة ولكن بقيت ألحق خلال هذه المدة إضافات مفيدة بالكتاب وسترونها حينما يطبع إنْ شاء الله تعالى.

"التفصيل بعد الإجمال" مبحث من مباحث هذا الكتاب الرائع، شرع الإمام الفراهي في كتابته ولكنّ المنيّة عاجلته فلم يوفّق لإتمامه فبقي، كمباحثه الأخرى، غير تام. سبق أنْ نشرنا مبحث "الاعتراض" و"الزيادة" و"التلخيص"، والآن ننشر هذا المبحث.

لكونه بيّنًا عند العقل، وبديهي الحسن عند القلب وأخف ثقلًا عند القبول، فيسرعون إلى تحمله.

ومنها: أنه كالبذر والأصل، فيقدّم ويعدّهم للتفصيل كما قال تعالى:

"كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١"[1].

---

[1] سورة هود: 1 ومن أمثلة التفصيل بعد الإجمال:

1. قوله تعالى: "ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢" (سورة البقرة) ثم فصّل المتقين فقال: "ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥". (سورة البقرة)
2. وقوله تعالى: "وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٤٩". (سورة البقرة) فانظروا أولًا ذكر سوء العذاب ثم فصّله.
3. وقوله تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٧٩". (سورة البقرة) ففصّل القصاص وأوضحه.
4. وقوله تعالى: "يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣". (سورة آل عمران) فـ"وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي" تفصيل "ٱقۡنُتِي".
5. وقوله تعالى: "أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩". (سورة الرعد) ثم فصّل أولي الألباب فقال: "ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤". (سورة الرعد)
6. وقوله تعالى: "وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٣٤" (سورة الشعراء) فـ"أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٣٤" تفصيل لما أجمل في "أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ۝١٣٢".

7. **وقوله تعالى:** "أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾" (سورة الشعراء) فـ"فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾" تفصيل لما أجمل في "أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾".

8. **وقوله تعالى:** "وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾". (سورة طه) **ثم فصّل هذا الحدث فقال:** "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾". (سورة طه)

9. **وقوله تعالى:** "قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾". (سورة المؤمنون) **ثم فصّل المؤمنين فقال:** "ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾". (سورة المؤمنون)

10. **وقوله تعالى:** "أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾". (سورة الكهف) **ثم فصّل قصتهم فقال:** "نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ *وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ

رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾". (سورة الكهف)

11. وقول الطرماح يخاطب ابنه:

وإنْ كنتَ عندي أنت أحلى من الجنى، جنى النحل، أضحى واتنًا بين أجبُح

لسان العرب: جبح فـ"جنى النحل" توضيح للجنى.

12. وقول عمرو بن كلثوم:

ثلاثة أثلاث فأثمانُ خيلنا وأقواتنا وما نسوق إلى القتل

شرح ديوان الحماسة، 184/1 فـ"أثمانُ خيلنا وأقواتنا وما نسوق إلى القتل" تفصيل لـ"ثلاثة أثلاث".

13. وقول ودّاك بن ثميل المازني:

رويدَ بني شيبانَ بعضَ وعيدكم تلاقوا غدًا خيلي على سفوان

ثم شرحهم فقال:

تلاقوا جيادًا لا تحيد عن الوغى إذاما غدتْ في المأزق المتداني

عليها الكماة الغُرّ من آلِ مازنٍ ليوثُ طعانٍ عند كلّ طِعان

تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرُهم على ما جنتْ فيهم يدُ الحدثان

مقاديم وصّالون في الروع خطوهم بكلّ رقيق الشفرتين يمان

شرح ديوان الحماسة، 32/1-33

14. وقول بعض بني أسد:

يديتُ على ابن حسحاس بن وهبٍ بأسفلَ ذي الجِذاة يدَ الكريم

ثم فصّل فقال:

قصرتُ له من الحمّاء لمّا شهدتُ وغاب عن دار الحميم

أنبّئه بأنّ الجرح يشوي وأنّك فوق عجلزةٍ جموم

ولو أني أشاء لكنتُ منه مكان الفرقدين من النجوم

شرح ديوان الحماسة، 58/1-59

15. وقول المزرّد الشيباني:

وجاءوا جميعًا قومُهم ونساؤهم بما كلّ ذي رأي له متساحف

ديوانه، ص 53 فـ"قومُهم ونساؤهم بما كلّ ذي رأي له متساحف" تفصيل لـ"جميعًا".

16. وقول المزرّد كذلك:

تذكّرتُ إخوانَ الصفاء فلم يكن لديني إلا بالمدينة كاشف
بفتيانِ صدقٍ من قريشٍ كأنهم سيوفٌ جلاها صيقلٌ وهو جانف

ديوانه، ص 54 فـ"فتيان صدق من قريش" تفصيل لـ"إخوان الصفاء".

17. وقول أبي الغول الطهوي:

فدت نفسي وما ملكتْ يميني فوارسَ صدّقتْ فيهم ظنوني

ثم شرح الفوارس فقال:

فوارس لا يملّون المنايا إذا دارت رحى الحرب الزبون
ولا يجزون من حسن بسيء ولا يجزون من غِلَظٍ بلينِ
ولا تبلى بسالتهم وإنْ هم سلوا بالحرب حيناً بعد حين
هم منعوا حمى الوقبى بضرب يؤلف بين أشتات المنون

شرح ديوان الحماسة، 1/7-9

18. وقول خفاف بن ندبة:

أعبّاسَ إنّ الذي بيننا أبى أنْ يجاوزه أربعَ

ثم فصّل فقال:

علائقُ من حسبٍ داخلٍ مع الإلّ والنسب الأرفع
وأنّ ثنيّة رأسِ الهِجا ء بيني وبينك لا تطلع
وأبغضُ إليّ بإتيانها إذا أنا لم آتِها أدفع

شرح ديوان الحماسة، 1/250-251

19. وقول منظور بن سُحيم:

ولستُ بهاجٍ في القرى أهلَ منزل على زادهم أبكي وأبكي البواكيا

ثم فصّل فقال:

فإمّا كرام موسرون أتيتُهم فحسبي من ذو عندهم ما كفانيا
وإمّا كرام معسرون عذرتُهم وإمّا لئامٌ فادّكرتُ حيائيا
وعرضي أبقي ما ادّخرتُ ذخيرةً وبطني أطويه كطيّ ردائيا

شرح ديوان الحماسة، 2/23-24

20. وقول المقنّع الكندي:

وإنّ الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمّي لمختلفُ جدّا

وفي قوله تعالى "حَكِيمٍ خَبِيرٍ" دلالة على فوائد ....[1]

ثم فصّل فقال:

فإن أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم ... وإنْ هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيّعوا غيبي حفظتُ غيوبهم ... وإن هم هووا غيّي هويتُ لهم رشدا
وإن زجروا طيرًا بنحسٍ تمرّ بي ... زجرتُ لهم طيرًا تمرّ بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيسُ القوم من يحمل الحقدا

شرح ديوان الحماسة، 2/38-39

[1] تناول الإمام الفراهي هذا الأمر في أحد مباحث كتابه "أساليب القرآن" (القران والوصل)، ص 13-14

## المصادر والمراجع


1. القرآن الكريم
2. أساليب القرآن للمعلّم عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها، سرائ مير، أعظم كره، الهند، ط1، 1389هـ
3. ديوان المزرّد بن ضرار الغطفاني، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، مطبعة أسعد، بغداد، ط1، 1962م
4. شرح ديوان الحماسة، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م
5. لسان العرب لابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، د.ت.

ISSN: 2321-7928

# "فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا"

- د. أورنك زيب الأعظمي[1]

جاءت كلمة "سرب" ومنه "سارب" مرة في القرآن الكريم فقال الله تعالى:

"وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾". (سورة الكهف)

وقال تعالى في سورة الرعد:

"سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾".

فـ"سَارِبٌ" ضد "مُسْتَخْفٍ" كما يبدو، ولكن هذا ليس بصحيح فالفرق بين السارب والمستخفي ليس إلا أنّ المرء لا يمكن أنْ يرى الناس منتشرين هنا وهناك ولذا أورد القرآن الكريم هذه الكلمة فمن قال إنّ معناها ظاهر فلأجل أنّه يحدث في النهار لا لأنّ الظهور من لوازم معناها. فالسروب معناه انتشار الشيء من مكان أو مركز وعدم قراره في مكان محدّد. فقال الأخنس بن شهاب التغلبي:

أرى كلَّ قومٍ قاربوا قيدَ فحلهم ونحن خلعنا قيدَه فهو سارب[2]

فيريد الشاعر أنّ كلّ قوم لا يبعدون من الرئيس خوفًا من الأعداء، ونحن إذا فارقناه لا نخاف الأعداء لأنه لا يُجسَر علينا لعزّنا.

[1] مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

[2] شرح ديوان الحماسة، 488/1

ومن هنا يأتي لانتشار الدموع من العينين وجريان الدماء من العضو فقال سهم بن حنظلة الغَنَوي:

هاج لك الشوقُ من ريحانةَ الطربا إذ فارقتْك وأمستْ دارُها غَرَبا
ما زلتُ أحبس يومَ البين راحلتي حتى استمرَّ وأذرتْ دمعَها سرَبَا[1]

وقال ذو الرمة:

أ حادرةٌ دموعَك دارَ ميّ وهائجةٌ صبابتَك الرُسوم
نعم سرِبًا كما نَضَحَتْ فريَّ أو الخَلَقُ المُبينُ بها الهُزوم[2]

وقال الفرزدق:

فظلّ دمعي مما بان لي سرِبًا على الشباب إذا كفكفتُه انحدرا[3]

وقال أبو حيّة النميري:

جرى السيلُ فاستبكاني السيلُ إذ جرى وفاضتْ له من مقلتيّ سَرُوب[4]

ويعني هذا المعنى كثيّر عزة ويستخدم له كلمة "جريان":

إذا أمسيتُ بطنُ مجاحَ دوني وعَمقٌ دونَ عزّةَ فالبقيع
فليس بلائمي أحدٌ يُصلّي إذا أخذتْ مجاريَها الدموعُ[5]

أخذت الدموع مجاريها: أي جرتْ.

---

[1] قصائد نادرة من كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب، ص 57
[2] ديوانه، ص 262
[3] ديوانه، ص 204
[4] شعره، ص 29
[5] ديوانه، ص 472

وأمّا عن جريان الدماء فقال أبو حية النميري:

ولي جفونٌ جفاها النومُ فاتصلتْ أعجازُ دمعٍ بأعناقِ الدم السرِب[1]

ومنه لمعنى ترك الواحد مقرّه وذهابه بعيدًا فقال قيس بن الخطيم:

أنى سربتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ وتقرّبُ الأحلامُ غيرَ قريب[2]

والفاعل منه "سارب" كما قال صخر الغي:

فخاتتْ غزالًا جاثمًا بصرتْ به لدى سمراتٍ عند أدماءَ سارب[3]

ومنه الظرف "مسرب" لمعنى المسرح كما قال ساعدة بن جُوَيّة يصف وحش وجرة:

خرِقٌ غضيضُ الطرف أحورُ شادنٌ ذو حُوَّةٍ أنُفُ المسارب أخطب[4]

المسارب: المسارح التي يسرب فيها، أنف المسارب: مستأنف الربيع ولم يُرَع قبله، أخطب: أخضر في لونه.

وقال عبيد بن الأبرص:

دارٌ بها عِيْنُ النعاجِ رواتعًا تعدو مساربَها مع الأرْآم[5]

والسرب أيضًا لقطيع البقر والظباء التي تبدو للرجل كأنها تخرج من مكان خاص فقال امرؤ القيس:

فآنستُ سربًا من بعيدٍ كأنه رواهِبُ عيدٍ في مُلاءٍ مُهَدَّب[6]

---

[1] شعره، ص 63

[2] ديوانه، ص 25

[3] ديوان الهذليين، 56/2

[4] ديوان الهذليين، 168/1

[5] ديوانه، ص 113

[6] ديوانه، ص 35

وله كذلك:

فعنّ لنا سربٌ كأنّ نعاجه عذارى دوارٍ في ملاء مُذَيّل[1]

وقال عمر بن أبي ربيعة العامري:

مرّ بي سِربُ ظباءٍ رائحاتٍ من قباء
زُمرًا نحو المُصلّى مُسرِعاتٌ في خلاء
فتعرّضتُ وألقَيْـ تُ جلابيبَ الحياء[2]

ومن هنا لمعنى جماعة النساء فقال الراعي النميري:

وسربِ نساء لو رآهنّ راهبٌ له ظلّة في قلّة ظلّ زانيا
جوامعُ أنس في حياء وعفة يصدن الفتى والأشمط المتناهيا[3]

وقال القطامي:

وسِربُ عذارى بين حيّينِ موهنًا من الليل قد نازعتُهنّ ثيابا[4]

وقال الأخطل:

إذا جاء سربٌ من نساء يَعُدْنَها تَعَرَّيْنَ، إلا من جلابيبَ أو خُمر[5]

"يَعُدْنَها" أي يزرنها للتعزية.

فالسرب عندي انتشار الشيء من مكان محدّد بحيث يصعب تحديد مكان الانتشار أو

[1] ديوانه، ص 120
[2] ديوانه، ص 22
[3] شعره، ص 169
[4] ديوانه، ص 159
[5] ديوانه، ص 145

يصعب القبض عليه. فالحوت في قصة موسى وغلامه ذهب في الماء وغاب فيه، وعلى هذا فقال الفراهي إنّ السرب هو الجري السهل الخفي.[1] ومن قال إنّ السارب هو الظاهر فلم يصب فكل ما تقوم به من الأعمال سرًا كان أو جهرًا ظانًا أنّ الله لا يقدر على العلم به معلوم لدى الله تعالى فإنه يعلم ما تكنّه الصدور.

[1] تعليقات في تفسير القرآن الكريم، 1/386-387

## المصادر والمراجع


1. القرآن الكريم
2. تعليقات في تفسير القرآن الكريم للإمام عبد الحميد الفراهي، أعداد: د. عبيد الله الفراهي، الدائرة الحميدية، مدرسة الإصلاح، سرائمير، أعظم كره، ط1، 2010م
3. ديوان الأخطل، شرح: مهدي محمّد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1994م
4. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
5. ديوان القطامي، تحقيق: إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1960م
6. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، بيروت، 1996م
7. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
8. ديوان ذي الرمة، تقديم وشرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م
9. ديوان عبيد بن الأبرص، بشرح: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م
10. ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر. د.ت.
11. ديوان قيس بن الحطيم، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1962م

12. ديوان كُثَيِّر عَزّة، جمع وشرح: د. إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1971م
13. شرح ديوان الحماسة، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م
14. شعر أبي حيّة النميري، جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1975م
15. شعر أبي زيد الطائي، جمع وتحقيق: د. نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، 1967م
16. شعر الراعي النميري وأخباره، جمع وتقديم وتعليق: ناصر الحاني، دمشق، 1964م
17. قصائد نادرة من كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك البغدادي، د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط1، 1983م

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

مجلة الهند ـ ـ ـ

ISSN: 2321-7928

# بلاغة الحذف
# في قوله تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ)

- د. أورنك زيب الأعظمي[1]

جاء في سورة الكوثر: "فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝".

وينشأ السؤال هنا: هل حذف "لِرَبِّكَ" بعد "وَٱنْحَرْ" حذف التقابل أم حذف المقابلة أم شيء آخر؟

فنقول في الردّ على هذا السؤال:

إنّ للحذف أنواعًا عديدة ذكرتها في كتابي "الحذف في القرآن الكريم" ومنها حذف التقابل[2] وهو حذف جانبين من المتقابلين لما دلّ عليه مقابله كما قال زهير بن أبي سلمى:

أتى قومَه منه حباءً وكسوةً وربّ امرئ يسعى لآخر قاعد[3]

أي ربّ امرئ يسعى ولا يجد لامرئ قاعد يجد.

وقال النابغة الذبياني:

أتوعِد عبدًا لم يخنك أمانةً وتترك عبدًا ظالمًا، وهو ظالع[4]

أي أتوعد عبدًا (طائعًا) لم يخنك أمانة (وهو مخلص) وتترك عبدًا ظالمًا (خانك أمانة) وهو ظالع.

[1] مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

[2] وسمّاه البلاغيون الاحتباك والاكتفاء.

[3] ديوانه، ص 49

[4] ديوانه، ص 56

وقال أمية بن أبي الصلت:

فمنهمُ فرِحٌ راضٍ بمبعثه وآخرون عصَوا، مأواهم السَقَر[1]

أي فمنهم مطيع، فرح في الجنة، راض بمبعثه، ومنهم عاصٍ في النار متحسّر على بعثته.

وقال عدي بن الرقاع العاملي:

والمرءُ يورث مجدَه أبناءَه ويموتُ آخرُ وهو في الأحياء[2]

أي والمرء يموت جوادًا فيورث أبناءه مجده وهو من الأحياء بينما الآخر يموت بخيلًا فلا يورثه أبناءه وهو من الأموات.

وقال تعالى: "قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾". (سورة آل عمران)

فحذفت "مؤمنة" من الجانب الأول ودلتّ عليها "كافرة" من الجانب المقابل كما حذفت "تقاتل في سبيل الطاغوت" مما دلّت عليه "تقاتل في سبيل الله.

وقال تعالى أيضًا: "مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾". (سورة النساء)

أي مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا (فعند الله ثواب الدنيا، ومن كان يريد ثواب الآخرة) فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ.

وكذا قال: "هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

[1] ديوانه، ص 388

[2] ديوانه، ص 55

لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾" (سورة يونس)

فحذف "مظلمًا" من الجزء الأول مما دلّ عليه "مبصرًا" كما حذف "لتبتغوا فيه" مما دلّ عليه "لتسكنوا فيه".

وهكذا قال تعالى:

"وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾" (سورة الرعد)

فالجملة هكذا "ويسبح الرعد بحمده من خيفته وتسبّح الملائكة بحمده من خيفته".[1]

ومنها حذف المقابلة وهو حذف شيء في جانب لما دلّ عليه مقابله فقال امرؤ القيس:

وليس بذي رمحٍ فيطعنني به وليس بذي سيفٍ وليس بنبّال[2]

أي فيضربني به، وليس بذي نبل.

وقال أوس بن حجر:

أطعنا ربَّنا وعصاه قومٌ فذُقنا طعمَ طاعتنا وذاقوا[3]

أي وذاقوا طعمَ عصيانهم.

وقال عنترة بن شداد العبسي:

دعُوني في القتال أمتْ عزيزًا فموت العزّ خير من حياة[4]

أي من حياة الذل.

[1] وقد فكّ هذا الحذف الإمام الفراهي في كتابه "جمهرة البلاغة"، ص 224

[2] ديوانه، ص 125

[3] ديوانه، ص 79

[4] شرح ديوانه، ص 39

وقالت الخنساء:

من أَسدِ بيشةَ يحمي الحِلَّ ذي لبدٍ  من أهله الحاضر الأدنين والبادي[1]

أي والبادي الأجانب.

وقالت أمّ الضحاك المحاربية:

وما الحبّ إلا سمعُ أذنٍ ونظرةٌ  وحنّةُ قلبٍ عن حديث وعن ذكر[2]

أي نظرة عين.

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات:

طلّابُ وترٍ كأنّ صورتَه  هلالُ بدرٍ أضاء أو قبس[3]

"أو قبس" أي: أو قبس ملتهب.

وقال الفرزدق:

ابكِ على الحجّاج عَولَكَ ما دجا  ليلٌ بظلمته ولاح نهارُ[4]

أي لاح نهارٌ بضوئه.

وقال الفرزدق أيضًا:

إذاما اجتمعنا حكّموا في رقابهم  أللعتق أدنى أم همُ للمَقاسم[5]

أي أهم أدنى للعتق أم هم أدنى للمقاسم فحذف المتقابلين.

[1] ديوانها، ص 34

[2] شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 65

[3] ديوانه، ص 126

[4] ديوانه، ص 258

[5] ديوانه، ص 605

وقال تعالى: "لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾" (سورة الحشر)

أي وأصحاب النار هم الخاسرون.

وقال: "أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾" (سورة الملك)

أي مكبًّا على وجهه على الطريق الجائر.

وقال: "لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾" (سورة آل عمران)

أي أمة نائمة لا يتلون آيات الله آناء الليل ولا هم يسجدون.

وقال: "أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾" (سورة الزمر)

أي ومن هو نائم طولَ الليل.

وأمثلة أخرى كثيرة سردناها في كتابنا.

ومن حذف المقابلة أيضًا حذف ما يجب حذفه مخافة المقابل أنْ يتكرّر فقال النابغة الذبياني:

كتمتُك ليلًا بالجمومينِ ساهراً وهمّينِ: همًّا مستكيناً وظاهرا[1]

"وظاهرا" أي وهمًّا ظاهراً.

[1] ديوانه، ص 45

وقال عمرو بن قميئة:

كأني وقد جاوزتُ تسعين حجةً خلعتُ بها يومًا عذارَ لجامي

على الراحتين مرة وعلى العصا أنوء ثلاثًا بعدهنّ قيامي[1]

"وعلى العصا" أي: وعلى العصا مرةً.

وقال سحيم بني الحسحاس:

إنْ تقتلوني تقتلوني وقد جرى لها عَرَقٌ فوق الفراش وماءُ[2]

أي وماء فوق الفراش.

وقال أيضًا:

فلقد تحدَّر من جبينِ فتاتكم عَرَقٌ على ظهر الفراش وطيب[3]

أي طيب على ظهر الفراش.

وقال الكميت الأسدي:

خريعٌ دواديَّ في مَلعب تأزّر طورًا وتلقى الإزارا[4]

"وتلقى الإزارا" أي: وطورًا تلقى الإزارا.

وقال بعض بني قيس:

إذاما قلوبُ القوم طارتْ مخافة من الموت أرسوا بالنفوس المواجد[5]

[1] ديوانه، ص 44-45

[2] ديوانه، ص 60

[3] ديوانه، ص 60

[4] ديوانه، ص 150

[5] شرح ديوان الحماسة، 191/1

"أرسوا" أي: أرسوا القلوب (المذكورة في صدر البيت.)

وقال أبو حبال البراء بن ربعي الفقعسي:

ثمانيةٌ كانوا ذؤابةَ قومهم بهم كنت أعطي ما أشاء وأمنع[1]

"وأمنع" أي: أمنع ما أشاء.

وقال الفرزدق:

وإني من قومٍ بهم يُتّقى العِدا، ورأبُ الثّأى، والجانبُ المتخوّفُ[2]

"ورأبُ الثّأى" أي ورأب الثّاى بهم.

وقال يزيد بن مفرّغ الحميري:

لا، وصومي لربنا وزكاتي وصلاتي أدعو بها وابتهالي[3]

"وزكاتي" أي: وزكاتي لربنا.

ومنه قول الفرزدق التالي:

ولم يعبدْ يغوثَ ولم يشاهِدْ و لِحميرَ ما تدين ولا نِزار[4]

"ولا نزار" أي: ولا ما دانتْ نِزار. وحمير دانت اليهودية كما دانت نزار النصرانية.

وقال الشاعر:

ما لقي الموءود من ظلمِ أمّه، كما لقيتْ ذهلٌ جميعًا وعامرُ[5]

[1] شرح ديوان الحماسة، 547/1

[2] لسان العرب: رأب

[3] ديوانه، ص 186

[4] ديوانه، ص 185

[5] لسان العرب: وأد

أي وعامرٌ جميعًا.

وقال الشاعر:

لحى الله قومًا ملّكوا خيطَ باطلٍ  على الناس، يُعطي من يشاء ويمنع[1]

أي ويمنع من يشاء.

فبدا من هذه الشواهد التي سردتها وذكرت المحذوف فيها أنّ هذا الحذف من نوع حذف المقابلة إلا أنّ الحذف هنا ضروريّ وإلا فيتهم بالتكرار غير الضروري.

ومثله كمثل الحذف المكرّر في قوله تعالى: "فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ٦٢". (سورة النجم) أي "فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ لِلَّهِ".

وكذا في قوله تعالى: "وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ١٥". (سورة الرعد) أي: "وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَ يَسۡجُدُ ظِلَٰلُهُم".

وقوله في نفس السورة: "مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥". (سورة الرعد) أي: "أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ دَآئِمٞ".

وأما اللام في "فَصَلِّ لِرَبِّكَ" فللاختصاص كما قال تأبّط شرًّا:

لكم خصلة: إما فداء ومنة  وإما دم، والقتل بالمرء أجدر[2]

أي: هذه الخصائل الثلاث خاصّة بكم دون غيركم.

[1] لسان العرب: خيط

[2] ديوانه، ص 89

وقال عبدة بن الطبيب:

ونصيحة في الصدر صادرة لكم ما دمتُ أبصِرُ في الرجال وأسمع[1]

أي: نصيحة صادرة خاصةً لكم.

وقال أحد الخوارج:

واعملْ لربّك واسأله مثوبتَه فإنّ تقواه، فاعلمْ، أفضلُ العمل[2]

أي: واعمل خاصةً لربّك.

وقال الفرزدق:

وما ذرفتْ عيناكَ إلا لدمنة بحُزى محتْها الريحُ بعدك والقطْر[3]

أي: ذرفتْ عينك لدمنة فحسب.

[1] ديوان المفضليات، ص 146

[2] شعر الخوارج، ص 83

[3] ديوانه، ص 223

## المصادر والمراجع


1. القرآن الكريم
2. جمهرة البلاغة للإمام عبد الحميد الفراهي، تحقيق: د. محمد خالد الرهاوي ود. عامر خليل الجرّاح، دار سنابل للتحقيق والطباعة والنشر، تركيا، ط1، 2019م
3. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، 2004م
4. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
5. ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م
6. ديوان المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط6
7. ديوان النابغة الذبياني بشرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م
8. ديوان امرئ القيس، ضبطه وصحّحه: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
9. ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبد الحميد السطلي، دمشق، 1974م، د.ت.
10. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م
11. ديوان تأبط شرًا وأخباره، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1984م
12. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التب

العلمية، بيروت، ط: 1، 1988م
13. ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، تحقيق: الأستاذ عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاخرة، 1950م
14. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د.ت.
15. ديوان عدي بن الرقاع العاملي، جمع وشرح ودراسة: د. حسن محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990م
16. ديوان عمرو بن قَمِيْئَة، تحقيق وشرح وتعليق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، 1965م
17. ديوان يزيد بن مفرِّغ الحميري، جمع وتحقيق: د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، ط2، 1982م، سوريا
18. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، جمع وترتيب: بشير يموت، المطبعة الوطنية، ط1، 1934م
19. شرح ديوان الحماسة، كتب حواشيه: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م
20. شرح ديوان عنترة بن شداد العبسي، للعلامة التبريزي، دار الكتاب العربي، ط1، 1992م
21. شعر الخوارج، جمع وتحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1974م
22. لسان العرب لابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، د.ت.

ISSN No. 2321-7928 13: 04

# Majalla-tul-Hind

(Arabic Quarterly Peer-Reviewed Journal)

(Vol.: 13 Issue: 04)

*Editor*

**Dr. Aurang Zeb Azmi**

*Associate Editor*

**Dr. Heifa Shakri**

*Assistant Editor*

**Dr. Mohd Moatasim Azmi**

Maulana Azad Ideal Educational Trust

Bolpur, West Bengal, India